

مَكْتَبَةُ الرَّجْعِ الدِّينِيِّ يَا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَاجُّ
السَّيِّدُ مُحَمَّدُ تَقِيُّ الْمَدَرِّسِيِّ

السلامح الإسلامى

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

قِوَادِمُ فِي تَارِيخِ الْحُرُوكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلْفَتْرَةِ مَكَايِنُ عَكَايِي (٦١ - ٢٥٠) مِنْ الرِّجَابِ وَالشَّوْبَةِ



قَوْلُ الْحَقِّ وَالْحَقِّ

التَّحْقِيقُ الْإِسْلَامِيُّ
دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

سَمَاحَةُ الْمَرْجِعِ الدِّينِيِّ آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى الْحَاجُّ
السَّيِّدُ مُحَمَّدُ تَقِي الْمُدَرِّسِيُّ

التَّائِيخُ الْإِسْلَامِيُّ

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

قِوَاءَةٌ فِي تَأْيِخِ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلْفَتْرَةِ مَا بَيْنَ عَامَيْ (٦١-٢٥٠) مِنَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ

الطبعة الثامنة

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

طبعة مزدانة بالتنقيح والتحقيق والإضافة

تعريف الكتاب

* الكتاب: التاريخ الإسلامي .. دروس وعبر

* المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

* الطبعة: الثامنة ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م. (٦١٦ صفحة).

* الناشر: مركز العصر للثقافة والنشر - بيروت.



مركز العصر للثقافة والنشر
alasrr@gmail.com

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

E-mail: almahajja@terra.net.lb - ٠١/٥٥٢٨٤٧

www.daralmahajja.com info@daralmahajja.com



دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

١٩ | مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين، وعلى أصحابه الصادقين.

في عام (١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م) عندما رأى كتاب (التاريخ الإسلامي دروس وعبر) النور لأول مرة، ونزل إلى الأسواق في متناول الجميع، لاقى استقبالا منقطع النظير من قبل مختلف الأوساط الحوزوية، والجامعية، وجماهير الناس، بحيث أعيد طبعه عدة مرات متتالية في فترة قصيرة.

ولعل القارئ الكريم يلمس بوضوح جملة خصائص لهذا الكتاب، منها:

١- إنه على عكس ما يتصوره البعض من أن التاريخ ليس إلا مجموعة قصص وحكايات لا تمت للحياة بصلة، وأن التاريخ لا دور له في تغيير مسار الأمم، على العكس من ذلك جاء هذا الكتاب ليثبت أن التاريخ الإسلامي كان حافلا بالنهضات والحركات التغييرية، وأنه نافذة على المستقبل، وهو كفيل بتوضيح الرؤية وإعطاء البصيرة لانتخاب المسير.. خصوصاً إذا ما تابعنا أحداثه المهمة في الإصلاح والتغيير.

٢- الكتاب يبحث الفترة التاريخية الهامة بين عامي (٦١-٢٥٤) للهجرة

(أي بعد واقعة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام إلى بداية عصر الغيبة). وبالرغم من أن هذه الفترة كانت مصيرية بالنسبة للرسالة الإسلامية، وكانت ذات تأثير كبير وأساسي في حركة الأمة، إلا أن البعض فسّر نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وما انتهت إليه من نهاية دموية مفعجة، بأنها كانت بداية انكماش النهضة الإسلامية وخمود الأمة، ولكن هذا الكتاب يُثبت عكس ذلك تمامًا، حيث يرى أن النهضة الحسينية كانت بداية انطلاق ثورات ونهضات رسالية كثيرة في التاريخ أدّت إلى سقوط الأمويين ومن ثم العباسيين، كما أدّت دورًا كبيرًا في تثبيت حركة الرسالة في الأمة، والحفاظ على جوهر الدين ومضمونه الرسالي والاجتماعي.

٣- لأن هذا الكتاب هو نتاج أحد كبار العلماء المعاصرين، الذي يتصدّى للمرجعية الدينية والعمل الرسالي من جهة، ويتميّز برؤية قرآنية ثاقبة وعميقة لكل أمور الدين والحياة ومنها التاريخ من جهة ثانية، فإنّ الكتاب يحظى بقيمة علمية كبيرة، ويحتوي على رؤى وبصائر تساعدنا على الانطلاق من تاريخنا المشرق لبناء حياتنا المعاصرة ومستقبلنا على الأسس الرسالية التي تنشد التقدّم للأمة في الحياة الدنيا، والفلاح والسعادة في الحياة الأخرى.

٤- رغم وجود الكثير من الاتجاهات -ليس في التاريخ الغابر فقط، بل وفي عصرنا الراهن أيضًا- تعمل على تمزيق شمل أتباع أهل البيت عليهم السلام وتصنيفهم شيعة متفرقة، إلا أن هذا الكتاب يثبت وحدة أتباع أهل البيت وارتباطهم المباشر أو غير المباشر بأئمة الهدى عليهم السلام، كما يعيد الاعتبار لقيادات النهضات الرسالية المختلفة عبر التاريخ، رغم أن أتباع البعض انحرفوا -فيما بعد- إلى يمين الجادة أو يسارها.

٥- وأخيرًا: التاريخ هو مدرسة تتعلم فيها الأمم كيف تسلك طريقها المستقبلي بأفضل النتائج وأقل الخسران.

والأمة التي لا تقرأ تاريخها، ولا تأخذ الدروس والعبر منه، سواء السلبية منها أو الإيجابية، لا تستطيع أن تشق طريقها في الحياة بشكل سليم ودون عثرات قاتلة.

وتاريخ أمتنا، وبالذات في مجال العطاء الحركي، والجهاد من أجل التغيير نحو الأفضل، تاريخ حافل بالتجارب، وغنيّ بالدروس والعبر. ونحن إذ نعيش اليوم -وفي كل موقع من ديارنا الإسلامية- تحديات حضارية صارخة، علينا أن نُلقي نظرة إلى تاريخ أمتنا في مواجهة التحديات، وفي سعيها الدؤوب لبناء حياة إسلامية أفضل.

هذه الطبعة

أما هذا الطبعة التي تعد الطبعة الثامنة للكتاب فإنها تتميز بالتالي:

١- تقويم وتنقيح النص الذي كان في الأصل مكتوبًا من محاضرات ألقاها سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (حفظه الله).

٢- توثيق الشخصيات والحوادث التاريخية التي أُشير إليها في نص الكتاب، وذلك عبر الهوامش التوضيحية المفصلة التي أضيفت إلى الكتاب، وذلك بجهد مشكور بذله الإخوة الكرام في ممثلية المرجعية في مدينة القطيف شرق الجزيرة العربية.

وبكلمة: الكتاب فريد في موضوعه من حيث الرؤية الرسالية التي تجعل التاريخ مادة حيوية لبناء الحاضر والمستقبل. لذا يستحق الاهتمام به من خلال دراسته والتأمل فيه بدقة متناهية، آمليْن أن ينتفع به كل من يستشرف مستقبلًا زاهرًا لأُمته.

جعله الله تعالى ذخراً للسماحة المؤلف (دام ظله)، ولكل من عمل على إعدادهِ للطبع سابقاً، وتجديده لاحقاً بهذه الحلة الرائعة، وإيصاله إلى أكبر قطاع من أبناء الأمة، إنه مجيب الدعاء.

مركز العصر للثقافة والنشر

٦/ رجب الأصب / ١٤٣٥ هـ

١٩ مُقَدِّمَةُ الطَّبَعَةِ الْمُحَقَّقَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

إذا كانت الحياة البشرية تجري وفق سنن قدّرها ربها، تتجلى في الأنظمة التي تسود حركة الأمم، وبها تتقدم مجتمعات وتتلاشى أخرى، فإن التاريخ هو الكتاب المفتوح الذي يعكس تلك السنن بوضوح. ولقد أوتي الإنسان فرصة قراءته والانتفاع به في حياته. وهكذا قال ربنا سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٢). وقال عز وجل: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٣).

ولكن لماذا نجد الكثير من البشر يتنكبون عن الصراط المستقيم بالرغم من ذلك الكم الهائل من العبر التاريخية؟

إنما لأنّ هناك خللاً في الاعتبار بالتاريخ وللأسباب التالية:

أولاً: لعدم وعيهم بأن ما مضى من التاريخ مصباح ما يأتي، وزعمهم بأنهم

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣.

(٣) سورة الحشر، آية: ٢.

أمة وأسلافهم أمم أخرى.

كلّا، أنتم من ذرية أولئك، وبينهم وبينكم ألف صلة وصلة من عوامل وراثية وثقافية وتربوية وبيئية وغيرها.

ثانياً: التشويه المتعمد الذي قد يتعرض له التاريخ في كل أمة بفعل خيانة أصحاب القلم أو جهلهم، وبالتالي كتابة التاريخ بصورة مشوهة وربما مقلوبة.

ومع كل ذلك فإنّ في قصص الأولين حقائق لا يمكن تجاهلها، وهي كافية للأجيال الصاعدة، وهي بذلك حجة الله سبحانه البالغة على خلقه، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(١).

إنّ ما في كوكبنا اليوم من آثار الأولين، التي تحفل ببعضها المتاحف المنتشرة في مختلف البلاد، إنّها تنطق بصوت عالٍ وبكلمات بليغة بما في التاريخ من عبر لا تنتهي لكل من أراد اعتباراً.

ونحن كمسلمين، سمت حضارتنا ردحاً طويلاً من الزمن، وامتدت على مساحة واسعة من الأرض، وخلفت آثاراً عظيمة سُجِّلت في ألوف الكتب، وتناقلتها الأجيال بطرق شتى، وأهم من كل ذلك حفظتها أسفار مقدسة، فهل بقيت لدينا حجة تُبرّر تجاهل ما في تاريخنا من عبر بالغة الوضوح؟

كلّا، ولكن هذا التاريخ - كما تاريخ سائر الأمم - قد حُرّف، وقد شُوّهت صور منها سواء في عصور ازدهار الحضارة، وذلك بسبب الأقلام المأجورة، لأنّ معظم ما كُتِب عنه إنّما كان بأمر من السلاطين أو لا أقلّ بأيدي من كان يخاف على نفسه منهم.

أما عندما غابت شمس حضارتنا، بعد الغزو التتري وسقوط بغداد، وبسبب الهزيمة التي لحقت بنفوس الكتّاب، فقد حُرّف التاريخ وصيغ صياغة مبتورة بسبب اندثار الكثير من معالم الحضارة وجهل الناس بأبعادها، وبسبب روح الهزيمة عند الكتّاب.

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٩.

وبالرغم من أن آثار الهزيمة الحضارية لا تزال تُعشّش في زوايا النفوس، إلا أن التحولات العلمية في عالمنا اليوم، فيما يتّصل بالتواصل الحضاري، وتزايد وسائل انتشار الثقافة، يسمح لنا اليوم بدراسة مجددة لتاريخ حضارتنا، وتصفية الغث منه عن السمين، والنفاذ إلى دروسه وعبره وزخم أمجاده، وحماسة السلف الصالح وتضحياته، وما هذا الكتاب الذي بين أيدينا إلا محاولة متواضعة في هذا الإطار. لأنه يتناول تاريخ الفترة التي تلت شهادة الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام، والتي فُسّرت من قبل المنهزمين بأنها كانت فترة انحسار النهضة الإسلامية، بينما العكس تمامًا هو الصحيح، إذ إن دماء السبط الشهيد عليه السلام قد رسمت خارطة طريق للحركة الرسالية التي لولاها لطمست معالم الدين، وهدمت أركان الأمة، ولو استمرت سلطة الأمويين بلا معارض لفترة أطول لانهارت أسس الدين الحنيف.

ولا ريب في أن نهضة عاشوراء كانت أعظم حركة تاريخية، حيث أغنت الأمة الإسلامية بالروح الإيمانية، وأصبحت مشعل الدين الذي لا يخبو ضوؤه أبد الآبدين. وأملنا من إعادة طباعة هذا الكتاب، والتي تتم بعد بعض التحقيق فيه، أن يُصحّح نظرة الأجيال الواعدة من أبنائنا إلى تاريخهم الناهض، ليكونوا أشبال أولئك الأسود من أسلافهم الصالحين الذين لم يرضوا بالظلم ولا استسلموا للهزيمة، وجاهدوا في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمة الدين بإذن الله.

كما نأمل من العلماء والخطباء والمؤمنين والإعلاميين أن يجعلوا الاعتبار بالتاريخ أهم أهدافهم لكي تعود الحضارة الإسلامية بإذن الله على أيديهم، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١).

والله المستعان

محمد تقي المدرسي

كربلاء المقدسة

٢٨ / ربيع الآخر / ١٤٣٥ هـ.

١٩ مُقَدِّمَةُ الطَّبَعَةِ الْخَامِسَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

سُنن الرب في الآخرين هي سُننه في الأولين؛ فالأرض هي الأرض، والشمس، والقمر، والجبال، هي ذاتها منذ نشأة آدم وحتى اليوم. ونحن البشر لم نتغير، فهي هي غرائزنا وعقولنا، وتطلُّعاتنا وحاجاتنا.. ربما اختلفت المناهج، ولكن الأهداف لم تتغير. وهكذا كانت تجارب الآخرين هي ضياء دربنا السالك إلى المستقبل.

أرأيت كيف تنفَعك تجاربك من سنة لأخرى، أليست تضيء دربك، وتُبَصِّرُك كيف تعمل في المستقبل؟ فلو أنك اعتمدت رجلاً خائناً كاذباً في تجارتك أو أي شأن من شؤونك، فأوقعك في مهلكة، أو لست يزداد حذرَكَ عند اعتماد أي شخص آخر حتى لا يهلكك مثله؟

كذلك تجارب الآخرين، تنفعنا في مستقبل حياتنا؛ وأمة تعي تجاربها هي أمة حكيمة، وأي إنسان يستوعب دروس التاريخ يعرف كيف يتجاوز العقبات، وكيف يسلك درب التسامي.

والكتاب الذي بين يديك يتحدث عن جانب هامٍّ من تاريخ أمتنا؛ جانب

الصراع من أجل الحرية السياسية، والدينية.

إن أكثر المؤرخين عبر تاريخنا لم يُسجّلوا ملاحم أبطال الحرية في تاريخنا، خوفاً من الطغاة، أو خنوعاً للثقافة التبريرية التي سادت الطبقة المفكرة.

ومعرفة هذا الجانب من التاريخ تجعلنا أشد صلابه، وأقوم تفكيراً في صراعنا اليوم، من أجل الأهداف ذاتها التي جاهد من أجلها آباؤنا الأبطال.

إن أغلب الناس يعيشون الحالة السلبية من صراع العاملين والمجاهدين من أجل أهداف الأمة، ويعيشون السلبية من قضاياهم الاستراتيجية.

ومن أسباب هذه السلبية جهلهم بتاريخهم وملاحم آبائهم، وتشبّعهم بالأفكار التبريرية التي بثّها الطغاة والجبناء من أتباعهم في روع الأمة.

وهذا الكتاب مساهمة في سبيل تبصير الأمة، بتاريخها المشرق.

وكان الكتاب سلسلة أحاديث أُلقيت بمناسبة شهر الله المبارك، في إحدى السنين الماضية، ثم أعيدت صياغتها لتصلح للنشر؛ واليوم حيث قام الأخ الأستاذ حيدر الرضوي بمطالعة جديدة للكتاب، يقدم للإخوة بصيغة أفضل، غير أن اهتمامي بسائر الشؤون الفكرية منعني من مراجعة الكتاب. ولكن أعتقد أبداً أن الكتاب الكامل لن يُطبع، لأنه أساساً لا كتاب بعد مصادر الوحي يمكن أن يُصبح كاملاً؛ إنما على القارئ الكريم أن يستفيد من مواهبه في إتمام نواقص كل كتاب، وأن يقرأ جيداً ويختار ما يريد مما يقرأ، ولا يكون إمعة يُصدّق بكل ما يُقال أو يُكتب له، وقد وصف الله عباده بالقول: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

محمد تقي المدرسي

طهران

٢٣ / محرم الحرام / ١٤١٨ هـ



التَّائِيحُ الْإِسْلَامِيّ.. دُرُوسٌ وَعِبَر

البَابُ الْأَوَّلُ: مَدْخَلٌ لِدِرَاسَةِ التَّائِيحِ الرَّسَالِيِّ

لِمَاذَا نَدْرُسُ التَّائِيحَ؟
كَيْفَ يَجِبُ أَنْ نَدْرُسَ التَّائِيحَ؟
نُشُوءُ الْحَرَكَةِ الرَّسَالِيَّةِ
الْحَرَكَةُ الرَّسَالِيَّةُ امْتِدَادُ الْحَرَكَةِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ



لماذا ندرس التاريخ؟

هنالك حيثيات كثيرة تقف خلف دراسة التاريخ، لوجود رابط حيوي بين التجربة على مستوى الواقع والتجربة التي مضت، بحيث يكون الواقع الحاضر هو رهينة الرؤية التاريخية، فتكامل المسيرة واستمراريتها على المستوى الراهن، وليد علاقة جذرية بين الحاضر ونظراته إلى الماضي، وضمن هذا التصور يمكننا رصد مجموعة من الحيثيات لها علاقة مباشرة بحياتنا نحن المسلمين على مستوى التفكير والفهم، وعلى مستوى إنضاج التجربة بخلق مسيرة تكاملية يكتسب التاريخ فيها حيوية فاعلة بما يحتويه من تراكم في الخبرة البشرية. ونحن هنا نختار بعض الحيثيات لإنضاج الفكرة ضمن العناوين التالية:

فهم التاريخ ضرورة لفهم الشريعة

إذا نظرنا -نحن المسلمين- إلى أنواع العلاقة التي تربطنا بالتاريخ، نجدها تتجلى في أكثر من رابط، فكل التعاليم التي أمرنا بها الدين تاريخية على مستوى التنزيل والتكليف، كما أنها خضعت لتجربة قد مضت، مما يجعل علاقتنا وثيقة بالتاريخ، فعلى مستوى الحكم الشرعي نرتبط بالتاريخ ونعتمد على الأحكام الشرعية التي نزلت ودوّنت قبل ألف وبضع مئات من السنين، فلا بد أن نبحت عن تلك الأحكام في بطون الكتب، وعندما نفعل ذلك فإننا كثيراً ما نجد روايات مختلفة اختلافاً كبيراً في الأحكام، ولذلك يتحتم أن نعرف بشكل دقيق الظروف

التاريخية التي جاءت تلك الأحكام فيها.

ومن دون معرفة تلك الظروف المتغيرة، لا يمكننا أن نعرف كيف اختلفت الأحكام والتوجيهات التي صدرت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بالرغم من أنهم جميعهم كانوا على نهج واحد، هو نهج جدهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

إن النظرة الأولى للتاريخ تُظهر أدواراً مختلفة للأئمة، فالإمام الحسن عليه السلام كان مُصالحاً^(١)، والإمام الحسين كان ثائراً^(٢)، والإمام زين العابدين اتخذ خط الدعاء، والإمام محمد الباقر عليه السلام صاحب علم وفقه ومعارف توحيدية^(٣)،

(١) لقد صالح الإمام الحسن عليه السلام [٣-٥٠هـ]، معاوية، طمعاً في حقن دماء المسلمين، إذ لو فتح باب الحرب مع معاوية لضحّي بهم وشيعته، وهو القائل عليه السلام: «وَلَوْ لَا مَا أَتَيْتُ لَمَا تَرَكْتُ مِنْ شِيعَتِنَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدًا إِلَّا قُتِلَ...». وقوله عليه السلام: «ما أردتُ بمصالحتي مُعاوية إلا أن أدفع عنكم القتل». ولو أن الإمام عليه السلام خاض حرباً ضد معاوية، فلا شك ولا ريب فإن المتخاذلين كانوا يُسلمونه كما أسلموا من قبل أبيه وخانوه، ولذلك قال الإمام عليه السلام: «وَاللَّهِ لَوْ قَاتَلْتُ مُعَاوِيَةَ لَأَخَذُوا بِعُنُقِي حَتَّى يَدْفَعُونِي إِلَيْهِ سَلَامًا، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَسْأَلَهُ وَأَنَا عَزِيزٌ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَقْتُلْنِي وَأَنَا أَسِيرُهُ، أَوْ يَمُنَّ عَلَيَّ فَتَكُونَ سُبَّةً عَلَى بَنِي هَاشِمٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ...». للوقوف على قضية الصلح أسبابه ونتائجه، طالع ما كتبه المجاهد الشيخ راضي آل ياسين في كتابه: (صلح الحسن). وأيضاً: حياة الإمام الحسن بن علي، للشيخ القرشي، وما كتبه المؤلف (دام ظله) الإمام الحسن.. قدوة وأسوة.

(٢) لقد حرك الإمام الحسين عليه السلام [٤-٦١هـ]، بنهضته ضمير الأمة، بعد أن أغرقته بني أمية في سباتها، وظلمها وفسادها، فأعاد عليه السلام إلى جادة النهج الإسلامي الذي جاء به جده صلى الله عليه وآله وسلم، فمزق بنهضته وقيامه كل أقنعة الظلم والزيغ والاستبداد، موضحاً للأجيال الموقف الشرعي منها، فكانت ثورته مناراً ونبراساً لكل السائرين على درب الحرية والكرامة. ومحفزاً لتقويم كل الحكومات الظالمة، والأنظمة الاستبدادية. وهو القائل عليه السلام موضحاً سبب نهضته وخروجه على الظلم والطغيان المتفشي في الأمة، ثائراً في وجه الطغمة الطاغية يزيد: «إِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةٍ جَدِّي صلى الله عليه وآله وسلم، أُرِيدُ أَنْ أَمُرَّ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهِيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَسِيرُ بِسِيرَةِ جَدِّي وَأَبِي...». بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٢٩. طالع ما كتبه المؤلف (الإمام الحسين عليه السلام قدوة وأسوة). و: (الإمام الحسين عليه السلام.. قدوة الصديقين).

(٣) عاش الإمام الباقر عليه السلام [٥٧-١١٤هـ]، طيلة حياته في مدينة جده صلى الله عليه وآله وسلم يُفيض من علمه على الأمة، ولقد استطاع خلالها أن يُربي عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء والمفسرين. كما عانى الإمام الباقر عليه السلام من ظلم بني أمية منذ أن وُلد حتى شهادته عام ١١٤هـ. لاحظ كتاب المؤلف: (الإمام الباقر عليه السلام.. قدوة وأسوة).

وكذلك الإمام الصادق عليه السلام^(١)، والإمام موسى بن جعفر عليه السلام صاحب ثورة، وهكذا.. مما يخلق تصوراً بدوياً بوجود حالة من التباين والتناقض بين هذه الأدوار.

إن الدراسة الواعية للتاريخ، وتتبع الحوادث التاريخية التي كانت تكتنف حياة كل إمام، هي الكفيلة بحل هذا التناقض على مستوى الظاهر، وحينها نكتشف أن هذا الاختلاف هو نتاج طبيعي لاختلاف الظروف التاريخية التي كانوا فيها، مما يجعل من الضروري إعطاء هذه الظروف أهميتها وموقعها الطبيعي في دراسة الحكم الشرعي أيضاً.

وهكذا فإنني أعتقد بأن الفقهاء - وخصوصاً المتأخرين منهم - لو بحثوا تاريخ الأئمة بحثاً دقيقاً ومن جميع النواحي السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وحتى من الناحية الديموغرافية، لاستطاعوا معرفة أسباب بعض الاختلافات بين الأخبار، ولستطاعوا بالتالي أن يستفيدوا من سيرة الأئمة عليهم السلام بشكل أكبر.

إن الطريقة التي ندرس بها علوم الإسلام، وخصوصاً الفقه، هي الطريقة التجزئية التي تُجزئ العلم، فنبحث التاريخ وحده، والفقه وحده، بينما الفقه والتاريخ كل لا يتجزأ.

وهذه الطريقة هي المسؤولة عن بقاء بعض النقاط غامضة في الفقه الإسلامي بل وفي السيرة أيضاً.

(١) كان الدور البارز في حياة الإمام الصادق عليه السلام [٨٠-١٤٨ هـ]، وبعيداً عن الصراع السياسي المكشوف قائماً على بناء الأمة الإسلامية علمياً، وعقائدياً، وذلك من أجل ضمان سلامتها، وحفاظاً على صيانة العقيدة الإسلامية، فقد تصدى الإمام الصادق للفرق المنحرفة عن النهج الإسلامي، وبالأذات الزندقة والتيارات الإلحادية. فعمل على تخريج العلماء والمفكرين في مختلف الفنون والعلوم الإسلامية. أما على النهج الجهادي فقد عمل الإمام عليه السلام على تقويته من خلال تأييده لثورة عمه زيد. انظر مثلاً كتاب المؤلف (الإمام الصادق عليه السلام.. قدوة وأسوة). وما كتبه العلامة القرشي في موسوعته الإمام الصادق عليه السلام.

التاريخ ينبوع الحضارة

إن أهم ما يختص به العقل البشري هو الاستفادة من تجارب الآخرين، وهي الخاصية التي تجعل الحياة تسير بصورة تكاملية، ولولا تلك الإمكانية لما استطاع الإنسان ذو العمر المحدود أن يخلق بنفسه تجاربه الخاصة، فلو أراد أن يجرب كل شيء بصورة فردية لاحتاج إلى ما لا نهاية من التجارب، وإلى ملايين من السنين. فالحالة المنهجية تقتضي الاستفادة من تجارب الآخرين، والرجوع إلى التاريخ باعتباره الحاضن الطبيعي للتجارب، وما نراه الآن من تقدم علمي على كافة المستويات هو نتاج لتلك الخاصية؛ لأن الإنسان يبني حياته بما انتهى إليه الأولون، وليس يبدوها من الصفر، ويمكننا أن نضرب لذلك مثلاً باللغة التي تعتبر من أهم مكاسب التجربة عبر التاريخ، فاللغة هي التي تحتوي الثقافة، وتشكل الوعاء الذي يحملها، والثقافة بدورها هي التي تحدّد نوعية واتجاه الحضارة.. كما أن اللغة وتطورها هي بحد ذاتها تُبين نوعية تاريخ الأمة، فاللغة حضارة وتاريخ. فإذا كانت كلمة ماء مثلاً تدل على هذا السائل، وكلمة رغيف تدل على هذا المأكول، وكلمة فاكهة تدل على هذا النوع من الطعام، فربما مرّت عدة آلاف من السنين حتى استطاع الإنسان أن يتوصّل إلى ذلك، فلو أن كل إنسان أراد أن يضع لنفسه علومه وعاداته وتقاليده، لانعدم الفرق بينه وبين الكائنات الحية الأخرى.

إذن علينا أن ندرس التاريخ حتى نستفيد من تجارب آبائنا في مختلف القضايا التي تواجهنا، لكي تكون لنا حضارتنا التي تميّزنا كمسلمين.

من أجل اللحاق بركب الحضارة

أصبح من الواضح والمسلّم به، ضمن تقييم تجربتنا الحاضرة، أننا أمة متخلفة، نلث وراء ركب الحضارة البشرية التي سبقتنا منذ قرون، مما يفتح أمامنا سلسلة من التساؤلات:

لماذا نحن هكذا؟ ولماذا لا نكون نحن في بداية القافلة لا في نهايتها؟ وإلى

متى يجب أن نبقي على هذه الحال؟.

يمكن أن تبادرنا مجموعة من الإجابات عن هذه الأسئلة التي سبقت وغيرها، ولكن هناك سبب يُمكن أن يكون رئيساً لتخلّفنا، وهو نظرنا إلى الحياة، تلك النظرة السلبية والمتخلّفة والجامدة، فهناك علاقة بين رؤيتنا للحياة وواقعنا الذي نصنعه، فكيفما نفهم الحياة يكون واقعنا تعبيراً لذلك الفهم. وهذه الفكرة تدعونا إلى سؤال آخر هو: كيف انحدرنا إلى هذه الحالة، ومن أين اكتسبنا هذا الفهم المتخلّف، ومن الذي أملاه علينا؟.

والجواب: إننا اكتسبنا هذه النظرة من خلال تراث ورثناه من الأجيال السابقة، فكل جيل كان يورثنا فكرة وتقليداً وطريقة في الحياة. فنحن لا نتصرف في حياتنا ولا نحدد مواقفنا من وحي إرادتنا وتفكيرنا فقط، إنما أيضاً من وحي عاداتنا وتقاليدها التي انحدرت إلينا عبر الأجيال.

فكيفية أكل الطعام مثلاً باستخدام الإنسان يده أو باستخدام الملعقة، وكذلك كيفية النوم، وشكل الملابس، كل هذه العادات نتعلّمها من آبائنا الذين يرتبطون بنا في سن الطفولة، وكل هذه الأمور وما إليها تبدو بسيطة نتعلّمها من آبائنا.

أما الأمور المعقّدة في كيفية التعامل الاجتماعي، وأين تبدأ حدود حريتنا وأين تنتهي، وأين هي حقوق الناس، وما هي بالضبط حقوقنا، وسائر العلاقات الاجتماعية، فذلك التي يجب أن نتعلّمها من آبائنا وتاريخنا معاً.

أما إذا أراد الإنسان أن ينسلخ من ماضيه، فالانسلاخ ليس فقط صعباً، وإنما هو مستحيل، فالأنبياء هم الوحيدون الذين يُعطيهم الله وبطرق غيبية قدرة على الانسلاخ من مجتمعهم الفاسد لتكوين مجتمع جديد.

لذلك يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الحكيم عن الأنبياء ﷺ:

- ﴿إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾^(١).

- ﴿وَلَوْلَا أَنْ بُنِّتْنَا لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾^(١).

- ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾^(٢).

فالقدره على الطهارة عند الأنبياء قد تكون قدرة غيبية، لأن هناك حكمة معينة في سُنن الله تقتضي أن يخلق الأنبياء واقعاً جديداً.

إذن.. كيف يمكننا أن نتحصّر ونلحق بركب الحضارة؟.

إن ذلك يمكن بتصفيه ينبوع الذي يُعطينا الأفكار وهو التاريخ، وكذلك بتغيير نظراتنا إلى التاريخ، لكي نستطيع بذلك أن نتخلّص من التراث الثقيل الذي ورثناه من التاريخ.

وهناك أمثلة مبسّطة لطريقة تأثر الأجيال الحاضرة بالأجيال السابقة وخصوصاً جيلنا نحن، وهنا نضرب مثلاً يوضح أن التاريخ ليس مظهرأ واحداً يتضخم فيه تاريخ السلطة على حساب تاريخ المعارضة، وإنما هنالك رؤيتان تعكس كل واحدة منهما ظلالاً لها تأثيرها في واقعنا وتقييمنا للأحداث الراهنة.

التاريخ بين السلطة والثورة

النظرة الموضوعية للتاريخ تكشف لنا أن مسيرة المسلمين كانت ضمن خطين، خط المترفين الذين استأثروا بالسلطة، وانتهكوا حقوق البلاد والعباد، مُشكّلين بذلك نمطاً تاريخياً له خصوصيته، يؤرخ مسيرة الحاكم والذين سايروه من المنتفعين والمستسلمين للقيادات المنحرفة. أما التاريخ الآخر فهو الذي كان يسير في الاتجاه المعاكس، من التيارات الثورية المعارضة التي شكّلتها مسيرة الخط الرسالي، وهو الخط الذي ما زال محتفظاً بقيم الدين، مُهتماً بشأن الإصلاح في الأمة، معتمداً في تحقيق ذلك على السلاح حيناً وعلى العمل السري حيناً آخر، في سبيل

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٤.

(٢) سورة يوسف، آية: ٢٤.

تغيير المجتمع الفاسد والحكومات المتكبرة.

ضمن هذا التقسيم الموضوعي لمسيرة التاريخ لا بد أن نفهم أيضاً أن لكل خط منطلقه ومنطقه الخاص، فالطبقة الحاكمة والمستسلمون لها والمتفعلون منها لهم منطقهم، وهو الاستسلام والقبول بالأمر الواقع، كذلك الطبقة المحكومة والشوار لهم منطقهم الخاص أيضاً، هو منطق الثورة على الواقع الفاسد^(١)، ويُمكننا وصف ذلك التباعد بين المنطقيين بأنه يمثل جانباً أساسياً من سنن التاريخ التي تتكرر وتمتد عبر الزمان.

هذا ما يُمكننا من معرفة الأسباب التي تقف خلف الدعاية المغرضة لتشويه صورة الرساليين، وهي الطريقة التي اعتادها أذئاب البلاط الحاكم لتبرير تقاعسهم وانهزامهم من تغيير الواقع، فيلصقوا بالخط الرسالي ألوان التُّهم.

هذه التُّهم تلخّص في أن الرساليين هم مجموعة من السُّراق والقتلة والمتمردين انحرفوا عن الدين ويتجرؤون على مقدسات الأمة ويسبون الصحابة وغير ذلك، هذه المجموعة من التُّهم اختلقها الخط المضاد للرسالة، وذلك لسبب بسيط هو أن ذلك الخط كان حاكماً وكان للحكم والحاكم منطق، والخط الرسالي كان ثورة وكانت الثورة لها ضريبتها.

(١) يقول الدكتور فهمي جدعان، وهو يستعرض صورة عن خطين فكريين متقابلين، خط متخلف يشيع التبذير والسلبية، وخط متقدم يبث روح الأمل والسعي: «فالشعور الفاجع بالظلم والغبن الفاحشين هو لدى الشيعة أعظم منه بكثير مما هو عليه لدى أهل السنة. فالشيعة مضطهدون وأئمتهم مشردون ووجودهم الاجتماعي - السياسي غير مشروع، وقد أصابتهم كوارث ماحقة منذ خروج الخلافة من آل البيت ومقتل الإمام علي (عليه السلام) وفاجعة كربلاء، وعبر التاريخين الأموي والعباسي على حد سواء. ومع ذلك فإن الفجاعة لديهم لم تولد يأساً، وإنما ولدت أملاً رآه في حتمية مجيء (إمام) أو (مهدي) [الإمام المهدي (عليه السلام)] بعيد الحق إلى نصابه ويملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، أي يعيد إلى آل البيت وشيعتهم الإمامة والحكم في الإسلام، ويخلص الأرض والناس من مفاسد وطغيان الأنظمة السياسية». أسس التقدم عند مفكري الإسلام، ص ٣١.

كل ذلك يمكن أن يُفهم ضمن ظرفه التاريخي، أما الآن وقد تبدلت الظروف نجد تلك النظرة ما زالت مهيمنة على بعض العقلات الحاضرة، فمثلاً يزيد بن معاوية^(١)، ولكي يثبت حكمه وسياسته اتهم الإمام الحسين عليه السلام بالخروج والتمرد وشق عصا المسلمين وأنه صاحب فتنة لذلك يجب أن يحارب.

أما اليوم فقد ذهب ذلك الواقع الذي تمخضت عنه تلك التُّهم الرخيصة ضد الإمام الحسين عليه السلام، فيزيد قد مات، وآل مروان والذين جاؤوا من بعده قد ذهبوا، وحتى بني العباس الذين وقفوا نفس الموقف المعارض للحركة الرسالية قد انتهوا، فلماذا لم تنتهِ تلك التُّهم الرخيصة والأفكار السلبية ضد الخط الرسالي، حتى إننا نرى أعلاماً محسوبةً على التقدمية تكتب عن الثوار الإسلاميين ولا تتورع أن تُلصق التُّهم غير الصحيحة بهم.

الكاتب الدكتور حسن إبراهيم حسن - المؤرخ والأستاذ في عدة جامعات في بعض الدول الغربية، وفي الولايات المتحدة الأمريكية - في كتابه (تاريخ الإسلام السياسي^(٢))، حينما يتحدث عن المختار بن أبي عبيدة الثقفي^(٣)، فإنه يُلصق به التُّهم نفسها التي

(١) قضي يزيد [٢٥-٦٤هـ] طيلة عمره في اللعب بالقروود والفهود، ومعاقرة الخمرة، وممارسة أنواع القمار، قال المسعودي: «وكان يُسمّى يزيد السكران الخمير». كما عرف بالانحطاط الخلقي، وكان عنواناً للزندقة واللهو. حكم ثلاث سنوات كانت على الأمة من أسوأ أيامها وسود لياليتها. قال عنه القاضي في المناقب والمثالب ص ٢٩٣-٢٩٤: «لم تكن ليزيد فضيلة يستحق بها الخلافة عند خاص ولا عام، وكانت ولايته ثلاث سنين قتل فيها الحسين عليه السلام، وتلك خطيئة من خطايا ملأت ما بين السماء والأرض، لم يرضها أحد من المسلمين..». كما أقدم (لعنه الله) على هتك حرمة المسلمين، فأباح المدينة المنورة ثلاثة أيام، وسفك دماء أهلها، ودنس الحرم النبوي. قال فيه عليه السلام: «لا يزال هذا الأمر معتدلاً قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية يقال له: يزيد». انظر: البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٣١. تاريخ الإسلام، ج ٥، ص ٢٧٣. إمتاع الأسع، ج ١٢، ص ٢٣٣. عمدة عيون صحاح الأخبار، ص ٤٥٧.

(٢) ج ١، ص ٣٢٨. وطالع أيضاً: ما كتبه أبو زهرة في كتابه (الإمام الصادق عليه السلام)، ص ١٨٨.

(٣) أبو إسحاق [١-٦٧هـ]، من الزعماء الثائرين على بني أمية، وأحد الشجعان الأفاذا. من أهل الطائف. منقطعاً لأهل البيت عليهم السلام. فلما استشهد الإمام الحسين سنة ٦١هـ تبع المختار قتلة الإمام الحسين، فقتل منهم: شمر بن ذي الجوشن الذي باشر قتل الحسين، وخولي بن يزيد

الصقها به أعداؤه من الزبيريين والأمويين، في حين أنه ينتمي إلى عصر أصبحت فيه الحالة الأكاديمية ضرورة منهجية لتمييز الأحداث، فهل كان جاهلاً بأن المختار كان ثائراً ضد الزبيريين حتى قُتل بسيف مصعب بن الزبير؟^(١). وبالتالي لا يمكن لأي مؤرخ زيري أن يتكلم عن المختار إلا بالسوء باعتباره ثار ضدهم. وهذه حالة طبيعية تتجلى بشكل واضح في سُنن الصراع. فلا يمكن أن نتوقع أن مروان بن الحكم^(٢)، أو سليمان بن عبد الملك^(٣) أو غيرهما من الخلفاء الأمويين أو أتباعهم إذا كتبوا أو تحدّثوا عن المختار أن يُنصفوه أو يتكلموا عنه بصورة محايدة؛ لأنه كان

الذي سار برأسه إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي حاربه. وأرسل إبراهيم بن الأشتر في عسكر كثيف إلى عبيد الله بن زياد، الذي جهّز الجيش لحرب الإمام الحسين، فقتل ابن زياد، وقتل كثيرين ممن كان لهم ضلع في تلك الجريمة. وكانت مدة إمارته ستة عشر شهراً. للوقوف على سيرته راجع ما كتبه السيد أبو طالب القائني في كتابه (اللؤلؤة الغالية) لؤلؤة رقم (١٨)، تحت عنوان: (بيان أحوال المختار)، ص ٢٨٨. وأيضاً ما كتبه المؤرخ البراقبي عن سيرة المختار في كتابه: تاريخ الكوفة، ص ٣١٤. وبدراسة واسعة تحليلية أنظر: المختار الثقفي، للعلامة المحقق القرشي. و: تنزيه المختار للعلامة السيد المرقم.

(١) ابن العوام بن خويلد الأسدي القرشي [٢٦-٧١هـ]، نشأ بين يدي أخيه عبد الله، فكان عضده الأقوى في تثبيت ملكه بالحجاز والعراق. ولي البصرة سنة ٦٧ هـ. قال بكفر المختار الثقفي فخرج لقتاله، لقيه في الكوفة بعد معركة طاحنة قُتل فيها المختار، وخلق عظيم. الأعلام، ج ٧، ص ٢٤٧.

(٢) ابن أبي العاص بن أمية [٢-٦٥هـ]، أول حكام آل الحكم، بعد نهاية حكم آل أبي سفيان، عُرف واشتهر بـ(خيطة الباطل) نظراً لطول قده واضطراب قامته، ويُلقب بالوزغ، وهو من أشد الناس عداوة للرسول ﷺ وأهل بيته عليه السلام، خصوصاً الإمام علي عليه السلام. قال عنه ابن أبي الحديد، ج ٤، ص ٣١٢: «فأما مروان بن الحكم فأحقر وأقل من أن يُذكر في الصحابة الذين قد غمضناهم وأوضحنا سوء رأينا فيهم؛ لأنه كان مجاهرًا بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبي العاص، وهما الطريدان للعينان، كان أبوه عدو رسول الله ﷺ يحكيه في مشبه، ويغمر عليه عينه ويُذلق (أي يخرج) له لسانه ويتهم به، ويتهاون عليه (أي الضحك مع الاستهزاء)». ثم قال: أما مروان ابنه فأخبث عقيدة وأعظم إلحاداً وكفراً...». للاطلاع والفائدة لاحظ: تنمة المنتهى، ج ٣، ص ٨٦-٩١. الأعلام، ج ٧، ص ٢٠٧.

(٣) ابن عبد الملك بن مروان [٥٤-٩٩هـ] ولي الخلافة سنة ٩٦ هـ. قال ابن سيرين: افتتح خلافته بإحيائه الصلاة لمواقبتها - وكان بنو أمية أماتها بالتأخير-، واختتمها باستخلافه عمر بن عبدالعزيز. وكان أكولاً، وأن سبب موته كان الشره وهو إدخال الطعام على الطعام. أنظر: تنمة المنتهى، ج ٣، ص ١١٨. تاريخ الإسلام، ج ٦، ص ٣٧٩.

عدوا لهم وثار ضدهم .

فكيف يسمح هذا الكاتب لنفسه أن يسترسل مع التُّهم الرخيصة التي ألصقها الزبيريون والأمويون بالمختار؟.

لماذا؟. وكيف حدث ذلك عند مؤرخينا؟.

لقد حدث ذلك في تاريخنا لثلاثة أسباب:

السبب الأول: غفلة أصحاب القضية الرسالين المعنيين بهذه التُّهم، وعدم تصديهم لردّ التزييفات، وكشف الشُّبهات، وتوضيح الحقائق.

السبب الثاني: غفلة الكتّاب الذين يكتبون حول التاريخ الإسلامي، وعدم تحقّقهم من الأحداث والبحث عن الحقائق التاريخية السليمة، فالمؤرخون ليسوا جميعهم أغبياء وذوي مصالح، وإنما أكثرهم يغفلون.

السبب الثالث: وهو أهم وأخطر الأسباب الثلاثة، وهو وجود الخلفية التي كتبت التاريخ السيئ واستمرارها مع الظروف، ولكي نفهم هذه الحقيقة نطرح السؤال التالي:

لماذا اتُّهم يزيد بن معاوية الإمام الحسين عليه السلام بأنه متمرّد؟.

لا نجد لذلك جواباً سوى أن الإمام الحسين عليه السلام ثار ضده، ويزيد دافع عن سلطته الغاصبة. هذا هو البعد الأساسي لخلفية الصراع بين الحاكم الظالم والمعارض له المطالب بحقوقه أو حقوق الأمة.

إذا كان الأمر هكذا فإن رجلاً مثل يزيد بن معاوية إذا جاء الآن ووجد رجلاً آخر مثل الحسين بن علي عليه السلام يقاومه، فلا بد أن يقول له مثل ما قاله يزيد في حق الإمام الحسين عليه السلام.

فهذا استنتاج طبيعي وواضح اليوم في عالم السياسة، فالحاكم الظالم لا

يتحمّل وجود رجل مجاهد يحاول أن يثبّث الوعي في الناس ويرشدهم إلى الطريق القويم المتمثّل في عدَم الرضوخ للظلم ومحاربة الطغاة، فإن هذا الحاكم لا يملك شيئاً ضد ذلك المجاهد إلّا اتّهامه بأرخص التّهم التي تُهمي الأرضية لقتله وتصفيته.

فالوعي التاريخي حاجة ملحة ليس لقراءة التاريخ فحسب وإنما لقراءة الواقع أيضاً، فالذي لا يكون له بصيرة تاريخية يقع في أخطاء كبيرة حتى وإن كان رسالياً يُصنّف نفسه ضمن الثوار، فإننا نجد كثيراً من هؤلاء عندما كتبوا في التاريخ وقعوا في الأخطاء نفسها التي وقع فيها المؤرخ السلطوي، فيروّج التّهم نفسها التي روجها بنو أمية، فعندما يكتب عن المختار مثلاً فإنه يكرر الأقوال نفسها التي قالها عنه مصعب بن الزبير قاتل المختار، والتّهم نفسها التي ألصقتها أجهزة الإعلام الأموي بذلك الرجل النزيه.

ومن عجيب أمر الدنيا أن رجلاً مثل أبي الفرج الأصفهاني الذي لا ينتمي إلى الخط الرسالي، حينما يذكر قصة زيد بن علي^(١)، فإنه ينقل رواية عن الرسول ﷺ أنه قال للإمام الحسين عليه السلام: «يخرج رجل من صلبك يقال له زيد، يتخطى هو وأصحابه يوم القيامة رقاب النَّاس غُرّاً مُحَجَّلين، يدخلون الجنة بغير حساب»^(٢).

(١) ابن الإمام الحسين [٧٩-١٢٢هـ]. عاش زيد في رعاية أبيه الإمام علي بن الحسين عليه السلام قرابة خمسة عشر عاماً، وبعد شهادة أبيه كفله أخوه الإمام الباقر عليه السلام، فقد غداه بالعلم، ورعاه وهو يشق طريقه في وسط التيارات الفكرية والسياسية، حتى كمل بناؤه المعرفي، ولزيد مناقشات علمية مع واصل بن عطاء مؤسس المعتزلة. ولزيد بن علي علاقة خاصة بالإمام الصادق عليه السلام، فهو عم الإمام، ومن خريجي مدرسة أبيه الإمام الباقر عليه السلام. قام زيد بالثورة ضد الحكم الأموي، واستشهد وصلب بالكناسة. يكفيه فخراً وشرفاً قول الإمام الصادق عليه السلام: «فَإِنْ زَيْدًا كَانَ عَالِمًا، وَكَانَ صَدُوقًا، وَلَمْ يَدْعُكُمْ إِلَى نَفْسِهِ، إِنَّمَا دَعَاكُمْ إِلَى الرَّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ...». وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٥٠. ولما قتل بلغ ذلك من أبي عبد الله الصادق عليه السلام كل مبلغ وحزن له حزناً عظيماً حتى بان عليه، وفرق من ماله في عيال من أصيب معه من أصحابه ألف دينار. وكان مقتله يوم الاثنين لليلتين خلتا من صفر سنة عشرين ومائة، وكان سنه يومئذ اثنتين وأربعين سنة». معجم رجال الحديث، ج ٨، ص ٣٥٨.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ١٢٧.

وأيضاً ينقل قوله عليه السلام: «يقتل رجل من أهل بيتي فيصلب، لا ترى الجنة عين رأت عورته»^(١). وينقل أيضاً رواية عن أبي داود المدني، عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن أبيه عن الإمام علي عليه السلام قال: «يخرج بظهر الكوفة رجل يقال له زيد في أبهة الملك لا يسبقه الأولون ولا يدركه الآخرون إلا من عمل بمثل عمله، يخرج يوم القيامة هو وأصحابه معهم الطَّوَامِيرُ أو شبه الطَّوَامِير حتى يتخطوا أعناق الخلائق تتلقاهم الملائكة فيقولون: هؤلاء خلف الخلف، ودعاة الحق، ويستقبلهم رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول: يا بني قد عملتم ما أمرتم به، فادخلوا الجنة بغير حساب»^(٢).

هذه الروايات ينقلها أبو الفرج الأصفهاني وبشكل مكرّر في كتابه مقاتل الطالبين، بينما هناك من يُشكك في ثورة المختار، وزيد، ويحيى!^(٣).

لماذا يُشكك هؤلاء في ثورات صحيحة في التاريخ؟

ولماذا يُعطون الحق ليزيد بن معاوية، ومصعب بن الزبير، وعبد الله بن الزبير^(٤)،

(١) مقاتل الطالبين: ص ١٢٧.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ١٢٨.

(٣) ابن زيد بن الإمام علي بن الحسين عليه السلام [١٠٧-١٢٥هـ]، أحد الأبطال الأشداء، ثار مع أبيه زيد على بني مروان. فانصرف بعد شهادة أبيه إلى بلخ، ودعا إلى نفسه سرّاً، قام بالثورة واستشهد ثم صُلب عليه الرحمة. أنظر: الأعلام، ج ٨، ص ١٤٦. منتهى الآمال، ج ٢، ص ٧١. زيد الشهيد، ص ١٧٩. الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، ج ١، ص ٢٦٨. وستقرأ شيئاً من تفاصيل حياته الجهادية في الصفحات القادمة.

(٤) ابن العوام بن خويلد الأسدي القرشي [١-٧٣هـ]، فارس قریش في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة، بويع له سنة ٦٤هـ عقيب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه المدينة. فراح يظهر الزهد والتقوى، أطلق على نفسه العائد ببيت الله. هو من المنحرفين والمبغضين للإمام علي عليه السلام، وكان الإمام علي يقول: «كان الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله فأفسده». وكان سبّاً فاحشاً، يُبغض بني هاشم، ويعلن سب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. أنزل الأذى ببني هاشم، فقام بحصار من كان في مكة من بني هاشم في شعب، وكان منهم محمد بن الحنفية. جمع خطباً كثيراً عازماً على إحراقهم، غير أن المختار بعث إليهم قوماً لنجدتهم من الحصار واستطاعوا

ومن أشبه من المتسلطين على رقاب المسلمين في قتلهم لزيد ويحيى والمختار؟.

السبب في ذلك يرجع إلى أن ذلك الكاتب المدعي للرسالية حينما يكتب كتابه فإنه يخضع لخلفية فكرية خاطئة ورثها دون تمحيص وتحقيق، مما يستوجب مراجعة جديدة لتلك الخلفيات. إذًا حينما نقوم بدراسة التاريخ، نهدف بذلك الدفاع عن المظلومين في التاريخ ك: (زيد بن علي، ويحيى، والمختار، وسليمان بن صرد^(١)، وحجر بن عدي^(٢))، هؤلاء الذين يتهمهم البعض دون تمحيص وتدقيق.

تخليصهم. ففر ابن الزبير وتعلّق باستار الكعبة وهو يقول: «أنا عائذ بالله». كانت له مع الأمويين وقائع هائلة، حتى سبّوا إليه الحجاج الثقفي، في أيام عبد الملك بن مروان، نشبت بينهما حروب انتهت بمقتل ابن الزبير في مكة. أنظر: الأعلام، ج ٤، ص ٨٧. تنمة المنتهى، ج ٣، ص ٨٤-٨٥ و: ١٠٣.

(١) السلولي الخزاعي [٢٨ ق.هـ - ٦٥ هـ]. من أصحاب رسول الله ﷺ، وأمير المؤمنين، والحسن والحسين ﷺ، كان اسمه في الجاهلية يسار، فسماه رسول الله سليمان، يُكنى أبا المطرف، عدّه الطوسي في عدة المتخلفين عن أمير المؤمنين يوم الجمل. لكن العلامة المامقاني قال: «لم نقف من كتب التواريخ وأخبار السّير حتّى كتاب فتنة الجمل للشيخ المفيد على عين منه ولا أثر... وعن المفيد، أنه من المجمعين على خلافة أمير المؤمنين ﷺ، بعد قتل عثمان، وعدّه الفضل بن شاذان من التابعين الكبار ورؤسائهم وزهادهم. وعن ابن الأثير أنّه شهد مع علي مشاهد كلها، ونقلوا أنّه جعله أمير المؤمنين يوم صفّين على رجالة الميمنة. هو ممن كتب إلى مولانا الإمام الحسين ﷺ، من أهل الكوفة، وهذه المكاتبة وقعت في داره، ثم عجز عن نصره، فخرج مع التوابين وسّمّوه أمير التوابين. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٤، ص ١٣٧.

(٢) الكندي [ت: ٥١ هـ]، صحابي جليل، فارس من كبار القادة، كثير العبادة، عرف براهب الصحابة. من الأبدال ومن أصحاب الإمام علي ﷺ، روى الفضل بن شاذان قال: حدثنا طاوس، عن أبيه، قال: «أنبأنا حجر بن عدي، قال: قال لي علي ﷺ كيف تصنع إذا ضربت وأمرت بلعنتي؟! قلت له: كيف أصنع؟ قال ﷺ: العني ولا تبرأ مني، فإني على دين الله. قال: ولقد ضربه محمد بن يوسف، وأمره أن يلعن علياً ﷺ! وأقامه على باب مسجد صنعاء، قال: فقال: إن الأمير أمرني أن ألعن علياً ﷺ، فالعنوه لعنة الله. فرأيت مجوازا من الناس إلّا رجلاً فهمها وسلم». وقد أخبر النبي ﷺ بقتل حجر ظلماً، كما في تاريخ دمشق، ج ١٢، ص ٢٢٦: «عن أبي الأسود قال: دخل معاوية على عائشة، فقالت: ما حملك على قتل حجر وأصحابه؟ فقال: يا أم المؤمنين، إني رأيت قتلهم صلاحاً للأمة، وأن بقاءهم فساداً للأمة!.

فإذا استطعنا أن نُغيّر هذه النظرات الخاطئة عن أولئك الرسّالين فإننا نستطيع بالتالي تغيير الخلفيات غير الصحيحة الموجودة في ذهنيات الناس، وبالتالي نغيّر من اتجاه المجتمع ونجعله إلى الأمام أبداً.

هذه بعض الحثثيات التي نُبرّر بها دراستنا للتاريخ.

فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيقتل بعذراء ناس يغضب الله لهم أهل السماء». وجاء في ص ٢٣١ اعتراف معاوية وإقراره بقتله لحجر بن عدي، فقال: «ما قتلت أحداً إلّا وأنا أعرف فيم قتلتُه وما أردت به!». ما خلا حجر بن عدي، فإني لا أعرف فيما قتلتُه». وقال أبو مخنف: عن الصقعب بن زهير، عن الحسن [البصري]، قال: «أربع خصال كن في معاوية، لو لم يكن فيهم إلّا واحدة لكانت موبقة: انتزأه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابة، وذو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خيراً، يلبس الحرير ويضرب بالطناير، وادعائه زياداً، وقد قال رسول الله ﷺ: الولد للفراش، وللعاهر الحجر. وقتله حجراً، ويأله من حجر!..». تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٢٧٩.

— ﴿ صَفْوُ الْكَلَامِ ﴾ —

* إن الدراسة الواعية للتاريخ، وتتبع الظروف التاريخية التي كانت تكتنف صدور الأحكام الشرعية، وهكذا دراسة حياة الأئمة الأطهار عليهم السلام، كفيلة بتسليط الضوء على بعض النقاط الغامضة في الفقه الإسلامي بل وفي السيرة أيضاً.

* إن أهم ما يختص به العقل البشري هو الاستفادة من تجارب الآخرين، وهي الخاصية التي تجعل الحياة تسير بصورة تكاملية.

* إن النظرة السلبية والجامدة والكسولة للحياة هي سبب تخلف الأمة، ولا يمكن اللحاق بركب الحضارة إلا بتصفية البينوع الذي يعطينا الأفكار وهو التاريخ.

* النظرة الموضوعية للتاريخ تكشف لنا أن مسيرة المسلمين كانت ضمن خطين:

- خط المترفين الذين استأثروا بالسلطة.

- وخط التيارات الرسالية المعارضة التي كانت تكبح جماح المترفين.

* الوعي التاريخي حاجة ملحة أبداً ليس لقراءة الماضي فحسب، وإنما لقراءة الواقع أيضاً.



١٩ كيف يجب أن ندرس التاريخ؟

هناك خلفيات متباينة تُنتج أنماطاً مختلفة لدراسة التاريخ، تدور أكثرها حول الهدف الدافع للدراسة، فإذا كان هدف المؤرخ إضافة مجموعة معارف إلى معارفه فإنه يدرس التاريخ للتاريخ بغية استخلاص معلومات جديدة، كالذي يدرس التاريخ الفرعوني أو الحضارة الهندية القديمة بما هي في واقعها التاريخي بعيداً عن حاضره الذي يعيش فيه، وهذا الاتجاه هو السائد حالياً عند المؤرخين العلميين.

بينما هناك اتجاه آخر ينصب لنفسه هدفاً لدراسة التاريخ، وهو الاستفادة من عبر الماضي لإعادة بناء الحاضر وتشكيل فهم أكثر عمقاً وشمولية للحياة. ونحن انطلاقاً من مفاهيمنا الدينية والرسالية نؤيد القول الثاني، والسبب في ذلك أن مواقف الإنسان تتحدّد وفق رؤاه إلى الحياة، والرؤية هي صنعة تراكم ثقافي عبر الأجيال، فالتاريخ حاضر وما زال حياً فينا، والاشتغال بالجانب الفكري والثقافي، وتكوين مفاهيم إيجابية، هو الذي يخلق لنا أرضية التحدي لواقعنا المتخلف.

فمثلاً الجيش الذي يهزم في معركة ما ينقسم أفراده إلى قسمين تبعاً للصفات والرؤى التي تشكّل شخصية أفرادهم:

القسم الأول: لا يزيده الانهزام إلا تحدياً. وقد تعني تلك الهزيمة بالنسبة إلى هذا النوع من الجنود انتصاراً؛ لأنهم يمتلكون موقفاً تجاه الهزيمة، وذلك الموقف هو التحدي.

القسم الثاني: تسبب له الهزيمة العسكرية انهياراً نفسياً، وهؤلاء هم عادة الأكثرية، فالهزيمة الخارجية تنعكس على أنفسهم، فينهزمون نفسياً وينهارون وربما إلى الأبد. وهذا التباين هو نتاج طبيعي للخلفية المعرفية والفكرية التي يحملها الإنسان.

ومثال آخر لتوضيح هذا المعنى، إن الشاب الذي يذهب إلى البلاد غير الإسلامية قد يكون من النوع الضعيف الشخصية، فحينما يرى مظاهر الحضارة في العالم الغربي فإنه ينهزم نفسياً، وهذه الهزيمة تنعكس على سائر نواحي حياته، فإذا به يتبع في علاقاته الاجتماعية النمط الأجنبي. بينما إذا كان هذا الشاب يمتلك نفسية شجاعة ومتحدية، وله رؤاه الخاصة النابعة من دينه وقيمه مما يخلق عنده حالة من التجاوز والاستعلاء على الباطل، نجده لا يرجع من الخارج إلّا بعد أن يوصل أفكاره وقيمه التي حملها إلى هناك، والتي كرّسها أولاً في نفسه، والسبب في ذلك هو أن موقفه السابق الذي حمله معه إلى هناك كان يفرض عليه أن يتحدّى.

فهذا المثال البسيط، يكشف عن أهمية الرؤية التي يحملها الإنسان تجاه الحياة، لأن السلوك الإنساني في الواقع هو نتاج طبيعي لموقفه من الحياة، التي ترجع بشكل مباشر إلى رؤاه الفكرية وخلفياته الذهنية التي تُكوّن شخصيته المتميزة، وكل ذلك يتم تحقيقه بخلق وعي متكامل لكل أبعاد الحياة بما فيه التجربة البشرية على مستوى البعد التاريخي.

الرؤية التاريخية تصنع شخصية الأمة

إذا كان هذا الأمر صحيحاً كما قدّمنا، فإن العمل على بناء شخصية حضارية للأمة تتناسب مع مبادئها وقيّمها لا بد أن يبدأ بالعمل على توفير ثقافة جديدة للحياة تتجاوز كل ما هو متخلف، وتستحضر كل ما لديها من نقاط قوة وتقدّم، وهذا ما لا يتحقّق إلّا بالاستفادة من التاريخ، لأن عقلية الأمة لا تتشكّل بين عشية وضحاها، وإنما هو تراكم عملت الأيام والسنون على تكريسه، فغربة هذا التراث

وتصنيفه هي الخطوة الأولى لتنضيج وعي جديد يتكفل بحل معضلات الحاضر، وبالتالي فإن أي جهد حركي لإصلاح الأمة يكون بعيداً عن مناله إذا أهمل الوعي التاريخي، لأنه ليس ضرورة معرفية فحسب وإنما ضرورة حياتية راهنة، فلو تغيرت رؤية الأمة إلى التاريخ لتغيرت آليات حياتها، لأن رؤيتها إلى التاريخ ستعكس على موقفها في الحياة، ومواقف الأمة في الحياة حينما تكون إيجابية صحيحة فإن حياتها تتحول كلها إلى حياة إيجابية، فهذا هو البعد الثقافي الذي يجب أن ننظر به إلى التاريخ، مما يكشف عن أهمية ذلك الرابط الذي يربط بيننا وبينه، أو بين الحاضر والتاريخ.

ومن هنا حين ندرس التاريخ يجب أن ندرسه بشكل يفيدنا في الواقع الذي نعيشه، فكل جيل يكتب تاريخه بيده، وفقاً لطموحاته وتطلعاته ومشاكله الخاصة، مما يعني أن لكل جيل شخصيته المعينة، التي يصوغ بها التاريخ بحيث تحقق له تلك الطموحات، وبالطبع سوف تختلف آتئذ عن نظرة سائر الأجيال سواء السابقة أو اللاحقة، بل إن كل جيل عليه أن يكتب تاريخاً خاصاً به ولا يعتمد على التاريخ الذي كُتب بأقلام الجيل الماضي.

هذه الحقيقة تنعكس على موقفنا من التاريخ الذي سيكون موقفاً إيجابياً عندما نهضم التاريخ ونستفيد منه ونحوّله إلى وقود لتحركنا في الحياة، ولتحقيق ذلك لا بد أن نُبين الكيفية التي يجب أن ندرس بها التاريخ وذلك ضمن العنوان التالي:

دراسة التاريخ ككائن حي

عندما ننظر لأي حدث تاريخي باعتباره جامداً ضمن ظرفه الزماني فإن هذه النظرة سوف تحجمه ضمن بعد أسطوري لا علاقة له إلا بزمّن وجوده وتحقيقه، بينما إذا نظرنا للتاريخ أو لأي حدث فيه باعتبار كونه شيئاً متحركاً ينبض بالحياة فإن ذلك الحدث يتجاوز زمن وقوعه ليرتبط بواقعنا ويتفاعل مع حاضرنا.

فحينما ندرس شخصية الإمام علي عليه السلام^(١) مثلاً، علينا ألا ندرسه إنساناً ذا بعد واحد، إنما الواجب هو أن ندرسه شخصية متكاملة، باعتباره رجلاً حياً بمبادئه ومواقفه، فإن نظرنا ستختلف عن نظرة ذلك الإنسان الذي يدرس حياته باعتباره شخصاً عاش قبل (١٤٠٠) سنة ضمن حلقة من حلقات التاريخ المنصرم.

وكذلك دراسة الإمام الحسين عليه السلام وواقعة كربلاء، إما أن تكون دراسة لا تحاول أن تحرك ذلك الحدث الضخم من واقعه التاريخي، فتصور تلك المعركة ضمن حدود زمنية تجاوزها الدهر، كأن نقف عند حدود مقتله بأن نقول: يُحكى أن الإمام الحسين استشهد بعد أن أصابه سهم في قلبه وجبهته ووقع من على ظهر الفرس مغشياً عليه^(٢).. إلخ. وعندها تغيب عنا كل دالات تلك الواقعة، لأننا ندرسها وكأن الإمام الحسين عليه السلام وكربلاء قصة أسطورية لا تمثل بشراً له كامل مقومات الحياة التي نمتلكها نحن اليوم أيضاً، فلا نستعرض في مخيلتنا أن هذا الإنسان الذي هو من لحم ودم، كيف يتألم حينما يقع سهم في جبهته، وكيف يتعذب حينما يُذبح ابنه أمامه وفي حجره، وكيف يتألم حينما يعلم بأن عائلته سوف تُسبى من ورائه، وحينما نتصوره واقعياً كبشر يتألم وله وضع معين فإن نظرنا ستختلف بالنسبة لهذا الرجل العظيم، وبالتالي ستختلف استفادتنا منه.

ومن المؤسف أن كثيراً من الباحثين يقومون بدراسة ثورة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء من بُعد واحد، لا يتجاوز سرد وقائع تاريخية، كأن يقولوا: إن

(١) الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي عليه السلام [٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ]، وليد الكعبة المشرفة، أبو الحسن، أمير المؤمنين، وابن عم النبي ﷺ وصهره، أحد الشجعان الأبطال، ومن أكبر الخطباء والعلماء بالقضاء بعد رسول الله ﷺ، وأول القوم إسلاماً. وربي في حجر النبي ﷺ ولم يفارقه. وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد. ولما أخى النبي ﷺ بين أصحابه قال له: «أَنْتَ أَخِي وَوَزِيرِي، وَصَاحِبُ لَوَائِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنْتَ صَاحِبُ حَوْضِي، مَنْ أَحَبَّكَ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَبْغَضَنِي». ولي الخلافة سنة ٣٥ هـ. وقضى شهيداً في محراب الكوفة، قتله الشقي عبد الرحمن بن ملجم المرادي غيلة في المؤامرة المعروفة والمشهورة. طالع: بحار الأنوار، ج ٣٥-٤٢. الأعلام، ج ٤، ص ٢٩٥. منتهى الآمال، ج ١ للعلامة القمي.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤. اللهوف، لابن طاووس، مقتل الإمام الحسين عليه السلام، للمقرم.

الإمام الحسين خرج من المدينة قاصداً مكة وبقي فيها سبعة أشهر، ثم جاء إلى كربلاء وقُتل فيها، وبهذا تكتمل عندهم وقائع التاريخ، متجاهلين كل التحليلات التي تربط تلك الحركة بظروف موضوعية كانت دافعة لخروجه. فالإمام الحسين عليه السلام حينما خرج من المدينة المنورة كان له موقف من النظام السياسي الاقتصادي والاجتماعي، ومن التيارات والحركات والجبهات المتعددة التي كانت في المدينة. وبالتالي من الضروري معرفة تلك الظروف، ومعرفة المواقف التي بنى عليها الإمام الحسين عليه السلام حركته، وبأي مقياس كوّن الإمام الحسين عليه السلام علاقته الإيجابية أو السلبية مع تلك الجبهات، كل ذلك يحدّد نظرنا إلى خروج الإمام عليه السلام.

وهكذا نتابع المسيرة فتعرّف إلى الحكمة من وجوده في مكة المكرمة، ونزوحه إلى كربلاء، حينها هبط أرض العراق، وكيف كان وضعها الاقتصادي والاجتماعي، وكيف تحوّل أهل الكوفة بين عشية وضحاها من مؤيدين لمسلم بن عقيل^(١) إلى مخالفين له^(٢)، وما هي العناصر البشرية التي كانت موجودة في الكوفة، وكيف كانت نفسياتهم، وجنسياتهم، وأنظمتهم الاقتصادية، والاجتماعية، وما هي سلوكياتهم، ومدى عمق الشعور الديني فيهم، بل الأكثر من ذلك كيف كانت الوسائل المادية التقنية من المواصلات والأمور العسكرية في البلاد الإسلامية؟.

هذه الأمور كلها يجب أن نعرفها حتى تساهم في تحديد نظرنا الواقعية بالنسبة إلى الإمام الحسين عليه السلام وشهادته المشهورة.

(١) ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم عليه السلام [ت: ٦٠ هـ]، تابعي، من ذوي الرأي والعلم والشجاعة. رسول الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة ليتعرّف حال أهلها حين وردت عليه كتبهم يدعونه ويباعون له. فرحل مسلم إلى الكوفة فأخذ بيعة (١٨٠٠٠) من أهلها وكتب للإمام الحسين عليه السلام بذلك. فشرع به عبيد الله بن زياد فطلبه، فمنعه الناس، ثم تفرّقوا عنه، فأوى إلى دار امرأة من كندة (طوعة) فأخفته. ولم يلبث أن عُرف مكانه فقبض عليه ابن زياد وقتله. دفن في الكوفة، بُني له ضريح عرف باسمه. الأعلام، ج ٧، ص ٢٢٢. وأنظر بمزيد من تفصيل حياته وجهاده بدراسة وتحقيق العلامة السيد المكرم (الشهيد مسلم بن عقيل)، وأيضاً العلامة المحقق الشيخ القرشي (الشهيد الخالد مسلم بن عقيل).

(٢) أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٧٧. مقاتل الطالبين، ص ٨٦.

فعندما نقرأ مثلاً أن الحركة الرسالية استوعبت الموالي^(١): وهم الفرس والأقباط^(٢)، والروم: وهم مجموعة من العناصر البشرية المتواجدة في الكوفة التي كانت في ذلك اليوم عاصمة الدولة الإسلامية غير الرسمية، وأن هذه المجاميع هي التي احتضنت الرسالة. نتساءل من هم الموالي، وكيف كانوا يعيشون، وما هي القوانين والأنظمة التي حكمت حياتهم، والتي كوّنت العلاقة بينهم وبين العرب؟.

هذه الأسئلة يجب أن تُطرح. وعندما نطرحها، علينا أن نطرحها بصورة حية لمعرفة الظروف التي واكبت ثورة الإمام الحسين عليه السلام، ومعرفة الحركات والأنظمة والمجتمعات والتكتلات التي كانت في الساحة السياسية.

إذن.. حينما نريد أن ندرس التاريخ، سواء بالنسبة إلى حركة من الحركات، كحركة الرسالة في التاريخ أو سيرة قادة ومرشدين كالأئمة المعصومين عليهم السلام أو سائر الناس، فلا بد أن ندرسها باعتبارها حياة متحركة أمامنا، فما هي الحياة الحافلة وماذا تقتضي وكيف تكون؟ كل هذا يجب أن نعكسه على التاريخ وبالتالي ندرسه من خلال نظراتنا إلى الواقع الحاضر ومعرفتنا به، وبهذه الطريقة نستطيع أن نعرف التاريخ.

التاريخ يعلمنا السنن الإلهية

وإذا عرفنا التاريخ وفقاً للبصيرة التي سبقت، حينها يكون باستطاعتنا معرفة القوانين التي تسيّر الحياة البشرية. لأن الحياة تحكمها سنن واحدة ولكن ضمن وقائع وظروف مختلفة، مثال على ذلك: إننا إذا درسنا حركة التّوّاين^(٣)، وحركة

(١) المسلمون غير العرب من فرس وترك.

(٢) جمع قبضي، وهو اسم يدل على ساكني وادي النيل بمصر.

(٣) بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام بكربلاء، تلاقت مجموعة من الشيعة في الكوفة بالتلاوم والندم لعدم نصرتهم للإمام الحسين عليه السلام بعد أن دعوه للبيعة، فأرادوا التوبة والتكفير عن ذنبهم، وأخذ الثأر للإمام الحسين، ففزعوا بالكوفة، وكان في مقدمتهم وزعيمهم سليمان بن صرد، والمسيب بن نجبة الفزاري، وعبدالله بن سعد الأزدي، وعبدالله بن وائل التميمي. فَعُرِفُوا بِالتَّوّاين.

المختار نرى بالرغم من أن الفاصل الزمني بين الحركتين لا يتجاوز السنتين، فإننا نرى أن هناك فرقاً كبيراً بينهما.

فحركة التّوَّابين كانت حركة مأساوية انتهت بالفشل الكامل^(١). بينما حركة المختار كانت ناجحة نسبياً ولها امتدادات كبيرة في سائر الدول الإسلامية.

وهنا يأتي السؤال: لماذا فشل سليمان بن صرد قائد حركة التّوَّابين، ونجح المختار بن أبي عبيدة الثقفي إلى حدٍّ ما في حركته؟.

وعلى افتراض أننا قد عرفنا الجواب فإن باستطاعتنا معرفة أننا إذا أردنا أن نقوم بحركة فيجب أن نقوم مثل قيام المختار وليس مثل سليمان على أقل التقادير، وبالتالي نستطيع أن نستفيد من التاريخ استفادة كبيرة، وهي أن نعرف منعطفات التاريخ وأسبابها والعوامل المؤثرة في تغيير مسيرته؛ لأن التاريخ يعيد نفسه، فإذا كانت هناك أخطاء كبيرة وقع فيها الرّساليّون من قبل يجب أن نتجنّبها، وذلك مثل ما حدث للعلويين الذين ضحّوا وثاروا على الواقع الأموي، إلّا أن العباسيين حصّدوا الثمرة. ولاكتشاف المشكلة لا بد أن نحلل الواقع التاريخي.

الثورة بين العلويين والعباسيين

إن التّضحيات التي قام بها الخط الرّسالي، بعد نهضة الإمام الحسين عليه السلام، كالثورات التي قادها أبناء البيت العلوي من أمثال: زيد بن علي، ويحيى بن زيد، وأولاد الإمام الحسن عليه السلام كصاحب فخ^(٢)، وبأخمر^(٣)، وآخرين، والثورات التي

(١) يتضح لك في الصفحات القادمة.

(٢) وإد يبعد عن مكة بثلاثة أميال، فيه التقى الثائرون بجيش الهادي العباسي وانتهت المعركة بهزيمة جيش الحسين بن علي الفخي، ومقتله هو وجماعة من أصحابه. روي عن الإمام الجواد عليه السلام قوله: «لَمْ يَكُنْ لَنَا بَعْدَ الطَّفِّ مَضَرٌّ أَعْظَمُ مِنْ فَخٍّ». بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٦٥. توافيك الصفحات القادمة بشيء من تفاصيل ثورته.

(٣) قال في معجم البلدان، ج ١، ٣١٦: موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب. قالوا: بين باخرا والكوفة سبعة عشر فرسخاً، بها كانت الوقعة بين أصحاب أبي جعفر المنصور

قامت طلباً للرضا من أهل البيت عليه السلام كسليمان بن صرد والمختار، كانت تمثل الجهد الحقيقي الذي زعزع أركان الدولة الأموية، وبرغم ذلك فقد كانت المحصلة دولة عباسية لا تختلف في شيء عن الدولة الأموية.

فكيف تحقق ذلك؟.

وبتعبير آخر: كانت التضحيات من العلويين، والمغانم والمكاسب للعباسيين. وهذا سؤال كبير؛ لأنه من الممكن أن تتكرر هذه الواقعة مرات أخرى في غير مكان، حيث يُقدّم الرساليون التضحيات، بينما يجني الثمرة الانتهازيون والوصوليون وثور الفنادق.

كما أن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام هو الذي زرع، والسفاح^(١)، والمنصور^(٢)،

وإبراهيم بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقتل إبراهيم هناك فقبره به إلى الآن يزار، وإياها عنى دعلج بن علي بقوله:

وقبر بأرض الجوزجان محله وقبر بياخمرأ لدى الغربات

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب [١٠٤-١٣٦هـ]، (أبو العباس السفّاح)، أول خلفاء الدولة العباسية، وأحد الجبارين الدهاء. بُوع له بالخلافة جهراً في الكوفة سنة ١٣٢هـ. وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد، وكان شديد العقوبة، عظيم الانتقام، تتبّع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتى لم يبق منهم غير الأطفال والهاربين إلى الأندلس. لقب بالسفّاح لكثرة ما سفح من دمائهم. الأعلام، ج ٤، ص ١١٦.

(٢) عبد الله بن محمد بن علي العباسي [٩٥-١٥٨هـ]، تولى الخلافة سنة ١٣٦هـ. أمه فارسية وقيل بربرية. في أنساب الأشراف، ج ٤، ص ٢٠٢: أن أبا مسلم وصفها بالزانية فقال: «أفعلها ابن سلامة الفاعلة..!». وفي حكمه دفن المنصور عدداً من العلويين أحياء في أسطوانات بغداد، كما في عيون أخبار الرضا عليه السلام، ص ٢، ص ١٠٢: «لما بنى المنصور الأبنية ببغداد، جعل يطلب العلوية طلباً شديداً، ويجعل من ظفر منهم في الأسطوانات المحوفة المبنية من الجص والآجر». طارد الأمويين وقتلهم، وخاض حرباً ضد مروان، بل جعل ولاية عهده لمن يذهب لحربه. راجع وفيات الأعيان، ج ٢. كما تعقب أبناء أهل البيت عليه السلام بالقتل والتنكيل، وقد قال للإمام الصادق عليه السلام مشافهة: «لأقتلك ولأقتلن أهلك حتى لا أبقي على الأرض منكم قامة سيف..». دس السم للإمام الصادق عليه السلام، كما في كثير من المصادر التاريخية. راجع مثلاً: دلائل الإمامة للطبري، والإرشاد للمفيد رحمهما الله.

وهارون الرشيد^(١)، هم الذين حصدوا. لماذا؟.

إذا عرفنا الجواب هناك نستطيع أن نعرف الجواب هنا. ولا نعرفه فقط، وإنما لا نسمح لأنفسنا بأن تتكرر تلك التجربة.

ولمعرفة ذلك المنعطف الذي حوّل المسار إلى صالح العباسيين، لا بد أن نعرف ذلك الحدث التاريخي ضمن الظروف الموضوعية التي شكّلت ملابساته، فقد كانت للعلويين حركة سرية في أيام الأمويين، لها انتشار في كافة البلاد الإسلامية، وتميّزت هذه الحركة بطابع تنظيمي يجعل على كل مجموعة داعية يُمثّل قيادة وسيطة، ويربط بين هذه القيادات جهاز مشرف واحد، هو الذي يرتبط بالقيادة الأساسية هو الإمام الذي يمارس عمله بصورة سرية، والإمام هو الجهة التي تربط خيوط جميع تلك المجموعات، وبالتالي هو الشخص الوحيد الذي يعرف أسرار الحركة بكاملها ويعرف دعائها وأين هم وارتباطهم، وهذه السرية هي نتاج تجربة من الصراع المريع مع النظام الأموي، فهي الصورة الوحيدة للنجاح التي دونها لا يمكنهم تحقيق أهدافهم، لذلك عملوا بالسرية المطلقة.

(١) هارون بن محمد بن المنصور العباسي، [١٤٩-١٩٣هـ]، خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق، وأشهرهم. بويح بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ. يلقب بجبار بني العباس، وهو أول خليفة عباسي لعب بالكرة والصولجان. صاحب وقعة البرامكة، وهم من أصل فارسي، وكانوا قد استولوا على شؤون الدولة، فقلق من تحكمهم، فأوقع بهم في ليلة واحدة. قابل العلويين وشيعتهم بكل قسوة وصرامة فقد ساسهم كما ساسهم جدّه المنصور بسياسة العنف والجور والاضطهاد، ويضاف إلى ذلك عدم تورعه عمّا حرّمه الله فقد أسرف في الإثم والموبقات، أقسم على استئصالهم وقتلهم فقال: «والله لأقتلهم -أي العلويين- ولأقتلنّ شيعتهم». كما أرسل طائفة كبيرة منهم إلى ساحات الإعدام، ودفن قسمًا منهم وهم أحياء، وأودع الكثيرين منهم في ظلمات السجون إلى غير ذلك من المآسي الموجهة التي صبّها عليهم. كما ضاق الرشيد ذرعًا واستشاط غضبًا وغيظًا حينما رأى جماهير المسلمين تنهات على زيارة مرقد الإمام الحسين عليه السلام، فأمر بإحضار سادن المرقد المطهر ابن أبي داود ليصب عليه جام عقابه... فأمر بهدم المرقد العظيم وهدم الدور المجاورة له. كما طارد الرشيد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وسجنه في ظلم المطامير ثم قتله. الأعلام، ج ٨، ص ٦٢.

بناءً على هذه الخلفية نستطيع أن نفهم انحراف المسيرة لصالح العباسيين، لأن الرجل الذي كان على رأس الجهاز المشرف للحركة وهو العلوي أبو هاشم^(١)، أصيب بمرض في الطريق إلى المدينة المنورة خلال توقفه في قرية الحميمة^(٢)، بعد أن ذهب إلى الشام ليقوم بالدعاية والعمل التنظيمي وليلبّي دعوة^(٣) الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك. وقد أشرف أبو هاشم على الموت فخشي أن تفشل بعد مماته الدعوة؛ لأن أسرار الحركة كلها عنده، فالدعاة لا يرتبطون ببعض مباشرة بسبب منهج العمل السري، وكذلك لأنهم منتشرون ما بين خراسان والكوفة والمدينة ومصر والشام، فحفاظاً على المسيرة وخوفاً من أن تموت الحركة بموته أخذ في التفتيش عن رجل يُسلم بيده الأمانة، والتي تشمل أسماء الدعاة وكلمات السر التي فيما بينهم، وبعد أن فتش أبو هاشم في تلك القرية، لم يجد علويّاً يُسلمه أسرار الدعوة، ولكنه وجد أحد العباسيين وهو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فاختره وسلمه تلك الأسرار، وبَيّن له أن الحكم هو من حق العلويين وينبغي أن يبقى بأيديهم، وبذلك أصبح هذا العباسي هو المالك لزام الحركة بعد أن عرف كل أسرارها بما فيها رسائل إلى الدعاة. وبعد أن توفي أبو هاشم أصبح ذلك العباسي هو الإمام من بعده^(٤).

فبينما كانت الحركة العلوية على مشارف النجاح والانتصار، جاء العباسيون وقطفوا الثمار واستولوا على الحكم، وكل ذلك كان نتيجة منعطف بسيط في التاريخ مكّن العباسيين من أن يسرقوا الحكم من العلويين.

(١) عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، المعروف بـ(عبد الله الهاشمي) [ت: ٩٩هـ]، أبو هاشم: أحد زعماء العلويين. وهو يعدّ من واضعي أسس الدولة العباسية. الأعلام، ج ٤، ص ١١٦.

(٢) قرية صغيرة في أرض الشراة بين الشام والحجاز.

(٣) كان سبب دعوة أبي هاشم للحضور إلى الشام من قبل الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك أنه كان يخشى من أبي هاشم أن يدعو إلى نفسه، فدس إليه السم.

(٤) الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٣١٦. أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٢٧٥.

إن مثل هذه المعرفة بالأحداث التاريخية تخلق وعياً حركياً لمسيرة الأحداث على مستوى الحاضر، لأن العمل الإسلامي اليوم يمر بمنعطفات شبيهة بالتاريخ، وقراءة التجربة التاريخية بصورة ناضجة كفيل بمنع الحركات الإسلامية من تكرار أخطاء الحركات السابقة، والكل يعرف أن واقع الحركات الرسالية منذ حوالي خمسين سنة وإلى الآن شهد قصصاً كثيرة وشبيهة بقصة الداعية العلوي السابق الذكر.

ففي العراق مثلاً، نجد أن الاستقلال قام على أكتاف الناشطين الإسلاميين وبالأخص من أتباع أهل البيت عليه السلام ولكن الذي استطاع أن يحكم العراق بعد الاستقلال هو الملك فيصل ابن الشريف حسين^(١)، القادم من خارج العراق، والسبب في ذلك هو غياب الوعي التاريخي، فلم يكونوا يعرفون أن تنازلهم عن حقهم هنا ماذا يعني في المستقبل.

إنه يعني المجازر، والتشريد، والتهجير الجماعي، والاستغلال، والاستعباد لفترة طويلة من الزمن، ولا يمكن أن يستبق الإنسان إلى هذه النتيجة إلا بالوعي التاريخي.

من هنا فإن طريقة دراستنا للتاريخ هي أن نجعله وكأنه أحداث حية تجري أمامنا، وذلك إذا نظرنا إليه بمنظار الحاضر، فإذا عرفنا سُنن التاريخ وقوانينه فإن من السهل تطبيقها على واقعنا المعاش، عندها سيصبح لنا وعي تاريخي نتصرف به ونتفوق به في الحياة.

(١) الملك فيصل الأول [١٨٨٣-١٩٣٣م]، أول ملوك المملكة العراقية: ١٩٢١-١٩٣٣م. الابن الثالث لشريف مكة، الشريف حسين بن علي الهاشمي [١٨٥٤-١٩٣١م] مؤسس الدولة الحجازية الهاشمية والحاكم قبل الأخير لمكة من الأشراف الهاشميين. أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، ج ٥، ص ٢٥٠٢.

— ﴿ صَفْوُ الْكَلَامِ ﴾ —

* هناك اتجاهان في دراسة التاريخ:

ألف: دراسة التاريخ للتاريخ، وهذا هو السائد حالياً بين المؤرخين العلميين.

باء: دراسة التاريخ بهدف الاستفادة من عبر الماضي لإعادة بناء الحاضر واستشراف المستقبل. ونحن نؤيد هذا الاتجاه، لأن مواقف الإنسان تتحدد وفق رؤاه في الحياة، والرؤية هي صنعة تراكم ثقافي عبر الأجيال، فالتاريخ حاضر ولا يزال حياً فينا.

* بناء الشخصية الحضارية يبدأ بالعمل على تجاوز كل ما هو متخلف واستحضار كل نقاط القوة والتقدم، وهذا لا يتحقق إلا بالاستفادة من التاريخ.

* وإذا درسنا التاريخ وفقاً للبصيرة السابقة، فإننا نستطيع معرفة القوانين التي تسيّر الحياة البشرية، لأن الحياة تحكمها سنن واحدة ولكن ضمن وقائع وظروف مختلفة.

* وإذا عرفنا - عبر دراسة التاريخ - أسباب فشل بعض التجارب الماضية، علينا ألا نسمح لأنفسنا بتكرار تلك التجارب، فبالوعي التاريخي نتجاوز الكثير من أسباب الفشل.



٩ | نشوء الحركة الرسالية

تمثلت بداية تحول الرساليين إلى حركة سياسية جماهيرية معارضة للنظام السياسي بعد مقتل الامام الحسين عليه السلام في العام (٦١) من الهجرة النبوية، فقبلئذ كانت الحركة موجودة، وكان لها مظهر سياسي يتمثل في حكومة الامام علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكنه كان على نطاق محدود نسبياً موزعاً في أنحاء البلاد الإسلامية.

ولكن بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، تحول الرساليون إلى حركة جماهيرية معارضة شملت جميع المسلمين وبلا استثناء، حيث إن المسلمين عرفوا حقيقة الاسلام ومغزى التفكير الرسالي الذي نادى من أول يوم بأن يكون الحكم حكماً مستقيماً وصالحاً، وعرف العالم الإسلامي كله آنئذ أنه كان من الخطأ الفظيع سكوت الأمة على انحراف القيادة؛ لأن ذلك السكوت أدّى بالتالي إلى فاجعة كبيرة كفاجعة كربلاء. من هنا فنحن نؤرخ للحركة الرسالية منذ عام ٦١ هـ.

فما الذي حدث بالضبط بعد استشهاد الإمام الحسين؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد من تمهيدين:

الأول: معرفة النظام الأموي بالمقاييس العصرية، بما فيها الألفاظ والكلمات المستخدمة الآن في القواميس العلمية والأدبية.

الثاني: معرفة طبيعة الحركات الرسالية، وما هي المجموعات البشرية التي اشتركت في تلك الحركات.

أولاً: طبيعة النظام الأموي

إن السلوك الإنساني على مستوى الفرد أو الجماعة هو انعكاس لما يحمله الفرد أو الجماعة من خلفيات نفسية وسلوكية، وهي السمات التي تمثل أصل الطبيعة وأساس التوجُّه، وبالتالي فإنَّ طبيعة النظام الأموي هي تعبير عن طبيعة بني أمية في الأساس، ومن هنا فإنَّ الإشارة إلى بني أمية قبل الإسلام وبعده يسلِّط الضوء على طبيعة نظام الحكم الأموي.

أما قبل دخولهم في الإسلام فقد كان الحزب الأموي جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الجاهلي المولع بالدم، والغارق إلى أذنيه في الجريمة، و«شِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ»^(١) - كما تشير إلى ذلك بعض كلمات الإمام علي عليه السلام - . إضافة إلى ذلك، فقد كان الحزب الأموي قائداً للتجمُّع القبلي الذي حارب الرسالة الإسلامية منذ بدايتها، والسبب في ذلك أن بني عبد الدار هم الذين كانوا يقودون القرشيين في كل الحروب، باعتبارهم يُشكِّلون وزارة الدفاع في أيام حكومة قريش التي كانت هي سيدة العرب في زمن الجاهلية الأولى. والذي كان يمثل بني عبد الدار هم الأمويون وفي طليعتهم أبو سفيان^(٢)، وعندما جاء الإسلام بتأسيس جديد يتجاوز كل التقسيمات القبلية، تحوَّل هذا الدين الجديد - في نظر الزعامات التقليدية - إلى خطر حقيقي يُهدِّد مصالحهم، ولهذا عمل أبو سفيان والحزب الأموي من بعده على الوقوف في وجه الدين الجديد^(٣)، حتى أصبحوا هم العقبة الأساس التي مثلت كل صراع الإسلام مع الكفر.

أما بعد انتصار الرسالة الإسلامية على كل جبهات الكفر، قام الحزب الأموي

(١) نهج البلاغة، خ ٨٩.

(٢) الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٦٣-٦٤.

(٣) قاتل أبو سفيان رسول الله ﷺ يوم أحد، وقتل خيار أصحابه سبعين ما بين مهاجري وأنصاري، منهم أسد الله حمزة.. كما قاتل رسول الله ﷺ يوم الخندق، وكتب إليه: «باسمك اللهم، أحلف باللات والعزى، وأساف ونائلة وهبل، لقد سرتُ إليك أريد استئصالكم فأراك قد اعتصمت بالخندق، فكرهت لقاءنا ولك مني كيوم أحد». النزاع والتخاصم، ص ٥٢.

بتغيير طريقته وأسلوبه^(١). فبعد أن كان يمارس عداءه بطريقة علنية^(٢)، ومن موقع القوة، تحوّل بعد الانتصار إلى العمل السري ومن موقع الضعف والنفاق^(٣).

تنامي الحزب الأموي

وقد تمكّنوا بهذا الآلية الجديدة التي اعتمدت على النفاق بصورة متمرسة ومدروسة من الانتشار حتى كوّنوا لهم امتداداً ونفوذاً داخل الحكم الإسلامي^(٤)، وأول من اعتمد على الحزب الأموي في تكوين حكومة ائتلافية - حسب التعبير الحديث - هو الخليفة الثاني الذي جعل من بعضهم قادة لبعض الحروب^(٥)، واعتمد على البعض الآخر بشكل كبير^(٦). ويذكر أن الحزب الأموي كان قد تسرّب إلى الحكم في عهد الخليفة الأول بصورة نسيية^(٧).

وبحكم هذا التآلف مارس الحزب الأموي ضغوطاً كبيرة على الخليفة الثاني حتى يصبح معاوية حاكماً على الشام، ونجح في ضغوطه. فلم يكن معاوية بن أبي

-
- (١) جاء في أسد الغابة، ج ٥، ص ١٤٩. روي أنه -أبا سفيان- لما أسلم ورأى المسلمين وكثرتهم، قال للعباس: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. قال ابن عباس: إنها النبوة! قال: فنعلم، إذا». (٢) قال أبو سفيان: «يا بني أمية، تَلَقَّفُوهَا تَلَقَّفَ الكَرَّة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم، وراثته...». مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٤٣. (٣) روي أن معاوية سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله! فقال معاوية: لله أبوك يا بن عبد الله! لقد كنت عالي الهمة، ما رضيت لنفسك إلا أن يُقرن اسمك باسم رب العالمين. شرح نهج البلاغة، ج ١٠، ص ٣٢١.

- (٤) كان هذا الأمر واضحاً وجلياً، وبانت علائمه عند مجيء الخليفة الثالث عثمان، بل جعل عثمان بني أمية أوتاد خلافته، وهو ما حققه وأثبتته المقرئ في كتابه النزاع والتخاصم، فراجعه. (٥) كان قائد الجيش الذي فتح مصر ثم عين والياً عليها عمرو بن العاص الأموي. تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ١٠٤.

- (٦) ولي في عهد الثاني على الشام يزيد بن أبي سفيان، ولما مات استخلف مكانه أخاه معاوية، واستقر على ولاية الشام، وكانت الرسل تأتي لعمر تشتكيه من أفعال معاوية وتذمه، وكان يقول لهم: «دعوا فتى قريش وابن سيدها...» البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٠٩.

- (٧) كان يزيد بن أبي سفيان قائداً لأحد الجيوش الأربعة التي أنفذها الخليفة الأول لفتح الشام (تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٨٧). وفيه: لما استلحق معاوية بأبويه عينه أميراً على الشام.

سفيان وحده، فقد كان معه مجموعة من آل سفيان والمغيرة ومروان، يشكّلون معاً تجمّعاً كاملاً. وباعتبار أن معاوية هو ابن أبي سفيان الذي كان قائد بني أمية في أيام الجاهلية، لذا فقد تم اعتباره والياً على الشام، علماً بأن أخاه يزيد بن أبي سفيان كان أحد القادة العرب لجهة الشام. وبعد اغتيال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب^(١)، تسارعت الأحداث لصالح بني أمية، ولعل الحقائق التاريخية ترجّح أن الأمويين كان لهم اليد الطولى في اغتياله^(٢)، فعلى ضوء المعطى القانوني الذي يدين المستفيد من الجريمة تكون الشبهة أكثر انحصاراً فيهم باعتبارهم المستفيد الوحيد، حيث أصبح الخليفة من بعد عمر من بني أمية وهو عثمان بن عفان الذي أطلق لهم العنان في اللعب بمقدرات الأمة الإسلامية المتنامية^(٣)، فعين منهم الولاة^(٤) والقضاة وقادة الحرب^(٥) وقد خصّصهم بالعطاء من بيت المال^(٦).

(١) قتله فيروز، غلام المغيرة بن شعبة المعروف بـ(أبي لؤلؤة). تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ١٩٠. أنساب الأشراف، ج ١٠، ص ٤٢٤. وكان أصل أبي لؤلؤة من نهاوند، فأسره الروم أيام فارس، وأسره المسلمون بعد، فنسب إلى حيث سبي. البداية والنهاية، ج ٧، ص ١١٢.

(٢) ومن القائلين بهذا الرأي العلائي، في كتابه سمو المعنى في سمو الذات، ص ٣١، فراجعه. (٣) موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ٣١. وقال تقي الدين المقرئ: «رُوي أن الأمر لما أفضي إلى عثمان بن عفان، أتى أبو سفيان قبر حمزة فركلته برجله ثم قال: «يا حمزة، إن الأمر الذي كنت تقاتلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم، وكنا أحق به من تيم وعدي». النزاع والتخاصم، ص ٨٤.

(٤) ولي إمارة الشام معاوية بن أبي سفيان. تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٤٢١. أما مروان بن الحكم طرئ رسول الله ﷺ فإنه أصبح في خلافة عثمان بن عفان بمنزلة الوزير. وكان عامله على الكوفة أخاه لأمه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وهو المعروف بفسقه وشره للخمر، حتى إنه قدم يوماً إلى صلاة الفجر في المسجد وهو سكران، فصلّى بأهل الكوفة صلاة الصبح أربع ركعات، ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟ أسد الغابة، ج ٤، ص ٦٧٦. وقتل بيدر كافراً، قتله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. النزاع والتخاصم، ص ٥١.

(٥) غزا معاوية بن أبي سفيان وبأمر من عثمان قُبرس. وغزا الوليد بن عقبة في إمارته على الكوفة أذربيجان، وأرمينية.. وعمرو بن العاص غزا الإسكندرية بعد نقضها للعهد فقتلهم. تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٢٥٨، ٢٦٢، ٢٦٤.

(٦) خص عثمان قوماً من بني أمية بعطاياه وهباته الكبيرة، فقد ذكر المؤرخون أنه وهب أبا سفيان مائتي ألف من بيت المال شرح النهج، ج ١، ص ١٩٧-١٩٨، كما أعطى للحارث بن الحكم

ولمّا لنا الأمويون ووصلوا إلى درجة كبيرة من القوة والنفوذ، قرروا التخلص من عثمان نفسه^(١)، لأنه لم يكن يمثل امتداد أبي سفيان الزعيم التقليدي لبني أمية، ومعاوية

ثلاثة آلاف درهم، ووهبه إبل صدقات المدينة، وأقطعه «بموضع سوق بالمدينة، يعرف بمهزور» وهو الذي تصدّق به النبي ﷺ على المسلمين، وكتب لمروان بن الحكم بخمس إفريقية (بلغت خمس مئة ألف دينار)، وأعطى أقاربه المال وتأول في ذلك الصلة التي أمر الله بها، واتخذ الأموال واستسلف من بيت المال مالا وقال: إن أبا بكر وعمر تركا من هذا المال ما كان لهما، وإني أخذه فأصل به ذوي رحمي...». أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٥١٢ و ٥٤١. وروي أنه حين استعمل عمر بن الخطاب، عتبة بن أبي سفيان على كنانة «فقدم معه بهال، فقال: ما هذا يا عتبة؟ قال: مال خرجت به معي وتجرت فيه، قال: ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه!». فصّره في بيت المال. فلما قام عثمان بن عفان قال لأبي سفيان: إن طلبت ما أخذ عمر من عتبة رددته عليه...». أنساب الأشراف، ج ١٠، ص ٣٣٢، ومثله بشيء من الاختلاف في الفخري، ١٠٢-١٠٣.

(١) يذكر المؤرخون أن بني أمية وآل أبي معيط أسلموا عثمان وانهزموا عنه بعد أن أحاط به الثوار، وقد خذله معاوية، حيث كتب عثمان لمعاوية يستنجده ويستصرخه وهو واليه على الشام، فقال في كتابه: «... إن أهل البغي والسفّه والجهل والعدوان من أهل الكوفة وأهل مصر وأهل المدينة قد أحاطوا بداري ولم يرضهم شيء دون قتلي، أو خلعي سربالاً سربلني ربي، ألا وإني ملاقي ربي، فأعني برجال ذوي نجدة ورأي، فلعل ربي يدفع بهم عني بغي هؤلاء الظالمين الباغين عليّ. والسلام». وقد حمل الكتاب مسور بن مخزّمة، فقال لمعاوية بعد أن قرأ معاوية الكتاب: «يا معاوية، إن عثمان مقتول فانظر فيما كتبت به إليه.. فقال معاوية: يا مسور، إني مصرّح أن عثمان بدأ بعمل بما يحبّ الله ويرضاه ثم غير غير الله عليه، أفيتهمي أن أردّ ما غير الله عزّ وجلّ». الفتوح، ج ٢، ص ٤١٧. وذهب جملة من المؤرخين إلى أن معاوية كان يترقب مصرعه ليتخذ من دمه وسيلة للظفر بالملك، وقد قال الإمام عليّ عليه السلام لمعاوية في أمر عثمان: «فإنك إنما نصّرت عثمان حين كان النصّر لك، وخذلته حين كان النصّر له»، وقالوا: بأن مروان بن الحكم كان السبب في الثورة على عثمان، كما أورده المسعودي في تاريخه، ج ٢، ص ٣٤٤. وقال ابن الأثير: «خرج عمرو بن العاص إلى منزله بفلسطين، وكان يقول: والله إنّي كنت لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان...». الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥. وروي البلاذري في أنساب الأشراف ج ٢، ص ٢٨٧، عن لسان عمرو بن العاص في محاورته مع معاوية في أمر عثمان: «إنّ أحق الناس ألا يذكر عثمان لأننا وأنت، أما أنا فتركته عياناً وهربت إلى فلسطين، وأما أنت فخذلته ومعك أهل الشام». للاستفادة والإيضاح انظر: الصحيح من سيرة الإمام علي، المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي، ج ١٨. وأيضاً ما كتبه العلامة المحقق الشيخ الأميني في الغدير، ج ٩.

ابن أبي سفيان^(١)، موجود وله سلطة ونفوذ كونهما خلال فترة ولايته على الشام، فعمل على تركيز كل الدولة بشكل أساسي في بلاد الشام، المنطقة العربية، الحديثة الانعتاق من سلطة الرومان. ولم يكن اختيار الحزب الأموي لبلاد الشام مقراً لسلطته عبثاً، وإنما كان وفقاً لتخطيط مسبق، فهي مسندة من الخلف من قبل الإمبراطورية الرومانية، هذا مضافاً إلى أن عرب الشام هم الذين قاموا بقيادة العرب الآخرين إلى حدّ ما، نيابة عن الحكم الروماني، فلهم حالة من التمرّس على الحكم والقيادة^(٢).

وبذلك يمكننا تشكيل تصور أولي مفاده أن بني أمية سعوا بكل الوسائل لورثة الدولة الإسلامية، وبالتالي لم يكونوا يتورعون عن استخدام أي وسيلة توصلهم إلى ذلك الهدف، حتى أصبحوا مثلاً لذلك النظام ذي الطبيعة القبلية الجاهلية المولعة بالدم والغارقة إلى أذنيها في الجريمة.

بناء الجيش الأموي

أول ما قام به معاوية بن أبي سفيان هو جمع الأموال من عرب الشام^(٣) بطريقة مشروعة أو غير مشروعة^(٤)، مضافاً إلى الأموال الموجودة مسبقاً عند الأمويين

(١) عُرف معاوية [٢٠ق هـ - ٦٠هـ] بالمكر والدهاء والغدر، وبسياسة البطش والجبروت، فاستهان بمقدرات الأمة وكرامتها، قال بعد صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام: «ألا كل شيء أعطيته للحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به». وعنه قال الحصين بن نمير: «ما وفي معاوية للحسن بشيء مما أعطاه، قتل حجراً وأصحاب حجر، وباع لابنه، وسم الإمام الحسن». وعن إسلامه قال ابن أبي الحديد: «معاوية مطعون في دينه عند شيوخنا (رحمهم الله)، يُرمى بالزندقة» شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٨٧.

(٢) كانت قضاة بن مالك بن حمير أول من نزل الشام، وانضافوا إلى ملوك الروم، فملّكوهم بعد أن دخلوا في النصرانية على من حوى الشام من العرب... ثم وردت سليح الشام فغلبت على تَنُوخَ، وتنصرت فملّكتها الروم على العرب الذين بالشام... وغلبت غسان على من بالشام من العرب، فملّكتها الروم على العرب. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٨٢-٨٣.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ٢٦٩. وقال اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٢: «إن معاوية أول من استصفى أموال الناس، فأخذها لنفسه».

(٤) الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣٢٢.

نتيجة خبرتهم في التجارة، وما تمكّنوا من نهبه أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ثم وظف هذه الثروة في شراء الضمائر والنفوس الضعيفة من فلول الجيش الأموي^(١) الجاهلي الذي هزمه الإسلام، لتكوين جناح عسكري جديد يكون قادراً على محاربة الإسلام المتمثل في أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وبالتعبير الحديث، قام بتوظيف المرتزقة والمحاربين القدامى لتكوين جيش ضخّم يتركب من العرب الذين كانوا يحاربون الإسلام في بداية أمره، ومن الذين أصبحت الحرب مهنتهم وحرفتهم، وكذلك من الموتورين الخاقدين على الإسلام، هذا مضافاً إلى المرتزقة الأجانب الذين وجدوا مصالحهم تقترب من معاوية.

فهذا حسان بن مالك^(٢) -الذي كان رئيس قحطان وسيدها بالشام- لما بايع مروان بن الحكم، اشترط على مروان ما كان له من الشروط على معاوية، وابنه يزيد، وابنه معاوية بن يزيد، منها: أن يفرض لهم لألفي رجل منهم ألفين ألفين، وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي، وصَدْر المجلس، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي منهم ومشورة. فرضي مروان بذلك، فانقاد إليه. وقال له مالك بن هُبَيْرَة اليشكري^(٣): «إنه ليست لك في أعناقنا بيعة، وليس نقاتل إلا عن عَرَض دنيا؟. فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك، وإن تكن الأخرى فوالله ما قرّش عندنا إلا سواء، فأجابه مروان إلى ما سأله!»^(٤).

(١) حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام، للقرشي، ج ٢، ص ١٢٦.

(٢) ابن بَخْدَل بن أنيف، أبو سليمان الكلبي [توفي نحو ٦٥هـ]: أمير بادية الشام. كان من القادة في جيش معاوية يوم صفين. ثم أزر مروان في حربه مع الضحّاك بن قيس. قال أحد مؤرخيه: سلم الناس على حسان بالخلافة، أربعين ليلة، ثم سلم الأمر إلى مروان. وكان له قصر في دمشق يعرف بقصر البَحْدَالَة، ثم صار يعرف بقصر ابن أبي الحديد». الأعلام، ج ٢، ص ١٧٦.

(٣) ابن خالد السكوني الكندي [ت: ٦٥هـ]، من رؤساء كندة في العصر الأموي، بالشام. ومن الخطباء. كان مع معاوية أيام صفين. الأعلام، ج ٥، ص ٢٦٧.

(٤) تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ١١، مروج الذهب، ج ٣، ص ٨٦. المنتظم، ج ٥، ص ٢٢٣.

مستشار رومي للاستخبارات العسكرية

أما في الشأن الأمني والسياسي، نجد أن معاوية اختار مستشاراً^(١) رومياً، وهو سرجون^(٢)، كاتباً^(٣) ومتولياً لرئاسة ديوان الرسائل والخراج^(٤)، وعيّنه في وظائف هامة وأعطاه صلاحيات كبيرة^(٥).

أما والد سرجون (منصور)، فقد اعتمد عليه معاوية كثيراً لخبرته بالشؤون العسكرية والأمنية^(٦)، إذ كان من قواد الجيش الروماني، فوسّع له في الصلاحيات حتى

(١) تاريخ خليفة، ص ١٤١. الدعوة إلى الإسلام، سير أرنولد، ص ٦٠. فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ج ١، ص ٥٧. تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، ص ١٢٤.

(٢) ابن منصور الرومي، (نصراني)، أبو القديس يوحنا الدمشقي، الذي عرف بابن سرجون، أو سمي بجده ابن منصور، أو سمي بمنصور على قول. وسرجون كاتب معاوية ومستشاره الخاص، وصاحب سرّه، وبعد معاوية أصبح كاتباً ومستشاراً عند يزيد ونديمه. وفي الأغاني، ١٧، ص ٣٠١، قال: «يزيد بن معاوية ... شرب الخمر وكان ينادم عليها سرجون النصراني».

(٣) للوقوف على مفهوم الكاتب في عهد بني أمية، ومكانته كوزير ومستشار، راجع: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ١٥١. وقد استعمل معاوية واليه على خراج حمص النصراني ابن أثال. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٢.

(٤) الوزراء والكتاب، ص ٢٢. تاريخ دمشق، ج ٢٠، ص ١٦١. تاريخ خليفة، ص ١٤١. خطط الشام، ج ١، ص ١١١. الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٣٤٥.

(٥) كان لنصارى الشام عموماً حضوراً بارزاً في الدولة الأموية في عهد معاوية على الخصوص، فقد كانت زوجته - أم يزيد - نصرانية تنتمي لمذهب اليعاقبة، وهي شامية (عربية) من بني بجدل من قبيلة كلب، القبيلة التي تنتمي لها زوجة الخليفة الثالث. كما كان للنصارى الدور الأبرز في تشكيل شخصية يزيد الدينية والسياسية. حتى نقل أنهم يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم أحد، وكان الأخطل الشاعر النصراني يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن، وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه أحد، ولا يستنكفون من ذلك لأنهم كانوا يستعينون به في هجو الأنصار. تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ٣٨٩. وطالع أيضاً: تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٨، ص ١١٢. ولاحظ أيضاً: ما كتبه الملوحي عن العلاقة الحميمة بين النصارى وبني أمية في كتابه: (الحب بين المسلمين والنصارى).

(٦) الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، ج ٢، ص ١٥٨. وراجع أيضاً: منتخبات التواريخ لدمشق، محمد أديب آل تقي الحصيني.

أصبح بمثابة مدير للاستخبارات العسكرية، فجمعت المصالح بينهم برغم اختلافهم العقدي، فسر جون كان يبحث عن الثروة وتقويض التجربة الإسلامية التي أدت إلى انهيار النظام الروماني، ومعاوية يبحث عن بسط سيطرته ونفوذه على أنقاض التجربة الإسلامية. ولذا أصبح سر جون مخلصاً لهذا النظام الذي ضمن له مصلحته حتى بعد موت معاوية، فدعا إلى يزيد وعمل على تثبيت خلافته، فعندما أراد يزيد أن يعزل عبيد الله بن زياد، الذي كان يعتبره منافساً له^(١)، منعه سر جون وأشار إليه بأن يجعله والياً على الكوفة التي بدأت تتمرد على النظام الأموي معلنة الولاء للإمام الحسين عليه السلام، وقد نجح ابن زياد في القضاء على تلك الحركة، كما عمل سر جون على إقناع القادة العسكريين أو غير العسكريين الذين كانوا يبتعدون عن يزيد، لكي يرجعوا إلى الخدمة العسكرية^(٢).

وهكذا، وبهذا الشكل التلفيقي تمكّن معاوية من تأسيس نظام عسكري قوي في الشام يستعد به للانقضاض على التجربة الإسلامية.

ضحالة الوعي السياسي في الشام

من أهم الدعائم التي ساعدت هذا النظام الجديد هو ضحالة الوعي الديني لدى أهل الشام، وبُعدهم عن مركز الرسالة، وقد عمل بنو أمية بشكل كبير على حجب تلك المجتمعات^(٣) الجديدة عن تعاليم الإسلام، بل مارسوا دوراً سلبياً في

(١) ذكر في البداية والنهاية، ج ٨، ص ١٥٢: أن يزيد «كان يبغض عبيد الله بن زياد، وكان يريد أن يعزله عن البصرة». وذلك لأن ابن زياد كان ممن عارض بيعة يزيد التي أعلنها معاوية، كما أن معاوية استشاط غضباً حين وصله رسول ابن زياد حاملاً له رسالة احتجاجه واعتراضه مبرراً فيها: «فما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصنغ، ويدمن الشراب، ويمشي على الدفوف، وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس... فقال معاوية للرسول: ويلي على ابن عبيد! لقد بلغني أن الحادي حدا له أن الأمير بعدي زياد، والله لأردنه إلى أمه سمية، وإلى أبيه عبيد». تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٠.

(٢) الفتوح، ج ٥، ص ٣٦. تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٣٥٦.

(٣) ذكر المسعودي في موجه جملة من المواقف التاريخية يستبين من خلالها مستوى وعي أهل الشام. طالع: مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٢ وما بعدها. كما عمل معاوية على عزل أهل الشام، وكأنه بعزهم يخشى من تواصلهم مع مختلف البلدان، وهو ما أبقاهم في ريقه التخلف، بل خشيتهم عليهم من قوى

محاولة لتضليل الناس وقلب المفاهيم، بشكل تخدم التوجهات الأموية إلى درجة أن معاوية عندما وصف عناصر جيشه قال -في تهديده لأمر المؤمنين عليه السلام في حرب صفين-: «أنا أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمال...»^(١).

هؤلاء هم أهل الشام، العناصر الأولى للدولة الأموية.

قال المسعودي: «وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: من أبو تراب هذا الذي يلعبه الإمام (أي إمام الجماعة) على المنبر؟»

قال: أراه لصاً من لصوص الفتن.

وكما حكى الجاحظ إذ قال: «سمعت رجلاً من العامة وهو حاج وقد ذكر له البيت يقول: إذا أتيت من يكلمني منه؟. وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلي على محمد ﷺ ما تقول في محمد هذا؟. أربنا هو؟»^(٢).

أولم يصل فيهم معاوية صلاة الجمعة يوم الأربعاء في مسيره إلى صفين^(٣).

فقد شكّل هذا التخلف والبعد عن مفاهيم الإسلام عند أهل الشام الأرضية التي قام عليها الحكم الأموي، حتى أن الخلفاء الأمويين إذا جاء أحد معارضهم إلى الشام، لم يسمحوا له بالموثوق فيها لكيلا يقوم بعملية التوعية وتصحيح المفاهيم فيقلب عليهم الأمر. وقد حدث ذلك عندما ذهب الإمام الباقر عليه السلام إلى هشام بن

التأثير. كما هو واضح في عهده لولده يزيد. تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٣٢٣: حيث قال: «وانظر -يا يزيد- أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيتك، فإن نأبك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم...». وقال في أنساب الأشراف، ج ٥، ص ١٤٥: «فإني لا آمن الناس على إفسادهم...». وانظر أيضاً: تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٢٤. والكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦. المنتظم، ج ٥، ص ٣٢١.

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٢.

(٢) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٢.

(٣) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٢. وانظر أيضاً: الغدير للعلامة الأميني، ج ١٠، ص ٢٣٧.

عبد الملك في الشام وبعد أن رأى هشام أن الناس ماجوا وخاضوا إلى دار الإمام عليه السلام، طلب منه أن ينصرف إلى المدينة من ساعته ولا يجلس في الشام أبداً^(١).

ورغم أن أهل الشام كانوا قد عاشروا عدداً من الخلفاء الأمويين، إلا أنهم حتى ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون حقيقة الأمويين نتيجة التعتيم والخداع^(٢) الذي انتهجه بنو أمية اعتماداً على الإغراء حيناً والسيف حيناً آخر لكل من يكتشف الحقيقة ويحاول إبلاغها للناس^(٣). وبعد أن قويت شوكة الحكم الأموي في الشام، أخذ عملياً يتحجّن الفرص للانقضاض على الدولة الإسلامية في محاولات عدة منذ أيام الخليفة الثاني، وخلال فترة حكم الخليفة الثالث، حتى استطاع القضاء على الحكم الإسلامي الصحيح والشرعي في أيام الإمام الحسن عليه السلام^(٤).

ومن هنا، ووفقاً للقراءة السابقة لتاريخ النظام الأموي، ينكشف واضحاً أن الجيش الذي بناه معاوية ظل العمود الفقري للحكم الأموي خلال فترة النظام بكاملها وهي زهاء (٨٣) سنة، فهو نظام عسكري بامتياز، مما يجعل الطبيعة العامة لهذا النظام هي كل ما تقتضيه النظم العسكرية الدكتاتورية، من دموية ووحشية وقبضة حديدية في كل شؤون الدولة.

وعلى سبيل المثال فإن الحكم الأموي في مصر أو العراق عندما كان يندثر نتيجة قيام ثورة جماهيرية فإن الجيش الأموي كان يأتي من الشام ويخمدوها ويعيد الحكم الأموي من جديد^(٥).

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠٦. دلائل الإمامة، ص ٩٥.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٩٦.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج ٦، ص ٤٦٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٤. الإرشاد للمفيد، ج ٢، ص ١١. مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٢٨.

(٥) قاد معاوية جيشه من الشام إلى العراق (المدائن) في مواجهة حركة الإمام الحسن عليه السلام وإجباره على الصلح. مقاتل الطالبين، ص ٦٩. تاريخ دمشق، ج ١٣، ص ٢٦٤. تهذيب الكمال، ج ٦، ص ٢٤٥. كما قصد معاوية الحجاز من الشام في ألف فارس مواجهها معارضيه في بيعة يزيد

ثانياً: طبيعة الحركات الرسالية

لاكتمال الخلفية التي قدمناها عن طبيعة النظام الأموي لا بد أن نعرف أيضاً الظروف والملابسات التي تكشف عن وضع وطبيعة الحركة الرسالية في التاريخ بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام. ولمعرفة تلك الخلفية لا بد من إثارة مجموعة من الأسئلة التي نجعلنا ضمن السياق التاريخي للحركة:

- ١- ماهي العناصر البشرية التي كانت في تلك الحركات؟.
- ٢- ما طبيعة الوضع الاقتصادي والجغرافي الذي كانت تعيشه هذه العناصر؟.
- ٣- كيف فشلت بعض الحركات، وكيف نجحت أخرى؟.

الوضع الاجتماعي في الكوفة

لملاحظة الوضع الاجتماعي لمدينة تاريخية كالكوفة، يتطلب الأمر معرفة الحالتين السياسية والجغرافية، باعتبارهما من العوامل الأساسية التي تكشف عن طبيعة التركيبة السكانية. أما من الناحية السياسية فيكفي أن الكوفة كانت عاصمة الدولة الإسلامية أيام خلافة الإمام علي، وابنه الإمام الحسن عليه السلام، ثم تحولت بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام إلى المدينة الثانية أو العاصمة غير الرسمية. وأما من

فاستقبله كبار الصحابة وهو يشتم ويهدد من لا يبايع يزيد. قال في نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٢٢٢-٢٢٣: «وسار إلى الحجاز في ألف فارس، فلما دنا من المدينة لقيه الحسن بن علي عليه السلام أول الناس، فلما نظر إليه معاوية قال: لا مرحباً ولا أهلاً بدنة يترقق دمها والله مهريقه. قال: مهلاً فإني لست بأهل لهذه المقالة. قال: بلى ولشراً منها..». كما حرك يزيد جيشه من الشام إلى أهل المدينة مواجهها لاحتجاجاتهم بمسلم بن عقبة، وذلك بتوصية من أبيه معاوية كما ينقل كثير من المؤرخين أن معاوية قال ليزيد ابنه: «إن لك من أهل المدينة يوماً فإن فعلوها فارمهم بمسلم بن عقبة فإنه رجل قد عرفنا نصيحته». أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٣٣٤. البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٢١. تاريخ خليفة، ص ١٤٨. الفتوح، ج ٥، ص ١٥٨. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١١٢. وعبد الملك بن مروان يرسل الحجاج لقتال ابن الزبير في مكة في عشرين ألفاً من أهل الشام وغيرهم، وقدم الحجاج بن يوسف، فقاتلهم قتالاً شديداً.. كما في تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٦٦.

الناحية الجغرافية فقد كانت تشرف على البلدان التي تمتد من حدودها إلى الهند بخطين:

الأول: خط: الكوفة، مدائن، ري، خراسان، بلاد ما وراء النهر.. التي هي بالأسماء الحديثة: «الكوفة، بغداد، طهران، خراسان، مقاطعات أفغانستان، وآسيا الوسطى».

الثاني: خط: الكوفة، واسط، بصرة، هجر، عمان، سرنديب، الهند، التي هي بالأسماء الحديثة: «الكوفة، الكوت أو الديوانية، البصرة، إمارات الخليج، عمان، سيريلانكا، مقاطعات من الهند (الساحل الهندي)».

وقد جعلها هذا الموقع الجغرافي المتميز مرشحة أن تكون هي العاصمة في عهد الإمام علي عليه السلام بدلاً من المدينة المنورة^(١).

والكوفة وأصلها كوفان، وهي كوفة الجند^(٢)، كانت قد خُطَّت^(٣) وأنشئت على يد سعد بن أبي وقاص^(٤) - حسب بعض الروايات التاريخية - في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، في الجانب الغربي من الفرات على بضعة أميال إلى الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الحيرة، في السهل المحصور ما بين الفرات شرقاً والبادية المطلّة على مشارف الشام وعمّان غرباً.

-
- (١) دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام، ج ١، ص ٩٣-١٠٣.
- (٢) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، فصل الكاف. وانظر أيضًا: موسوعة النجف الأشرف، (النجف قديماً) ج ١، ص ١٤١، وما بعدها.
- (٣) خُطت سنة ١٧هـ، وذلك بعد عودة سعد بن أبي وقاص من فتح المدائن. تاريخ الكوفة، ص ٩٠. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (إقليم العراق)، ص ١١٦. البلدان (اليعقوبي)، ص ١٦. البلدان (ابن الفقيه)، ص ٢٠٠. الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٤٩٠.
- (٤) أبو إسحاق [٢٣ ق هـ-٥٥هـ]، واسم أبي وقاص: مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، أسلم قديماً، وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا. فاتح العراق، ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عيّنهم عمر للخلافة، ونزل أرض الكوفة فجعلها خططاً لقبائل العرب، وابتنى بها داراً فكثرت الدور فيها. وظل والياً عليها مدة عمر بن الخطاب. وأقره عثمان زمناً، ثم عزله. فعاد إلى المدينة، فأقام قليلاً وفقد بصره. الأعلام، ج ٣، ص ٨٧. طبقات الفقهاء، ج ١، ص ١١٢.

وكان السبب في تمصيرها أن تكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق، ودار هجرة وعاصمة للمسلمين بدل المدائن^(١).

وما أن حطّت القبائل رحالها في المصر الجديد وبدأ العمران، حتى توافد عليها الناس من كل صوب، ثم نمت الكوفة بعد ذلك وتحصّرت وازدهر فيها العمران حتى صارت قبلة أنظار العرب وزعمائهم. فتوسّعت بشكل كبير وازداد سكّانها، ففي العصر الأموي بلغت مساحة الكوفة كما قدّر الفقيه الشعبي: (سنة عشر ميلاً وثلثي الميل)، وكان بها خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومضر، وأربعة وعشرون ألف دار لسائر العرب، وستة آلاف دار للمسلمين^(٢).

وعندما فتح العرب بلاد خراسان، وبلاد ما وراء النهر، وبلاد الخليج والسند والهند، قام قسم من أهل هذه البلدان بالتوافد على العاصمة الكوفة، فأصبحت هناك مجموعات وافدة متنوعة.

كانت الكوفة أولاً منزل العرب وحدهم، وكان غالبيتهم عناصر متحضرة من اليمن وحضر موت مثل قبيلة (كندة) و(بجيلة). ثم نزل الكوفة بعد تمصيرها وبنائها عدد من الموالي، من الفرس، وأخلاق من أبناء المدن المجاورة كالسريان والنبط والنصارى واليهود^(٣).

فأصبحت بذلك قبلة للموالي، وهم المواطنون من الجنسيات غير العربية، ورغم أنهم كانوا مسلمين إلا أنهم ظلّوا محرومين من حقوقهم في الدولة الإسلامية، فهم مواطنون من الدرجة الثانية، وأجانب في الوطن الإسلامي في عصر الأمويين^(٤).

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٤٠. الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٥٢٨.

(٢) لاحظ: معجم البلدان، ج ٤، باب (الكاف والواو). و: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج ١٠، ص ٣٥ - ٣٦.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج ١٠، ص ٣٧.

(٤) العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٦٠. تاريخ الدولة العربية، فلهوزن، ص ٤٧١. تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ٣٤٢.

ولذا نجد أكثر المؤرخين حينما يكتبون عن الحكم الأموي فإنهم يقولون: (الحكم العربي)؛ لأن الأمويين اعتمدوا على العصبية العربية^(١)، وكانوا يعتمدون على الجيش العربي الموجود في سوريا، كما ذكرنا آنفاً.

لذلك ثار الموالي على القوانين المجحفة بحقهم^(٢)، برغم محاولاتهم الانصهار في الوسط العربي وعدم تمييز أنفسهم، فقد كانوا يدينون بالإسلام ويتحدثون العربية حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الإسلامي، وهنا كان يمكن أن تقوم حركتان: الأولى: حركة ارتداد، وذلك بأن يعود الفرس وسائر الموالي إلى دياناتهم السابقة، ويكونوا لهم كتلة يحاربون بها الدولة الأموية.

الثانية: قيام حركة دفاع عن حقوق الموالي تحت راية الإسلام.

القاعدة الاجتماعية للحركات الرسالية

إن الإسلام بصورته الأموية لا يقدم أي بوادر أمل أمام الموالي، بالتالي كان أقرب الخيارات تحقّقاً هو الارتداد وتشكيل جبهة مقاومة للنظام الإسلامي المتمثل في بني أمية، فلو قام الفرس وسائر الموالي بالرجوع إلى دياناتهم السابقة، ومن ثم القيام بحركة مضادة، فإن النتيجة لم تكن في صالح النظام الإسلامي، فحتى لو تعرّضوا لقمع في البداية، إلّا أن خيار نجاتهم موجود ويؤدي بالتالي إلى زوال الحكم العربي للأمويين والحكم الإسلامي ولا يبقى من الإسلام أي أثر.

ولكن الذي حدث هو قيام الإمام الحسين عليه السلام بحركته التي أظهرت وعياً جديداً يكون فيه الإسلام إلى جانب المظلومين والمحرومين، فهو الخيار الذي يحافظ على إسلام الموالي وفي الوقت نفسه يدافع عن حقوقهم المهضومة، فكانت كربلاء بمثابة الشرارة التي حرّكت كل المجاميع المحرومة الناقمة على النظام الأموي للمطالبة بحقوقها، وهكذا

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ٣٣٦. وانظر أيضاً: الدول العربية في الجزء الأول من تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن. و: تاريخ الدولة العربية ليويس فلهوزن.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ٣٧٢.

تحول الحسين عليه السلام وثورته إلى مخزون روحي يُغذي الحركات الرسالية.

وبعد حركة الإمام الحسين عليه السلام قامت مجموعتان بدعم وتغذية الحركة الرسالية:

الأولى: مجموعة الفقهاء، والزاهدين والمتدينين وأصحاب المساجد، فهم الذين دفعتهم الغيرة على الإسلام حينما سمعوا ورأوا بأمر أعينهم الإمام الحسين عليه السلام وهو يقتل ولم يُجرّكوا ساكناً.

الثانية: مجموعة العسكريين، والموالي، والسياسيين، الذين اعتقدوا بضرورة إعادة الخلافة إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام.

حركة الفقهاء والعُباد

جمع سليمان بن صرد أنصاره وقال لهم: «إنا كنا نمدُّ أعناقنا إلى قدوم آل بيت نبينا، ونُمنّيهم النصر، ونحثهم على القدوم، فلما قدموا ونبينا وعجزنا، وأدهنا وتربصنا، وانتظرنا ما يكون حتى قُتل فينا ولدُ نبينا وسُلالته وعُصارته وبُضعةٌ من لحمه ودمه، إذ جعل يستصرخ ويسأل النصف فلا يُعطاه، اتَّخذَه الفاسفون غَرَضاً للنبل، ودريّة للرمّاح حتى أفصدوه، وعدوا عليه فسلبوه. ألا انهضوا فقد سخط ربكم..»^(١).

ولهول المأساة التي واجهها الحسين وأصحابه وأهل بيته عليهم السلام في كربلاء كانت النفوس مهياًة للانتقام من قتلة الحسين عليه السلام، فقد اهتزت لمأساته حتى ضماثر الذين قتلوه وحاربوه مثل عمر بن سعد الذي دخل على ابن زياد وبين يديه رأس الإمام الحسين عليه السلام وهو ينشد قائلاً:

أوقر ركابي فضة أو ذها فقد قتلت الملك المحجبا
قتلتُ خير الناس أمّا وأباً وخيرهم إذ ينسبون نسباً^(٢)

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٥٥٤، الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٨٧.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ١١٩. مروج الذهب، ج ٣، ص ٦١.

وإنَّها لكلمة عجيبة أن يقولها رجل فاتح في زعمه. وإذا كان ضمير عمر بن سعد قد أنبّه^(١)، حيث يعترف بأنّه قتل خير الناس أمّا وأباً، فكيف بذلك الرجل المؤمن النقيّ الصادق الذي أمره الإمام الحسين عليه السلام بالقتال إلى جانبه، فلم يستجب في الوقت المناسب؟^(٢).

فقد فضح الحسين عليه السلام بتضحياته كل الذين تستروا بالدين، وحكموا الناس باسم الإسلام، فأثارت تلك العاطفة الجموع الغاضبة التي التفت حول راية: «يَا لثَأْرَاتِ الْحُسَيْنِ»، بزعامة سليمان بن صرد، ومن معه، وقد اجتمع حوله ألف رجل^(٣) من خلّص الموالين للإمام الحسين عليه السلام الذين كان ابن زياد قد سجنهم في

(١) يذكر سبط ابن الجوزي في كتابه (تذكرة الخواص، ص ٢٣٣) ندم عمر بن سعد، بعد خروجه من مجلس ابن زياد الذي وعده بمنصبه الديني وتحقيق جملة من أطماعه، ولما رأى ابن سعد أن لا شيء من ذلك سيتحقق، قال وهو يريد منزله إلى أهله: «ما رجع أحد مثل ما رجعت؛ أطعت الفاسق ابن زياد الظالم ابن الفاجر، وعصيت الحاكم العدل، وقطعت القرابة الشريفة». وقال: هجره الناس وكان كلما مرّ على ملا من الناس اعرضوا عنه، وكلما دخل المسجد خرج الناس منه، وكل من رآه قد سبه، فلزم بيته إلى أن قتل.

(٢) ذكرت أرباب السير وكتاب المقاتل جملة من الرجال الذين لقيهم الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه من مكة إلى كربلاء - في بعض المنازل - فمنهم من قدّم للإمام الحسين عليه السلام نصيحته في عدم خوضه للقتال، فأجابهم الإمام الحسين عليه السلام، بمثل ما أجاب به عبدالله بن عباس وغيره، ومنهم من دعاه الإمام الحسين لنصرته فاستجاب، ومنهم من اعتذر عن النصرة. كما ذكر أرباب السير ندمهم لعدم نصرة الإمام الحسين عليه السلام، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، عمرو بن قيس المشرقي، فقد روى الشيخ الصدوق رحمته الله بسنده «عن أبي الجارود عن عمرو بن قيس المشرقي قال: دخلت على الحسين عليه السلام أنا وابن عمّي وهو في قصر بني مقاتل - قرب القلطانة وسلام ثم القريات، وهو منسوب إلى مقاتل بن حسان التميمي - فسلمنا عليه فقال له ابن عمّي: يا أبا عبد الله، هذا الذي أرى خضاباً أو شعرك؟ فقال عليه السلام: خضاب والشيب إلينا بني هاشم يعجل. ثم أقبل علينا فقال عليه السلام: جئنا لنصرك؟ فقلت: إني رجل كبير السن، كثير الدين كثير العيال، وفي يدي بضائع للناس، ولا أدري ما يكون، وأكره أن أضيع أمانتي. وقال له ابن عمّي مثل ذلك. قال عليه السلام: لنا: فأنطلقاً فلا تسمعا لي وإعيتي، ولا تريا لي سواداً، فإنه من سمع وإعيتنا أو رأى سوادنا فلم يجئنا ولم يعيتنا، كان حقاً على الله عز وجل أن يكبه على منخريه في النار». بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢٠٤. ومن أراد التوسع فليراجع مثلاً موسوعة: مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة.

(٣) الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣. الفتوح، ج ٦، ص ٢١٠. المنتظم، ج ٦، ص ٣٥.

الكوفة بعد قدومه إليها^(١). فقاموا بحركة استشهادية ضد يزيد وجلاوزته، ولم يكن مقصودهم الوصول إلى الحكم، وإنما كانوا يطلبون القصاص من ابن زياد الذي قاد الجيوش لقتل الحسين عليه السلام. وبشكل درامي انتهت حركتهم سنة ٦٥ هـ^(٢)، بعدما حاربوا ابن زياد قريباً من الرقة في الشام، حرباً رسالية صمدوا فيها صمود الأبطال، وقتلوا من الجيش الأموي مقتلاً عظيماً، وقد انتهت المعركة باستشهاد سليمان والغالبية من جيشه، بينما رجع النفر القليل منهم إلى الكوفة ليثبوا ثقافة الثورة. وعلى طول التاريخ كانت هنالك حركة مثل حركة سليمان بن صرد، تظهر بين وقت وآخر، تتكوّن من الفقهاء والزهاد وأصحاب المساجد يقومون بالثورة ضد الظالمين.

حركة السياسيين والعسكريين:

- أما المجموعة الثانية فتختلف في عناصرها عن الأولى، وتتكوّن من:
- ١- العسكريين الذين شاركوا في الحروب الإسلامية، وكان اهتمامهم اهتماماً سياسياً، واعتقدوا بأن أهل البيت أحق بالخلافة.
 - ٢- الموالي غير العرب الذين رأوا في التشيع الإطار المناسب للعدالة الاجتماعية التي ينشدونها.
 - ٣- السياسيين المحنكين والمفكرين الذين هم في داخل الحكم والسياسة، فهم إما أمراء أو وزراء، وإما ولاة، وهؤلاء أيضاً اعتقدوا بأن الخلافة يجب أن ترجع إلى الأئمة من آل الرسول، لذلك قاموا بحركتهم.
- وهذه المجموعة قامت بحركات كان لها وزن سياسي، بينما كانت الحركات السابقة دينية عاطفية، الهدف منها هو إشباع الأمة بالروح الثورية، وكانت أشبه شيء باختطاف طائرة أو احتجاز رهائن عند الحركات الفدائية اليوم.
- فلو أن فدائيين أقدموا على اختطاف طائرة، فنجحوا، أو فشلوا فهؤلاء من الناحية العسكرية والسياسية لن يربحوا شيئاً وإنما سيربحون إعلامياً، بإلهاب روح

(١) إمتاع الأسماع، ج ١٢، ص ٢٥١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٥٩٩.

شعبهم وتعريفهم بالأهداف التي قاموا بالعملية من أجلها.

أهداف الحركات السياسية

أما الحركات السياسية فأهدافها تختلف عن الحركات الدينية، فقد كانت تهدف في الوصول إلى الحكم، مما يتطلب التخطيط والإعداد الجيد، وهذا ما قام به المختار بن أبي عبيدة الثقفي، الذي تربى في بيت والده الصحابي الجليل أبي عبيدة بن مسعود الثقفي^(١)، والده يُعتبر من القادة العسكريين الذين فتحوا العراق^(٢)، كما كان مع أخيه سعد^(٣) من الموالين للإمام علي عليه السلام، فكان يراه أحق بالخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كما كان سعد أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحد قادة حروب الإمام علي عليه السلام، وله الأثر الأكبر في تنشئة المختار عسكرياً^(٤). والمختار رجلاً رسالياً

(١) أبو عبيدة بن مسعود الثقفي [ت: ١٣هـ]، من القادة، ومن الشجعان. اعتنق الإسلام، وأخلص له، وكان من أبرز القادة، وقد أمره عمر بن الخطاب على الجيش الزاحف إلى العراق لقتال الفرس، وهو أول جيش ستره عمر. الأعلام، ج ٤، ص ١٩٠. بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٣٤٠. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج ٣، ص ١٣٧.

(٢) شارك أبو عبيدة بن مسعود الثقفي في فتح العراق زمن الخليفة الثاني، فهو من الزعماء الفاتحين، وكان مبعوث الخليفة الثاني للعراق وواليها، ومن ثم قائداً لمعركة الجسر التي استشهد فيها، وكان لجنه ابنه المختار. وفي يوم معركة الجسر وهو ابن ثلاثة عشر سنة كان يتفقت للقتال فيمنعه عمه سعد بن مسعود. فتوح البلدان، ص ٢٤٧. الاستيعاب، ج ٤، ص ١٧٠٩. البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٨. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٣٥٠.

(٣) سعد بن مسعود الثقفي عم المختار، روى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصحبه، ومن أصحاب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام الأوفياء. كان والي الإمام علي عليه السلام على بعض الأمصار، ثم استصحبه معه إلى صفين. كما أتى عليه الإمام علي عليه السلام في رسالة له، وذكره بالثقوى والتجابه، ودعا له: «أَمَا بَعْدُ، فَقَدْ وَفَرْتُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قِيَاهُمْ وَأَطَعْتُ رَبِّكَ، وَنَصَحْتُ إِمَامَكَ، فَعَلَّ الْمُتَنَزُّ الْعَفِيفُ، فَقَدْ حَدَّثْتُ أَمْرَكَ، وَرَضِيتُ هَذَبَكَ، وَأَبَيْتُ رُشْدَكَ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ. وَالسَّلَامُ». وهو الذي التجأ إليه الإمام الحسن عليه السلام في سباط حين جرح وناله سوء من أصحابه. مكاتيب الأئمة، ج ١، ص ٣٨٦. الإصابة، ج ٣، ص ٧١.

(٤) تنقل كتب التاريخ أن سعد بن مسعود الثقفي حين خرج من المدائن قاصداً الكوفة في زمن حكومة الإمام علي عليه السلام لمواجهة الخوارج عند محاذاتهم المدائن، أنه خلف عليها ابن أخيه المختار، ومنها نتعرف على المكانة السياسية والعسكرية التي كان المختار يتبوؤها. أنظر: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣٣٧. تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٧٦.

بعيدة عنه التُّهم التي تقول: بأنه كان كيسانيًا^(١)، أي يعتقد بإمامة محمد بن الحنفية^(٢) ابن الإمام علي عليه السلام التي كانت أمه^(٣) من قبيلة بني حنيفة. كما أنه لم يكن راوندي المذهب^(٤)، لأن المختار كان من جماعة الإمام علي عليه السلام، وأن الإمام حسب اعتقادنا كان يوصي دائماً بإمامة الحسن والحسين عليه السلام ثم ابنه زين العابدين^(٥)، فلا يمكن

(١) روي عن الأصبع أنه قال: «رَأَيْتُ الْمُخْتَارَ عَلَى فَخِذِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَمْسَحُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ: يَا كَيْسُ يَا كَيْسُ». (بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٣٤٤). ذهب كثير من المؤرخين والكتاب من أهل العامة إلى القول بنسبة الفرقة الكيسانية للمختار، منهم: ما قاله الأشعري في مقالات الإسلاميين، ج ١، ٩١: «إِنَّمَا سُمُّوا كَيْسَانِيَّةً لِأَنَّ الْمُخْتَارَ الَّذِي خَرَجَ وَطَلَبَ بَدَمَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَدَعَا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ، كَانَ يُقَالُ لَهُ: كَيْسَانٌ». وغيره الكثير، ومنهم من فند هذه التهمة ورفضها رفضاً قاطعاً كالـدكتور النشار، طالع: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٢، ص ٤٧. وأما من أعلام الإمامية فإنهم أجمعوا على تفنيد هذه التهمة وردّها، قال السيد الخوئي في معجم رجال الحديث ج ١٨، ص ١٠٢: «هذا القول باطل جزماً، فإن محمد بن الحنفية لم يدع الإمامة لنفسه حتى يدعو المختار الناس إليه، وقد قتل المختار ومحمد بن الحنفية حي، وإنما حدثت الكيسانية بعد وفاة محمد بن الحنفية، وأما أن لقب مختار، هو كيسان فإن صح ذلك فمنشؤه ما تقدّم في رواية الكشي من قول أمير المؤمنين عليه السلام له مرتين يا كيس، يا كيس فثني كلمة كيس، وقيل كيسان»..

(٢) محمد [٢١-٨١هـ] بن علي بن أبي طالب عليه السلام، الهاشمي القرشي، أبو القاسم المعروف بابن الحنفية. أمه خولة بنت جعفر بن قيس، وهي من سبي اليمامة الذين سبوا لولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وأرادوا بيعها. ففزوها أمير المؤمنين عليه السلام. قال رسول الله ﷺ: «يَا عَلِيُّ سَيُؤَلِّدُ لَكَ وَلَدًا قَدْ نَحَلْتُهُ اسْمِي وَكُنْيَتِي». ذكر العلامة المجلسي في البحار من فضائله ومدائحه وإقراره بإمامة السجاد عليه السلام. فراجع. وهو: أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام. وكان يقول: الحسن والحسين أفضل مني، وأخبار قوته وشجاعته كثيرة. مستدركات النمازي، ج ٧، ص ٧٧. الأعلام، ج ٦، ص ٢٧٠.

(٣) خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية، قال في أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٢٠٠: «بعث رسول الله ﷺ علياً إلى اليمن فأصاب خولة في بني زيد، وقد ارتدوا (الحنفية، وأدعت نبوة مسيئة) مع عمرو بن معدي كرب، وصارت في سهمه (أي سهم الإمام علي)». فقال له رسول الله ﷺ: إن ولدت منك غلاماً فسمه باسمي، وكنه بكنتي، فولدت له بعد موت فاطمة عليها السلام غلاماً فسمه محمداً وكناه أبا القاسم». وأنظر أيضاً: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢١٢. قاموس الرجال، ج ٩، ص ٢٤٦.

(٤) الراوندية وهم شيعة ولد العباس بن عبد المطلب. يرون أن أحق الناس بالإمامة بعد رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب، وأن الناس اغتصبوه حقه، وظلموه أمره، وأجازوا بيعه علي بن أبي طالب عليه السلام بإجازته لها، وذلك لقوله: «يا ابن أخي، هلم إلى أن أبايعك فلا يختلف عليك اثنان».. راجع: مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٣٧.

(٥) طالع تنزية المختار، ص ١٦. تحت عنوان: عقيدة المختار. و: المختار الثقفي، للمحقق القرشي.

أن يكون المختار (كيسانياً) أو (راوندياً). ثم إن قائد جيش المختار كان إبراهيم بن مالك الأشتر صاحب أمير المؤمنين وقائد عسكره ، حيث ورث إبراهيم القيادة من أبيه حسب المفاهيم السائدة في ذلك اليوم.

وقد حكم المختار فترة من الوقت، وكان حكمه بصدق عودة الحكم الرسالي بعد غياب طويل منذ حكم الإمام علي عليه السلام، ولقد قتل في حركته أغلب من اشترك في قتل الإمام الحسين عليه السلام من أمثال: ابن زياد^(١)، وابن سعد^(٢)، وابن ذي الجوشن^(٣)، وبعض أشرف الكوفة^(٤)، وغيرهم، فحركته كانت ضخمة، والذين أيدوا هذه الحركة كانوا من الموالي والرساليين.

ولمعرفة كيف بدأت حركة المختار؟ وكيف انتهت؟ ولماذا نجح أولاً وفشل بعد ذلك؟ فإننا سنعالج ذلك في البحوث القادمة إن شاء الله.

(١) عبيد الله بن زياد بن أبيه [٢٨-٦٧هـ]، عرف واشتهر بـ(ابن مرجانة) وهي أمه. ولد بالبصرة، وكان أول مولود ولد لها، ولأه معاوية خراسان (سنة ٥٣ هـ). أقره يزيد على إمارة الكوفة (سنة ٦٠ هـ) وكتب إليه: «بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح... واكتب إلي في كل ما يحدث». فكانت الفاجعة بمقتل الإمام الحسين. ولما مات يزيد (سنة ٦٥ هـ) بايع أهل البصرة لعبيد الله. ثم لم يلبثوا أن وثبوا عليه، فتنقل محتباً إلى أن استطاع الإفلات إلى الشام، وأقام مدة قليلة، ثم عاد يريد العراق، لحق به إبراهيم بن الأشتر في جيش يطلب ثأر الإمام الحسين، فاقتلا وتفرق أصحاب عبيد الله، فقتله إبراهيم بن الأشتر. الأعلام، ج ٤، ص ١٩٣.

(٢) ابن أبي وقاص [ت: ٦٦هـ] الزهري المدني، هو الذي سيره عبيد الله بن زياد على أربعة آلاف لقتال الديلم، ثم لما علم ابن زياد بمسير الإمام الحسين بن علي عليه السلام من مكة متجهاً إلى الكوفة، فكتب إليه ابن زياد أن يعود بمن معه، فعاد، فولاه قتال الإمام الحسين وكتب له عهد الرمي. وعاش ابن سعد إلى أن خرج المختار الثقفي طالباً لثأر ممن قتل الإمام الحسين، فبعث إليه من قتله بالكوفة. الأعلام، ج ٥، ص ٤٧.

(٣) ابن قرط الضبابي الكلبي العامري، أبو السابغة، اللعين، اسمه شريحيل [ت: ٦٦هـ]، حضر في صفين في صف الإمام علي عليه السلام، وشهد على حجر بن عدي، وهو الذي حرّض ابن مرجانة للتشديد على الإمام الحسين، وهو قاتل الإمام الحسين عليه السلام، أرسله عبيد الله بن زياد مع آخرين إلى يزيد في الشام، يحملون رأس الإمام. قتله أبو عمرة أحد قادة جيش المختار الثقفي. الأعلام، ج ٣، ص ١٧٥. مع الريب الحسني، ج ٤، الإمام الحسين في كربلاء، ص ٩١.

(٤) انظر: تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٥٥٨.

— ﴿ صِفْوَالِكَلَامِ ﴾ —

* نحن نؤرخ للحركة الرسالية منذ عام ٦١ هـ أي بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، لأن هذه الواقعة العظيمة كانت بداية تحول الرساليين إلى حركة سياسية جماهيرية معارضة للنظام السياسي القائم. ولا بد لنا - في البدء - من معرفة النظام الأموي، ومعرفة طبيعة الحركات الرسالية.

* عمل أبو سفيان ومعه الحزب الأموي - منذ فجر الرسالة - على الوقوف في وجه الدين الجديد، حتى أصبحوا هم العقبة الأساس في وجه تقدمه.

* سعى بنو أمية - بكل الوسائل - لورثة الدولة الإسلامية، ولم يتورعوا عن استخدام كل الوسائل والجرائم للوصول إلى هذا الهدف.

* بسبب الحرمان ثار المحرومون ضد القوانين المجحفة بهم. وكانوا يواجهون أحد أمرين؛ إما الارتداد إلى دياناتهم السابقة، أو قيام حركة دفاع عن حقوق المحرومين تحت راية الإسلام.

* بعد نهضة الامام الحسين عليه السلام قامت مجموعات بدعم الحركة الاسلامية؛ مجموعة الفقهاء والزهاد والمتدينين الذين كانت تدفعهم الغيرة على الإسلام. ومجموعة العسكريين والموالي والسياسيين الذين اعتقدوا بضرورة إعادة الخلافة إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام.



١٩ الحركة الرسالية امتداداً لحركة الأنبياء ﷺ

قبل كل شيء لا بد أن نعرف أن دور الأئمة المعصومين ﷺ هو مكمل لدور الأنبياء ﷺ، وأن حركتهم الرسالية إنما هي امتداد للرسالات السماوية التي نزلت قبل الإسلام، وبالتالي لرسالة رسولنا الأعظم محمد ﷺ.

فلو أردنا أن نعرف مسؤولية الأئمة، لا بد أن نعرف قبلئذ مسؤولية الأنبياء ووظيفتهم ودورهم وأعمالهم وأهدافهم الكبيرة في الحياة، وبعد أن نعرف دور الأنبياء وهدفهم الكبير، فإن كل شيء يبدو أمامنا واضحاً، ونسأل:

ما هو دور الأنبياء في الحياة؟

إن هناك ميزة تتمتع بها حركة الأنبياء ﷺ، وهي مواجهتهم للطواغيت في عصورهم، فمثلاً إبراهيم ﷺ يقول عنه ربنا: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم * إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُم * أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

إن كلمة ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي﴾ كانت رفضاً صارخاً لأقوى سلطة متحكمة في

(١) سورة الشعراء، آية: ٦٩-٨٧.

قومه، وأما النبي موسى ﷺ فقد أمره الله سبحانه بالذهاب إلى فرعون: ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾^(١). وكذلك سائر الأنبياء ﷺ، حتى نبينا محمد ﷺ عندما بُعث بالرسالة في مكة، كان قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾^(٢). وكان شعاره ﷺ: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا...»^(٣).

وهكذا كان يرفض سلطة الأقلية المستكبرة، وهذا الرفض ينسحب على كافة أبعاد الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولا يكفي الرسول بالرفض بل يضع نظاماً توحيدياً متكاملاً. وبتعبير آخر، يمكن أن نلخص دور الأنبياء وأهدافهم في كلمتين:

الأولى: تنمية الضمير الديني الحق في الإنسان.

الثانية: تنظيم حياة الإنسان على الأرض.

تنمية الضمير الديني

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين علي ﷺ: «.. فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْذُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيَذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِغِ، وَيُثِرُوا لَهُمْ دَفَاتِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدَرَةِ..»^(٤).

إذن، الوظيفة الأولى هي: تنمية الضمير الديني للبشر.

ويندرج تحت هذا العنوان (الإنذار، والتبشير).

فالأنبياء جاؤوا لينذروا الناس ويبشروهم، ولكن بم ينذرون الناس، وبم يبشرونهم؟ لينذروا الناس بالنار ويبشروهم بالجنة ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾^(٥).

(١) سورة النازعات، آية: ١٧.

(٢) سورة الكافرون، آية: ١-٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٠٢.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم: (١)، يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم.

(٥) سورة النساء، آية: ١٦٥.

وهذه الكلمة تكرّرت في القرآن الحكيم مرات عديدة، وهي أهم وظيفة للأنبياء، ومن آثارها:

- ١- تذكرة الإنسان بالحياة الآخرة.
- ٢- رفع حجب الغفلة والنسيان التي تُغلّف عقل الإنسان.
- ٣- إثارة دفائن العقل واستجلاء الضمير.
- ٤- تزكية الإنسان وتربيته الخلقية.

وهذه كلها تؤدّي إلى تنمية الضمير الديني في الإنسان، هذا هو أهم عمل كان يقوم به الأنبياء في الحياة.

تنظيم حياة الإنسان

أما الوظيفة الثانية فهي: تنظيم حياة الإنسان.

وذلك عبر:

- ١- وضع البرامج وبلورتها بشكل كامل.
- ٢- رفع العقبات والعراقيل التي تعترض تطبيق تلك البرامج.

فالأنبياء ﷺ جاؤوا من أجل وضع برامج للعدالة الاجتماعية والإصلاح الاجتماعي، بكافة جوانبه الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والتربوية.

وليس وضع البرامج فقط، وإنما وضعها وتطبيقها ورفع العقبات التي تحول دون ذلك، فإذا كان الطغاة يقفون حجر عثرة أمام تطبيق المناهج الإسلامية الرسالية، آنئذ تكون وظيفة الأنبياء ﷺ هي أن يحملوا السيف، ويعلنوا الحرب عليهم، قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤٦.

وكلمة ﴿وَكَايْن﴾ تُستخدم للتكثير والمبالغة، بمعنى كم من أنبياء قاتل معهم علماء فقهاء أخلصوا للرب تعالى. فكان هذا دور الأنبياء في الحياة، تنمية الضمير الديني، وهي المسؤولية الأولى، وتطبيق البرامج الإلهية في الأرض، وهي المسؤولية الثانية. وهذا أيضاً هو دور الأئمة عليهم السلام لأنهم المستحفظون على رسالات الأنبياء. فإذا كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام رجل سياسة، إلا أن السياسة لم تكن كل هم الإمام.

فقد روى عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِذِي قَارٍ وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، فَقَالَ لِي: مَا قِيَمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟ فَقُلْتُ: لَا قِيَمَةَ لَهَا!.

فَقَالَ عليه السلام: وَاللَّهِ لِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَنِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا...»^(١). ومرة قال في إحدى خطبه^(٢): «... وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَرْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَقْطَةِ عَنَزٍ».

فالساسة في منطق الإمام علي عليه السلام لم تكن هدفاً وكذلك الحكم، فجلوس الإمام على أريكة الخلافة الإسلامية ليس مهماً، وإنما المهم عنده هو إحقاق الحق وإبطال الباطل، وبالتالي تنمية الضمير الديني في الإنسان المسلم.

لذلك نجد أن نهج البلاغة، وهو كتابٌ يتضمن كلمات وخطب ورسائل حاكم مقاتل، وقائد عسكري، يفيض بالتقوى، والتوحيد، وبذكر صفات الله سبحانه وتعالى وآياته في الكون. ونجد أن الأحاديث والخطب التي قالها الإمام علي عليه السلام قبل أن يصل إلى الحكم، والتي قالها بعده، والتي قالها في حالة الحرب أو السلم، كانت على طراز واحد، حيث كانت تُوجّه الأمة إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما نعتبره إماماً لأنه قام بذلك، وهذه هي وظيفة الإمام علي عليه السلام ومسؤوليته، وليس فقط لأنه حاكم عادل، فالحكم بالعدل مهم ولكنه ليس كل شيء.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم: (٣٣)، عند خروجه لقتال أهل البصرة.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم: (٣)، وهي الخطبة المعروفة بالشقشقية.

إن الصفة الأساسية في شخصية الإمام علي عليه السلام والتي يجب أن تستقطب اهتمامنا هي تقواه، واستقامته، وتجسيده في سلوكه لقيم الرسالة ومناهجها.. بالإضافة إلى تربيته لمجموعة منتخبة من الناس كطليعة رسالية، وضمير إنساني ناطق في الأمة، أمثال: همام^(١)، وكميل بن زياد^(٢)، وغيرهما. لقد كانت تربيته لهذه المجموعة تنطبق عليها المواصفات التي ذكرها الإمام الصادق عليه السلام في كلمته: «رُهْبَانٌ بِاللَّيْلِ أَسَدٌ بِالنَّهَارِ»^(٣).

فهمام مثلاً هذا الرجل الذي طلب من أمير المؤمنين عليه السلام أن يصف له المتقين، كأنه ينظر إليهم، وبعد أن وصف له أمير المؤمنين عليه السلام المتقين، «صَوَّقَ هَمَّامٌ صَعْقَةً، كَانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: أَمَّا وَاللَّهِ؛ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ، وَأَمْرِي بِهِ فَجْهَزَ وَصَلَّى عَلَيْهِ، وَقَالَ عليه السلام: هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا..»^(٤).

أما كميل بن زياد الذي تربى على يد الإمام عليه السلام وارتضع من توجيهاته ودروسه، كان يُمضي ليلاليه بالتبُّل والتضُّع، وهو الراوي للدعاء المشهور والمعروف باسمه (دعاء كميل)، هذا الدعاء الذي يُقرأ في ليالي الجُمُع، ولكنه في الوقت نفسه كان حاكماً من قبل الإمام علي عليه السلام على ولاية هيت^(٥) من نواحي بغداد، فهو لم

(١) ابن شريح بن يزيد. من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأوليائه، كان ناسكاً عابداً، مجتهداً. شرح نهج البلاغة، ج ١٠، ص ٣٤٤. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٨، ص ١٦٧. تكملة الرجال، ج ٢، ص ٥٩٤-٥٩٥.

(٢) النخعي الكوفي، من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ومن ثقاته، قال عنه ابن كثير: «وكان شجاعاً فاتكاً على كبر سنه». كان والياً على هيت من قبل الإمام عليه السلام، روى عن الإمام الدعاء المشهور، الذي عرف واشتهر باسمه (دعاء كميل) لكونه راويه. ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق من العباد الثمانية المشهورين في الكوفة. استشهد سنة ٨٢هـ على يد الحجاج. انظر: رجال الطوسي، ص ٩٥. رجال البرقي، ص ٦. تاريخ دمشق، ج ٥٠، ص ٢٥٠. البداية والنهاية، ج ٩، ص ٤٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ١٨٠.

(٤) بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٣٤٥.

(٥) بلدة تقع على الفرات، فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة. معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٢١.

يكن منقطعاً عن الدنيا، وإنما كان كادحاً وعاملاً طوال النهار، وقائماً في المحراب ليلاً، هذا الرجل ليس الأوحى من بين أصحاب الإمام علي عليه السلام، إن هناك من هم أمثاله: كعمار^(١)، وميثم^(٢)، وقنبر^(٣)، وحجر بن عدي، وضرار^(٤)، وغيرهم.

(١) ابن ياسر بن عامر المَدْحَجِيُّ [٥٧ق.هـ-٣٧هـ]، أبو اليقظان، من السابقين إلى الإيمان والهجرة، الثابتين الراسخين في العقيدة، تحمّل تعذيب المشركين مع أبويه منذ الأيام الأولى لفجر الإسلام، فلم يدخله الشك ولم يعرفه قط. كان والياً على الكوفة في عهد عمر، ومن المعارضين الأشداء في عهد عثمان، من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وخُلص مواليه، اشترك في معركة صفين فتولى قيادة رجاله الكوفة والقراء، وفيها استشهد، قال رسول الله ﷺ في حقه: «تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاطِنَةُ». قال في حقه الإمام علي عليه السلام حين سئل عنه: «ذَلِكَ أَمْرٌ خَالَطَ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ وَشَعْرِهِ وَبَشَرِهِ حَيْثُ زَالَ [الْإِيمَانُ] زَالَ مَعَهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِلنَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئًا». الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ١٨٦. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٦، ص ١٤.

(٢) ابن يحيى التمار الأسدي [ت: ٦٠هـ]، أبو سالم، من أصحاب الإمام علي عليه السلام، كان عبداً لامرأة من بني أسد فاشتراه الإمام علي عليه السلام وأعتقه، من حوارى الإمام علي عليه السلام ومن الراسخين الثابتين على طريق الحق، والمدافعين عن الولاية، صاحب منزلة رفيعة في العلم حتى قال عنه أمير المؤمنين بأنه «أَلْقَى إِلَيْهِ عِلْمَ الْبِلَايَا وَالْمَنَآيَا». كان خطيباً، مفسراً، متكليماً، له كتاب في الحديث. قتله عبيد الله بن زياد قبل شهادة الإمام الحسين عليه السلام بأيام قليلة، وكان الإمام علي عليه السلام قد أخبره بكيفية استشهاده، وما يلاقيه في سبيل الله من التعذيب، فصلبه ابن زياد لمدة ثلاثة أيام، وكان عليه السلام يحدث الناس عن فضائل الإمام علي، ويخبرهم بما يكون من الفتن، فضايق ذلك على ابن زياد فأمرهم أن يلجموه بلجام من شريط، فكان أول من ألجم وهو مصلوب، ثم وجأ جوفه حتى مات. أعيان الشيعة، ج ١٠، ص ١٩٨. معجم رجال الحديث، ج ١٩، ص ٩٤. منتهى الآمال، ج ١، ص ٢٩٨.

(٣) مولى أمير المؤمنين عليه السلام، ومرافقه، عُد من الأوائل والسابقين الذين عرفوا حق أمير المؤمنين عليه السلام فاتَّبِعُوهُ وناصروه ودافعوا عن حقه وثبتوا على ولايته، بل عُد من أركان تابعيه عليه السلام. قال في حقه الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَامٌ اسْمُهُ قَنْبَرٌ وَكَانَ يُحِبُّ عَلَيْهِ حُبًّا شَدِيدًا...». وفي رواية العامة أنه «سئل قنبر مولى مَنْ أنت؟ فقال: أنا مولى من ضرب بسيفين، وطعن برمحين، وصلى القبلتين، وباع البيعتين...». وكان عليه السلام مرافقاً وملازماً لقضاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومنفذاً لأوامره، واستشهد على يد الطاغية الحجاج. طالع: الاختصاص، ص ٧٣. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٦، ص ٢٨١. منتهى الآمال، ج ١، ص ٢٩٢.

(٤) ابن ضمرة الضبابي، من خلص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فصيح اللسان، قوي الحججة والبيان. له موقف مشهور حين طلب منه معاوية أن يصف الإمام أمير المؤمنين. فوصفه حتى بكى معاوية ومن معه. أعيان الشيعة، ج ٤، ص ٤٠٣. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٤، ص ٢٧٩.

الإمام ﷺ الذي يُربّي في الكوفة أشخاصاً يسهرون الليل تبتلاً، ويصلون صلاة الصبح بوضوء صلاة العشاء، وفي النهار يقودون الناس، في السلم والحرب، إنه لا بد أن يُربّي مجموعات أخرى على درجات أقل، بمعنى إذا كان قد كَوّن عشرات من الصنف الأول، فمئات من الذين يسهرون نصف الليل، وآلاف من الذين يصلون الصلوات ويقرؤون القرآن بشكل جيد، وآخرين من النموذج الذي يؤمن بالله إيماناً عميقاً، ويستعد للتضحية في سبيل الله، وبالتالي فهو يكون أمواجاً متلاحقة داخل الأمة الإسلامية، موجة تتبع موجة، وكل موجة هي أكبر من السابقة.

وهكذا كان الإمام موسى بن جعفر ﷺ الذي عاش في فترة كانت الأمة الإسلامية قد وصلت يومذاك إلى قمة مجدها المادي، وكانت الأموال تُجبي إلى العاصمة من كل مكان، حتى أن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول: «أذهبي إلى حيث شئت يأتني خراجك»^(١). وكان الحكام والأغنياء، يملكون الضياع والأموال والعييد والجواري بلا حساب، ويتمتعون بحياة مرفهة، ويهارسون البذخ والإسراف العجيب.

فما هي وظيفة الإمام موسى بن جعفر ﷺ في هذا الوضع؟.

هل وظيفته تنحصر في إسقاط هارون الرشيد، باعتبار أن هارون الرشيد هو رأس الدولة الفاسد، وقد امتد فسادُه إلى جسم الأمة أيضاً؟.

إن وظيفة الإمام موسى بن جعفر ﷺ الأساس كانت تنمية الروح الدينية في الأمة، لذلك عندما كان الإمام ﷺ يُسجن فإن سجنائه لم يملكوا إلا أن يتأثروا بحياته، ويتشبعوا بالمبادئ والأخلاق التي كان يُجسدها من خلال سلوكه وعبادته ودعائه ومناجاته لله سبحانه وتعالى.

وقد بعث هارون الرشيد رسالة إلى ابن عمه في سفك دم الإمام ﷺ

(١) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج ١، ص ١٩٤. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٣، ص ٢٨٥.

وإراحته منه. وكان ابن عمه عيسى بن جعفر بن أبي جعفر العباسي، واليًا من قبله على البصرة.

فكتب عيسى بن جعفر إلى الرشيد يقول: «يا أمير المؤمنين، كتبت إليّ في هذا الرجل وقد اختبرته طول مقامه في حبيسي بمن حبسته معه عيناً عليه لتنظروا حيلته وأمره وطويته بمن له المعرفة والدراية ويجري من الإنسان مجرى الدم، فلم يكن منه سوء قطّ، ولم يذكر أمير المؤمنين إلّا بخير، ولم يكن عنده تطلّع إلى ولاية ولا خروج ولا شيء من أمر الدنيا، ولا قطّ دعا على أمير المؤمنين ولا على أحد من الناس، ولا يدعو إلّا بالمغفرة والرحمة له ولجميع المسلمين، مع ملازمته للصيام والصلاة والعبادة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُعفيني من أمره ويُنفذ من يتسلّمه مني وإلّا خلّيت سبيله، فأني منه في غاية الحرج»^(١).

ثم يأتي به ويضعه عند رئيس الشرطة في بغداد، وكان الوزير فيها الفضل بن الربيع، فقال الفضل أيضًا: «إني أتفقده الليل والنهار فلا أجده في وقت من الأوقات إلّا على الحال التي أخبرك بها، أنه يصلي الفجر فيعقب ساعة في دبر الصلاة إلى أن تطلع الشمس ثم يسجد سجدة فلا يزال ساجدًا حتى تزول الشمس، وقد وكل من يترصد له الزوال فلست أدري متى يقول الغلام قد زالت الشمس إذ يثب فيبتدئ الصلاة من غير أن يُحدث، فأعلم أنه لم ينم في سجوده ولا أغفى، ولا يزال إلى أن يفرغ من صلاة العصر، فإذا صلى سجد سجدة فلا يزال ساجدًا إلى أن تغيب الشمس، فإذا غابت الشمس وثب من سجده فصلّى المغرب من غير أن يُحدث حدثًا، ولا يزال في صلاته وتعقيبه إلى أن يُصليّ العُتمة، فإذا صلى العُتمة أفطر على شوى يُؤتى به، ثم يجدد الوضوء، ثم يسجد، ثم يرفع رأسه، فينام نومته خفيفة ثم يقوم فيُجدد الوضوء ثم يقوم، فلا يزال يصلي في جوف الليل حتى يطلع الفجر، فلست أدري متى يقول الغلام إن الفجر قد طلع إذ قد وثب هو لصلاة الفجر، فهذا دأبه منذ حوّل إليّ..

فقلت -عبدالله الغروي- اتق الله ولا تحدثن في أمره حدثاً يكون فيه زوال النعمة، فقد تعلم أنه لم يفعل أحد بأحد منهم سوءاً إلا كانت نعمته زائلة.

فقال الفضل: قد أرسلوا إليّ غير مرة يأمروني بقتله فلم أجبهم إلى ذلك، وأعلمتهم أني لا أفعل ذلك ولو قتلوني ما أجبتهم إلى ما سألوني^(١).

إذن فالإمام كان يبتّ الروح التوحيدية الحققة عبر صلواته ومناجاته ودعواته وقيامه في الليل، ويُربّي بذلك مجموعات من الناس ليكونوا طلائع العمل الرسالي.

اقرأوا رسالة الإمام ﷺ إلى هشام بن الحكم^(٢)، التي هي وحدها كافية لتربية الإنسان تربية متكاملة، ولو أن إنساناً آخر ألقى بهذه الوصية على هشام، فقد لا يتأثر بها. أما الإمام موسى بن جعفر ﷺ فإنه استطاع أن يبثّها في روح هشام، وربما كان للإيحاء النفسي في هذه الوصية تأثير أكبر من عباراتها، لأن الإمام كان يجسّد تعاليمها في أفعاله قبل أن يلقيها كوصايا على هشام، والأكثر من ذلك الموالي الذين كانوا حول الإمام، والخدم، وكذلك أبنائه، كل واحد من هؤلاء بنظرته إلى الإمام موسى بن جعفر ﷺ تحوّل إلى رجل متدين، وهذه هي الوظيفة الأساس للأئمة ﷺ.

وربما يقول أحدنا: كان الواجب على الإمام موسى بن جعفر ﷺ أن يُخفي نفسه ويكوّن حركة سرية ويبدأ العمل السياسي. إن هذا في الواقع عمل مهم ولكن الإمام قد وكل أمر هذه الوظيفة إلى أناس غيره، وقد تحدثنا سابقاً عن التنظيم الرسالي الذي توسّع في عهده.

إن أعظم دور قام به الأئمة المعصومون ﷺ، هو القيادة الروحية للأمة، لذلك فرضوا أنفسهم بصورة طبيعية حتى على أعدائهم، فمثلاً المنصور الدوانيقي هو الذي قتل الإمام الصادق ﷺ، ولكن مع ذلك وبعد وفاة الإمام تراه يبكي

(١) عيون أخبار الرضا ﷺ، ج ١، ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) رسالته ﷺ في العقل، طالع: الكافي، ج ١، ص ١٣. تحف العقول، ص ٢٨٢-٢٩٧.

بكاءً مرّاً ويقول لأحد رجاله، وهو أبو أيوب الحوزي: «هَذَا كِتَابُ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ يُخْبِرُنَا أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ قَدْ مَاتَ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ - ثَلَاثًا - وَأَيْنَ مِثْلُ جَعْفَرٍ؟»^(١).

إننا نقرأ في التاريخ أن الإمام علي عليه السلام كان يذهب إلى حديقة النجار، حيث يقضي الليل هناك يبكي بصورة متواصلة^(٢)، إن هذا لم يكن مجرد بكاء، وإنما كان توجُّهاً صادقاً وعميقاً لله سبحانه، وهذا البكاء هو الذي خلَّف في نفوسنا شعلة الإيمان، وكان يمشي في طرقات المدينة المنورة علَّه يجد فقيراً أو مسكيناً أو مريضاً فيساعده، أو صاحب مصيبة فيُعزِّيه. وفي الرواية: أن حبة العرنى كان نائماً في رحبة القصر، إذ سمع أنيناً وبكاءً، وإذا به يجد الإمام علي عليه السلام واضعاً رأسه على الحائط يبكي كالواله^(٣)، وقد كان لجوؤه إلى الحائط بسبب أن قواه كانت قد خارت من كثرة التعبُّد والتهجُّد وقيام الليل.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣. أعلام الوري، ص ٢٩٨. مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٣٢٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ١١.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢٢.

صَفْوُ الْكَلَامِ

* إن دور الأئمة المعصومين عليهم السلام هو مكمل لدور الأنبياء عليهم السلام، كما أن حركتهم الرسالية هي امتداد للرسالات الساوية.

* إن أهم ميزة تتمتع بها حركة الأنبياء عليهم السلام - وكذلك الأئمة عليهم السلام - هي مواجهة الطواغيب في عصورهم.

* ويتلخص دور الأنبياء عليهم السلام وأهدافهم في:

ألف: تنمية الضمير الديني الحق في الإنسان.

باء: تنظيم حياة الإنسان على الأرض.

* جاء الأنبياء لوضع وتطبيق برامج للعدالة الاجتماعية والإصلاح الاجتماعي في كل مجالات الحياة. وهذا هو أيضاً دور الأئمة عليهم السلام لأنهم المستحفظون على رسالات الأنبياء عليهم السلام.





التأريخ الإسلامي.. دروس وعبر

الباب الثاني: مسيرة الحركة الرسالية في العهد الأموي

الفصل الأول: سيرة وحياة الإمام السجاد عليه السلام
الفصل الثاني: الحركة الرسالية في عهد الإمام السجاد عليه السلام
الفصل الثالث: الحركات السياسية في زمن الدولة الأموية
الفصل الرابع: الحركة الرسالية في عهد الإمامين الصادقين عليه السلام





الباب الثاني، مسيرة الحركة الرسالية في العهد الأموي

الفصل الأول، سيرة وحياة الإمام السجاد عليه السلام

عصر الإمام السجاد عليه السلام دراسة وتحليل
وضع الدولة الإسلامية في عصر الإمام السجاد عليه السلام



٩ | عصر الإمام السجاد عليه السلام دراسة وتحليل

لرسم تصوّر يقترب من طبيعة الشخصية التاريخية التي يُراد دراستها، لا بد من ملاحظة بُعدين:

الأول: تُراعي الحالة الثقافية لتلك الشخصية باعتبارها المحدّد للمعالم السلوكية.
الثاني: تُلاحظ الظروف الموضوعية التي على أساسها تُبنى المواقف.

وبعيداً عن هذين البعدين لا يمكن الحصول على تصوّر يكشف عن حقيقة تلك الشخصية، فإهمال البعد الأول يُؤدّي إلى إهمال المحدّدات الأساسية للشخصية، مثل الدوافع والمنطلقات والأهداف التي يسعى إليها، بالتالي نفقد الطبيعة التي يتميّز بها عن الآخرين. كما أن إهمال الطبيعة التاريخية والظروف الموضوعية تبعدنا عن واقعه الشخصي. فتقوّم أي حدث بعيداً عن البعد الزمني الذي صُنِع فيه الحدث يكون أقرب إلى ارتجال فروض غير واقعية. ومن هنا عندما نقوم بتلك المحاولة للتعرّف إلى حياة الإمام علي بن الحسين عليه السلام ينبغي أن ندرس حياته^(١) بعمق لكي نُغيّر تلك الصورة المشوشة التي رُسمت له، إلى صورة مشرقة تُنير لنا الطريق. فقد كان تأثيره العظيم والهائل على واقع المسلمين خفياً، ودوره في قيادتهم من أخفى أدوار الأئمة عليهم السلام تقريباً.

(١) للوقوف على سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام، راجع مثلاً ما كتبه المؤلف: (الإمام السجاد.. قدوة وأسوة)، وما كتبه العلامة المحقق القرشي، (حياة الإمام زين العابدين عليه السلام.. دراسة وتحليل). وأيضاً: (الإمام زين العابدين من المهدي إلى اللاحق)، للعلامة السيد محمد كاظم القزويني.

ولذلك أصبح كثير من الناس لا يعرف الدور الحقيقي الذي مارسه الإمام السَّجَّاد عليه السلام، حيث يَحْصِر البعض الإمام ببعض الصفات البارزة فيه والواضحة في الصحيفة السجادية^(١)، وما أشبه، أو أنهم يجهلونه كلياً.

أهداف الحركة الرسالية

ولكي نعرف دور الإمام زين العابدين عليه السلام^(٢) معرفة واضحة، لا بد أن نعرف معنى الرسالة والرسالين، تلك المعرفة هي التي تكشف لنا المخزون المعرفي والثقافي للإمام عليه السلام، فحركة الإمام لم تكن نتيجة طبيعة ذاتية وإنما وليدة القيم الإسلامية المتجذرة في شخصيته عليه السلام، ومن هنا لا بد أن نعرف أن الحركة الرسالية لم تكن حركة سياسية تستهدف فقط القضاء على الحكم الأموي فالعباسي بالرغم من أنها طبعت بالطابع السياسي في كثير من الحقب، حيث كانت السياسة الوجه البارز لها. وإنما الحركة الرسالية حركة حضارية شاملة، تصبو إلى الهدف ذاته الذي جاءت من أجله الرسائل الإلهية التي هبطت على الأنبياء عليهم السلام وعلى النبي محمد صلى الله عليه وآله، وهو بناء الإنسان بناءً متكاملًا خلقيًا واجتماعيًا ودينيًا، فالهدف من رسائل الأنبياء ليس هو العمل السياسي فقط؛ ذلك لأن العمل السياسي بدوره مرتبط تمام الارتباط بسائر جوانب حياة الإنسان.

(١) تحتوي على سلسلة كبيرة من أدعية الإمام السَّجَّاد عليه السلام، عرفت بالصحيفة السجادية، قال العلامة المحقق الجلال: «يعبر عن هذه الصحيفة الأولى، حيث أن جمعًا من الأعلام جمعوا أدعية أخرى للإمام فتعددت الصحائف». ووصفها العلامة الطهراني في الذريعة بقوله: «ويعتني بها شيعة أهل البيت عليهم السلام، عناية بالغة، وقد سماها العلامة ابن شهر آشوب في (معالم العلماء) عند ترجمة المتوكل بن عمير بـ: (زبور آل محمد عليهم السلام)». وعند ترجمة يحيى بن علي بن محمد الحسني العريضي بـ: (إنجيل أهل البيت عليهم السلام). وقد خصها الأصحاب بالذكر في إجازاتهم، واهتموا برواياتها منذ القدم، وتوارث ذلك الخلف عن السلف، وطبقة عن طبقة، وتنتهي روايتها إلى الإمام الباقر عليه السلام وزيد الشهيد ابني الإمام زين العابدين عليهم السلام. انظر: الذريعة، ج ١٣. فهرس التراث، ج ١، ص ١١١.

(٢) قال في شذرات الذهب، ج ١، ص ٣٧٤: «سمي زين العابدين لفرط عبادته، وكان ورده في اليوم واللييلة ألف ركعة إلى أن مات». و: «سبب لقبه زين العابدين أنه كان ليله في محرابه قائماً في تهجده..». مطالب السؤول في مناقب آل الرسول صلى الله عليه وآله، ج ٢، ص ٨٥.

السلطة السياسية بنت الحالة الاجتماعية

فمن الناحية العلمية لا يمكن أن يكون الحاكم إلا ممثلاً طبيعياً أو شرعياً للمجموعة التي يحكمها. فالممثل الطبيعي هو الذي يمثل الأمة سلباً أو إيجاباً. بينما الممثل الشرعي هو الذي يمثل الأمة إيجاباً فقط.

لقد كان الإمام علي عليه السلام ممثلاً إيجابياً وشرعياً لعهد الذي استخلف فيه، ولكن يزيد بن معاوية كان ممثلاً طبيعياً لعهد، بمعنى أن يزيد بن معاوية وأعماله الوحشية البربرية التي اقترفها، إنما كانت من مسؤولية الأمة الإسلامية جميعاً، ولم تكن الأمة حينها راضية بما فعله يزيد بن معاوية والنظام الأموي من قبله، ولكن وبسبب أزمة الأخلاق التي أصابت الأمة بالتقاعس عن الحق والتواني والتواكل، ساهمت الأمة فيما اقترفه يزيد من أعمال شنيعة.

ولو كانت الأمة الإسلامية تتمتع بالروح الإيمانية الواعية والاهتمام بالدين والتضحية من أجله، لما وقعت جريمة واحدة من جرائم يزيد، بل وإن يزيد بن معاوية -الذي هو بدوره جريمة على الأمة الإسلامية- لم يكن ليأتي كحاكم متسلط أصلاً.

إذن لم يكن يزيد بن معاوية إلا ممثلاً للأمة الإسلامية، وواقعها في الحقبة التي حكمها، (فكما تكونون يولى عليكم)، وهذا الأمر صحيح من الناحية التاريخية ومن ناحية علم السياسة والاجتماع، لذلك فإن تغيير السياسة لا يمكن أن يكون بتغيير الحاكم فقط. بل إن تغيير الحاكم لن يحدث إلا إذا تغيرت طائفة من الأمة، لها من التفوق كماً وكيفاً.

إن هتلر^(١) كان يمكن تغييره وتبديله، لتنصيب رجل آخر مكانه، إذا غيّرت

(١) أدولف ألويس هتلر [١٨٨٩-١٩٤٥م] سياسي ألماني نازي، ولد في النمسا، وكان زعيم حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني والمعروف للعامة باسم الحزب النازي. تولى أدولف هتلر حكم ألمانيا في الفترة ما بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٤٥م حيث شغل منصب مستشار الدولة، في

الأمة الألمانية من نفسها ودخلت المعركة ضد هتلر.

إذن التغيير يجب أن يحدث أولاً في الأمة، ومن ثم يأتي تبعاً لذلك تغيير الحاكم، وهذا يبين لنا مدى الارتباط بين الأمة وبين الحكام والأنظمة، وهو بدوره يهدينا إلى مدى الارتباط بين السياسة والدين، وبين السياسة والاقتصاد، وبالتالي يجعل من الإنسان والمجتمع وحدة متكاملة، تتأثر وتتفاعل فيه عدة عوامل اجتماعية، واقتصادية، ودينية، وخلقية، وسياسية.

زرع حب الحرية في النفوس

والأئمة المعصومون عليهم السلام كانت لهم رسالة كبيرة، جزء منها تغيير أنظمة الحكم، ولكن الأجزاء الأخرى لا تقل أهمية في بناء الأمة الإسلامية وحضارتها، وكان من جملة رسالتهم زرع حب الحرية في نفوس جماهير الأمة.

والإنسان بفطرته يُحب الحرية، لولا عوامل الاستغلال والاستعباد وأغلال النفس التي تحجب الإنسان عن تلك القيمة، إلى درجة يتحوّل معها من محب للحرية إلى محب للعبودية. كما حدث مع (أبراهام لينكولن^(١)) الذي أنقذ العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية إبّان الحرب المعروفة بين الشمال والجنوب، وألغى قانون الرق من الدستور، وأخرج العبيد الذين كانوا يعملون عند أسيادهم البيض في مصانعهم وأراضيهم وتجارتهم، إلى الحياة الحرة المستقلة، وانتهت بذلك سلطة السادة على

الفترة ما بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٤٥ م. وفي عام ١٩٤٥ م، نجحت جيوش الحلفاء في اجتياح ألمانيا من جميع جوانبها وحتى سقوط برلين. وأثناء الأيام الأخيرة من الحرب في عام ١٩٤٥، تزوج هتلر من عشيقته إيفا براون بعد قصة حب طويلة. وبعد أقل من يومين، انتحر العشيقان. (١) أبراهام لينكون [١٨٠٩-١٨٦٥ م]، الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية بالفترة من ١٨٦١ إلى ١٨٦٥ م. يعد من أهم رؤسائها على الإطلاق، إذ قامت في عهده الحرب الأهلية الأمريكية بعد انفصال إحدى عشرة ولاية وإعلانها تكوين دولة مستقلة سمّيت الولايات الكونفدرالية الأمريكية، فتمكن لينكون من الانتصار وإعادة الولايات المنفصلة إلى الحكم المركزي بقوة السلاح، كما كان لينكون صاحب قرار إلغاء الرق في أمريكا عام ١٨٦٣ م. وقد مات مقتولاً في عام ١٨٦٥ م.

العبيد. ولكن الكثير من هؤلاء كانوا قد تعودوا على الذل والعبودية، فذهب الكثيرون منهم إلى أسيادهم ليقبوا تحت سلطتهم رغم الذل الذي كانوا يلاقونه.

إن سبب ذلك يكمن في أن نفوسهم كانت قد استعبدت، ولو كان النبي الأعظم عليه السلام، والأئمة المعصومون، والأنبياء السابقون عليهم السلام، لم يعملوا على حرية الناس لتحوّل الناس إلى عبيد لدى الطواغيت، ولما كانت هناك ثورات ولا حركات ولا تغيير، وبالتالي لم يحدث تقدّم ولا أية حضارة، إنما أنبياء الله هم الذين حرروا الإنسان منذ أول حقبة التاريخ، وبثوا في روحه حب الحرية والتضحية من أجلها، فربّوا رجالاً صالحين كأصحاب الحسين عليه السلام الذين حاربوا معه في كربلاء وأبلوا كل ذلك البلاء، ولو كان أولئك الرجال كسائر مَنْ في الكوفة، لكانوا يحاربون إلى جانب يزيد، إنما الأئمة هم الذين ربّوهم على حب الحرية والجهاد في سبيل الله، والإيمان بالآخرة، والتضحية من أجلها.

بناء الإنسان هدف الأنبياء وبرنامج الأئمة

إن الأنبياء بُعثوا من أجل بناء الإنسان، وجاهدوا من أجل بناء بشر مثاليين، لأنها نقطة التحوّل في المسيرة البشرية التي لا تكتمل إلا بإعطاء الإنسان دوره الطبيعي، فهدف الأنبياء يمكن تلخيصه في بناء حضارة يتكامل فيها الإنسان وفقاً للقيم الإلهية. ضمن هذا الرؤية نفهم الدور الكبير الذي قام به الإمام زين العابدين عليه السلام الذي عمل على إحياء مفاهيم الدين التي تبدّلت، فقام ببث روح الدين التي تحتوي -فيما تحتوي- على رفض الطواغيت، والتهيئة من أجل إقامة حكم الله، والعمل من أجل إنقاذ الإنسان من براثن الظلم والعبودية. ولو أن الأئمة عليهم السلام كانوا لا يهتمون بأمر الناس، أو كانوا يشتغلون بالسياسة فقط دون النظر إلى القيم الإلهية التي تخلق للسياسة أطرها وأنظمتها الخاصة، لكانت حركاتهم تشبه بعض الحركات السياسية التي تقوم بها فئات من الناس في أي مكان من العالم من أجل أهداف صغيرة ومحدودة، ما أن وصلوا إليها حتى يعودوا ويحكموا الناس بالظلم والعدوان.

الفرق الأساس بين حركة العباسيين وحركة العلويين

من هنا نعرف الفرق بين حركة العباسيين وحركة العلويين، فالعلويون كانوا يريدون الرسالة، والرسالة تعني الإسلام، الذي جاء برؤية متكاملة تستوعب النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وبالتالي لم تكن المطالبة بالحكم وإنما الحكم العادل الحر الجامع لكل شرائط الحق والكمال.

بينما العباسيون كانوا يريدون إسقاط النظام الأموي والسيطرة على مقاليد الحكم، لذلك عندما وصل العباسيون إلى الحكم فعلوا ما فعله الأمويون من الجرائم، فعندما بدأت التحركات العباسية في خراسان قام أبو مسلم الخراساني^(١) بقتل ستمائة ألف صبراً كما جاء في بعض التواريخ^(٢).

وأبو مسلم الخراساني بدوره قُتل على يد العباسيين غدراً^(٣)، كما قتلوا أبا سَلَمَةَ الخَلَّال، وهو وجه العباسيين في الكوفة^(٤). وقاموا بقتل مجموعة من العلويين

(١) عبد الرحمن بن مسلم [١٠٠ - ١٣٧هـ]، أبو مسلم الخراساني، كان يقال له: (أمين آل محمد)، وصاحب دولة بني العباس، ويقال له عبد الرحمن بن شيرون بن إسفنديار أبو مسلم المروزي، كان فاتكاً ذا رأي وعقل وتدبير وحزم، نشأ بالكوفة. قال الشيخ عباس القمي في تنمته المنتهى: «دعا الناس إلى بيعة إبراهيم بن محمد بن علي الملقب بالإمام، ذلك لأنه كان يعتقد بإمامة محمد بن الحنفية، بعد أمير المؤمنين.. سار إلى خراسان، وكان على الدوام يدعو الناس إلى بيعة بني العباس، حتى اجتمع الناس حوله واشتد أمره وعلا. فصفا له حكم خراسان، أمر الناس بلبس السواد، واتخذ الرايات السود أعلاماً له وشعاراً». وفي حديقة الشيعة، ص ٥٥٦، رُوي بسند صحيح عن الإمام الرضا رواية في ذمّه وأن اسمه في صحيفة أعداء أهل البيت عليه السلام، وقد كذب الإمام من يقول أنه من الشيعة.. وكما راسل الإمام الصادق، فأجابه الإمام عليه السلام: «ليس لكتابك جواب، اخرج عنا». ورُوي عن الإمام علي عليه السلام: «يخرج (رجل) في آخر الزمان من المشرق، ويهلك الله به أهل الشام، ويسلب عن بني أمية ملكهم». قتله المنصور الدوانيقي سنة ١٣٧هـ. طالع: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٦٧. ونحوه: تنمته المنتهى الآمال، ص ١٥٠. و: مستدركات النهازي، ج ٨، ص ٤٥٢. الأعلام، ج ٣، ص ٣٣٧.

(٢) الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ١٣٧.

(٣) الفخري، ص ١٦٥. الإمامة والسياسة، ج ٢، ١٨٥. الأخبار الطوال، ص ٣٨٣.

(٤) حفص بن سليمان الهمداني الخلال [ت: ١٣٢هـ]، يعرف بالخلال لسكنائه بدرب الخلالين

والموالي الذين على أكتافهم قامت الدولة العباسية^(١). وكان حكم العباسيين حكماً وراثياً دكتاتورياً بما في الكلمة من معنى، والذي أبقى على هذا الفرق بينه وبين الحركة الرسالية وغيرها من الحركات هو الدور الرسالي الذي قام به الإمام زين العابدين عليه السلام، الذي كان يشتري العبيد ويقوم بتربيتهم ثم يعتقهم ويتركهم في المجتمع^(٢)، ليطالبوا بتحقيق أهداف الرسالة ويضحوا من أجل ذلك، لقد كان يُربي ويُغذي جيل الثورة الرسالية وليس الثورة السياسية فقط، وإنما الثورة على جميع المستويات وجميع الأصعدة.

الحركة الرسالية ضمان بقاء الإسلام

ولو لم يكن الأئمة المعصومون عليه السلام موجودين، وخصوصاً الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام لتعرض الإسلام للخطر؛ إذ إن الأمة الإسلامية في عهده تحولت إلى مجموعات من الحركات السياسية، كل واحدة منها تطلب الحكم لنفسها، وتسعى في هذا السبيل، ومن أجل ذلك تقترف كل الجرائم من أجل الوصول إلى الحكم.

ف نجد أن عبد الله بن الزبير يأتي ويُنكّل ويقتل ويهدم ما يشاء من أجل الحكم^(٣)، ونجد كيف قتل السفاح والمنصور الدوانيقي الأمويين بصورة وحشية، فقد كانوا يقتلون الأمويين ويفرشون البساط عليهم وهم لا يزال بهم نفس من

بالكوفة. وكان يقال له: (وزير آل محمد)، وهو أول من لقب بالوزارة في الإسلام، أنفق أموالاً كثيرة في سبيل الدعوة العباسية. لما استقام الأمر للسفاح استوزره، فكان أول وزير لأول خليفة عباسي. وكان يسمر كل ليلة عند السفاح فيأنس به لما في حديثه من إمتاع وأدب، ولما كان عليه من علم بالسياسة والتدبير، اغتاله أشخاص كمنوا له ليلاً ووثبوا عليه وهو خارج يريد منزله، فقطعوه بأسيا فمهم. قيل: إن أبا مسلم الخراساني دسهم له لشحناء بينهما، أو لأن السفاح توهم فيه الميل لآل علي فسلط عليه أبا مسلم. الأعلام، ج ٢، ص ٢٦٤.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١١١. دلائل الإمامة للطبري، ص ٢٩٨. بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣٠٦. الأغاني، ج ٥، ص ٢٣٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٠٣-١٠٥. ولاحظ: الإمام السجاد قدوة وأسوة، للمؤلف، ص ٥٠.

(٣) اشتهر بكثرة ما بعث إليه من رؤوس أعدائه بعد مقتلهم، كما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ١٧١.

الحياة، فيجلسون ويأكلون عليهم^(١) كما كان يفعل الحجاج^(٢) بأنصار العباسيين والعلويين^(٣).

انظروا إلى أيّ درجة وصل الحقد، لقد كادت الأمة الإسلامية أن تتحوّل إلى أمة حاقدة، ليس فقط حقداً سياسياً، وإنما هذا الحقد كان ينعكس على سائر النواحي الأخلاقية. وهذه الأعمال ورّثت الأمة نُظماً دكتاتورية عملت على إنهاء كل القيم الإنسانية والأخلاقية، مما أدّى إلى فشل التجربة الإسلامية في تقديم صورة حضارية.

إن الدولة ينبغي أن تقوم بنشر الفكر الصحيح الذي يركز على وعي أصيل للإسلام، وإلاّ سوف تكون نهايتها السقوط، لذلك كانت أولى الدول والبلاد التي سقطت بأيدي المسيحيين هي الأندلس^(٤)، لأنها لم تقم على أساس الأفكار الرسالية المتينة التي تُشكّل الخلفية الحقيقية للحضارة الإسلامية، وكان من الواجب تكوين هذا الفكر بكل أبعاده. والأئمة عملوا في هذا السبيل، ولولا هم لكانت الأمة تنتهي إلى الدمار والاندثار.

وهذا هو جواب السؤال الذي يقول: لماذا اشتغل الإمام علي بن الحسين زين العابدين في قضايا غير سياسية؟ وكيفينا أن ندرس دور الصحيفة السجادية وكيف شكّلت حينها خلفية العمل الإسلامي لنعرف عظمة دور هذا الإمام.

الصحيفة السجادية زبور الحركة الرسالية

إن أدعية الصحيفة السجادية لا تمثّل حالة وجدانية يعيشها الفرد المؤمن فحسب، ولا يمكن أن تُحصر في كونها رباط معنوي تسمو به الروح المشتاقة إلى لقاء

(١) الفخري، ص ١٤٩. نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٢، ص ٥٠.

(٢) ابن يوسف بن الحكم الثقفي [٤٠ - ٩٥ هـ]، (الحجّاج الثقفي). قائد، داهية. كان سفاكاً سفاكاً باتفاق معظم المؤرخين. قال عبد بن شاذب: ما رُئي مثل الحجاج لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه. مات بواسط، وأُجري على قبره الماء، فاندرس. الأعلام، ج ٢، ص ١٦٨.

(٣) أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٢٩٧.

(٤) أنظر: خلاصة تاريخ الأندلس، للأمير شكيب أرسلان.

الله، وإنما هي أيضاً تأصيل لفكر التحدي وثقافة الثورة، فقد كانت الأمة الإسلامية بحاجة إلى خلفية ثورية متكاملة، وليس إلى الكلام والشعر الذي يبتُّ حقدًا أو يُؤصل لحالة التبرير، أو يُثير العواطف المرتجلة والآنية.

لقد كانت الأمة بحاجة إلى نظرية متكاملة للثورة، والإمام زين العابدين عليه السلام بين هذه النظرية، ليس في الصحيفة السجادية التي كانت خلاصة تربية الإمام عليه السلام فحسب، وإنما كان الإمام ذاته زبوراً ناطقاً، فقد قام في حياته بتربية الآلاف وقدّمهم للمجتمع^(١).

وهناك سؤال يطرحه البعض وهو: لماذا لم يبذل الإمام كل جهوده في السياسة؟.

والجواب هو: إن الحركة الرسالية هُرم يقف على رأسه الإمام، وتتكوّن أركان هذا الهرم من المجموعات التي تقوم بالأنشطة المختلفة التي تُلبّي كافة احتياجات المجتمع، فالفقه، والعلوم، والسياسة.. كل ذلك كانت الأمة بحاجة إليه، وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يعدّ لكل ركن المجموعة المناسبة القادرة على القيام بالدور المُوكّل إليها، وهذا منتهى القدرة في القائد، وهو أن يكون قادراً على تربية رجل للحركات السرية، وآخر للحركات العلنية، وآخر في الزهد والتقوى. وهكذا، ربّى الإمام نموذجين من البشر:

- نموذج العلماء.

- نموذج الثوار.

فمن العلماء كان: الإمام محمد بن علي الباقر الذي بقر العلم بقرًا^(٢)، وسعيد بن

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٠٥.

(٢) روى رجاء بن سلمة عن عمرو بن شمر قال: «سألت جابر الجعفي فقلت له: ولم سمي الباقر باقراً؟ قال: لأنّه بقر العلم بقرًا. أي شقّه شقاً وأظهره إظهاراً». بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٢١.

جبير^(١)، وسعيد بن المسيب^(٢).

ومن الثوار ابنه زيد الذي فجر سلسلة من الثورات الإسلامية في التاريخ، حتى أصبح الزيديون الجناح العسكري والمظلة لحماية الشيعة كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لَا أَرَأَى أَنَا وَشِيعَتِي بِخَيْرٍ مَا خَرَجَ الْخَارِجِيُّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَلَوْ دِدْتُ أَنَّ الْخَارِجِيَّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ خَرَجَ وَعَلَيَّ نَفَقَةٌ عِيَالِهِ»^(٣).

فحقاً، إن مثل هذا الرجل يجب أن يُعطى حق التقدير والاعتداء، ويعرف بأنه إمام حقاً، وأن الإسلام يُوصي باتباعه.

ولكننا نرى أن النظرية الرسالية هذه تتعرض لهجوم عنيف ليس في أشخاص الأئمة عليهم السلام فقط، وإنما في ممارساتهم وأفكارهم وخلفياتهم الثورية، وهذا الهجوم

(١) ابن هاشم الأسدي [٤٥-٩٥هـ]، الكوفي، المعروف بالولاء، تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق، من خيار أصحاب الإمام السجاد عليه السلام. مستدركات النهازي، ج ٤، ص ٥٧. وعن أبي عبد الله عليه السلام أن سعيد بن جبیر كان يأتّم بعلي بن الحسين عليه السلام وكان علي عليه السلام يُثني عليه، وما كان سبب قتل الحجاج له إلا على هذا الأمر، وكان مستقيماً، وذكر أنه لما دخل على الحجاج بن يوسف قال له: أنت شقي بن كسير؟ قال: أمي كانت أعرف باسمي، سمتني سعيد بن جبیر. قال: ما تقول في أبي بكر وعمر، هما في الجنة أو في النار؟ قال: لو دخلت الجنة فنظرت إلى أهلها لعلمت من فيها، وإن دخلت النار ورأيت أهلها لعلمت من فيها. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: أيهم أحب إليك؟ قال: أرضاهم خالقي. قال: وأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عند الذي «يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ»، قال: أبیت أن تصدقني! قال: بلى، لم أحب أن أكذبك». رجال الكشي، ص ٢٠٣. وكما في الأعلام، ج ٣، ص ٩٣: قال الإمام أحمد بن حنبل: «قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه».

(٢) ابن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي [١٣-٩٤هـ]، أبو محمد، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاء. في رواية تعداد الحواريين، عدّه الإمام الكاظم عليه السلام، من حوارِي الإمام السجاد عليه السلام. وروى الكشي عن الفضل بن شاذان، أنه «لم يكن في زمن علي بن الحسين عليه السلام في أول أمره، إلا خمسة أنفس: سعيد بن جبیر، سعيد بن المسيب.. إلخ». وعن وفيات الأعيان، قال: «سعيد بن المسيب، سيد التابعين، جمع بين الحديث والفقه، والزهد، والورع». مستدركات النهازي، ج ٤، ص ٨١. الأعلام، ج ٣، ص ١٠٢.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٥٤.

ليس وليد العصور المتأخرة، وإنما بدأ منذ فجر الإسلام الأول.

والسؤال: لماذا الهجوم على الفكر الرسالي؟.

والجواب: لأن هذا الفكر خطر على الطغاة والانتهازيين والوصوليين. لذلك على الذين يدافعون عن هذا الفكر بشكله الصحيح أن يعرفوا أنهم يواجهون تحدياً عظيماً. فعلى سبيل المثال لا الحصر نرى أحمد الشلبي يقول في كتابه (تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية): «.. على أن صفات الحسن لم تكن تُهيئ للخلافة. فلم تكن له ميزة أعظم من أنه ابن علي بن أبي طالب، وهذه لا تكفي قطعاً لنيل المكانة، فلم يكن للحسن علم أبيه، ولم تكن له بطولة أبيه، ولم تكن له سابقة أبيه، ومع هذا غلبت أباه الأحداث، فأتى للشاب الذي يُروى أنه تزوج مائة زوجة^(١)، أن يملأ هذا الفراغ، لقد قيل: إنه كان يجزُّ على أبيه المتاعب ويخلق له الأعداء بسبب كثرة الزواج والطلاق حتى أوصى عليُّ الناس ألا يُنكِحوه بناتهم..»^(٢).

وحينما يأتي إلى ذكر الإمام الحسين عليه السلام يقول: «إن معاوية حينما خلف يزيداً، كان يقوم بعمل حكيم، وذلك لأسباب عديدة منها: أن الذين كانوا يعارضون حكم يزيد لم يكونوا بأحسن منه، فعبد الله بن عمر كان زاهداً عابداً وأن هذه هي صفته الوحيدة. والحسين بن علي ففضله أنه من الأرومة الطيبة، وأنه قريب النسب بالمصطفى، وفيما عدا ذلك لا يثبت له التاريخ تجارب سياسية أو إدارية متعددة أو بارزة تجعله يفضل غيره في حمل العبء، ولعله أخطأ التوفيق حينما قبل دعوة أهل العراق وسار إليهم...»^(٣).

هذا المؤرخ الذي تنبعث من كلماته رائحة التبرير للأنظمة الطاغوتية، يؤكد

(١) هذه فرية وشبهة من الأباطيل التي افتعلها وروجها المنصور الدوانيقي وأخذها عنه المؤرخون كما أثبت ذلك وناقشه وردها المحقق الشيخ باقر شريف القرشي في كتابه: حياة الإمام الحسن بن علي، ج ٢، ص ٤٤١. فلاحظ.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ٣٦.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ٤٨-٥٠.

لنا أن الرؤية الثقافية التي تحركها أيديولوجيات محدّدة ومعروفة كيف يمكن أن تحجب الحقائق التاريخية الواضحة، فالظلم الذي ارتكبه بنو أمية وبنو العباس أكبر من أن تحجبه تبريرات المثقفين الذين أصبحوا أبواقاً للسلطين. أما الإمام الحسين عليه السلام الشائر الشهيد الذي يُعزّي كل الظالمين يصبح في نظر هذا المؤرخ مجرد إنسان غرّره من قبل الكوفيين، ويُريح نفسه بذلك من عناء دراسة ثورة كربلاء وظروف قيامها والأهداف التي نشدها الإمام الحسين عليه السلام من ثورته ضد الأمويين. لذلك عندما نؤكد على الالتزام بالفكر الرسالي وندافع عنه فإننا لا ندافع عن فكرة ميتة، وعن تاريخ ورجال ذهبوا، وإنما ندافع عن تلك النظرية الثورية الخلاقة المعطاءة التي خلّفت وراءها الأمة الإسلامية وحضارتها.

ولو أن هذه النظرية صيغت وأعيدت وطُبّقت وجُسّدت حرفياً وبالشكل السليم من قبل فئة رسالية حيوية، لاستطاعت أن تخلق حضارة جديدة. أما انحرافات يزيد وأبيه معاوية وهارون الرشيد والمأمون العباسي ^(١) لا يمكنها أن تكون حضارة.

(١) عبد الله [١٧٠ - ٢١٨هـ] بن هارون (الرشيد) بن محمد (المهدي) بن أبي جعفر المنصور، (المأمون العباسي). سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، وأحد أعظم الملوك، في سيرته وعلمه وسعة ملكه. نفذ أمره من إفريقية إلى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند. الأعلام، ج ٤، ص ١٤٢. ذكر المحقق العلامة القرشي للمأمون العباسي جملة من الصفات والنزعات النفسية منها: الغدر، والقسوة، والدهاء، وميله إلى اللهو... وفي ختام البحث قال العلامة القرشي: «نهج المأمون في أيام حكومته منهج معاوية بن هند، فقد ذكر المؤرخون أنه عرضت عليه سيرة أبي بكر وعمر وعثمان، وعلي عليه السلام، فأبى أن ينهج نهجهم، ويسير بسايرهم...». حياة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، دراسة وتحليل، ج ٢، ص ٢٣٩ - ٢٨٠. فراجع.

— ﴿ صِفْوَالِكَلَامِ ﴾ —

* للتعرف على حياة الإمام السجاد عليه السلام ينبغي أن ندرس حياته بعمق حتى نعرف صورته المشرقة التي تنير لنا الطريق.

* كانت حركة الإمام وليدة القيم الإسلامية المتجذرة في شخصيته عليه السلام.

* والحركة الرسالية التي كان يقودها الإمام عليه السلام هي حركة حضارية شاملة، تصبو إلى الأهداف ذاتها التي جاءت من أجلها الرسائل الإلهية. ومن أهمها صياغة الأمة وفق المعايير الربانية.

* ولو كانت الأمة تتمتع بالروح الإيمانية الواعية، لما وقعت جرائم الأمويين (فكما تكونون يولى عليكم).

* وكانت رسالة الأئمة عليهم السلام تغيير الأمة قبل كل شيء.

* ضمن هذه الرؤية نفهم دور الإمام السجاد عليه السلام الذي عمل على إحياء مفاهيم الدين وبث روح رفض الطواغيت، وانقاذ الإنسان من براثن الظلم.

* ولو لم يكن الأئمة موجودين وخصوصاً الإمام السجاد عليه السلام لتعرض الإسلام للخطر.



١٩ وَضَعُ الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي عَصْرِ الْإِمَامِ السَّجَادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إن حياة البشر كُلُّ لا يتجزأ، فالسياسة ترتبط بالاجتماع، والاجتماع يرتبط بالاقتصاد، والاقتصاد يرتبط بالأخلاق، والأخلاق ترتبط بالثقافة والفكر، كما أن الثقافة والفكر بدورهما يرتبطان بسائر جوانب حياة الإنسان، لذلك فإن دور الإمام علي بن الحسين عليه السلام لم يقتصر على جانب دون آخر. وفي هذا الموضوع نود أن نتحدث عن صور من حياة الإمام زين العابدين عليه السلام.

في عهد الإمام السجاد عليه السلام كان الوضع العام للدولة الإسلامية يعاني من أزمة حضارية حادة على مختلف الصعد، السياسية والفكرية والاجتماعية والخلقية، وكانت هذه الأزمة تهدد الأمة الإسلامية ليس فقط بتغيير مسيرتها، وإنما أيضاً بزوالها. وكان على الإمام زين العابدين عليه السلام أن يعالج هذه الأزمة، ليس وحده بالطبع، وإنما باعتباره قائداً للطليعة الرسالية، أمثال: سليمان بن صرد الخزاعي، والمختار بن أبي عبيدة الثقفي، والزهري^(١). ومن الصحابة: «جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

(١) صفوان بن سليم الزهري المدني [٦٠-١٣٢هـ]، من أصحاب السجاد عليه السلام. معجم رجال الحديث، ج ١٠، ص ١٣١، وقال في سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٣٦٤: «صفوان بن سليم، الإمام الثقة، الحافظ الفقيه، أبو عبدالله، وقيل: أبو الحارث القرشي، الزهري المدني مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف». وقال عنه في كتابه: (الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة): «صفوان بن سليم الزهري، مولا هم المدني، الإمام القدوة، ومن يستسقى بذكره... يقال: إنه لم يضع جنبه أربعين سنة، وقيل: إن جبهته ثقت من كثرة السجود، وكان قانعاً لا يقبل جوائز السلطان، ثقة حجة». وانظر: مستدركات علم رجال الحديث، ج ٨، ص ٥١٤.

الأنصاري^(١)، وعامر بن وثالة الكِنَاني^(٢)، وسعيد بن المسيب بن حزن وكان رباه أمير المؤمنين. قال زين العابدين عليه السلام: «سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدم من الآثار. أي في زمانه»^(٣)، وسعيد بن جبّهان [جهان] الكِنَاني مولى أم هانئ^(٤).

ومن التابعين: أبو محمد سعيد بن جبير، مولى بني أسد نزيل مكة، وكان يُسمّى: جهيد العلماء ويُقرأ القرآن في ركعتين. قيل: «وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه». ومحمد بن جبير بن مطعم^(٥)، وأبو خالد الكابلي^(٦)، والقاسم بن

(١) ابن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي [١٦ ق هـ - ٧٨ هـ]، صحابي، من أصحاب رسول الله ﷺ، وأمير المؤمنين والحسن والحسين والسجاد والباقر عليهم السلام، ومن شرطة خميس أمير المؤمنين عليه السلام، شهد بدرًا وثاني عشرة غزوة مع رسول الله ﷺ. من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من الصحابة. غزاة عشرة غزوة. وكان مع الإمام أمير المؤمنين في قتال البصرة وحرب صفين، وهو من النقباء الاثني عشر، انتخبهم رسول الله ﷺ، بأمر جبرئيل عليه السلام، وعده الإمام الصادق عليه السلام في رواية الأعمش في شرايع الدين من الذين لم يُغيروا ولم يُبدلوا بعد نبينهم وتجب ولايتهم. وعده الإمام الصادق عليه السلام من أصحاب الإمام السجاد عليه السلام. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي ﷺ يؤخذ عنه العلم. مستدركات الناهزي، ج ٢، ص ٩٩. الأعلام، ج ٢، ص ١٠٤.

(٢) كان: «عامر بن وثالة [ت: ١١٠] كيسانيًا، ممن يقول بحياة محمد بن الحنفية، وله في ذلك شعر، وخرج تحت راية المختار بن أبي عبيدة، وكان يقول: ما بقي من الشيعة غيري. كان من محبي علي عليه السلام، وبه ختم الصحابة في الدنيا. قال معروف بن خربوذ: عرضت هذا الكلام على أبي جعفر عليه السلام، فقال: «صدق أبو الطفيل رضي الله عنه». وفي هذا شهادة على حسن حاله ورجوعه على فرض صحة كيسانيته. ولعل رمية بالكيسانية بسبب خروجه تحت راية المختار، وفيه ما فيه». منتهى المقال في أحوال الرجال، ج ٤، ص ٥٣.

(٣) وفي رجال الكشي ص ٢٠٢: «... بما تقدمه من الآثار وأفهمهم في زمانه».

(٤) ابن علاقة الكِنَاني، مولى أم هاني، من رجال الإمام السجاد عليه السلام، ومن أصحابه، وكنيته أبو فاختة، عده البرقي من خواص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام من مضر. معجم رجال الحديث، ج ٩، ص ١٢٠.

(٥) ابن عدي بن نوفل بن عبدمناف. عن الفضل بن شاذان أنه قال: «لم يكن في زمن علي بن الحسين عليه السلام إلا خمسة أنفس: سعيد بن جبير، سعيد بن المسيب، محمد بن جبير بن مطعم، يحيى بن أم الطويل، أبو خالد الكابلي واسمه وردان، ولقبه كنكر». مستدركات الناهزي، ج ٦، ص ٤٨٩.

(٦) وردان أبو خالد الكابلي، من خواص أصحاب السجاد، والباقر، والصادق عليهم السلام، عده الإمام الكاظم عليه السلام، من حوارِي الإمام السجاد عليه السلام، وروى الكشي في حقه روايات تدل على مدحه وجلالته. مستدركات الناهزي، ج ٨، ص ١٠٠.

عَوْفٍ^(١)، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ^(٢)، وَإِبْرَاهِيمُ، وَالْحَسَنُ^(٣) ابْنَا مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ، وَحَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ أَبُو يَحْيَى الْأَسَدِيُّ^(٤)، وَأَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجُ سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ الْمَدَنِيُّ الْأَقْرَنُ الْقَاصُّ^(٥).

وَمِنْ أَصْحَابِهِ: أَبُو حَمْرَةَ الشُّهَامِيُّ^(٦)، بَقِيَ إِلَى أَيَّامِ مُوسَى [الكاظم عليه السلام].

(١) الشيباني أبو عامر: «من التابعين، كان يختلف بين مولانا علي بن الحسين عليه السلام، ومحمد بن الحنفية. روى الشيخ الطوسي في أماليه ج ٢، بإسناده عن أبي حمزة الشامي، عنه، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، ما يفيد حسنه وكماله، ومعرفته بالفضائل». مستدركات النمازي، ج ٦، ص ٢٥١.

(٢) ابن أبي طالب عليه السلام، تابعي، من أصحاب علي بن الحسين، والباقر، والصادق عليهم السلام. نقد الرجال، ج ١، ص ٢٢٢.

(٣) الفقيه أبو محمد الهاشمي، المدني. عُذَّ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليهما السلام. وكان من علماء بني هاشم. قال عمرو بن دينار: «ما رأيت أحداً أعلم بما اختلف فيه الناس من الحسن بن محمد...» طبقات الفقهاء، ج ١، ص ٣٢٣.

(٤) تابعي، فقيه الكوفة، عُذَّ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَالْإِمَامِ الْبَاقِرِ، وَالْإِمَامِ الْصَادِقِ عليهم السلام. وعُدَّه في رجال الشيعة كل من ابن قتيبة في معارفه، والشهرستاني في الملل والنحل. منتهى المقال، ج ٢، ص ٣٢٣. طبقات الفقهاء، ج ١، ص ٣٢٠.

(٥) عُذَّ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِينَ السَّجَادِ وَالْبَاقِرِ عليهما السلام، كَانَ فَقِيهًا، كَثِيرَ الْحَدِيثِ، وَكَانَ يَقْصُصُ، وَلَهُ كَلِمَاتٌ فِي الْوَعظِ وَالتَّذْكِيرِ. وَعُدَّ مِنْ خَوَاصِّ الْإِمَامِ الْصَادِقِ عليه السلام. انظر: مستدركات علم رجال الحديث، ج ٨، ص ٣٥٥. أيضاً: طبقات الفقهاء، ج ١، ص ٣٨٠.

(٦) هو: ثابت بن أبي صفية دينار [ت: ١٥٠هـ]، وَيُكْنَى أَبَا حَمْرَةَ الشُّهَامِي، مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، مِنْ الثَّقَاتِ عِنْدَ الْإِمَامِيَّةِ وَالْمَعْرُوفِ بِالْوَلَاءِ لِأَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام، بَلْ ثِقَةٌ وَجَلِيلٌ بِالْإِتِّفَاقِ، مِنْ رِجَالِ الْحَدِيثِ، رَوَى عَنْهُ بَعْضُ أَهْلِ السُّنَّةِ، مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ السَّجَادِ، وَالْإِمَامِ الْبَاقِرِ، وَالْإِمَامِ الْصَادِقِ وَالْإِمَامِ الْكَاطِمِ عليهم السلام، لَهُ كِتَابُ النُّوَادِرِ، وَكِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ. قَالَ الْفَضْلُ بْنُ شَاذَانَ، سَمِعْتُ الثَّقَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الْإِمَامَ الرِّضَا عليه السلام يَقُولُ: «أَبُو حَمْرَةَ الشُّهَامِي فِي زَمَانِهِ كَلْفَمَانٌ فِي زَمَانِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَدَمَ مِنْهُ أَرْبَعَةَ: عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ، وَمُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ، وَجَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليهم السلام، وَبِرَّهْمَةَ مِنْ عَصْرِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام، وَيُونُسَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَلْمَانَ فِي زَمَانِهِ». قَتَلَ ثَلَاثَةً مِنْ أَوْلَادِهِ مَعَ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليهم السلام. قاموس الرجال، ج ٢، ص ٤٤٤. و: ج ١١، ص ٢٩٥. مستدركات النمازي، ج ٢، ص ٧٩. الأعلام، ج ٢، ص ٩٧.

وَفَرَاتُ بْنُ أَحْنَفَ^(١)، بَقِيَ إِلَى أَيَّامِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، وَجَابِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ^(٢)،
وَأَيُّوبُ بْنُ الْحُسَيْنِ^(٣)، وَعَلِيُّ بْنُ رَافِعٍ^(٤)، وَأَبُو مُحَمَّدٍ الْقُرَشِيُّ السُّدِّيُّ الْكُوفِيُّ^(٥)،
وَالضَّحَّاكُ بْنُ مَزَاحِمٍ الْخُرَّاسَانِيُّ^(٦)، أَصْلُهُ مِنَ الْكُوفَةِ. وَطَاوُسُ بْنُ كَيْسَانَ أَبُو
عَبْدِ الرَّحْمَنِ^(٧)، وَحَمِيدُ بْنُ مُوسَى الْكُوفِيُّ^(٨)، وَأَبَانُ بْنُ تَغْلِبَ بْنِ رَبَاحٍ^(٩)، وَأَبُو الْفَضْلِ

(١) العبدى، أبو محمد، يُرمى بالغلو والتفريط في القول، من أصحاب الإمام علي بن الحسين،
والإمام الباقر، والإمام الصادق عليه السلام، كوفي، قال العقيقي: إنه كان زاهداً رافضياً للدنيا. نقد
الرجال، ج ٤، ص ١٤.

(٢) عدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام علي بن الحسين. معجم رجال الحديث، ج ٤،
ص ٣٣٦.

(٣) ابن علي بن أبي رافع، مولى رسول الله صلى الله عليه وآله، واسم أبي رافع أسلم، من أصحاب الإمام
السجاد عليه السلام، وذكره البرقي في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. قال ابن شهر آشوب: له

كتاب، وهو ثقة. أمل الآمل، ج ٢، ص ٤٢. معجم رجال الحديث، ج ٤، ص: ١٦٧
(٤) عدّه ابن شهر آشوب من أصحاب الإمام علي بن الحسين عليه السلام. معجم رجال الحديث،
ج ١٣، ص ١٦.

(٥) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي، من الكوفة. أبو محمد القرشي، المفسر، من
أصحاب الإمام علي بن الحسين والإمام الباقر والإمام الصادق عليه السلام. ذكره صاحب ميزان
الاعتدال وقال عنه: إسماعيل السدي، شيعي، صدوق، لا بأس به. منتهى المقال، ج ٢، ص ٧١.

(٦) تابعي، من أصحاب الإمام علي بن الحسين عليه السلام، قال ابن حجر في لسان الميزان، ج ٧،
ص ٢٤٩: «الضحّاك بن مزاحم المفسر الهلالي أبو القاسم أو أبو محمد الخراساني».

(٧) الحميري الجندي، أبو عبد الرحمن اليماني، من أصحاب الإمام علي بن الحسين عليه السلام. روى
عن: زيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وابن عباس، ولازم ابن عباس مدة، وهو معدود في كبار
أصحابه. وكان من عبّاد الخاصة وزهادهم، وأقام بمكة مجاوراً متعبداً. قال ابن عيينة: متجنبو
السلطان ثلاثة: أبو ذر في زمانه، وطاوس في زمانه، والثوري في زمانه. وكان فقيهاً جليلاً. قال
خصيف: أعلمهم بالحلال والحرام طاوس. وقال سفيان الثوري: كان طاوس يتشيع. وروى
أبو نعيم الأصفهاني بسنده عن طاوس عن بُريدة عن النبي صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه فعليّ
مولاه». وثقه ابن معين وأبو زرعة، وقال ابن حبان: كان من عبّاد أهل اليمن، ومن سادات
التابعين، مستجاب الدعوة، حجّ أربعين حجّة. مات بمكة في سنة ست ومائة. نقل عنه الشيخ
الطوسي في كتاب الخلاف، أربعاً وأربعين فتوى. طبقات الفقهاء، ج ١، ص ٤٠٨.

(٨) عدّه ابن شهر آشوب في مناقبه ج ٤، ص ١٧٧، من أصحاب الإمام السجاد عليه السلام.

(٩) البكري الجُريري [ت: ١٤١ هـ]، أبو سعيد، معروف بالولاء لأهل البيت عليه السلام، كان قارئاً،
فقيهاً، لغوياً، نبيلاً، سمع من العرب، وحكى عنهم، من أهل الكوفة. ثقة، جليل القدر، عظيم

سَدِيرُ بْنُ حَكِيمٍ بْنِ صُهَيْبِ الصَّيْرِفِيِّ^(١)، وَقَيْسُ بْنُ رُمَّانَةَ^(٢)، وَعَبْدُ اللَّهِ الْبَرْقِيُّ^(٣)، وَالْفَرَزْدَقُ الشَّاعِرُ^(٤)، وَمَنْ مَوَالِيهِ شُعَيْبٌ^(٥)». فتحرك الإمام عليه السلام ومعه هذه الكوكبة من الطليعة الرسالية، وكان في انتظارهم مجموعة من الأزمات وهي على النحو التالي:

أولاً: الأزمة السياسية

تعتبر الأزمة السياسية من أبرز التحديات التي تُواجه الحركة الرسالية، فقد عصفت بالامة الإسلامية اضطرابات واسعة تزداد تموجاً بفعل الحركات المعارضة

المنزلة في أصحابنا، لقي أبا محمد علي بن الحسين، وأبا جعفر، وأبا عبدالله عليه السلام، وكانت له عندهم حظوة وقدم. وقال له أبو جعفر عليه السلام: «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس، فإني أحبُّ أن يرى في شيعتي مثلك». وقال أبو عبدالله لما أتاه نعيه: «أما والله لقد أوجع قلبي موتُ أبان».. انتهى المقال، ج ١، ص ١٣٢. من كتبه: غريب القرآن، ولعله أول من صف في هذا الموضوع. والقراءات، وصفين، والفضائل، ومعاني القرآن. الأعلام، ج ١، ص ٢٦.

(١) كوفي، يكنى أبا الفضل، والد حنّان، من أصحاب الإمام علي بن الحسين والإمام الباقر والإمام الصادق عليه السلام، وروى الكشي رحمته الله عن زيد الشحام، قال: «إني لأطوف حول الكعبة وكفي في كف الصادق عليه السلام، قال: ودموعه تجري على خديه، فقال عليه السلام: يا شحام، ما رأيت ما صنع ربي إليّ، ثم بكى ودعا، ثم قال لي: يا شحام، إني طلبت إلى إلهي في سدير وعبد السلام بن عبد الرحمن وكانا في السجن فوهبهما لي وخلّ سبيلهما. وفي الكافي: عن الحسين بن علوان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال وعنده سدير: «إن الله إذا أحبَّ عبداً غنّاه بالباء غثاً وإنا وإياكم لنصبح به ونمسي». قال في منتهى المقال، ج ٣، ص ٣١٣: «وفيه (الكافي) في باب قلّة عدد المؤمنين رواية يظهر منها حسن حاله في الجملة، وكذا في باب درجات الإيمان وقال: وبالجملة: يظهر من الروايات كونه من أكابر الشيعة، مضافاً إلى ما فيه من كثرة الرواية ورواية الأجلة..». (٢) ابن أبي مسلم الأشعري الكوفي، وأمّه رمانة، يكنى أبا المفضل. من أصحاب الإمامين السجاد والباقر عليه السلام. رجال ابن داود، ص ٢٧٩.

(٣) عاتمي. من أصحاب الإمام علي بن الحسين عليه السلام. نقد الرجال، ج ٣، ص ٨٨. (٤) همام بن غالب التميمي الحنظلي، شاعر تميمي، كان سيّداً جواداً فاضلاً وجيهاً. راجع ترجمته في لسان الميزان، ج ٦، ص ١٩٦. وفي مستدركات النمازي، ج ٦، ص ١٩٦: عدوه «من أصحاب أمير المؤمنين، والحسين، والسجاد عليه السلام، يكنى أبا فراس، وهو مادم الإمام السجاد عليه السلام، بقصيدة جليلة كريمة مشهورة في وجه هشام، تكشف قصيدته عن حسن عقيدته وكماله».

(٥) ذكرته كتب الرجال والتراجم بالاسم فقط، ولم تذكر أي شيء من سيرته ولا نسبه ولا مدحه. طالع مثلاً: نقد الرجال، ج ٢، ص ٣٩٨. منتهى المقال، ج ٣، ص ٤٤٣.

لسلطة بني أمية، فكانت هناك تحركات معارضة في العراق^(١)، والحجاز^(٢)، ومصر والمغرب^(٣)، وغيرها من البلاد الإسلامية^(٤). فالسياسة لم تكن مستقرة حينها أبداً، وأبسط دليل على ذلك هو أنه وخلال نصف قرن - كما يُبين التاريخ - تسارع هلاك حكام بني أمية^(٥).

(١) بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، بدأت قوى المعارضة لبني أمية في العراق بالبروز، منها حركة التوابين، والمختار.. وستقف على تفاصيل أكثر من خلال بحوث الكتاب.

(٢) يشير د. إبراهيم بيضون إلى أن أول معارضة قامت ضد الحكم الأموي على يد حجر بن عدي الكندي، ولكن دون أن تكون متبوعة بمحاولات تتجاوز الموقف الحجازي... وفي أحداث سنة أربعة وستين ثار أهل المدينة، على بني أمية وطرد الثائرون عامل يزيد فيها وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان، ومن فيها أيضاً من الأمويين كمروان بن الحكم وغيره، وكانت هذه الحركة بزعامة عبدالله بن حنظلة غسيل الملائكة، وجاء هذا التمرد نتيجة للمؤتمر الفاشل الذي جمعهم مع يزيد، وقد انتهت الثورة بوقعة الحرة الشهيرة، وإباحة المدينة ثلاثة أيام، على يد مسلم (مسرف) بن عقبة، فقتل من أهل المدينة أكثر من أربعة آلاف. وفي أحداث سنة ٨١، ثار ابن الأشعث على الحجاج وخلع عبد الملك بن مروان، واستمرت ثورته حتى سنة ٨٣، ثم قضى عليها الحجاج بجيش الشام. انظر: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص ١٩٢. و: الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ، ص ١٤٦. و: كتاب: الإمام الحسين في المدينة المنورة، ص ١٧٨، ضمن موسوعة مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة.

(٣) يقصد بالمغرب تلك المناطق التي تمتد من حدود غرب مصر، حتى شواطئ المحيط الأطلسي، وهي المناطق التي سيطر عليها البيزنطيون، واحتلت من قبل الرومان، ثم فتحت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. وقد برزت فيها قوى المعارضة للسلطة الأموية حين سيطر عليها الخوارج، ولأن الخوارج ترى كفر بني أمية فكانت الثورة ضد عامل بني أمية في القيروان، قام بها من كانوا قد تلقوا تعاليم الخوارج وأمنوا بها. لاحظ: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، ص ٧٨.

(٤) حركة الموالي، وبعض الشيعة من العرب في خراسان. قال البلاذري في فتوح البلدان، ص ٣٩٦، «ثم ولّى زياد بن أبي سفيان الربيع بن زياد الحارثي سنة إحدى وخمسين خراسان، وحول معه من أهل المصرين - البصرة والكوفة - زهاء وخمسين ألفاً بعيالائهم..» ذلك لأنه أراد تصفيتهم من الكوفة وكسر شوكتهم، فأخذت تلك الجماهير التي أبعدت تعمل على نشر التشيع، حتى تحوّلت إلى مركز للمعارضة ضد الحكم الأموي. طالع: العلامة القرشي، الإمام الحسين بن علي عليه السلام، ص ١٧٩.

(٥) بدأت الخلافة الأموية من عام ٤٠ هـ وكان أول حكامها معاوية بن أبي سفيان، واستمرت حتى هلاك آخر حكامها مروان بن محمد. بدأ حكمه عام ١٢٧ هـ وانتهى عام ١٣٢ هـ: «فكانت ولايته من حين بوبع إلى أن قتل خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوماً». تاريخ الأُمم والملوك، ج ٧، ص ٤٤٢.

فيزيد بن معاوية بقي في السلطة فترة (٣) سنوات^(١)، ومعاوية بن يزيد ولي الأمر أربعين ليلة^(٢)، ومروان بقي تسعة شهور، وقيل عشرة أشهر^(٣)، وابنه عبد الملك بقي (١٣) سنة^(٤). هؤلاء الحكام الذين كانوا رأس النظام الأموي، أما الولاة فكانوا أيضاً يُبدّلون بطريقة عجيبة نظراً لحدة الأزمة السياسية^(٥). وهذه الأزمة أولدت أزمت أخرى، أهمها الأزمة الخلقية التي عصفت بالأمة الإسلامية.

ثانياً: الأزمة الخلقية

وتعني أن تلك القيم التي جاء بها الإسلام من أجل الرقي بالإنسان، كادت تزول ولم يبقَ منها إلا شيء بسيط. فقيمة المساواة مثلاً كقيمة أساسية لبناء أي نظام اجتماعي، إذا نظرنا إليها في ذلك الواقع التاريخي ضمن الأطر التالية:

١- المساواة بين العرب والموالي.

٢- المساواة بين الطبقات.

٣- المساواة بين الحاكم والمحكوم.

(١) بدأت عام ٦١ وانتهت عام ٦٤ هـ. «كانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، ويقال: ثمانية أشهر». تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٤٩٩.

(٢) يعرف بمعاوية الثاني، ثالث خلفاء بني أمية، وصل إلى الخلافة بعد أبيه يزيد في سنة ٦٤ هـ. وكانت أربعين يوماً، بعدما صعد المنبر وأعلن تركه للخلافة. تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٥٠٣.

(٣) بدأت من العام ٦٤، وانتهت عام ٦٥ هـ. «وعاش بعد أن بويع له بالخلافة تسعة أشهر، وقيل: عاش بعد أن بويع له بالخلافة عشرة أشهر إلا ثلاث ليال». تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٦١١.

(٤) بدأت من العام ٧٣ وانتهت عام ٨٦ هـ. «مات عبد الملك بن مروان بدمشق يوم الخميس للنصف من شوال سنة ست وثمانين، فكانت ولايته منذ أن بويع إلى يوم تُوِّفَ إحدى وعشرين سنةً وشهراً ونصفاً، كان تسع سنين منها يقاتل فيها عبدالله بن الزبير، وتُسَلِّم عليه بالخلافة بالشام، ثم العراق بعد مقتل مصعب، وبقي بعد مقتل عبدالله بن الزبير واجتماع الناس عليه ثلاث عشرة سنةً وأربعة أشهر إلا سبع ليال». تاريخ الأمم والملوك، ج ٦، ص ٤١٨.

(٥) لما مات زياد بن أبيه دعا معاوية بسمرة بن جندب الفزاري فولاه البصرة، فأقام بها ثمانية أشهر، ثم شكاه أهل البصرة فعزله، وولى مكانه عبدالله بن عمرو بن غيلان الثقفي، فأقام على العراق أميراً ستة أشهر، ثم عزله معاوية وولى مكانه عبدالله بن خالد... وهكذا. راجع: الفتوح، ج ٤، ص ٣١٧.

لا نجد لها واقعاً داخل الأمة الإسلامية آنذاك.

لقد رأى الموالي من المسلمين أو غير المسلمين الذين قبلوا بالحكم الإسلامي، أن حياتهم تحوّلت إلى جحيم في العهد الأموي^(١). بينما كان المسلمون قد بشّروهم بحياة حاملة يتمتعون فيها بالسعادة والعدل والمساواة.

إن الوعد الذي قطعه المسلمون على أنفسهم حين تم لهم فتح البلدان: «ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..»^(٢).

لم يَرِ الموالي والطبقات الكادحة من العمال والفلاحين والمهنيين وصغار التجار في البلاد المفتوحة أي وقع له، بل وجدوا أنفسهم قد تحوّلوا عبيداً لِسادة آخرين. وربما ظلّوا عبيداً لِساداتهم الأولين أنفسهم؛ لأن الأمويين كانوا يتفوقون مع العلوج^(٣) الذين هم الدهاقين^(٤)، بأن لهم الحق في استغلال واستعباد مواطنيهم لقاء الخراج الذي يدفعونه للدولة^(٥)، وقد قام هؤلاء بالسيطرة على الموالي وعلى تلك الطبقات المحرومة، وأخذوا الضرائب من الناس بشكل عشوائي، ومارسوا بحقهم الظلم والتقتيل باسم الدين، وكان اعتمادهم في ذلك على الفاتحين العرب

(١) طالع: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ٣٧٠. وأيضاً: حياة الإمام الحسين بن علي، ص ١٣٧.

(٢) البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣٧. تاريخ ابن خلدون، ج ٢، ص ٥٣٠. تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٢٠. الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٤٦٣. المنتظم، ج ٤، ص ١٦٨.

(٣) عُلج، العُلج الرجل الشديد الغليظ، ويقال: للرجل القوي الضخم من الكفار عُلج. لسان العرب، مادة عُلج.

(٤) الدهقان، جمعه دهقانة ودهاقين (فارسي معرب)، ويعني التاجر، ورئيس الإقليم، زعيم فلاحي العجم، رئيس القرية. والدهاقون هم تجار المدينة وأهل الخطوة فيها. أنظر: لسان العرب، تاج العروس: مادة (دهقن).

(٥) الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ٢٩. أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٤١٠. البدء والتاريخ، ج ٦، ص ٤. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٨. تجارب الأمم، ج ٢، ص ٩٩. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٤٠.

الذين اعتقد الناس أنهم جاؤوا إليهم بدين جديد، في حين أنهم لم يجدوا تطبيقاً عملياً لمبادئ هذا الدين عليهم^(١).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى سببت الأزمة الخلقية افتقار الأمن الشخصي في عهد بني أمية ابتداءً من عهد معاوية فنازلاً. وأبسط دليل على ذلك ما يذكره المؤرخون حول زياد بن أبيه حينما ولي البصرة من قبل معاوية. حينها كان يسود البصرة قانون الغاب، فالرجل لا يأمن على نفسه حينما يخرج من بيته ليلاً. والمرأة لا تأمن سواء كان ليلاً أم نهاراً^(٢). والمختطفون والمغتصبون للنساء كانوا يأتون للمرأة ويقولون لها: إصرخي ثلاثاً، ثم انظري إذا جاء إليك من يساعدك سوف نطلق سراحك، وإلا فإن لنا الحق في أن نأخذك معنا. وبعد أن تصرخ لا تجد من يجرو لتخليصها من أيدي اللصوص، إلا المرأة ذات الوضع الاجتماعي المعين التي لها عشيرة أو قبيلة تحميها. أما ذلك الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية الذي يزرعه الإسلام في الإنسان والذي يقول: «مَنْ أَصْبَحَ لَا يَنْتَهِمُ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ»^(٣)، ذلك الحس كان مفقوداً تقريباً في المجتمع.

جاء زياد بن أبيه إلى البصرة والوضع بهذه الحالة، فالناس يقتل بعضهم بعضاً، والإنسان لا يأمن على بيته وزوجته وأمواله من اللصوص.

فقام زياد بن أبيه يومها بفرض منع التجول^(٤)، وربما لأول مرة في التاريخ الإسلامي، وحكم بأن الرجل الذي يخرج من منزله ليلاً يقطع رأسه، والحرس الذين يأتون برأس شخص قد خرج ليلاً يكافؤون بخمسين درهماً. ولما كان أهل البصرة حينها يعيشون الفقر، وكانت هناك طبقات ذات مستوى معيشي ضعيف، لذلك فإنها انضوت تحت لواء زياد بن أبيه وقامت بقتل كل من تراه خارجاً من بيته

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ٢٧٣.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ٣٦٥-٣٦٩.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ١٦٣.

(٤) تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ١٠.

ليلاً، بل إن قسماً من الناس كانوا يذبحونهم في بيوتهم ثم يأتون برؤوسهم إلى دار الإمارة.

يقول ابن الأثير: «إذا فرغ (زياد، من صلاة العشاء) أمهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ أقصى البصرة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج، فيخرج فلا يرى إنساناً إلا قتله، فأخذ ذات ليلة أعرابياً فأتى به زياداً فقال: هل سمعت النداء؟».

فقال: لا والله! قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع وأقمت لأصبح، ولا علم لي بما كان من الأمير. فقال: أظنك والله صادقاً ولكن في قَتْلِكَ صلاح [هذه] الأمة. ثم أمر به فضربت عنقه»^(١).

فلما استخلف زياد سمرة على البصرة أكثر القتل فيها، فقال ابن سيرين: قتل سمرة في غيبة زياد هذه ثمانية آلاف. فقال له زياد: أتخاف أن تكون قتلت بريئاً؟

فقال: لو قتلت معهم مثلهم ما خشيت.

وقال أبو السَّوَّار العدويّ: قتل سمرة من قومي في غداة واحدة سبعة وأربعين كلهم قد جَمَعَ^(٢) القرآن^(٣).

وهنا نسأل: هل كانت سياسة القوة هذه تستطيع أن تكون البديلة عن الضمير؟

بالطبع، لا. وهناك مظهر آخر من مظاهر الأزمة الخلقية، وهو أن الصدق، والأمانة، والتعامل الصحيح مع الناس، بل الاجتناب عن المحرمات، والخمر، والميسر، والفحشاء، والمنكر، كل ذلك أصبح شبه مفقود في المجتمع. فقد تحوّلت المحرمات إلى مباحات.

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٢٢٢. الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣٠٧.

(٢) أي: حفظه في صدره.

(٣) الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٦٣.

فالناس على دين ملوكهم، وإذا كان يزيد -مثلاً- مولعاً بالقروء، والفهود، والكلاب، والخمر، والفحشاء، فإنه بالطبع سوف يعكس وضعه وشذوذه على كافة القطاعات، خصوصاً وأن الأمة كانت لا تعيش الاستقرار في كافة الحقول.

يقول المسعودي: «وكان يزيد صاحب طرب، وجوارح وكراب، وقروء وفهود، ومنادمة على الشراب... وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب، وكان له قرد يُكنى بأبي قيس يحضره مجلس منادمته، وي طرح له متكاً...»^(١).

ثالثاً: الأزمة الفكرية

برزت هذه الأزمة بشكل واضح في عهد إمامة الإمام زين العابدين عليه السلام. فقد كانت الأمة لا تعرف طريقها، في الوقت الذي تداخلت فيه بالأمم الأخرى نتيجة توسع الفتوحات الإسلامية في كافة الأطراف والجهات، مما أدى إلى دخول ثقافات جديدة، وكانت الأمة بحاجة إلى بوتقة تصهر هذه الأفكار ومن ثم تميز الخبيث منها من الطيب، في حين أن الأمة كانت مشغولة بالقضايا السياسية الحادة. فلو جاء أحد الفلاسفة الذين أسلموا في الفتوحات الإسلامية وسأل أبناء الأمة الإسلامية عن أسئلة بعد أن أخبرهم أنه يؤمن بالنظرية الأفلاطونية:

ما هو رأيكم أيها المسلمون في الجبر والاختيار؟. وما هو رأيكم في القدر؟. وما هو رأيكم في الجوهر والأعراض؟.

لكان جوابهم: لا نعرف.

حينما لا يمتلك أبناء الأمة الإسلامية نظرية متكاملة عن مجالات الدين السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، سوف يكون البديل نظريات وأفكار

هذا الفيلسوف، وتكون الأمة حينها قد ابتعدت بخطى سريعة عن جوهر الإسلام. وبالفعل فقد انتشرت الأفكار المنحرفة ونشأت تيارات فكرية متضاربة من: زنادقة^(١)، وقدرية^(٢)، ومفوضة^(٣)، حتى إن البعض اتَّبَعُوا نظرية المجوس^(٤) وأدخلوا في الدين الأفكار المانوية^(٥)، والثنوية^(٦)، وأهريمن، ويزدان^(٧). وهكذا أصبح لكل الأفكار البشرية واقعاً في الأمة الإسلامية، من ديانات هندية مثل البراهمة^(٨)، وفلسفات يونانية^(٩) مثل الأفلاطونية، وكيفوا الإسلام على تلك

(١) الزنديق بالكسر من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة، أو من لا يؤمن بالآخرة والربوبية، أو من يظن الكفر ويظهر الإيمان. والمشهور على السنة الناس أن الزنديق هو الذي لا يتمسك بشريعة ويقول بدوام الدهر. والعرب تعبر عن هذا بقولهم: ملحد، أي طاعن في الأديان.

(٢) فرقة تنكر القدر، وتقول: إن كل إنسان خالق لفعله.

(٣) هم الذين يعتقدون بتفويض أفعال البشر إلى أنفسهم، فهم مستقلون في خلق الأفعال وإيجادها ولا صلة لها بخالق البشر.

(٤) من أتباع زرادشت، وتعتقد بوجود إله واحد أزلي هو أهورامزدا بمعنى «الإله الحكيم». وهو خالق الكون ويمثل الخير ولا يأتي منه الشر أبداً.

(٥) أو المانية، كما ذكر ابن النديم في الفهرست، ص ٣٩١-٣٩٢، (الفن الأول من المقالة التاسعة): ديانة تُنسب إلى ماني بن فتق بابك، كان على صغر سنه يتكلم بكلام الحكمة، وقيل: أتاه الوحي وهو في الثانية عشر من عمره، وكان يقول بنبوة عيسى ﷺ، واستخرج مذهبه من المجوسية والنصرانية...

(٦) هم أصحاب الاثنين الأزليين: يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديان.

(٧) أهريمن: إله الشر في ديانة زرادشت. ويزدان: إله الخير.

(٨) القائلة: بنفي النبوات أصلاً ورأساً. وهم يتسبون إلى رجل منهم يقال له (براهم) وقد مهَّد لهم نفي النبوات، وقرَّر استحالة ذلك في المعقول بوجوده، فقال: إن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين: إما أن يكون معقولاً، وإما ألا يكون معقولاً. فإن كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه، فأبي حاجة لنا إلى الرسول؟ وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً، إذ قبول ما ليس بمعقول خرج عن حد الإنسانية ودخل في حريم البهيمية. راجع: الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٢، ص ٦٠٢.

(٩) ناقش المؤلف الأفكار اليونانية (الأوربية) وحدّد الثغرات الواسعة فيها، في كتابه: الفكر الإسلامي.. مواجهة حضارية. وأيضاً: راجع للمؤلف كتاب: العرفان الإسلامي.. بين بصائر الوحي وتصورات البشر.

الأفكار. وإذا بالإسلام تحوّل إلى عشرين إسلاماً، والأفكار الإسلامية تناقضت بشكل حاد، والأمة الإسلامية لا تعرف ماذا عليها أن تعمل، وما هي واجباتها.

رابعاً: الأزمة الاجتماعية

الأزمة الاجتماعية هي: حصيلة جميع الأزمات، وقد نتجت أساساً بسبب توسّع البلاد الإسلامية بالفتوحات، إذ مع توسّع البلاد انتشرت العائلات وتفرّقت في البلاد المختلفة. وقد كان الرجل العربي من قبل يعيش في قرية أو في واحة، ضمن مجموعته، فيذهبون ويتقلّون مع بعضهم، ومتحدون فيما بينهم في كافة الأمور، وذلك الاجتماع كان من أسباب القوة عند العرب. ولكن بعدما كثرت الفتوحات الإسلامية، رأينا أن الابن في العراق بيننا الأب في إسبانيا يفتحها. وفي ذلك العهد لم تكن هناك وسائل الاتصال والمراسلة المنتظمة كالبريد والهاتف، وكذلك لم تكن هناك وسائل المواصلات السريعة.

وهكذا فإن تفكّك الأسر، وهي الكيانات الاجتماعية الحصينة، وتكوّن تجمعات سكانية خليطة، قد سبب للمسلمين ذلك الفساد والانحلال الذي عانوا منه. إضافة إلى ذلك نشأت أزمة اقتصادية حادة نتيجة جور الولاة في جمع الخراج^(١)، فخربت البلاد وقلّت العمارة. كل هذه الأزمات كان على الإمام زين العابدين المسؤول الأول في الأمة الإسلامية أن يعالجها.

الإمام السجاد يزرع روح الإيمان في الأمة

إن ضعف الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو العامل الأساس وراء كل الأزمات التي أصيبت بها الأمة الإسلامية. ومن هنا يمكننا أن نفهم حرص الإمام السجاد عليه السلام على إيمان الأمة بغرس بذور الإيمان في قلوب المسلمين، وسقيها ومداراتها ببرامجه الروحية وسيرته التي عُرف بها زيناً للعابدين.

(١) حياة الإمام زين العابدين عليه السلام، العلامة القرشي، ج ٢، ص ٣٨٠-٣٨٩.

لقد سجّل التاريخ صفحات نيرة من سيرة هذا الإمام العظيم، في علمه، وعمله، وعبادته وتبّله لرب العالمين^(١). وهنا نورد غيثاً من فيض السجاد عليه السلام.

١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُبَارَكٍ قَالَ: «حَجَجْتُ بَعْضَ السَّنِينَ إِلَى مَكَّةَ، فَبَيْنَمَا أَنَا سَائِرٌ فِي عَرْضِ الْحُجَّاجِ وَإِذَا صَبِيٌّ سُبَاعِيٌّ أَوْ ثُمَائِيٌّ. وَهُوَ يَسِيرُ فِي نَاحِيَةِ مَنْ الْحُجَّاجُ بِلا زَادٍ وَلَا رَاحِلَةٍ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ لَهُ: مَعَ مَنْ قَطَعْتَ الْبَرَّ؟

قَالَ: مَعَ الْبَارِّ. فَكَبَّرَ فِي عَيْنِي فَقُلْتُ: يَا وَلَدِي، أَيْنَ زَادُكَ وَرَاحِلَتُكَ؟

فَقَالَ: زَادِي تَقْوَايَ، وَرَاحِلَتِي رَجُلَايَ، وَقَصْدِي مَوْلَايَ.

فَعَظَمَ فِي نَفْسِي فَقُلْتُ: يَا وَلَدِي، مِمَّنْ تَكُونُ؟

فَقَالَ: مُطَّلِبِيٌّ.

فَقُلْتُ: أَبْنُ لِي. فَقَالَ: هَاشِمِيٌّ.

فَقُلْتُ: أَبْنُ لِي. فَقَالَ: عَلَوِيٌّ فَاطِمِيٌّ.

فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي؛ هَلْ قُلْتَ شَيْئاً مِنَ الشُّعْرِ؟

فَقَالَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: أَنْشِدْنِي شَيْئاً مِنْ شُعْرِكَ. فَأَنْشَدَ:

لَنَحْنُ عَلَى الْحَوْضِ رُودُهُ	نَذُودُ وَنَسْقِي وَرَادُهُ
وَمَا فَازَ مَنْ فَازَ إِلَّا بِنَا	وَمَا خَابَ مَنْ حُبَّنَا زَادُهُ
وَمَنْ سَرَّنَا نَالَ مِنَّا السُّرُورَ	وَمَنْ سَاءَ نَأَاءُ سَاءَ مِيلَادُهُ
وَمَنْ كَانَ غَاصِبَنَا حَقَّنَا	فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ مِيعَادُهُ

ثُمَّ غَابَ عَنْ عَيْنِي إِلَى أَنْ أَتَيْتُ مَكَّةَ فَقَضَيْتُ حَجَّتِي. وَرَجَعْتُ فَأَتَيْتُ الْأَبْطَحَ فَإِذَا بِحَلَقَةٍ مُسْتَدِيرَةٍ فَاطْلَعْتُ لِأَنْظُرَ مَنْ بِهَا فَإِذَا هُوَ صَاحِبِي، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ:

هَذَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ عليه السلام»^(١).

٢- عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ آبَائِهِ عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام قَالَ: «كَانَ لِأَبِي عليه السلام فِي مَوْضِعِ سُجُودِهِ أَثَارٌ نَائِنَةٌ، وَكَانَ يَقْطَعُهَا فِي السَّنَةِ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ خَمْسَ ثِفَنَاتٍ. فَسُمِّيَ ذَا الثِّفَنَاتِ لِذَلِكَ»^(٢).

٣- عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «حَجَّ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام مَا شِئًا فَسَارَ عَشْرِينَ يَوْمًا مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ»^(٣).

إن الإمام زين العابدين عليه السلام كان بعبادته يُعطي أكبر دافع للأمة نحو استرجاع الروح التي أخذت تبته في ذاتها، بفعل سياسة الترغيب والترهيب التي أراد بنو أمية أن يُربُّوا الناس عليها، والتي أنتجت جيشًا من المرتزقة والعملاء، وقلبت المقاييس الأخلاقية في المجتمع وشوَّهت حقائق الدين. فالإمام عليه السلام كان يُعطي للناس الأنموذج والقدوة.

٤- عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ عليه السلام قَالَ: «كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام يُصَلِّي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَ رَكْعَةٍ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، كَانَتْ لَهُ خَمْسِائَةِ نَخْلَةٍ فَكَانَ يُصَلِّي عِنْدَ كُلِّ نَخْلَةٍ رَكْعَتَيْنِ، وَكَانَ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ غَشِيَ لَوْنُهُ لَوْنٌ آخَرٌ، وَكَانَ قِيَامُهُ فِي صَلَاتِهِ قِيَامَ الْعَبْدِ الدَّلِيلِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ، كَانَتْ أَعْضَاؤُهُ تَرْتَعِدُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَ يُصَلِّي صَلَاةَ مُودَعٍ، يَرَى أَنَّهُ لَا يُصَلِّي بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَقَدْ صَلَّى ذَاتَ يَوْمٍ فَسَقَطَ الرِّدَاءُ عَنْ أَحَدٍ مِنْكِيهِ فَلَمْ يُسَوِّهِ حَتَّى فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ، فَسَأَلَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ عليه السلام: وَنَحْكَ أَنْتَدِرِي بَيْنَ يَدَيِ مَنْ كُنْتُ؟ إِنَّ الْعَبْدَ لَا تُقْبَلُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ مِنْهَا بِقَلْبِهِ...»^(٤).

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٩١.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٦.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٧٦.

(٤) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٦١.

٥- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام قَالَ: «كَانَ أَبِي يُصَلِّي بِاللَّيْلِ حَتَّى يَزْحَفَ إِلَى فِرَاشِهِ»^(١). أَي كَانَ يَعْسِرُ عَلَيْهِ عليه السلام الْقِيَامُ لَشِدَّةِ الْإِعْيَاءِ مِنَ الْعِبَادَةِ.

٦- كَانَ الْإِمَامُ السَّجَادُ عليه السلام فِي مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ بَعْدَمَا قَلَّ الْغَيْثُ وَاشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْعَطَشُ. وَوَقَفَ يَدْعُو اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُمَطِّرَ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ. ثُمَّ سَجَدَ وَقَالَ: «سَيِّدِي بِحُبِّكَ لِي إِلَّا سَقَيْتَهُمُ الْغَيْثَ. قَالَ -الراوي-: فَمَا اسْتَمَّ الْكَلَامَ حَتَّى أَتَاهُمُ الْغَيْثُ كَأَفْوَاهِ الْقُرْبِ...»^(٢).

لقد أعطى بذلك الناس الطاقة الروحية التي كانوا يفقدونها، تلك الطاقة التي تحوّلت إلى مفاهيم ومبادئ أخلاقية، وبالتالي تحوّلت إلى خيرات داخل الأمة الإسلامية. فصلاة الإمام زين العابدين وتلاوته وقراءته للقرآن كانت ضرورية للأمة، التي كانت تستوعب ذلك لمكانته بين أبنائها.

انظروا إلى التاريخ لتجدوا الإمام زين العابدين عليه السلام يأتي إلى البيت الحرام، والناس في ذلك الزحام والتدافع والانشغال، ولكنهم ينقشعون ليفسحوا له الطريق، فيستلم الحجر بسهولة^(٣)، لأن الناس استوعبوا حياة الإمام زين العابدين عليه السلام.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٩٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٥٠: عَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ قَالَ: كُنْتُ حَاجِبًا وَجَاعَةً عُبَادَ الْبَصْرَةِ مِثْلَ: أَيُّوبَ السَّجِسْتَانِيِّ، وَصَالِحِ الْمُرِّي، وَعُتْبَةَ الْغَلَامِ، وَحَبِيبِ الْفَارِسِيِّ، وَمَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، فَلَمَّا أَنْ دَخَلْنَا مَكَّةَ رَأَيْنَا الْمَاءَ ضَيْقًا وَقَدْ اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْعَطَشُ لِقَلَّةِ الْغَيْثِ، فَفَزِعَ إِلَيْنَا أَهْلُ مَكَّةَ وَالْحُجَّاجُ يَسْأَلُونَا أَنْ نَسْتَسْقِيَهُمْ، فَأَتَيْنَا الْكَعْبَةَ وَطُفْنَا بِهَا ثُمَّ سَأَلْنَا اللَّهَ خَاضِعِينَ مُتَضَرِّعِينَ بِهَا فَمُنِعْنَا الْإِجَابَةَ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا نَحْنُ بَفْتَى قَدْ أَقْبَلْ، قَدْ أَكْرَبَتْهُ أَحْزَانُهُ، وَأَقْلَقَتْهُ أَشْجَانُهُ، فَطَافَ بِالْكَعْبَةِ أَشْرَاطًا. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: يَا مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، وَيَا ثَابِتُ الْبُنَانِيِّ، وَيَا أَيُّوبَ السَّجِسْتَانِيِّ، وَيَا صَالِحَ الْمُرِّي، وَيَا عُتْبَةَ الْغَلَامِ، وَيَا حَبِيبَ الْفَارِسِيِّ، وَيَا سَعْدُ، وَيَا عَمْرُ، وَيَا صَالِحَ الْأَعْمَى، وَيَا رَابِعَةَ، وَيَا سَعْدَانَةَ، وَيَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ. فَقُلْنَا: لَبَّيْكَ وَسَعْدِيكَ يَا فَتَى! فَقَالَ عليه السلام: أَمَّا فِيكُمْ أَحَدٌ يُجِيبُ الرَّحْمَنُ؟ فَقُلْنَا: يَا فَتَى عَلَيْنَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْهِ الْإِجَابَةُ! فَقَالَ عليه السلام: أَبْعِدُوا مِنْ الْكَعْبَةِ فَلَوْ كَانَ فِيكُمْ أَحَدٌ يُجِيبُ الرَّحْمَنَ لِأَجَابَهُ. ثُمَّ أَتَى الْكَعْبَةَ فَحَرَّ سَاجِدًا فَسَمِعَتْهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: ...

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٢٥. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، ج ٦، ص ٤٣٥.

وعرفوه ودخلت في قلوبهم ونفوسهم محبته.

لقد ساهم الإمام زين العابدين في علاج الأزمة الفكرية بتوجيهاته وأفكاره الرسالية. فنرى مثلاً: رسالة الحقوق^(١) التي بين فيها الحقوق التي أوجبها الإسلام على الإنسان المسلم، وقسم تلك الحقوق إلى خمسين قسمًا. وربما تكون بعض بنود هذه الرسالة بديية بالنسبة لنا، لأننا في واقعنا نعيش بعض القيم المتوارثة في المحبة والتوَادد وصلة الرحم، ولكن في زمن الإمام علي بن الحسين عليه السلام كانت رسالة الحقوق تعني تحدياً للأزمة الاجتماعية التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية^(٢).

وأما الأزمة السياسية، فقد واجهها الإمام زين العابدين، عليه السلام، بتغذيته للحركات الثورية مثل حركة سليمان بن صرد الخزاعي، وحركة المختار الثقفي. وهذا ما سنبيّنه في المواضيع القادمة إن شاء الله تعالى.

(١) رسالة الحقوق وهي عبارة عن مجموعة حقوق بين الإنسان وربه ومجتمعه، كتبها الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام. وفيها خمسون حقاً، نقلها المحدث الجليل ابن شعبة الحراني، أبو محمد بن الحسن بن علي، في كتابه القيم: (تحف العقول)، أوها: «اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْكَ حُقُوقًا مُحِيطَةً بِكَ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ حُرُكْتَهَا [مَحَرَّكَتَهَا] أَوْ سَكَنَةٍ سَكَنَتَهَا... وآخرها: وَهَذِهِ خَمْسُونَ حَقًّا مُحِيطَةً بِكَ لَا تَخْرُجُ مِنْهَا فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ يَجِبُ عَلَيْكَ رِعَايَتُهَا». ورواها الشيخ الصدوق بإسناده بعنوان: (الحقوق الخمسون)، التي كتب بها علي بن الحسين عليه السلام إلى بعض أصحابه، كما في الخصال، ج ٢، ص ٥٦٤، قال: «حدثنا علي بن أحمد بن موسى رحمته الله قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي، قال: حدثنا جعفر بن محمد بن مالك الفزاري، قال: حدثنا خيران بن داهر، قال: حدثني أحمد بن علي بن سليمان الجبلي، عن أبيه، عن محمد بن علي، عن محمد بن فضيل، عن أبي حمزة الثمالي، قال: «هذه رسالة علي بن الحسين عليه السلام إلى بعض أصحابه. اعلم أن الله عز وجل عليك حقوقاً...».

(٢) طالع (نص رسالة الحقوق) في: تحف العقول عن آل الرسول عليهم السلام، ص ٢٥٥.

— ﴿ صَفْوُ الْكَلَامِ ﴾ —

* في عهد الإمام السجاد عليه السلام، كان الوضع العام للدولة الإسلامية يعاني من أزمة حضارية حادة على مختلف الصعد: السياسية والخلقية والفكرية والاجتماعية، وكانت هذه الأزمة الشاملة تهدد الأمة الإسلامية، ليس فقط بتغيير مسيرتها، وإنما أيضاً بزوالها.

* وكان على الإمام السجاد عليه السلام أن يعالج هذه الأزمة، بشقوقها الأربعة، باعتباره قائداً للطليعة الرسالية، بما فيهم الحواريون من أتباعه، وبقايا الصحابة والتابعين.

* وكانت الأزمة السياسية من أبرز التحديات التي واجهت الحركة الرسالية، حيث كانت تعصف بالأمة الإسلامية اضطرابات واسعة بفعل الحركات المعارضة لسلطة بني أمية.

* ونتجت الأزمة الفكرية بسبب تداخل الأمة الإسلامية مع الأمم الأخرى، مما أدى إلى دخول ثقافات جديدة وغريبة، فكانت الأمة بحاجة إلى من يتولى تنقية الرسالة الإسلامية من الأفكار الدخيلة.

* وتوسّع الفتوحات أدى إلى رحيل الكثير من الرجال إلى أطراف البلاد البعيدة، مما ترك العوائل لوحدها فتتجت الأزمة الاجتماعية والتفكك الأسرى.





الباب الثاني، مسيرة الحركة الرسالية في العهد الأموي

الفصل الثاني، الحركة الرسالية في عهد الإمام السجاد عليه السلام

ثورة التوابين .. ثورة استشهادية
ثورة المختارين بين الانتصار والهزيمة



١٩ ثَوْرَةُ التَّوَابِئِ .. ثَوْرَةُ اسْتِشْهَادِيَّةٍ

في سنة خمس وستين^(١) للهجرة اجتمع عدد من الشيعة في منزل سليمان بن صرد الخزاعي بالكوفة، وقد كان هذا الاجتماع تعبيراً عن حالة الندم التي خيمت على الكوفة بسبب مقتل الإمام الحسين عليه السلام بعد أن وعدته الكوفة بالنصرة طالبة منه القدوم ليقود الجماهير الغاضبة على بني أمية، وتعاقدوا يومها على الثأر من قتلة الإمام الحسين عليه السلام وحددوا لذلك ساعة الصفر، وعيّنوا سليمان بن صرد الخزاعي قائداً لهم.

وفي الوقت المحدد أطلق شعاره: «يَا لثَارَاتِ الْحُسَيْنِ»، وكان سليمان بن صرد هو أول من أطلق هذا الشعار، بعد أن كاتب أهل المدائن والبصرة، ووعدوه بالنصرة، واجتمع حوله ما بين أربعة آلاف إلى خمسة آلاف مقاتل في منطقة النخيلة، وهي مفترق الطرق بين الشام والكوفة والمدينة، باعتبارها منطقة استراتيجية كانت الجيوش تعسكر فيها.

ثم قام سليمان في أصحابه فقال: «أيّها الناس من كان خرج يريد بخروجه وجه الله والآخرة فذلك منا ونحن منه، فرحمة الله عليه حياً وميتاً، ومن كان إنّه يريد الدنيا فوالله ما نأتي فيئاً نأخذه، وغنيمة نغنمها، ما خلا رضوان [الله]، وما معنا من

(١) لاحظ: أحداث السنة الخامسة والستين، في: الكامل في التاريخ، ج ٤، تاريخ الأمم والملوك، ج ٥. موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٦، للشيخ اليوسفي الغروي.

ذهب ولا فضة ولا متاع، وما هي إلا سيوفنا على عواتقنا، وزاد قدر البلغة، فمن كان ينوي غير هذا فلا يصحبنا.

فتنادى أصحابه من كل جانب: «إنا لا نطلب الدنيا، وليس لها خرجنا، إنما خرجنا نطلب التوبة، والطلب بدم ابن بنت رسول الله ﷺ».

فلما عزم سليمان على المسير قال له عبد الله بن سعد بن نفيل: «إني قد رأيت رأياً إن يكن صواباً فالله الموفق، وإن يكن ليس صواباً فمن قبلي، إنا خرجنا نطلب بدم الحسين، وقتلته كلهم بالكوفة، منهم عمر بن سعد ورؤوس الأرباع والقبائل، فأين نذهب هاهنا وندع الأوتار؟ فقال أصحابه كلهم: هذا هو الرأي.

فقال سليمان: لكن أنا لا أرى ذلك، إن الذي قتله وعبأ الجنود إليه. وقال: لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكمي، هذا الفاسق ابن الفاسق عبيد الله بن زياد، فسيروا إليه على بركة الله فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون علينا منه، ورجونا أن يدين لكم أهل مصركم في عافية فينظرون إلى كل من شرك في دم الحسين فيقتلونه ولا يغشموا، وإن تستشهدوا فإنما قاتلتم المحلّين، وما عند الله خير للأبرار، إني لا أحب أن تجعلوا جدكم بغير المحلّين، ولو قاتلتم أهل مصركم ما عدم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ورجلاً يريد قتله، فاستخبروا الله وسيروا»^(١).

عند قبر الحسين عليه السلام

«ثم ساروا فانتهوا إلى قبر الحسين، فلما وصلوا صاحوا صيحة واحدة، فها

(١) الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣. وقال ابن كثير في البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٥٢: «قال سليمان: إن ابن زياد هو الذي جهز الجيش إليه (إلى الحسين بن علي)، وفعل به ما فعل، فإذا فرغنا منه عدنا إلى أعدائه بالكوفة (أمثال عمر بن سعد وغيره)، ولو قاتلتوهم أولاً، وهم أهل مصركم ما عدم الرجل منكم أن يرى رجلاً قد قتل أباه أو حميمه، فيقع التخاذل، فإذا فرغتم من الفاسق ابن زياد حصل لكم المراد. فقالوا: صدقت. فننادى فيهم: سيروا على اسم الله تعالى».

رُئي أكثر باكيًا من ذلك اليوم، فترحموا عليه وتابوا عنده من خذلانه وترك القتال معه وأقاموا عنده يومًا وليلة ليكون ويتضرَّعون ويترحمون عليه وعلى أصحابه، وكان من قولهم عند ضريحه: «اللَّهُمَّ ارحم حسينًا الشهيد ابن الشهيد، المهديّ ابن المهديّ، الصّديق ابن الصّديق، اللَّهُمَّ إِنَّا نشهدك أَنَّا على دينهم وسبيلهم وأعداء قاتليهم، وأولياء محبيهم، اللَّهُمَّ إِنَّا خذلنا ابن بنت نبيِّنا ﷺ، فاغفر لنا ما مضى مِنَّا وتب علينا، وارحم حسينًا وأصحابه الشهداء الصّديقين، وإِنَّا نُشهدك أَنَّا على دينهم، وعلى ما قتلوا عليه، ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾»^(١)...

ثم ساروا بعد أن كان الرجل يعود إلى ضريحه كالمدح له، فازدحم الناس عليه أكثر من ازدحامهم على الحجر الأسود، ثم أخذوا على الأنبار.

ثم ساروا^(٢) حتى انتهوا إلى قرقيسيا^(٣) على تعبئة، وبها زفر بن الحارث الكلابي^(٤) قد تحصن بها منهم ولم يخرج إليهم، فأرسل إليه المسيّب بن نجبة^(٥) يطلب

(١) سورة الكهف، آية: ٢٠.

(٢) وكانت طريقهم من منزل قبر الحسين ﷺ إلى القيارة -وهي اليوم إحدى نواحي مدينة الموصل، التابعة إلى محافظة نينوى. وتقع إلى جنوب مدينة الموصل بحوالي ٦٠ كيلو مترًا- ثم إلى هيت -التي تقع على الضفة الغربية من نهر الفرات إلى الشمال من مدينة الرمادي بمسافة ٧٠ كم- ثم من هيت إلى عانات، وما يليها حتى قرقيسيا على شاطئ الفرات.

(٣) مدينة أثرية هامة في وادي الفرات السوري، اسمها القديم اللاتيني (كركيسيوم) وتعني المعقل أو الحصن الدائري، وحولت إلى قرقيسيا في العصور العربية الإسلامية. تقع على الضفة اليمنى لنهر الخابور عند التقائه بنهر الفرات.

(٤) ابن عبد عمرو بن معاذ الكلابي [ت: ٧٥هـ]، شهد صفين مع معاوية أميرًا على أهل قنسرين، وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهري. وقتل الضحاك، فهرب زفر إلى قرقيسيا (عند مصب نهر الخابور في الفرات) وقيل: لم يزل متحصنًا فيها حتى مات. وكانت وفاته في خلافة عبد الملك بن مروان. الأعلام، ج ٣، ص ٤٥.

(٥) ابن ربيعة بن رباح الفزاري [٦٥هـ]، تابعي، كان متعبدًا ناسكًا، وشجاعًا بطلًا، فارس مضر الحمراء كلها، إذا عد من أشرافها عشرة كان أحدهم. وكان رأس قومه. شهد القادسية وفتح العراق، وكان مع الإمام علي ﷺ في مشاهدته. سكن الكوفة. وثار مع التوابين واستشهد. الأعلام، ج ٧، ص ٢٢٦.

إليه أن يُخرج إليه سوقًا، فأتى المسيب إلى باب قرقيسيا فعرفهم نفسه وطلب الإذن على زفر، فأتى هذيل بن زفر أباه فقال: هذا رجل حسن الهيئة اسمه المسيب بن نجبة يستأذن عليك، فقال أبوه: أما تدري يا بني من هذا؟. هذا فارس مضر الحمراء كلها، إذا عُدَّ من أشرافها عشرة كان أحدهم هو، وهو بعدُ رجل ناسك له دين، ائذن له، فأذن له، فلما دخل عليه أجلسه إلى جانبه وسأله، فعرفه المسيب حاله وما عزموا عليه، فقال زفر: إنّا لم نُغلق أبواب المدينة إلّا لنعلم إيانا نريدون أم غيرنا، وما بنا عجز عن الناس وما نحب قتالكم، وقد بلغنا عنكم صلاح وسيرة جميلة.

ثم أمر إليه فأخرج لهم سوقًا، وأمر للمسيب بألف درهم وفرس، فرد المال وأخذ الفرس. وقال: لعلّي أحتاج إليه إن عرج فرسي، وبعث زفر إليهم بخبز كثير وعلف ودقيق حتى استغنى الناس عن السوق، إلا أن كان الرجل يشتري سوطًا أو ثوبًا.

ثم ارتحلوا من الغد، وخرج إليهم زفر يُشيّعهم، وقال لسليمان: إنه قد سار خمسة أمراء من الرقة هم: الحصين بن نمير^(١)، وشرحبيل بن ذي الكلاع^(٢)، وأدهم بن محرز^(٣)، وجبله^(٤) بن عبد الله الخثعمي، وعبيد الله بن زياد في عدد كثير مثل الشوك والشجر، فإن شئتم دخلتم مدينتنا، وكانت أيدينا واحدة، فإذا جاءنا

(١) ابن نائل [ت: ٦٧هـ]، أبو عبد الرحمن الكندي ثم السكوني، من أهل حمص، من القساة الأشداء، المقدمين في العصر الأموي. ومن أتباع معاوية المخلصين له. ومن رؤساء جند ابن زياد، وهو الذي حاصر عبدالله بن الزبير بمكة ورمى الكعبة بالمنجنيق. وهو من قبض على عبدالله بن يقطر، وقيس بن مسهر ~~هذيل~~، كان له دور فعال في قتال الإمام الحسين في كربلاء. وفي آخر أمره كان على ميمنة عبيد الله بن زياد في حربه مع إبراهيم بن الأشتر، فقتل مع ابن زياد على مقربة من الموصل. الأعلام، ج ٢، ص ٢٦٢. مع الركب الحسيني، ج ٤، الإمام الحسين في كربلاء، ص ٩١.

(٢) الحميري [ت: ٦٧هـ]، كان في جيش عبيد الله بن زياد بالموصل، ولما نشبت الحرب بين ابن زياد وابن الأشتر، ولي شرحبيل قيادة خيل ابن زياد، فقتل معه. الأعلام، ج ٣، ص ١٥٩.

(٣) ابن أسيد الباهلي [ت: ١٠٠هـ]، من أهل حمص، ومن أمراء الجند، كان فارس أهل الشام ورجلهم في أيامه. شهد صفين مع معاوية. الأعلام، ج ١، ص ٢٨٢.

(٤) من كبار القادة الأمويين. وفي تجارب الأمم، ج ٢، ص ١٢١: (حملة)، ولعله تصحيف.

هذا العدو قاتلناهم جميعاً.

فقال سليمان: قد طلب أهل مصرنا ذلك منا فأبيناهم عليهم.

قال زفر: فبادروهم إلى عين الوردة وهي رأس عين فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة في أيديكم وما بيننا وبينكم فأنتم آمنون منه، فاطبوا المنازل، فوالله ما رأيت جماعة قط أكرم منكم، فإني أرجو أن تسبقوهم، وإن قاتلتموهم فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنونهم فإنهم أكثر منكم، ولا آمن أن يُحيطوا بكم، فلا تقفوا لهم فيصرعوكم، ولا تصفوا لهم، فإني لا أرى معكم رجالة ومعهم الرجالة والفرسان بعضهم يحمي بعضاً، ولكن القوهم في الكتائب والمقانب ثم بثوها فيما بين ميمنتهم وميسرتهم، واجعلوا مع كل كتيبة أخرى إلى جانبها، فإن حمل على إحدى الكتيبتين رحلت الأخرى فنفست عنها، ومتى شاءت كتيبة ارتفعت، ومتى شاءت كتيبة انحطت، ولو كنتم صفاً واحداً فزحفت إليكم الرجالة فدفعتكم عن الصف انتقض فكانت الهزيمة، ثم ودّعهم ودعاهم ودعوا له وأثنوا عليه.

ثم ساروا مجدين فانتهوا إلى عين الوردة فنزلوا غربيتها وأقاموا خمساً فاستراحوا وأراحوا.

وأقبل أهل الشام في عساكرهم حتى كانوا من عين الوردة على مسيرة يوم وليلة، فقام سليمان في أصحابه وذكر الآخرة ورغب فيها ثم قال: «أما بعد فقد أتاكم عدوكم الذي دأبتم إليه في السير آناء الليل والنهار، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم القتال واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا يؤلّينهم امرؤ دُبْره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، ولا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه، فإن هذه كانت سيرة علي في أهل هذه الدعوة».

ثم قال: «إن أنا قتلتُ فأمير الناس مسيب بن نجبة، فإن قُتل فالأمير عبد الله بن سعد بن نَفيْل، فإن قُتل فالأمير عبد الله بن وال، فإن قُتل فالأمير رفاعة بن شداد. رحم الله امرأ صدق ما عاهد الله عليه».

ثم بعث المسيب في أربعمائة فارس ثم قال: سر حتى تلقى أول عساكرهم فشنّ عليهم الغارة، فإن رأيت ما تحبه وإلا رجعت، وإياك أن تترك واحداً من أصحابك أو يستقبل آخر ذلك، حتى لا تجد منه بدءاً، فسار يومه وليلته ثم نزل السحر، فلما أصبحوا أرسل أصحابه في الجهات ليأتوه بمنّ يلقون، فأتوه بأعرابي، فسأله عن أدنى العساكر منه، فقال: أدنى عسكر من عساكرهم منك عسكر شرحبيل بن ذي الكلاع، وهو منك على رأس ميل، وقد اختلف هو والحصين، ادّعى الحصين أنه على الجماعة وأبى شرحبيل ذلك، وهما ينتظران أمر ابن زياد.

فسار المسيب ومن معه مسرعين فأشرفوا عليهم وهم غارون، فحملوا في جانب عسكرهم، فانهزم العسكر وأصاب المسيب منهم رجالاً، فأكثروا فيهم الجراح وأخذوا الدواب، وختلّ الشاميون عسكرهم وانهزموا، فغنم منه أصحاب المسيب ما أرادوا ثم انصرفوا إلى سليمان موفورين.

ولما بلغ الخبر ابن زياد، بعث الحصين بن النمير في اثني عشر ألفاً وتبعه ابن ذي كلاع في ثمانية آلاف، ثم تبعه أدهم الباهلي في عشرة آلاف فاقتتلوا يوم الجمعة قتالاً شديداً إلى ارتفاع الضحى، ثم إن أهل الشام كثروهم وتعطفوا عليهم من كل جانب، ورأى سليمان ما لقي أصحابه، فنزل ونادى: عباد الله، من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه فإليّ، ثم كسر جفنة سيفه ونزل معه ناس كثير وكسروا جفون سيوفهم ومشوا معه، فقاتلوهم، فقتل من أهل الشام مقتلة عظيمة وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح، فلما رأى الحصين صبرهم وبأسهم بعث الرجالة ترميهم بالنبل واكتفتهم الخيل والرجال، فقتل سليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رماه يزيد بن الحصين بسهم فوق وقع ثم وثب ثم وقع.

ولما استشهد سليمان تعاقب أصحابه على حمل الراية، كلّما استشهد حاملها حملها الآخر، إلى أن حملها رفاعة بن شداد البجلي، فقال: «ارجعوا بنا لعلّ الله يجمعنا ليوم شرهم». فقال له عبد الله بن عوف بن الأحمر: «هلكنا والله، لئن انصرفت ليركبن أكتافنا فلا نبليغ فرسحاً حتى نهلك عن آخرنا، وإن نجا منا نأج أخذته العرب يتقربون به إليهم فقتل صبراً، هذه الشمس قد قاربت الغروب فنقاتلهم على

خيلنا، فإذا غسق الليل ركبنا خيولنا أول الليل وسرنا حتى نصبح ونسير على مهل، ويحمل الرجل صاحبه وجريحه ونعرف الوجه الذي نأخذه، فقال رفاة: نَعَمْ ما رأيت! وأخذ الراية وقتلهم قتلاً شديداً، ورام أهل الشام إهلاكهم قبل الليل فلم يصلوا إلى ذلك لشدة قتالهم، فلما أمسوا رجع من بقي منهم إلى الكوفة..»^(١).

أسباب فشل ثورة التوابين سياسياً

والسؤال هنا: لماذا فشلت ثورة التوابين في تحقيق أهدافها السياسية التي تمثلت في القضاء على قتلة الإمام الحسين عليه السلام؟.

قبل كل شيء يجب أن نعرف نوعية هذه الثورة، فقد ذكرنا فيما سبق أن هناك في التاريخ الرسالي نوعين من الثورات:

- ١ - ثورة العسكريين والسياسيين مثل ثورة المختار الثقفي.
- ٢ - حركات الفقهاء والزهاد والقُرَّاء، وفي طليعة هذا النوع حركة سليمان بن صرد الخزاعي، ثم حركة زيد بن علي.

وفائدة هذه الحركات كحركة القادة الدينيين من العلماء والفقهاء والمراجع اليوم، هي بعث روح التضحية وروح الجهاد في الأمة. بالطبع لم يكن أكثر المسلمين يتصورون آنذاك أن سليمان بن صرد يستطيع بمجموعته وبتركيبة أفرادهِ أن ينجح في حركته ويستلم الحكم، خصوصاً أنه كان قد تجاوز الثامنة والثمانين من عمره، وقد كان هدف هؤلاء جميعاً يتلخّص في كلمة هي أن يُبَيِّنُوا للأمة الإسلامية وجهها على طول الشارع الإسلامي، ابتداءً من أرمينيا وانتهاءً بأفريقيا، أن هناك أزمة خطيرة يجب الالتفات إليها.

لقد كانت حركة التوابين من أجل هزّ ضمائر المسلمين التي خيَّم عليها الجمود، ومن ثم تحريكهم للثورة على الحكومة الأموية الطاغوتية المفسدة.

(١) الكامل في التاريخ، ج ٤، من ص ٤. باختصار.

فحركاتهم كانت لها أهداف إعلامية ودينية قبل أن تكون لها أهداف سياسية، وقد حققوا هذا الهدف. ومع ذلك لا بأس أن نحاول اكتشاف السبب في فشل ثورة سليمان بن صرد من الناحية السياسية.

أما أسباب عدم انتصار التوابين فهي:

أولاً: اعتماد سليمان بن صرد على الكوفة التي كانت تتكوّن من مجموعة قبائل محاربة انتقلت من موطنها الجزيرة العربية، وكان لكل قبيلة حي صغير مسوّر.

إن الجندي المحترف للقتال، قلّمَا يكون واعياً من الناحية السياسية، لذا فإنه يكون دائماً تابعاً لميول زعيم قبيلته التي كانت تتبدّل تبعاً للمصالح والعطايا.

فالجنود لا يعرفون غير شهر السلاح والقتال، وهم بطبيعة وضعهم لا بد أن يتلوّنوا، لذلك نرى أن أهل الكوفة كانوا يختلفون بين وقت وآخر، فيوماً مع مسلم بن عقيل، وحين يأتي ابن زياد ويُطمعهم بالمال والعطاء، يتركون مسلماً ويلتفون حول ابن زياد، وغداً عندما يأتي المختار ويدفع أكثر فإنهم سيكونون معه وينصرونه، وعندما يذهب المختار ويأتي مصعب فإنهم سيكونون معه، ثم يذهب ويأتي عبد الملك بن مروان سيكونون معه، وعلى هذا المعدل.

يقول ابن اثير: «فأصبح من الغد (سليمان) وقد أتاه نحو مائة في عسكره، ثم نظر في ديوانه فوجدهم ستة عشر ألفاً ممن بايعه، فقال: سبحان الله! ما وافانا من ستة عشر ألفاً إلا أربعة آلاف»^(١).

والسبب في ذلك أنهم جيوش محترفة، تقف مع الواقف. وحتى في التاريخ الحديث، عندما يحدث انقلاب عسكري في العراق^(٢) مثلاً، نرى أن الجيش الذي كان يحارب من أجل نوري السعيد تحوّل بعد الانقلاب ليحارب من أجل عبد الكريم قاسم، والذي حارب دفاعاً عن عبد الكريم قاسم نراه يدافع عن أحمد

(١) الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣.

(٢) العراق كانت تحدث فيه انقلابات عسكرية بصفة مستمرة.

حسن البكر، ثم عن عبد السلام وعبد الرحمن، ثم مرة أخرى عن أحمد حسن البكر، وأخيراً يدافع عن الطاغية صدام حسين، وعلى هذا المعدل.

والسبب في ذلك أن هذا الجيش عليه أتباع قيادته وأتباع الوضع العام في الدولة، فالذي هو أقوى في الدولة هو الذي يستطيع أن يأخذ بزمام هذا الجيش.

فالسبب الأول للتحويلات في الكوفة هي أنها كانت (حامية الجند) والجيش الإسلامي حينها لم تكن قد ترسّخت في ذهنه الأفكار السياسية الإسلامية، لذلك كان يتبع من يرى أنه يسيطر على الوضع.

ومن جهة أخرى كان للجيش الإسلامي اهتمام آخر هو فتح البلاد الخارجية وليس تصحيح الأمور في الداخل، لذلك لا يهتم من يحكم، وإنما المهم عنده أن يُعطيه الحاكم المجال لفتح البلدان البعيدة.

لقد كانت الحاميات العسكرية في الكوفة تسرع لتصل إلى حدود خراسان، وما وراء النهر تحارب وتغتتم وتأتي بالغنائم.

وهذا السبب هو الذي دعا الإمام زين العابدين ألا يستجيب لكلام الكوفيين عندما خطب فيهم بعد استشهاد والده ووبّخهم على ما عملوه مع أبيه الإمام الحسين عليه السلام قالوا: «نَحْنُ كُلُّنَا - يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ - سَامِعُونَ مُطِيعُونَ، حَافِظُونَ لِذِمَامِكَ غَيْرَ زَاهِدِينَ فِيكَ وَلَا رَاغِبِينَ عَنْكَ، فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ يَرْحَمَكَ اللَّهُ، فَإِنَّا حُرْبُ الْحَرْبِكَ، وَسِلْمُ لِسِلْمِكَ، لَنَأْخُذَنَّ بِزَيْدٍ وَنَبْرَأُ بِمَنْ ظَلَمَكَ وَظَلَمْنَا.

فَقَالَ عليه السلام: «هَيْهَاتَ، هَيْهَاتَ، أَيُّهَا الْغَدْرَةُ الْمَكْرَةُ، حِيلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِ أَنْفُسِكُمْ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَأْتُوا إِلَيَّ كَمَا أَتَيْتُمْ إِلَى آبَائِي مِنْ قَبْلُ؟! كَلَّا وَرَبِّ الرَّاقِصَاتِ^(١)، فَإِنَّ الْجُرْحَ لَمَّا يَنْدِمِلُ...»^(٢).

(١) الجمال التي ترقص في مشيها، وهي التي تقصد الحج. ومنها قول الشريف المرتضي: حلفتُ برَبِّ الرَّاقِصَاتِ عَشِيَّةً إِلَى عَرَافَاتٍ وَهِيَ حَسْرِي وَرُزْجُ

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١١٢.

بالطبع فإن أهل الكوفة لم يثبتوا على هذا الكلام وإنما أصبحوا مع الحجاج بن يوسف الثقفي ضد أهل البيت وأنصارهم.

ولخصوصية وضع الكوفة كان على سليمان بسط سيطرته عليها بالكامل، ولو فعل لارتفعت فرص نجاحه بشكل أكبر، لكنه فُكّر في رأس عبيد الله بن زياد، وجعله الهدف الأمامي لثورته. في حين أن الرأس ليس أساس المشكلة، فعبيد الله بن زياد يمكن قتله معنوياً أو جسدياً، فالأهم هو ضرب القاعدة التي ارتكز عليها عبيد الله بن زياد والقيام بتطهير الكوفة من عمر بن سعد، وشَبَث بن ربعي^(١)، وحرملة بن كاهل الأسدي^(٢)، وغيرهم من القيادات العسكرية التي حاربت وقتلت الإمام الحسين عليه السلام ولا يوجد في الشام من تلك القيادات التي حاربت الحسين عليه السلام إلاّ الحصين بن نمير السكوني حسب ما يذكر المؤرخون^(٣).

ثانياً: عدم الاهتمام الجدي بالمضامين الاجتماعية للثورة، فلم يكثر سليمان رحمته الله للعمل من أجل المضامين الاجتماعية للدين، فقد قام سليمان بعملية استشهادية: «إنما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله ﷺ»^(٤).

(١) التميمي اليربوعي، أبو عبد القدوس، أدرك عصر النبوة، كان مؤذن سجاح الذي ادّعى النبوة، ومن أعان على عثمان. ولي شرطة الكوفة، كان ممن كاتب الإمام الحسين عليه السلام، ثم خرج لقتاله مع جيش ابن سعد، وهو من أصحاب المساجد الأربعة التي جدّدت في الكوفة فرحاً بقتل الإمام الحسين، قتله المختار الثقفي، في الطلب لثأر الإمام الحسين. الأعلام، ج ٣، ص ١٥٤. مع الركب الحسيني، ج ٤، الإمام الحسين في كربلاء، ص ٩٢.

(٢) قاتل رضيع الإمام الحسين عليه السلام المسمّى بد (عبد الله الرضيع)، وهو على يديه. يروي المنهال أنّه لما أراد الخروج من مكة بعد واقعة الطف بسنوات، التقى بالإمام السجاد عليه السلام. وسأله الإمام السجاد عليه السلام عن حرملة؟ فقال: هو حي بالكوفة، فرفع الإمام عليه السلام يديه وقال: «اللَّهُمَّ أَذِقْهُ حَرَّ الْحَدِيدِ، اللَّهُمَّ أَذِقْهُ حَرَّ النَّارِ». ولما قدم المنهال إلى الكوفة قصد المختار، وبينما هو عنده اذ جاؤوه بحرملة، فأمر بقطع يديه ورجليه ثم رميه في النار. فأخبره المنهال بدعاء الإمام زين العابدين عليه السلام على حرملة، فابتهج المختار كثيراً لأن إجابة دعوة الإمام السجاد تحققت على يده. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٤٦ وص ٣٣٢.

(٣) تذكرة الخواص، ص ٢٨٤.

(٤) الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣.

دون التركيز على الأسباب التي بسببها قُتل الإمام الحسين عليه السلام، المتمثلة في الانحراف المستشري في الأمة الإسلامية الذي انعكس على الوضع الاجتماعي والخلقي والسياسي للأمة.

فكان من الأفضل لسليمان أن يثور من أجل تلك المبادئ والأهداف التي ثار من أجلها الإمام الحسين عليه السلام، ولو فعل لاشترك معه موالي وعبيد الكوفة في الثورة، فهم الذين شملهم ظلم الأمويين أكثر من غيرهم.

فالإمام الحسين عليه السلام خرج من أجل الله ومن أجل تطبيق كتاب الله، ومعنى ذلك إقامة دساتيره وأنظمته، تلك الأنظمة التي تُحقق العدالة الاجتماعية والسلام والأمن والخلق الفاضل وغيرها من القيم السامية.

إن الناس في الكوفة لو كانوا يرون أن سليمان بن صرد يعمل من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة والأمن، والعمل على نشر هذه المضامين وبخاصة في أوساط الموالي، الذين يشكّلون الأكثرية المسحوقة والمحرومة والمستضعفة في الكوفة، لوجد فيهم الصلابة والشجاعة والكثافة. إن أبا مسلم الخراساني عندما عقد لواء للموالي، انضوى تحت هذا اللواء خلال أشهر مائة ألف سيف^(١) من الموالي الإيرانيين والأفغانيين وغيرهم. وإن المأمون العباسي تغلب على أخيه محمد الأمين^(٢) عن طريق الموالي.

من هنا ينبغي تحويل شعارات الحركات الدينية إلى مضامين اجتماعية، فيجب

(١) الأخبار الطوال، ص ٣٣٧-٣٣٨.

(٢) ابن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور [١٧٠-١٩٨هـ]، خليفة عباسي. كان مكثراً من إنفاق الأموال، سيئ التدبير، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة الندماء، ببيع بالخلافة بعد وفاة أبيه (سنة ١٩٣هـ) بعهد منه، فولى أخاه المأمون خراسان وأطرافها. وكان المأمون ولي العهد من بعده. فلما كانت سنة ١٩٥هـ، أعلن الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، فتأدى المأمون بخلع الأمين في خراسان، وتسمى بأمر المؤمنين. وجهز الأمين وزيره ابن ماهان لحربه، وجهز المأمون طاهر بن الحسين، فالتقى الجيشان، فقتل ابن ماهان وانهزم جيش الأمين، فقتل طاهر بن الحسين وحاصر بغداد حصاراً طويلاً انتهى بقتل الأمين. الأعلام، ج ٧، ص ١٢٧.

أن يعرف كل إنسان في الشارع أن خبره وأمنه وبيته ورفاهه ومستقبل أولاده، كلها ترتبط بالدين، وأن الدين ليس مجموعة أفكار تدور في فراغ، إنما هو حقائق عملية تستطيع أن تُغيّر حياة الإنسان.

هذان السببان هما اللذان كانا وراء فشل الرجل العظيم سليمان بن صرد، ويمكن أخذ أسباب فرعية أخرى بعين الاعتبار كالعجلة في توقيت المواجهة العسكرية، وعدم اتّخاذ السرية في العمل بالصورة المطلوبة، وعدم وجود رؤية بعيدة الأفق، وغيرها من الأسباب. وقد لخصنا الأسباب الثلاثة في الفكرة الأولى، وهي أن هذه الحركات لم تكن تريد السيطرة على الحكم بقدر ما كانت تهدف بثّ الروح الدينية في الأمة، وهذا الهدف هو بذاته هدف عظيم، إلّا أن الإنسان لا يمكن أن يتقاعس عن حقّه لمجرّد أنه يعمل في سبيل الله سبحانه وتعالى، بمعنى أن سليمان كان بإمكانه أن يجمع بين الأمرين لو كان ممكناً، أما إذا كان مستحيلاً فعذره مقبول، ونحن في كلتا الحالتين نقدر له هذا العمل العظيم.

فلو أن سليمان كان ساكناً لما وقعت ثورة المختار، ولو لم تقع ثورة المختار لما وقعت ثورة زيد بن علي، ومن بعده ابنه يحيى، وتبعه قيام أبي مسلم الخراساني، وبعد ذلك سقوط الدولة الأموية.

لقد قام سليمان ضد الظلم والانحراف، كما قام من قبل حجر بن عدي في زمن معاوية بن أبي سفيان حينما رأى المغيرة بن شعبة، وهو على منبر الكوفة^(١)، يتكلّم بأقبح ما ينطق به ضد الإسلام، ولا يدع ذم الإمام علي عليه السلام، والوقوع فيه، فقام إليه حجر وقال: «ان الله عز وجل يقول: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾^(٢)، وأنا أشهد أن من تدمون وتعيرون لأحق بالفضل، وأن من تزكون وتطرون أولى بالدم.

(١) أقام المغيرة بن شعبة على الكوفة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهرًا.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣٥.

فيقول المغيرة: يا حجر، لقد رُمي بسهمك، إذ كنت أنا الوالي عليك. يا حجر ويحك! اتَّقِ السلطان، اتَّقِ غضبه و سطوته، فإن غضبه -السلطان- أحياناً مما يُهلك أمثالك كثيراً^(١).

فلما هلك المغيرة ولي زياد بن أبيه الكوفة...

كان حجر وطائفة من أصحابه يجتمعون في المسجد بعد شخوص زياد، ويجتمع الناس إليهم، فيذمّون معاوية ويشتمونه، ويذكرون زياداً فيتنقّصونه، حتّى تعلو أصواتهم بذلك.. فكتب عمرو بن حريث إلى زياد مع سنان بن حريث الضبيّ بخبر حجر وأصحابه، وآته لا يملك من الكوفة معهم إلّا دار الإمارة، فلما قرأ زياد كتاب عمرو قال: بُس الرجل حجر، ونعم الرجل عمرو، اركبوا بنا، فركب مغدّاً للسير.

فلما أتى الكوفة صعد المنبر فقال: يا أهل الكوفة، جمتم فأشرتـم، وأمتـم فاجترأتـم، وإنّ عواقب البغي شرّ العواقب، والله يا أهل الكوفة لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم، فإنّه عندي عتيد، ثمّ بعث الهيثم بن شدّاد الهلالي صاحب شرطته إلى حجر بن عديّ ليأتيه به، فأبى أصحاب حجر أن يُخلّوا بينه وبين إتيان زياد...^(٢).

بالطبع كان حجر يعرف أن زياداً رجل سفّاك لا يتورّع عن قتله. وبالفعل قُتل حجر ولم يتراجع خطوة في الدفاع عن الإمام علي عليه السلام، فهل ذهب دمه سدى؟.

كلّا، فدماء حجر هي التي جرت وتجري في عروق الرساليين، في عروقي وعروقك إلى الآن، وهي تنبض بالحوية والنشاط والدفاع والثورة من أجل رسالة الله سبحانه وتعالى.

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٢٥٤. تاريخ بن خلدون، ج ٣، ص ١٣. المنتظم، ج ٥، ص ٢٤١.
(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٢٥٦. أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٢٤٦. الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٧٤.

— ﴿صِفْوُ الْكَلَامِ﴾ —

* في عام (٦٥) للهجرة قرر سليمان بن صرد الخزاعي مع جماعة من الشيعة المخلصين التحرك ضد من قاتلوا الإمام الحسين (وبالأخص عبيد الله بن زياد) تحت شعار (يا لثارات الحسين) وذلك تعبيراً عن حالة الندم التي خيمت على الكوفة بعد واقعة كربلاء، ولذلك أطلقت عليهم تسمية (التوابين).

* ولكن ثورة التوابين التي تُصنّف ضمن حركات الفقهاء والزهاد والقراء فشلت -بعد مواجهات دموية مع جيوش الشام- في تحقيق هدفها السياسي الذي تمثل في القضاء على قتلة الإمام الحسين عليه السلام.

* وأهم أسباب هذا الفشل هو اعتماد سليمان على الكوفة المتقلّبة الولاءات والأهواء، وتركيزه على رأس عبيد الله بن زياد وترك القيادات الأخرى، وعدم الاهتمام الجدي للمضامين الاجتماعية للدين التي كان الاهتمام بها يستقطب المحرومين والمسحوقين تحت وطأة الحكم الأموي. وكانت هناك بعض الأسباب الفرعية كالعجلة في توقيت المواجهة، وعدم اتخاذ السريّة في العمل، وعدم وجود رؤية بعيدة الأفق.

* ولكن فشل التوابين في تحقيق الهدف السياسي لا يعني عدم ترك أي أثر إيجابي في حركة الأمة. لقد كانت حركة التوابين من أجل هز ضمائر المسلمين التي خيم عليها الجمود، ومن ثم بعث روح التضحية والجهاد في المسلمين للثورة على الحكومة الأموية الطاغوتية المفسدة.



١٩ ثورة المختارين الانتصار والهزيمة

التاريخ الإسلامي حافل بالكثير من الثورات والحركات الرسالية وغيرها التي انتهت لأسباب بسيطة، من أبرزها طيبة النفس إلى درجة السذاجة، ويرجع ذلك إلى التصور الخاطيء بأن سلاح العدل والإحسان هو السلاح القادر على تذليل جميع الصعوبات في الطريق، وغاب عنها أن هناك صعوبات لا تذلل إلا عن طريق استخدام القوة والحزم.

وكانت ثورة المختار من ضمن تلك الثورات التي ذهبت ضحية النفس الساذجة، بيد أن هناك أسباباً أخرى هامة كانت وراء فشل المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وقبل أن نستعرض بعض هذه الأسباب لا بد أن نتذكر دوماً أن دراستنا للتاريخ هي من أجل الحاضر، ولذلك فالسؤال بكلمة (لماذا؟) يجب أن يتكرر كلما وقفنا عند ظاهرة تاريخية، لأن التعليل هو الذي يهمننا، ومعرفة الأسباب هي التي تُعطينا القدرة على عدم تكرار تلك الأسباب.

فلماذا فشلت ثورة المختار أخيراً بعد حكم دام ثمانية عشر شهراً^(١)؟ وبعد أن امتد نفوذ المختار إلى حدود أرمينية؟^(٢).

(١) قام المختار بنهضته في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ست وستين، وانتهت بشهادته في آخر شهر رمضان سنة سبع وستين كما جاء في الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٢١٢ وص ٢٧٨.

(٢) الفتوح، ج ٦، ص ٢٤١.

الخلافاًت الداخلية بين الرساليين

لا ريب في أن الخلافاًت الداخلية قديماً وحديثاً هي السبب الأساس لسقوط أي بناء حكومي أو حركي، وبالتالي لم تكن حركة المختار بمعزل عن هذا السبب الذي أدّى إلى سقوط دولته؛ لأن الهدف الذي انتظم من أجله الرساليون خلف المختار هو إسقاط الدولة الأموية والأخذ بثأر الإمام الحسين عليه السلام بعد الإمداد العاطفي الذي شكّله كربلاء في نفوس الجماهير الإسلامية، فالموالي والعرب المتدينون منهم والمتحمسون اشتهروا جميعاً في الانتصار لخط الإمام الحسين عليه السلام والثأر له، ولكن كان انتماءهم لهذا الشعار بنسب متفاوتة، بمعنى أن هذا المفهوم كان مفهوماً غامضاً بالنسبة إلى أكثرية الناس، أي إنهم كانوا من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، وكانوا يعتقدون أن مقتله سببٌ كافٍ للتمرد على حكم بني أمية. في حين أن هناك مفاهيم عديدة كانت تحتاج إلى توضيح، من جملةها:

من هو الحسين عليه السلام؟ هل هو مجرد ابن بنت رسول الله؟ أم هو مجرد شهيد في سبيل الحق؟ أم هو إمام معصوم واجب الطاعة؟.

وبعضها يتعلّق بمفهوم الثورة: هل هي من أجل الانتقام، أم هناك أهداف أخرى؟. وإذا ما تُرنا على الحكم الأموي فمن الذي يتصدّى للقيادة؟. وكيف تكون أساليب الحكم؟. وما هو شكل الحكم والنظام الإسلامي الجديد؟.

هذه القضايا كلها كانت غامضة عند الأغلبية الساحقة من المسلمين، وربما غموض هذه الحقائق هو الذي سبّب في أن يأتي رجل مثل عبد الله بن الزبير الذي صدّقه بعض المسلمين وأتبعوه وأخاه مصعب، وهما اللذان كانا من أشدّ الناس عداوة لآل بيت رسول الله ﷺ، ليحكمهما رقاب المسلمين باسم الإمام الحسين عليه السلام^(١)،

(١) روى الطبري قائلاً: «لما قتل الحسين عليه السلام قام ابن الزبير في أهل مكة وعظّم مقتله، وعاب على أهل الكوفة خاصّة، ولام أهل العراق عامّة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد ﷺ: إن أهل العراق غدر فجر إلّا قليلاً، وأن أهل الكوفة شرار أهل العراق، وأنهم دعوا حسيناً لينصروه،

ويسرقا ثورته المقدسة. بل إنه -عبدالله بن الزبير- وصل إلى الحكم عبر مبادئ الإمام الحسين عليه السلام، وهو الذي قضى على حكم المختار.

كان جملة من أدركه الإحصاء ممن قتله مصعب (ابن الزبير) مع المختار سبعة آلاف رجل، كل هؤلاء كانوا ممن طالبوا بدم الحسين عليه السلام وقتلوا أعداءه، فقتلهم مصعب وسمّاهم الخشبية^(١)، وتتبع مصعب الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها، وأتى بحرم المختار فدعاهن إلى البراءة منه، ففعلن إلا حرمتين له، إحداهما: بنت سمرة بن جندب الفزاري، والثانية ابنة النعمان بن بشير الأنصاري^(٢).

وقالتا: كيف نتبرأ من رجل يقول: ربي الله؟. كان صائماً نهاره قائماً ليله، قد بذل دمه لله ولرسوله في طلب قتل ابن بنت رسول الله ﷺ وأهله وشيعته، فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس.

فكتب مصعب إلى أخيه عبد الله بخرهما وما قالتا، فكتب إليه: إن هما رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه وإلا فاقتلها، فعرضهما مصعب على السيف، فرجعت بنت سمرة ولعنته وتبرأت منه، وقالت: لو دعوتني إلى الكفر مع السيف لكفرت: أشهد أن المختار كافر.

وأبت ابنة النعمان بن بشير، وقالت: شهادة أرزقها فأتركها؟. كلاً!، إنها موتة ثم الجنة والقُدوم على الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، والله لا يكون، آتي مع ابن

ويؤتوه عليهم، فلما قدم عليهم ثاروا إليه. فقالوا له: إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلماً، فيمضي فيك حكمه، وإما أن تحارب، فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير، وإن كان الله عز وجل لم يُطلع على الغيب أحداً أنه مقتول، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة، فرحم الله حسينا، وأخزى قاتل حسين! لعمري لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان في مثله واعظ وناء عنهم، ولكنه ما حمّ نازل، وإذا أراد الله أمراً لن يُدفع، أفبعد الحسين نظمّن إلى هؤلاء القوم ونصدّق قولهم ونقبل لهم عهداً!». تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٤٧٥.

(١) كان أصحاب المختار يسمّون الخشبية، «لأن أكثرهم كانوا يقاتلون بالخشب، ويقال: إنهم سمّوا الخشبية لأن الذين وجههم المختار إلى مكة لنصرة ابن الحنفية أخذوا بأيديهم الخشب الذي كان ابن الزبير جمعه ليحرق به ابن الحنفية وأصحابه فيما زعم، ويقال: بل كرهوا دخول الحرم بسيف مشهورة فدخلوه ومعهم الخشب ولم يسلّوا سيوفهم من أغمادها». أنساب الأشراف، ج ٦، ص ٣٩٧.

(٢) بنت سمرة تدعى بأم ثابت، وابنة النعمان اسمها عمرة.

هند فأتبعه وأترك ابن أبي طالب؟. اللهم أشهد أني متبعة لنبيك ﷺ، وابن بنته ﷺ، وأهل بيته ﷺ، وشيعته، ثم قدّمها فقتلت صبراً، ففي ذلك يقول الشاعر:

إن من أعجب الأعاجيب عندي قتل بيضاء حرة عَطْبُول
قتلوها ظلماً على غير جرم إن لله درّها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جرّ الذبول^(١)

إن غموض الرؤية عند أبناء الأمة الذين نعموا على سلطة بني أمية الجائرة بعد قتلها الإمام الحسين ﷺ، وعدم معرفتهم تحت أي راية يجب أن ينضوا، هو الذي مكّن ابن الزبير من أن يوسّع سيطرته على مناطق كثيرة بما فيها الكوفة، حيث قضى على ثورة المختار الفتيّة، تلك التجربة الرسالية التي كان يراد لها أن تُعيد المبادئ التي استشهد الإمام الحسين ﷺ من أجلها، وعلى رأس تلك المبادئ إرجاع الخلافة إلى أصحابها الشرعيين، بعد أن حوّلها بنو أمية إلى ملك عضوض.

غموض الرؤية هذا لم يكن فقط عند عامة الناس، وإنما عند الكثير من الهاشمين أيضاً. لقد نازع محمد بن الحنفية الإمام السجاد ﷺ في الإمامة^(٢)، كما نازعه بعض أولاد الإمام الحسن ﷺ^(٣)، وكان نزاعهم على أمور الدنيا كما هو الحال مع عمر^(٤) بن

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٩٩.

(٢) كان النزاع حول الإمامة، انظر: الكافي، ج ١، ص ٣٤٨. الاحتجاج، ج ٢، ص ٣١٦. بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٧٧. ونقل أيضاً أن النزاع كان حول تولي صدقات النبي وآله ﷺ، روى في المناقب، ج ٤، ص ١٨٦، عن الزهري قال: «كان بينه وبين محمد بن الحنفية منازعة في صدقات علي بن أبي طالب ﷺ...».

(٣) قال في عمدة الطالب، ص ١١٦-١١٧: «كان الحسن بن الحسن (المثنى) يتولى صدقات أمير المؤمنين ﷺ ونازعه فيها زين العابدين علي بن الحسين ﷺ، ثم سلّمها له». وما هو واضح فيه أن السلطة (زمن الحجاج) وقفت إلى جنب الحسن المثنى في نزاعه مع الإمام زين العابدين وعمر بن علي حول الصدقات. فانظر جيداً.

(٤) عمر الأطراف، أمه الصهباء، ويقال لها أم حبيب التغلبية، عاش خمساً وثمانين سنة، حاز نصف ميراث أبيه الإمام علي ﷺ، وكان فاضلاً.. انظر: مستدركات علم رجال الحديث، ج ٦، ص ١٠١-١٠٢.

الإمام علي بن أبي طالب^(١)، ومع أنهم جميعاً كانوا يعتقدون أن الإمام السجاد هو أورعهم وأفقههم وأقدرهم على حمل لواء المواجهة ضد الأمويين باعتباره البقية الباقية من مجزرة كربلاء، وأنه ابن الإمام الشهيد، إلا أنهم لم يُوافقه على طريقته في علاج الانحراف في الأمة، حيث رأى الإمام السجاد عليه السلام أن سيطرة بني أمية على السلطة إنما جاء نتيجة ضعف الروح الدينية عند المسلمين، وسيطرة روح المصلحة عليهم، فسعى من خلال سيرته وأدعيته وتربيته للرساليين إلى تركيز المبادئ الإسلامية في النفوس، وهذا كان يتطلب وقتاً طويلاً بينما كان البعض يريد أن يتم التغيير بشكل سريع دون إغارة آية أهمية لهذا العامل المهم في نجاح أي ثورة وضمان عدم انحرافها.

العلاقة بين الأئمة والثورات

تحدثنا فيما سبق عن الخلافات الداخلية التي عصفت بالأمة نتيجة لقلّة الوعي في المجتمع الإسلامي، تلك الخلافات التي كانت سبباً مباشراً لفشل ثورة المختار، ولكي تكتمل الصورة لا بد أن نتناول جانباً آخر قد يكون فيه نوعٌ من الغموض، وهي العلاقة التي تربط بين الثوار والأئمة من أهل البيت عليهم السلام باعتبارهم القيادات الشرعية والامتداد الطبيعي لنهج الرسول ﷺ. فالسؤال الذي يجب الإجابة عنه هو: نوعية العلاقة بين الإمام زين العابدين عليه السلام والمختار؟ وهو بدوره يجرنا إلى سؤال أوسع يتناول العلاقة التي تربط الشهيد زيد بالإمام الباقر عليه السلام، ويحيى بن زيد والإمام الصادق عليه السلام، ومحمد ذي النفس الزكية

(١) روى في المناقب، ج ٤، ص ١٨٦، أن عمر بن عليّ خاصم عليّ بن الحسين إلى عبد الملك في صدقات النبي وأمير المؤمنين. وكما جاء في بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٢١: «لَمَّا وُلِّيَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الْخِلَافَةَ رَدَّ إِلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام صَدَقَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَصَدَقَاتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، وَكَانَتَا مَضْمُونَتَيْنِ، فَخَرَجَ عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يَتَطَلَّمُ إِلَيْهِ مِنْ ابْنِ أَخِيهِ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ أَقُولُ كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي الْحَقِّيقِ:

إِنَّا إِذَا مَالَتْ دَوَاعِي الْهَوَى	وَأَنْصَتِ السَّامِعُ لِلْقَائِلِ
وَأَضْطَرَّعَ النَّاسُ بِالْبَابِهِمْ	نَقْضِي بِحُكْمِ عَادِلٍ فَاصِلِ
لَا نَجْعَلُ الْبَاطِلَ حَقًّا وَلَا	نَلْطُ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ
نَخَافُ أَنْ تَسْفَهَ أَحْلَامُنَا	فَتَحْمِلَ الدَّهْرُ مَعَ الْخَامِلِ

وأخيه إبراهيم بالإمام الصادق عليه السلام ؟.

كل هذه الأسئلة تكتسب أهميتها لمعرفة مسار الأئمة بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فإن الأئمة عليهم السلام من بعده، بما فيهم الإمام السجاد عليه السلام، عاشوا حقبة طويلة عانت الأمة الإسلامية خلالها من الاضطرابات، والثورات، والفوضى، وعدم الاستقرار، وتبدل الحكومات، وبرغم ذلك لم يحرّك الأئمة ساكناً في ظاهر الساحة السياسية.

فالإمام زين العابدين عليه السلام عاش (٣٢) سنة بعد أبيه مشغولاً بالعبادة والزهادة والدعاء والبكاء على أبيه عليه السلام، كذلك الإمام الباقر عليه السلام الذي عاش فترة إمامته مشغولاً بالتبليغ والدعوة، وكذلك الإمام الصادق عليه السلام. أما الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فقد عاش فترة إمامته في السجن^(١).

فلماذا لم يقيم الأئمة بالسيف بعد الإمام الحسين عليه السلام ؟.

هذا السؤال يُلخّ على الفكر الرسالي وبصورة مستمرة، فقد حاول البعض الإجابة بالقول: إن الأئمة لم يقوموا بالسيف انتظاراً للإمام الحجة عليه السلام، وكذلك يجب ألا يقوم أحد بالسيف (القوة) إلى حين ظهور الإمام الحجة عليه السلام.

(١) أُلقي القبض على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام [١٢٨-١٨٣ هـ]، وهو قائمٌ يُصلي في مسجد جده رسول الله ﷺ، من قبل جلاوزة هارون الرشيد، ولم يُمهله لإتمام صلاته، فحمل -من ذلك المكان الشريف، وقيد وهو يوجه عليه السلام شكواه إلى جده عليه السلام قائلاً: «إِنَّكَ أَشْكُو يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَلْقَى» - إلى هارون الرشيد، وهو يرسف في ذلّ القيود، فلما مثل عنده جفاؤه وأغلظ له في القول، بعدها حمل الإمام إلى معتقل في البصرة، ودُفع إلى عيسى بن أبي جعفر، فحبسه في بيت من بيوت المحبس، وأقفل عليه أبواب السجن، فكان لا يفتحها إلا في حالتين: في خروجه إلى الطهور. وفي وقت إدخال الطعام إليه. وبقي الإمام عليه السلام، في سجن عيسى بن أبي جعفر سنة كاملة، وكان اعتقاله في سنة ١٧٩ هـ. ثم أشخص الإمام عليه السلام إلى بغداد بين عام ١٨٠ و ١٨٢ هـ ونقل الإمام إلى سجن السندي بن شاهك، وأمر هارون أن يقيد الإمام بثلاثين رطلاً من الحديد. ولا يدعه يخرج إلا للوضوء، ففضى الإمام الكاظم عليه السلام بقية حياته في سجن السندي، ولكن الإمام وحتى وهو في السجن لم ينفك عن أداء رسالته بإحياء سنة رسول الله ﷺ. وما خرج منه إلا بعد شهادته في العام ١٨٣ هـ. فالسلام عليه يوم ولد، ويوم جاهد، ويوم سجن في ظلم المطامير، ويوم استشهد، ورحمة الله وبركاته. راجع كتاب (الإمام الكاظم .. قدوة وأسوة) للمؤلف.

ونحن نسأل هؤلاء: لماذا قام الإمام الحسين عليه السلام إذاً بالثورة؟. ألم يكن من الأفضل للإمام الحسين عليه السلام أن يختار العافية، والصحة، والسلامة، ويجلس في بيته في المدينة المنورة انتظاراً للإمام الحجة عليه السلام؟.

فهناك وحدة استراتيجية عامة عند الأئمة لا يفترض أن يكون بينهم تناقض في المواقف، فلا يمكن استثناء عصر الإمام الحسين عليه السلام من الفكرة القائلة: إن الإمام الحجة عليه السلام يظهر في آخر الزمان، وهو الذي يثار للمؤمنين والأنبياء وأولاد الأنبياء عليهم السلام، ولا داعي للثورة قبل ذلك، فإمّا أن نُخطئ الأئمة الآخرين أو نُخطئ الإمام الحسين عليه السلام وكلا الأمرين خاطئان.

الجواب هنا دقيق ومهم، وربما تقوم على أساسه معرفتنا بالأئمة المعصومين عليهم السلام، ونحن نرى أكثر الرساليين يعيشون نوعاً من التناقض، حيث يقوم قسم منهم بتقديم وتقدير الإمام الحسين عليه السلام، للاعتقاد بأن موقفه كان صحيحاً، في الوقت الذي يشكّون من طرف خفي، في مواقف الأئمة الآخرين والعياذ بالله، وهم لا يجاهرون بالقول خوفاً من الردة ولكنهم يرتابون.

وقسم آخر على العكس من ذلك، فهم يعتقدون بأن موقف الأئمة عليهم السلام كان صحيحاً بينما يشككون في موقف الإمام الحسين عليه السلام وبعضهم يبرّر موقف الإمام بالقول: إنه لم يخرج للثورة وإنما قتلوه صبراً، كأبي إنسان عابد قُتل في محرابه لم يخطط للعمل والثورة ضد يزيد.

إن عدم معرفة الدور الأساس للأئمة المعصومين هو الذي يجعل البعض ينتقص من قدر الأئمة عليهم السلام. فعلى سبيل المثال يقول البعض: ماذا فعل الإمام الرضا عليه السلام للإسلام^(١)؟ ولماذا نقدره؟. وهب أن الإمام الرضا نقدره لأسباب

(١) في زمن الانتفاضات العلوية التي زلزلت عروش الدولة العباسية، برز الإمام الرضا [١٥٣-٢٠٣ هـ] كألّمع شخصية سياسية عرفتها الأمة الإسلامية آنذاك، وطمعاً في تقييد دور الانتفاضات العلوية، وخوفاً على عرش بني العباس منها، عمد المأمون العباسي للفصل بين الإمام الرضا وإدارته للأئمة، فرسّحه المأمون للخلافة، ثم لولاية العهد، لكن الإمام الرضا عليه السلام لم تنطّل عليه

معينة ولكن لماذا نقدر الإمام الجواد عليه السلام؟ وكيف كان إماماً لنا^(١)؟.

وكذلك بالنسبة للإمام علي الهادي^(٢)، والإمام الحسن العسكري عليه السلام^(٣).

جبل المأمون، فقوت الفرصة الذهبية التي كان يطمح لها المأمون، فقبل الإمام الرضا بولاية العهد بشرط، فقال عليه السلام: «... عَلَى الْأَمْرِ وَلَا أَنْهَى، وَلَا أَقْضِي، وَلَا أُغَيِّرُ شَيْئاً مِمَّا هُوَ قَائِمٌ، وَتُفْقِئِي عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ»، فقبل المأمون العباسي بذلك... واغتتم الإمام الرضا عليه السلام هذا الظرف الذهبي فعمل على نشر تعاليم الإسلام الأصيلة وثبت دعائم مذهب أهل البيت عليهم السلام، متحدياً كل الخطوط الفكرية المنحرفة، كما رعى الإمام عدداً كبيراً من العلماء الذين حملوا مشاعل العلم والمعرفة في زمن طغيان الحكم العباسي الذي عانت منه الأمة الإسلامية ما عانت... للإفادة طالع ما كتبه المؤلف حول سيرة الإمام الرضا عليه السلام، بعنوان: الإمام الرضا عليه السلام... قدوة وأسوة.

(١) تقلد الإمام الجواد عليه السلام [١٩٥-٢٢٠هـ]، مقاليد الإمامة وهو في سن السابعة من عمره، وقد تجسدت في شخصيته وكسائر آبائه الطاهرين عليهم السلام المثل العليا التي أهله للإمامة والزعامة الدينية، فاحتفى به العلماء والمحدثون، وانتهلوا من علمه، ورووا عنه الكثير من مسائل الدين، والعقيدة والتفسير، قام برعاية الشيعة وتربيتهم علمياً، وروحياً، وواجه الإمام الجواد عليه السلام محنة خلق القرآن، وهي من أعقد المشاكل السياسية في عصره المأزوم بموجات الفتن والاضطرابات، فقد أظهرها المأمون العباسي، ليمتحن بها العلماء والمتكلمين، فمن لا يقول بمقولته سجنه أو نفاه، أو قتله، فحمل الناس على ما ذهب إليه بالقوة، وبذلك أربك حضور الإمام عليه السلام العلمي والمعرفي طاغوت عصره العتصم العباسي، فاقدم على سمّه واستشهد وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره الشريف. وبالرغم من قصر سن إمامته إلا أننا نجد أن التراث العلمي الذي خلفه الإمام يبلغ معدل ضعف عمره الشريف.. للإفادة طالع ما كتبه المؤلف بعنوان: الإمام الجواد عليه السلام... قدوة وأسوة.

(٢) تقلد الإمام الهادي عليه السلام [٢١٤-٢٥٤هـ]، مقاليد الإمامة في سن الثامنة من عمره، تميز عصره عليه السلام، بقربه من عصر الغيبة المرتقب، ففرضت عليه حكومة الدولة العباسية عزلة أحكمت الرقابة عليها في عاصمتها (سامراء)، ومع ذلك فقد كان دور الإمام الهادي مهماً وصعباً في الوقت ذاته، حيث كان لا بد أن يجيب عن كل التساؤلات التي كانت تُداول بين المسلمين، حول غيبة الإمام الثاني عشر، فعمل الإمام الهادي على تهيئة الظروف المناسبة، من نشره لثقافة الانتظار والغيبة بين صفوف شيعته، وتربيتهم تمهيداً لاستقبال هذا العصر الجديد. فسعى من خلال جهاز الوكلاء لتقديم أهم ما تحتاج إليه الشيعة في ظروفها الصعبة. وهو بهذا يتجه بأتباعه نحو الاستقلال، الأمر الذي كان يتطلبه عصر الغيبة. إلى جانب ذلك رقد الواقع الإسلامي بالعطاء الفكري والمعرفي، كما يُمثل لنا مسند الإمام الهادي تراثه بالرغم من قساوة الظروف التي عاشها في زمن الدولة العباسية. للاطلاع على سيرته وعطاءه راجع ما كتبه المؤلف: الإمام الهادي عليه السلام... قدوة وأسوة.

(٣) تولى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام [٢٣١-٢٦٠هـ]، بعد شهادة أبيه الإمام الهادي عليه السلام، مهام الإمامة والتي استمرت لمدة ست سنوات، مارس خلالها الإمام العسكري وفي

وربما يتساءل البعض عن كل ذلك لأنهم لا يعرفون الحقيقة التي نريد أن نوضحها والتي تبدو لنا من خلال دراسة التاريخ.

الأئمة عليهم السلام في رأس الهرم القيادي

أحدثت واقعة كربلاء تغييراً فكرياً وسياسياً كبيراً على مستوى الأمة ، فبعد أن كان الشعور بالمسؤولية والإحساس بخطر بني أمية على الإسلام محصوراً عند نخبة محدودة، توسّع ذلك الإحساس بسبب ما أحدثته كربلاء من موجات ضخمة في الأمة، فأصبحت الثورة مطلباً جماهيرياً على امتداد الساحة الإسلامية، هذا التغيير فرض نمطاً جديداً من العمل الرسالي للتغيير، حيث كان الأئمة الهداة عليهم السلام يقومون بقيادة المجموعات المخلصة من الرساليين، وضمن هذا التصوّر يتّضح الدور الذي كان يؤدّيه الأئمة الأطهار عليهم السلام، حيث كانوا على رأس الهرم يقودون الصفوة من الفقهاء والزهاد والعباد والمتكلمين وأصحاب العلوم المختلفة، مضافاً إلى السياسيين والقيادات العسكرية وما أشبه، وبالتالي كانت كل خيوط العمل الثوري بأيديهم، ولم يكن هدف الأئمة المعصومين عليهم السلام الوصول إلى الحكم فقط، وإنما كان أكبر من

أحلك الظروف وأصعبها مسؤولياته الكبرى، لأن الدولة العباسية كانت أعرف من غيرها بأن المخلص والمتنظر الذي به خلاص الأمة من ظلمهم وكيدهم وبه زوال عرشهم، إنما هو من أهل هذا البيت عليهم السلام، فعملوا على تضيق الخناق وفرض الإقامة الجبرية على الإمام، الأمر الذي أدّى إلى عزل الإمام عن واقع الأمة، وبرغم ذلك إلا أن الإمام عمل على تطوير نظام الوكلاء، الذي من خلاله يتّصل الإمام والأمة، فكان يُجيب على مسائل الأمة، ومن خلال هذا النظام أوصل الإمام فكرة الغيبة وعمل على تهيئة الأمة لتلقّيها، من هنا قاد الإمام ملحمة كبرى في العمل السياسي المعارض للدولة العباسية مواجهاً ظلمهم وإرهابهم وتلاعبهم بمقدرات الأمة، وهو بذلك يدافع عن خط أهل البيت عليهم السلام وشريعة جده المصطفى صلى الله عليه وآله من خلال تربيته لوكبه من أصحابه الرواة وطلاب مدرسته الرسالية. عاصر الإمام عليه السلام من بني العباس (المعتز، والمهدي، والمعتمد)، ولاقى منهم أشد أنواع التضيق والملاحقة والسجن مرات عدة. قضى الإمام شهيداً من سم المعتمد وعمره الشريف لم يتجاوز عقده الثالث. فسلام عليه يوم ولد ويوم دعا الأمة إلى الهدى والصلاح ويوم استشهد ويوم بيعت حياً. للوقوف على سيرته المباركة طالع: حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام .. دراسة وتحليل، للعلامة القرشي. و للمؤلف: الإمام الحسن العسكري عليه السلام .. قدوة وأسوة.

ذلك وهو بناء الأمة الإسلامية، وإعدادها للبقاء والتوسع والامتداد.

بالطبع كان من ضمن أهدافهم الوصول إلى الحكم، أو أن يكون الحكم في أيدي أمينة، كما كانوا يهدفون إلى خلق أمة إسلامية واعية ومتحركة وناهضة، لها أنظمتها الصحيحة المستوحاة من الرسالة الإسلامية، وأن يكون أبنائها متوجهين إلى الله وفيهم الزهاد والعباد الصالحون حتى تنمو هذه الأمة وتتقدم على جميع الأمم الأخرى في العلم والصناعة. من هنا قاموا بتحريك الأمة الإسلامية باتجاه هذه الأهداف بشكل مشترك دون ترجيح العمل السياسي على العمل الاجتماعي والثقافي والأخلاقي وغيره، فالسياسة كانت من ضمن الأهداف ولم تكن السياسة قد استقطبت أهداف الأئمة جميعاً.

بذلك نكتشف أن الأئمة عليهم السلام كانوا يقودون العمل الرسالي التغييري ضد نظام بني أمية، وضد نظام بني العباس، ولكنهم لم يورثوا أنفسهم بشكل مباشر في الثورة السياسية دائماً، لماذا؟.

لأنهم كانوا يقودون ثورات من أنواع أخرى أيضاً، فكانوا يقودون الثورة الثقافية الفكرية، والثورة الاجتماعية، والثورة العلمية، إلا أنهم في الوقت ذاته كانوا يقودون الثورة السياسية، والآن ربما نستطيع استيضاح هذه الفكرة من عدة أمثلة.

المختار يدعو إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام

لقد عاصر الإمام زين العابدين عليه السلام ثورة المختار، ويرى مجموعة كبيرة من المؤرخين ومنهم أبو الفرج الأصفهاني^(١)، والدكتور علي سامي النشار^(٢)، وكثير غيرهم^(٣)، أن المختار كان رجلاً رسالياً ثورياً مخلصاً يدعو إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام.

(١) مقاتل الطالبين، ص ١٢٤.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٢، ص ٤٦.

(٣) منهم على سبيل المثال لا الحصر: العلامة المجلسي في (بحار الأنوار، ج ٤٥). والعلامة المقرم في (تنزيه المختار). والعلامة القرشي في (المختار الثقافي.. دراسة وتحليل)، فراجع.

وهو الإمام زين العابدين عليه السلام. والواضح عندنا أن الإمام هو الذي أمر المختار ولو بطريق غير مباشر للقيام بثورته، بل ربما قال عليه السلام للمختار - ولأسباب معينة - : أدعُ إلى محمد بن الحنفية. وهناك رواية مفصلة تدل بوضوح على أن محمد بن الحنفية قام بقيادة حركة المختار نيابة عن الإمام زين العابدين عليه السلام. فقد روى جعفر بن نما^(١) عن والده عليه السلام : أن محمد بن الحنفية جاءت إليه جماعة من كبار الشيعة من الكوفة من رؤساء القبائل، وكانوا قد جاؤوا إليه ليسألوه في أمر وشأن المختار الذي بدأ يدعو للثأر من الأمويين وإلى الرضا من آل محمد في الكوفة.

وقد قالوا: إن المختار يريد الخروج بنا للأخذ بالثأر وقد بايعناه، ولا نعلم أرسله إلينا محمد بن الحنفية أم لا؟. فجاءوا إلى محمد بن الحنفية، فبدأ عبد الرحمن بن شريح بحمد الله والثناء عليه، وقال: أما بعد فإنكم أهل البيت خصكم الله بالفضيلة وشرّفكم بالنبوة، وعظّم حقكم على هذه الأمة، وقد أصبتم بـ (الحسين عليه السلام) مصيبة عمّت المسلمين، وقد قَدِم المختار يزعم أنه جاء من قبلكم، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل البيت، فبايعناه على ذلك، فإن أمرتنا باتباعه أتبعناه، وإن نهيتنا اجتنبناه.

هنا يقول جعفر بن نما عن والده: إن محمد بن الحنفية قال لهم: «قوموا بنا إلى إمامي وإمامكم علي بن الحسين عليه السلام»، فلما دخل ودخلوا عليه أخبر محمد خبرهم الذي جاؤوا لأجله، فقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «يا عم، لو أن عبدًا زنجيًا تعصّب لنا أهل البيت، لوجب على الناس مؤازرته، وقد وليتُك هذا الأمر، فاصنع ما شئت». فخرجوا وقد سمعوا كلامه وهم يقولون: أذن لنا زين العابدين عليه السلام ومحمد بن الحنفية.

(١) الشيخ الجليل نجم الدين [٥٦٧-٦٤٥هـ]، أبو إبراهيم، جعفر بن نجيب الدين محمد بن جعفر بن نما، صاحب (مثير الأحزان). من آثاره: (ذوب النصار في أحوال المختار)، ألفه إجابة لسؤال جماعة من الأصحاب، وقد أورده بكامله العلامة المجلسي رحمته الله في بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٣٤٦-٣٨٧. وللفادة طالع: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ١٣، ص ١٧٠. فهرس التراث، ج ١، ص ٦٣٧.

وكان المختار قد علم بخروجهم إلى محمد بن الحنفية، وكان يُريد النهوض
بجماعة الشيعة قبل قدومهم، فلما تهيأ ذلك له، وكان يقول: إن نفرًا منكم تحيروا
وارتابوا، فإن هم أصابوا أقبلوا وأنا بوا، وإن هم كبوا وهابوا واعترضوا وانجابوا
فقد خسروا وخابوا. فدخل القادمون من عند محمد بن الحنفية فقال: ما وراءكم
فقد فتتم وارتبتم؟ فقالوا: قد أمرنا بنصرتك. فقال: يا معشر الشيعة، إن نفرًا أحبوا
أن يعلموا مصداق ما جئتُ به، فخرجوا إلى إمام الهدى، والنقيب المرتضى، وابن
المصطفى المجتبى - يعني الإمام زين العابدين (عليه السلام) - فعرّفهم أني ظهيره ورسوله،
وأمرهم باتباعي وطاعتي. وقال كلاماً يُرغبهم إلى الطاعة والاستنفار معه وأن
يُعلم الحاضر الغائب^(١).

كما نجد في التاريخ أدلة كثيرة على ارتباط المختار بالإمام السجاد (عليه السلام) إلى
درجة أنه كان يعرف تفاصيل حياة الإمام. في رواية أن الإمام زين العابدين (عليه السلام)
كان يدعو في كل يوم أن يريه الله قاتل أبيه مقتولاً: «فَلَمَّا قَتَلَ الْمُخْتَارُ قَتْلَةَ الْحُسَيْنِ
(عليه السلام)، بَعَثَ بِرَأْسِ عُبيدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ وَرَأْسِ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ مَعَ رَسُولٍ مِنْ قِبَلِهِ إِلَى
زَيْنِ الْعَابِدِينَ (عليه السلام)، وَقَالَ لِرَسُولِهِ: إِنَّهُ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، وَإِذَا أَصْبَحَ وَصَلَّى صَلَاةَ
الْغَدَاةِ هَجَعَ. ثُمَّ يَقُومُ فَيَسْتَاكُ وَيُؤْتِي بَغْدَائِهِ. فَإِذَا أَتَيْتَ بَابَهُ فَاسْأَلْ عَنْهُ، فَإِذَا قِيلَ
لَكَ: إِنَّ الْمَائِدَةَ وَضَعْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهِ، وَضَعْ الرَّأْسَيْنِ عَلَى مَائِدَتِهِ، وَقُلْ
لَهُ: الْمُخْتَارُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، قَدْ بَلَغَكَ اللَّهُ تَارَكَ.
فَفَعَلَ الرَّسُولُ ذَلِكَ.

فَلَمَّا رَأَى زَيْنُ الْعَابِدِينَ (عليه السلام) الرَّأْسَيْنِ عَلَى مَائِدَتِهِ خَرَّ سَاجِدًا، وَقَالَ (عليه السلام):
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَجَابَ دَعْوَتِي، وَبَلَغَنِي ثَارِي مِنْ قَتْلَةِ أَبِي. وَدَعَا لِلْمُخْتَارِ وَجَزَّاهُ
خَيْرًا^(٢). وَفِي كِتَابِ الدَّلَائِلِ لِلْحَمِيرِيِّ عَنِ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: «حَجَجْتُ فَدَخَلْتُ
عَلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ (عليه السلام)، فَقَالَ لِي: يَا مِنْهَالُ، مَا فَعَلَ حَرْمَلَةُ بْنُ كَاهِلٍ الْأَسَدِيُّ.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٣٦٤-٣٦٥ بتصرف وإيجاز.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٥٢.

قُلْتُ: تَرَكْتُهُ حَيًّا بِالْكُوفَةِ. قَالَ: فَرَفَعَ يَدَيْهِ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: اللَّهُمَّ أَذْفُهُ حَرًّا الْحَدِيدِ اللَّهُمَّ أَذْفُهُ حَرًّا النَّارِ.

قَالَ: فَانْصَرَفْتُ إِلَى الْكُوفَةِ. وَقَدْ خَرَجَ بِهَا الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ، وَكَانَ لِي صَدِيقًا، فَرَكِبْتُ لِأَسْلَمَ عَلَيْهِ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ دَعَا بِدَائِيهِ، فَرَكِبَ وَرَكِبْتُ مَعَهُ، حَتَّى أَتَى الْكُنَاسَةَ فَوَقَفَ وَقُوفَ مُنْتَظِرٍ لَشَيْءٍ، وَقَدْ كَانَ وَجْهَ فِي طَلَبِ حَرْمَلَةَ بْنِ كَاهِلٍ فَأُخْضِرَ.

فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَكَّنَّنِي مِنْكَ. ثُمَّ دَعَا بِالْجُزَارِ فَقَالَ: اقْطَعُوا يَدَيْهِ، فَقُطِعَتَا. ثُمَّ قَالَ: اقْطَعُوا رِجْلَيْهِ، فَقُطِعَتَا. ثُمَّ قَالَ: النَّارَ، النَّارَ. فَأُتِيَ بِطَنْ قَصَبٍ ثُمَّ جُعِلَ فِيهَا، ثُمَّ أُهْبِتَ فِيهِ النَّارُ حَتَّى اخْتَرَقَ. فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ.

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ الْمُخْتَارُ فَقَالَ: مِمَّ سَبَّخْتَ؟! فَقُلْتُ لَهُ: دَخَلْتُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ﷺ، فَسَأَلَنِي عَنْ حَرْمَلَةَ. فَأَخْبَرْتُ أَنِّي تَرَكْتُهُ بِالْكُوفَةِ حَيًّا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَذْفُهُ حَرًّا الْحَدِيدِ اللَّهُمَّ أَذْفُهُ حَرًّا النَّارِ. فَقَالَ الْمُخْتَارُ: اللَّهُ، اللَّهُ. أَسَمِعْتَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ ﷺ، يَقُولُ هَذَا؟! فَقُلْتُ: اللَّهُ، اللَّهُ. لَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ هَذَا!. فَتَزَلَّ الْمُخْتَارُ وَصَلَّى رُكْعَتَيْنِ. ثُمَّ أَطَالَ، ثُمَّ سَجَدَ، وَأَطَالَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَذَهَبَ، وَمَضَتْ مَعَهُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَابِ دَارِي.

فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُكْرِمَنِي بِأَنْ تَنْزِلَ وَتَتَغَدَّى عِنْدِي. فَقَالَ: يَا مِنْهَالُ، تُخْبِرُنِي أَنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ دَعَا اللَّهَ بِثَلَاثِ دَعَوَاتٍ فَأَجَابَهُ اللَّهُ فِيهَا عَلَى يَدَيَّ. ثُمَّ تَسَأَلَنِي الْأَكْلَ عِنْدَكَ هَذَا يَوْمَ صَوْمِ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى مَا وَفَّقَنِي لَهُ»^(١).

ومما يدل على سلامة حركة المختار هو أن الإمام الباقر ﷺ كان يقول: «لَا تَسُبُّوا الْمُخْتَارَ فَإِنَّهُ قَدْ قُتِلَ قَتْلَتَنَا، وَطَلَبَ بِنَارِنَا، وَزَوَّجَ أَرَامِلَنَا، وَقَسَمَ فِينَا الْمَالَ عَلَى الْعُسْرَةِ»^(٢).

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٥٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٣٤٣.

إذن.. إذا كان المختار رجلاً رسالياً، ويدعو إلى الرضا من آل محمد، فلماذا لا نرى الإمام زين العابدين يأتي إلى الكوفة، ويؤم الناس جماعة، ويقود حرب المختار الذي أمضى شهوراً في الحكم، بل يكتفي الإمام بمشاهدة رأس عبيد الله بن زياد، وأن يسجد لله شاكراً لأن الله انتقم لأبيه المظلوم؟. ربما لم يكن من المصلحة - حسب رؤية الإمام عليه السلام - أن يضع بصماته بشكل واضح وظاهر على حركة المختار.

ولهذا قالوا: إن أول من سنَّ سنة الزهد هو الإمام زين العابدين عليه السلام^(١)، ومع ذلك فهو عليه السلام قائد جميع الفقهاء في عصره، وكل المذاهب قدّست الإمام زين العابدين عليه السلام، وبقيت في البلاد الإسلامية آثار عظيمة من زهده وعلمه وارتباطه بالله سبحانه وتعالى وتوجيهه إلى الحق^(٢).

انظروا إلى التاريخ لتروا سعيد بن المسيب^(٣)، وسعيد بن جبير^(٤)، وجبير بن

(١) أن رجلاً سأل علي بن الحسين عليه السلام عن الزهد؟. فقال عليه السلام: «عشرة أشياء: فأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا، ألا وإن الزهد في آية من كتاب الله عز وجل: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾». الكافي، ج ٢، ص ١٢٨.

(٢) لاحظ: مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ١٦١. حياة الإمام زين العابدين، ج ١، ص ٩١.

(٣) جاء في أحواله مع الإمام زين العابدين عليه السلام، ما رواه صاحب المازندراني في (مناقب آل أبي طالب عليه السلام)، ص ١٣٤: «سأل ليث الخزاعي سعيد بن المسيب عن إتهاب المدينة. قال: نعم. شدوا الحبل إلى أساطين مسجد رسول الله ﷺ ورأيت الحبل حول القبر وانتهب المدينة ثلاثاً. فكننت أنا وعلي بن الحسين عليه السلام نائي قبر النبي ﷺ، فبتكلم علي بن الحسين عليه السلام بكلام لم أقف عليه في حال ما بيننا وبين القوم ونصلي ونرى القوم وهم لا يروننا...».

(٤) قال الإمام الصادق عليه السلام، في حقه: «إن سعيد بن جبير، كان يأتني بعلي بن الحسين عليه السلام، فكان علي يثني عليه، وما كان سبب قتل الحجاج له إلا على هذا الأمر، وكان مستقيماً، وذكر أنه لما دخل على الحجاج بن يوسف قال: أنت شقي بن كسير؟ قال: أمي كانت أعرف بي سميتني سعيد بن جبير. قال: ما تقول في أبي بكر وعمر، هما في الجنة أو في النار؟ قال: لو دخلت الجنة فنظرت إلى أهلها لعلمت من فيها، ولو دخلت النار ورأيت أهلها لعلمت من فيها. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: أيهم أحب إليك؟ قال: أرضاهم لحالقي. قال: فأيهم أرضى للخالف؟ قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم. قال: أبيت أن تصدقني. قال: بل لم أحب أن أكذبك». بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٣٦. وجاء في سير أعلام

مطعم^(١)، وأبا خالد الكابلي^(٢)، ويحيى بن أم الطويل^(٣)، هؤلاء الذين كانوا من

النبلاء للذهبي، ج ٤، ص ٣٣٧، في وصف حاله مع بني أمية: «عن أبي حصين، قال: رأيت سعيداً بمكة فقلت: إن هذا قادم - يعني خالد بن عبد الله القسري - ولست آمنه عليك، قال: والله لقد فررت حتى استحييت من الله. قلت - الذهبي -: طال اختفاؤه، فإن قيام القراء على الحجاج كان في سنة اثنتين وثمانين، وما ظفروا بسعيد إلى سنة خمس وتسعين، السنة التي قلع الله فيها الحجاج». ونقل ابن خلكان، في وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٧٣: «وكان يوم أخذ يقول: وشي بي واشي في بلد الله الحرام، أكلمه إلى الله تعالى، يعني خالد بن عبد الله القسري».

(١) ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي [ت: ٥٩ هـ]، أبو محمد: عده الشيخ في أصحاب الرسول ﷺ، وكان من علماء قريش وسادتهم. توفي بالمدينة، وله ٦٠ حديثاً. عُدَّ من حوارى الإمام زين العابدين عليه السلام، كما في رواية علي بن أسباط بن سالم عن أبيه قال: «قال أبو الحسن عليه السلام: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ... ثُمَّ يُنَادِي أَيْنَ حَوَارِيَّ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَقُومُ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ، وَيَحْيَى بْنُ أُمِّ الطَّوِيلِ، وَأَبُو خَالِدٍ الْكَابِلِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ... ثُمَّ يُنَادِي سَائِرَ الشَّيْعَةِ مَعَ سَائِرِ الْأَيْمَةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَهَؤُلَاءِ أَوَّلُ الشَّيْعَةِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْفِرْدَوْسَ، وَهَؤُلَاءِ أَوَّلُ السَّابِقِينَ، وَأَوَّلُ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَوَّلُ الْمُخْبَرِينَ». بحار الأنوار، ج ٣٤، ص ٢٧٥. أعيان الشيعة، ج ٤، ص ٦٧. الأعلام، ج ٢، ص ١١٢.

(٢) في أحواله قال الإمام الباقر عليه السلام: «كَانَ أَبُو خَالِدٍ الْكَابِلِيُّ يُحَدِّثُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ دَهْرًا، وَمَا كَانَ يَشْكُ فِي أَنَّهُ إِمَامٌ، حَتَّى أَتَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ. فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنَّ لِي حُرْمَةً، وَمَوَدَّةً، وَانْقِطَاعًا، فَأَسْأَلُكَ بِحُرْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَآمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَّا أَخْبَرْتَنِي أَنَّتَ الْإِمَامُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ طَاعَتَهُ عَلَى خَلْقِهِ؟ قَالَ: فَقَالَ: يَا أَبَا خَالِدٍ، حَلَفْتَنِي بِالْعَظِيمِ. الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. عَلِيٌّ وَعَلَيْكَ، وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. فَأَقْبَلَ أَبُو خَالِدٍ لَمَّا أَنْ سَمِعَ مَا قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ، وَجَاءَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَخْبَرَ أَنَّ أَبَا خَالِدٍ بِالْبَابِ أَذِنَ لَهُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ دَنَا مِنْهُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَرَحَبًا بِكَ يَا كُنْكَرُ. مَا كُنْتَ لَنَا بِزَائِرٍ، مَا بَدَا لَكَ فِينَا. فَخَرَّ أَبُو خَالِدٍ سَاجِدًا شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى مِمَّا سَمِعَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُعْثِنِي حَتَّى عَرَفْتُ إِمَامِي. فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَكَيْفَ عَرَفْتَ إِمَامَكَ يَا أَبَا خَالِدٍ؟ قَالَ: إِنَّكَ دَعَوْتَنِي بِاسْمِي الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي النَّبِيَّ وَلَدْتَنِي وَقَدْ كُنْتُ فِي عَمِيَاءٍ مِنْ أُمْرِي، وَلَقَدْ خَدَمْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ عُمُرًا مِنْ عُمْرِي وَلَا أَشْكُ إِلَّا وَأَنَّهُ إِمَامٌ حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا سَأَلْتُهُ بِحُرْمَةِ اللَّهِ، وَبِحُرْمَةِ رَسُولِهِ، وَبِحُرْمَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَرْشَدَنِي إِلَيْكَ. وَقَالَ هُوَ الْإِمَامُ عَلِيُّ وَعَلَيْكَ وَعَلَى جَمِيعِ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ. ثُمَّ أَذِنْتُ لِي فَجِئْتُ فَدَنَوْتُ مِنْكَ وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِي الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي فَعَلِمْتُ أَنَّكَ الْإِمَامُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ طَاعَتَهُ عَلَيَّ وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ». بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٩٤.

(٣) وردت روايات في حقه، وتصف جملة من أحواله وجهاده، نذكر منها:
١ - ما جاء في رواية الاختصاص عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ارْتَدَّ النَّاسُ بَعْدَ الْحُسَيْنِ

تلامذة الإمام زين العابدين عليه السلام^(١)، ومن قادة الأمة الإسلامية، الذين خطوا للأمة مسيرتها، من غير فرق بين مذاهبها وتوجهاتها المختلفة، حيث نجد أن السنة والشيعية والخوارج والمرجئة^(٢)، والمعتزلة^(٣) كلهم يعتقدون بهؤلاء كقادة وعلماء وموجهين.

كان الإمام يُريّ رجلاً سياسياً كالمختار الثقفي، ورجالاً عسكريين كإبراهيم بن مالك الأشتر، وعبد الله الحر، ورجالاً إداريين، ويبعثهم للقيام بمهمة الثورة.

عليه السلام إِلَّا ثَلَاثَةً: أَبُو خَالِدٍ الْكَائِلِيُّ، يَحْيَى بْنُ أُمِّ الطَّوِيلِ، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ. ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ لَحِقُوا وَكَثُرُوا. وَكَانَ يَحْيَى بْنُ أُمِّ الطَّوِيلِ يَدْخُلُ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقُولُ: «كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ».

٢- ما رواه الكليني في الكافي، ج ٢، ص ٣٧٩: عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ النُّعْمَانِ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عَلِيُّ بْنُ النُّعْمَانِ عَنْ ابْنِ مُسْكَانَ عَنِ الْيَمَانِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ: «رَأَيْتُ يَحْيَى بْنَ أُمِّ الطَّوِيلِ، وَقَفَّ بِالْكُنَاسَةِ (الكوفة)، ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: مَعْشَرَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ؛ إِنَّا بُرَاءٌ مِمَّا تَسْمَعُونَ، مَنْ سَبَّ عَلِيًّا عليه السلام، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ. وَنَحْنُ بُرَاءٌ مِنْ آلِ مَرْوَانَ، وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ. ثُمَّ يَخْفِضُ صَوْتَهُ فَيَقُولُ: مَنْ سَبَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَلَا تُقَاعِدُوهُ، وَمَنْ شَكَّ فِيَّ نَحْنُ عَلَيْهِ فَلَا تُقَاتِلُوهُ، وَمَنْ اخْتَجَّ إِلَى مَسْأَلَتِكُمْ مِنْ إِخْوَانِكُمْ فَقَدْ خُتِمَ مَوْتُهُ. ثُمَّ يَقْرَأُ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾».

(١) راجع: تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٤٤، و ص ٦١.

(٢) نشأت بعد ظهور الخوارج كرد فعل لهم؛ لأن الخوارج ترى أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار، وتكفر علياً وعثمان، وقالوا بالتحكيم. والمرجئة خالفت الخوارج في جملة من العقائد، فهي القائلة بالإرجاء بمعنى التأخير. وبأن إيمان مرتكب الكبيرة، كإيمان الملائكة والأنبياء بحجة عدم دخالة العمل في الإيمان. وقالوا بأن كل من آمن بوحداية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر، لأن الحكم عليه موكول إلى الله يوم القيامة مهما كانت الذنوب التي اقترفها. ومستندهم في هذا الاعتقاد قول الله: «وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ». راجع بحوث في الملل والنحل، ج ١، ص ٨٦.

(٣) نشأت فرقة المعتزلة في مدينة البصرة، التي كانت في ذلك العصر مجمعا للعلم والأدب، في جو مشبع بآثار الثقافات الأجنبية والغربية عن الإسلام، ويرجع أصل المعتزلة في نشأتها إلى اصيل بن عطاء تلميذ الحسن البصري، ولهم منهج كلامي خاص وأصول معينة اتفقوا عليها. راجع بحوث في الملل والنحل، ج ١. وأيضا: المعتزلة، زهدي جار الله.

الإمام زين العابدين عليه السلام والثورة الثقافية

في الوقت نفسه يختار الإمام السجاد مسيياً وسعيداً والزهري لمهمات أخرى، ويقوم في الوقت ذاته بنشر الإسلام والتوعية الإسلامية بين العبيد الذين جلبتهم فتوحات بني أمية العشوائية، وكانوا يشكلون خطراً على الدولة الإسلامية وعلى الإسلام، كان الإمام يث في هؤلاء روح الدين، ويربي فيهم مبلغين حقيقيين، ويقوم بثورة من نوع آخر^(١).

كذلك الإمام الصادق عليه السلام كان من الذين أيدوا^(٢) ثورة عمه (زيد بن علي). ونحن لا نستطيع -ولا أي مؤرخ آخر- أن نتقبل أن أخ الإمام أو ابن عمه أو غيرهم من أتباع الأئمة المخلصين بأنهم كانوا يخرجون على سلطة الإمام، ويقومون بالثورات من دون تنسيق مسبق مع الإمام ولمجرد نزوات شخصية، إنما كانت هناك خطط معينة، فالأئمة عليهم السلام كانوا يقومون بعدة أعمال في الوقت ذاته، والثورة السياسية والحركة التحريرية كانت من ضمن أعمالهم، وعلاقة الإمام زين العابدين عليه السلام مع المختار كانت ضمن هذه العلاقة، فالإمام عليه السلام لم يشترك علانية في الثورة ولم يكن من الصحيح أن يشترك فيها، فالثورة تواجه احتمالات الفشل، فإذا ربط الإمام عليه السلام نفسه بشكل مباشر مع هذه الثورة يكون حكم على كل أعماله بالفشل، كما أن كل الرساليين في العالم سيتنهون بفشل الثورة العسكرية ولم يكن هذا العمل سليماً، فالإمام عليه السلام كان في موقع يغذي سائر الثورات ويشرف عليها بصورة عامة وغير علنية، وبذلك نتعرف إلى بطولة المختار وتفانيه في سبيل الحق، في قبوله بالثورة مع عدم التأييد الظاهري للإمام زين العابدين عليه السلام، ودون أن يُفشي بالسر الذي بينه وبين الإمام عليه السلام.

وهناك مزيد من التفاصيل تُبين هذا الارتباط الذي كان بين الأئمة عليهم السلام

(١) كسعيد بن جبير عندما خرج مع عبدالرحمن بن الأشعث على حكومة الحجاج.

(٢) يأتينا في الحديث عن ثورة زيد بن علي، في الصفحات القادمة إن شاء الله فلاحظ.

وسائر الثورات.

وخلاصة القول: أنه كلما قامت في الأمة الإسلامية حركة خيرّة، سواء كانت ثورة عسكرية، أو ثقافية، أو دينية، أو حركة (فتوحات وامتداد إقليمي) أو ما أشبه، فإنها كانت بخطط وقيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام.

وستُثبت في الفصول القادمة هذه الحقيقة التاريخية حتى نعرف أن الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا أئمة حق قد عملوا من أجل الإصلاح والتغيير، وفجّروا الثورات، ولم يكونوا مجرد أئمة بالوصية ليس لهم عمل وأثر في العالم، وبهذا يرتفع التناقض المزعوم المشار إليه في صدر البحث.

صَفْوَالِكَلَامِ

* من أسباب فشل الحركات السياسية طيبة النفس وسذاجة القيادات. وكانت ثورة المختار من هذا النوع.

* والخلاف الداخلي حول الهدف من التحرك، هل هو من أجل الانتقام فقط أم هناك أهداف أخرى أبعد؟

* والسؤال الكبير هنا هو عن علاقة أئمة أهل البيت عليهم السلام بالثورات والحركات الرسالية، باعتبارهم القيادات الشرعية والامتداد الطبيعي لنهج الرسول ﷺ.

* ورأى بعض أن الأئمة بعد الإمام الحسين عليه السلام لم يقوموا بالسيف انتظاراً للإمام الحجة، لذا يجب ألا يقوم أحد بالسيف في وجه الطغاة في عصر الغيبة. وهو رأي ينتقص من قدر الأئمة عليهم السلام.

* الرؤية التحليلية الصائبة هي أن الأئمة عليهم السلام كانوا على رأس الهرم يقودون الصفوة من الفقهاء والزهاد والعباد وأصحاب العلوم المختلفة، والسياسيين والقادة العسكريين، وبالتالي فإن كل خيوط العمل الثوري الرسالي كانت بأيديهم، رغم أنهم لم يكونوا داخلين مباشرة، وبشكل صريح في العمل السياسي العسكري المعارض للطغاة.

* فأئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يقودون العمل الرسالي التغييري ضد نظام بني أمية ونظام بني العباس، ولكنهم لم يورثوا أنفسهم بشكل مباشر في الثورة السياسية دائماً.



الباب الثاني، مسيرة الحركة الرئاسية في العهد الأموي

الفصل الثالث، الحركات السياسية في زمن الدولة الأموية

الوضع السياسي في عهد عبد الملك بن مروان

قراءة في مسار الحركات السياسية



١٩ الوضع السياسي في عهد عبد الملك بن مروان

حياة عبد الملك بن مروان

قيل عن عبد الملك بن مروان بأنه كان حازماً، أديباً، لبيباً، وعالماً^(١)، وقد قال فيه المؤرخون المتزلفون بأنه كان ممن حوى علماً كثيراً وحكمة بالغة^(٢).

هذا الرجل عندما صعد المنبر في أول خطاب رسم به سياسة بلاده قال: «أيها الناس إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المداهن، ولا بالخليفة المأفون، فمن قال برأسه كذا، قلنا بسيفنا كذا! ثم نزل»^(٣).

ويقصد بالخليفة المستضعف عثمان بن عفان، والخليفة المداهن معاوية بن أبي سفيان، والخليفة المأفون - ضعيف الرأي - يزيد بن معاوية^(٤).

هذا هو عبد الملك بن مروان أعرق الناس في الكفر، كما يقول عنه المقرئزي^(٥)، ولنرى ماذا فعل عبد الملك بن مروان في حياته!

إن أول ما عمله عبد الملك بن مروان هو قيامه بتنصيب وإل من قبله لم تلد

(١) الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٢٣٩.

(٢) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ٥٩.

(٣) أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٢١٢. العقد الفريد، ج ٥، ص ١٥٠. الرسائل السياسية، ص ٤٣٥-٤٣٦.

(٤) البداية والنهاية، ج ٩، ص ٦٤. تاريخ الإسلام، ج ٥، ص ٣٢٥. تاريخ خليفة، ص ١٧١.

(٥) النزاع والتخاصم، ص ٣٤.

الأمهات عبر التاريخ أسوأ منه، وهو الحجاج بن يوسف الثقفي، مثال الجريمة، والفساد، والغلظة، والعنف، والوحشية^(١). فولاه مكة والمدينة والحجاز واليمن واليامة، ثم ولاه الكوفة والبصرة وبلاد الشرق، بل وخراسان وغيرها^(٢)، وترك له المجال مفتوحاً بأن يعيث فساداً في الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً.

«واحصي من قتله (الحجاج) صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه، فوجد مائة وعشرين ألفاً، ومات (الحجاج) وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشر ألفاً مجردة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف، ولا من المطر والبرد في الشتاء، وكان له غير ذلك من العذاب...»^(٣).

هذا الرجل نصبه الملك العادل^(٤)، والخليفة الحكيم والعالم (!)، عبد الملك بن مروان، كما يقول المؤرخون المتزلفون^(٥). وبهذا المقياس يمكن التعرف إلى سائر ملوك بني أمية، ومنهم على سبيل المثال: يزيد بن عبد الملك^(٦)، أمره أشهر من أن

(١) قال السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص ١٧٦: «لو لم يكن من مساوي عبد الملك إلا الحجاج وتوليته إياه على المسلمين وعلى الصحابة، يُهينهم ويُذلم قتلاً وشتاً وحبساً، وقد قتل من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يحصى فضلاً عن غيرهم، وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة ختماً، يريد ذلهم، فلا رحمه الله ولا عفا عنه».

(٢) التاريخ الإسلامي، العهد الأموي، ج ٤، ص ١٧٧.

(٣) مروج الذهب، ج ٣، ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٤) قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ٦٦٤: «عبد الملك بن مروان بن الحكم، أتى له العدالة وقد سفك الدماء وفعل الأفاعيل».

(٥) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، د. شليبي، ج ٢، ص ٥٩.

(٦) ابن مروان [٧١-١٠٥ هـ]، من ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد في دمشق، وولي الخلافة سنة ١٠١ هـ، ساس الناس بسيرة عمر بن عبدالعزيز، فشق ذلك على بني أمية. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «لما استخلف، قال: سيروا سيرة عمر بن عبد العزيز، فأثوه بأربعين شيخاً شهدوا له أن الخلفاء لا حساب عليهم ولا عذاب. فأقبل على الظلم وإتلاف المال والشراب، والانهماك على سماع الغناء، والخلوة بالقينات». شذرات الذهب، ج ٢، ص ٢٩. وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهراً. الأعلام، ج ٨، ص ١٨٥.

يذكر. فقد مات في شبابه لأن عشيقته حَبَّابة التي كان شغوفاً بحبها توفيت، فأقام أياماً لا يدفنها حزناً عليها حتى جيفت فقيل له: «إن الناس يتحدثون بجزعك، وإن الخلافة تجلُّ عن ذلك، فدفنها وأقام على قبرها فقال:

فإن تسلُّ عنك النفس أو تدع الهوى فبالياس تسلو النفس لا بالتجلد
ثم أقام بعدها أياماً قلائل ومات»^(١). ولقد كان يبكي على (حبابه) بكاء مريراً.

يقول المسعودي: «وكان يزيد ذات يوم في مجلسه، وقد غتته حبابه، وسلاماً فطرب طرباً شديداً. ثم قال: أريد أن أطير، فقالت له حبابه: يا مولاي، فعلى من تدع الأمة وتدعنا»^(٢).

أما الوليد بن يزيد^(٣)، فقد قرأ ذات يوم قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾^(٤).

فدعا بالمصحف الشريف فنصبه غرضاً للنشأ، وأقبل برمييه وهو يقول:

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ١٩٨.

(٢) مروج الذهب، ج ٣، ص ١٩٩.

(٣) روى الحاكم في المستدرک عن أبي هريرة قال: «ولد لأخي أم سلمة غلام فسموه الوليد، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: سميتوه بأسامي فراعيتكم، ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، هو شر على هذه الأمة من فرعون على قومه. قال الزهري: إن استخلف الوليد بن يزيد فهو هو، وإلا فالوليد بن عبد الملك. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال الحاكم: وهو الوليد بن يزيد بلا شك ولا مرية». قال السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص ١٩٩: «وكان فاسقاً شريفاً للخمر، متهاكاً حرماً لله، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة، فمقته الناس لفسقه وخرجوا عليه فقتل في جمادى الآخرة سنة [مائة] ست وعشرين». وقال: «إنه لما حوَّصر قال: ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع عنكم المؤن؟ ألم أعط فقراءكم؟ فقالوا: ما ننقم عليك في أنفسنا لكن ننقم عليك انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله، ولما قتل وقطع رأسه وجيء به يزيد الناقص نصبه على رمح فنظر إليه أخوه سليمان بن يزيد. فقال: بُعداً له أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً ولقد راودني على نفسي».

(٤) سورة إبراهيم، آية: ١٥-١٦.

تَهْدِدُنِي بِجَبَّارٍ عَنِيدٍ فَهَا أَنَا ذَاكَ جَبَّارٍ عَنِيدٍ
إِذَا مَا جِئْتَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشَرٍ فَقُلْ يَا رَبِّ مَزَّقْنِي الْوَلِيدَ^(١)
إن هؤلاء جميعاً سواء عبد الملك بن مروان، أو يزيد بن عبد الملك، أو الوليد بن يزيد، أو سليمان بن عبد الملك، كانوا يعيشون حياة بذخ وترف وفساد خلقي، لذلك كانت أعمارهم قصيرة، فقد كان بعضهم يثور على الآخر، وربما قتله شر قتلة^(٢).

والتاريخ يذكر ذلك، فكثير من الملوك الأمويين قُتلوا على فرشهم، وبعضهم قتلتهم أمهاتهم، والبعض الآخر قتلهم زوجاتهم وإخوانهم، فالأخ يقتل أخاه، كما حدث بالنسبة إلى سليمان بن عبد الملك حيث قتل أخاه الوليد، وقد نتكهن أن فئات المعارضة كانت تجد طريقها إلى البلاط الملكي وتغتال بعضهم. وبالرغم من أن هذا شيء ممكن فإن المؤرخين لم يذكروه.

(١) الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٢٩٠.

(٢) لاحظ: تاريخ الخلفاء للسيوطي. المناقب والمثالب، للقاضي التميمي المغربي.

— ﴿ صِفْوَالِكَلَامِ ﴾ —

* كان الأمويون المروانيون (عبد الملك بن مروان وأبناؤه وأحفاده) يعيشون حياة بذخ وترف وفساد خلقي، بينما كانوا يحكمون بلاد المسلمين زوراً وظلماً باسم الإسلام. ويسبب انهماكهم في الفساد واللهو فقد كانت أعمارهم وحكوماتهم قصيرة، حيث كان بعضهم يثور على الآخر. وقد نتكهن أن فئات المعارضة كانت تجد طريقها إلى البلاط الملكي وتغتال بعضهم. وبالرغم من أن هذا شيء ممكن إلا أن المؤرخين لم يذكروه.



١٩ قراءة في مسار الحركات السِّيَاسِيَّة

اتَّسعت الخلافات الداخلية في زمن عبد الملك بن مروان بشكل أصبحت معها الدولة الإسلامية أشلاء شتى. يقول المسعودي في مروج الذهب: «كان عبد الملك بن مروان سار في جيوش أهل الشام فنزل بطنان ينتظر ما يكون من أمر ابن زياد^(١)، فأتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه، وهزيمة الجيش بالليل، أتاه في تلك الليلة مقتل حبيش بن دجلة، وكان على الجيش بالمدينة لحرب ابن الزبير، ثم جاءه خبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ومسير مُصْعَب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين، ثم جاءه مسير ملك الروم لاوي بن فلنط، ونزوله المصيصة يريد الشام، ثم جاءه خبر دمشق، وأن عبيدها وأوباشها ودُّعَارها قد خرجوا على أهلها، ونزلوا الجبل، ثم أتاه أن من في السجن بدمشق فتحوا السجن، وخرجوا منه مكابرة، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع، وغير ذلك مما نمي إليه من المفطعات في تلك الليلة..»^(٢).

وقد أتته أخبار كل ذلك في ليلة واحدة مما يدل على مدى الاضطراب السياسي الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية، ولذا كان حكم بني أمية يمر بظروف صعبة بينما يزعم بعض المؤرخين أن الخليفة الأموي حينها كان أقوى الخلفاء، كيف ذلك؟. وهو الذي أراد أن يبايع ابن الزبير لما رأى تززع حكم الأمويين، إلّا أن

(١) الذي بعثه لحرب جيش المختار الثقفي الذي كان بقيادة إبراهيم بن مالك الأشتر.

(٢) مروج الذهب، ج ٣، ص ٩٨.

الأشدق أشار إليه بدعوة الناس بمبايعته^(١).

في هذه الأوضاع كانت هناك حركات عديدة ناشئة، بالإضافة إلى الحركة الرسالية التي تحدّثنا عنها، فلا بد أن نُلقِي بعض الضوء على الحركات التي كانت تعايش وتعاصر الحركة الرسالية في تلك الحقبة؛ لأن معرفة هذه الحركات تُعمّق فهمنا للحركة الرسالية، ومن جملة تلك الحركات:

أولاً: حركة الخوارج

الخوارج هي الفئة التي خرجت على حكم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في حرب صفين، وكانوا يشكلون -حسب التعبير الحديث- الجبهة الراديكالية المتطرفة^(٢).

حيث اعتقدت جماعة من جيش الإمام علي بأنه كان من الخطأ قبول الإمام علي عليه السلام بالتحكيم، بالرغم من أنهم هم أنفسهم الذين أصرّوا على الإمام بذلك حين رفع أهل الشام المصاحف، وخاصمهم الإمام عليه السلام وقال لهم: «ويحكم! إنهم ما رفعوها لأنكم تعلمونها، ولا يعلمون بها، وما رفعوها لكم إلا خديعة، ودهاء، ومكيدة.

فقالوا له: إنه ما يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله.

فقال عليه السلام: ويحكم! إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب، فقد عصوا الله فيما أمرهم به، ونبذوا كتابه، فامضوا على حقكم وقصدكم، وخذوا في قتال عدوكم، فإن معاوية، وابن العاص، وابن أبي مُعَيْط، وحبيب بن مسلمة، وابن النابغة، وعدداً غير هؤلاء ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً ورجالاً، فهم شر أطفال ورجال^(٣).

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٨٦.

(٢) أي النزعة إلى إحداث تغيرات متطرفة في الفكر والعادات السائدة والأحوال والمؤسسات القائمة.

(٣) مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٩٠.

ويحكم! إنها كلمة حق يُراد بها باطل!... أعيروني سواعدكم وجهاجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبقَ إلّا أن يُقطع دابر الذين ظلموا»^(١).

فلم يقبلوا منه وهددوه بالحرب إن لم يرجع مالك الاشر قائدا جيشه من ساحة الحرب. وبعد أن قبل الإمام علي عليه السلام بالتحكيم مرغماً، خرجوا عليه وهم ينادون من كل ناحية: «لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. الْحُكْمُ لِلَّهِ يَا عَلِيُّ لَا لَكَ، لَا نَرْضَى بِأَنْ نُحْكَمَ الرَّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ...»^(٢).

فقال عليه السلام: «... نَشَدْتُكُمْ بِاللَّهِ؛ أَتَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ حِينَ رَفَعُوا الْمَصَاحِفَ فَقُلْتُمْ نُجِيبُهُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ. قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ بِالْقَوْمِ مِنْكُمْ... فَرَدَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي!!... فَلَمَّا أُبَيِّنْتُمْ إِلَّا الْكِتَابَ اشْتَرَطْتُ عَلَى الْحَكَمَيْنِ أَنْ يُجِيبَا مَا أَحْبَاهُ الْقُرْآنُ، وَأَنْ يُمِيتَا مَا أَمَاتَهُ الْقُرْآنُ، فَإِنْ حَكَمَا بِحُكْمِ الْقُرْآنِ، فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُخَالِفَ حُكْمَ مَنْ حَكَمَ بِمَا فِي الْكِتَابِ، وَإِنْ أَبَيَا فَتَحْنُ مِنْ حُكْمِهِمَا بَرَاءً.

قَالَ بَعْضُ الْخَوَارِجِ: فَخَبَرْنَا أَنَّهُ عَذَلَ مُحْكَمُ الرَّجَالِ فِي الدِّمَاءِ.

فَقَالَ عليه السلام: إِنَّمَا لَمْ نُحْكَمْ الرَّجَالَ، إِنَّمَا حَكَمْنَا الْقُرْآنَ، وَهَذَا الْقُرْآنُ؛ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ دَفَّتَيْنِ، لَا يَنْطِقُ، وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الرَّجَالُ.

قَالُوا لَهُ: فَخَبَرْنَا عَنِ الْأَجَلِ الَّذِي جَعَلْتَهُ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ!.

قَالَ عليه السلام: لِيَتَعَلَّمَ الْجَاهِلُ وَيَتَبَيَّنَ الْعَالِمُ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُضْلِعَ فِي هَذِهِ الْهَدَنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ...»^(٣).

وقد كان ذلك في قرية بظاهر الكوفة تسمى حروراء، ثم أرسل لهم الإمام عليه السلام عبد الله بن العباس وناقشهم واقتنع كثير منهم بحجته، ورجعوا عن رأيهم

(١) شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٥٧-٤٥٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٥٤٤.

(٣) بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٣٨٧.

بينما امتنع آخرون، وخرجوا بعد مدة عليه في النهروان واعتدوا على الصحابي الجليل عبد الله بن خباب بن الارت لأنه أثنى على علي عليه السلام، فقتلوه، وقتلوا أم ولده. جاء في تاريخ بغداد: «.. وأخرجوا أم ولده، فشقوا عَمَّا في بطنها، فأخبر علي عليه السلام بما صنعوا، فقال: الله أكبر..»^(١).

ثم حمل عليهم عليه السلام، وكانوا أربعة آلاف فقتلهم أجمع، «فما انفلت منهم إلا أقل من عشرة. وما قتل من المسلمين إلا أقل من عشرة. فانهزم اثنان منهم إلى عمان^(٢)، واثنان إلى كرمان^(٣)، واثنان إلى سجستان^(٤)، واثنان إلى الجزيرة^(٥)، وواحد إلى تل موزن^(٦) باليمن. وظهرت بدع الخوارج في هذه المواضع منهم..»^(٧).

وقد قال فيهم أيضاً بعد حرب النهروان عند مروره بهم وهم صرعى: «بُؤْساً لَكُمْ لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ».

فَقِيلَ لَهُ: مَنْ غَرَّهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟!

فَقَالَ عليه السلام: الشَّيْطَانُ الْمُضِلُّ وَالْأَنْفُسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، غَرَّهُمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَفَسَحَتْ لَهُمْ بِالْمَعَاصِي، وَوَعَدَتْهُمْ الْإِظْهَارَ، فَأَفْتَحَمَتْ بِهِمُ النَّارَ»^(٨).

وكان من جملة الخوارج المقتولين في النهروان ذو الثدية الذي قال عنه رسول الله ﷺ بعد أن حكم بمروقهم من الدين: «.. آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عِصْدِيهِ

(١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج ١، ص ٢٢٠.

(٢) اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند. معجم البلدان، ج ٤، ص ١٥١.

(٣) ولاية بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٤.

(٤) ولاية جنوبي هراة. معجم البلدان، ج ٣، ص ١٩٠.

(٥) هي التي بين دجلة والفرات فيها ديار مضر وبكر.

(٦) في الأصل مورون، تحريف، وتل موزن، بلد قديم بين رأس عين وسروج، يزعم أن جالينوس

كان به. معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٥.

(٧) الملل والنحل، الشهرستاني، ج ١، ص ١٣٥.

(٨) نهج البلاغة، باب من غريب كلامه عليه السلام، الكلمة: ٣٢٣.

مِثْلُ نَذِي الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبُضْعَةِ تَذَرْدَرُ...»^(١).

تطوّرت هذه الفئة إلى حزب حيوي ونشط، جمع الكثير من المعارضين للحكومة الإمام علي عليه السلام، وقد أصبح هذا الحزب المعارضة الساخنة ضد الدولة الأموية، والأقوى بعد الحركة الرسالية، بالإضافة إلى أنهم كانوا غلاظاً، لا يبالون بهدر الدماء.

واستطاع هذا الحزب أن يستولي على الكوفة لفترة، كما استطاع أن يستولي على البصرة في فترة أخرى، وعلى خراسان، والمدائن، والبحرين، واليمن، وعمان، في فترات متباعدة^(٢).

واستولى أيضاً على سَرَنْدِيب^(٣)، لفترة وكون فيها حكومة، إضافة إلى أنهم كانوا يدعمون المعارضة في شمال أفريقيا ويمدونهم بالمؤن والمساعدات.

ثانياً: حركة الزبيريين

هناك حقيقة لا بد أن أشير إليها قبل بيان حركة الزبيريين، وهي أن الخلافة الإسلامية، منذ أن خرجت عن مسارها الشرعي الصحيح، قامت السياسة في الأمة على أساس الفساد والمصالح والأهواء، وأصبحت القيم التي من أجلها بُعث النبي

(١) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٧٣. صحيح مسلم، ج ٢، ص ٧٤٩. البداية والنهاية، ج ٤، ص ٤١٧. وذكر نحو ذلك ابن أبي الحديد في شرح النهج، ج ١، ص ٢٠٢، وفي (جامع الأحاديث للسيوطي في مسند عائشة: روي أنها «سُئلت ما سمعت النبي ﷺ يقول في الخوارج؟ قالت: سمعته يقول: هم شر الخلق والخلقة، يقتلهم خير الخلق والخلقة وأقربهم من الله وسيلة...». وروى الخطيب البغدادي أيضاً في تاريخ بغداد ج ١، ص ١٦٠: «قالت عائشة: ما يمنعني ما بيني وبين علي أن أقول الحق، سمعت النبي ﷺ يقول: تفرق أمتي على فرقتين تمرق بينهما فرقة مخلوقون رؤوسهم، محفون شواربهم، أزرقهم إلى أنصاف سوقهم، يقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، يقتلهم أحبهم إليّ وأحبهم إلى الله تعالى...».

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ٦، ص ١٧٤.

(٣) هي جزيرة عظيمة في بحر هرkend بأقصى بلاد الهند، طولها ثمانون فرسخاً في مثلها، وهي جزيرة تشرع إلى بحر هرkend وبحر الأعباب. وفي سرنديب الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام. وتسمى اليوم جزيرة سيلان. معجم البلدان، ج ٣، ص ٢١٦.

محمد ﷺ مفاهيم بعيدة لا واقع لها، بل انقلبت وتحوّلت إلى صور معكوسة بحيث أصبحت القوة، والرشوة، والمكر، هي الميزان لترشيح أي خليفة^(١)، وهناك تجلّى دور الأئمة الاثني عشر عليهم السلام في إعادة القيم الإسلامية المحمدية، ومن ثم إعادة الخلافة لمجراها الشرعي والإلهي، وعلى ضوء هذه البصيرة تُفهم الوقائع التاريخية وسير التحوّلات فيها.

أما عبد الله بن الزبير بن العوام، فقد كان والده من الذين قاوموا الكفار في صدر الإسلام، وكان ممن يميل إلى الإمام علي عليه السلام حتى روي عن علي عليه السلام: «مَا زَالَ الزُّبَيْرُ مِمَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، حَتَّى نَشَأَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ فَأَفْسَدَهُ»^(٢).

وكان لعبد الله اليد الطولى في تسيير حركة والده وطلحة وعائشة في وقعة الجمل. فقد كان يطمع في تقلد منصب الخلافة، ولعل الذي ربّاه على ذلك وغدّى طموحه، هي عائشة بنت أبي بكر، فهي التي رشّحته للخلافة منذ البداية^(٣)، وكان هو على درجة من المكر والدهاء، فلما رأى أن الأوضاع تتخلخل في الدولة الإسلامية، ادّعى الخلافة واستولى على مكة، وسيطر على المدينة، واعتقل مجموعة من العلويين وسجنهم، وضرب حصاراً على الباقي في شعب أبي طالب^(٤)، وبعث بأخيه مصعب بن الزبير إلى فلسطين، ثم إلى العراق حيث سيطر عليها إلى حد ما، فالدولة الإسلامية كانت تميل إليه حقدًا على بني أمية الذين وصل طغيانهم آنئذٍ أوجه، فوقعت مصر والبلدان التي ما وراءها تحت سيطرته، لذا فإنه أحاط بالعاصمة الأموية كإحاطة السوار بالمعصم^(٥).

(١) انظر: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ٨٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٤، ص ٢٨٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج ٢٠، ص ٤٥١.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٤، ص ٣٤١. نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢١، ص ٤٠. أخبار الدولة العباسية، ص ٩٩. تنمة المنتهى، ج ٣، ص ٨٤-٨٥.

(٥) الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٢٥٠-٢٥٣. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٣٦. تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٦١.

كيف ولماذا سقط ابن الزبير؟

برغم ذلك التمزُّق في الوضع الإسلامي، وشعور الغضب المتزايد على بني أمية، إلا أن حاميات الجيش الأموي الموجودة في سوريا كانت ما تزال على ولائها لبني أمية، لأن التركيبة العضوية لذلك الجيش كانت من المرتزقة الذين تحدَّثنا عنهم سابقاً^(١)، فاستطاعوا بعد فترة التغلُّب على ابن الزبير، أما السبب الرئيس لسقوط ابن الزبير بعد أن استمر تسع سنوات (٦٣-٧٢)^(٢)، هو استبداده ودكتاتوريته بين جماعته. كما أنه كان مضطرب الرأي، فلم يملك سياسة معينة، وكان سيِّئ التدبير في أموره، شديد البخل، صلف المعاملة، إلى غير ذلك من الصفات الرذيلة^(٣)، وكان ادِّعاؤه للخلافة قد جعله في مواجهة الحركة الرسالية والتيارات الأخرى.

والحمد لله الذي كفى المؤمنين شرَّه، فقد كان بلاء الأمويين على الأمة الإسلامية وحده نقمة كبيرة، فما بالك ببلاء آخر.

ثالثاً: حركة أهل المدينة

وقد تحدَّثنا من قبل عن حركة الفقهاء في الكوفة، وهناك نوع آخر من حركة الفقهاء في البلاد الإسلامية، اندفعوا لمقاومة الأوضاع الفاسدة، وربما كان هذا الاندفاع عفويّاً وغير مدروس، فلا يتعدَّى أن يكون ردَّ فعل على أوضاع آنية، وسرعان ما تتبدل الأوضاع فيعودون إلى سابق أمرهم. ومن جملة هذه الحركات، حركة أهل المدينة.

لما شمل الناس جور يزيد وعمَّاله وعمَّهم ظلمه، وما ظهر من فسقه من قتله ابن بنت رسول الله ﷺ وأنصاره، وشربه الخمر، وسيره سيرة فرعون، بل كان فرعون أعدل منه في رعيته، وأنصف منه لخاصته وعامته، أخرج أهل المدينة عامله

(١) حينما بيَّنا تركيبة الجيش الأموي وطبيعة أهل الشام.

(٢) تنمة المنتهى، ج ٣، ص ١٠٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج ٢٠، ص ٤٦٠. الفخري، ص ١٢٤.

عليهم، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان، مع مروان بن الحكم، وسائر بني أمية^(١)، بعد بيعتهم عبد الله بن حنظلة^(٢) غسيل الملائكة^(٣).

أسباب فشل حركة أهل المدينة

لعل أهم سبب في فشل حركة أهل المدينة، أن المدينة المنورة لم تكن موقعاً استراتيجياً محصناً يصعب دخولها. إضافة إلى خيانة بني مروان لأهل المدينة، حيث ساعدوا جيش الشام بعد أن كانوا قد عاهدوا أهل المدينة أن يقفوا على الحياد.

وهذا ما حدث فعلاً عندما قام مسلم بن عقبة (أو مسرف بن عقبة حسب ما

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٦٨-٦٩.

(٢) ابن أبي عامر، من أهل المدينة، والمعروف بالراهب، أدرك النبي ﷺ، وروى عنه ﷺ، حُصَّ الناس على يزيد وظلمه في أهل المدينة قال في (العقد الفريد، ج ٥، ص ١٣٦): «فلما كان سنة ثلاث وستين، قدم عثمان بن محمد بن أبي سفيان المدينة عاملاً عليها ليزيد بن معاوية، وأوفد على يزيد وفداً من رجال المدينة، فيهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة، ومعه ثمانية بنين، فأعطاه مائة ألف، وأعطى بنه كل رجل منهم عشرة آلاف، سوى كسوتهم وحملاتهم؛ فلما قدم عبدالله بن حنظلة المدينة، أتاه الناس فقالوا: ما وراءك؟. فقال: «يا قوم، والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن تُرمَى بالحجارة من السماء، رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، ويقتل أولاد النبيين. والله لو يكون عندي أحد من الناس لأبلى الله فيه بلاءً حسناً». فبلغ الخبر إلى يزيد فبعث إليهم مسلم بن عقبة المري في جيش كثيف من أهل الشام فأباحها ثلاثاً، وقتل ابن الغسيل والأشراف، وأقام ثلاثاً ينهب الأموال ويهتك الحرم. وعرفت هذه الواقعة بفتنة الحرّة. انظر: (تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٧، ص ٤١٨. تذكرة الخواص، ص ٢٥٩). أما حنظلة بن عامر والد (عبدالله) قتل شهيداً مع رسول الله ﷺ في يوم أحد، وهو قد خرج من زوجته ليلة زفافه بعد أن سمع منادي الجهاد، وجاء في كتب التاريخ أنه «لما انكشف المشركون ضرب فرس أبي سفيان بن حرب فوق على الأرض وصاح، وحنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن شعوب فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه، ومشى حنظلة إليه في الرمح وقد أثبتته ثم ضربه الثانية فقتله، ونجا أبو سفيان.. واستشهد حنظلة». وروى أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيت الملائكة تُغسل حنظلة بن عامر بين السماء والأرض بهاء المزن في صحاف الفضة». قال أبو أسيد الساعدي: فذهبنا إليه فإذا رأسه يقطر ماء. فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أرسل إلى امرأته فسألها، فأخبرته أنه خرج وهو جنب.

(٣) الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٥٥.

سمّاه أهل زمانه^(١) بتطويق المدينة، والسيطرة عليها، وإباحتها، ونهبها، وقتل خلق كثير من أهلها، وكان فيمن قُتل خيرة أهل المدينة وهم صحابة الرسول ﷺ.

وقال ابن كثير: «قال المدائني: وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام، يقتلون من وجدوا من الناس، ويأخذون الأموال. فأرسلت سعدى بنت عوف المريّة إلى مسلم بن عقبة تقول له: أنا بنت عمك؛ فمر أصحابك ألاّ يتعرضوا لإبلنا، بمكان كذا وكذا، فقال لأصحابه: لا تبدؤوا إلاّ بأخذ إبلها أولاً.

وجاءته امرأة فقالت: أنا مولاتك؛ وابني في الأسارى. فقال: عجلوه لها، فُضربت عنقه... ووقعوا على النساء حتى قيل: إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج... قال: سألت الزهري؛ كم كان القتلى يوم الحرّة؟.

قال: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ووجوه الموالي، ومَن لا أعرف من حر وعبد، وغيرهم عشرة آلاف..»^(٢).

ويقول ابن قتيبة: «دخل رجل من أهل الشام على امرأة نفساء من نساء الأنصار، ومعها صبيّ لها.. فأخذ برجل الصبي، والشدي في فمه، فجذبه من حجرها، فضرب به الحائط فانتثر دماغه في الأرض..»^(٣).

وبعد ان أباح مسلم بن عقبة مدينة رسول الله ﷺ لجيشه ثلاثة أيام، حيث لم يدع بين جنوده وما يشاؤون من حاجز، فقتلوا من أرادوا، واعتدوا على حرّات المسلمين، ونهبوا أموالهم، بعد ذلك أمر الناس بالبيعة ليزيد^(٤).

يقول المسعودي: «وبايع الناس على أنهم عبيدٌ ليزيد، ومن أبى ذلك أمره

(١) وفي ذلك يقول شاعر من شعراء مضر انظر: الرسائل السياسية، ص ٥٤٣:

فسائل مسرف المَرّي عنكم غداة أباح للجند العذارى

(٢) البداية والنهاية ج ٨، ص ٢٢٠-٢٢١.

(٣) الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٣٤٠.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٦، ص ٢٣٣. الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٦٠.

مُسْرِفَ عَلَى السَّيْفِ..»^(١). وقد روي عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ بُرَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ^(٢) دَخَلَ الْمَدِينَةَ وَهُوَ يُرِيدُ الْحَجَّ، فَبَعَثَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ: أَتَقَرُّ لِي أَنَّكَ عَبْدٌ لِي، إِنْ شِئْتُ بِعْتُكَ، وَإِنْ شِئْتُ اسْتَرْقَقْتُكَ؟»

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ يَا يَزِيدُ، مَا أَنْتَ بِأَكْرَمَ مِنِّي فِي قُرَيْشٍ حَسَبًا، وَلَا كَانَ أَبُوكَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَمَا أَنْتَ بِأَفْضَلَ مِنِّي فِي الدِّينِ، وَلَا بِخَيْرٍ مِنِّي، فَكَيْفَ أَقِرُّ لَكَ بِهَا سَأَلْتُ؟!.

فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ: إِنْ لَمْ تُقَرِّ لِي، وَاللَّهِ قَتَلْتُكَ.

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: لَيْسَ قَتْلُكَ إِيَّايَ بِأَعْظَمَ مِنْ قَتْلِكَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَأَمَرَ بِهِ فَقَتِلَ^(٣).

الإمام زين العابدين وحركة أهل المدينة

أما الإمام زين العابدين عليه السلام فإن مسلم بن عقبة لم يلزمه البيعة ليزيد على ما شرط على أهل المدينة^(٤). «ونظر الناس إلى علي بن الحسين السجاد عليه السلام، وقد لاذ بالقبر [قبر جده عليه السلام] وهو يدعو، فأُتِيَ به إلى مُسْرِفٍ وهو مغتاض عليه، فتهرباً منه ومن آبائه، فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد، وقام له، وأقعده إلى جانبه. وقال له: سَلِّني حوائجك، فلم يسأله عليه السلام في أحد ممن قدم إلى السيف إلا شَفَّعه فيه. ثم انصرف عنه.

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٧٠.

(٢) أو مسلم بن عقبة، حسب رأي صاحب بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٣٧، حيث قال: «ثم اعلم أن في هذا الخبر إشكالاً، وهو أن المعروف في السير أن هذا الملعون لم يأت المدينة بعد الخلافة، بل لم يخرج من الشام حتى مات، ودخل النار. فنقول: مع عدم الاعتماد على السير، لا سيما مع معارضة الخبر، يمكن أن يكون اشتبه على بعض الرواة وكان في الخبر أنه جرى ذلك بينه وبين من أرسله الملعون لأخذ البيعة وهو مسلم بن عقبة».

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٣٧.

(٤) الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٦١. مروج الذهب، ج ٣، ص ٧٠.

وقيل لمسلم: رأيناك تسبُّ هذا الغلام وسَلَفه، فلما أُنِي به إليك رفعت منزلته؟.
فقال: ما كان ذلك لرأي مني، لقد مُلِيَ قلبي منه رعباً^(١).

ماذا قدمت الحركات للأمة الإسلامية؟

يبقى سؤال أخير: ما الفائدة التي قدَّمتها هذه الحركات للأمة الإسلامية؟.
بغض النظر عن تصنيف هذه الحركات بأنها رسالية أو غير ذلك، نتساءل عن
هذه الألوف من أبناء الحركات المختلفة التي ذهبت ضحية، ما الذي حقَّقت للأمة؟.

الجواب على هذا السؤال:

إن بني أمية كانوا يُريدون أن يُحوِّلوا أبناء الأمة الإسلامية إلى مجموعة من
العبيد يعملون على خدمتهم، ألم يقل مروان بن الحكم حين خرج من عند عثمان
ليرد الجموع الثائرة التي جاءت مطالبة عثمان بالعدالة وعزل ولاته الظلمة: «جئتم
تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا!، اخرجوا عنا، أما والله لئن رمتونا ليمرن
عليكم منا أمر لا يسركم...»^(٢).

هكذا كان تفكيرهم. ولو أن هذا التفكير كان سائداً على الأمة وهي راضخة
له، لزالَت الأمة الإسلامية من الوجود، ولم يبقَ لجوهر الإسلام من ذكر.

أليس يزيد بن معاوية هو الذي تمثَّل بأبيات ابن الزبيري^(٣)، حينما وضع
رأس الإمام الحسين عليه السلام بين يديه:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَذْرِ شَهْدُوا جَزَعَ الْخَزَرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلُ

(١) مروج الذهب، ج٣، ص ٧٠-٧١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص ٣٦٢. البداية والنهاية، ج٧، ص ١٧٣.

(٣) البيتان من قصيدة أنشدها عبدالله بن الزبيري في يوم أحد، كما في: طبقات الشعراء لابن سلام، ص ٢٣٦-٢٣٨.

قَدْ قَتَلْنَا الْقَرَمَ مِنْ أَشْيَاخِهِمْ وَعَدَلْنَاهُ بِبَدْرِ فَاغْتَدَلَ^(١)

وزاد فيهما البيتين التاليين كما يقول الشعبي:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل^(٢)

لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل^(٣)

أوليس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان يقول:

تلعب بالخلافة هاشمي بلا وحي أتاه ولا كتاب

فقل لله يمنعني طعامي وقل لله يمنعني شرابي

علماً بأنه قتل بعدها بأيام^(٤).

أوليس مروان، وأبوه الحكم^(٥) بن أبي العاص، وهما ما فتئ يؤذيان رسول الله ويسخران منه ﷺ. أوليس هو -الحكم قبّحه الله- اطلع على رسول الله ﷺ في إحدى حجراته^(٦)، فخرج الرسول مغضباً، ولما عرفه، قال: «من عذيري من هذه الوزغة^(٧)»! ... ثم أخرجه من المدينة وقال ﷺ: لا يساكنني^(٨).

(١) مقاتل الطالبين، ص ١١٩.

(٢) قال الطبري في (تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٦٢٣)، معقباً على قول يزيد: «هذا هو المروق من الدين، وقول من لا يرجع إلى الله، ولا إلى دينه، ولا إلى كتابه، ولا إلى رسوله، ولا يؤمن بالله، ولا بها جاء من عند الله».

(٣) تذكرة الخواص، ص ٢٦١. الفتوح، ج ٥، ص ١٢٩.

(٤) مروج الذهب، ج ٣، ص ٢١٦. شذرات الذهب، ج ٢، ص ١١١.

(٥) توقي الحكم في خلافة عثمان قبل قتله بشهور.

(٦) قال ابن أبي الحديد في شرح النهج، ج ٦، ص ٣٠٦: «كان يتجسس على رسول الله ﷺ، وهو عند نسائه، ويسترق السمع، ويصغي إلى ما يجري هناك عما لا يجوز الاطلاع عليه، ثم يحدث به المنافقين على طريق الاستهزاء». وطالع أيضاً: الاستيعاب، ج ١، ص ٣٥٩.

(٧) الوزغة: الرجل الحارص الفشل.

(٨) أنساب الأشراف، ج ٦، ص ٦٥٥. وقال في شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ٣٠٦: «وقد طرده رسول الله ﷺ، عن المدينة، وسيره إلى الطائف، فلم يزل بها حتى ولي عثمان، فردّه إلى المدينة، فقدمها هو وولده في خلافة عثمان..».

فإلى أين وصل الحال بالأمّة الإسلامية يا ترى؟!.. حتى يصبح أمراؤها أصحاب خمر وقرود، وأصحاب عشق وإلحاد.

أوليس معاوية بن أبي سفيان قد نقض جميع عهوده التي أعطها الإمام الحسن عليه السلام وقال: «ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به»^(١).

وفي خطابه في النخيلة قال مخاطباً أهل العراق: «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون»^(٢).

ثم يكتب إلى عماله على البلدان: «ألا يُجيزوا لأحدٍ من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة». وكتب أيضاً: «انظروا مَنْ قامت عليه البيّنة أنه يحبّ عليّاً وأهل بيته فاحجّوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه...». وفي كتب أخرى كتب: «ومن اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به، واهدّموا داره»^(٣).

وقد شرّع سبّ علي عليه السلام على المنابر وأمر ولاته بذلك حتى يشبّ عليه الصغير ويشيب عليه الكبير^(٤). وكان أشد الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة، لكثرة من بها من الشيعة، فاستعمل عليهم زياد بن سمية، وضمّ إليه البصرة فكان يتبع الشيعة، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وشرّدهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، فلم يبقَ منهم بها معروف.

ونقل ابن الأثير: «فلما استخلف زياد سمرّة [بن جندب]^(٥) على البصرة أكثر

(١) مقاتل الطالبين، ص ٧٧. الغدير، ج ١١، ص ١٥.

(٢) البداية والنهاية، ج ٨، ص ١٣١. المعرفة والتاريخ، ج ٣، ص ٣١٨. الإرشاد، ج ٢، ص ١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٣٤-٣٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٣٠١.

(٥) بن هلال الفزاري [ت: ٦٠ هـ]، الراد على رسول الله ﷺ، وشريك معاوية في جرائمه، جمع أحاديث كثيرة في نسخة رواها عنه ابنه سليمان، ويحتمل أن تكون هذه النسخة هي الرسالة التي كتبها سمرّة إلى ابنه، وقال فيها ابن سيرين: «في رسالة سمرّة إلى ابنه علم كثير». مكاتيب الرسول ﷺ، ج ١، ص ٤٦١.

القتل فيها. فقال ابن سيرين: قتل سمرة في غيبة زياد هذه ثمانية آلاف. فقال له زياد: أتخاف أن تكون قتلت بريئاً؟. فقال: لو قتلت معهم مثلهم ما خشيت»^(١).

وسمرة هذا هو الذي بذل له معاوية مائة ألف درهم، حتى يروي أن هذه الآية نزلت في الإمام علي عليه السلام، وهي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(٢).

وأن آية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^(٣)، نزلت في ابن ملجم، فلم يقبل سمرة بذلك، فبذل له معاوية مائتي ألف درهم، فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل..^(٤) وقد كان سمرة على شرطة عبيد الله بن زياد يحرض الناس على الخروج لقتال الحسين عليه السلام^(٥).

وأقولها لله وللإنسانية جميعاً: لولا إرادة الله باختيار الأئمة الهداة لمُسخِ المسلمون أجمع، وهل هناك أحد غير الأئمة عليهم السلام بثّ في الأمة روحها، وربّى فقهاءها، وأنشأ الحركات، وواجه أحداثوات الفلسفات الأجنبية، وأبطل زندقة المفسدين، وجعل راية التوحيد خفاقة؟ فهم الذين بثوا الجهاد في الأمة في مواجهة انحراف بني أمية وبني العباس.

ونُعِيدُ كَرَّةَ القول: إن تلك الحركات وغيرها هي التي حافظت على مقدار من الحرية، ومقدار من الحضارة. ولو كانت الحركات أكثر لكانت الحضارة أكثر والحرية أفضل، لكن ذلك المقدار من الحرية الذي كان هو نتيجة لتضحية أولئك الرساليين، حافظ نوعاً ما على وجود الأمة واستمراريتها، وإلا فإن سفك الدماء، والقتل،

(١) الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣١٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠٤-٢٠٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٠٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٣١٣. النصائح الكافية، ص ٩٥.

(٥) شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٣١٧.

والنهب، وانتهاك الأعراض، لم يكن يترك بيتاً من بيوت المسلمين إلا ووصل إليه.
والآن، ومستقبلاً، فإن أي أمة تسكت وتترك حبال السياسة على غاربها، هذه
الأمة ليس فقط تُذل، ولكن مصيرها بلا شك هو الزوال والفساد، ولعل الهنود الحمر
في أمريكا^(١) هو مثال بسيط على ذلك، وهناك وقائع تاريخية كثيرة تؤكد هذه الحقيقة.
وإلى هنا تنتهي فترة حياة الإمام زين العابدين عليه السلام.

(١) الهنود الحمر، أو الهنود الأمريكيان، اسم يطلق على السكان الأصليين للأمريكتين، وذلك قبل
أن يكتشفها كولوموبس، وهو الذي أطلق هذا المسمى عليهم. وقد ظن خطأ أنه وصل إلى
جزر الهند الشرقية عندما اكتشف العالم الجديد. والهنود الحمر هم أول من زرع التبغ، وأول من
زرع الكاكاو الذي يصنع منه الشوكولاتة. دخل الهنود الحمر والحكومة الأمريكية صراع دام
أربعمئة عام، ففي القرن التاسع عشر الميلادي واجه الهنود الحمر تدفق الملايين من الأسبان،
طمعاً في الاستيلاء على أراضيهم والاستفادة من خيراتها، وينقل لنا التاريخ الأمريكي أن
الحكومة الأمريكية لها اليد الطولى في دعم هذا الاستيطان، طمعاً في إبادة الأمريكيين الأصليين
(الهنود الحمر). وقد حمل هذا الاستيطان معه إلى أراضي الهنود الحمر الأمراض والأوبئة، حال
دون مواجهة الحرب والصراعات القبلية التي أججها هذا الاستيطان، حيث اضطر المحاربون
من الهنود -دفاعاً منهم عن أراضيهم- إلى التراجع والاستسلام بسبب الإدمان على الشراب.
وفي العام ١٨٩٠م، نهضت روح المقاومة لدى الهنود الحمر، بسبب الحركة الدينية التي عرفت
بـ(رقصة الشبح)، فأعدت القوة القتالية والروحية التي تميز بها الهنود الحمر، لكن الحكومة
الأمريكية عدت هذه المقاومة بمنزلة التمرد، واعتقلت الحكومة زعيم الحركة، مما أدى إلى
اندلاع معركة ضارية راح ضحيتها من الهنود قرابة ٣٧٠ هندياً، بمن فيهم الزعيم بيج فوت.
وفي العام نفسه دعت الحكومة الأمريكية لنزع السلاح. وأقامت مخيمات وطلبت منهم
الاستسلام وتسليم أسلحتهم، وما لبث الأمر أن دارت معركة شرسة بينهم وبين الجنود من
الحكومة. ومع ضغوط الحكومة على الهنود، وعلى مر السنين استسلم الهنود لهذه الإبادة التي
قضت على الروح المعنوية والمادية والحضارية لهم، فعاشوا في جو القهر الوحشي المستمر عليهم
من قبل الحكومة الأمريكية، وإلى الآن حيث تصوّر الثقافة الأمريكية الهنود الحمر قتلة
ووحشين ومناهضين للحضارة الإنسانية. انظر: المسيحية والسيوف.. وثائق إبادة هنود القارة
الأمريكية (رواية شاهد عيان)، تأليف: المطران كازاس. فتح أمريكا. مسألة الآخر، للكاتب
البلغاري ترفيتان تودوروف. الولايات المتحدة الأمريكية، لشادي عبد السلام. أمريكا والإبادة
الثقافية، منير العكش.

— ﴿ صَفْوُ الْكَلَامِ ﴾ —

* بسبب الخلافات الداخلية الواسعة في زمن عبد الملك بن مروان، أصبحت الدولة الإسلامية أشلاء شتى وكانت الاضطراب السياسية تعم كل مكان. لذا برزت حركات عديدة ناشئة تسعى لتقويض الوضع القائم، كان من أبرزها:

ألف: حركة الخوارج، وقد تطوّرت بقايا هذه الفئة إلى حزب نشط شكل المعارضة الساخنة ضد الأمويين، والحزب الأقوى بعد الحركة الرسالية.

بناء: حركة الزبيريين، وسقطت بعد ٩ سنوات بسبب استبداد وديكتاتورية عبد الله، فقد كان مضطرب الرأي، شديد البخل، سيئ التدبير، صلف المعاملة. ورغم تمزق الوضع الإسلامي، إلا أن حاميات الجيش الأموي في الشام التي حافظت على ولائها لبني أمية دحرت عبد الله بن الزبير وقضت على حركته.

جيم: حركة أهل المدينة (أو واقعة الحرة)، حيث تحرك الفقهاء والصحابة والتابعون في المدينة ضد بني أمية لما رأوا ظلم يزيد وجوره وفسقه وانحرافه وقتله ابن بنت رسول الله. ولكنها كانت حركة عفوية غير مخططة، سرعان ما قضى عليها جيش الشام إلى جانب خيانة بني مروان.





الباب الثاني، مسيرة الحركة الرسالية في العهد الأموي

الفصل الرابع، الحركة الرسالية في عهد الإمامين الصادقين عليهما السلام

الحركة الزيدية.. مُنْطَلَقَاتُهَا وَأَهْدَافُهَا
الحركة الرسالية بين زيد والإمامين الصادقين عليهما السلام
أبناء زيد وامتداد الحركة الزيدية في التاريخ
سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية



١٩ الحركة الزيدية.. مُطلقاً وأهدافها

استشهد الإمام زين العابدين عليه السلام^(١) في المدينة المنورة وشاع النبا، وغطت العالم الإسلامي سحابة حزن عميق، وأصبح الإمام الباقر عليه السلام إماماً شرعياً للأمة الإسلامية من بعد والده، وفي عهده وقعت أحداث ثورة زيد بن علي بن الحسين التي أحدثت في الحركة الرسالية تياراً جديداً هو تيار الزيدية.

فالزيدية حركة تُشبه، في رفضها للأنظمة وعدم مهادنتها لها، أكثر الحركات الإسلامية، ولكنها كانت أكثر تنظيماً ووعياً من باقي الحركات، لذلك فإن الحركات الأخرى انتهت قبل أن تنتهي الحركة الزيدية بوقت غير قليل.

وحركة الزيدية حكمت بلاداً كثيرة في العالم^(٢)، وآخر تلك البلاد اليمن، وآخر من حكم بلاد اليمن من الزيدية -أو بالأحرى باسم الزيدية- هو الإمام سيف الإسلام البدر الذي تنحى عن السلطة بعد انقلاب عسكري قاده ضده عبدالله السلال^(٣).

(١) على يد الوليد بن عبد الملك، دسّ إليه السم عن طريق عامله على يثرب، وذلك عام ٩٥ هـ. ومن المؤرخين من يقول: إن هشام بن عبد الملك هو الذي دسّ السم إلى الإمام عليه السلام، وكان في ملك الوليد بن عبد الملك. راجع بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٥٢-١٥٣.

(٢) للوقوف على الحركة الزيدية ودولهم راجع بحوث في الملل والنحل، ج ٧، للمحقق السبحاني.

(٣) الإمام محمد البدر بن حميد الدين، توفي الإمام البدر في عام ١٩٩٦ م، بلندن ودفن في المدينة المنورة. هو آخر حكام المملكة المتوكلية في اليمن. التي حكمت اليمن من مطلع القرن الرابع

ماذا فعل زيد بن علي؟ وكيف تحوّلت حركته إلى تيار اجتماعي؟.

يجب أن نتساءل عن ذلك ليس باعتبارنا مؤرخين فقط، ولكن باعتبارنا نؤمن بالخط الرسالي، لذا علينا أن نعرف ما العلاقة بين حركة زيد بن علي والتيار الرسالي الأصيل في التاريخ؟ وهل الرساليون كانوا يدعمون حركة زيد أم لا؟.

زيد يخطط لحركته الرسالية

يبدو أن زيداً -وحسب تعبير المؤرخين (الإمام زيد)- بقي يخطط طويلاً لحركته، وهذا ما أظنه شخصياً، بيد أن مجموعة من المؤرخين يزعمون أن زيداً قام بحركته عفويّاً، وأصابته هفوة وزلة^(١)، وبدوافع شخصية وآنية أيضاً، لكن هذا ما أخطئه، أما السبب في ذلك فهو عند الإحاطة بهذه النظرية نجد أن زيد بن علي كان يتّصل بكافة الأحزاب السياسية التي كانت موجودة داخل الأمة الإسلامية حينها، فقد اتّصل بالخوارج والمعتزلة والمرجئة^(٢)، وهذه الاتصالات ليس كما يزعم بعض المؤرخين أنه كان يأخذ من المرجئة أو من المعتزلة أو حتى من الخوارج أفكارهم^(٣)، وأن اتّصاله بهؤلاء كان اتصال الآخذ وليس اتصال المعطي، واتصال المستوحي والتلميذ.

عشر الهجري وحتى عام ١٣٨٣ هـ، وأول حاكم لها كان الإمام يحيى حميد الدين، وكان نظام الحكم فيها إسلامي يتبع المذهب الزيدي المنتشر في اليمن الشمالي، والحاكمة فيه، ودخلت الدولة المتوكلية في معارك ضد الاستعمار الإنجليزي في الجنوب اليمني. في عام ١٩٦٢م أطيح بالإمام محمد البدر، على يد عبدالله السلال [١٩١٧-١٩٩٤م]، الذي كان قائداً للحرس الملكي بعد توليه السلطة خلفاً للإمام أحمد يحيى حميد الدين، ويعتبر عبدالله السلال أول رئيس للجمهورية اليمنية في الفترة ١٩٦٢-١٩٦٧م. (نقلاً عن موقع: ويكيبيديا)، وأنظر أيضاً: موقع رئاسة الجمهورية - المركز الوطني للمعلومات. www.yemen-nic.info.

(١) قال الذهبي: «بدت منه هفوة فاستشهد». تاريخ الإسلام، ج ٨، ص ١٠٥.

(٢) أنظر: الانتفاضات الشيعية، ص ٣٦٥.

(٣) من الذين ذهبوا إلى هذه المغالطة الشهرستاني في الملل والنحل، ولقد تعرّض المحقق الشيخ جعفر السبحاني لهذه التّهم والمغالطات مناقشةً وتفنيداً في كتابه الخاص بالزيدية، ضمن موسوعة بحوث في الملل والنحل، ج ٧. فراجع.

ولكن هل يمكن هذا وأبوه الإمام علي بن الحسين عليه السلام وبيتهم بيت الثورة؟
وقد كانت القيادة الروحية للأمة الإسلامية في كافة العصور لأهل البيت عليهم السلام.

روى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة أنه قال: «ما قاتل أحد علياً إلا وعليٌّ أولى بالحقِّ مِنْهُ، ولولا ما سار عليٌّ فيهم، ما علم أحدٌ كيف السَّيرةُ في المُسلمين»^(١).

هكذا كانت قلوب الأمة مع أهل البيت عليهم السلام، وهم القادة الحقيقيون لها، فكيف يمكن لزيد بن علي أن يأخذ الفكر والأيدولوجية من هذا وذاك؟!.

من هنا اعتقد أن اتصال زيد بالأحزاب والجهات كان اتصال تخطيط تم بخطة مسبقة، إلا أن بعض الأحداث قد تستعجل الإنسان في القيام بخطته قبل أن تكتمل شروطها.

الظروف تستعجل زيدا

هناك حادثة استعجلت حركة زيد. فلقد ولّى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك^(٢) على المدينة المنورة رجلاً متعصباً وعنيفاً^(٣)، اتخذ طريق العنف ضد أهل البيت ومنهم زيد بن علي، ففكر زيد بأن أفضل طريقة لحل المشكلة هو الذهاب إلى الشام وإتمام الحجة على هشام.

وعندما وصل زيد إلى الشام لم يأذن هشام له بالدخول عليه، وهو يريد بذلك

(١) مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة، ج ٢، ص ٨٣.

(٢) ابن مروان [٧١-١٢٥هـ]، من ملوك الدولة الأموية في الشام. وصفه يعقوبي (ج ٢، ص ٣٢٨) فقال: «كان هشام من أحزم بني أمية وأرجلهم، وكان بخيلاً، حسوداً، فظاً، غليظاً، ظلوماً، شديد القسوة، بعيد الرحمة، طويل اللسان». ولذا قيل عنه: جمع من المال ما لم يجمعه خليفة قبله. كان شديد البغض للعلويين، هو الذي قتل الشهيد زيد بن علي، كما تعرّض الإمام الباقر عليه السلام في عهده إلى ضروب من المحن والآلام. راجع: حياة الإمام الباقر.. دراسة تحليلية ج ٢، ص ٥٩.

(٣) كان الوالي في حينها، إبراهيم بن هشام، ثم عزله هشام وولي المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم. تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٩٠.

إذلاله وثنيه عمّا جاء من أجله^(١)، فيرجع من حيث أتى. إلّا أن الهدف الذي ذهب زيد من أجله إلى الشام جعله يصبر ويتنظر ويكرّر محاولة لقاء هشام المرة تلو الأخرى^(٢).

وفي هذا كثير من الإهانة بالنسبة إلى رجل بمستوى زيد بن علي، وهو أنّذ يعتبر شيخ العلويين وعمره (٤٢ عاماً) قضاها في الزهد والعبادة، وكان حينها يقرأ القرآن يبكي، وإذا قرئ القرآن أمامه يبكي، وكان معطاءً، فقد أعطى أمواله في سبيل الله مرات عديدة. فكان يُسمّى بحليف القرآن^(٣)، وحليف المسجد^(٤)، وذو الثفتان^(٥)، كما كان يُسمّى أبوه من قبله. وكان عارفاً وعالمًا وصدوقاً^(٦). وقد ألف كتباً^(٧). فهناك كتب تُنسب إلى زيد يعتمد عليها الزيدية إلى الآن^(٨).

فالرجل لم يكن شخصاً عادياً، والإهانة التي وُجّهت إليه كانت كبيرة، حيث مُنِع ولمدة أربعين يوماً من الدخول على هشام، ولكنه بإصراره دخل على هشام، وكان هشام يحمل حقداً شخصياً تجاه الإمام علي بن الحسين عليه السلام وتجاه أولاده.

وقصه هشام معروفة حينما كان ولياً للعهد عندما جاء إلى مكة المكرمة ورأى ازدحام الناس حول البيت، فلم يقدر على استلام الحجر، بينما فُتح الطريق للإمام زين العابدين عليه السلام وجاء الفرزدق وأنشد أبياته المعروفة، هذه القصة التي ذهبت

(١) قصد زيد الشام للقاء هشام من أجل أن يرفع إليه شكاياته على ولاته وسوء معاملتهم له ولأهل المدينة. فلما علم هشام قصد زيد من لقائه، تعمّد التهرب منه بقصد الإذلال. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٢٣٢. زيد الشهيد، العلامة المرقم، ص ١٠٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ج ١٩، ص ٤٧١.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٨٦.

(٤) كفاية الأثر، ص ٣٠٦-٣٠٧.

(٥) مقاتل الطالبين، ص ١٢٦.

(٦) رجال الكشي، ص ٣٥٣.

(٧) مستدركات علم رجال الحديث، ج ٣، ص ٤٨٠. فهرس التراث، ج ١، ص ١٢٩.

(٨) بحوث في الملل والنحل، ج ٧، ص ١١٩.

مثلاً وثورة ضد الطاغوت^(١)، لذلك فهو أصبح يحمل حقداً شخصياً تجاه هذه الأسرة، ولهذا السبب لم يفسح المجال لزيد، فجاء زيد ورأى كل المقاعد مملوءة، فجلس حيث ينتهي به المجلس، ولكن زيدا - وهو الرجل الشجاع الذي اكتسب الشجاعة من أجداده ومن ممارساته في الحياة - وجه خطابه إلى هشام، وقال: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أَحَدٌ فَوْقَ أَنْ يُوصَى بِتَقْوَى اللَّهِ، وَلَا مِنْ عِبَادِهِ أَحَدٌ دُونَ أَنْ يُوصَى بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَنَا أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاتَّقِهِ.

فَقَالَ لَهُ هِشَامُ: أَنْتَ الْمُؤَهَّلُ نَفْسَكَ لِلْخِلَافَةِ الرَّاجِي لَهَا، وَمَا أَنْتَ وَذَلِكَ لَا أُمَّ لَكَ، وَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ أُمَّةٍ.

فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْظَمَ مَنَزَلَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ نَبِيِّ بَعَثَهُ، وَهُوَ ابْنُ أُمَّةٍ، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ يَقْصُرُ عَنْ مُنْتَهَى غَايَةِ لَمْ يُبْعَثْ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالْنبُوءَةُ أَعْظَمُ مَنَزَلَةٍ عِنْدَ اللَّهِ أَمَ الْخِلَافَةُ يَا هِشَامُ؟، وَبَعْدُ فَمَا يَقْصُرُ بِرَجُلٍ أَبُوهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢).

(١) جاء في بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٢٥: «حَجَّ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَلَمَّ يَقْدِرْ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنَ الزَّحَامِ، فَضُيَّبَ لَهُ مَنَبَرٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ وَأَطَافَ بِهِ أَهْلُ الشَّامِ، فَبَيَّنَّا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ عَلَيَّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَلَيْهِ إِزَارٌ وَرِدَاءٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا وَأَطْيَبِهِمْ رَائِحَةً، بَيْنَ عَيْنَيْهِ سَجْدَةٌ، كَأَنَّهَا رُكْبَةٌ عِزٍّ، فَجَعَلَ يَطُوفُ فَإِذَا بَلَغَ إِلَى مَوْضِعِ الْحَجَرِ تَنَحَّى النَّاسُ حَتَّى يَسْتَلِمَهُ هَيْبَةً لَهُ. فَقَالَ شَامِيٌّ: مَنْ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: لَا أَعْرِفُهُ، لَيْتَ لَا يَرِغَبُ فِيهِ أَهْلُ الشَّامِ! فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ، وَكَانَ حَاضِرًا: لَكِنِّي أَنَا أَعْرِفُهُ. فَقَالَ الشَّامِيٌّ: مَنْ هُوَ يَا أَبَا فِرَاسٍ؟ فَأَنْشَأَ قَصِيدَةً:

يَا سَائِلِي أَيْنَ حَلَّ الْجُودُ وَالْكَرَمُ عِنْدِي بَيَانٌ إِذَا طَلَبُهُ قَدُمُوا
هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءَ وَطَائِفَهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْجِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
فَغَضِبَ هِشَامٌ وَمَنَعَ جَائِزَتَهُ، وَقَالَ: أَلَا قُلْتَ فِينَا مِثْلَهَا! قَالَ: هَاتِ جَدًّا كَجَدِّهِ، وَأَبَا كَأَبِيهِ، وَأُمًّا كَأُمِّهِ حَتَّى أَقُولَ فِيكُمْ مِثْلَهَا. فَحَبَسُوهُ بِعُسْفَانَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِأَتْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَقَالَ: أَعُذَرْنَا يَا أَبَا فِرَاسٍ، فَلَوْ كَانَ عِنْدَنَا أَكْثَرُ مِنْ هَذَا لَوَصَلْنَاكَ بِهِ قَرْدَهَا. وَقَالَ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا قُلْتُ الَّذِي قُلْتُ إِلَّا غَضَبًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَمَا كُنْتُ لِأَرْزَأَ عَلَيْهِ شَيْئًا. قَرَدَهَا إِلَيْهِ، وَقَالَ: بِحَقِّي عَلَيْكَ لَمَّا قَبِلْتَهَا، فَقَدْ رَأَى اللَّهُ مَكَانَكَ، وَعَلِمَ نِيَّتَكَ فَقَبِلَهَا...».

(٢) مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٠٧. وفي: شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢١٠. باختلاف يسير.

فَوُتِبَ هِشَامٌ مِنْ مَجْلِسِهِ وَدَعَا قَهْرَمَانَهُ وَقَالَ: لَا يَبِيتَنَّ هَذَا فِي عَسْكَرِي^(١).
فَخَرَجَ زَيْدٌ وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يَكْرَهُ قَوْمٌ قَطُّ حَرَّ السَّيْفِ إِلَّا ذُلُّوا^(٢).

ولم يقتصر هشام على إذلال زيد بهذه العملية، وإنما ادّعى أن أحد ولاته المعزولين، وهو خالد بن عبد الله القري، له في ذمة زيد ومحمد بن علي مال، ولأن خالدًا كان مسجونًا فكان على زيد أن يذهب إليه في الكوفة ويمثل أمام القضاء هناك.

قال هشام: «فإننا باعثون بكم إليه يجمع بينكم وبينه»^(٣).

أي إنه يريد إبعث زيد ومحمد بن عمر بن علي إلى الوالي المعزول الذي يطالبهم بالمال حسب زعم هشام. وقد كان السبب في عزل هذا الوالي هو أن الخلفاء الأمويين كانت لهم عادة خاصة، فكل خليفة يعزل الولاية السابقين وينصب ولاية من أصحابه وأزلامه، وربما يُنكّل بالولاية السابقين، كما نكّل سليمان بن عبد الملك بأولاد الحجاج وأقاربه باعتباره كان واليًا من قبل أخيه.

فالوالي السابق^(٤) أخذ وغُلّ في السجن وعذّبوه وطلبوا منه أن يدّعي على

(١) لما دخل زيد على هشام قال له: «فما يصنع أخوك البقرة؟». فغضب زيد، حتى كاد يخرج من إهابه، ثم قال: سمّاه رسول الله ﷺ البقرة، وتسميه أنت البقرة؟. لشدّ ما اختلفتما!، لتخالفته في الآخرة كما خالفته في الدنيا. فبرد الجنة، وترد النار. فقال هشام: خذوا بيد هذا الأحمق المائق فأخرجوه...». شرح النهج، ج ٣، ص ٢١٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٨٦. وفي: الإرشاد، ج ٢، ص ١٧٣. مسند الإمام الشهيد رحمه الله، العطاردي، ج ٣، ص ٣٥٤. تيسير المطالب في أمالي أبي طالب، ص ١٦٢: «إِنَّهُ لَمْ يَكْرَهُ قَوْمٌ قَطُّ حَرَّ السَّيْفِ إِلَّا ذُلُّوا».

(٣) تاريخ الطبري، ج ٧، ص ١٦١. مقاتل الطالبين، ص ١٣٠. المنتظم، ج ٧، ص ٢٠٨.

(٤) خالد القسري، عزله هشام، وولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وكانت بينهم عداوة وبغضاء، اتهمه يوسف باختلاس أموال الدولة، وعذّبه عذابًا شديدًا، وبإيعاز من السلطة اتهم القسري زيد بن علي، وقيل على لسانه بأنه أودع عند زيد ستمائة ألف درهم. طالع: الشهيد الخالد زيد بن علي، للقرشي، ص ٢٤٠. و: زيد الشهيد، للمقرم، ص ١١٦.

زيد بن علي مالا، وأن يقول: إن له أمانة عند زيد بن علي وخانها فيه، حتى تُلوَّث بهذه الطريقة سمعة زيد.

وتحت التعذيب وافق هذا الوالي على ذلك، وادّعى عند جماعة قائلًا: إني أطلب زيد مالا... ولكن زيدًا قال: ما لخالد عندي شيء.

فقال هشام: فلا بد من أن تشخص إلى يوسف بن عمر حتى يجمع بينك وبين خالد^(١).

وهكذا أجبروا زيدًا على الرواح إلى الكوفة عند الوالي الجديد يوسف بن عمر، فجيء بالوالي القديم المعزول وعليه حديد ثقيل، فقال له يوسف: هذا زيد بن علي، فاذكر ما لك عنده!

فقال: والله الذي لا إله إلا هو مالي عنده قليل ولا كثير، ولا أردتم بإحضاره إلا ظلمه. فانقلبت الآية على بني أمية. فأقبل يوسف على زيد، وقال له: إن أمير المؤمنين أمرني أن أخرجك من الكوفة ساعة قدومك.

قال زيد: فأستريح ثلاثًا، ثم أخرج.

قال: ما إلى ذلك سبيل.

قال: فيومي هذا.

قال: ولا ساعة واحدة.

فأجبر على الخروج، ومشى معه سرية من الحرس حتى يأخذه إلى خارج الكوفة^(١).

زيد يتخذ من الكوفة منطلقاً لثورته

ولكن زيدًا وبذكاء وحكمة، لما رجع الجنود الذين رافقوه، وبعد مضي يوم

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٢٥-٣٢٦.

رجع إلى الكوفة مرة ثانية خفية واتصل بجماعته^(١)، وأرسل بعض أفرادهِ إلى المدائن، والبصرة، وخراسان، وأهل المدينة^(٢). ولكي نتعرف إلى أهداف حركة زيد بن علي عليه السلام، نستعرض هنا إحدى خطبه التي ألقاها على أنصاره قبيل انطلاق حركته، حيث جاء فيها: «.. أَذْكُرْكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ لِدَعْوَتِهِ ﷺ - الْمُتَفَهِّمُونَ مَقَالَاتَنَا - بِاللَّهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَمْ يَذْكُرِ الْمَذْكُورُونَ بِمِثْلِهِ، إِذَا ذَكَرْتُمُوهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُكُمْ، وَاقْشَعَرَّتْ لِدَلِيلِكُمْ جُلُودُكُمْ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّا وَلَدُ نَبِيِّكُمُ الْمَطْلُومُونَ الْمُفْهُورُونَ، فَلَا سَهْمٌ وَفِينَا، وَلَا تَرَاثُ أُعْطِينَا، وَمَا زَالَتْ بَيُوتُنَا تُهْدَمُ، وَحَرَمَتُنَا تُنْتَهَكُ، وَقَائِلُنَا يُعْرَفُ، يُولَدُ مَوْلُودُنَا فِي الْخَوْفِ، وَيَنْشَأُ نَاشِئُنَا بِالْقَهْرِ، وَيَمُوتُ مَيِّتُنَا بِالذَّلِّ.

وَيُحْكَمُ؛ إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ جِهَادَ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ مِنْ أَمْتِكُمْ عَلَى بَعْغِهِمْ، وَفَرَضَ نُصْرَةَ أَوْلِيَائِهِ الدَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى كِتَابِهِ، قَالَ: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وَيُحْكَمُ؛ إِنَّا قَوْمٌ غَضِبْنَا اللَّهُ رَبَّنَا، وَنَقِمْنَا الْجُورَ الْمُعْمُولَ بِهِ فِي أَهْلِ مِلَّتِنَا، وَوَضَعْنَا مِنْ تَوَارِثِ الْإِمَامَةِ وَالْخِلَافَةِ. وَيُحْكَمُ [حَكَمَ] بِالْهَوَاءِ وَنَقَضَ الْعَهْدَ وَصَلَّى الصَّلَاةَ لِغَيْرِ وَقْتِهَا وَأَخَذَ الزَّكَاةَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا، وَدَفَعَهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا، وَنَسَكَ الْمَنَاسِكَ بِغَيْرِ هَدْيِهَا، وَأَزَالَ الْأَفْيَاءَ، وَالْأَخْسَاسَ، وَالْغَنَائِمَ، وَمَنَعَهَا الْفُقَرَاءَ، وَالْمَسَاكِينَ، وَابْنَ السَّبِيلِ، وَعَطَلَ الْحُدُودَ، وَأَخَذَ بِهَا الْجَزِيلَ، وَحَكَمَ بِالرُّشَا، وَالشَّفَاعَاتِ، وَالْمَنَازِلِ، وَقَرَّبَ الْفَاسِقِينَ، وَمَثَلَ بِالصَّالِحِينَ، وَاسْتَعْمَلَ الْخِيَانَةَ، وَخَوَّنَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ، وَسَلَطَ الْمَجُوسَ، وَجَهَّزَ الْجِيُوشَ، وَخَلَدَ فِي الْمَحَاسِيسِ، وَجَلَدَ الْمُبِينِ!! وَقَتَلَ الْوَالِدَ، وَأَمَرَ بِالْمُنْكَرِ، وَتَهَى عَنِ الْمَعْرُوفِ، بِغَيْرِ مَأْخُودٍ عَنِ كِتَابِ اللَّهِ، وَلَا سُنَّةِ نَبِيِّهِ. ثُمَّ يَزْعُمُ

(١) اختلفت المصادر التاريخية في عدد المبايعين لزيد، قال في الفخري، ص ١٣٢: «خمسَ عشر ألفاً من أهل الكوفة»، ومثله تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ١٢٣، لكنه قال: وقيل: «أربعون». وأضاف في أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٢٣٧: «ويقال: اثنا عشر ألفاً من أهل الكوفة». كما ذكرت جملة من المصادر أسماء عدد من الذين بايعوا زيداً، وللإفادة يمكن الرجوع إليها منها: الروض النضير، ج ١، للسياسي. وبحوث في الملل والنحل، ج ٧. والشهيد الخالد زيد بن علي، للقرشي.
(٢) الفخري، ص ١٣٢. مقاتل الطالبيين، ص ١٤٢. أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٢٣٧.

زَاعِمُكُمْ أَنَّ اللَّهَ اسْتَخْلَفَهُ، يَحْكُمُ بِخِلَافِهِ، وَيَصُدُّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَيَتَنَهَكُ مُحَارَمَهُ، وَيَقْتُلُ مَنْ دَعَا إِلَى أَمْرِهِ، فَمَنْ أَشَرُّ عِنْدَ اللَّهِ مَنَزَلَةً مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أَوْ صَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ، أَوْ بَغَاهُ عَوَجًا، وَمَنْ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ أَجْرًا مِمَّنْ أَطَاعَهُ، وَأَذَنَ بِأَمْرِهِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، وَسَارَعَ فِي الْجِهَادِ، وَمَنْ أَحَقُّ عِنْدَ اللَّهِ مَنَزَلَةً، مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنْ يَغَيِّرَ ذَلِكَ يَمْنٌ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَتْرُكُ ذَلِكَ اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِ وَتَهَاوُنًا فِي أَمْرِ اللَّهِ، وَإِثَارًا لِلدُّنْيَا، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١)»^(٢).

وكما ذكرنا سابقاً: إن زيدا كان مخططاً لثورته، ومن ذلك اتصالاته مع جماعات شتى من أرجاء البلاد الإسلامية^(٣) من سائر الحركات الإسلامية، ويدل عليه قول هشام: «أَنْتَ الْمُؤَهَّلُ نَفْسَكَ لِلْخِلَافَةِ الرَّاجِي لَهَا...»^(٤). حيث يثبت أن زيدا كان يخطط لثورته. ثم إن هذه المسرحية التي لعبها النظام مع زيد تدل على أنه كان يخطط لعمله منذ عهد بعيد.

انطلاق الثورة

بعد أن جعل زيد ساعة الصفر للثورة ليلة أول صفر ١٢٢ هـ^(٥)، وكانت خطته أن يقوم الثوار في موعد واحد في كل من البصرة والمدائن والكوفة، وتزحف الجيوش على الكوفة وتستولي عليها، ثم تزحف على الشام.

لكن يبدو أن أهل الكوفة كانوا ضعاف النفوس، وأن عيون بني أمية كانت تراقبهم.

(١) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) كتب زيد إلى أهل الآفاق كتباً يصف فيها جور بني أمية وسوء سيرتهم ويحضهم على الجهاد، ويدعوهم إليه، وقال: «لا تقولوا: خرجنا غضباً لكم، ولكن قولوا: خرجنا غضباً لله ودينه».

أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٢٣٨.

(٤) مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٠٧.

(٥) عيون أخبار الرضا، ص ٢٥٢، وفيه: «قد خرج يوم الأربعاء غرة صفر، فمكث الأربعاء والخميس وقتل يوم الجمعة». تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، أحداث سنة ١٢٢ هـ.

الوالي يعلن الاستنفار

ولقد سعى رجلٌ من أتباع بني أمية وكتب - فيما ذكر - إلى هشام، يذكر له أمر زيد، فكتب هشام إلى يوسف (بن عمر عامله في العراق) يشتمه ويجهله، ويقول: «إنك لغافل، وزيد غارز ذنبه بالكوفة يبايع له فالحج في طلبه، فأعطه الأمان فإن لم يقبل فقاتلة»^(١).

فأعلن الوالي الاستنفار العام في جيشه، وأرسل إلى جيش الشام للاستعداد، وجمع الناس في المسجد، وأغلق الأبواب عليهم، حتى لا تستطيع جماعة زيد القيام بالثورة.

يقول الطبري في تاريخه: «بعث (يوسف بن عمر) إلى الحكم بن الصلت، فأمره أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم يحصرهم فيه، فبعث الحكم إلى العرفاء والشرط والمناكب والمقاتلة، فأدخلهم المسجد، ثم نادى مناديه: ألا إن الأمير يقول: من أدركناه في رحله فقد برئت منه الذمة، ادخلوا المسجد الأعظم. فأتى الناس المسجد يوم الثلاثاء قبل خروج زيد بيوم، وطلبوا زيدا في دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري، فخرج ليلاً، وذلك ليلة الأربعاء، في ليلة شديدة البرد، من دار معاوية بن إسحاق..»^(٢).

ولما خرج في ٢٣ محرم كان أنصاره في المدائن والبصرة والحيرة وغيرها ينتظرون ساعة الصفر، فإذا بهم يسمعون بأن زيدا قد خرج واستشهد.

خرج زيد بن علي في الكوفة وقاتل في منطقة واسعة، كان في جانب منها جيش الشام والقبائل التي تؤيد الشام، وفي الجانب الآخر كانت القبائل التي تؤيد الخط الرسالي، وكانت هناك منطقة قاحلة تُسمى (كنانة) وأخذ يحاربهم. وقد فوجئ

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ١٨٨. البداية والنهاية، ج ٩، ص ٣٣١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ١٨١-١٨٢. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ١٢٤. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٢٤٣. مقاتل الطالبين، ص ١٣٢.

بأن الذين وعدوه بالنصرة كانوا أربعة آلاف، بينما الذين يقاتلون معه لا يتجاوزون الخمسمائة^(١): «وأصبح زيد بن علي، فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتي رجل، وثمانية عشر رجلاً. فقال زيد: سبحان الله!. أين الناس؟. فقليل له: هم في المسجد الأعظم محصورون. فقال: لا والله ما هذا لمن بايعنا بعذر»^(٢).

المهم.. إنَّ الوالي أغلق أبواب المسجد على الناس ووضع سرية حول المسجد فهزمها زيد ووصلت طليعة جيشه إلى المسجد فرأته مغلقاً، فصعدوا على جدار المسجد وصاحوا بأعلى أصواتهم: «يا أهل المسجد، اخرجوا. وجعل نصر بن خزيمة يناديهم، ويقول: يا أهل الكوفة، اخرجوا من الذل إلى العز، اخرجوا إلى الدين والدنيا، فإنكم لستم في دين ولا دنيا»^(٣). ولكنهم لم يحركوا ساكناً.

وحيت المعركة بين جيش زيد والجيش الأموي، ودخلت حاميات جيش الشام في المعركة «وخرج زيد في أصحابه، وعلى مجنبيه نصر بن خزيمة العبسي ومعاوية بن إسحاق الأنصاري، فلما رأهم العباس - ولم يكن معه رجال - نادى: يا أهل الشام، الأرض والأرض! فنزل ناس كثير ممن معه، فاقتتلوا قتالاً شديداً في المعركة.

وقد كان رجل من أهل الشام من بني عبس، يقال له: نائل بن فروة، قال ليوسف بن عمر: والله لئن أنا ملأت عيني من نصر بن خزيمة لأقتلنه أو ليقتلني.. فلما التقى أصحاب العباس بن سعيد وأصحاب زيد واقتتلوا، بصر نائل بن فروة بنصر بن خزيمة، فأقبل نحوه، فضرب نصرًا، فقطع فخذه، وضربه نصر ضربة فقتله، فلم يلبث نصر أن مات، واقتتلوا قتالاً شديداً.

(١) وقد ذكر بعض أهل الكوفة أنه اجتمع إلى زيد أربعة آلاف فلم يصبح إلا وهو في ثلاثمائة أو أقل منها!. أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٤٤. وفي مقاتل الطالبين، ص١٣٦: «قال سعيد بن خيثم: وكنا مع زيد في خمسمائة، وأهل الشام اثنا عشر ألفاً».

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص١٨٣. مقاتل الطالبين، ص١٣٤.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص١٨٥. أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٤٧. الفتوح، ج٨، ص٢٩١. الكامل في التاريخ، ج٥، ص٢٤٥. مقاتل الطالبين، ص١٣٥.

ثم إن زيد بن علي هزمهم وقتل من أهل الشام نحوًا من سبعين رجلًا، فانصرفوا وهم بشرّ حالٍ، وقد كان العباس بن سعيد نادى في أصحابه أن اركبوا، فإن الخيل لا تطيق الرجال في المضيق فركبوا، فلما كان العشى عبّاهم يوسف بن عمر ثم سرحهم، فأقبلوا حتى التقواهم وأصحاب زيد، فحمل عليهم زيد في أصحابه فكشفهم، ثم تبعهم حتى أخرجهم إلى السبخة، ثم شدّ عليهم بالسبخة حتى أخرجهم إلى بني سليم، ثم تبعهم في خيله ورجاله، حتى أخذوا على المسناة. ثم إن زيدًا ظهر لهم فيما بين بارق ورؤاس، فقاتلهم هنالك قتالًا شديدًا^(١).

وربما كانت المعركة تطول أكثر لولا أن الوالي فكّر في طريقة معينة، لقد فكر أن زيدًا وجماعته شجعان بالرغم من أنهم فرقة قليلة، وإذا حاربوا بالسيوف فإنهم سيبيدون جيش الشام في الكوفة، فأمر جماعته أن يحاربوهم بالنبال، والسبب أن صاحب النبل بعيد، ويستطيع أن يضرب بشكل أكبر وبخسارة أقل، فبالتالي الكثرة تغلب الشجاعة، كما جاء في المثل.

«فبعث العباس إلى يوسف بن عمر يعلمه ذلك، فقال له: إبعث إليّ الناشبة. فبعث إليهم سليمان بن كيسان الكلبي في القيقانية والبخارية، وهم ناشبة، فجعلوا يرمون زيدًا وأصحابه، وكان زيد حريصًا على أن يصرفهم حين انتهوا إلى السبخة، فأبوا عليه، فقاتل معاوية بن إسحاق الأنصاري بين يدي زيد بن علي قتالًا شديدًا، فقتل بين يديه..»^(٢).

وقد نجحت هذه الطريقة، وإذا بالنبال تأتي من جميع الأطراف من على السطوح والمنازل والنخيل على زيد وأنصاره، يقول الطبري: «وثبت زيد بن علي ومن معه حتى إذا جنح الليل رُمي بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى، فتشبث في الدماغ، فرجع ورجع أصحابه..»^(٣).

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ١٨٥. تجارب الأمم، ج ٣، ص ١٤٦.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ١٨٦.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ١٨٦. الفتوح، ج ٨، ص ٢٩٢.

ولما أصيب زيد انهزمت جماعته: «قال أبو مخنف: فحدّثني سلمة بن ثابت، وكان من أصحاب زيد، وكان آخر من انصرف عنه هو و غلام لمعاوية بن إسحاق، قال: أقبلت أنا وأصحابي نقتفي أثر زيد فنجدته قد دخل بيت حرّان بن أبي كريمة في سكة البريد في دور أرحب وشاكر، فدخلت عليه، فقلت له: جعلني الله فداك أبا الحسين، وانطلق ناس من أصحابه فجاءوا بطبيب يقال له: سفيان مولى لبني دواس، فقال له: إنك إن نزعته من رأسك مُتّ.

قال زيد: الموت أيسر عليّ مما أنا فيه.

قال: فأخذ الكلّتين فانتزعه، فساعة انتزاعه مات عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(١).

وأخذوا زيدا وحاروا في أي مكان يدفنونه، فأجمعوا على دفنه تحت النهر وبعدها يُجرون عليه الماء، وبهذه الطريقة لا يُمكن اكتشافه^(٢).

ودفنوه في ذلك المكان الذي يُعتبر حالياً قبر^(٣) زيد. إلا أنه ليس لزيد قبر في الحقيقة، لأنه أُخرج وصُلب لمدة أربع سنوات^(٤). ثم أُنزل وأُحرق ودُقّ جسمه بالهاون ثم دُري في الرياح^(٥). وهكذا أُصيبت حركة زيد بضربة قاصمة، كل ذلك

(١) مقاتل الطالبين، ص ١٣٧.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ١٣٨.

(٣) يقع في الشرق الجنوبي لقرية الكفل (تقع بين بابل والنجف و كربلاء جنوب العراق قرب نهر الفرات) يبعد حوالي حدود الفرسخين عنه، وهذا المشهد هو موضع دفنه. مراقد المعارف، ج ١، ص ٣٢١. وقال الجلال في مزارات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ص ٨٧: «مرقه وآل الحسن في الهاشمية عند قبائل الخفاجة اليوم، وكانت قبورهم في بنية واحدة مستطيلة تعرف بالقبور السبعة». وذهب البعض -منهم الحموي في معجمه-، إلى أن رأسه دفن بمصر، حيث حمل رأسه فطيف به الشام، ثم حمل إلى مصر ودفن هناك. وقيل: إن والي مصر حنظلة بن صفوان هو الذي دفن الرأس الشريف بالمكان الذي يُعرف الآن بمشهد الرأس بحي زين العابدين بالقاهرة. أنظر: أهل البيت في مصر.

(٤) قال الصفدي في الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ٢٢: «ولم يزل مصلوباً إلى سنة ست وعشرين، ثم أنزل بعد أربع سنين من صلبه».

(٥) مقاتل الطالبين، ص ١٣٩. الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ٢٢.

لأنه سبق الموعد الذي اتفق فيه مع أنصاره.

رُوي عَنْ حَمْزَةَ بْنِ حُمْرَانَ قَالَ: «دَخَلْتُ إِلَى الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام فَقَالَ لِي: يَا حَمْزَةُ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قُلْتُ: مِنَ الْكُوفَةِ. قَالَ فَبَكَى عليه السلام حَتَّى بَلَّتْ دُمُوعُهُ حَيْثَهُ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا لَكَ أَكْثَرَتِ الْبُكَاءُ؟!»

فَقَالَ عليه السلام: ذَكَرْتُ عَمِّي زَيْنَداً عليه السلام، وَمَا صُنِعَ بِهِ فَبَكَيْتُ.

فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا الَّذِي ذَكَرْتَ مِنْهُ؟! فَقَالَ عليه السلام: ذَكَرْتُ مَقْتَلَهُ وَقَدْ أَصَابَ جَبِينَهُ سَهْمٌ فَجَاءَهُ ابْنُهُ يَحْيَى فَاثْكَبَ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: أَبَشِّرْ يَا أَبَتَاهُ فَإِنَّكَ تَرِدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَعَلَى وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهم السلام، قَالَ: أَجَلٌ يَا بُنَيَّ؛ ثُمَّ دَعَا بِحَدَادٍ فَنَزَعَ السَّهْمَ مِنْ جَبِينِهِ، فَكَانَتْ نَفْسُهُ مَعَهُ فَجِيءَ بِهِ إِلَى سَاقِيَةٍ تَجْرِي عِنْدَ بُسْتَانٍ زَائِدَةٍ فَحَفِرَ لَهُ فِيهَا وَدَفِنَ وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ الْمَاءُ، وَكَانَ مَعَهُمْ غُلَامٌ سِنْدِيٌّ لِبَعْضِهِمْ فَذَهَبَ إِلَى يُونُسَ بْنِ عُمَرَ مِنَ الْغَدِ فَأَخْبَرَهُ بِدَفْنِهِمْ إِيَّاهُ، فَأَخْرَجَهُ يُونُسُ بْنُ عُمَرَ فَصَلَبَهُ فِي الْكُنَاسَةِ أَرْبَعَ سِنِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ وَذُرِيَ فِي الرِّيَّاحِ، فَلَعَنَ اللَّهُ قَاتِلَهُ وَخَازِلَهُ، وَإِلَى اللَّهِ جَلَّ اسْمُهُ أَشْكُو مَا نَزَلَ بِنَا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّهِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ عَلَى عُدُونَا، وَهُوَ خَيْرُ مُسْتَعَانٍ»^(١).

— ﴿ صِفْوَالِكَلَامِ ﴾ —

* بعد استشهاد الإمام زين العابدين وفي عهد الإمام الباقر عليه السلام، وقعت أحداث ثورة زيد بن علي بن الحسين التي أحدثت تيار الزيدية في الحركة الرسالية.

* وكانت الحركة الزيدية أكثر تنظيماً ووعياً من باقي الحركات الإسلامية.

* ونحن نرى أن حركة زيد بن علي لم تكن حركة عفوية وبدوافع شخصية وآنية، كما يقول البعض، بل إن زيدا خطط لها، واتصل من أجل ذلك بكافة الحركات والأحزاب السياسية الموجودة يومذاك في الأمة، وكان اتصالاته بهدف العطاء وليس الأخذ. وقد أرسل بعض أفرادِهِ إلى المدائن والبصرة وخراسان وأهل المدينة.

* ولكن بعض الأحداث دفعت بزيد للاستعجال بإعلان الثورة قبل الموعد المتفق عليه بين الكوفة والمدائن والبصرة، الأمر الذي أدّى إلى تحركه في الكوفة قبل الجماعات الأخرى، مما أدّى إلى إخفاق الحركة واستشهاده عليه السلام.



١٩ الحركة الرسالية بين زيد والإمامين الصادقين عليه السلام

في الفصل الماضي كنّا مع زيد بن علي حينما خرج من الشام إلى العراق، فجمع الأنصار وحارب الأعداء وأصيب بسهم واستشهد.

وفي هذا الفصل نحاول البحث عن علاقة زيد بالأئمة المعصومين عليهم السلام، ما يستدعي بيان جانبٍ من حياة الإمام الباقر عليه السلام الذي عاصر مرحلة الإعداد لثورة زيد، والذي نرجوه هنا أن يتعرّف كل رسالي إلى حياة الإمام الباقر عليه السلام باعتباره قدوة يجب اتّباعه، ولا يتحقّق ذلك إلّا بعد التعرف إلى الخطوط العريضة لسيرته.

ماذا عمل الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في حياته؟.

للإجابة عن هذا السؤال لا بد أن تُبيّن أن كل إصلاح وتغيير في المجتمع بحاجة - على الأقل - إلى ثلاثة أركان، وهي:

- ١ - الخلفية الروحية (بعث الروح).
- ٢ - الخلفية الثقافية (إثارة العقل).
- ٣ - التفجير الثوري (تعبئة الطاقات).

وهذه الأركان تأتي قبل الانتصار، وهناك أركان تأتي بعده، من جملتها وضع البرامج الواضحة للإصلاح والتغيير.

الخلافة الثقافية والإحساس بالحاجة إلى الثورة

حين تقوم بأي عمل فلا بد من الإحساس بالحاجة إليه، فلو لم تكن الحاجة النفسية موجودة لما قام الإنسان بأي عمل في الحياة.

مثلاً لو لم تكن هناك حاجة إلى المسكن لما بُنيت البيوت، ولو لم تكن هناك حاجة إلى النقل والانتقال لما كانت السيارات والشوارع المعبدة.

إن الحاجة تدفعك إلى القيام بعمل ما، وإذا لم يكن لدى أمة من الأمم إحساس نفسي بضرورة الإصلاح والنهوض، فإنه من غير الممكن، بل من المستحيل، دفع هذه الأمة نحو الإصلاح والعمل، أو التضحية في سبيله، وخصوصاً أن الإصلاح بحاجة إلى تضحيات كبيرة وإلى نكران الذات، ممّا لا يُقدم عليه الفرد الذي لا يشعر بالحاجة إلى الإصلاح ولا يتطلّع نحو تحقيقه.

وبقى سؤال: كيف يمكن إيجاد روح التطلّع نحو الإصلاح والنهوض في أمة من الأمم؟.

يمكن ذلك بإيجاد روح الثورة في هذه الأمة، ونعني بذلك معرفة أهمية الإصلاح وضرورته، وبعث الأمل في النفوس بإمكانية النهوض، وذلك عبر إعطاء التطلّع والهمة العالية لتحقيقه، وهذا يُسمّى بعث الروح في الأمة.

قد ترى أنّ شعباً من الشعوب يبقى ٤٠٠ عام يزرع تحت نير الاستعمار، فيُقتل، وتُنهب أمواله وثرواته، ويُستعبد، ويظل هذا الشعب مستسلياً لمستعبديه وغاصبيه.

وبعدئذ يأتي من يبعث فيه الروح، وقد لا يقول لهم شيئاً إلا كلمة واحدة، أيها الشعب انتفض، تحرّك، ثر، انهض.

فإذا بهذا الشعب يثور ويتحوّل إلى رجل، وإذا بالاستعمار يُلملم أمتعته

ويرحل، كما حدث بالنسبة للشعب الهندي^(١) والشعب الصيني^(٢)، وكما حدث تاريخياً للشعب العربي حينما جاء نبينا ﷺ وبعث فيه روحاً دفعته إلى القيام والنهوض، فإذا بأولئك الحفاة الجفاة الذين كان يقتل بعضهم بعضاً، أصبحوا سادة العالم. وإذا بشاب تربى بتربيتهم (طارق بن زياد^(٣)) يقدم على بلد من أجل بلاد العالم وأقواها وهي الأندلس القديمة ويفتحها، وكان الجيش الإسلامي حينها لا يمتلك إلا الأسلحة الخفيفة حسب مفاهيمنا الحاضرة.

والسبب في انتصار هذا الجيش هو امتلاؤه بالروح المتصلة بالسماء. تلك الروح التي دفعته للفتوحات الهائلة. وبالتالي، أي ثورة إصلاحية بحاجة إلى هذه الروح، وبعد ذلك تحتاج إلى ثقافة ثورية متكاملة تدعم تلك الثورة. فلو لم تكن لدى الشعب ثقافة ثورية متكاملة، وكانت مكانها ثقافة الاستعباد والاستغلال لكانت الروح وحدها لا تغني شيئاً.

فلو اعتقد شعب بكامله، كالشعب الهندي مثلاً، أن الرجل الأبيض خير من الرجل الأسمر، أترى هل كانت صيحات غاندي^(٤) تستطيع أن تحرك هذا الشعب؟

(١) من خلال العصيان المدني اللاعنفي، قاد غاندي الهند إلى الاستقلال، وذلك بعد كفاح المجتمع الهندي المناضل من أجل الحقوق المدنية، قام بتنظيم احتجاجات من قبل الفلاحين والمزارعين والعمال في المناطق الحضرية ضد ضرائب الأراضي المفرطة والتمييز في المعاملة من قبل البريطانيين، بعدها بدأت قصة الكفاح الطويل والذي تميّز على نطاق واسع بالمقاومة غير العنيفة حتى أصبحت الهند دولة مستقلة في عام ١٩٤٧ م. عن: الموسوعة الحرة.

(٢) في عام ١٩١١ م، وبعد أكثر من ألفي عام من الحكم الإمبراطوري للصين، تأسست جمهورية الصين، بعد أن قامت جماعة من الثوار بالإطاحة بالنظام الحاكم والبلاط الإمبراطوري لسلالة (تشينغ) الحاكمة، التي ظلت لمدة قرن كامل قبل هذا التاريخ تعاني من الثورات الداخلية، والتحكم الدولي في شؤونها الداخلية من قبل الإمبراطوريات الأخرى. عن: الموسوعة الحرة.

(٣) طارق بن زياد الليثي [٥٠-١٠١ هـ]، قائد عسكري، من أهم معاركه فتح الأندلس، وقاد أول الجيوش الإسلامية التي دخلت شبه جزيرة أيبيريا، ويحمل اسمه جبل طارق بجنوب إسبانيا. الأعلام، ج ٣، ص ٢١٧. تاريخ الإسلام، ج ٦، ص ٣٩٣. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٥٤٠.

(٤) المهاتما غاندي (مهندس كارامشاند) [١٨٦٩ - ١٩٤٨ م]. زعيم روحي هندي، رائد وقائد حركة الاستقلال في الهند (الستيا جراها) وهي مقاومة الاستبداد السياسي والاجتماعي من خلال العصيان المدني الشامل، والتي أدت إلى استقلال الهند، وألهمت الكثير من حركات

كلّا.. لأن مثل هذا الاعتقاد لا يدعه يتحرك.

فإذا أردنا الإصلاح والتغيير فإننا بحاجة إلى ثقافة ثورية متكاملة تدعم عقيدة الإصلاح. ثم تحتاج العملية إلى تعبئة الطاقات وتفجير الثورة.

بعد هذه المقدمة نلاحظ أن دور الإمام زين العابدين عليه السلام في الحركة الرسالية كان بعث الروح الإصلاحية الثورية في المسلمين. وكان دور الإمام الباقر عليه السلام هو إعطاء فكرة متكاملة عن الإصلاح الاجتماعي للأمة الإسلامية.

فالإمام زين العابدين قام ببعث روح الجهاد، بينما نجد الإمام الباقر عليه السلام يطرح الخلفية الفكرية والثقافية لتأجيج هذه الروح. فهاذا عمل الإمام الباقر عليه السلام خلال العشرين عاماً من عمره، بعد أن استلم مقاليد الإمامة من والده الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

لقد سُمِّيَ الإمامُ بالباقر لأنه بقر العلم، وقد قال جابر^(١): «رَوَيْتُ حُمْسِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ..»، وفي رواية أخرى: «تَسْعِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ»^(٢). وكما سمع منه عليه السلام محمد بن مسلم^(٣)

الحقوق المدنية والحرية في جميع أنحاء العالم. أنظر (مهاتما غاندي) سيرته كما كتبها بقلمه وترجمها للعربية: إسماعيل مظهر. الصادر عام ١٩٣٤م.

(١) جابر بن يزيد الجعفي، ثقة، تابعي عده البرقي في أصحاب الباقر والصادق عليه السلام. انظر: معجم رجال الحديث، ج ٤، ص ١٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢، ص ٦٩. باب (١٢) النهي عن كتمان العلم.

(٣) محمد بن مسلم بن رباح [ت: ١٥٠ هـ]، قال عنه النجاشي: «محمد بن مسلم بن رباح أبو جعفر الأوقص الطحان، مولى ثقيف الأعور: وجه أصحابنا بالكوفة، فقيه، ورع، صحب أبا جعفر عليه السلام، وأبا عبد الله عليه السلام، وروى عنهما، وكان من أوثق الناس، له كتاب يسمّى الأربعائة مسألة في أبواب الحلال والحرام. وعده الشيخ المفيد في رسالته العديدة من الفقهاء، والأعلام الرؤساء المأخوذ عنهم الحلال والحرام، والفتيا والأحكام الذين لا يُطعن عليهم، ولا طريق إلى ذم واحد منهم». قال في حقه الإمام الصادق عليه السلام: «مَا أَحَدٌ أَحْيَا ذِكْرَنَا، وَأَحَادِيثَ أَبِي، إِلَّا رُزِيقُهُ، وَأَبُو بَصِيرٍ الْمُرَادِيُّ، وَ مُحَمَّدٌ بْنُ مُسْلِمٍ، وَبُرَيْدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، وَلَوْ لَا هَؤُلَاءِ مَا كَانَ أَحَدٌ يَسْتَنْبِطُ هُدًى، هَؤُلَاءِ حِفَاطُ الدِّينِ، وَأَمَنَاءُ أَبِي عَلَى حَلَالِ اللَّهِ وَحَرَامِهِ وَهُمْ السَّابِقُونَ الْبَنَاءُ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ». معجم رجال الحديث، ج ١٨، ص ٢٦١.

ثلاثين ألف حديث^(١).

ونحن نتساءل: هل كانت أحاديث الإمام الباقر عليه السلام حول مسائل الطهارة والنجاسة فقط؟.

بالطبع ليس من المناسب لبیت النبوة ومهبط الوحي أن يشغل نفسه بقضية جزئية كقضية الطهارة والنجاسة فقط، وإنما مثل هذه المسائل كانت لا تشكل إلا جزءاً بسيطاً من المنظومة الفكرية التي اضطلعوا برسم معالمها وفقاً لنور الرسالة المحمدية.

وبإجماع المؤرخين فإن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام هو الذي طرح نظرية الإمامة الإسلامية بشكل متكامل^(٢). بمعنى أنه بيّن للأمة الإسلامية كيف يجب أن تكون القيادة الإسلامية؟. ومن هو الإمام؟. ولماذا الحاجة إلى الإمام؟. وما هي وظيفة ومسؤولية الإمام؟.

علم الإمام الباقر لسعادة الإنسانية

إنّ العلم الذي بقره الإمام بقرأً، هو ذلك العلم الذي يحتاج إليه الإنسان، وهو الذي من أجله بعث الله الأنبياء وأرسل الرسل عليهم السلام.

إن العلم المطلوب هو العلم الذي يُبيّن كيف يمكن للإنسان أن يصلح نفسه ومجتمعه، لذلك لم يأت الأنبياء بعلم فلق الذرة وصنع الصاروخ، وكيفية بعث مركبة فضائية إلى المريخ، بل شغلوا أنفسهم بإصلاح الناس، وإثارة المحرومين ضد الضالين، وإعطائهم طرق وكيفيات العمل والتحرك في مواجهة المفسدين والمستكبرين في الأرض؟.

(١) قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ: «مَا سَجَرَ فِي رَأْيِي شَيْءٌ قَطُّ، إِلَّا سَأَلْتُ عَنْهُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام حَتَّى سَأَلْتُهُ عَنْ ثَلَاثِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ...». بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٩٢.

(٢) انظر الكافي، ج ١، ص ٢٨٩: ما قاله الإمام الباقر عليه السلام، في تفسير آية: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

إنما فعلوا ذلك لأن هذا هو أهم حاجة للإنسان، ولأنه إذا يجدي الإنسان أن يصنع مركبة فضائية، ويخلق بها إلى أعالي السماء، ثم يصب من هناك القنابل الذرية والهيدروجينية على أهل الأرض لتدميرهم؟.

الإمام الباقر يواجه الأفكار التبريرية

فالأئمة المعصومون عليهم السلام والإمام الباقر بالذات، يتنوا معالم الفكر الرسالي المسؤول للمجتمع، والسبب في ذلك أن هناك أفكاراً تبريرية انتشرت في عصر الإمام الباقر عليه السلام كأفكار المرجئة^(١)، وهم الجماعة الذين قالوا بأن الأفضل لنا ألا ندين الرجال، بمعنى ألا نحدد موقفنا من الرجال السابقين، ونرجع ذلك إلى يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى هو المسؤول فقط. فمعاوية والإمام علي عليهما السلام مثلاً تحاربا وذهبا إلى ربهم، وهو الذي يحاكمهم، فليس من وظيفتنا أن ندين أحدهما ونحدد الموقف من هؤلاء ونقف إلى جانب أحد الطرفين، وقالوا استناداً للآية الكريمة: ﴿وَأَخْرَوْنَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢): إن الناس بعضهم كافر فأمره ظاهر، ولكن الذي يظلم ويقتل الناس، هذا الرجل ليس لنا سبيل لإصلاحه، فلماذا نحن نتخذ موقفاً مضاداً منه؟.

لقد كانت حركة المرجئة حركة تبريرية. وهناك أيضاً كانت حركة القدرية^(٣) التي بثها الحسن البصري، والتي تقول: إن أي حاكم إنما يجيء إلى الحكم بأمر من الله، أي بالجبر، ونحن لا نستطيع أن نخالف أوامر الله.

(١) سميت بالمرجئة، لأنهم قالوا: بتأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا، من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار. راجع الملل والنحل، ج ١. و: بحوث في الملل والنحل، ج ٣.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٦.

(٣) يعبر عن المعتزلة في الكتب الكلامية بالقدرية، والمعتزلة يطلقونها على خصومهم، وجاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ قَوْلُهُ: «الْقَدَرِيَّةُ جُوسُ أُمَّتِي». والحسن البصري [٢١-١١٠هـ]، يعتبر أحد أبرز رموز المعتزلة التي من فرقها القدرية. وللتعرف إلى جملة من آراء وأفكار البصري طالع: بحوث في الملل والنحل، ج ٣، ص ١٨٤، و: الملل والنحل، ج ١، ص ٥٦.

ولم يقتصر الأمر على الجانب السياسي إنما شمل كل الأصعدة، وخصوصاً أن عهد الإمام الباقر عليه السلام قد شهد أفكاراً متناقضة؛ لأن الأمة وصلت إلى مستوى من الفوضى السياسية في جميع النواحي، لذلك احتاجت إلى نظريات، فأخذ كل إنسان يطرح نظريته.

الفكر الرسالي هو الفهم الصحيح للإسلام

ومن هنا تعددت النظريات الفقهية، فأرهابت نشوء المذاهب الفقهية، وخاصة المذاهب الأربعة^(١) كانت تقريباً في أواخر زمان الإمام الباقر عليه السلام^(٢)، وكانت من بين عشرات المذاهب الأخرى^(٣) التي بدأت تنتشر آنذاك، وأصبحت الأمة تعيش بلبلة فكرية عجيبة انشغلت بعدها بأشياء تافهة وأصبح اليأس يدب في نفوس أبنائها، وفي الوقت ذاته كانت الأمة بحاجة إلى رجل فقيه قد أخذ علمه من أصفى منابع، وكان ذلك هو الإمام الباقر عليه السلام.

فلم يكن الإمام الباقر عليه السلام إماماً للشيعة فقط، فقد اتخذته السُّنة إماماً، وتأثرت به كافة المذاهب السنية، حتى التي نشأت بعد وفاته، ربما أكثر مما تأثر الشيعة به. فهو الذي أعطى كافة الفئات الإسلامية الأخرى الفكر الرسالي المرتبط بكليات الرسالة وقضاياها الأساسية.

(١) هي المذاهب الفقهية المعتمدة عند أهل السنة، نشأت في القرنين الثاني أو الثالث الهجري، وانتشرت بشكل واسع وأصبحت رسمية في معظم كتبهم. وتمثل الاجتهادات الفقهية الراجعة للأئمة الأربعة من أهل السنة، وبرغم انتشار كثير من المذاهب إلا أن قافلة الفقه وقفت عندهم، وهم حسب ترتيبهم التاريخي: * المذهب الحنفي، نسبة للإمام أبي حنيفة النعمان [٨٠-١٥٠هـ]. * المذهب المالكي، نسبة للإمام مالك بن أنس [٩٣-١٧٩هـ]. * المذهب الشافعي، نسبة للإمام محمد بن إدريس الشافعي [١٥٠-٢٠٤هـ]. * المذهب الحنبلي نسبة للإمام أحمد بن حنبل [١٦٤-٢٤١هـ]. طالع: الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ١٦٠-١٧٠.

(٢) لاحظ: الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة.

(٣) طالع: حياة الإمام الباقر عليه السلام، دراسة وتحليل، ج ٢، ص ٧٤.

لقد أعطى الإمام عليه السلام الخلفية الثقافية الفكرية للحركة الثورية الرسالية في الأمة، ولكن الأمر كان بحاجة إلى دعم وتركيز ميداني لهذا الفكر والثقافة، فكان دور زيد بن علي هو القيام بهذا الأمر، وكما قلنا فإن زيد بن علي اتّصل بكافة الحركات الإسلامية، كالمرجئة، والخوارج، والمعتزلة، والشيعة، واتفق معهم على قلب نظام الحكم ممّا جعل الفكر الرسالي قائداً لتيار المعارضة.

حركة زيد بن علي والإمام الصادق عليه السلام

وهنا يطرح سؤال هام هو: هل كان زيد مدفوعاً من قبل الإمام الصادق عليه السلام في القيام بثورته؟.

أمام هذا السؤال، ينقسم المؤرخون إلى قسمين:

الأول: يرى أن زيداً لم يكن له أي تنسيق^(١) مع الإمام الصادق عليه السلام، بل إنه خالف نهيه إياه عن الخروج حينما قال له عليه السلام: «يَا عَمَّ، إِنْ رَضِيتَ أَنْ تَكُونَ الْمَقْتُولَ الْمَضْلُوبَ بِالْكُنَاسَةِ فَشَأْنُكَ»^(٢).

الثاني: يرى أن قيام زيد إنما كان ضمن خطة مدروسة رُسمت معالمها وفق توجيهات وتطلعات أئمة أهل البيت عليهم السلام وبالذات الإمام الصادق عليه السلام^(٣).

وهذا ما نراه استناداً للكمّ الهائل من الروايات التي تتحدّث عن شخصية الشهيد زيد عليه السلام والأهداف التي كان ينشدها من وراء قيامه وثورته، التي يقف على رأسها الدعوة إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام، التي تعني فيما تعني المطالبة بإرجاع الخلافة إلى أصحابها الشرعيين، الأئمة الاثني عشر من أهل بيت النبوة عليهم السلام.

(١) انظر: جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول، ص ٦١-٦٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٧٤.

(٣) طالع: الغدير، ج ٣، ص ٩٧. زيد الشهيد للمقرم. الشهيد الخالد زيد بن علي، للقرشي.

ولو قَدَّرَ لزيد النجاح بخطته، لكان وفي لتلك الأهداف، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «رَحِمَ اللَّهُ عَمِّي زَيْدًا، لَوْ ظَفِرَ لَوْفِي، إِنَّمَا دَعَا إِلَى الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَأَنَا الرِّضَا»^(١).

وزيد إنما هو خريج تلك المدرسة التي تربى فيها القادة الرساليون على امتداد الخط منذ زمن الرسول الأكرم محمد عليه السلام ومن بعده في زمن أمير المؤمنين علي عليه السلام، أمثال عمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، والمقداد، وحجر، وعشرات غيرهم من القادة الرساليين، الذين ظلوا مشاعل نور في بحار الظلمات التي أراد بنو أمية أن يُغرقوا المسلمين فيها.

وهنا نورد بعض الروايات التي تُبين بشكل لا يقبل الشك أن الشهيد زيد، إنما كان يتحرك في إطار إمامة أهل البيت عليهم السلام:

١- رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام فَقُلْتُ: «إِنَّ قَوْمًا يَزْعُمُونَ أَنَّكَ صَاحِبُ هَذَا الْأَمْرِ؟!» قَالَ: لَا؛ وَلَكِنِّي مِنَ الْعِتْرَةِ.

قُلْتُ: فَمَنْ يَلِي هَذَا الْأَمْرَ بَعْدَكُمْ؟.

قَالَ: سَبْعَةٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ؛ وَالْمَهْدِيُّ مِنْهُمْ.

قَالَ ابْنُ مُسْلِمٍ: ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى الْبَاقِرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ عليه السلام: صَدَقَ أَخِي زَيْدٌ، صَدَقَ أَخِي زَيْدٌ، سَيَلِي هَذَا الْأَمْرَ بَعْدِي سَبْعَةٌ مِنَ الْأَوْصِيَاءِ، وَالْمَهْدِيُّ مِنْهُمْ. ثُمَّ بَكَى عليه السلام وَقَالَ: كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ صُلِبَ فِي الْكُنَاسَةِ. يَا ابْنَ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ عليه السلام قَالَ: وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَدَهُ عَلَى كَتِفِي، وَقَالَ يَا حُسَيْنُ؛ يُخْرُجُ مِنْ صُلْبِكَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: زَيْدٌ، يُقْتَلُ مَظْلُومًا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ حُسَيْرٌ وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْجَنَّةِ»^(٢).

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٩٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٠٠.

٢- ورؤي عَنْ عَمْرٍو بْنِ خَالِدٍ قَالَ: «قَالَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: فِي كُلِّ زَمَانٍ رَجُلٌ مِّنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ، يَخْتَجُّ اللَّهُ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَحُجَّةُ زَمَانِنَا ابْنُ أَخِي جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، لَا يَضِلُّ مَنْ تَبِعَهُ، وَلَا يَهْتَدِي مَنْ خَالَفَهُ»^(١).

٣- ورؤي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَلَاءِ قَالَ: «قُلْتُ لِرَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام: فَأَنْتَ صَاحِبُ الْأَمْرِ؟!».

قَالَ: لَا؛ وَلَكِنِّي مِنَ الْعِتْرَةِ.

قُلْتُ: فَإِلَى مَنْ تَأْمُرُنَا؟!

قَالَ: عَلَيْكَ بِصَاحِبِ الشَّعْرِ. وَأَشَارَ إِلَى الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام»^(٢).

الإمام الرضا عليه السلام يثني على زيد بن علي

وقد كان زيد رجلاً مؤمناً يُسمّى بحليف القرآن، وكان وهو شاب إذا ذكر اسم الله أمامه بكى وأغمي عليه، وهذا ما جاء في الرواية التالية:

* عَنْ ابْنِ أَبِي عَبْدِوْنٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا حُجِّلَ زَيْدُ بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام إِلَى الْمَأْمُونِ، وَقَدْ كَانَ خَرَجَ بِالْبَصْرَةِ وَأَخْرَقَ دُورَ وَلَدِ الْعَبَّاسِ. وَهَبَ الْمَأْمُونُ جُرْمَهُ لِأَخِيهِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرضا عليه السلام، وَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، لَئِنْ خَرَجَ أَخُوكَ وَفَعَلَ مَا فَعَلَ لَقَدْ خَرَجَ قَبْلَهُ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ فَقُتِلَ، وَلَوْ لَا مَكَائِكَ مِنِّي لَقَتَلْتُهُ، فَلَيْسَ مَا أَتَاهُ بِصَغِيرٍ.

فَقَالَ الرضا عليه السلام: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لَا تَقْسُ أَخِي زَيْدًا إِلَى زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ آلِ مُحَمَّدٍ عليه السلام، غَضِبَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَجَاهَدَ أَعْدَاءَهُ، حَتَّى قُتِلَ فِي سَبِيلِهِ. وَلَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام أَنَّهُ سَمِعَ أَبَاهُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام يَقُولُ: رَحِمَ اللَّهُ عَمِّي زَيْدًا، إِنَّهُ دَعَا إِلَى الرضا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ عليه السلام، وَلَوْ ظَفَرَ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٧٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٠١.

لَوْفَى بِمَا دَعَا إِلَيْهِ، وَقَدْ اسْتَشَارَنِي فِي خُرُوجِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَمِّ، إِنْ رَضِيتَ أَنْ تَكُونَ الْمُقْتُولَ الْمُضْلُوبَ بِالْكُنَاسَةِ فَشَأْنُكَ.

فَلَمَّا وَلَّى؛ قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عليه السلام: وَبَلَّغْ لِمَنْ سَمِعَ وَاعِيَتَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ؛ أَلَيْسَ قَدْ جَاءَ فِيمَنْ ادَّعَى الْإِمَامَةَ بِغَيْرِ حَقِّهَا مَا جَاءَ.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: إِنْ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام لَمْ يَدَّعِ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ كَانَ أَتَقَى لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ قَالَ: أَذْعُوكُمْ إِلَى الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ. وَإِنَّمَا جَاءَ مَا جَاءَ فِيمَنْ يَدَّعِي أَنَّ اللَّهَ نَصَّ عَلَيْهِ ثُمَّ يَدْعُو إِلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ وَيَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَكَانَ زَيْدٌ وَاللَّهِ مِنْ خُوطِبَ بِهِذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ ^(١).

الإمام الصادق عليه السلام ينعى عمه زيدا عليه السلام

رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَيَابَةَ قَالَ: «خَرَجْنَا وَنَحْنُ سَبْعَةٌ نَفَرٍ فَأَتَيْنَا الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْنَا عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقَالَ: أَعِنْدَكُمْ خَبَرٌ عَمِّي زَيْدٍ؟»

فَقُلْنَا: قَدْ خَرَجَ، أَوْ هُوَ خَارِجٌ.

قَالَ عليه السلام: فَإِنْ أَتَاكُمْ خَبَرٌ فَأَخْبِرُونِي.

فَمَكُنَّا أَيَّامًا فَأَتَى رَسُولُ بَسَّامِ الصَّيْرِقِيِّ بِكِتَابٍ فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ زَيْدًا خَرَجَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ غُرَّةَ صَفَرٍ، فَمَكَثَ الْأَرْبَعَاءَ وَالْحَمِيسَ وَقُتِلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَقُتِلَ مَعَهُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ.

فَدَخَلْنَا عَلَى الصَّادِقِ عليه السلام وَدَفَعْنَا إِلَيْهِ الْكِتَابَ فَقَرَأَ وَبَكَى ثُمَّ قَالَ عليه السلام: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، عِنْدَ اللَّهِ أَخْتَسِبُ عَمِّي، إِنَّهُ كَانَ نِعَمَ الْعَمِّ. إِنْ عَمِّي كَانَ رَجُلًا لِدُنْيَانَا وَآخِرَتِنَا، مَضَى وَاللَّهِ عَمِّي شَهِيدًا كَشَهِدَاءِ اسْتُشْهِدُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

وَعَلِيٍّ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهم السلام»^(١).

كبار الفقهاء يؤيدون حركة زيد عليه السلام

والدليل الثاني أن كبار الفقهاء^(٢) انضموا تحت لواء زيد، من أمثال أبي حنيفة رئيس المذهب الحنفي الذي كان من الذين أيدوا زيد بن علي في حركته، روى أبو الفرج الأصفهاني عن الفضل بن الزبير، قال: «قال أبو حنيفة: من يأتي زيدا في هذا الشأن من فقهاء الناس؟».

قال: قلت: سليمة بن كهيل، ويزيد بن أبي زياد، وهرون بن سعد، وهاشم بن البريد، وأبو هاشم الرماني، والحجاج بن دينار، وغيرهم.

فقال لي: قل لزيد: لك عندي معونة، وقوة على جهاد عدوك فاستعن بها أنت وأصحابك في الكراع^(٣)، والسلاح ثم بعث ذلك معي إلى زيد، فأخذه زيد^(٤).

ونقل -أبو الفرج الأصفهاني- عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: روى عبدالله بن مروان بن معاوية، قال: سمعت محمد بن جعفر بن محمد في دار الإمارة يقول: «رحم الله أبا حنيفة؛ لقد تحققت مودته لنا في نصرته زيد بن علي..»^(٥).

لقد كان الفقهاء في عهد زيد يؤيدونه ويتبعونه، وعلى رأسهم الفقهاء الرساليون، وهذا دليل على أن زيدا كان مؤيدا من الإمامين الباقر والصادق عليهم السلام فليس من الممكن للفقهاء الرساليين اتباع زيد رغما على الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

(١) عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٢٥٢.

(٢) ذكرهم أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبين، وأيضا: زيد الشهيد، ص ١٢٧. و: الشهيد الخالد زيد بن علي، ص ٢٥٠-٢٦١. و: بحوث في الملل والنحل، ج ٧، ص ٢٩٦-٣٠٠. فراجع.

(٣) اسم لجماعة الخيل.

(٤) مقاتل الطالبين، ص ١٤١.

(٥) مقاتل الطالبين، ص ١٤٢.

الإمام الصادق يتمنى لو كان مع زيد (عليه السلام)

* رُوِيَ عَنِ الْفُضَيْلِ قَالَ: «انْتَهَيْتُ إِلَى زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ (عليه السلام) صَبِيحَةَ خَرَجَ بِالْكُوفَةِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ يُعِينُنِي مِنْكُمْ عَلَى قِتَالِ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ، فَوَ الَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ بَشِيرًا لَا يُعِينُنِي مِنْكُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ أَحَدٌ إِلَّا أَخَذْتُ بِيَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ بِإِذْنِ اللَّهِ.

قَالَ: فَلَمَّا قُتِلَ؛ أَكْثَرْتُ رَاحِلَةً وَتَوَجَّهْتُ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَدَخَلْتُ عَلَى الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ (عليه السلام) فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا أَخْبَرْتُهُ بِقَتْلِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ (عليه السلام) فَيَجْزَعُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا دَخَلْتُ قَالَ (عليه السلام) لِي: يَا فَضِيلُ، مَا فَعَلَ عَمِّي زَيْدٌ؟! قَالَ: فَخَفَّتُنِي الْعَبْرَةُ.

فَقَالَ (عليه السلام) لِي: قَتَلْتُهُ؟ قُلْتُ: إِي وَاللَّهِ؛ قَتَلْتُهُ.

قَالَ (عليه السلام): فَصَلِّبُوهُ؟ قُلْتُ: إِي وَاللَّهِ؛ صَلِّبُوهُ.

فَأَقْبَلَ يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَنْحَدِرُ عَلَى دِيْبَاجَتِي خَدَّهِ كَأَنَّهَا الْجُمَانُ، ثُمَّ قَالَ (عليه السلام): يَا فَضِيلُ، شَهِدْتَ مَعَ عَمِّي قِتَالَ أَهْلِ الشَّامِ؟

قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ (عليه السلام): فَكَمْ قَتَلْتَ مِنْهُمْ؟! قُلْتُ: سِتَّةً.

قَالَ (عليه السلام): فَلَعَلَّكَ شَاكٌ فِي دِمَائِهِمْ؟! قَالَ: فَقُلْتُ: لَوْ كُنْتُ شَاكًا مَا قَتَلْتُهُمْ.

قَالَ: فَسَمِعْتُهُ (عليه السلام) وَهُوَ يَقُولُ: أَشْرَكَنِي اللَّهُ فِي تِلْكَ الدِّمَاءِ، مَضَى وَاللَّهُ زَيْدٌ عَمِّي وَأَصْحَابُهُ شُهَدَاءٌ مِثْلُ مَا مَضَى عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابُهُ»^(١).

من هنا ثبت بما لا يدع للشك مجالاً أن الإمام الصادق (عليه السلام) هو الذي أمر زيداً بالقيام بحركته وثورته، وربما أخطأ زيد في بعض التفاصيل، فهو لم يكن معصوماً عن الخطأ، إنما فعله كان بتخطيط وأمر من الإمام الصادق (عليه السلام).

* رُوِيَ عَنْ يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبِي عليه السلام عَنِ الْأَيْمَةِ؟
فَقَالَ: الْأَيْمَةُ اثْنَا عَشَرَ، أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَاضِينَ، وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الْبَاقِينَ.
قُلْتُ: فَسَمِّهِمْ يَا أَبَتِ.

قَالَ: أَمَّا الْمَاضِينَ: فَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَالْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ، وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام. وَمِنَ الْبَاقِينَ: أَخِي الْبَاقِرُ، وَبَعْدَهُ جَعْفَرُ الصَّادِقُ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ مُوسَى ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ عَلِيُّ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ مُحَمَّدٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ عَلِيُّ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ الْحَسَنُ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ الْمُهْدِيُّ ابْنُهُ.

فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَتِ، أَلَسْتَ مِنْهُمْ؟!.

قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي مِنَ الْعِتْرَةِ.

قُلْتُ: فَمِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ أَسَامِيَهُمْ؟!.

قَالَ: عَهْدٌ مَعَهُودٌ عَهْدُهُ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ...»^(١).

يقول العلامة المجلسي رحمته الله، وهو يُعَلِّقُ على هذا الحديث: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَزَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام، إِذَا سَمِعَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ مِنَ الثَّقَاتِ الْمَعْصُومِينَ عليهم السلام، وَأَمَنَّ بِهِمَا، وَاعْتَقَدَهَا، فَلَمْ يَخْرُجْ بِالسَّيْفِ وَادَّعَى الْإِمَامَةَ لِنَفْسِهِ، وَأَظْهَرَ الْخِلَافَ عَلَى جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام. وَهُوَ بِالْمَحَلِّ الشَّرِيفِ الْجَلِيلِ، مَعْرُوفٌ بِالسُّرِّ وَالصَّلَاحِ مَشْهُورٌ عِنْدَ الْحَاصِّ وَالْعَامِّ بِالْعِلْمِ وَالزُّهْدِ، وَهَذَا مَا لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا مُعَانِدٌ جَاحِدٌ وَحَاشَا زَيْدًا أَنْ يَكُونَ بِهَذَا الْمَحَلِّ؟!.

فَأَقُولُ فِي ذَلِكَ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ:

إِنَّ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام خَرَجَ عَلَى سَبِيلِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْمُخَالَفَةِ لِابْنِ أَخِيهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام، وَإِنَّمَا وَقَعَ الْخِلَافُ مِنْ جِهَةِ النَّاسِ، وَذَلِكَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام، لَمَّا خَرَجَ وَلَمْ يُخْرُجْ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عليه السلام،

تَوَهُّمَ قَوْمٌ مِنَ الشَّيْعَةِ أَنَّ امْتِنَاعَ جَعْفَرٍ كَانَ لِلْمُخَالَفَةِ وَإِنَّمَا كَانَ لِضَرْبٍ مِنَ التَّدْبِيرِ.
فَلَمَّا رَأَى الَّذِينَ صَارُوا لِلزَّيْدِيَّةِ سَلَفًا ذَلِكَ قَالُوا: لَيْسَ الْإِمَامُ مَنْ جَلَسَ فِي
بَيْتِهِ وَأَغْلَقَ بَابَهُ، وَأَرْخَى سِتْرَهُ، وَإِنَّمَا الْإِمَامُ مَنْ خَرَجَ بِسَيْفِهِ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى
عَنِ الْمُنْكَرِ. فِهَذَا] سَبَبُ وَقُوعِ الْخِلَافِ بَيْنَ الشَّيْعَةِ.

وَأَمَّا جَعْفَرُ وَزَيْدٌ عليه السلام فَمَا كَانَ بَيْنَهُمَا خِلَافٌ. وَالِدَلِيلُ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِنَا قَوْلُ
زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام: «مَنْ أَرَادَ الْجِهَادَ فَلْيَإِيَّ، وَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَإِيَّ ابْنِ أَخِي جَعْفَرٍ». وَلَوْ
ادَّعَى الْإِمَامَةَ لِنَفْسِهِ لَمْ يَنْفِ كَمَالَ الْعِلْمِ عَنْ نَفْسِهِ، إِذِ الْإِمَامُ أَعْلَمُ مِنَ الرَّعِيَّةِ، وَمَنْ
مَشْهُورٌ قَوْلُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام: «رَحِمَ اللَّهُ عَمِّي زَيْدًا لَوْ ظَفِرَ لَوْفِي إِتْمَا دَعَا إِلَى
الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ عليه السلام، وَأَنَا الرِّضَا».

وَتَصَدِّقُ ذَلِكَ مَا حَدَّثَنَا بِهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَنْ عَامِرِ بْنِ عِيْسَى بْنِ عَامِرٍ السَّيرافي
بِمَكَّةَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِينَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ
مُحَمَّدٍ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ
بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُطَهَّرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُمَيْرِ بْنِ الْمُتَوَكِّلِ بْنِ هَارُونَ
الْبَحْلِيِّ، عَنْ أَبِيهِ الْمُتَوَكِّلِ بْنِ هَارُونَ قَالَ: «لَقِيتُ يَحْيَى بْنَ زَيْدٍ بَعْدَ قَتْلِ أَبِيهِ وَهُوَ مُتَوَجِّهُ
إِلَى خُرَاسَانَ، فَمَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ رَجُلًا فِي عَقْلِهِ وَفَضْلِهِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ أَبِيهِ.

فَقَالَ: إِنَّهُ قُتِلَ وَصُلِبَ بِالْكُنَاسَةِ. ثُمَّ بَكَى، وَبَكَيتُ حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا
سَكَنَ قُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، وَمَا الَّذِي أَخْرَجَهُ إِلَى قِتَالِ هَذَا الطَّاعِي وَقَدْ عَلِمَ
مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ مَا عَلِمَ؟! فَقَالَ: نَعَمْ؛ لَقَدْ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبِي عليه السلام
يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ: وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى صُلْبِي
فَقَالَ: يَا حُسَيْنُ، يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِكَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: زَيْدٌ يُقْتَلُ شَهِيدًا. فَإِذَا كَانَ يَوْمُ
الْقِيَامَةِ يَتَخَطَّى هُوَ وَأَصْحَابُهُ رِقَابَ النَّاسِ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ كَمَا
وَصَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: رَحِمَ اللَّهُ أَبِي زَيْدًا كَانَ -وَاللَّهِ- أَحَدَ الْمُتَعَبِّدِينَ،
قَائِمٌ لَيْلَهُ، صَائِمٌ نَهَارَهُ، يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ جِهَادِهِ.

فَقُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، هَكَذَا يَكُونُ الْإِمَامُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ؟

فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ أَبِي لَمْ يَكُنْ بِإِمَامٍ وَلَكِنْ مِنْ سَادَاتِ الْكِرَامِ وَرُهَادِهِمْ، وَكَانَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

قُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، أَمَا إِنَّ أَبَاكَ قَدْ ادَّعَى الْإِمَامَةَ وَخَرَجَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَقَدْ جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِيمَنْ ادَّعَى الْإِمَامَةَ كَاذِبًا.

فَقَالَ: مَهْ يَا عَبْدَ اللَّهِ. إِنَّ أَبِي عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أَعْقَلَ مِنْ أَنْ يَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ وَإِنَّمَا قَالَ: «أَدْعُوكُمْ إِلَى الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ». عَنَى بِذَلِكَ عَمِّي جَعْفَرًا.

قُلْتُ: فَهُوَ الْيَوْمَ صَاحِبُ الْأَمْرِ. قَالَ: نَعَمْ هُوَ أَفْقَهُ بَنِي هَاشِمٍ.

ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنِّي أَخْبَرُكَ عَنْ أَبِي عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرُهِدِهِ وَعِبَادَتِهِ، أَنَّهُ كَانَ ﷺ يُصَلِّي فِي نَهَارِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ فَإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ عَلَيْهِ، نَامَ نَوْمَةً خَفِيفَةً، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ يَقُومُ قَائِمًا عَلَى قَدَمَيْهِ يَدْعُو اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَيَتَضَرَّعُ لَهُ وَيَبْكِي بِدُمُوعٍ جَارِيَةٍ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ سَجَدَ سَجْدَةً، ثُمَّ يَقُومُ يُصَلِّي الْغَدَاةَ، إِذَا وَضَحَ الْفَجْرُ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، قَعَدَ فِي التَّعْقِيبِ إِلَى أَنْ يَتَعَالَى النَّهَارُ. ثُمَّ يَقُومُ فِي حَاجَتِهِ سَاعَةً، فَإِذَا قَرُبَ الزَّوَالُ قَعَدَ فِي مُصَلَّاهُ، فَسَبَّحَ اللَّهَ، وَمَجَّدَهُ إِلَى وَقْتِ الصَّلَاةِ، فَإِذَا حَانَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، قَامَ فَصَلَّى الْأُولَى، وَجَلَسَ هُنَيْئَةً، وَصَلَّى الْعَصْرَ، وَقَعَدَ فِي تَعْقِيبِهِ سَاعَةً، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَةً، فَإِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ، صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْعَتَمَةَ.

قُلْتُ: كَانَ يَصُومُ دَهْرَهُ؟

قَالَ: لَا؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ يَصُومُ فِي السَّنَةِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَيَصُومُ فِي الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

قُلْتُ: وَكَانَ يُفْتِي النَّاسَ فِي مَعَالِمِ دِينِهِمْ؟

قَالَ: مَا أَذْكُرُ ذَلِكَ عَنْهُ. ثُمَّ أَخْرَجَ إِلَيَّ صَحِيفَةً كَامِلَةً أَدْعِيَةَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ^(١).

صَفْوَالِكَلَامِ

* إن دور الإمام زين العابدين عليه السلام في الحركة الرسالية كان بعث الروح في الأمة.

* وكان دور الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام هو إعطاء الخلفية الثقافية الفكرية للحركة الرسالية.

* وقام زيد بن علي بدور الدعم الميداني للفكر الرسالي من خلال حركته الثورية.

* أما عن علاقة زيد بأئمة أهل البيت عليهم السلام، فنحن -وخلافاً للبعض- نرى أن قيام زيد إنما كان ضمن خطة مدروسة رُسمت معالمها وفق توجهات وتطلعات أئمة أهل البيت وبالذات الامام الصادق عليه السلام.



١٩ أبناء زيد وامتداد الحركة الزيدية في التاريخ

بعد أن قُتل زيد بن علي وصُلب جثمانه المبارك في كناسة الكوفة، اتخذ كل واحد من أبنائه (يحيى^(١)، وحسين ذي الدمعة^(٢)، وعيسى^(٣)) طريقاً معيناً لمحاربة بني أمية. وهنا نستعرض حركتهم على النحو التالي:

حركة يحيى بن زيد

إنَّ يحيى ذهب إلى المدائن ومن ثم إلى خراسان وقام بالاتصال بالرساليين هناك، وبقي حوالي أربع سنوات يثبث دعوته ويحشد الأنصار لثورته، ثم حارب بمجموعة من شيعته والي بني أمية قبل الموعد المقرر للقيام، فهزم جيش والي الأموي أول مرة، وفي المرة الثانية انهزم جيش يحيى وجاءه سهم أصاب منه مقتلاً، فأخذه والي وصلبه على باب مدينة جوزجان في إيران، ثم بعث رأسه إلى الخليفة في الشام.

(١) اشترك في الثورة مع أبيه زيد، وكان موجوداً بعد شهادته، وقام بالثورة.
(٢) الحسين بن زيد بن علي بن الحسين (أبو عبد الله، ويُكنى بأبي عاتقة)، قيل: كان له يوم شهادة أبيه أربع سنين، وقيل: سبع سنين. وكان أبو عبد الله الإمام الصادق عليه السلام تبنّاه ورباه، فنشأ الحسين في حجر الإمام، وأخذ من علمه الكثير. وكان الحسين سيّداً، عابداً، زاهداً. وإنّا لقب (ذي الدمعة) لكثرة دَمْعِهِ، وبكائه في صلاة الليل من خشية الله. وذكر الأصفهاني عن يحيى بن الحسين أنه قال: قالت أمي لأبي ما أكثر بكاءك!. فقال: وهل ترك السّهان والنار سروراً يمنعني من البكاء؟. يعني السّهْمَيْن اللّذين قُتل بهما أبوه زيد وأخوه يحيى.. للوقوف على سيرته طالع: منتهى الآمال، ج ٢، ص ٧٥.

(٣) توارى بعد ثورة أخيه يحيى ومات متوارياً سنة ١٩٩ م.

وحينما استلمه الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك، كتب كتاباً إلى واليه وقال: «إذا أتاك كتابي هذا، فانظر عجل العراق فأحرقه ثم انسفه في اليمّ نسفاً»^(١).

وهكذا تتلخّص القصة بهذه العبارة، ولكن وراء هذه القصة خلفيات عديدة، وأسئلة هامة. منها: هل في الحركة الرسالية تناقض؟.

قد قُتل زيد، وظلّ جسده مصلوباً في الكوفة مدّة من الزمن، ثم قام ابنه يحيى بالثورة للطلب بثأر أبيه، وقُتل وصُلب، وطافوا برأسه في الأرجاء، كل ذلك حدث بينما كان الإمام الصادق عليه السلام يقوم بنشر الفكر الرسالي على أوسع نطاق، وكان يشتغل في المدينة المنورة بتدريس: الفقه، والتفسير، والفلسفة، والمعارف الإسلامية الأخرى.

إن هذه الظاهرة غريبة حقاً، فزيد هو عم الإمام الصادق ويحيى هو ابن عمه، ومع ذلك لم يُحرّك ساكناً، فما هو تفسير ما حدث؟.

بعض الناس يتصوّر أن هذا تناقض، فإما أن يكون زيد ويحيى مخطئين، وإما أن يكون الإمام جعفر الصادق عليه السلام - والعياذ بالله - هو المخطئ. وإذا ثبت أن يحيى كان من أتباع الأئمة باعتبار أن أباه كان كذلك، وعرفنا أن الإمام الصادق هو إمام ومعصوم، فكيف يُمكننا حل هذا اللغز وهذا التناقض؟.

العمل العسكري درع الحركة الرسالية

الجواب على ذلك بسيط، وهو أن وجود جسد زيد مصلوباً في كناسة الكوفة وقيام ابنه يحيى بالدعوة كان ذلك ضرورياً لاستمرار الإمام الصادق عليه السلام في نشر الفقه الإسلامي، كما أن قيام الإمام الصادق عليه السلام بنشر العلوم الإسلامية كان ضرورياً لاستمرار دعوة زيد، فكانا كجناحي طائر لا يطير إلا بهما، ويسقط إذا كان

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٢٣٠. أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٢٥٧.

أحدهما مفقوداً. هذه الحقيقة هي التي عبّر عنها الإمام الصادق عليه السلام في كلمة موجزة لشيعة الذين كانوا يجدون هذا التناقض ويتساءلون عنه، قال عنها: «لَا أَرَأَى وَشِيعَتِي بِخَيْرٍ، مَا خَرَجَ الْخَارِجِيُّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَلَوِ دِدْتُ أَنَّ الْخَارِجِيَّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ خَرَجَ وَعَلَى نَفَقَةٍ عِيَالِهِ»^(١).

وكان يقصد بذلك أنه لو لم تكن حركة زيد، ولو لم تستمر هذه الحركة، لكان الأئمة عليهم السلام بحاجة إلى إيجاد هذه الحركة، لأنهم كانوا يحتاجون إلى وقاية وظلال يعملون تحتها.

لقد شكّلت الحركة الزيدية جسد ثورة محمد ذي النفس الزكية^(٢)، وأخيه إبراهيم^(٣)، وقواعد ثورة يحيى^(٤) بن عبد الله بن الحسن بن الإمام الحسن عليهم السلام في الديلم، ومن هنا أصبحت الحركة الزيدية، أو الجناح العسكري، درعاً لحماية الحركة الرسالية، وقد يكون هذا الأمر غامضاً بالنسبة إلى البعض ولكن يتوضّح ذلك بما يلي:

إن أي دولة في العالم هي بحاجة إلى جناحين:

- جناح عسكري.

- جناح مدني.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٧٢.

(٢) ستوافيك الصفحات القادمة تفاصيل عن حركتهما ولماذا قامت.

(٣) إبراهيم بن عبد الله [١٠٣-١٤٥ هـ]، من كبار العلماء في فنون كثيرة، وهو الثائر الثالث بعد يحيى بن زيد. انظر: الحقائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، ج ١، ص ٢٩٩.

(٤) يُكنّى أبا الحسن. كان حسن المذهب، والهدى، مُقدِّماً في أهل بيته، بعيداً عما يعاب على مثله. وكان قصيراً، حسن الوجه والجسم، تُعرف سلالة الأنبياء في وجهه. قال الأصفهاني: «لما قتلوا أصحاب فُخ، استتر يحيى مدّةً يجول في البلدان، ويطلب موضعاً يلجأ إليه، وعلم الفضل بن يحيى بمكانه في بعض النواحي فأمره بالانتقال عنه وقصد الديلم، وكتب له منشوراً ألاّ يتعرّض له أحد. فمضى مُتَنَكِّراً حتى ورد الديلم، وبلغ الرشيد خبره وهو في بعض الطريق، فولى الفضل بن يحيى نواحي المشرق، وأمره بالخروج إلى يحيى. فذهب الفضل واحتال حتى أقدم يحيى معه على الرشيد، ثم كان إطلاق سراحه على يد الفضل...». انظر: مقاتل الطالبين.

الجناح العسكري هو الوقاية للجناح المدني، فلو لم تكن هناك قوة عسكرية لما كان بإمكان رجل بسيط في المحكمة أن يحكم في أحوال الناس، وأن يصدر الأوامر إليهم.

ولكن وجود تلك القوة العسكرية هو الذي يفرض هيئة الحكومة على الشعب، وتلك الهيئة هي التي تمنح الفرصة لكل المدنيين للعمل، ابتداء من جابي الضرائب وانتهاء بأكبر رأس في البلد، هؤلاء كلهم يحتاجون إلى القوة العسكرية حتى تظل وقاية بالنسبة لهم. والحقيقة نفسها تنطبق على واقع الحركات التغييرية الجذرية في التاريخ.

وكانت الحركة الزيدية بمثابة الدرع الواقى للحركة الرسالية التي كانت تهتم بنشر المعارف الإسلامية، وبلورة الفقه والثقافة ونشر الدعوة الحقّة في كل مكان.

ولكي نفهم ذلك جيداً نستعرض هذه القصة التي تكشف إلى أي مدى شكّلت الحركات الثورية حماية للأئمة عليه السلام.

هشام هو الذي قام بإذلال زيد فتحذّاه بثورته، كما رأينا سابقاً، وهذا الخليفة الأموي هو الذي أراد أن يهين الإمام الباقر عليه السلام عندما طلب إحضاره من المدينة إلى الشام.

ذكر السيد بن طاووس رحمته الله في كتاب (أمان الأخطار) ناقلاً عن كتاب دلائل الإمامة، تصنيف محمد بن جرير الطبري الإمامي، من أخبار معجزات مولانا محمد بن علي الباقر عليه السلام.

ذكره بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: «حَجَّ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ سَنَةً مِنَ السَّنِينَ، وَكَانَ قَدْ حَجَّ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقِرُ وَابْنُهُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عليه السلام فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عليه السلام: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ نَبِيًّا، وَأَكْرَمَنَا بِهِ فَتَحَنُّ صَفْوَةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَخَيْرُهُ مِنْ عِبَادِهِ وَخُلَفَاؤُهُ، فَالسَّعِيدُ مَنْ اتَّبَعَنَا، وَالشَّقِيُّ مَنْ عَادَانَا وَخَالَفَنَا.

ثُمَّ قَالَ: فَأَخْبَرَ مُسْلِمَةَ أَخَاهُ بِمَا سَمِعَ، فَلَمْ يَعْزُضْ لَنَا حَتَّى انْصَرَفَ إِلَى دِمَشْقَ وَانْصَرَفْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَتَفَذَّ بَرِيدًا إِلَى عَامِلِ الْمَدِينَةِ بِأَشْخَاصِ أَبِي وَإِشْخَاصِي مَعَهُ، فَأَشْخَصْنَا فَلَمَّا وَرَدْنَا مَدِينَةَ دِمَشْقَ حَجَبْنَا ثَلَاثًا، ثُمَّ أَذِنَ لَنَا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ فَدَخَلْنَا، وَإِذَا قَدْ قَعَدَ عَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ، وَجُنْدُهُ وَخَاصَّتُهُ وَقُوفٌ عَلَى أَرْجُلِهِمْ سِمَاطَانِ مُتَسَلِّحَانِ، وَقَدْ نَصَبَ الْبُرْجَاسُ حِذَاهُ وَأَشْيَاخُ قَوْمِهِ يَرْمُونَ، فَلَمَّا دَخَلْنَا وَأَبِي أَمَامِي وَأَنَا خَلْفَهُ، فَتَادَى أَبِي وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ارْمِ مَعَ أَشْيَاخِ قَوْمِكَ الْغَرَضَ.

فَقَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ عَنِ الرَّمْيِ، فَهَلْ رَأَيْتَ أَنْ تُعْفِيَنِي.

فَقَالَ: وَحَقٌّ مَنْ أَعَزَّنَا بِدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا أُعْفِيكَ.

ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى شَيْخٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ: أَنْ أَعْطِيهِ قَوْسَكَ، فَتَنَاوَلَ أَبِي عِنْدَ ذَلِكَ قَوْسَ الشَّيْخِ ثُمَّ تَنَاوَلَ مِنْهُ سَهْمًا، فَوَضَعَهُ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ انْتَرَعَ وَرَمَى وَسَطَ الْغَرَضِ، فَنَصَبَهُ فِيهِ، ثُمَّ رَمَى فِيهِ الثَّانِيَةَ فَشَقَّ فُوقَ سَهْمِهِ إِلَى نَصْلِهِ، ثُمَّ تَابَعَ الرَّمْيَ حَتَّى شَقَّ تِسْعَةَ أَسْهُمٍ بَعْضُهَا فِي جَوْفِ بَعْضٍ، وَهَشَامٌ يَضْطَرِبُ فِي مَجْلِسِهِ، فَلَمْ يَتِمَّاكَ إِلَّا أَنْ قَالَ: أَجَدْتُ يَا أَبَا جَعْفَرٍ، وَأَنْتَ أَرَمَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، هَلَّا زَعَمْتَ أَنَّكَ كَبِرْتَ عَنِ الرَّمْيِ. ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ نَدَامَةٌ عَلَى مَا قَالَ.

وَكَانَ هِشَامٌ لَمْ يَكُنْ كَنَى أَحَدًا قَبْلَ أَبِي وَلَا بَعْدَهُ فِي خِلَافَتِهِ، فَهَمَّ بِهِ وَأَطْرَقَ إِلَى الْأَرْضِ إِطْرَاقَةً يَتَرَوَى فِيهَا وَأَنَا وَأَبِي وَأَقِفُ حِذَاهُ مُوَاجِهَيْنِ لَهُ فَلَمَّا طَالَ وَقُوفُنَا غَضِبَ أَبِي فَهَمَّ بِهِ، وَكَانَ أَبِي عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا غَضِبَ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ نَظَرَ غَضْبَانٍ يَرَى النَّاطِرُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ هِشَامٌ إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَبِي، قَالَ لَهُ: إِلَيَّ يَا مُحَمَّدُ، فَصَعِدَ أَبِي إِلَى السَّرِيرِ وَأَنَا أَتْبَعُهُ فَلَمَّا دَنَا مِنْ هِشَامٍ، قَامَ إِلَيْهِ وَاعْتَنَقَهُ وَأَقْعَدَهُ عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ اعْتَنَقَنِي وَأَقْعَدَنِي عَنْ يَمِينِ أَبِي.

فَقَالَ لَهُ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا الرَّمْيِ قَطُّ مُذْ عَقَلْتُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّ فِي الْأَرْضِ أَحَدًا يَرْمِي مِثْلَ هَذَا الرَّمْيِ، أَيُرْمِي جَعْفَرٌ مِثْلَ رَمِيكَ؟!.

فَقَالَ: إِنَّا نَحْنُ نَتَوَارَثُ الْكَمَالَ وَالْتِمَامَ اللَّذِينَ أَنْزَلَهُمَا اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، فِي

قَوْلِهِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١)، وَالْأَرْضُ لَا تَحُلُو مِمَّنْ يُكْمِلُ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي يَقْصُرُ غَيْرُنَا عَنْهَا.

قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ أَبِي انْقَلَبَتْ عَيْنُهُ الْيُمْنَى فَاحْوَلَتْ وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً غَضَبِهِ إِذَا غَضِبَ... فَقَالَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ: إِنَّ عَلِيًّا كَانَ يَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ، وَاللَّهُ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا فَمِنْ أَيْنَ ادَّعَى ذَلِكَ؟

فَقَالَ أَبِي: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ كِتَابًا بَيَّنَّ فِيهِ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾^(٣)، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٤).

وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَلَّا يُبْقِيَ فِي غَيْبِهِ وَسِرِّهِ وَمَكْنُونِ عِلْمِهِ شَيْئًا إِلَّا يُنَاجِي بِهِ عَلِيًّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَلِّفَ الْقُرْآنَ مِنْ بَعْدِهِ وَيَتَوَلَّى غُسْلَهُ وَتَكْفِينَهُ وَتَحْنِيطَهُ مِنْ دُونِ قَوْمِهِ... وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، لَهُ مَا لِي، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيَّ، وَهُوَ قَاضِي دِينِي وَمُنْجِزُ وَعْدِي. ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى تَنْزِيلِهِ. وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَدٍ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ بِكَمَالِهِ وَتَمَامِهِ إِلَّا عِنْدَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ، أَيْ هُوَ قَاضِيكُمْ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَوْلَا عَلِيٌّ لَهْلَكَ عُمَرُ، يَشْهَدُ لَهُ عُمَرُ وَيَجِدُهُ غَيْرُهُ.

فَأَطْرَقَ هِشَامُ طَوِيلًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: سَلْ حَاجَتَكَ. فَقَالَ: خَلَفْتُ عِيَالِي وَأَهْلِي مُسْتَوْحِشِينَ لِحُرُوجِي. فَقَالَ: قَدْ آنَسَ اللَّهُ وَحَشَتَهُمْ بِرُجُوعِكَ إِلَيْهِمْ وَلَا تُقِمْ سِرٌّ مِنْ يَوْمِكَ.

(١) سورة المائدة، آية: ٣.

(٢) سورة النحل، آية: ٨٩.

(٣) سورة يس، آية: ١٢.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

.. وَأَمَرْنَا أَنْ نُنْصَرِفَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَاعَتِنَا وَلَا نَجْلِسَ... فَرَكِبْنَا دَوَابَّنَا مُنْصَرِفِينَ وَقَدْ سَبَقَنَا بَرِيدٌ مِنْ عِنْدِ هِشَامٍ إِلَى عَامِلٍ مَدِينٍ عَلَى طَرِيقِنَا إِلَى الْمَدِينَةِ أَنَّ ابْنِي أَبِي ثُرَابٍ السَّاحِرِينَ: مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ وَجَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام، الْكَذَّابَيْنِ -بَلْ هُوَ الْكَذَّابُ لَعَنَهُ اللَّهُ- فِيمَا يُظْهِرَانِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَرَدَا عَلَيَّ وَلَمَّا صَرَفْتُهُمَا إِلَى الْمَدِينَةِ مَا لَا إِلَى الْقَسِّيْسِينَ وَالرُّهْبَانِ مِنْ كُفَّارِ النَّصَارَى وَأَظْهَرَا هَهُمَا دِينَهُمَا وَمَرَقَا مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الْكُفْرِ دِينَ النَّصَارَى، وَتَقَرَّبَا إِلَيْهِمْ بِالنَّصْرَانِيَّةِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُكَلَّلَ بِهِمَا لِقَرَابَتِهِمَا؛ فَإِذَا قَرَأْتُ كِتَابِي هَذَا فَنَادِي النَّاسَ: بَرِئْتُ الذِّمَّةِ مِمَّنْ يُشَارِبُهُمَا أَوْ يُبَايِعُهُمَا أَوْ يُصَافِحُهُمَا أَوْ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمَا، فَإِنَّهُمَا قَدْ ارْتَدَّا عَنِ الْإِسْلَامِ. قَالَ: وَرَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلَهُمَا وَدَوَابَّهُمَا وَغُلَمَائِهِمَا وَمَنْ مَعَهُمَا شَرَّ قِتْلَةٍ...»^(١).

وسبب ذلك أن الإمام قام ببيان فضيلة جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام وأحقّيته بالخلافة. وكانت هذه المناقشة بالغة الأهمية؛ إذ إنها لم تكن كالمناقشات التي نراها تجري اليوم بين الأفراد حول مسألة القيادة، فيذهب بعد ذلك كل واحد لسبيله وكان شيئاً لم يكن.

فقد كانت مناقشة الإمام عليه السلام مع هشام تعني أن الأخير كان على باطل وعليه أن يتنازل عن منصبه، بمعنى أن أسلوب الحكم في الدولة الإسلامية يجب أن يتبدّل.

وأين جرت تلك المناقشة الحادة؟.

في قلب العاصمة، وفي بيت الملك، داخل البلاط الأموي، وقد كان الحضور هم قادة الجيش، ورؤساء العشائر، والولاة، والقضاة، والفقهاء. ونساء: لماذا لم يأمر هشام جلاديه بقتل الإمام الباقر عليه السلام؟.

ولماذا لم يقتل الخلفاء الأمويون من بعده الإمام الصادق عليه السلام بصراحة؟

(١) أمان الأخطار، ص ٦٧-٧٢. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠٦-٣١٦.

إن السبب يكمن في أن الحكومات تُفكر دائماً في أنها لو قتلت هذا القائد المعتدل، فإن المسلمين سيغضبون عندئذ ويصبحون مع الحركة المتطرفة (مع الزيدية مثلاً). وإذا صاروا مع الزيدية فإن الحكومات ستجد نفسها هي التي دفعت بالمجتمع والأمة باتجاه الحركة الزيدية، وبالتالي ساهمت وعجلت بانتهائها.

وهكذا نجد أنه لو كانت هناك حركة مسلحة في منطقة من المناطق، فإن الحكومات تحاول أن تُغذي المعتدلين بإعطائهم المناصب، وتقرّب لهم وتستميلهم. وإذا كانت لدى المعتدلين خطط بعيدة المدى، كالحركة الرسالية التي تسعى لكسب المواقع، فإن الدولة ساقطة لا محالة، إذ إنها تقع آئذ بين سندان الحركات المعتدلة ومطرقة الحركات الثورية، فهي لا تستطيع أن تضغط ولا أن تتساهل، فلا بد لها أن تسكت.

والرساليون على مر التاريخ عملوا بهذا الأسلوب، فكان هناك جناح مُتطرف، وهو الجناح الزيدي على طول الخط ويتكون من زيد وابنه يحيى، وابنه علي، ومحمد وإبراهيم ابني عبد الله^(١) بن الحسن بن الحسن، ويحيى^(٢) بن الحسين بن زيد، وعلى هذا المعدل على طول التاريخ الرسالي، إمّا أولاد زيد وإخوانه، وإمّا

(١) عبد الله بن الحسن [٧٠-١٤٥هـ]، يطلق عليه عبد الله المحض، لأن أباه هو الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام، وأمه فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام، كان شيخ بني هاشم في زمانه، وكان قوي النفس شجاعاً، مات في سجن الدوانقي مخنوقاً، وله من العمر خمس وسبعين سنة. أنظر: عمدة الطالب، ص ١١٩. منتهى الآمال، ج ١، ص ٣٥١. وللإطلاع أكثر على سيرته وشيء من تفاصيل حياته أنظر: تنمة المنتهى، ص ١٨٨-١٩٦.

(٢) من الرواة والمحدثين الثقات، عده الشيخ الطوسي رحمته الله من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، وقال عنه واقفي، وعلق العلامة المحقق الرجالي التستري رحمته الله في القاموس (ج ١، ص ٣٧)، على قول الشيخ الطوسي بأن لعله -الشيخ- أراد أن يقول زيدي، لأن أغلب أولاد زيد (زيديون)، وإنما أغلب أولاد الإمام الكاظم عليه السلام (واقفيون). وقال الشيخ النازي رحمته الله في مستدركاته، (ج ٨، ص ١٩٨): «هو من شهود وصية الإمام الكاظم عليه السلام، ولعل الإسهاد لإتمام الحجة عليه لثلايقف لا لوثاقته». توفي في بغداد سنة سبع ومئتين، وصلى عليه المأمون. أنظر: منتهى الآمال، ج ٢، ص ٧٦. الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٤٣٩.

أولاد الحسن ابن الإمام الحسن، لأن الحركة الزيدية انتشرت بين أولاد زيد وبين أبناء الإمام الحسن عليه السلام.

ففي بعض الفترات كان أولاد الإمام الحسن عليه السلام هم الذين يقودون الحركة، وفي بعض الفترات الأخرى كان أولاد زيد هم الذين يقودونها.

ومنذ ثورة زيد في بداية القرن الثاني الهجري وإلى القرن العاشر والحادي عشر الهجري، كانت للحركة الزيدية فصائل منظمة مسلحة، وهؤلاء كانوا يُشكّلون حماية للحركة الرسالية^(١).

استشهاد يحيى بن زيد عليه السلام وسقوط بني أمية

وقبل أن تُبَيّن الحركة الزيدية بعد يحيى، لا بد أن نُبيّن ما وصلت إليه الحركة من انتشار، فيحى قُتل في خراسان بلد الموالي^(٢)، والموالي هم أولئك الذين كان زيد ومن بعده يحيى، يريد إنقاذهم من ظلم بني أمية^(٣).

وهذا يدل على ارتكازهم على البُعد المؤثّر في تحرك الناس، ومن هنا كانت تتمّ المبايعات لزيد وابنه يحيى من بعده على الصيغة التالية: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفياء بين أهله بالسواء، وردّ الظالمين، وإقفال المجرم^(٤)، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقّنا، أتبايعون على ذلك»^(٥).

فالحركة كانت من ضمير المظلومين، والمحرومين، والمستضعفين. إنّ المحروم

(١) أنظر: منتهى الآمال، ج ٢، ص ٥٩ وما بعدها، وأيضاً: مقالات الإسلاميين، ج ١، ص ١٣٦-١٦٦. فقد ذكر كل من خرج من آل علي بن أبي طالب عليه السلام، من خروج الإمام الحسين عليه السلام وحتى آخر من خرج من الزيديين. فراجع.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ١٤٥.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٣٠٠.

(٤) جهر الأمير الجند، أي أبقاهم في ثغر العدو ولم يقفلهم.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ١٧٢.

الذي رأى أن إمامه قُتل وصُلب فإنه بالطبع سيثور. وفعلاً لم يُولد في مقاطعة خراسان، وأفغانستان، وأذربيجان، وأرمينيا، وباد كوبا، وبخارى، وسمرقند^(١)، مولود في تلك السنة التي قتل فيها يحيى إلا سُمِّي يحيى أو زيدا^(٢).

فيحيى وزيد قُتلا، ولكن مائة ألف شخص أمثال: زيد، ويحيى، خرجوا إلى الحياة، وهذه هي طبيعة الحركة الرسالية التي كانت للحق وخالصة لوجه الله، يُقتل فيها القائد، ولكن ينمو من جديد بمائة ضعف: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾^(٣).

إن السلسلة التي قُيد بها يحيى اشترت بمبالغ طائلة^(٤)، وتحولت إلى خواتم لكل الثائرين في خراسان، كل ذلك من أجل التبرُّك^(٥). وبعد أربع سنوات من مقتل يحيى ظهر أبو مسلم الخراساني^(٦) في خراسان مطالباً بدم يحيى. وأخذ جيشاً من الموالي باسمه، وقتل كل من اشترك في الجيش الذي هزم جيش يحيى، آلاف الأفراد قُتلوا بتهمة انتمائهم إلى الحركة المضادة ليحيى، ودُفن يحيى وأصبح مدفنه أول مزار علني اتخذته الحركة الرسالية^(٧).

(١) معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٥١، وما بعدها.

(٢) شذرات الذهب، ج ٢، ص ١٠٩. منتهى الآمال، ج ٢، ص ٧٣.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦١.

(٤) مقاتل الطالبين، ص ١٤٧. منتهى الآمال، ج ٢، ص ٧٢.

(٥) مقاتل الطالبين، ص ١٤٥. تمة المنتهى، ص ١٤٢.

(٦) الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٧٢. زيد الشهيد، ص ١٨٧.

(٧) هناك قولان في مكان مدفنه:

الأول: في قرية أرعونة، كما في مروج الذهب، ج ٣، ص ٢١٢: «فقتل يحيى في المعركة بقرية يقال لها ارعونة، ودفن هنالك، وقبره مشهور مزور إلى هذه الغاية...». وإليه ذهب صاحب شذرات الذهب، ج ٢، ص ١٠٩.

الثاني: في قرية جوزجان، قال الاصفهاني في مقاتل الطالبين، ص ١٥٠: «وصلب يحيى بن زيد على باب مدينة الجوزجان. في وقت قتله.. فلم يزل مصلوباً.. فأنزله وغسلوه وكفنوه وحنطوه ثم دفنوه». ومثله في مراقد المعارف، ج ٢، ص ٣٦٧.

ونقل الأمين رحمه الله في دائرة المعارف الشيعية، ج ١٠ عنوان: (مقام يحيى بن زيد)، مقالاً

وبدأ أبو مسلم الخراساني يقتل من وجد أسمه في ديوان بني أمية^(١)، ويجمع الأنصار باسم يحيى وانتصر - أبو مسلم - على بني أمية، وأزيلت دولتهم من الوجود، تلك الدولة التي كانت رمزاً للفساد والجريمة والكفر والشرك، انتهت بسبب مقتل يحيى.

* عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْحَلَبِيِّ قَالَ: قَالَ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «إِنَّ آلَ أَبِي سُفْيَانَ قَتَلُوا الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام، فَزَعَّ اللَّهُ مُلْكَهُمْ، وَقَتَلَ هِشَامَ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ فَزَعَّ اللَّهُ مُلْكَهُ، وَقَتَلَ الْوَلِيدَ يَحْيَى بْنَ زَيْدٍ فَزَعَّ اللَّهُ مُلْكَهُ»^(٢).

* وَعَنْ دَاوُدَ الْبَرْقِيِّ قَالَ: سَأَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام رَجُلٌ وَأَنَا حَاضِرٌ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾^(٣)، فَقَالَ عليه السلام: «أَذِنَ فِي هَلَاكِ بَنِي أُمَيَّةَ بَعْدَ إِحْرَاقِ زَيْدٍ [ب] سَبْعَةِ أَيَّامٍ»^(٤).

وسقوط بني أمية كان انتصاراً للفضيلة والعدالة، وآخر مسمار دُق في نعش بني أمية، دُق بيد يحيى بن زيد. فالناس كلهم يموتون ويذهبون، ولكن يحيى قُتل بشرف، وبمقتله استطاع أن يعمل عملاً جباراً. فسلام الله عليه يوم جاهد، ويوم قُتل شهيداً، ويوم يُبعث حياً.

إن النهاية المفجعة التي انتهت إليها حياة يحيى بن زيد، تحولت إلى انتصار هو

تحقيقاً، ذكر فيه الكاتب عبدالحى حبيبي، أن: «يحيى وأصحابه قصدوا جوزجان، وهناك التحم الطرف في معركة في قرية أرغوي (تعرف اليوم بقرغوي) في جوزجان....»، ثم قال: «إن اسم مدفن الشهيد يحيى ذكر في مروج الذهب للمسعودي (أرعونه)، وفي عمدة الطالب لابن المهنا (أرعوي) وفي دائرة المعارف الإسلامية (أرعو)، وكلها تصحيف لكلمة (أرعونه)؛ القرية التي تقع في جوزجان، واستمدت شهرتها من مرقد الشهيد يحيى.. وعلى هذا فإن مرقد الشهيد يحيى في جوزجان شمال أفغانستان».

(١) مقاتل الطالبين، ص ١٥٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٣٠٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ٥٢.

(٤) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٩١.

نهاية الحكم الأموي.

بقي أن نعرف أنه كانت هناك حركات متلاحقة للزيدية، سواء التي قادها أبناؤه الذين من صلبه، أو الذين تسلموا القيادة منه. ونواصل الحديث هنا عن إثنين آخرين من أبناء زيد اللذين هما من صلبه. أما الذين تسلموا القيادة من زيد ولم يكونوا من صلبه كثورة محمد وإبراهيم، فسوف نُشير إليهم في المواضع القادمة.

الحسين بن زيد

أحد أبناء زيد هو الحسين الذي يُسمَّى ذي الدمعة^(٥)، وقد اتَّخذ بعد مقتل أبيه حياةً تُشبه إلى حدٍّ بعيد حياة الإمام زين العابدين عليه السلام، بعد استشهاد والده الإمام الحسين عليه السلام، فكما أن الإمام زين العابدين عليه السلام، كَوَّن بتلك الحياة المأساوية وبالْبكاء والدعاء، الخلفية الرسالية في المجتمع الإسلامي، وربَّى رجلاً مثل زيد بن علي، ثار وثارَت من بعده أجيال. كذلك الحسين بن زيد المعروف بدمعته وبكائه، وهو العالم الزاهد، قد ربَّى من بعده أجيالاً من الثائرين منهم يحيى حفيده^(٦)، وكان من الرجال الذين ثاروا ثورة بطولية.

يحيى يقود ثورتين

ثار يحيى (الحفيد) أول مرة في أيام المتوكل العباسي في خراسان حيث جمع الأنصار وقاتل الجيش العباسي، إلّا أن أنصاره انهزموا أمام كثافة الجيش العباسي،

(٥) ويلقب -أيضاً- بذي العبرة، رباه الإمام الصادق عليه السلام بعد شهادة أبيه زيد وهو ابن سبع سنين، فأخذ عن الإمام علماً كثيراً، وكان عابداً زاهداً، ولقب بذي الدمعة لكثرة بكائه في صلاة الليل من خشية الله، وشهد حرب محمد (النفس الزكية)، وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام، ثم توارى.. أنظر: بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣٠٦. منتهى الآمال، ج ٢، ص ٧٥.

(٦) هو يحيى بن عمر بن الحسين (ذي الدمعة) بن زيد بن الإمام علي بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. وقيل: إنه وابن الحسين بن زيد بن علي، أي يحيى بن الحسين بن زيد بن علي، أنظر: منتهى الآمال، ج ٢، ص ٧٦. الشاهد هنا، قصته سواء كان ابن الحسين ذي الدمعة أو حفيده.

فأسر وأُخذ إلى والي خراسان، ومن ثم إلى بغداد، ومن ثم إلى العاصمة سامراء عند المتوكل العباسي. وبعد وساطات عند المتوكل العباسي أفرج عنه وأُخذ منه الضمانات الكافية^(١) بالألّا يثور ضده مرة أخرى وفعلاً لم يقم يحيى في أيام المتوكل العباسي بثورة أخرى^(٢).

وبعد أن قُتل المتوكل، جاء يحيى إلى الكوفة وبدأ يتّصل بزوار قبر الإمام الحسين عليه السلام الذي كان له في أيام العباسيين جميعاً زوّارٌ ثوريّون، وهؤلاء الزوار كانوا يأتون للزيارة، لا لمجرد أداء طقوس، إنما كانوا يزورون كربلاء للاتّصال بعضهم ببعض ولتجديد الولاء للإمام الحسين عليه السلام ولنهجه في رفض الظلم.

فالزيارة لقبر الإمام الحسين عليه السلام كانت تقوم بدور أساس في معارضة الدولة العباسية، لذلك كان العباسيون يُحاربون قبر الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنّ القبر كان قد تحوّل إلى مركز تجمع لحركة المعارضة.

اتّصل يحيى بزوّار قبر الإمام الحسين عليه السلام^(٣)، واستجاب جماعة كثيرة منهم له، ورجع إلى الكوفة، ثم دعا أصحابه أهل الكوفة لبيعته، وكانوا ينادون: «أيها الناس، أجيئوا داعي الله»، فدخل في بيعته خلق كثير^(٤).

يحيى يستولي على السلطة في الكوفة

سيطر يحيى على الكوفة^(٥)، وأول ما قام به أخذ الأموال التي كانت في بيت المال ووَزَّعها على الفقراء والمساكين، وبهذه الطريقة استطاع أن يجتذب أكبر قطاع

(١) تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٣٥٦.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٥٠٦. الفخري، ص ٢٣٧.

(٣) مقاتل الطالبين، ص ٥٠٧. منتهى الآمال، ج ٢، ص ٧٦.

(٤) منتهى الآمال، ج ٢، ص ٧٦.

(٥) من أحداث سنة ٢٥٠هـ. كما في: تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢٦٦. فهرس التراث، ج ١، ص ١٩٩. لكن الكامل في التاريخ (ج ٧، ص ٥٣) ذكرها من أحدث سنة ٢٣٥هـ.

يمكن من الشعب^(١). ثم عدل بين الناس، وتحمل ثقل الرسالة، واجتمع حوله أناس كثيرون. وكان يحيى رجلاً متديناً عابداً زاهداً. بالإضافة إلى ذلك فإنه كان رجلاً شجاعاً، ومن شجاعته أنه عندما حارب في أول معركة ضد والي الكوفة الذي كان يمتلك جيشاً وشرطة، قال لأنصاره قفوا هاهنا فإني أكفيكم الجيش كله، وأخذ بيده السيف ونزل إلى ساحة المعركة وحده وهزم الجيش العباسي المؤلف من الفرق التي كانت موجودة في الكوفة كلها بقيادة واليها وقتل والي العباسي عبدالله بن محمود وانتهى كل شيء ورجع إلى جيشه وأنصاره^(٢).

قوات العباسيين تهزم يحيى

وبعد أن بقي في الحكم لعدة سنوات وجرت خلالها معارك كثيرة بينه وبين الحاكم العباسي المستعين بالله، وهو الثاني عشر من الخلفاء العباسيين، كان له الغلبة في بعضها، وبعضها كانت متكافئة. إلا أن كثرة الهجمات التي كان العباسيون يشنونها عليه، أضعفته وقاد جيشه إلى الهزيمة في معركة استشهد فيها مع عدد كبير من أنصاره ولم يعرف رأسه من بين الرؤوس لكثرة الجراح التي كانت به.

وبعد استشهاد أسر أهله وأنصاره وأخذوا إلى بغداد مشياً على الأقدام، وكان إذا عجز أي أسير عن المشي قُتل صبراً، ولما وصل الأسرى إلى بغداد خرج أهلها في تظاهرة غاضبة استنكاراً لهذه العملية ولقتل يحيى بالذات، الذي وضع رأسه على صليب، وجاؤوا إلى عامل العباسيين عليها وهو محمد بن عبد الله بن طاهر، مستكرين ما جرى^(٣).

وعندها أمر محمد بن عبد الله بن طاهر بأن يُفرج عن الأسرى، وبالتالي أصبحت العملية كلها إثارة جديدة ضد الحكم العباسي وانتهت بثورات أخرى ستكلم عنها.

(١) منتهى الآمال، ج ٢، ص ٧٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٣٥٦. مقاتل الطالبين، ص ٥٠٧.

(٣) مقاتل الطالبين، ص ٥١٠.

هذه واقعة من الوقائع الكثيرة التي وقعت في التاريخ وقد قادها يحيى حفيد الحسين بن زيد المشهور بذي الدمة.

عيسى بن زيد

وهناك ابن آخر لزيد له قصة مؤثرة جداً وهو عيسى بن زيد، وهذه القصة إن كانت تدل على شيء فإنها تدل على الجؤ المكهرب الذي كان يعيشه الرساليون آنئذ، وأنهم كيف كانوا يواجهون كل تلك الضغوط بشجاعة وبسالة نادرة.

لقد خرج عيسى مع محمد وإبراهيم اللذين ثارا ضد الحكم العباسي أيام المنصور^(١)، وعندما انهزم جيش إبراهيم في البصرة، اختفى عيسى في الكوفة^(٢). وقبل كل شيء لا بد أن نعرف أن اختيار عيسى لمنطقة الكوفة، كان اختياراً موفقاً وعلى طول الخط، لأنها كانت المنطقة المعارضة للحكم الأموي والعباسي، والمنطقة الموالية لأهل البيت عليه السلام، لذا فإنه توارى وعاش بسرية بالغة حتى إن يحيى سأل والده (أو جدّه) ذا الدمة وقال: «يا أبة، إني أشتهي أن أرى عمي عيسى بن زيد، فإنه يقبح بمثلي ألا يلقي مثله من أشياخه، فدافعني عن ذلك مدة وقال: إن هذا أمر يثقل عليه، وأخشى أن ينتقل عن منزله كراهية للقائك إياه فتزعجه».

فلم أزل به أداريه وألطف به حتى طابت نفسه لي بذلك، فجهّزني إلى الكوفة وقال لي: إذا صرت إليها فاسأل عن دور بني حي، فإذا دلت عليها فاقصدها في السكة الفلانية، وسترى في وسط السكة داراً لها باب صفته كذا وكذا فاعرفه

(١) أنظر: عمدة الطالب، ص ٦٣. وقال في مقاتل الطالبين، ص ٣٤٤: «كان عيسى والحسين ابنا زيد بن علي مع محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن في حروبهما من أشد الناس قتالا وأنفذهم بصيرة، فبلغ ذلك عنهما أبا جعفر فكان يقول: مالي ولا بني زيد وما ينقمان علينا؟ ألم نقتل قتلة أبيهما، ونطلب بثأرهما، ونشفي صدورهما من عدوهما؟».

(٢) كان أخفاؤه في دار الحسن بن صالح بن حي، وهو من كبار الشيعة الزيدية، له معرفة بالفقه، والكلام، وله فيهما مصنفات. وقد تزوج عيسى بن زيد من أبنته. راجع عمدة الطالب، ص ٦٣.

واجلس بعيداً منها في أول السكة، فإنه سيقبل عليك عند المغرب كهل طويل مسنون الوجه، قد أثر السجود في جبهته، عليه جُبَّةٌ صوف، يستقي الماء على جمل، وقد انصرف يسوق الجمل، لا يضع قدمًا ولا يرفعها إلا ذَكَرَ الله عز وجل، ودموعه تنحدر، فقم وسلم عليه وعانقه، فإنه سيدعرك كما يدعرك الوحش، فعرفه نفسك وانتسب له، فإنه يسكن إليك ويُحدثك طويلاً، ويسألك عنا جميعاً ويُخبرك بشأناه ولا يضجر بجلوسك معه، ولا تُطل عليه، وودعه فإنه سوف يستعفيك من العودة إليه، فافعل ما يأمر بك به من ذلك فإنك إن عدت إليه توارى عنك، واستوحش منك وانتقل عن موضعه، وعليه في ذلك مشقة.

فأجابه يحيى: فقلت: أفعل كما أمرتني. وأضاف: وردت الكوفة حتى إذا رأيته (عيسى).. كما وصف لي أبي، لا يرفع قدمًا ولا يضعها إلا حرك شفثيه بذكر الله، ودموعه تترقق في عينيه، وتذرف أحياناً، فقمْتُ فعانقته، فذعر مني كما يدعرك الوحش من الإنس.

فقلت: يا عم، أنا يحيى بن الحسين بن زيد بن أخيك، فضمّني إليه وبكى حتى قلت قد جاءت نفسه، ثم أناخ جملة، وجلس معي، فجعل يسألني عن أهله رجلاً رجلاً، وامرأة امرأة، وصبيّاً صبيّاً، وأنا أشرح له أخبارهم وهو يبكي، ثم قال: يا بني، أنا أستقي على هذا الجمل الماء، فأصرف ما أكتسب، يعني من أجرة الجمل إلى صاحبه، وأتقوتُ باقيه، وربّما عاقني عائق عن استقاء الماء فأخرج إلى البرية، يعني بظهر الكوفة، فالتقط ما يرمي الناس به من البقول فأثقتّه.

وقد تزوّجتُ إلى هذا الرجل ابنته، وهو لا يعلم من أنا إلى وقتي هذا، فولدت مني بنتاً، فنشأت وبلغت، وهي أيضاً لا تعرفني، ولا تدري من أنا، فقالت لي أمها: زوّج ابنتك بابن فلان السقاء -لرجل من جيراننا يسقي الماء- فإنه أيسر منا وقد خطبها، وألحّت عليّ، فلم أقدر على إخبارها بأن ذلك غير جائز، ولا هو بكفء لها، فيشيع خبري، فجعلت تلحّ عليّ فلم أزل أستكفي الله أمرها حتى ماتت بعد أيام، فما أجدني آسى على شيء من الدنيا أساي على أنها ماتت ولم تعلم بموضعها من

رسول الله ﷺ.

قال: ثم أقسم عليّ أن أنصرف ولا أعود إليه وودّعني. وأضاف يحیی قائلًا: فلما كان بعد ذلك صرت إلى الموضع الذي انتظرت فيه لأراه فلم أراه، وكان آخر عهدي به»^(١).

قد يعتقد البعض بأن عيسى كان مجرد سقاء، ولكن الحقيقة أن عمله في السقاية كان مجرد غطاء أمني في ظل الحكم الإرهابي آنذاك، فخلال فترة بقائه في الكوفة كان يجتمع بالرساليين ويُربّيهم في تلك الظروف العصيبة.

عن خصيب الوابشي، وكان من أصحاب زيد بن علي وكان خصيصاً بعيسى بن زيد، قال: «كان عيسى بن زيد على ميمنة محمد بن عبد الله بن الحسن يوم قتل، ثم صار إلى إبراهيم فكان معه على ميمنته حتى قتل، ثم استتر بالكوفة في دار علي بن صالح بن حي، فكنا نصير إليه حال خوف، وربما صادفناه في الصحراء يستقي الماء على جمل لرجل من أهل الكوفة، فيجلس معنا ويُحدّثنا.

وكان يقول لنا: والله، لوددت أني آمن عليكم هؤلاء فأطيل مجالستكم، فأترود من محادثتكم والنظر إليكم، فوالله، إني لأتشوّقكم وأتذكركم في خلوتي وعلى فراشي عند مضجعي، فانصرفوا لا يشهر موضعكم وأمركم فيلحقكم معرة وضرر»^(٢).

فقد فرضت عليه الظروف هذا القدر من التخفي، وبرغم ذلك كان يقوم بدور توجيه القيادات الوسيطة التي بدورها تُوجّه أناساً آخرين في المجتمع الكوفي.

وهكذا حمل الرساليون مشعل الرسالة يدأ بيد ولم يدعوه يسقط، ولو سقط لأظلم العالم ولما تحوّلت بصائر الوحي إلى نور يُهتدى به في الظلمات، وإنما كان هناك مَنْ تحمّلوا أعباء الدعوة ومصاعب الظروف ليقوموا بدورهم الرسالي، ممّا يُضاعف المسؤولية علينا ونحن قد نعيش ظروفاً مشابهة، وما نجده اليوم من قيم، وما نمتلكه

(١) مقاتل الطالبين، ص ٣٤٥-٣٤٧.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٣٤٩.

من بصائر، ندين فيها لأولئك الرجال الأبطال الذين عاشوا جنوداً مجهولين لمبادئهم.
وروي عن علي بن جعفر الأحمر قال: حدثني أبي، قال: «كنت أجمع أنا، وعيسى بن زيد، والحسن وعلي ابنا صالح بن حي، وإسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق، وجناب بن نسطاس، في جماعة من الزيدية في دار بالكوفة، فسعى ساع إلى المهدي بأمرنا، ودلّه على الدار. فكتب إلى عامله بالكوفة بوضع الأرصاد علينا، فإذا بلغه اجتماعنا كبسنا وأخذنا ووجّه بنا إليه.

فاجتمعنا ليلة في تلك الدار، فبلغه خبرنا فهجم علينا، ونذر القوم به وكانوا في علو الدار، ففترّقوا ونجوا جميعاً غيري. فأخذني وحملني إلى المهدي فأدخلت إليه، فلما رأي شتمني بالزنا، وقال لي: يا ابن الفاعلة، أنت الذي تجتمع مع عيسى بن زيد وتحته على الخروج عليّ وتدعو إليه الناس؟.

فقلت له: يا هذا، أما تستحيي من الله، ولا تتقي الله ولا تخافه؟. تشتم المحصنات وتقذفهن بالفاحشة!! وقد كان ينبغي لك ويلزمك في دينك وما وليته، أن لو سمعت سفيهاً يقول مثل قولك أن تقيم عليه الحد.

فأعاد شتمني ثم وثب إليّ فجعلني تحته، وضربني يديه، وخبطني برجليه، وشتمني. فقلت له: إنك لشجاع شديد أيد، حين قويت على شيخ مثلي تضربه، لا يقدر على المنع من نفسه ولا الانتصار لها. فأمر بحبسي والتضييق عليّ، فقيّدتُ بقيد ثقيل وحُبست سنين. فلما بلغه وفاة عيسى بن زيد بعث إليّ فدعاني فقال لي: من أي الناس أنت؟. قلت من المسلمين. قال: أعرابي أنت؟. قلت: لا. قال فمن أي الناس أنت؟. قلت: كان أبي عبداً لبعض أهل الكوفة وأعتقه فهو أبي.

فقال لي: إن عيسى بن زيد قد مات.

فقلت: أعظم بها مصيبة، رحمه الله فلقد كان عابداً ورعاً، مجتهداً في طاعة الله، غير خائف لومة لائم.

قال: أفما علمت بوفاته؟ قلت: بلى. قال: فَلِمَ لم تُبشّرني بوفاته؟.

فقلت: لم أحب أن أبشرك بأمر لو عاش رسول الله ﷺ فعرفه لساءه.

فأطرق طويلاً ثم قال: ما أرى في جسمك فضلاً للعقوبة، وأخاف أن أستعمل شيئاً منها فيك فتموت، وقد كُفيتُ عدوي، فانصرف في غير حفظ الله، والله لئن بلغني أنك عدتَ لمثل فعلك لأضربن عنقك.

قال: فانصرفت إلى الكوفة. فقال المهدي للربيع: أما ترى قلة خوفه وشدة قلبه. هكذا يكون والله أهل البصائر»^(١).

وفاة عيسى بن زيد

ظل المهدي العباسي يسعى في طلب عيسى بن زيد سعيًا حثيثاً فلم يقدر على الإمساك به، وقد بذل في سبيل ذلك الأمان لعيسى ووعدته إن أتاه أن يُعطيه الأموال الكثيرة، ولكن عيسى كان يُدرك هدف الخليفة العباسي من أمانه ذاك الذي ما جاء إلا لخوفه من عيسى وما كان يعدّه في سبيل الثورة على العباسيين.

رُوي عن سعيد بن عمر بن جنادة البجلي قال: «حج عيسى بن زيد والحسن بن صالح، فسمعنا منادياً ينادي: ليبلغ الشاهد الغائب أن عيسى بن زيد آمن في ظهوره، وتواريه. فرأى عيسى بن زيد الحسن بن صالح قد ظهر فيه سرور بذلك فقال: كأنك قد سررت بما سمعت! فقال: نعم. فقال له عيسى: والله لإخافتي إياهم ساعة أحبّ إليّ من كذا وكذا»^(٢).

ورُوي عن علي بن جعفر: عن أبيه قال: «اجتمعت أنا، وإسرائيل بن يونس، والحسن، وعلي ابنا صالح بن حي، في عدة من أصحابنا، مع عيسى بن زيد، فقال له الحسن بن صالح بن حي: متى تُدافعنا بالخروج وقد اشتمل ديوانك على عشرة آلاف رجل؟.

(١) مقال الطالبين، ص ٣٥٢-٣٥٣.

(٢) مقال الطالبين، ص ٣٤٨.

فقال له عيسى: ويحك، أتكثر عليّ العدد وأنا بهم عارف. أما والله لو وجدت فيهم ثلاثمائة رجل أعلم أنهم يُريدون الله عزّ وجلّ، ويبدلون أنفسهم له، ويصدقون للقاء عدوه في طاعته، لخرجت قبل الصباح حتى أبلي عند الله عذراً في أعداء الله، وأجري أمر المسلمين على سنته وسنة نبيه ﷺ، ولكن لا أعرف موضع ثقة يفني ببيعته لله عزّ وجلّ، ويثبت عند اللقاء!..»^(١).

لقد اشتمل ديوانه على عشرة آلاف رجل، وهذا يدل على أنه كان يقود حركة واسعة ضد العباسيين، وقد شعر العباسيون بهذا الخطر الكبير الذي يتهدّد سلطتهم، فسعوا بكل الطرق للقضاء عليها، عن طريق القضاء على عيسى.

قال علي بن محمد بن سليمان النوفلي: «حدثني أبي عن أبيه وعمه، قال: إن عيسى بن زيد انصرف من وقعة باخرى بعد مقتل إبراهيم فتوارى في دور ابن صالح بن حي، وطلبه المنصور طلباً ليس بالحديث. وطلبه المهدي وجدّ في طلبه حيناً فلم يقدر عليه. فنأى بأمانه ليلبغه ذلك فيظهر، فلبغه فلم يظهر، وبلغه خبر دعاة له ثلاثة وهم: ابن علاق الصيرفي، وحاضر مولى لهم، وصباح الزعفراني، فظفر بحاضر فحبسه، وقرّره ورفق به واشتد عليه ليُعرفه موضع عيسى فلم يفعل، فقتله»^(٢).

(١) مقال الطالبيين، ص ٣٥٣.

(٢) مقال الطالبيين، ص ٣٥٥. أورد أبو الفرج الأصفهاني في كتابه (ص ٣٥٩)، طريقه شهادة حاضر صاحب عيسى بن زيد، قال: قال محمد بن أبي العتاهية: قال: حدثني أبي: «لما امتنعت من قول الشعر وتركته، أمر المهدي بحبسي في سجن الجرائم، فأخرجت من بين يديه إلى الحبس، فلما أُدْخِلْتُهُ دهشت وذهل عقلي ورأيت منظرًا هالكي، فرميت بطرفي أطلب موضعاً آوي إليه أو رجلاً آتس بمجالسته، فإذا أنا بكهل حسن السميت، نظيف الثوب، يبيّن عليه سياء الخير فقصدته فجلست إليه من غير أن أسلم عليه أو أسأله عن شيء من أمره، لما أنا فيه من الجزع والحيرة، فمكثت كذلك ملياً وأنا مطرق مفكر في حالي، فأنشد هذا الرجل هذين البيتين، فقال:

تعوّدت مسّ الضر حتى ألفتَه وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر

وصيرني يأسي من الناس واثقاً بحسن صنيع الله من حيث لا أدري

فاستحسن البيتين وتبرّكت بهما وثاب إليّ عقلي، فأقبلت على الرجل فقلت له: تفضل أعزك الله بإعادة هذين البيتين، فقال لي: ويحك يا إسمايل، ولم يُكُنِّي، ما أسوأ أدبك، وأقل عقلك ومروءتك، دخلت إليّ ولم تُسَلِّمْ عليّ بتسليم المسلم على المسلم، ولا توجّعت لي توجّع

توفي عيسى ودفن كسقاءً في الكوفة^(١)، ودفن قرب قرية الشنافية،^(٢) حيث هناك قبر يُنسب إليه.

وبعد دفن عيسى اجتمع صباح الزعفراني بالرساليين الذين كانوا معه، أي بـ(الخليّة الرسالية) حسب التعبير الحديث، ولم يكن عيسى وحده مختفياً ويقوم بالعمل في تلك الدرجة الشديدة من الخفاء والكتمان، وإنما الذين يتصلون به كانوا

المبتلى للمبتلى، ولا سألتني مسألة الوارد على المقيم حتى إذا سمعت مني بيتين من الشعر الذي لم يجعل الله فيك خيراً ولا أدباً، ولا جعل لك معاشاً غيره. لم تتذكر ما سلف منك فتلافاه، ولا اعتذرت مما قدّمته وفرطت فيه من الحق حتى استشهدتني مبتدياً كأن بيننا أنساً قديماً، ومعرفة شافية، وصحبة تبسط المنقبض!

فقلت له: اعذرني متفضلاً، فإن دون ما أنا فيه يدهش.

قال: وفي أي شيء أنت، إنما تركت قول الشعر الذي كان جاهك عندهم وسبيلك إليهم، فحبسوك حتى تقوله، وأنت لا بد من أن تقوله، فتطلق، وأنا يُدعى بي الساعة فأطلب بإحضار عيسى بن زيد بن رسول الله ﷺ فإن دلتُ عليه فقتل، لقيتُ الله بدمه، وكان رسول الله ﷺ خصمي فيه، ولأُقتل، فأنا أولى بالحيرة منك، وأنت ترى احتسابي وصبري.

فقلت: يكفيك الله، وأطرقت خجلاً منه. فقال لي: لا أجمع عليك التوبيخ والمنع، اسمع البيتين واحفظهما، فأعادهما عليّ مراراً حتى حفظتهما، ثم دُعي به وبني، فلما قمنا قلت: من أنت أعزك الله؟

قال: أنا حاضر صاحب عيسى بن زيد. فأدخلنا على المهدي، فلما وقف بين يديه قال له: أين عيسى بن زيد؟ قال: ما يُدريني أين عيسى، طلبته وأخفّته فهرب منك في البلاد، وأخذتني فحبستني، فمن أين أقف على موضع هارب منك وأنا محبوس؟

فقال له: فأين كان متوارياً؟ ومتى آخر عهدك به؟ وعند من لقيته؟

فقال: ما لقيته منذ توارى، ولا أعرف له خبراً.

قال: والله لتدليني عليه، أو لأضرب عنقك الساعة.

قال: اصنع ما بدا لك، أنا أدلك على ابن رسول الله ﷺ لتقتله، فألقى الله ورسوله وهما يطالباني بدمه، والله لو كان بين ثوبي وجلدي ما كشفت عنه.

قال: اضربوا عنقه. فقدم فضرب عنقه.

ثم دعاني فقال: أتقول الشعر أو ألحقك به، فقلت: بل أقول الشعر، فقال: أطلقوه».

(١) عمدة الطالب، ص ٣٤٩. مرآة المعارف، ج ٢، ص ١٤٤، الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ١٨٦.

(٢) مرآة المعارف، ج ٢، ص ١٤٤.

كذلك، فالواحد منهم أصبح نجّاراً، والآخر فلاّحاً، وهؤلاء كانوا في السابق من كبار الوجهاء والشخصيات ولكنهم تنازلوا عنها، ففي سبيل الله يهون كل شيء.

وكان رأي الزعفراني في أن يذهب إلى المهدي العباسي ويخبره بموت عيسى. قال صباح للحسن بن صالح: «أما ترى هذا العذاب والجهد الذي نحن فيه بغير معنى، قد مات عيسى بن زيد ومضى لسبيله، وإنما نطلب خوفاً منه، فإذا علم أنه قد مات أَمْنُوهُ وكفُّوا عنا، فدعني آتي هذا الرجل -يعني المهدي- فأخبره بوفاته حتى نتخلص من طلبه لنا، وخوفنا منه.

ولكن الحسن بن صالح قال: لا والله، لا تُبشِّرْ عدو الله بموت ولي الله ابن نبي الله ﷺ، ولا نُقرِّ عينه فيه ونُسَمِّته به، فوالله لليلة يبيتها خائفاً منه أحبُّ إليّ من جهاد سنة وعبادتها»^(١).

وبعد شهرين توفي الحسن بن صالح والتحق بالرفيق الأعلى.

ففكّر صباح أن يطبق رأيه وخُطَّتْهُ، فأخذ أطفال عيسى^(٢) معه ثم ذهب إلى سامراء وهو متنكر، فقد كان أهل البلد يعرفونه، ولما وصل دخل على المهدي، فانتفض المهدي العباسي وقال: عدو الله جاء برجله، ائتوني به.

لقد مضت خمس سنوات أو أكثر وهو يبحث عنه، وصرف الكثير من أموال الدولة في سبيل أن يُلقِي القبض على هؤلاء الرجال، وما استطاع أن يقبض عليهم، والآن أحدهم يأتي إليه برجله، إنه أحسن صيد بالنسبة للمهدي العباسي.

(١) مقاتل الطالبين، ص ٣٥٥.

(٢) لعيسى بن زيد أربعة أبناء: أحمد، وزيد، ومحمد، والحسين الغضارة. أما أحمد (المختفي) فقد كان رجلاً عالمًا، فقيهاً زاهداً عظيمًا، له كتاب في الفقه، أصبح ضريحاً آخر أيامه، عاش منذ جرى تسليمه للمهدي حتى أيام الرشيد في دار الخلافة، وقيل حتى كبر وخرج، فأخذه وحسوه، لكنه تخلص من السجن وتوارى حتى توفي في البصرة، ولذلك سمّوه المختفي. وأما الحسين فهو جد علي بن زيد بن الحسين الذي خرج بالكوفة في أيام المهدي العباسي، بعد أن بايعه جماعة من عوام الكوفة وأعرابهم... طالع: منتهى الآمال، ج ٢، ص ٨٣.

قال المهدي العباسي: «فلا حيّاك الله ولا بياك، ولا قرّب دارك، يا عدو الله، أنت الساعي على دولتي، والداعي إلى أعدائي؟»

قال صباح: أنا والله هو، وقد كان كل ما ذكرته.

فقال: أنت إذا الخائن الذي أنت به رجلاه، أتعترف بهذا مع ما أعلمه منك، وتجيئني آمناً؟

فقلت: إني جئتك مُبشّراً ومُعزّياً.

قال: مُبشّراً بماذا؟ ومُعزّياً بمن؟

قلت: أما البشري فب وفاة عيسى بن زيد. وأما التعزية ففيه لأنه ابن عمك ولحمك ودمك.

فحوّل (المهدي) وجهه إلى المحراب وسجد وحمد الله...

والعجيب في ذلك أنه كان رئيس دولة لا تغيب عنها الشمس ويسجد لله شكراً لأن عيسى السقاء، في الكوفة توفي. فهل يعني سجوده أن عيسى كان مجرد سقاء، أم أنه كان يُشكّل خطراً حقيقياً على الظلم والاستكبار، وأنه قد اتخذ السقاية وسيلة لأعماله الحقيقية؟

وأردف المهدي قائلاً: ومنذ كم مات؟

قلت: منذ شهرين.

قال: فَلِمَ لم تُخبرني بوفاته إلا الآن؟

أجاب صباح: منعني الحسن بن صالح، وأعدتُ عليه بعض قوله.

قال: وما فعل؟

قلت: مات، ولولا ذلك ما وصل إليك الخبر ما دام حياً. فسجد سجدة

أخرى وقال: الحمد لله الذي كفاني أمره، فلقد كان أشد الناس عليّ، ولعلّه لو عاش لأخرج عليّ غير عيسى. سلني ما شئت فوالله لأغنيك، ولا رددتك عن شيء تريده».

أليس هذا بمستغرب؟. فالظاهر أن الحسن بن صالح كان عنصرًا خطرًا على الدولة العباسية، أكبر إمبراطورية على وجه الأرض منذ قديم التاريخ وإلى الآن، فنحن لم نر إمبراطورية أعظم من البلاد الإسلامية.

من كان هذا الرجل؟. وماذا كان يعمل في سبيل الله حتى أخاف الله منه أكبر الجبابرة؟.

إن هذه أشياء لا يذكرها التاريخ، إنما خلف أسطر التاريخ نقرأ أشياء كثيرة، إن وراء الأسطر تكمن الحقيقة وهو المهم بالنسبة لنا.

قال صباح: «والله ما لي حاجة، ولا أسألك شيئاً إلا حاجة واحدة.

قال: وما هي؟.

قلت: ولد عيسى بن زيد، والله لو كنتُ أملك ما أعولهم به ما سألتك في أمرهم ولا جئتك بهم، ولكنهم أطفال يموتون جوعاً وضراً، وهم ضائعون، وما لهم شيء يرجعون إليه، إنما كان أبوهم يستقي الماء ويعولهم، وليس لهم الآن من يكفلهم غيري، وأنا عاجز عن ذلك، وهم عندي في ضنك، وأنت أولى الناس بصيانتهم، وأحق بحمل ثقلهم، فهم لحملك ودمك، وأيتامك وأهلك.

قال: فبكي (المهدي) حتى جرت دموعه. ثم قال: إذا يكونون والله عندي بمنزلة ولدي، لا أؤثرهم عليهم بشيء، فأحسن الله يا هذا جزاءك عني وعنهم، فلقد قضيت حق أبيهم وحقوقهم، وخففت عني ثقلًا، وأهديت إليّ سروراً عظيماً.

قلت: ولهم أمان الله ورسوله، وأمانك، وذمتك وذمة آبائك في أنفسهم وأهليهم وأصحاب أبيهم ألا تتبع أحداً منهم بتبعة ولا تطلبه.

قال: ذلك لك ولهم...»^(١).

كل ذلك كان تاريخ جهاد. فيحيى بن زيد، وعيسى بن زيد، والحسين ذو الدمعة ثاروا وشيدوا صرح الرسالة لبنة لبنة من أجسادهم ودمائهم ودموعهم، فحتى الدمعة كان الرسالي آنئذ يستفيد منها في سبيل توعية الجماهير، فلم يكن يبكي ضعفاً، ولو كان يريد ذلك لبكى في بيته ولم يثر أبداً.

ولكن الرسالي كان يثور ويبكي ويستفيد من دمعته في سبيل إثارة الناس، كذلك كان الرساليون في التاريخ ييكون ولكن ليس مثل بكاء الضعفاء بالطبع، وإنما كان بكاءؤهم من أجل توعية الناس وإثارتهم، وهذا بكاء مطلوب.

وبالتالي مثلت هذه الثورات درعاً للحركة الرسالية التي عملت على تكريس ملامح الإسلام عبر التاريخ.

— ﴿ صَفْوُ الْكَلَامِ ﴾ —

* بعد استشهاده زيد بن علي عليه السلام واصل طريقه أبناؤه الثلاثة: يحيى بن زيد، والحسين بن زيد، وعيسى بن زيد، في بقاع مختلفة من العالم الإسلامي، وبأساليب متنوعة من العمل الرسالي.

* قاد يحيى بن زيد الرساليين في خراسان وواجه والي بني أمية بعمل عسكري ثوري فهزمه في المواجهة الأولى، ولكن انهزم جيشه في المواجهة الثانية واستشهد فيها يحيى. إلا أن دم يحيى الشهيد هو الذي أدى بعد سنوات إلى إنطلاق حركة واسعة ضد بني أمية انتهت إلى سقوط الدولة الأموية.

* أما الحسين بن زيد، فقد سار على نهج الإمام زين العابدين عليه السلام، حيث عمل -من خلال البكاء والدعاء- على صنع الخلفية الرسالية في المجتمع الإسلامي، وربى أجيالاً من التأثيرين، منهم: يحيى حفيده (أو ابنه) الذي كان من الرجال الثوريين الأبطال.

* وأما عيسى بن زيد فقد عاش حياة الاختفاء في الكوفة، وعمل سريةً بالغة على الاتصال بالرساليين وتشكيل وتربية الخلايا الرسالية للمطالبة بحق آل محمد.

* وهكذا حمل الرساليون مشعل الرسالة يدأيد، ولم يدعوه يسقط، وبذلك تحولت بصائر الوحي إلى نور يهتدى به في الظلمات.



١٩ سُقُوطُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَقِيَامُ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ

إن سقوط الدولة الأموية الكبيرة وقيام الدولة العباسية بعدها ليس بالأمر البسيط. فمن الناحية السياسية كان سبب سقوط الدولة الأموية هو:

- الطغيان والفساد المنتشران في قيادة الدولة.
- التناقض والاختلاف بين أركانها.
- الثورات المتلاحقة من الفئات المستضعفة ضد الدولة ابتداءً من الرساليين، ومروراً بالمعتزلة والمرجئة، وانتهاءً بالخوارج، وغيرهم من الفئات.

لقد تفاعلت هذه الأسباب مع بعضها، وكانت النتيجة هي سقوط الدولة الأموية، وقد سئل أحد شيوخ الأمويين بعد سقوط دولتهم: ما كان سبب زوال ملككم؟.

فأجاب: «إِنَّا شُغِلْنَا بِلذَاتِنَا عَنْ تَفَقُّدِ مَا كَانَ تَفَقُّدُهُ يُلْزِمُنَا، فَظَلَمْنَا رَعِيَّتَنَا، فَيَسُّوْا مِنْ إِنْصَافِنَا، وَتَمَنَّوْا الرَّاحَةَ مِنَّا، وَتُحْمَلُ عَلَى أَهْلِ خِرَاجِنَا فَتَخَلَّوْا عَنَّا، وَخَرِبَتْ ضِيَاعُنَا، فَخَلَّتْ بِيُوتُ أَمْوَالِنَا، وَوُثِقْنَا بِوُزُرَائِنَا، فَأَثَرُوا مِرَافِقَهُمْ عَلَى مَنَافِعِنَا، وَأَمْضَوْا أَمْوَارَ دُونِنَا أَخْفَوْا عِلْمَهَا عَنَّا، وَتَأَخَّرَ عَطَاءُ جُنْدِنَا، فَزَالَتْ طَاعَتُهُمْ لَنَا، وَاسْتَدْعَاهُمْ أَعَادِينَا فَتَضَافَرُوا مَعَهُمْ عَلَى حَرْبِنَا، وَطَلَبْنَا أَعْدَاؤَنَا فَعَجَزْنَا عَنْهُمْ لِقَلَّةِ أَنْصَارِنَا...»^(١).

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٢٨.

وإذا أعدنا قراءة تلك الإجابة بلغتنا اليوم نجدها تتلخّص في أنّ الدولة تخلخلت إداريًا وتسلّلت إلى الإدارات من ليس أهل لذلك، كما أهملت الدولة وسائل الإنتاج الطبيعية مثل الزراعة التي تُمثّل المصدر الأول للثروة في كثير من الدول، فترك أصحاب المزارع من الفلاحين مزارعهم وانجّهبوا إلى المدن، وبذلك خربت المزارع وضاق الناس بسياسة الدولة، وبسبب كثرة الإسراف في الأموال من جانب الأمراء، قلّ العطاء، فبدأ التملل في صفوف الجيش. ذلك لأنه منذ أن تأسست الدولة الأموية على يد معاوية كان الجيش يدين بالولاء لكثرة العطاء وإغداق الأموال لا لشيء آخر.

الجيش القائم على العطاء

يقول معاوية في كتابه إلى الإمام علي عليه السلام: «أما بعد، فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنّها بعضنا على بعض، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نرّم به ما مضى، ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على ألاّ تلزمني لك طاعة...»^(١).

فمؤسس دولتهم هدفه لذة الفوز بالشام واللعب بأموال المسلمين.

ذات مرة دخل عمرو بن العاص على معاوية بعدما كبر ودق، ومعه مولاة وزدّان، فأخذوا في الحديث، وليس عندهما غير وردان، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، ما بقي ممّا تستلذه؟.

فقال معاوية: أما النساء فلا أربّي فيهن، وأما الثياب فقد لبست من ليّنها وجيّدتها حتى وهى بها جلدي فما أدري أيها ألين، وأما الطعام فقد أكلت من ليّنه وطيبه حتى ما أدري أيها ألذ وأطيب، وأما الطيب فقد دخل خياشيمي منه حتى ما أدري أيّه أطيب، فما شيء ألذّ عندي من شراب بارد في يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بنيّ وبنيّ بنيّ يدورون حولي، فما بقي منك يا عمرو؟.

قال: مَالٌ أَغْرَسَهُ فَأَصِيبُ مِنْ ثَمَرِهِ وَمِنْ غَلَّتِهِ.

فالتفت معاوية إلى وَرْدَانَ فقال: ما بقي منك يا وردان؟.

قال: صنيعه كريمة سَنِيَّةٌ أَعْلَقَهَا فِي أَعْنَاقِ قَوْمٍ ذَوِي فَضْلٍ وَأَخْطَارٍ لَا يُكَافِئُونَنِي بِهَا حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَتَكُونَ لِعَقْبِي فِي أَعْقَابِهِمْ بَعْدِي.

فقال معاوية: تَبًّا لِمَجْلِسِنَا سَائِرَ هَذَا الْيَوْمِ، إِنْ هَذَا الْعَبْدُ غَلَبَنِي وَغَلَبَكَ^(١).

حلفاء النظام الأموي طائفة من المرتزقة

نزل عمرو بن العاص الشام فكتب إلى معاوية: «ما كنت صانعًا إذا قشرت من كل شيء تملكه فاصنع ما أنت صانع.

فبعث إليه معاوية، فسار إليه، فقال له معاوية: بايعني!.

قال: لا، والله لا أعطيك من ديني حتى أنال من دنياك.

قال: سَلْ. قال: مصر طُعْمَةٌ، فأجابه إلى ذلك، وكتب له به كتابًا...»^(٢).

هكذا بدأ تحالف عمرو بن العاص مع معاوية.

ومرة في أيام صفين لما رأى معاوية القتلى في أهل الشام استدعى النعمان بن جبلة التنوخي، وكان صاحب راية قومه في تنوخ وبهراء، وقال له: «لقد هممت أن أُولِّيَ قَوْمَكَ مِنْ هُوَ خَيْرُ مَنْكَ مَقْدَمًا، وَأَنْصَحَ مِنْكَ دِينًا.

فقال له النعمان: إِنَّا لَوْ كُنَّا نَدْعُو قَوْمَنَا إِلَى جَيْشٍ مَجْمُوعٍ لَكَانَ فِي وَسْعِ الرِّجَالِ بَعْضُ الْأُنَاةِ، فَكَيْفَ وَنَحْنُ نَدْعُوهُمْ إِلَى سِيُوفٍ قَاطِعَةٍ، وَرُدِّيَّةٍ شَاجِرَةٍ، وَقَوْمٍ ذَوِي بَصَائِرٍ نَافِذَةٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ نَصَحْتُكَ عَلَى نَفْسِي، وَآثَرْتُ مَلِكَكَ عَلَى دِينِي، وَتَرَكْتُ لِهَوَاكَ الرِّشْدَ وَأَنَا أَعْرِفُهُ، وَحَدَّثْتُ عَنْ الْحَقِّ وَأَنَا أَبْصِرُهُ، وَمَا وُفِّقْتُ لِرِشْدٍ حِينَ أَقَاتَلُ

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٢.

(٢) مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٥٤.

على ملكك ابن عم رسول الله ﷺ، وأول مؤمن به ومهاجر معه، ولو أعطيناك ما أعطيناك لكان أرف بالرعية، وأجزل في العطية، ولكن قد بذلنا لك الأمر ولا بد من إتمامه كان غياً أو رُشدًا، وحاشا أن يكون رُشدًا، وسنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها إذ حُرمتا أثمار الجنة وأنهارها، وخرج إلى قومه، وصمد إلى الحرب..»^(١).

لقد صرَّح بالحقيقة وهي أنهم كانوا يُقاتلون عن تين الغوطة وزيتونها، وهل يعقل أن إنساناً مثل الوليد الذي يقول بعد أن جعل القرآن الكريم غرضاً للنشاب:

«تَهْدِدُنِي بِجَبَّارٍ عَنِيدٍ فَهَا أَنَا ذَاكَ جَبَّارٍ عَنِيدٍ
إِذَا مَا جِئْتَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشِيرٍ فَقُلْ: يَا رَبِّ، مَزَّقَنِي الْوَلِيدُ»^(٢)
وقال أيضًا:

فقل لله يميني طعامي وقل لله يميني شرابي^(٣)
أو إنسان مثل يزيد بن معاوية صاحب الخمر والقروذ والغواني^(٤)، أو مثل باقي الخلفاء الأمويين، هل يعقل أن هؤلاء يُريدون إعلاء كلمة الإسلام بالجهاد في سبيله، إنها مهزلة إن صدقنا بهذا.

لقد كان الهدف الأول والأخير لهؤلاء الخلفاء هو جلب العدد الأكبر من الغواني والجواري، والإكثار من المغنم والأموال^(٥)، ولكن كيف ومن أين لهم؟. وقد توقفت الفتوحات التي كانت مصدراً للمغنم والأموال، فمن أين إذن الأموال التي تُصرف على قادة الجيوش، مع هذه الأموال الطائلة التي تصرف في اللعب والفساد؟.

والنتيجة من كل ذلك هو ثورة الجيش على النظام عندما قلَّ العطاء، كما أن هناك داعياً آخر لثورة الجيش عليهم وهو كثرة الحروب والثورات، والاعتيالات

(١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٨٤ - ٣٨٥

(٢) الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٢٩٠.

(٣) شذرات الذهب، ج ٢، ص ١١١. مروج الذهب، ج ٣، ص ٢١٦.

(٤) انظر: تاريخ الخلفاء، ص ١٦٧.

(٥) تاريخ دمشق، ج ١٢، ص ٢٣٨، الإصابة، ج ٤، ص ١٩٧.

التي حصلت لقواده. إن الدولة الأموية كانت تعتمد على الجيش، وحينما قلّ عطاؤه، وزادت نقمة الرعية، قلّ ولاؤه، وحين قلّ الولاء انتهت الدولة.

العباسيون خلفاء النظام الأموي

ولكن كيف قامت الدولة العباسية؟.

من الناحية الاجتماعية نستطيع أن نُفسّر قيام الدولة العباسية بأنهم كانوا يُمثلون الجناح الوسط داخل الأمة الإسلامية، أي الوسط بين المبادئ الصحيحة للإسلام التي كان يحملها الرساليون، والسلوك المنحرف الذي مثله بنو أمية.

فبعد وفاة الرسول ﷺ تقاسمت الأمة الإسلامية ثلاثة أجنحة هي:

الجناح الأول: جناح الإمام علي^(١) بن أبي طالب عليه السلام، وهو الجناح الرسالي الثابت الذي لا تأخذه في الله لومة لائم.

الجناح الثاني: الجناح الجاهلي المتطرّف، وهذا الجناح يضم بني أمية من أبي سفيان^(٢)، والمغيرة بن شعبة^(٣)، والحكم بن العاص بن أمية.

(١) قال فيه رسول الله ﷺ: «بَا عَلِيٌّ، أَنْتَ وَشِيعَتُكَ عَلَى الْخَوْضِ تَسْقُونَ مِنْ أَحْبَبْتُمْ وَتَمْتَعُونَ مِنْ كَرِهْتُمْ وَأَنْتُمْ الْأَمْنُونَ يَوْمَ الْفَرَزِ الْأَكْثَرِ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، يَفْرَغُ النَّاسُ وَلَا تَفْرَعُونَ، وَيَحْزَنُ النَّاسُ وَلَا تَحْزَنُونَ...». بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٨.

(٢) صخر بن حرب بن أمية، كانت ولادته قبل عشر سنوات من عام الفيل، دأبه العداء لرسول الله ﷺ، وسعيه في تأجيج الحروب وسوق الجنود عليه. ولم تقم في قريش فتنة إلا وكانت له فيها قدم راسخة، انتهى به الأمر عام الفتح إلى إشهار إسلامه قهراً. وراح يتقلب في النفاق وبه عرف واشتهر. وهو القائل: «يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار...». ولقد اشتهر عن النبي ﷺ أنه قال فيه: «اللعين ابن اللعين، والطلق ابن الطلق». توفي سنة ثلاثين للهجرة، وله من العمر اثنين وثمانين عاماً. طالع: تمة المنتهى، للقمي، ج ٣، ص ٥٠.

(٣) كان إسلامه من غير اعتقاد صحيح، كما أجمعت الأمة على فسقه وفجوره، قال ابن أبي الحديد: «أصحابنا غير متفقين على السكوت على المغيرة، بل أكثر البغداديين يُفسّقونه ويقولون فيه ما يقولون في الفاسق». شرح النهج، ج ٢٠، ص ٣٦٨.

الجناح الثالث: جناح الوسط، وكان يضم كثيرًا من المسلمين، ومنهم العباسيون، وهم الذين سوف يقومون بدور هذا الجناح في المستقبل.

إن الجناح الصحيح هو الجناح الثابت المستقيم على الفكر الإسلامي، الجناح المحافظ على القيم والمبادئ والملتزم بها التزامًا صارمًا كما قالت فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها: «وَمَا نَقَمُوا مِنْ أَبِي الْحَسَنِ؛ نَقَمُوا وَاللَّهِ مِنْهُ نَكِيرَ سَيْفِهِ، وَشِدَّةَ وَطْئِهِ، وَنَكَالَ وَقَعْتِهِ، وَتَنْمِرُهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ...»^(١).

وليس بمقدور القلم أو اللسان التحدث عن كل مواقف الاستقامة والثبات على الحق ومواجهة الباطل التي وقفها الإمام علي عليه السلام، إن الأمر الثابت هو استقامته حتى النهاية واستقامته في مواقف تزل فيها أقدام الرجال وتلين عندها عزائم الأبطال.

ولكن الجناح العباسي أخيراً استطاع التغلب على الساحة بوجود ظروف مهيأة له، إذ إن أغلب الناس كان لا يهمهم مَنْ يحكمهم، إلّا أنهم كانوا مجمعين على أمر واحد، هو رفض الحكم الأموي والشعور بالذنب تجاه آل محمد عليهم السلام.

والعباسيون والعلويون من أولاد جعفر وأولاد عقيل، كل هؤلاء أجمعوا أمرهم في إطار الدعوة إلى (الرضا من آل محمد عليهم السلام).

والرضا من آل محمد عليهم السلام، يعني الدعوة إلى الرجل الذي تتوافر فيه المؤهلات الرسالية القيادية، ولكن هذه الكلمة فضفاضة، تجمع شتات الفرق الثورية، ولأن الدعوة كانت على درجة كبيرة من السرية فقد تجمّع تحت هذا الشعار العديد من الفرق الثورية.

تحوّل القيادة إلى العباسيين

بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بدأت الحركة السياسية ترسخ جذورها

(١) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٥٨.

في ضمائر الناس، إذ تحوّل الفكر الرسالي من مبدأ لمجموعة من الناس إلى مبدأ تحمله أوسع قطاعات الأمة الإسلامية.

وانتشرت هذه الحركة في جميع الأرجاء، وكان القائد التنظيمي لها أحد أولاد محمد بن الحنفية وهو عبد الله المكنى بأبي هاشم الذي يبدو أن السلطات الأموية كانت قد اكتشفت أهميته، لذلك استدعاه سليمان بن عبد الملك إلى الشام وأكرمه ودسّ إليه السم فخرج من الشام قاصداً المدينة، وفي طريقه وصل إلى منطقة الحميمة وفيها غلب عليه المرض وخشي أن يموت فتضيع دعوته ولم يجد هناك رجلاً يوثق به إلاّ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فحوّل إليه أمور العمل، ويّين له مَنْ هو قائد الحركة في المغرب ومصر وخراسان وري والكوفة والبصرة، وكيفية العمل وأسماء أنصاره، وأعطاه رسائل إليهم، ويّين أسرار الحركة ونقلها إلى هذا الرجل العباسي، وكان من المقرر أن يتّبع هذا الرجل العباسي الخطة نفسها التي كان يتّبعها الرجل العلوي، بيد أن علي بن عبد الله خان الدعوة وجعلها في مجموعة بني العباس، وكانت الثورة حينها ناضجة مختمرة، وكانت التجمّعات والحركات مستعدة للقيام، فتحوّلت الثورة حينها من الجناح العلوي إلى الجناح العباسي^(١).

ولكن هذا لا يُشكّل السبب الوحيد الذي أدّى إلى تحوّل الخلافة من العلويين للعباسيين، إنما السبب الرئيس هو أن العباسيين لم يكن يهمهم إلاّ الوصول إلى الحكم، بينما العلويون كان همّهم من الوصول إلى الحكم أن يُحقّقوا هدفهم وهو تطبيق حكم الله.

وكان العباسيون ينتظرون سقوط الدولة الأموية لكي تتحوّل السلطة إليهم، وكانوا يُصوِّرون أنفسهم بأنهم هم الذين سيُطبقون ويجسّدون الرسالة، بمعنى أنهم قد حوّلوا النظرة إلى الهدف وهو تطبيق القيم، إلى النظرة إلى الأشخاص وحكم الأشخاص، واكتسحوا الشارع ووصلوا إلى الحكم.

(١) مقاتل الطالبين، ص ١٢٤. المعارف، لابن قتيبة، ص ٢١٧. الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٣١٦.

وهناك وقائع كثيرة تدل على أنهم لم يكونوا من البداية على الخط الصحيح، مثلاً: إن أبا سلمة الخلال - وهو داع كبير من دعاة العباسيين وبيده الخيوط الرئيسة للحركة العباسية، بعد دخول أبي مسلم الخراساني العراق قاصداً احتلال الكوفة المعروفة بتشيعها للإمام الصادق عليه السلام - يكتب رسالة^(١) إلى الإمام الصادق عليه السلام. ولأن أبا سلمة كان يعلم رفض الإمام الصادق عليه السلام لما بعث به إليه، كتب نسخة ثانية من الكتاب ووجهها بيد الرسول نفسه وهو محمد بن عبد الرحمن بن أسلم، وكان جده مولى لرسول الله ﷺ، إلى عبد الله بن الحسن.

وجاء هذا الرجل بالرسالة إلى الإمام الصادق عليه السلام وكان هناك مصباح زيتي فوضعها عليه فاحترقت، وقال الإمام عليه السلام: «وما أنا وأبو سلمة؟. وأبو سلمة شيعة لغيري».

وعندما رأى الرجل ذلك المشهد وكان قد ائتمنه أبو سلمة الخلال على سر كبير قال: يا ابن رسول الله، الجواب!.

فأجابه عليه السلام: «عرّف صاحبك بما رأيت»^(٢).

فتعجب الرسول وقال: عجباً، إن أحداً تُعرض عليه الخلافة فيرفض. ثم ذهب إلى عبد الله بن الحسن، ف جاء أبو محمد عبد الله بن الحسن إلى الإمام الصادق عليه السلام فقال:

«هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى ما أقبله، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل

خراسان.

(١) قال المسعودي، في مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٥٤: «وكتب (أبو سلمة الخلال) كتابين على نسخة واحدة إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد، وإلى أبي محمد عبد الله بن الحسن (رضي الله عنهم أجمعين)؛ يدعو كل واحد منهما إلى الشخص إلى الشخص إليه ليصرف الدعوة إليه، ويجتهد في بيعه أهل خراسان له، وقال للرسول: العَجَلُ العَجَلُ، فلا تكونن كوافد عاد. فقدم محمد بن عبد الرحمن المدينة على أبي عبد الله جعفر بن محمد فلقية ليلاً...».

(٢) الفخري، ص ١٥١. مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٥٤.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟ وأنت أمرته بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجَّهت فيهم؟ وهل تعرف منهم أحداً؟

فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام، إلى أن قال: إنما يريد القوم ابني محمداً، لأنه مهديُّ هذه الأمة. فقال أبو عبد الله عليه السلام: والله ما هو مهديُّ هذه الأمة، ولئن شهر سيفه ليقتلن. فنازعه عبد الله القول، حتى قال للإمام: والله ما يمنعك من ذلك إلا الحسد.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: والله ما هذا إلا نصيح مني لك، ولقد كتب إليَّ أبو سلمة بمثل ما كتب به إليك. فلم يجد رسوله عندي ما وجد عندك، ولقد أحرقت كتابه من قبل أن أقرأه، فانصرف عبد الله من عند جعفر مغضباً..^(١)

ولقد كان العباسيون يستفيدون من أي اسم علوي يدخل معهم في واجهة الحركة، فلقد كان للعلوي سحر في أن يستهوي القلوب كما كان يُبعد عنهم تهمة سحب القيادة من العلويين.

ولقد كانت مسألة العلويين هي الشغل الشاغل للعباسيين منذ أن كانت الحركة سرية حتى آخر يوم في دولتهم، وأبرز شاهد على حديثنا هذا هو أن الخليفة العباسي لا يفتأ يخاف من وزيره أو حاشيته من أن يكونوا موالين للعلويين. ولكن أهل الكوفة كان اتِّجاههم اتِّجهاً علوياً، ويعرفون الفرق بين العلويين والعباسيين، بينما لم يعرف أهل خراسان هذا الفرق بذلك الوضوح، فقد كانوا يقولون هاشميين ولكن لا يُفرِّقون بين العلوي والعباسي. وبدأ أبو سلمة الخلال بنشر الدعوة باسم الرضا من آل محمد، وكان معروفاً عند الناس بأنه علوي.

والمهم في كل ذلك هو أننا نستدل من هذه الواقعة على أن تحوُّل الحركة

الجماهيرية من العلويين للعباسيين لم يكن تحوُّلاً آتياً عبر قصة بسيطة في الحميمة، إنما كان ذلك التحوُّل لأن التيار العباسي كان تياراً انتهازياً، فالغاية عنده تبرر الوسيلة، وكان رسالي الواجهة، مصلحي الباطن. فمثلاً: حنث المنصور الدوانيقي في يمينه ثلاث مرات، وذلك عندما حلف على أن يُعطي الأمان لابن هبيرة^(١)، والثانية مع عمه عبدالله بن علي^(٢)، والثالثة مع أبي مسلم الخراساني^(٣)، وكلهم غدر بهم^(٤) بعد يمينه على أن يؤمَّنهم، فماذا تريد من الرأي العام أن يقول في رئيس دولة يحلف ثم يحنث يمينه، وتتكرَّر العملية ثلاث مرات.

وبهذا الأسلوب جمع التيار العباسي المرجئة والخوارج في البداية وأيدهم وكان يقول لهم: إن الحق معكم وسوف نحكم باسمكم.

فجاء الخوارج مع العباسيين في البداية لأنهم سمعوا بأن العباسيين سوف يستولون على الحكم ويقومون بتسوية الأمر شورى بين المسلمين، كذلك المعتزلة دخلوا مع العباسيين عندما قالوا لهم: بأنهم سيأتون بواصل بن عطاء^(٥) إلى الحكم^(٦).

ولكن عندما وصل العباسيون إلى السلطة قاموا بتصفية الرؤوس التي جاءت بهم إلى الحكم، كأبي سلمة الخلال داعيتهم في الكوفة^(٧). وتبعه قتل أبي مسلم الخراساني، وهو القائد العسكري الذي وطَّد لهم الأمور ومن ثم ظهرت له

(١) الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٨٢. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٢٢١.

(٢) الإنباء، ص ٦٢. أنساب الأشراف، ج ٤، ص ١٨٣.

(٣) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٦٨.

(٤) منهم: عيسى بن موسى العباسي، الذي به توطَّدت الدولة العباسية، وعيَّنه السفاح ولياً للعهد بعد المنصور، لكن المنصور تحايل عليه بكل ممكن حتى أخره وقدَّم في العهد عليه المهدي. ومنهم أيضاً: يعقوب بن داود، وفضل بن سهل، وجعفر البرمكي، ويحيى الحسني، وغيرهم ممَّن أسدوا إليهم خدمات كبيرة وطدت دولتهم.

(٥) أبو حذيفة (٨٠-١٣١هـ)، مؤسس الاعتزال.

(٦) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٧٩.

(٧) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٥٤. أنساب الأشراف، ج ٤، ص ١٥٥.

مكانة بين الناس وأخذ صيته ينتشر، كما قتل المنصور عمه عبد الله بن علي الذي طارد آخر الخلفاء الأمويين وقتله في مصر^(١).

وهكذا كان العباسيون يقومون باغتيال الرموز، وقاية من أي تحزُّبات ضدهم، وهذا ما رأيناه في أعمال العباسيين تجاه البرامكة عندما قام الرشيد بقتل جعفر بن يحيى البرمكي، واستئصال شأفة الباقيين منهم.

لقد كان العباسيون يُيقنون على الأفراد ما بقيت لديهم حاجة إليهم، وعقب انتهائها لا يجدون غير تصفيتهم.

أسباب نجاح حركة العباسيين

هناك أسباب مباشرة لنجاح الحركة العباسية وهي:

السبب الأول: طول الفترة التي أمضتها الحركة في النضال للوصول إلى الحكم، وعلينا ألاّ نتصوّر أن الحركة العباسية كانت وليدة عشية وضحاها. وربما نستطيع أن نقول: إن حوالي ٣٠ إلى ٥٠ سنة من العمل، هي التي جاءت بهم إلى دفعة الحكم.

وإن بعض أئمة العباسيين قُتلوا في عهد الأمويين، بمعنى أن الناس بايعوهم، ولكن الأمويين قتلوهم، وذلك بعد أن ظهرت إلى ساحة العلن.

السبب الثاني: اختيارهم لخراسان، حيث كانت تضم ميزات عديدة ساعدت على نمو المعارضة وتحوُّلها إلى تيار ناضج ضد الحكم الأموي، منها:

ألف: ابتعاد خراسان عن دار الخلافة، ممّا يسمح بازدياد العمل وتقويته.
باء: وجود شخصيات معارضة للحكم الأموي نتيجة لعنصريته الغريبة، حيث كان يعتبر أهاليها من الموالي.

(١) أنساب الأشراف، ج ٩، ص ٣١٥. البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٤٣. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ١٦٤.

جيم: إحاطة بلاد خراسان ببلاد كثيرة كان بإمكان الثوار أن يعتمدوا عليها ويأتوا بالجيوش منها، بمعنى كثرة عددها، واستمرارية قوتها.
دال: سلامة ميول أهالي خراسان، أي إنهم كانوا خالصين في الولاء لبني هاشم.

فالاختيار كان جيداً، لذلك كان مبدأ الزحف من خراسان صوب العراق، وانجهموا بعدها إلى الشام، وبعدها اصطدموا مع مروان الحمار آخر الخلفاء الأمويين وقتلوه^(١).

مع أن مروان كان أذكى الخلفاء الأمويين وأمكرهم، وقد لُقّب بالحمار لطول نَفْسِهِ في محاربته لأعدائه، ولشدة تحمُّله^(٢)، مع كل ذلك فقد كانت عواصف الثورة أقوى منه فقلعته. وفي فترة خلافته التي لم تتجاوز الخمس سنين وبضعة أشهر، لم يفارق مروان الحمار ساحة الحروب، إن ذلك يرسم لنا هيجان الوضع سياسياً واجتماعياً في تلك الفترة، فقد كانت أخبار الحروب تُدَوِّي آنذاك في كل مكان، ولو كان مروان بن محمد أول الخلفاء الأمويين - على سبيل الفرض - لكان له تاريخ مسطور كمعاوية، ولكن الدولة الأموية كانت في نزعات الموت ولا سبيل لإرجاع الحياة إليها، وسقوطها كان مسألة وقت فقط.

والواقع أن الدولة الأموية انتهت منذ عهد هشام بن عبد الملك، والذين أتوا من بعده كانوا أربعة خلفاء أولهم: حكم سنة وشهرين^(٣)، والثاني خمسة أشهر^(٤)،

(١) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٤٦. تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ٤٤٢.

(٢) الفخري، ص ١٣٥. تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٣.

(٣) الوليد بن يزيد بن عبد الملك. بويع له في جمادى الأولى سنة خمس وعشرين ومائة بعد مقتل هشام، وقتل في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، وكانت خلافته سنة واحدة وشهرين وعشرين يوماً. الإنباء، ص ٥١. أنساب الأشراف، ج ٩، ص ١٢٧، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٥.

(٤) يزيد بن الوليد بن عبد الملك. بويع له بالخلافة بعد مقتل الوليد، وذلك في آخر ليلة جمعة من شهر جمادى الآخرة، قيل: توفي بالخضراء من طاعون أصابه، اختلّفوا في تاريخ وفاته لكن

والثالث شهرين^(١)، والرابع - مروان الحمار - كان عهده عهد الحروب، لا عهد الملك.

وهؤلاء لم تكن لهم هيبة الملك والسلطة، وكلهم كانوا مشغولين باللهو والخلاعة^(٢)، وقسم كبير من الخلفاء الأمويين عندما جاؤوا إلى الخلافة لم تكن البلاد البعيدة تعرف أنهم أصبحوا خلفاء، وهذا يدل على أن الدولة قد زالت أيام هشام، خاصة إذا عرفنا ما قام به هشام في فترة حكمه التي طالت حوالي (١٩ سنة وسبعة أشهر) والتي كانت بين (١٠٥-١٢٥)^(٣) من أعمال القتل والذبح والإرهاب ضد الفئات الإسلامية الأخرى.

الإمام الصادق ودوره في التحولات

عاصر الإمام الصادق عليه السلام نهاية الحكم الأموي وبداية الحكم العباسي، وهنا نتساءل: ما هو دور الإمام الصادق عليه السلام في تلك التحولات؟.

لقد اشتبه على بعض الباحثين دور الأئمة بعد الإمام الحسين عليه السلام، بحيث

الأشهر في نهاية شهر ذي القعدة. وكانت مدة ولايته ستة أشهر على الأشهر، وقيل: خمسة أشهر وأيام. البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٧. تاريخ خليفة، ص ٢٤٠. الأنساب للسمعاني، ج ١٣، ص ١٧.

(١) إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، تولى الخلافة بعد يزيد ودام فيها شهرين وأحد عشر يوماً، خلعه مروان من الخلافة. عندها تولى مروان أمر دمشق وسيطر على الدولة، ثم اختفى إبراهيم، وظهر بعد أن أمته مروان. وقُتل مع مَنْ قُتل من بني أمية حين سقطت دولتهم على يد العباسيين، وقيل: إنه غرق في نهر الزاب، وكان ذلك سنة ١٢٦ هـ. مروج الذهب، ج ٤، ص ٢٩٤. الإنباء، ص ٥٢. الفتوح، ج ٨، ص ٣٠٦، الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٩٩.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ٨٧.

(٣) بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد في يوم الجمعة، آخر أيام شهر شعبان سنة ١٠٥ هـ وقيل: توفي في آخر شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، وكانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر. ويقال: إنه مات ليلة الأربعاء لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائة. ويقال: كانت خلافته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وواحداً وعشرين يوماً. أنساب الأشراف، ج ٨، ص ٣٦٩. البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٣٣.

اعتقد بعضهم ترك الأئمة عليهم السلام للتوجه السياسي واهتمامهم بنواح أخرى.

ولكي نقرب من الدور الحقيقي للأئمة عليهم السلام لا بد لنا من العودة لتاريخهم ومحاولة فهمه بأفق واسع يتخلّى عن النظرة الجزئية، فلا يمكن معرفة الدور الذي يقوم به الإمام بعيداً عن معرفة الواقع التاريخي والسياسي الذي يعيش فيه، ومدى العلاقة التي تربط بين الإمام وذلك الواقع؟ وما هو تأثير الإمام في مجريات ذلك الحدث السياسي؟.

فهذه الأسئلة تُقرب من الدور الحقيقي للأئمة عليهم السلام، وهو ما غاب عن بعض الباحثين الذين نظروا للأئمة عليهم السلام من خلال دورهم الديني المباشر فقط. فلم يعرفوا الإمام الصادق عليه السلام خارج مسجد المدينة، وما كان يقوم به من حلقات علم ودرس. وهذه النظرة تنسى كون الإمام يعيش ضمن واقع سياسي ممتد ومعقد.

ومن خلال العودة إلى التاريخ يتضح أن الأئمة ابتداءً من الإمام زين العابدين عليه السلام وانتهاءً بالإمام الحجة عليه السلام، قد دخلوا في كل مجالات ونواحي السياسة، وقد كشف التاريخ عن دورهم المباشر وغير المباشر في قيادة الحركة الرسالية، التي وصلت إلى درجة سيطرت فيها على قطاعات واسعة من البلاد الإسلامية وظلّت هكذا في كل عهد الأئمة عليهم السلام.

فالأئمة وابتداءً من الإمام الصادق كانوا يحكمون أجزاء من الدولة الإسلامية، ولقد كانت سيطرتهم على تلك الأجزاء عن طريق ولائها، الذين كانوا من أنصارهم. وعلى سبيل المثال، كان والي الأهواز^(١) يجاهر نوعاً ما بالتشيع ويدعو إلى الإمام الصادق عليه السلام ويطيع أوامر الإمام الذي يبعث إليه برسالة تختص بالتنظيم الإداري مرة وبالقضاء مرة أخرى.

(١) عبدالله النجاشي، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، ومن خيار الشيعة في تقواه وورعه. روى الرسالة وجوابها من الإمام عليه السلام، الشهيد الثاني في رسالة الغيبة. وعنه: وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٢٠٧. وبحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٦٠.

فكما كان يكتب الإمام علي عليه السلام تنظيمًا إداريًا لواليه على مصر مالك الأشر عليه السلام (١)، فقد كان الإمام الصادق عليه السلام أيضاً يكتب تنظيمًا إداريًا لوالي العباسيين على الأهواز، وبالرغم من أن القضية كانت صعبة ومُعقّدة إلا أن العباسيين لم يستطيعوا أن يحكموا لوحدهم، ومن الطبيعي أن الرساليين لم يتركوا التدخل في شؤون الحكم، وكمثال على ذلك: الربيع (٢) الذي كان حاجباً للمنصور، وتعني كلمة حاجب في ذلك الوقت (وزير البلاط)، كان هذا الرجل من محبي الأئمة عليهم السلام، وفي اليوم الذي جاء المنصور بالإمام الصادق عليه السلام قال الإمام للربيع: «يَا رَبِيعُ، أَنَا أَعْلَمُ مَيْلَكَ إِلَيْنَا، فَدَعْنِي أَصَلِّي رَكَعَتَيْنِ وَأَدْعُو.

فقال له الربيع: شَأْنُكَ، وَمَا تَشَاءُ فَصَلِّي رَكَعَتَيْنِ..

بعد ذلك بكى الربيع، فصلّى الإمام عليه السلام ركعتين ثم دخل على المنصور، وكان قد جعل سيفاً تحت لبدته، وكلما يتحدث النقاش بينه وبين الإمام الصادق عليه السلام كان المنصور يقبض على السيف، فقال الربيع في نفسه: «إِنْ أَمَرَنِي فِيهِ بِأَمْرٍ أَنْ أَعْصِيَهُ، لِأَنَّنِي ظَنَنْتُ أَنَّهُ يَأْمُرُنِي أَنْ أَخْذَ السَّيْفَ فَأَضْرِبَ بِهِ جَعْفَرًا، فَقُلْتُ: إِنْ أَمَرَنِي صَرَبْتُ الْمَنْصُورَ وَإِنْ أَتَى ذَلِكَ عَلَيَّ وَعَلَى وُلْدِي..» (٣).

وسوف تُبيّن في الفصول القادمة دور الإمام الصادق عليه السلام في تلك الفترة بشيء من التفصيل.

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم (٥٣)، من كتاب له عليه السلام كتبه للأشر النخعي عليه السلام لما ولّاه على مصر وأعمالها. وانظر للمؤلف شرحاً وافياً للعهد طبع بعنوان: الحكم الإسلامي.. في مدرسة الإمام علي عليه السلام، وأيضاً: انظر للمؤلف: فقه الدستور وأحكام الدولة الإسلامية.

(٢) الربيع صاحب المنصور، كان يتشيع، عدّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الإمام الصادق ومن الراوين عنه عليه السلام.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٩٦.

— ﴿ صَفْوُ الْكَلَامِ ﴾ —

* سقوط الأمويين كان بسبب: انتشار الطغيان والفساد في قيادة الدولة، والاختلاف بين أركانها، والثورات المتلاحقة من الفئات المستضعفة وبالأخص الرساليين.

* كانت الدولة الأموية تعتمد على الجيش، وحينما قل عطاء الدولة للجيش، وزادت نقمة الرعية، قل ولاؤه، وحين قل ولاء الجيش انتهت الدولة.

* استغل العباسيون الظروف المهيأة، حيث كان أغلب الناس يرفضون الحكم الأموي ويشعرون بالذنب تجاه آل محمد ﷺ. فتحركوا تحت شعار الرضا من آل محمد، وأوهموا الناس بأنهم سيُطبقون ويُجسّدون الرسالة إذا وصلوا إلى الحكم.

* وكان العباسيون يستفيدون من اسم أي علوي ينضوي تحت رايتهم ويجعلونه في الواجهة، ولكن الإمام الصادق عليه السلام وهو شيخ العلويين في ذلك العصر رفض التعاون معهم بشكل قاطع.

* نجح العباسيون في الاستيلاء على الحكم بسبب طول كفاحهم في سبيل ذلك (من ٣٠ إلى ٥٠ سنة) وبسبب اختيارهم خراسان قاعدة للانطلاق، وكانت فيها ميزات عديدة ساعدت على نمو المعارضة وتحويلها إلى تيار جارف ضد الحكم الأموي.





الشارح الإسلامي.. دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

البَابُ الثَّالِثُ: مَدْخَلٌ إِلَى وَاقِعِ الْحَرَكَةِ الرَّسَالِيَّةِ فِي الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ

الحركة الرسالية في عصر الإمام الصادق عليه السلام
كيف كان الإمام الصادق عليه السلام يوجه الأمة؟



١٩ الحركة الرسالية في عصر الإمام الصادق عليه السلام

في القرن الأول للهجرة كانت المبادئ الرسالية العامة تتكامل في النفوس وفي الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكانت الدولة الإسلامية تقوم بالامتداد عبر جميع الاتجاهات غرباً، وشرقاً، وشمالاً، وجنوباً، ولكن في الوقت نفسه كانت هناك حركة معارضة تصحيحية هي الحركة الرسالية التي كان يقودها ويمثلها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم أولاده الأطهار عليهم السلام.

وفي القرن الثاني للهجرة تحوّل الجهد العملي لجميع أبناء الأمة إلى الإصلاح الداخلي، وتوقفت الفتوحات الخارجية نوعاً ما، وقلّ الاهتمام بها.

وقد كان هذا التحوّل نتيجة جهود العناصر الرسالية المؤمنة التي عملت على تركيز العمل نحو الداخل، أي نحو تصحيح المسيرة، ومن هنا نلاحظ في القرن الثاني الهجري نشوء حركات فكرية وسياسية كثيرة في الدولة، وهي وإن كانت ذات اتجاهات مختلفة، إلا أنها جميعها كانت تهدف هدفاً مشتركاً واحداً وهو الإصلاح الداخلي في الأمة.

ومن جملة تلك الحركات المعتزلة، والمرجئة، والخوارج، والزيدية، وحركات أخرى، كل ذلك مضافاً إلى الحركة الأم التي كانت عليها أعباء التغيير أكثر من غيرها وهي حركة الرساليين.

وفي القرن الثالث للهجرة نجحت الحركات الإسلامية في إيجاد نوع من

التوازن السياسي داخل الأمة الإسلامية، وكان نتيجة ذلك أن انصبَّ الاهتمام أكثر فأكثر على اللغة وآدابها والعمران بمجالاته المختلفة، فتحوّلت الحضارة الإسلامية من حضارة القيم والمقدسات والعلوم إلى حضارة العمران المادي، والترف الأدبي فقط.

ونحن نتصوّر أن هذه التحوّلات والمراحل المتدرجة لم تحدث في التاريخ الإسلامي فقط وإنما حدثت في كل الأمم، والحضارات الماضية.

كانت تلك نظرة عامة للتاريخ الإسلامي، وإذا طبقنا هذه النظرة على العهد العباسي فإننا سنلاحظ أنه قد تميّز في آخر عهده بإصلاحات سياسية واسعة بالرغم من أنه كان عهد تحضّر عمراني في أكثر الوجوه، وكانت هذه الإصلاحات نتيجة مباشرة لاختتمار الحركة التصحيحية داخل الأمة الإسلامية، فقد استوعبت ذهنية الأمة مفهوم الحركة التحرّرية بشكل جيد.

فالأفكار والمفاهيم السياسية التي فرضها الحكام على الجماهير المسلمة، قد ذابت عملياً في القرن الأول، الذي غاب فيه مفهوم المعارضة، لأن كثيراً من الناس كان ينخدع بالتأويل الخاطيء للآية الكريمة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١). أما بعد ذلك فإن غالبية الأمة عرفت أنه ليس كل من جلس على سدة الحكم فهو مخوّل أن يحكم بما يشاء، بل إنّ على المسلمين أن يقوموا في وجه الحاكم الظالم، فقد كان سكوتهم عن الحكام الطغاة سبباً في نزول الكوارث بهم، وبذلك انضوى الناس تحت الألوية المختلفة التي كانت تحارب الوضع القائم.

وهكذا نجد أن الحركات التحرّرية^(٢) قد اجتمعت على إسقاط الدولة الأموية التي كانت صعبة السقوط. والوضع الأموي - كما حللناه فيما سبق - كان يعتمد على الجيش المرتزق، وعلى القبائل الجاهلية، وعلى كل الأفكار المادية المنحرفة، من

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٢) هي شكل من أشكال المقاومة والرفض، تقوم بها جماعة أو حزب، أو تيار شعبي، ضد الدولة الفاسدة والمنحرفة، أو حتى غير المرضية شعبياً.

نظام العائلة الحاكمة، إلى الطابع العنصري العربي (العدناني والشامي ضد القحطاني)، وانتهاءً ببقية المفاهيم الجاهلية المادية، فكانت قوة الدولة الأموية من النوع المرحلي، ولهذا فقد اجتمعت الحركات التحررية، وأسقطت هذه الدولة، وبعد سقوطها كان من الطبيعي أن تختلف هذه الحركات بعضها مع بعض.

فقد اشتركت الحركة الزيدية مثلاً مع العباسيين في إسقاط الدولة الأموية، ولكن حينما جاء ثاني الخلفاء العباسيين وهو المنصور الدوانيقي سرعان ما قام محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن عليه السلام بالحركة المعارضة، وكانت هذه أولى الحركات التي قامت ضد العباسيين.

حركة محمد ذي النفس الزكية^(١)

كيف قامت هذه الحركة، ولماذا؟.

قبل أن تبين ذلك لا بد أن نعرف أن الأمة الإسلامية كانت أرضية خصبة للحركة التحررية، فالإمام الحسين عليه السلام كان قد جهد كثيراً حتى أوجد بعض الأنصار ليُحاربوا معه، وبعده جهد المختار وزيد، ولكن عندما جاء محمد وإبراهيم -ابنا عبد الله بن الحسن- كانت الأرضية حينها أكثر صلاحية ونضوجاً، وكان الناس أكثر وعياً فالتفوا حولهما، وتساقطت الولايات الواحدة بعد الأخرى بيد محمد وأخيه إبراهيم، كل ذلك بفعل التحول الذي حدث. ويُشير المؤرخون إلى ظاهرة ذات دلالة كبيرة، وهي أن الإمام الحسين عليه السلام نزع الشرعية بنهضة من يد

(١) أبو عبدالله، محمد بن عبدالله بن الحسن بن الإمام الحسن بن علي عليه السلام [١٠٠-١٤٥هـ]، وكان يُسمّى المهدي، ويُعرف بالنفس الزكية وقد ورد الأثر أنه يُقتل فيسيل دمه إلى أحجار الزيت كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام. كان شجاعاً فارساً خطيباً بارعاً في الخطبة على تممة كانت تعتريه إذا تكلم، فإذا عرضت له ضرب بيده صدره فينتفح لسانه، وكان غزير العلم، وافر الفهم، قد سمع من آبائه عليهم السلام الحديث، نال الشهادة في أيام المنصور. راجع: الحداثق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، ج ١، ص ٢٧٤. المجدي في أنساب الطالبين، ص ٢٢٣. مقاتل الطالبين، ص ٢٠٧. منتهى الآمال، ج ١، ص ٣٧٨.

النظام الحاكم وسلّمها إلى الحركة المناهضة في وعي الأغلبية من أبناء الأمة، فالبصرة -مثلاً- كانت معقلاً من معاقل الفكر المعادي لأهل البيت عليه السلام^(١)، وبعدها تحوّل هذا المعقل وسقط بيد الحركة الزيدية في عهد العباسيين^(٢).

ولذا فإنهم يقولون: إن ذلك كان دليلاً على مدى توغل الزيدية وانتشار أفكار المعارضة في البصرة، ما يعني أن الأرضية كانت صالحة للثورة، وأن الأمة قد نضجت فيها الفكرة التي تقول: يجب أن نقوم وندافع عن حريتنا بتطبيق الإسلام بصورة صحيحة، لأنه الطريق الذي نستطيع من خلاله أن نحصل على حقوقنا وإلاً سنظل نرزع تحت الطغيان والظلم. وهكذا قامت الحركة الزيدية بالثورة في عهد المنصور الدوانيقي ثاني الخلفاء العباسيين.

فقبل أن يتمتع الخلفاء العباسيون بالجلوس على كرسي الخلافة، إذا بهم يرون أن محمد بن عبد الله يثور ضدهم، وكان يدعى بالنفس الزكية لزهده ونُسكه، وكان والده عبد الله يقوم بتهيبته مع أخيه إبراهيم للقيام، وهذا قليلاً ما نجد أمثاله في التاريخ، وهو أن نجد الأب نفسه قادراً على تحمّل أعباء الثورة والقيام ضد الدولة، ومع ذلك يهيئ ابنه لهذا الأمر، ويقول: «إنما يريد القوم ابني محمداً لأنه مهديّ هذه الأمة»^(٣).

إن فكرة المهديّ عند الزيدية، تختلف عن فكرة المهديّ لدى الرساليين الشيعة

(١) عرفت البصرة بميوها لعثمان، بل إن الكثير من أهلها هم من محبي الزبير وطلحة، وهوما قاله الأصمعي: البصرة كلها عثمانية. كما نقل ابن أبي الحديد عن شيخه أبي جعفر الإسكافي قوله: إن أهل البصرة كلهم يبغضون الإمام علي عليه السلام. والسبب في ذلك حرب الجمل وما حصدت من رؤوس أهلها. راجع: شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٠٢. العقد الفريد، ج ٧، ص ٢٧٥.

(٢) كانت حركة إبراهيم وانطلاقة دعوته من دار أبي فروة في البصرة، وقد أنفذه محمد النفس الزكية قبل ظهوره على خلافة البصرة. وقد رُوي أن ديوانه انطوى على مائة ألف من أهل البصرة. الحداثق الوردية، ج ١، ص ٢٩٣ و ٣٠٨. وراجع أيضاً: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٨٧. تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٦٣٤. الطبقات الكبرى، ج ٥، ص ٤٤٠... وغيرهم.

(٣) مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٥٤. مقاتل الطالبين، ص ٢٠٧. أخبار الدولة العباسية، ص ٣٩٤. الفخري، ص ١٦٣.

الاثنا عشرية، فعند الزيدية المهدي هو الذي يقوم بالسيف من آل محمد عليه السلام^(١)، وكانت فكرة المهديّة منتشرة ليس فقط عندهم وإنما عند كل المذاهب الأخرى.

لقد كان عبد الله يقول لابنه: أنت الذي يجب أن تُصحّح الحكم، وذلك منذ أيام الأمويين، وفي بداية الثلاثينات من عمره، ومنذ ذلك الحين غاب محمد عن أنظار الناس.

فلسفة الغيبة عند الثوار

حينما كان يغيب الرجل من أهل البيت فإن ذلك يعني أنه قد ابتدأت حركة معينة، فغيبته لا تعني أنه ترك الساحة، بل تعني أنه يتنكر ويُخفي هويته، حتى يتمكن من الاتّصال بالجماعات والقيام بالأعمال التحضيرية اللازمة حتى إذا حانت ساعة الصفر ظهر مُعلنًا الثورة. وهذا ما قام به محمد، فقد توارى وتبعه أخواه إبراهيم وإدريس^(٢) في

-
- (١) طالع: الزيدية، للصاحب بن عباد، تحقيق: د. ناجي حسن، ص ١٦٠. ط: ١-١٩٨٦ م.
- (٢) إدريس بن عبدالله [ت: ١٧٧هـ] بن الحسن بن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، نشأ على طريقة أهل الغر الميامين فأحرز قصبات السبق في ميدان الشرف، شارك مع الحسين بن علي بن الحسن المثلث، في المدينة، أيام ثورته على الهادي العباسي سنة ١٦٩هـ، وبعد مقتل الحسين انهمز إدريس إلى مصر ثم المغرب سنة ١٧٢هـ، فعرفه جماعة من أهل الناحية كانوا قد حجّوا في السنة التي قتل فيها الحسين بن علي، وأجابه خلق كثير، وكانت له مواقف كثيرة ومحاربات جمّة ظهر فيها على الجنود العباسية وكذلك الخوارج، قال في الأعلام: نزل بمدينة ويلي (على مقربة من مكناس وهي اليوم مدينة قصر فرعون)، وكان كبيرها يومئذ إسحاق بن محمد فعرفه إدريس بنفسه، فأجاره وأكرمه، ثم جمع البربر على القيام بدعوته، وخلع طاعة بني العباس، فتم له الأمر، فجمع جيشًا كثيرًا وخرج به غازيًا فبلغ بلاد ناذلة (قرب فاس) ففتح معاقلها، وعاد إلى ويلي، ثم غزا تلمسان فبايع له صاحبها. وعظم أمر إدريس فاستمر إلى أن تُوفي مسمومًا في ويلي. هو أول من دخل المغرب من الطالبين. وأسس دولة الأدارسة في المغرب. وإليه نسبتهما. ولد له ولد وأسماه إدريس، وكان من سادات العترة، وولده إدريس المثلث، ومن نسله الباقي إلى الآن في المغرب، وقد عاش جماعة من أحفاده في مصر وعرفوا بالفاطميين. راجع: الحقائق الوردية، ج ١، ص ٣٥٨. الأعلام، ج ١، ص ٢٧٩. منتهى الآمال، ج ١، ص ٣٥٧، وتمة المنتهى، ص ٢٤٥. شذرات الذهب، ج ٢، ص ٤٨٣. مقاتل الطالبين، ص ٤٠٦.

الاختفاء، وتفرّق باقي إخوة محمد وولده في البلدان يدعون إلى إمامته^(١)، فتوجّه إلى مصر ابنه علي بن محمد^(٢)، وإلى خراسان ابنه عبد الله^(٣)، وإلى اليمن ابنه الحسن^(٤)، وإلى الجزيرة ابنه موسى^(٥)، وإلى الري وطبرستان ابنه يحيى^(٦). فشكّلوا الحركة الثورية في أيام الأمويين، وبعدها، اجتمعت جماعة من بني هاشم في الأبواء^(٧)، وهو مكان بين مكة والمدينة، وكان فيهم: إبراهيم^(٨) بن محمد بن علي بن عبد الله العباسي

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٩٦. وطالع أيضًا: أحداث سنة ١٤٥هـ، ج ٧ من: تاريخ الأمم والملوك. للطبري.

(٢) مات بمصر في حبس محمد بن أبي جعفر الملقب بالمهدي، الحقائق الوردية، ج ١، ص ٢٩٣.
(٣) عبد الله الأشتر، ولد سنة ١١٨هـ لاحقه جيش المنصور فهرب إلى السند. استشهد بأرض بكابل في جبل يقال له علج، وعمره ٣٣ سنة، وحمل رأسه إلى المنصور العباسي. الحقائق الوردية، ج ١، ص ٢٩٣. قتله هشام بن عمر ببلاد القشмир، على رواية سبط ابن الجوزي، في تذكرة الخواص، ص ٢٢٥.

(٤) روى المسعودي في مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٩٦: أنه حُبس، ومات في الحبس. أما مصادر أخرى فإنها تُشير إلى أنه شهد وقعة فخ مع الحسين بن علي، وقتل. منها: المجدي في أنساب الطالبين، ص ٢٢٤، قال عنه: «وأما الحسن بن محمد فكان يُلقب أبا الزّفت [لشدّة سمرته]، قال بعض شيوخنا: حدّ أبو الزّفت في الخمر، وحضر فخًا، مع الحسين بن علي فأصابه سهم، ففر وجيء به إلى العباسيين، فضربوا عنقه صبرًا». وأيضًا: جمهرة أنساب العرب، ص ٤٥. وتذكرة الخواص، ص ٢٢٥. والكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٩٠. وتاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٢٧٠. وتاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ١٩٢. الحقائق الوردية، ج ١، ص ٢٩٣. فراجع.
(٥) موسى بن عبد الله [ت: ١٨٠هـ] بن الحسن بن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، أبو الحسن، يُلقب بالجون، يُعدّ من شعراء الطالبين، له رواية في الحديث، وكان أديبًا شاعرًا. سكن المدينة، ظفر به المنصور فضربه، ثم عفا عنه. وسكن بغداد. وعاش إلى أيام الرشيد وله معه مواقف كثيرة تذكرها كتب التاريخ والسير. له نسل كثير. مقاتل الطالبين، ص ٣٣٣. منتهى الآمال، ج ١، ص ٣٥٢. الأعلام، ج ٧، ص ٣٢٤.

(٦) يحيى بن عبد الله المحض، صاحب الديلم، من المشاركين في ثورة الحسين بن علي صاحب فخ.
(٧) مقاتل الطالبين، ص ١٨٥.

(٨) إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب [٨٢-١٣١هـ]، كان فصيح اللسان، راجع العقل، يروي الحديث والأدب، يقال له الإمام، عدّ زعيم الدعوة العباسية قبل ظهورها. أوصى إليه أبوه، وانتشرت دعوته في خراسان كلها. وجّه بأبي مسلم إلى خراسان واليًا على شيعته ودعائه، فتجرّد أبو مسلم لمحاربة عمال بني أمية، ثم ظهر أمر إبراهيم وعلم به

(الذي لقب بالإمام في الدعوة العباسية فيما بعد)، وأبو جعفر المنصور، وصالح بن علي^(١)، وعبد الله بن الحسن بن الحسن، وابناه: محمد وإبراهيم، ومحمد^(٢) بن عبد الله بن عمرو بن عثمان.

... فقال صالح بن علي: «قد علمتم أنكم الذين تمّد الناس أعينهم إليهم، وقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاعقدوا بيعة لرجل منكم تُعطونه إيّاها من أنفسكم، وتوائقوا على ذلك حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين.

فتكلّم عبد الله بن الحسن، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد علمتم أن ابني هذا هو المهدي فهلّموا فلنبايعه.

وقال أبو جعفر المنصور: لأي شيء تخذعون أنفسكم، والله لقد علمتم ما الناس إلى أحدٍ أصوّر^(٣) أعناقاً ولا أسرع إجابةً منهم إلى هذا الفتى - يريد محمد بن عبد الله -.

قالوا: قد - والله - صدقت، إن هذا هو الذي نعلم. فبايعوا جميعاً محمداً، ومسحوا على يده.

مروان بن محمد فقبض عليه وزجّه في السجن بحرّان ثم قتله في حبسه، وقيل: مات في حبسه بأرض الشام، وقيل: إنه هدم عليه بيتاً. وقيل: سُقي لبناً فأصبح ميتاً. وهو ابن ثمان وأربعين سنة. فكانت البيعة من بعده سرّاً لأخيه السفاح بعهد منه. الأعلام، ج ١، ص ٥٩. المنتظم، ج ٧، ص ٢٩٠.

(١) صالح بن علي بن عبد الله بن عباس [٩٦-١٥١هـ]، الأمير، عمّ السفاح والمنصور، روى عن أبيه. ولآه السفاح مصر، فأقام بها سبعة أشهر وأياماً، فتك فيها بكثيرين من أشياع بني أمية، جهّز عسكرياً في طلب مروان الحمار فبيّته فحوّصر، فقتله. ثم ولي إمرة دمشق. وولي بعده الشام ولده الفضل. الأعلام، ج ٣، ص ١٩٢. تاريخ الإسلام، ج ٩، ص ٤٣٧.

(٢) يعرف بالديباج لحسن وجهه، كان كثير الحديث عالماً، حبسه المنصور وعذّبه بالسوط. وقيل: إن ثيابه التصقت بجسده من تأثير السياط والدماء، حتى غدا وجهه أشبه بلون الزنجي، وقد اقتلع السوط إحدى عينيه. قتله المنصور ليلة جاءه خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة، وبعث برأسه إلى خراسان. المنتظم، ج ٨، ص ٩٥. تنمة المنتهى، ج ٣، ص ١٩٣-١٩٦.

(٣) أميل، يقال فلان يصور عنقه إلى كذا، أي مال بعنقه ووجهه نحوه. كتاب العين، مادة (صور).

قال عيسى: وجاء رسول عبد الله بن الحسن إلى أبي (محمد بن عمر بن علي) أن ائتنا فإننا مجتمعون لأمر، وأرسل بذلك إلى جعفر بن محمد عليه السلام.

وقال غيره: فقال لهم عبد الله بن الحسن: لا تريد جعفرًا لئلا يُفسد عليكم أمركم.

قال عيسى: فأرسلني أبي أنظر ما اجتمعوا عليه. وأرسل جعفر بن محمد عليه السلام، محمد بن عبد الله الأرقط بن علي بن الحسين، فجئناهم فإذا بمحمد بن عبد الله يصلي على طنفسه رجل مثنية. فقلت: أرسلني أبي إليكم لأسألكم لأي شيء اجتمعتم؟

فقال عبد الله: اجتمعنا لنبايع المهدي محمد بن عبد الله.

قالوا: وجاء جعفر بن محمد عليه السلام فأوسع له عبد الله بن الحسن إلى جنبه، فتكلم بمثل كلامه.

فقال جعفر: لا تفعلوا، فإن هذا الأمر لم يأت بعد، إن كنت ترى -يعني عبد الله- أن ابنك هذا هو المهدي فليس به، ولا هذا أوانه، وإن كنت إنما تريد أن تُخرج غضباً لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فإننا -والله- لا ندعك، وأنت شيخنا، ونبايع ابنك.

فغضب عبد الله وقال: لقد علمت خلاف ما تقول، والله ما أطلعك الله على غيبه، ولكن يحملك على هذا الحسد لا بني.

فقال عليه السلام: والله ما ذاك يحملني، ولكن هذا وإخوته وأبناؤهم دونكم، وضرب بيده على ظهر أبي العباس، ثم ضرب بيده على كتف عبد الله بن الحسن. وقال: إنها والله ما هي إليك ولا إلى ابنك، ولكنها لهم. وإن ابنك لمقتولان.

ثم نهض عليه السلام، وتوكل على يد عبد العزيز بن عمران الزهري. فقال عليه السلام: أرايت صاحب الرداء الأصفر -يعني أبا جعفر المنصور-؟

قال: نعم. قال: فإننا والله نجده يقتله.

قال له عبد العزيز: أيقتل محمداً؟ قال عليه السلام: نعم.

.... قال: فلما قال جعفر عليه السلام ذلك انفض القوم فافترقوا ولم يجتمعوا بعدها»^(١).

وهكذا اجتمعت شيوخ بني هاشم سواء من العباسيين أو الحسينيين أو الحسينيين أو أولاد جعفر وعقيل، بما فيهم أبو العباس السفاح والمنصور الدوانيقي، باعتبار أن الدولة الأموية كانت على مشارف السقوط، فنصبوا الخليفة محمداً الذي هيأه أبوه للخلافة.

وكان محمد يمتلك المؤهلات القيادية والأعوان المنتشرين في كافة البلاد الإسلامية الذين كانوا ينتظرون القيام، الكل بايعه حينها إلا الإمام الصادق عليه السلام فإنه لم يُبايع.

وكان المنصور آنئذ قد بايع محمداً، ولحمد في عنق المنصور قاتله بيعة، وقد رُوي أن المنصور بايع محمداً مرتين^(٢) قبل أن تتحوّل قيادة الحركة من العلويين إلى العباسيين حسب القصة المعروفة.

وعندما جاء المنصور إلى الحكم وقام بأعمال مخالفة للشريعة، قرّر محمد وأخوه إبراهيم إعلان الثورة على النظام المنحرف، واتّخذا من المدينة والبصرة قاعدتي انطلاق، فالمدينة كانت مركزاً من المراكز الدينية المقدّسة، وكانت الأمة الإسلامية مُتوجّهة إليها باعتبارها مركزاً دينياً، ومن جهة ثانية كانت البصرة مركزاً عسكرياً مُتقدّماً لا بأس به.

فالتخطيط كان جيداً، وكان يقوم على أساس أن يثور محمد في المدينة المنورة

(١) مقاتل الطالبين، ص ١٨٦-١٨٧.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ١٨٨. انتهى الآمال، ج ١، ص ٣٧٨.

ويأخذ مكة وأطرافها، بينما يفجر أخوه إبراهيم ثورة أخرى في البصرة في الوقت نفسه^(١)، ولكن الذي حصل أن الاتصالات بين محمد وأعوانه في مختلف الأمصار كمصر وخراسان وري وغيرها من المناطق لم تكن على ذلك المستوى من السرعة والتنظيم، هذا من ناحية الحركة.

أما من ناحية الدولة العباسية التي كان يرأسها أبو جعفر المنصور، فقد وصلت إليه عن طريق الربيع أنباء عاجلة مفادها أن محمداً قد نهض في المدينة، وكانت الأخبار قد وصلت أن إبراهيم قد استولى على الإمارة في البصرة، وأن بلاد فارس والأهواز وواسط أصبحت تحت سلطته^(٢)، فدبر المنصور خطة مضادة لما حدث، وأول ما فعل هو إرساله عبد الله إلى الكوفة - وقد أشار عليه بهذا العمل عمه عبد الله بن علي الذي كان في السجن - فسدت منافذها، وضربت أعناق كثير من الناس فيها، وبالتالي أمن المنصور من الكوفة التي كانت موالية لأهل البيت عليه السلام^(٣)، في الوقت نفسه بعث إلى سلم بن قتيبة^(٤) الذي كان أحد قواد جيوشه آنئذ في الري ثم جهّز المنصور - جيشاً قوياً وأرسله إلى قتال محمد في المدينة^(٥).

ولقد كان تحرك إبراهيم السابق لأوانه يعود - كما يقول المؤرخون - إلى أن رسالة - ولعلها مكذوبة - قد وصلت إلى إبراهيم مفادها أن أخاه محمداً قد قام

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٥٥٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٥٦٣. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٢٣٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٥٦٤. تجارب الأمم، ج ٣، ص ٣٩٣. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٥٣٤.

(٤) سلم بن قتيبة [ت: ١٤٩ هـ] بن مسلم الباهلي الخراساني، والي البصرة. وليها يزيد بن عمر بن هبيرة في أيام مروان بن محمد، ثم وليها في أيام أبي جعفر المنصور، فكان من الموثوق بهم في الدولتين (الأموية والعباسية) وكان من عقلاء الأمراء، مات بالري. الأعلام، ج ٣، ص ١١١.

(٥) كان الجيش بقيادة ابن أخيه وولي عهده عيسى بن موسى، وقال المنصور بعد أن سار عيسى إلى المدينة: «ما أبالي أيهما قتل صاحبه»، لأن المنصور يكره ابن أخيه، من حيث إن السفاح قد عهد إليه في أن يولي عيسى الخلافة بعده. طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٥٧٧. تجارب الأمم، ج ٣، ص ٤٠١. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٥٤٤.

بالثورة، وكان إبراهيم قد ساوره الشك في ذلك، وأن الدعوة لم تنضج بعد، فلم العجلة، ولهذا كانت الرسالة مفاجئة له^(١).

لكن إبراهيم خرج وبهذه السرعة، ودون التنسيق مع أخيه محمد، ومع باقي مَنْ في الأمصار، كمصر والعراق وخراسان، مما جعل العباسيين يُوجِّهون جيشاً إلى قائد الحركة محمد، ويقضون عليه وعلى حركته في المهدي، ولم يدّخر المنصور جهداً إلا وبذله في مواجهة حركة المعارضة، فقد أرسل إلى واليه في خراسان رأساً^(٢)، وبعث معه من الرجال يحلفون بالله أنه رأس محمد بن عبدالله^(٣). حتى يضمن بالتالي عدم تحرُّكهم.

ولقد كانت الحركة واسعة جماهيرياً، وقد قيل حينها: إن أمر الخلافة سوف يكون للعلويين، وكان المنصور في أشد حالات الخوف والترقب، وتدلل على ذلك رسائله^(٤) التي أرسلها لمحمد يُليّن له الطرف ويدعوه للمصالحة. وكيف لا يخاف المنصور من محمد إذا ما عرفنا أن جيشه في المدينة كان يربو على مائة ألف، وكذلك جيش أخيه في البصرة من دون باقي الأمصار^(٥).

ولقد كان مَنْ أيد ودعم محمداً بعض فقهاء العراق ومنهم أبو حنيفة، كما كان يجهر في أمر إبراهيم جهراً، ويُحرِّض الناس على الخروج معه^(٦)، وعندما توجّه

(١) روى الأصفهاني في مقاتل الطالبين، ص ٢٧٥، قال: أخبرنا يحيى بن علي، قال: حدّثنا عمر، قال: حدّثني ابن عفو الله بن سفيان عن أبيه، قال: «أتينا إبراهيم يوماً وهو مرعوب، فأخبرني أن كتاب أخيه محمد جاءه يُخبره أنه قد ظهر، ويأمره بالخروج، فوجم من ذلك، واغتمّ، فجعلت أسهل الأمر عليه...». وأيضاً: تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٦٢٨.

(٢) روى الطبري ج ٧، ص ٥٤٩، وغيره: أن المنصور احتاج إلى رأس يُوهم به الناس أنه قتل محمد بن عبدالله فعمد إلى قطع عنق محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان [الدياج]، ثم بعث به إلى خراسان...

(٣) الحقائق الوردية، ج ١، ص ٢٨٥. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٥٢٦. تجارب الأمم، ج ٣، ص ٣٨٧.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٥٦٦. تنمة المنتهى، ج ٣، ص ١٩٩.

(٥) مقاتل الطالبين، ص ٣٢٧. تنمة المنتهى، ج ٣، ص ٢٠١.

(٦) مقاتل الطالبين، ص ٣٠٤.

إبراهيم إلى لقاء عيسى بن موسى، كتب إليه أبو حنيفة قائلاً: «إذا أظفرك الله بعيسى وأصحابه فلا تسر فيهم سيرة أبيك في أهل الجمل، فإنه لم يقتل المنهزم، ولم يأخذ الأموال، ولم يتبع مدبراً، ولم يذفّف»^(١) على جريح، لأن القوم لم يكن لهم فئة. ولكن سر فيهم بسيرة يوم صفين، فإنه سبى الذرية، وذفّف على الجريح، وقسم الغنيمة، لأن أهل الشام كانت لهم فئة، وكانوا في بلادهم». فظفر أبو جعفر بكتابه، فسيّره وبعث إليه فأشخصه، وسقاه شربة فمات منها، ودفن ببغداد»^(٢).

ومن جملة الفقهاء الذين أيّدوا حركة محمد النفس الزكية: مالك بن أنس^(٣)، وعبد بن العوام^(٤)، وأسامة بن زيد^(٥)، وهارون بن سعد^(٦) الذي خرج معه من

(١) يقال: أذففت على الجريح تذييفاً: إذا أسرعت قتله.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٣٦٧.

(٣) روى الطبري في تاريخه: «أن مالك بن أنس استفتي في الخروج مع محمد، وقيل له: إن في أعناقنا بيعه لأبي جعفر، فقال: إنما بایعتم مكرهين، وليس على كل مكره يمين. فأسرع الناس إلى محمد، ولزم مالك بيته». تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٥٦٠. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٥٣٢. ومالك بن أنس [٩٣-١٧٩هـ]، هو أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تُنسب المالكية. مولده ووفاته في المدينة. الأعلام، ج ٥، ص ٢٥٧.

(٤) ابن عمر بن عبد الله الكلبي الواسطي [١١٨-١٨٥هـ]، أبوسهل: من رجال الحديث، ثقة. كان من نبلاء الرجال في كل أمره. كان من أهل واسط. قال عنه في الطبقات الكبرى: وكان يتشيع فأخذه هارون فحبسه زماناً ثم خلّى عنه. وأقام ببغداد وسمع منه البغداديون وكان ثقة. وكان ينزل بالكرخ على نهر البزارين. ذكره الأصفهاني في جملة الفقهاء ممن بايع إبراهيم، وقال: «فلما قتل إبراهيم وانقضت حياته، هرب عبّاد بن العوام، فهدمت داره وانفضت جموعه، ولم يزل متوارياً حتى مات أبو جعفر». وتوفي سنة خمس وثمانين ومائة في خلافة هارون العباسي. الأعلام، ج ٣، ص ٢٥٧. الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٢٣٨. مقاتل الطالبين، ص ٣١١.

(٥) البجلي، وجه من وجوه العلم ونقله الحديث. الحقائق الوردية، ج ١، ص ٣٠٧.

(٦) هارون بن سعد العجلي [ت: ١٤٥هـ]، من الفقهاء والزهاد، والعلماء بالحديث. من رؤوس الزيدية، ومن أعلامها. من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، له شعر. خرج وهو شيخ كبير مع إبراهيم بن عبد الله، فولاه القتال بواسط واستعمله عليها، وضم إليه جيشاً كبيراً من الزيدية، فأخذها وخطب في أهلها فنذّر بأبي جعفر المنصور وأفعاله من قتله آل رسول الله ﷺ، وظلمه الناس، وأخذه الأموال ووضعها في غير مواضعها. قال أبو الفرج الأصبهاني: وتبعه خلق كثير، منهم هشيم بن بشير، وهرب من كان في واسط من رجال المنصور. ثم لم يبق فيها

الكوفة، وسالم الحذاء^(١)، وحمزة بن عطاء^(٢)، وخليفة بن حسان^(٣)، وسلام بن أبي واصل الحذاء^(٤)، وكان هؤلاء من خلّص أصحاب زيد بن علي، وكانوا من جملة الناس الذين استطاعوا الهروب من الكوفة والالتحاق بإبراهيم. حتى قيل: إنه لم يبقَ فقيه في العراق إلّا والتحق بإبراهيم، لذلك بعد انهزام إبراهيم قُتل قسم منهم، والقسم الآخر توارى حتى مات المنصور^(٥).

ولقد كان من ضمن الأدلة على قوة حركة إبراهيم أنه كان يُنصّب الوُلاة. فقد ولى هارون بن سعد على واسط، ممّا يدل على اتّساع سُلطانه وكثرة أعوانه، برغم أنه على مستوى الحرب قد ارتكب أخطاءً قاتلة، فعند لقائه بجيش عيسى بن موسى، لم يكن جيشه منظمًا^(٦) على هيئة كراديس^(٧) موصومة^(٨)، وهذا ينافي تنظيم الجيش آنذاك.

أحد من أهل العلم إلّا تبعه. حاربه جيوش المنصور، فثبت إلى أن بلغه مقتل إبراهيم، فتوجّه إلى البصرة فمات بها حين دخلها. وقيل: قبل أن يصل إليها. كما قيل: إنه توارى حتى مات. وهدم محمد بن سليمان داره. طالع: الأعلام، ج ٨، ص ٦٠. مقاتل الطالبين، ص ٣٠٨-٣١١. تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٦٣٧-٦٣٨. رجال الطوسي، ص ٣١٨.

(١) ويقال له: سالم الأشجعي، وسالم بن أبي واصل، وسالم بن شريح، الحذاء الكوفي، ثقة، خلاصة الأقوال، ص ٢٣٦. وقيل: كان ممن يرى رأي الزيدية. معجم رجال الحديث، ج ١٦، ص ١٠٤.

(٢) تركي، ويقال له: البرني، من نقلة الآثار، عده صاحب الحقائق الوردية، ج ١، ص ٣٠٧: من رواة أهل البيت عليه السلام.

(٣) الكيال، من نقلة الحديث. من خلّص أصحاب زيد بن علي، وكان أفرس الناس. مقاتل الطالبين، ص ٣٠٦.

(٤) من أهل العلم، ونقطة الآثار. ومن أصحاب زيد الخلف ومَن خرج معه، خرج من الكوفة معه عيسى بن أبي أسحاق السبيعي وأبو خالد الأحمر متكررين عليهم جباب الصوف وعمائم يسوقون الجبال في زي الجمالين، حتى أمنوا فعدلوا إلى إبراهيم وكانوا معه حتى قتل. مقاتل الطالبين، ص ٣٠٥.

(٥) مقاتل الطالبين، ص ٣١١. وما بعدها.

(٦) مقاتل الطالبين، ص ٢٩٦. البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٩٣. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٢٤٦.

(٧) الكرْدُوس: الخيل العظيمة، والكراديس: الفرق منهم. طالع: تاريخ ابن خلدون، ج ١. فصل: في الحروب ومذاهب الأمم وترتيبها.

(٨) الوَصْمُ: الصّدْعُ في العود من غير يَبْنُونَةٍ. ووَصِمْتُ الشيءَ إذا شَدَدْتَهُ بسرعة. لسان العرب: مادة (وصم).

التجسس على الحركة

وكانت هناك بعض الأخطاء التنظيمية القاتلة التي وقعت فيها الحركة، وهنا نروي حادثة تُبَيِّن بعض تلك الأخطاء:

«روى الأصفهاني عن عيسى بن عبد الله عن محمد بن عمران عن عقبة بن سلم:

أن أبا جعفر (المنصور) دعاه فسأله عن اسمه؟.

فقال: عقبة بن سلم^(١) بن نافع من الأزد، من بني هناة.

فقال: إني لأرى لك همة، وموضعاً، وإني أريدك لأمرٍ أنا معني به.

قال: أرجو أن أصدق ظنَّ أمير المؤمنين.

قال: فأخفِ شخصك واثني في يوم كذا. فأتيته.

فقال: إن بني عمِّنا هؤلاء قد أبوا إلا كيداً للمكنا، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يُكاتبونهم، ويُرسِلون إليهم بصدقات، وألطف، فأخرج بكسي^(٢) وألطف، حتى أتاهم متنكراً بكتاب تكتبه عن أهل القرية. ثم تسير ناحيتهم، فإن كانوا نزعوا عن رأيهم فأحبب والله بهم وأقرب، وإن كانوا على رأيهم علمت ذلك، وكنت على حذر منهم، فاشخص، حتى تلقى عبد الله بن الحسن مُتَخَشِّعاً، فإن جبهك، وهو فاعل، فاصبر، وعاوله أبداً حتى يأنس بك، فإذا ظهر لك ما قبله فاعجل عليّ.

(١) ولآه المنصور البحرين والبصرة، فأكثر القتل في ربيعة حتى كان ذلك سبب انحلال الحلف بين الأزد وربيعه. وفي الكامل ج ٥، ص ٦٠٤، أنه: «سار من البصرة إلى البحرين، فقتل سليمان بن حكيم وسبى أهل البحرين وأنفذ بعض السبي والأسارى إلى المنصور، فقتل بعضهم ووهب الباقيين للمهدي، فأطلقهم وكساهم، ثم عزل عقبة عن البصرة لأنه لم يستقص على أهل البحرين». قتله رجل من ربيعة، فتك به في جامع البصرة بحضرة الناس. طالع: جمهرة أنساب العرب، ص ٣٨٠.

(٢) وفي نسخة: كتي.

ففعل ذلك، وفعل به حتى أنس عبد الله بناحيته^(١).

فقال عقبة: الجواب.

فقال له عبد الله: أمّا الكتاب فلإني لا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم فأقرأهم السلام، وأخبرهم أن ابني خارج لوقت كذا وكذا.

فشخص عقبة حتى قدم على أبي جعفر فأخبره الخبر^(٢).

من هذا نرى أن المنصور الذي كان يوماً من الأيام عضواً في الحركة في أيام الأمويين، قد وصلت إليه أخبار تلك الحركة بكل تفاصيلها وهو متربع على سدة الخلافة^(٣)، وقد حارب جيش إبراهيم الجيش العباسي الذي بعثه المنصور الدوانيقي ولكنه انهزم عسكرياً وكانت الهزائم في ذلك الوقت تحدث ليس فقط نتيجة للقوة والميزان العسكري، وإنما أيضاً نتيجة لمفاجآت غير متوقعة.

فمن الأقدار العجيبة أن إبراهيم جاءه سهم فقتله، كما هو حال أغلب قيادات الزيدية الذين استشهدوا بسبب السهام التي كانت تُصيبهم في المعارك المباشرة، ما يدل على المستوى الرفيع الذي كانت تتمتع به قيادات الزيدية من الشجاعة والإقدام في مجابهة العدو بأنفسهم، فكانوا يتقدمون الصفوف، لذلك كانوا يتعرضون للسهام. فلم يكن الفشل العسكري يهيمهم، لأن القتل لهم عادة وكرامتهم من الله الشهادة، فلم يكن الرجل منهم يفكر في الحكم وإنما كان يفكر في الحرب ضد أعداء المبدأ ولا يهاب الموت.

من الواضح أن محمد بن عبد الله، وأخاه إبراهيم، وأباهما عبد الله بن الحسن بن الحسن لم يكونوا ذوي عقيدة زيدية مع أن حركتهم أكثر ما قامت على الزيدية؛ لأن الزيدية يعملون وفق مبدأ ثابت منذ مقتل زيد بن علي، وهو الاستعداد للقيام مع أي

(١) في رواية الطبري، ج ٧، ص ٥١٢، فشخص -عقبة- حتى قدم على عبد الله فلقبه بالكتاب فأنكره ونهره، وقال: ما أعرف هؤلاء القوم، فلم يزل ينصرف ويعود إليه حتى قبل كتابه وألطفه وأنس به فسأله عقبة الجواب.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ١٩٠. تجارب الأمم، ج ٣، ص ٣٨٠. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٥١٦.

(٣) منتهى الآمال، ج ١، ص ٣٧٨.

رجل من أهل البيت عليه السلام يحمل السيف ويقودهم، وإننا لا نظن أن عبد الله وابنيه كانوا في باطنهم يعتقدون بأن محمداً هو المهدي، مع أنهم كانوا يجهرون بذلك، وخير دلالة على ذلك هو رسالة الإمام الصادق عليه السلام لعبد الله بن الحسن عندما سجن في الكوفة بعدما قُتل محمد، والتي جاء فيها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إِلَى الْخَلَفِ الصَّالِحِ، وَالذُّرِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ مِنْ وَلَدِ أَخِيهِ وَابْنِ عَمِّهِ. أَمَّا بَعْدُ: فَلَيْسَ كُنْتُ قَدْ تَفَرَّدْتُ أَنْتَ وَأَهْلُ بَيْتِكَ مِمَّنْ حُمِلَ مَعَكَ بِهَا أَصَابِكُمْ، مَا أَنْفَرَدْتُ بِالْحُزْنِ وَالْغَيْظِ وَالْكَآبَةِ وَأَلِيمِ وَجَعِ الْقَلْبِ دُونِي، وَلَقَدْ نَالَنِي مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْجُرْعِ وَالْقَلَقِ وَحَرِّ الْمُصِيبَةِ مِثْلُ مَا نَالَكَ، وَلَكِنْ رَجَعْتُ إِلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ بِهِ الْمُتَّقِينَ مِنَ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْعَزَاءِ حِينَ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(١)...»^(٢).

ويقول صاحب البحار العلامة المجلسي رحمته الله: «وهذه شهادة صريحة من طرق صحيحة بمدح المأخوذين من بني الحسن عليه السلام وأنها مضموا إلى الله جل جلاله بشرف المقام والظفر بالسعادة والإكرام»^(٣).

وقد أورد العلامة المجلسي روايات تشهد بصحة عقيدتهم بآل البيت عليهم السلام.

منها: ما رواه يحيى بن عبد الله قال: «حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ فَاطِمَةَ الصُّغْرَى، عَنْ أَبِيهَا عليه السلام عَنْ جَدَّتِهَا فَاطِمَةَ عليها السلام بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يُدْفَنُ مِنْ وَلَدِي سَبْعَةٌ بِسَطِّ الْفَرَاتِ لَمْ يَسْبِقْهُمْ الْأَوَّلُونَ وَلَمْ يُدْرِكْهُمْ الْآخِرُونَ. فَقُلْتُ: تَحْنُ ثَمَانِيَّةٌ؟! فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتُ. فَلَمَّا فَتَحُوا الْبَابَ وَجَدُوهُمْ مَوْتَى وَأَصَابُونِي وَبِي رَمَقٌ وَسَقَوْنِي مَاءً وَأَخْرَجُونِي فَعِشْتُ»^(٤).

وكان يحيى مِمَّنْ سجن مع أبيه عبد الله بن الحسن بن الحسن في الكوفة.

(١) سورة الطور، آية: ٤٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢٩٨.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣٠٢. ومَن ذهب إلى هذا القول والرأي المحقق الشيخ القمي رحمته الله

راجع كتابه منتهى الآمال، ج ١، ص ٣٧٣.

(٤) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣٠٢.

أبناء الحسن يتوارثون لواء المعارضة

وهكذا انتهت حركة محمد وأخيه، ولكن هل قُبرت المعارضة؟.

التاريخ يجيب: كلاً!.

فبعد الله بن محمد سار إلى خراسان، ولما طُورِد هرب إلى السند، ويحيى بن عبد الله (أخو محمد بن عبد الله) خرج من السجن كما أتينا على ذكره، ثم سار إلى بلاد الديلم^(١)، وتنقل في الأمصار^(٢). حتى إن الرشيد قد كَلَّ من ملاحقته، فصار له حفيد يُدعى محمد بن جعفر^(٣) بن عبد الله سار إلى مصر ثم إلى المغرب وقد بايعته عدة بلدان آنذاك^(٤).

أما إدريس بن عبد الله (أخو محمد) فقد هرب إلى المغرب وأجابه خلق من الناس، وبعد ذلك أرسل الخليفة العباسي من يدس السم إليه فُقُتِل، ولكن ولده إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، واصل مسير أبيه وتأسست دولة الأدارسة^(٥)، وهكذا بقيّة رجال محمد بن عبد الله، فكلهم انتشروا في البلاد وكانوا نطف الثورات فيما بعد، حتى إن يحيى وإدريس ابني عبد الله قد شاركا في عملية فخ^(٦) أيضاً.

(١) بلاد الديلم، هي الواقعة في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر. انظر: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٤٢.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٣٩٠.

(٣) ابن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، التفّ حوله جماعة من المغرب عملوا بأمره، فعمل بينهم بالعدل والاعتدال، ومات مسموماً. منتهى الآمال، ج ١، ص ٣٥٦.

(٤) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٤٣. المنتظم، ج ٧، ص ٢٠٧.

(٥) انظر: تاريخ الشيعة.. السياسي، الثقافي، الديني، ج ١، ص ٧٤. بحوث في الملل والنحل، ج ٧، ص ٣٨٢.

(٦) مقاتل الطالبين، ص ٣٨٢. منتهى الآمال، ج ١، ص ٣٦٧.

حركة الزيدية تفضح العباسيين

كانت الحركة الزيدية ذات أهمية كبيرة، وتقترب أهميتها من حركة الإمام الحسين عليه السلام من ناحية البعد الاستراتيجي وليس من ناحية الضخامة، أو المقارنة، فحركة الإمام الحسين عليه السلام تظلُّ تُحافظ على خصوصيتها التي تجعلها الإدانة الأولى والمباشرة لأول عملية انحراف في الأمة، وهي انتقال الخلافة إلى ملك وراثي، فالإمام الحسين عليه السلام قام في مواجهة الباطل، كما قام جده الرسول ﷺ بمفهوم إحقاق الحق. وبالتالي اكتسبت أهميتها باعتبارها السبب المباشر لكل الحركات الثورية التي ظهرت بعده مطالبة بإحقاق الحق.

وعندما جاء العباسيون إلى الحكم باسم الخلافة الشرعية كان من الممكن أن تنطلي على الناس هذه الحيلة. ومن هنا كان من الضروري أن تقوم فئة معينة بالسيف وتقاتل بقوة وتبدأ حركة معارضة جديدة ضد الحكم العباسي. وكانت حركة محمد وإبراهيم تقوم بهذه المهمة العسيرة.

حركة الحسين صاحب فخ^(١)

وتلت حركة محمد ذي النفس الزكية، حركة (فخ)، التي لم تكن كحركة إبراهيم ومحمد التي اتخذت الطابع العسكري والسياسي، إنما حركة حسين بن علي صاحب (فخ) وجماعته اتخذت الطابع العفوي كحركة الفقهاء، والزهاد، والعُباد، وأصحاب الفكر كما بيّننا، ولذا نجد أن حركته اعتمدت على كثير من الفقهاء في المدينة، أمثال:

(١) الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام [ت: ١٦٩هـ] كان بطلاً شجاعاً، سخياً لا يكثرث بالأموال. كان جامعاً بين العلم والعمل حتى اعتلى ذروة الشرف، كان ذا فضل وجلال عظيمين، وقد تركت مصيبته أكبر الأثر في النفوس. روى في فضله الأصفهاني بإسناده عن زيد بن علي، قال: «انتهى رسول الله ﷺ إلى موضع فخ، فصلّى بأصحابه صلاة الجنائز، ثم قال: يقتل هاهنا رجل من أهل بيتي في عصابة من المؤمنين، يُنزل لهم بأكفان وحنوط من الجنة، تسبق أرواحهم إلى الجنة قبل أجسادهم». وفي رواية أخرى عن رسول الله ﷺ: «.. وأجر الشهيد معه أجر شهيدين». الحقائق الوردية، ج ١، ص ٣١٧. منتهى الآمال، ج ١، ص ٣٦٣.

علي بن هشام^(١) بن البريد^(٢)، ويحيى بن علي^(٣)، وسعيد بن خيثم^(٤)، وبني الحسن^(٥) بن الإمام الحسن عليه السلام، والمدينة كانت تشبه (الحوزة العلمية في هذا العصر).

وروى أبو الفرج الأصفهاني عن إبراهيم بن إسحاق القطان قال: سمعت الحسين بن علي، ويحيى بن عبد الله يقولان: «ما خرجنا حتى شاورنا أهل بيتنا، وشاورنا موسى بن جعفر عليه السلام فأمرنا بالخروج»^(٦).

وكان والي المدينة^(٧) لا يتورّع عن التنكيل بهم باستمرار، وكان يستعرضهم يومياً ويطالبهم بالمجيء أمامه في حركة مراقبة أمنية يومية. وكانوا يخافون حينها الغياب عن الاستعراض أمامه، لأنه وبمجرد غياب أحدهم فإن والي كان يقوم باعتقال جميع الهاشميين كباراً وصغاراً^(٨).

واستمر الأمر بهم هكذا حتى بعثوا برسالة إلى الخليفة، وكان في ذلك اليوم

(١) هكذا ورد في مقاتل الطالبين، ولكن الصحيح (هاشم)، على ما ذهب إليه كثير من المؤرخين والرجالين.

(٢) أبو الحسن الخزاز، مولا هم الكوفي، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. معجم رجال الحديث، ج ١٢، ص ٢٢٠.

(٣) التميمي الربيعي، كوفي، من رجال الإمام الصادق عليه السلام والراوين عنه، له رواية في كامل الزيارات. معجم رجال الحديث، ج ٢٠، ص ٦٧.

(٤) أبو معمر الهلالي، كان وأخوه (معمر) من دعاة زيد بن علي، يروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام، ضعفه النجاشي. وفي رجال ابن داود، ص ٤٥٨، قال: «قال حمدويه: كان ناووسياً وقف على أبي عبد الله عليه السلام.. ثم قال عنه: يُعرف ويُكر، في حديثه نظر، وهو يروي عن الأصبغ بن نباتة». وفي الرجال لابن الغضائري، ص ٦٥: «ضعيف جداً لا يرتفع به».

(٥) عدتهم: «ستة وعشرون رجلاً. ومعهم جماعة من الموالي». قاله في منتهى الآمال، ج ١، ص ٣٦٥، وعدّ أسماءهم صاحب الحقائق الوردية، ج ١، ص ٣٢٢. فراجع.

(٦) مقاتل الطالبين، ص ٣٨٣.

(٧) كان إسحاق بن عيسى بن علي والي المدينة من قبل موسى الهادي، فاستخلف إسحاق على المدينة عبدالعزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، الذي حمل على الطالبين وأساء إليهم بل أفرط في التحامل عليهم. مقاتل الطالبين، ص ٣٧٢. تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ١٩٢.

(٨) مقاتل الطالبين، ص ٣٧٢-٣٧٣. منتهى الآمال، ج ١، ص ٣٦٤-٣٦٥.

الهادي العباسي^(١)، فلم يُعرهم انتباهاً، لذلك اجتمع الحسين بن علي بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام بجماعته وقرروا الثورة على الوالي.

وكان شعارهم آنذاك (أحد، أحد)، وثاروا على الوالي، فهرب من المدينة واستولوا على المدينة، وجاؤوا إلى مكة ليأخذوها ويستولوا من بعدها على البلدان الأخرى^(٢).

أخطاء حركة (فخ)

لقد كانت المدينة المنورة ومكة المكرمة منطقتين استراتيجيتين من الناحية الدينية والروحية فقط، إذ كان يكثر فيهما العبّاد، والزُّهاد، والفقهاء، والحجاج، كما أن فيهما الحرمين الشريفين.

ولكن من الناحية العسكرية والسياسية لم تكن لهما أهمية^(٣)، فالثقل السياسي في الدولة الإسلامية كان في البصرة والكوفة وبغداد، لذلك فقد كانت المدينة منطقة مفتوحة أمام أي جيش معتد.

إن الحسين صاحب فخ وأصحابه لم يعتبروا من الثورات السابقة التي وقعت في الخطأ نفسه الذي أدّى بها إلى القتل، كحركة أهل المدينة بزعامة عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة والتي انتهت بواقعة الحرة الدامية. وحركة عبد الله بن الزبير، وحتى ثورة محمد بن عبد الله التي وقعت قبل مدة وجيزة في الخطأ نفسه، فكان على الحسين بن علي بن الحسن أن يعتبر من تجربة محمد، وأن يتأنّى طويلاً قبل أن يخرج

(١) موسى بن محمد بن أبي جعفر المنصور [١٤٤-١٧٠هـ]، من خلفاء الدولة العباسية ببغداد. وُلد بالرّي. وولي بعد وفاة أبيه (سنة ١٦٩هـ) وكان غائباً بجرّان فأقام أخوه هارون بيعته. واستبدّت أمه الخيزران بالأمر. وأراد خلع أخيه هارون من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر، فلم ترّ أمه ذلك، فزجرها فأمرت جواربها أن يقتلنه فخنقته، ودُفن في بستانه ببغداد (محلة بشرقيّ بغداد، تنسب إلى عيسى بن المهدي). ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر. الأعلام، ج ٧، ص ٣٢٧.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٣٧٥-٣٧٧. الحقائق الوردية، ج ١، ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٣) مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٩٥.

لكي يُرسل الدعاة، وأن يكون أكثر انضباطاً في التنظيم، وغيرها من العبر التي كان يجب أن يكتسبها من تجربة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن.

وفي طريقه إلى مكة اشتبك مع الجيش العباسي في منطقة تسمى (فخ) وتقاتلا، وأبلى جماعة الحسين بن علي بلاءً حسناً، وصمدوا صمود الجبال الشداد، حتى إن موسى بن عيسى أحد قواد الجيش العباسي طلب من الحسين بن علي وقف الحرب، وذلك بعد أن قال له حيلة: «يا حسين، لك الأمان...» فرفض الجيش المهادنة وأعاد محمد بن سليمان^(١) الحيلة وقال: «يا ابن خال، اتق الله في نفسك ولك الأمان».

فأجابه الحسن بن محمد^(٢) - وكان قد أصابت عينه نشابة - : «والله ما لكم أمان...». وجعل الحسن بن محمد، يقاتل الجيش أشد قتال^(٣).

ثم قُتل الحسين وأصحابه بالرغم من أنهم حاربوا ببسالة عجيبة^(٤).

إدريس وريث حركة (فخ)

وبقي منهم إدريس وأخوه يحيى ابنا عبد الله بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام، وقد كان يحيى من الذين ساهموا في الإعداد لثورة محمد وإبراهيم في زمن الأمويين وبداية العباسيين، ولما رأى الحرب في (فخ) اشترك فيها، وقاتل ببسالة حتى جرح، وبعد انهزام الحركة خرج بجرحه وتنكر وذهب إلى مصر ثم إلى البربر

(١) روى الأصفهاني قال: «أخبرني جماعة من موالى محمد بن سليمان: أنه لما حضرته الوفاة جعلوا يُلقّنونه الشهادة وهو يقول:

ألا ليت أُمي لم تلدني ولم أكن لقيت حسيناً يوم فخ ولا الحسن فجعل يُردّدها حتى مات». مقاتل الطالبين. ص ٣٨٣.

(٢) المعروف بأبي الزّفت. الحسن بن محمد (النفس الزكية) بن عبدالله (المحض) بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام.

(٣) مقاتل الطالبين، ص ٣٧٩-٣٧١. الحقائق الوردية، ج ١، ص ٣٢٥.

(٤) قال المسعودي: «فقتل الحسين وأكثر من كان معه، وأقاموا ثلاثة أيام لم يُوارو حتى أكلتهم السباع والطير». مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٢٧. وأضاف عليه الحموي في معجمه: «ولهذا يقال: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشدّ وأفجع من فخ». معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٣٨.

في المغرب، وأخذ يدعوهم ويُعرِّفهم بقرابته من رسول الله ﷺ، فاجتمعت له قادة العشائر وبايعوه^(١)، فاستتبَّ له الوضع، وأسَّس لنفسه دولة لها سيادتها وحدودها.

فعمل على تقويتها وبقي يحكم إلى أن اغتيل، فحكم أعقابه من بعده إلى عهد قريب^(٢).

إن دولة الأدارسة لم تكن وليدة صدفة، وإنما جاءت بعد تخطيط وعمل مجهد، فالرجل الجريح الذي هرب من السيف العباسي لم يكن إنساناً عادياً، وإنما كان قائداً حركياً مؤمناً، له كل مواصفات القيادة، وإلا ما اجتمعت له القلوب في تلك البلاد التي لم تكن له فيها سلطة ولا عشيرة، وإنه لعمل عظيم أن يزحف مجروح بجرحه وحيداً ليوصل الحركة، بل يؤسس دولة في أقاصي البلاد، وهذا بحق من الأعمال التي يقف المرء عندها وقفة إجلال وإكبار بالخصوص عندما تأتي من فرد وحيد في حالة مرض جسدي، وبعد هزيمة عسكرية!.

وهذا يصدق كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إذ يقول: «بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَبْقَى عَدَدًا وَأَكْثَرُ وَلَدًا»^(٣).

وكانت دولة إدريس أول دولة رسالية دامت في التاريخ.

(١) مقاتل الطالبين، ص ٤٠٧. شذرات الذهب، ج ٢، ص ٣١١. الطبقات الكبرى، ج ٥، ص ٤٤٢. الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٩٣. كما ذكر في الحقائق الوردية، ج ١، ص ٣٥٧، تفاصيل حركته ودعوته في المغرب، وبعض خطبه.. فراجع.

(٢) قام بعد شهادته ابنه إدريس فتولى المغرب، ومن بعده -إدريس بن إدريس- قام ابنه محمد بأمر مدينة فاس، فتولى أخاه القاسم البصرة، وطنجة وما يليهما، واستعمل باقي إخوته على مدن البربرة. راجع: الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٤١٥. وفي عمدة الطالب، ص ١٩٥، قال: «أعقب إدريس بن إدريس بن عبدالله المحض من ثمانية رجال: القاسم، وعيسى، وعمر، وداود، ويحيى، وعبدالله، وحزمة.. ولكل منهم ممالك ببلاد المغرب وهم بها ملوك».

(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٨٤.

يحيى بن عبد الله يتابع مسيرة إخوته

أما يحيى^(١) بن عبد الله بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام فمضافاً إلى أنه شكّل مع إخوته محمد وإبراهيم وإدريس، قيادات الصف الأول لأكثر الحركات الرسالية، كان له تميّزه الخاص، حيث كان فقيهاً، تربّى في حجر الإمام جعفر الصادق عليه السلام وروى عنه كثيراً من الأحاديث، فأكسبه ذلك علاقة خاصة بالإمام حتى أصبح لا يُحدّث عنه إلا بقوله: «حدثني جيبى جعفر بن محمد»^(٢).

وبعد معركة فخ استتر يحيى مدة يجول في البلدان، ويطلب موضعاً يلجأ إليه، بعد أن أصبح ملاحقاً من قبل السلطة، وبرغم تلك الظروف الصعبة التي كان يعيشها لم يراجع عن مبادئه الرسالية، ممّا يكشف عن نموذج قلّ نظيره في التاريخ يتربّى في معدن العلم، ويشارك في ثورتين، ويسجّن حتى يكاد يموت، ومع ذلك لم يتنازل عن كفاحه المستمر ضد السلطة الظالمة، حتى أصبح يقضي حياته متنقلاً بالخفية في البلدان. فمن المدينة المنورة إلى الديلم، والشام، والكوفة، والسند، ما يجعلنا نتعجّب من تلك الروح التي لا تهدأ ولا يقرّها قرار، وكيف تهدأ وهي ربيبة الإمام الصادق عليه السلام معدن العلم وبيت الرسالة؟.

عَلِمَ الفضل بن يحيى البرمكي^(٣) الذي كانت لديه ميول إلى أهل البيت

(١) يحيى بن عبد الله [ت: ١٨٠هـ] بن الحسن بن الإمام الحسن بن أبي طالب عليه السلام، أبو الحسن، فقيه، من عيون العلم والفضل، جليل القدر عظيم المنزلة، رفيع الشأن، له مكانة مرموقة عند المسلمين، نشأ في بيت الإمام الصادق عليه السلام، ونهل منه العلوم فكان أحد أوصيائه. شارك في ثورة الحسين بن علي صاحب فخ، فكان بطلاً من أبطالها. وفارساً شجاعاً، وكانت له مقامات مشهورة في مبارزة الأعداء. فرّ إلى الديلم، وبايعه كثير من أهل الحرمين واليمن ومصر. الحقائق الوردية، ج ١، ص ٣٢٩. مقاتل الطالبين، ص ٣٨٨. الأعلام، ج ٨، ص ١٥٤.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٣٨٩. حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ج ٢، ص ٩٠.

(٣) ابن خالد البرمكي [١٤٧-١٩٣هـ] وزير هارون العباسي، وأخوه من الرضاعة. استوزره هارون مدة قصيرة، ثم ولّاه خراسان سنة ١٧٨هـ فحسنت فيها سيرته، وأقام إلى أن فتك

بمكانه، فأمره بالانتقال عنه والتوجه إلى الديلم، وكتب له منشوراً بحيث لا يتعرض له أحد، فمضى مُتَنَكِّراً حتى ورد الديلم، وبلغ الرشيد خبره، فولى الفضل بن يحيى مهمة الخروج إليه^(١).

أما قصة كشفه عند الرشيد فتتلخص في أن رجلاً جاء إلى الرشيد فقال: «يا أمير المؤمنين، نصيحة.

فقال لهرثمة (أحد خواصه): اسمع ما يقول.

قال: إنها من أسرار الخلافة.

فأمره (الرشيد) ألا يبرح، فلما كان في وقت الظهر دعا به فقال: اخلني، فالتفت الرشيد إلى ابنه فقال: انصرفا. فانصرفا، وبقي خاقان، والحسن على رأسه، فنظر الرجل إليهما.

فقال الرشيد: تنحيا عني. ففعلا، ثم أقبل على الرجل فقال: هات ما عندك.

قال: على أن تؤمنني من الأسود والأحمر.

قال: نعم، وأحسن إليك.

قال: كنت في خان من خانات حلوان، فإذا أنا بيحيى بن عبد الله في درّاعة صوف غليظة وكساء صوف أحمر غليظ، ومعه جماعة ينزلون إذا نزل ويرتحلون إذا رحل ويكونون معه ناحية، فيؤهمون من رأيهم أنهم لا يعرفونه وهم أعوانه، مع كل واحد منهم منشور بياض يؤمن به إن عرض له.

قال: أوتعرف يحيى؟

هارون بالبرامكة سنة ١٨٧هـ وكان الفضل عنده ببغداد، فقبض عليه وعلى أبيه يحيى، وأخذهما معه إلى الرقة فسجنهما وأجرى عليهما الرزق، واستصفى أموالهما وأموال البرامكة كافة. وتوفي الفضل في سجنه بالرقة. الأعلام، ج ٥، ص ١٥١.

(١) مقاتل الطالبين، ص ٣٩٠. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٨. شذرات الذهب، ج ٢، ص ٤٣٧.

قال: قديماً، وذاك الذي حقق معرفتي بالأمس له.

قال: فصفه لي.

قال: مربع، أسمر، حلو السمرة، أجلع، حسن العينين، عظيم البطن.

قال: هو ذاك. فما سمعته يقول؟.

قال: ما سمعته يقول شيئاً، غير أنني رأيته ورأيت غلاماً له أعرفه، لما حضر وقت صلاته فأتاه بثوب غسيل فألقاه في عنقه ونزع جبته الصوف ليغسلها، فلما كان بعد الزوال صلى صلاة ظننتها العصر، أطال في الأولتين وحذف الأخيرتين.

فقال له الرشيد: لله أبوك، لجاد ما حفظت، تلك صلاة العصر وذلك وقتها عند القوم، أحسن الله جزاءك، وشكر سعيك فما أنت؟. وما أصلك؟.

وبعد ذلك أغدق عليه الرشيد الأموال إلا أنه أمر أيضاً بصنع الرجل جزاءً لصحبته السابقة ليحيى^(١). بعد ذلك احتال الرشيد في عملية اغتياله^(٢).

فانتقل يحيى إلى جوار ربّه بعد حياة ملؤها الجهاد الدؤوب.

بعد قتله هل انتهت شجرة يحيى بن عبد الله؟ كلاً، فهي لا تفتأ تُعطي ثمارها، فهذا حفيده محمد بن جعفر بن عبد الله يتوجّه إلى المغرب عبر مصر، فيتصل ببلاد تاهرت السفلى فيجتمع إليه خلق من الناس فيظهر فيهم بالعدل وحسن الاستقامة بعد ذلك يستشهد مسموماً^(٣). وهكذا الطريق الرسالي لا يستشهد واحد فيه، إلا ويقوم آخر ويواصل المسيرة.

وهناك دول أخرى أيضاً بقيت في التاريخ من جماعة الزيدية كدولة الإمام

(١) مقاتل الطالبين، ص ٣٩١-٣٩٢.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٤٠١-٤٠٢.

(٣) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٤٣.

الناصر^(١) في الديلم.

إلى هنا انتهى حديثنا عن الزيدية، ويبقى علينا أن نتحدث عن الإسماعيلية، حتى تكتمل لدينا صورة الحركة الرسالية. ونتعرّف حينها إلى دور الأئمة عليهم السلام بعد أن ينكشف لنا أنهم لم يكونوا بعيدين أبداً عن هذه الحركات، وإنما كانوا يُوجِّهونها من بعيد مع قيادتهم لحركات كثيرة في الوقت نفسه، فالدولة الإسلامية كانت كبيرة، لها أطراف عدة وتشعبات مختلفة، وتغيير معالمها عملية شاقة، وبحاجة إلى جهود جبارة.

(١) الإمام الناصر للحق، أو: الإمام الناصر العلوي، (أبو محمد) الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف بن الإمام علي بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، [٢٢٥-٣٠٤هـ]. ولد بالمدينة المنورة، كان شاعراً مفلحاً، علامة إماماً في الفقه والدين. يعتبر شيخ الطالبين وعالمهم. ولي الحكم في طبرستان بعد شهادة محمد بن زيد سنة ٢٨٧هـ وهو ثالث حكامها من العلويين (الزيدية)، وكانت طبرستان قد خرجت من يده، فخرج إلى بلاد الديلم، فأقام فيها ثلاث عشرة سنة. وكان أهلها كفار، فأسلم منهم عدد وافر. وفيها أسس دولته وبني لأهلها المساجد، ثم ألّف منهم جيشاً وزحف به إلى طبرستان، فاستولى عليها سنة ٣٠١هـ، لُقّب بالناصر، وكان يدعى بـ(الأطروش) لصمم أصابه من ضربة سيف في إحدى معاركه. قال عنه الطبري: «لم يرَ الناس مثل عدل الأطروش وحسن سيرته وإقامته الحق». له تفسير في مجلدين، وتنسب إليه كتب أخرى، توفي في طبرستان. تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ١٤٩. الأعلام، ج ٢، ص ٢٠٠. الحقائق الوردية، ج ٢، ص ٥٥-٥٧.

﴿ صَفْوُ الْكَلَامِ ﴾

* في القرن الثاني للهجرة، وبفضل جهود العناصر الرسالية المؤمنة، تحول الجهد العملي لجميع أبناء الأمة إلى الإصلاح الداخلي، وتوقفت الفتوحات الخارجية (التي تميز بها القرن الأول) نوعاً ما.

* اجتمعت الحركات التحررية والإصلاحية على هدف إسقاط الدولة الأموية، وقد اشترك بعضها (كالحرركات الزيدية) مع العباسيين في تحقيق هذا الهدف، ولكنها بعد سقوط الأمويين اختلفت معها، وسرعان ما برزت حركات المعارضة ضد العباسيين في عهد المنصور.

* كانت حركة محمد ذي النفس الزكية أولى حركات المعارضة ضد العباسيين بمساعدة إخوانه وتأيد بعض فقهاء العراق، ثم حركات سائر أبناء الحسن مثل: يحيى بن عبدالله وإدريس بن عبدالله، وحركة الحسين صاحب فخ. وتميزت هذه الحركات -كسائر الحركات الرسالية- بالبسالة والشجاعة والتضحية والصمود في وجه كل التحديات.

* وواجه العباسيون هذه الحركات بكل شراسة ونكلوا بهم وطاردهم في كل أرجاء البلاد الإسلامية. إلا أن روح المعارضة الرسالية لم تمت، وظلت شعلتها متوهجة تتناقلها أيدي القيادات المؤمنة.



١٩ كيف كان الإمام الصادق عليه السلام يُوجه الأئمة؟

شمولية توجيه الأئمة

نؤكد هنا ما أشرنا إليه سابقاً عن الدور الذي كان يقوم به الإمام زين العابدين عليه السلام، وكيف كان يُحرِّك جميع الخيوط الموجودة في الأمة الإسلامية، وهو في المدينة المنورة، وذلك عن طريق تربية عناصر قيادية كفوءة تُوجَّه توجيهاً دقيقاً للقيام بكافة التحركات التي يتطلبها العمل الإسلامي.

ما يعني أن الإمام لم يكن رجل عبادة وزهد وفقه فقط، وإنما كان رجل عملٍ رساليٍّ وتغييرٍ شاملٍ في الأمة. وهذه وظيفة الأنبياء والأئمة وكل المصلحين التاريخيين، إذ لا يمكن حصر أنفسهم في نطاق ضيق من الثورة السياسية، أو التغيير الثقافي، أو الإصلاح الاجتماعي، وإنما يجمعون الأهداف والمسؤوليات كلها، ويوجهون الأمة توجيهاً شاملاً.

لقد كان حضور الأئمة المعصومين عليهم السلام في الساحة يُغطي كل المجالات، فهم بمثابة الدقة في سفينة الأمة، لا يرحون يُحافظون على مسيرتها، فهذه آثارهم تشهد بفيضهم الزاخر، وسابغ نبيهم من الفقه، والعقائد، والعرفان، ومختلف المعارف الإسلامية، وكل ما يهم الإنسان من شؤون ومساكلة السياسية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها، كما كان لهم حضور خاص في إعداد الطليعة، وذلك بإعداد النخب العلمية والسياسية، وإشباع مختلف المجالات بالفاعلية والنشاط، وبث

روح العمل والتضحية، وجعل المبادئ السامية مرتكزات للتفاضل في المجتمع الإسلامي، حتى يبقى الإسلام حيًّا في ضمير الأمة.

موقف تجاه كل حدث

فالأئمة عليهم السلام كانت لديهم مواقف تجاه كل الأحداث حتى الصغير منها، والتاريخ يشهد على هذه السيرة، فلا يمر تغيير على مستوى الأمة، أو حدث في الساحة الإسلامية الممتدة، إلَّا وللأئمة رأي وموقف تجاهه، إما بشكل مباشر أو يُبلغونه عبر خواصهم، ومن هنا كانوا يُشكّلون خطراً كبيراً على السلطة الحاكمة الأموية أو العباسية. ولذلك نجد الخلفاء لا تنام لهم عين حتى تأتيهم أخبار الأئمة أوّلاً بأوّل، وهو ما يُفسّر استدعاء الخلفاء للأئمة بشكل مُتكرّر. وبرغم أن الثورات السياسية لم تكن تحت قيادة الأئمة عليهم السلام بشكل مباشر إلَّا أن الاتّهامات كانت دائماً تدور حولهم، وأنهم يدعون لأنفسهم، فكان لدى السلطة إحساس واضح بأن الأئمة عليهم السلام هم وراء هذه الثورات. ولذا تمّت مضايقتهم بشتى السبل، حتى إن بعضهم قضى أغلب أيام إمامته في السجن^(١)، كما عمل الخلفاء على كسر هيبة الأئمة عليهم السلام بجلب العلماء لمناظرتهم أملاً في هزيمتهم، ومن ثمّ إثبات عدم تميّزهم^(٢)، وآخر ما توصّل إليه الخليفة العباسي هو حبس الأئمة عليهم السلام في مدينته (سامراء)^(٣)

(١) كالإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام.

(٢) وهو ما قام به المأمون العباسي مع الإمام الرضا عليه السلام، وكان غرضه من ذلك إخراج الإمام وإظهار عجزه أمام العلماء وأصحاب المقالات والمتكلمين، وبعجز الإمام عليه السلام يكون المأمون قد نقض ما تذهب إليه الإمامية من أن الإمام إنما يكون أعلم أهل عصره، فيُسقط هيبة ومكانة الإمام عند عموم المسلمين، وبهذا تكون الفرصة سانحة له في عزل الإمام عن ولاية العهد التي علم أنه إنما أخطأ في توليته الإمام هذا المنصب الخطير. فأحضر المأمون كبار العلماء والمتكلمين، وقد جمعوا للإمام أعقد وأعمق المسائل في جميع العلوم والمعارف، فأجاب عنها الإمام بجواب العالم الخبير، وبهذا أبطل الإمام عليه السلام ما كان يُحطّط له المأمون... طالع نص المناظرات والحوارات مع الإمام الرضا عليه السلام: التوحيد للصدوق، ص ٤١٧. الاحتجاج، ج ٢، ص ٤١٥. بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٢٩٩.

(٣) قضى الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام، معظم حياته في سامراء -بعد أن أمر المتوكل بإحضاره

لكيلا يظلّ خائفاً ما دام الإمام عليه السلام تحت مراقبته المباشرة.

كل ذلك يدلّ على أن الأئمة كان لهم موقف تجاه أي حدث يقع في الدولة الإسلامية حتى الصغير منه، ولا يعني قولهم: «... مَا مِنَّا إِلَّا مَقْتُولٌ أَوْ مَسْمُومٌ»^(١)، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا مَحَوْرَ التَّوْجِيهِ السِّيَاسِيِّ.

فمثلاً المنصور الدوانيقي، وهو من البيت العباسي الذي اشترك مع البيت العلوي في العمل سوية على إسقاط الدولة الأموية، كان قد عرف بعض أساليب الأئمة عليهم السلام في إدارة العمل الرسالي وتوجيهه.

لذلك حينما كان في منطقة الربرة (مدفن أبي ذر رضي الله عنه) تساءل: ما الذي دفع محمد ذي النفس الزكية إلى القيام بثورته ضدنا؟. أليس الإمام الصادق عليه السلام؟.

هكذا فُكر في نفسه وطلب الإمام الصادق عليه السلام وقال قبل أن يأتي الإمام لبعض أتباعه: «مَنْ يَغْذِرُنِي مِنْ جَعْفَرٍ هَذَا، قَدَّمَ رَجُلًا وَآخَرَ أُخْرَى، يَقُولُ: أَتَنْحَى عَنْ مُحَمَّدٍ -أَقُولُ يَعْنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ (ذي النفس الزكية) فَإِنْ يَظْفَرُ فَإِنَّمَا الْأَمْرُ لِي وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَكُنْتُ قَدْ أَحْرَزْتُ نَفْسِي، أَمَا وَاللَّهِ لَا أَقْتَلُهُ..»^(٢).

ويفسّر صاحب كتاب (بحار الأنوار) العلامة المجلسي رحمته الله هذه الكلمة فيقول: «قَدَّمَ رَجُلًا وَآخَرَ أُخْرَى، أَيِ وَافَقَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، وَحَثَّهُ عَلَى الْخُرُوجِ وَتَنْحَى عَنْهُ ظَاهِرًا أَوْ حَرَفَ النَّاسَ عَنْ نَاحِيَّتِنَا، وَلَمْ يُوَافِقْهُ فِي الْخُرُوجِ، يَقُولُ أَيُّ الصَّادِقِ عليه السلام: أَتَنْحَى عَنْ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ فَإِنْ يَظْفَرُ مُحَمَّدٌ فَلِأَمْرِي لَكثْرَةُ شِيعَتِي، وَعَلِمَ النَّاسَ بِأَنِّي أَعْلَمُ وَأَصْلَحُ لَذَلِكَ، وَإِنْ انْهَزَمَ وَقَتْلَ

عنوة- وكان فيها مثل السجين في زنازينها حيث أمر الطاغية العباسي جلاوزته بمراقبة دار الإمام عليه السلام وكل من يتصل به من شيعة وعامة المسلمين. كما قام حكام بني العباس الذين جاؤوا بعد المتوكل بسجن الإمام الحسن العسكري عليه السلام ومراقبته وهو في السجن.

(١) عَنْ عُتْبَةَ بْنِ الصَّحَّالِ عَنْ هِشَامِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: حَاطَبُ الْحَسَنِ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام بَعْدَ قَتْلِ أَبِيهِ، فَقَالَ: فِي خُطْبَتِهِ.... بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢١٦. كفاية الأثر، ص ١٦٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٩٢.

فقد نجيت نفسي من القتل»^(١).

وقال المنصور للإمام عليه السلام: «وَأَنْتَ - يَا جَعْفَرُ - مَا تَدْعُ حَسَدَكَ وَبَغْيَكَ وَإِفْسَادَكَ عَلَى أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَمَا يَزِيدُكَ اللَّهُ بِذَلِكَ إِلَّا شِدَّةَ حَسَدٍ وَتَكْدٍ مَا تَبْلُغُ بِهِ مَا تُقَدِّرُهُ...»^(٢).

فالمنصور كان يعلم يقيناً أن الإمام الصادق عليه السلام صاحب موقف تجاه أي حركة تغييرية على الساحة الإسلامية، لذلك فمن المستحيل أن يكون تحرك ابن الحسن ضد الحكم العباسي بعيداً عن توجيه الإمام الصادق عليه السلام.

التقية دعامة ثابتة في قيادة الأئمة

إن أعمال الأئمة عليهم السلام كانت تتسم بطابع التقية، والعمل السري، والكتمان في كل التحركات، الأمر الذي أدى إلى عدم ظهور هذه الأعمال إلا متأخراً، وحتى حينذاك لم يكن المواليون أمام ظرف يسمح لهم بإظهار كافة الخطط التي كان يرسمها الأئمة المعصومون عليهم السلام.

رُوي عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ اخْتِمَالِ أَمْرِنَا التَّصَدِيقُ لَهُ وَالْقَبُولُ فَقَطْ. مِنْ اخْتِمَالِ أَمْرِنَا سِتْرُهُ، وَصِيَانَتُهُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، فَأَقْرَبُهُمُ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُمْ رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا اجْتَرَّ مَوَدَّةَ النَّاسِ إِلَى نَفْسِهِ، حَدَّثُوهُمْ بِمَا يَعْرِفُونَ، وَاسْتَرُوا عَنْهُمْ مَا يُنْكِرُونَ... ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا النَّاصِبُ لَنَا حَرْبًا بِأَشَدَّ عَلَيْنَا مَوُونَةً مِنَ النَّاطِقِ عَلَيْنَا بِمَا نَكْرَهُ.

فَإِذَا عَرَفْتُمْ مِنْ عَبْدٍ إِذَاعَةً فَأَمْسُوا إِلَيْهِ وَرُدُّوهُ عَنْهَا فَإِنْ قَبِلَ مِنْكُمْ وَلَا فَتَحَمَلُوا عَلَيْهِ بِمَنْ يُثْقَلُ عَلَيْهِ، وَيَسْمَعُ مِنْهُ. فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ يَطْلُبُ الْحَاجَةَ فَيَلْطَفُ فِيهَا حَتَّى تُقْضَى لَهُ، فَالْطُّفُوا فِي حَاجَتِي كَمَا تَلْطَفُونَ فِي حَوَائِجِكُمْ. فَإِنْ هُوَ قَبِلَ مِنْكُمْ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٩٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٩٦.

وَالَا فَادْفِنُوا كَلَامَهُ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَلَا تَقُولُوا: إِنَّهُ يَقُولُ وَيَقُولُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْمَلُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ مَا أَقُولُ لَأَقْرَزْتُ أَنْتُمْ أَصْحَابِي...»^(١).

كل تلك السرية كانت لسبب بسيط وهو: كون النظام الحاكم لو عرف طريقة الأئمة المعصومين عليهم السلام في توجيه الأمة، لقام بتدبير المؤامرات المضادة وعرقل أعمالهم. فلو عرف المنصور الدوانيقي طريقة قيام الإمام الصادق عليه السلام بإدارة المجتمع وتوجيهه وقيادته، لما تمكّن الإمام من صنع هذه التمرّجات في الساحة، ولأصبح المنصور حجر عثرة في طريق الإمام، وحتى لو تحقّقت للمنصور هذه المعرفة بعد حياة الإمام الصادق عليه السلام فإن باستطاعته أن يستفيد منها في ضرب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وريث الإمام الصادق، وهكذا... ولو عرف هارون الرشيد طريقة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في إدارة الحركات الرسالية وهو مسجون لتمكّن من محاصرتها ومن ثم القضاء عليها، ولو تسرّبت تلك الخطط بعد وفاة الإمام لاستفاد منها المأمون في ضرب الإمام الرضا عليه السلام وهكذا...

فمن هنا تجد التأكيد في أحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام على ضرورة السرية في التحرك حتى جعلت رمزا للانتماء، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كَيْتَانُ سِرّاً جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

ولكن أي سرّ يقصدون؟ هل إن كتمان فضائلهم وعدم إظهارها جهاد؟

لم يكن ذلك بالتأكيد، فإن سيرة الأئمة ثبت عكس ذلك تماماً، فإنهم يُشجّعون كل من يبث فضائلهم ويبيّن للناس منزلتهم، حتى الشعراء لم يمنعوا من مدحهم وإظهار مقامهم من أمثال: دعبل الخزاعي^(٣)، والسيد

(١) الكافي، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٧٠.

(٣) دعبل بن علي الخزاعي [١٤٨-٢٤٦هـ]، اسمه محمد، وإِنَّمَا لُقِّبَ بدعبل لدعابه كانت فيه. شاعر مفلق، فصيح، متفنن في فنون الشعر، مدحاً، وهجاءً، وكان في هجائه لاذعاً. شهد له بذلك أشعر شعراء عصره. وحسبك بشاعريته أن يقول له أبو نواس الشاعر: «أحسنتم ملء

الحميري^(١)، والكميت^(٢)، والفرزدق.

ولذا نجد أن الإمام علي بن الحسين عليه السلام حينما سمع أن الفرزدق قد سُجن بسبب قصيدته المشهورة في مدحه أمام الطاغية الأموي، لم يغضب عليه، ولم يتضايق

فيك...». ولقد مثل دعبل شعره لسان المعارضة للدولة العباسية، فتعرض لسخط بني العباس، وقال في الأغاني واصفًا هجاءه: «شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم عليه أحد من الخلفاء، ولا من وزرائهم ولا أولادهم...». عرف واشتهر بإيمانه وعلو منزلته، فعظم شأنه بين الموالين لأهل البيت عليهم السلام، عُذَّ من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام، اشتهرت قصيدته الثائية في أهل البيت عليهم السلام، بين الشيعة والسنة، حيث لم يبق مؤرخ ولا رجالي إلا وذكرها، أو أشار إليها، أو ذكر أبياتًا منها، كما أشار إليه الشعراء في أشعارهم، حتى قال عنها في الأغاني: «قصيدته: (مدارس آيات خلت من تلاوة) من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت عليهم السلام». وفي معجم الأدباء: «قصيدته الثائية في أهل البيت عليهم السلام من أحسن الشعر وأسنى المدائح». وقال العاملي في أعيانه: «بلغ من شهرتها أن يحفظها لصوص الأكراد وينشدوها ويتمثلوا بها وتكون سببًا في نجاة دعبل وأصحابه منهم ورد مسلوباتهم إليهم». له كتاب: طبقات الشعراء. أعيان الشيعة، ج ٦، ص ٤٠٠. فهرس التراث، ج ١، ص ٢٦٠.

(١) اسمه إسماعيل بن محمد الحميري [١٠٥-١٧٣هـ]، والسيد لقبه. كنيته أبو عامر الحميري، وبها اشتهر. عُذَّ من شعراء الإمام الصادق عليه السلام، قال في حقه الإمام الصادق عليه السلام: «سَمَتَكَ أَمْلَكَ سَيِّدًا وَوَفَّقْتَ فِي ذَلِكَ وَأَنْتَ سَيِّدُ الشُّعْرَاءِ...». فهو من شعراء أهل البيت عليهم السلام ومن المجاهرين بالولاء وبجبه لهم، استنفذ شعره في معنى واحد وهو مدحهم عليهم السلام ولم يترك منقبة لأمر المؤمنين عليهم السلام إلا نظم فيها شعراً. كما كان من أقدر الناس على نظم الأخبار والأحاديث والقصص، ولم يُسمع بشاعر أكثر مُطيل مُجيد غيره. وشعره مملوء بالاحتجاج، وله مناظرات جمة. انظر: أعيان الشيعة، ج ١، ص ١٨٥. الأعلام، ج ١، ص ٣٢٢.

(٢) ابن زيد الأسدي [٦٠-١٢٦هـ]، أبو المستهل، شاعر الهاشمين. من أهل الكوفة. خطيب بني أسد، وفتية من فقهاء الشيعة، كان عالماً بأدب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، فارساً شجاعاً، سخيّاً، رامياً لم يكن في قومه أرمى منه. عُرف بالولاء لأهل البيت عليهم السلام، كثير المدح لهم. وهو من أصحاب الملحمات. أشهر شعره (الهاشميات)، وهي عدة قصائد في مدح أهل البيت عليهم السلام. ترجمت إلى الألمانية. ويقال إن: «شعره أكثر من خمسة آلاف بيت». وحكى السيد المرتضى عن الجاحظ في بعض كتبه أن: «الكميت أول من ناظر في التشيع وأقام فيه الحجج، وأنه لولا الكميت وما احتج به في هذا الشعر لما عرف الشيعة وجه الحجة في تقديم آل محمد عليهم السلام». أعيان الشيعة، ج ١، ص ١٣٣. الأعلام، ج ٥، ص ٢٣٣.

منه، وإنما بعث إليه بالآلاف الدراهم تشجيعاً له على موقفه^(١)، وهكذا كانت سيرة الأئمة عليه السلام، فالإمام الصادق عليه السلام كان يحث الحميري^(٢)، والأشجع السلمي^(٣) لقول الشعر فيهم، وكان الإمام الرضا عليه السلام يُشجّع دعبل الخزاعي معنوياً ومادياً حيث دفع إليه حين أنشده قصيدته الثائية مائة دينار وجبة كان قد صلى فيها ما شاء الله له^(٤).

فتساءل إذاً: ما الأمر الذي كان الأئمة المعصومون عليه السلام يأمرون أتباعهم بكتمائه والمحافظة على سرّيته؟ إن هذا الأمر لا بد أن يكون مرتبطاً بالخطط والأساليب التي يتبعها الأئمة عليه السلام في تبليغ الرسالة والمحافظة عليها في ظل النظم الإرهابية، ما يكشف عن الدور المهم والحساس الذي كان يقوم به أئمة أهل البيت عليه السلام في التاريخ الإسلامي.

(١) الاختصاص، ص ١٩٣. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٢٧.
(٢) رُوِيَ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَقِيَ السَّيِّدَ ابْنَ مُحَمَّدٍ الْحَمِيرِيَّ، قَالَ: سَمَنْتُكَ أُمَّتُكَ سَيِّدًا، وَوَقَفْتُ فِي ذَلِكَ، وَأَنْتَ سَيِّدُ الشُّعْرَاءِ. ثُمَّ أَنْشَدَ السَّيِّدُ فِي ذَلِكَ:

وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِقَائِلِي مَرَّةً	عَلَامَةٌ فَهَمُّ مِنَ الْفُقَهَاءِ
سَمَّاكَ قَوْمُكَ سَيِّدًا صَدَقُوا بِهِ	أَنْتَ الْمُؤَقَّقُ سَيِّدُ الشُّعْرَاءِ
مَا أَنْتَ حِينَ تَخْصُ آلَ مُحَمَّدٍ	بِالْمَدْحِ مِنْكَ وَشَاعِرٌ بِسَوَاءِ
مَدَحَ الْمُلُوكَ ذَوِي الْغِنَى لِعَطَائِهِمْ	وَالْمَدْحِ مِنْكَ لَهُمْ بَغِيرَ عَطَاءِ
فَأَبْشِرْ فَإِنَّكَ فَأَيُّزٌ فِي حُبِّهِمْ	لَوْ قَدْ وَرَدَتْ عَلَيْهِمْ بِحَزَاءِ
مَا يَغْدُلُ الدُّنْيَا جَمِيعاً كُلُّهَا	مِنْ حَوْضِ أَحْمَدَ شَرِبَةً مِنْ مَاءِ

بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣٢٨.

(٣) أشجع بن عمرو السلمي [ت: ١٩٥ هـ]، أبو الوليد، من بني سليم، كان شاعراً مُفلقاً مكثراً، معدوداً في فحول الشعراء في طبقة أبي نواس وأبي العتاهية وبشار. كان الشعر يومئذٍ في ربيعة واليمن ولم يكن لقيس شاعر معدود فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس. مدح الخلفاء وولاة العهود والوزراء والأمراء وغيرهم وأخذ جوائزهم السنية وحظي عندهم، فمدح الرشيد وأولاده فأعجب به الرشيد، ومدح البرامكة فاعجبوا به، ومدح غيرهم. دخل على الإمام الصادق عليه السلام فمدحه وأجازه ورثى الإمام الرضا عليه السلام. وروى الأصفهاني في مقاتل الطالبين، ص ٤٥٨، أن الأشجع السلمي عندما نظم قصيدته يرثي الإمام الرضا عليه السلام، وقد شاع خبرها إلا أن الأشجع غير ألفاظها فجعلها في الرشيد. انظر: بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣١٠ و٣١٩. أعيان الشيعة، ج ٣، ص ٤٤٧. الأعلام، ج ١، ص ٣٣١.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٦٤. بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢٣٩.

حركة إسماعيل ابن الإمام الصادق

وليس من الصدفة أيضاً أن يبرز إسماعيل^(١) ابن الإمام الصادق عليه السلام ويقود بنفسه أكبر حركة ضد الحكم العباسي، ويُفجّر ثورته المسلحة التي كان لها أكبر أثر في تاريخ الإسلام. ولا شك في أن الفضل في ذلك يعود إلى تربية الإمام الصادق عليه السلام وتوجيهه ودعمه وإدخاله في مجريات أمور الأمة الإسلامية. فقد جعل عليه السلام ابنه إسماعيل يقوم بالتجارة في بادئ الأمر، مع علمنا أن الأئمة المعصومين كانت تُجبي إليهم أموال الخمس والزكاة^(٢)، وكانوا يبعثون عليه السلام أفراداً لجمعها^(٣)،

(١) ابن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، [ت: ١٣٣ هـ]، أبو محمد، عُرف بتقواه، أخذ علومه ومعارفه عن أبيه، وإليه تنسب فرقة الإسماعيلية، وهم القائلون بإمامته بعد أبيه. ولأنه كان أكبر إخوته، وكان الإمام الصادق عليه السلام شديد المحبة له والبر به والإشفاق عليه، ولميل أبيه إليه وإكرامه له، كان قوم من الشيعة يظنون أنه القائم بعد أبيه والخليفة له من بعده، مات في حياة أبيه بالعريض وحمل إلى أبيه بالمدينة حتى دفن بالبقيع. رُوي أن أبا عبدالله عليه السلام جزع عليه جزعاً شديداً وحزن عليه حزناً عظيماً وتقدّم سريره بغير حذاء ولا رداء، وأمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه مراراً كثيرة، وكان يكشف عن وجهه وينظر إليه، يريد بذلك تحقيق أمر وفاته عند الظانين خلافته له من بعده وإزالة الشبهة عنهم في حياته. وفي الإسماعيلية من يرى أن أباه أظهر موته تقيّة حتى لا يقصده العباسيون بالقتل. أعيان الشيعة، ج ٣، ص ٣١٦-٣١٨.

(٢) رُوي عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قوله: «عَلَى كُلِّ امْرِئٍ عَمَلٌ أَوْ اكْتَسَبَ الْخُمُسُ مِمَّا أَصَابَ لِقَاطِمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَيْنَ يَلِي أَمْرَهَا مِنْ بَعْدِهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهَا الْحَجَّ عَلَى النَّاسِ فَذَاكَ لَهُمْ خَاصَّةٌ يَضَعُونَهُ حَيْثُ شَاءُوا.. حَتَّى الْخَبَاطُ يَخِيطُ قَمِيصًا بِخُمْسَةِ دَوَانِقٍ فَلَنَا مِنْهُ دَانِقٌ...». وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٥٠٣.

(٣) عدّد الشيخ الطوسي في كتابه (الغيبة، ص ٣٤٧-٣٥٠)، عددًا من الوكلاء عن أئمة الهدى عليه السلام قائلاً: «منهم: نصر بن قابوس اللخمي. فرُوي أنه كان وكيلاً لأبي عبدالله عليه السلام عشرين سنة ولم يُعلم أنه وكيل، وكان خيرًا فاضلاً. وكان عبد الرحمن بن الحجاج وكيلاً لأبي عبدالله عليه السلام ومات في عصر الرضا عليه السلام على ولايته. ومنهم: عبد الله بن جندب البجلي، وكان وكيلاً لأبي إبراهيم [الإمام الكاظم عليه السلام] وأبي الحسن الرضا عليه السلام، وكان عبدًا رفيع المنزلة لديهما على ما رُوي في الأخبار». أما قول الشيخ رحمه الله: «ولم يُعلم أنه وكيل..»، فالمعنى أن وكالته لم تكن مشهورة عند الناس، ومنها يُعلم أن عملهم إنما هو قائم على التقية والسرية لا يعلم حالهم إلا الثقات من الشيعة. ويدل عليه ما رواه الشيخ الطوسي عن هشام بن أحمد قال:

من مواليتهم وأنصارهم رغم الحظر الذي كانت تفرضه السلطة، وكانت الأموال التي تصلهم كثيرة بسبب العدد الكبير للشيعة والموالين الذين كانوا يعملون في التجارة، مضافاً إلى أن الدولة الإسلامية آنذاك كانت في قمة وضعها الاقتصادي، ما يجعل الأموال تأتيهم من كل صوب، فلم يكونوا في حاجة إليها.

ما يجعلنا نسأل التاريخ عن السبب الذي كان يدعو إسماعيل إلى ممارسة التجارة؟.

إن التاريخ يُصوِّر لنا إسماعيل تاجراً^(١)، تحوّل فجأة إلى قائد حركة كبيرة، تُعتبر الثانية من نوعها التي استطاعت أن تتغلب على أكبر دولة في العالم آنذاك، وهي الدولة العباسية، ما يجعلنا نتيقن أن القضية لم تكن عملية تجارة، وإنما التجارة كانت تغطية لأعمال أخرى أكبر منها. الأمر الذي يُوقفنا أمام المقدرة الفائقة للأئمة المعصومين عليهم السلام على تحريك الخيوط العديدة في الساحة الإسلامية.

فالإمام الصادق عليه السلام كان يُدرّس بطريقة مباشرة أربعة آلاف شخص^(٢)، مختلف العلوم، من علوم القرآن، والفقه، والأصول، والتاريخ، ومعارف الحكمة، وغيرها من العلوم النظرية والتطبيقية، وكان يُخرِّج العلماء المختصين في ضروب المعارف المختلفة^(٣). والرواية التالية تكشف لنا عن التخصصات العلمية المختلفة في أصحاب وتلاميذ الإمام الصادق عليه السلام: «وَرَدَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَاسْتَأْذَنَ فَأَذِنَ لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ سَلَّمَ فَأَمَرَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام بِالْجُلُوسِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهَا الرَّجُلُ؟».

«حملت إلى أبي إبراهيم عليه السلام إلى المدينة أموالاً، فقال عليه السلام: رَدَّهَا فادفعها إلى الفضل بن عمر، فرددتها إلى جعفي فحططتها على باب الفضل».. وعن موسى بن بكر قال: «كنت في خدمة أبي الحسن عليه السلام فلم أكن أرى شيئاً يصل إليه إلا من ناحية الفضل، ولربما رأيت الرجل يجيء بالشيء فلا يقبله منه يقول: أوصله إلى الفضل».

(١) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢٦٧.

(٢) قال العلامة المحقق الحلي رحمته الله في المعبر، ج ١، ص ٢٦: «انتشر عنه عليه السلام من العلوم الجمة ما بهر به العقول... وروى عنه من الرجال ما يقارب أربعة آلاف رجل...». وطالع أيضاً: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٦٧.

(٣) الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، ص ٤٥ - ٧٠.

قَالَ: بَلَّغْنِي أَنَّكَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا تُسْأَلُ عَنْهُ، فَصِرْتُ إِلَيْكَ لِأَنَاظِرَكَ.
فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فِي مَاذَا؟
قَالَ: فِي الْقُرْآنِ وَقَطْعِهِ، وَإِسْكَانِهِ، وَخَفْضِهِ، وَنَضْبِهِ، وَرَفْعِهِ.
فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: يَا مُحْرَّانُ^(١)؛ دُونَكَ الرَّجُلُ.
فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّمَا أُرِيدُكَ أَنْتَ، لَا مُحْرَّانًا!
فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِنْ غَلَبْتَ مُحْرَّانَ فَقَدْ غَلَبْتَنِي.
فَأَقْبَلَ الشَّامِيُّ يَسْأَلُ مُحْرَّانَ، حَتَّى ضَجَرَ وَمَلَّ وَعَرَضَ، وَحُحْرَانُ يُجِيبُهُ.
فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: كَيْفَ رَأَيْتَ يَا شَامِي؟
قَالَ: رَأَيْتُهُ حَازِقًا مَا سَأَلْتُهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَجَابَنِي فِيهِ.
فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: يَا مُحْرَّانُ سَلِ الشَّامِيَّ. فَمَا تَرَكَ يَكْثُرُ.
فَقَالَ الشَّامِيُّ: أَرَأَيْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَنَاظِرُكَ فِي الْعَرَبِيَّةِ.
فَالْتَفَتَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقَالَ: يَا أَبَانَ بْنَ تَغْلِبَ^(٢) نَاطِرُهُ.
فَنَاطِرُهُ فَمَا تَرَكَ الشَّامِيَّ يَكْثُرُ. قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَنَاظِرَكَ فِي الْفِقْهِ.
فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: يَا زُرَّارَةَ^(٣) نَاطِرُهُ. فَمَا تَرَكَ الشَّامِيَّ يَكْثُرُ.
قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَنَاظِرَكَ فِي الْكَلَامِ. فَقَالَ عليه السلام: يَا مُؤَمِّنَ الطَّاقِ^(٤) نَاطِرُهُ.

(١) حمران بن أعين الشيباني، كوفي مولى، تابعي مشكور. خلاصة الأقوال، ص ١٣٤.
(٢) أبان بن تغلب الجريري، ثقة جليل القدر عظيم المنزلة. خلاصة الأقوال، ص ٧٣.
(٣) زرارة بن أعين الشيباني، شيخ أصحابنا في زمانه، متقدمهم، قارئ فقيه متكلم أديب، اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، صادق فيما يرويه. رجال النجاشي، ص ١٧٥.
(٤) محمد بن علي بن النعمان، ثقة، كوفي صيرفي، يُلقبهُ الشيعة بـ(مؤمن الطاق)، والعامية بـ(شيطان الطاق). من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. رجال النجاشي، ص ٣٢٥.

فَنَظَرَهُ فَسَجَلَ الْكَلَامَ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ تَكَلَّمَ مُؤْمِنُ الطَّاقِ بِكَلَامِهِ فَعَلَبَهُ بِهِ..
فَقَالَ الشَّامِيُّ: كَأَنَّكَ أَرَدْتَ أَنْ تُخْبِرَنِي أَنَّ فِي شِيعَتِكَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ!؟
قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُوَ ذَلِكَ....»^(١).

صحيح أن كل إمام امتاز بشيء بحسب الظرف ومقتضى الواقع، فأخذ المسلمون الفقه من الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وأصول الفكر من الإمام الباقر عليه السلام، والعبادة والتقوى والروح الدينية من الإمام السجاد عليه السلام، والثورة على النظام الفاسد من الإمام الحسين عليه السلام والصلح والسلم والتضحية من الإمام الحسن عليه السلام، والقضاء والشجاعة والعدالة من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولكن هذا التميز لا يمنع أن يكون كل إمام هو محور بنفسه في كل أبواب العلوم والمعارف، لولا الحكمة التي تقتضي إبراز الأمر المناسب في الموضع المناسب.

من هنا نرى أن الإمام كان يجمع هذه الخيوط جميعاً في يده، وكان يُحيط بكل الأمور إحاطة تامة، فمع اشتغال الإمام الصادق عليه السلام بالفقه الذي بلغ به هذا الشأن العالي، حتى أصبح مرجعاً فيه ليس للرسالين فقط، وإنما لأئمة المذاهب الأخرى أيضاً، مثل: أبي حنيفة^(٢)، ومالك بن أنس^(٣)، والشافعي محمد بن

(١) راجع تفصيل الرواية في: بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٤٠٧، ح ١١، باب مناظرات أصحابه عليه السلام مع المخالفين.

(٢) رئيس المذهب الحنفي، تتلمذ على يد الإمام الصادق عليه السلام، نحو ستين متصلتين، وهو القائل: «لولا الستان لهلك النعمان». إحقاق الحق، ج ٢٨، ص ٤٤٣. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٦٩.

(٣) رئيس المذهب المالكي، كانت له صلة تامة بالإمام الصادق عليه السلام، وروى الحديث عنه. وقال عن تتلمذه على يد الإمام الصادق الكاتب عبدالرحمن الشرقاوي: «أفاد الإمام مالك من صحبة الإمام جعفر وأخذ عنه كثيراً من طرق استنباط الحكم، ووجوه الرأي، وأخذ عنه بعض الأحكام في المعاملات...»، وقد روي عن الإمام مالك قوله: «كنت آتي جعفر بن محمد، وكان كثير المزاح والتبسم، فإذا ذُكرَ عنده النبي ﷺ اخضرَّ واصفرَّ، ولقد اختلفت إليه زماناً...». أئمة الفقه التسعة، ص ٨٧. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٧٠.

إدريس^(١)، وأحمد بن حنبل^(٢)، الذين رجعوا إليه بشكل مباشر أو غير مباشر^(٣)، ومع ذلك فهل سكت عن التغيير والإصلاح الاجتماعي؟ ألم يكتب كتاباً لوالي المنصور على الأهواز يُبين له كيفية القضاء والإدارة وطرقها وأساليبها؟ كما كان يكتب في الحقوق الاجتماعية^(٤)، كان في الوقت نفسه يُربي رجلاً عالماً في الكيمياء

(١) رئيس المذهب الشافعي، ذكروا أن مشائخه في العلم من المدينة ستة، من أبرزهم -بعد أستاذه مالك بن أنس- إبراهيم بن محمد أبو أسحاق المدني، المتوفى سنة ٢٠٨هـ. وإبراهيم تلميذ مباشر للإمام الصادق وخريج جامعته عليه السلام، يُعدُّ من الرواة الثقات، ومن خواص الإمامين الصادقين عليهما السلام. ولقد أعابت علماء العامة على الإمام الشافعي تلمذه على إبراهيم، وأكثرهم يطعنون في إبراهيم ويضعفونه، حتى روى الرجالي الكبير الشيخ النجاشي في رجاله، ص ١٥، عن بعض أصحابنا أن كتب إبراهيم نقلها الواقدي وأدعاها. لكن الإمام الشافعي وثقه، وقال عنه: «لأن يخر إبراهيم من بُعد أحب إليه من أن يكذب، وكان ثقة في الحديث»، رواها عنه العسقلاني في تهذيب التهذيب، ج ١، ص ١٣٨. والشافعي يعتمد على إبراهيم في كتبه ورواياته، فكان مرة يُصرِّح باسمه وأخرى يُوري عنه، وكان يقول: «حدثني الثقة، حدثني ما لا أتهمه». الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ٢، ص ١٩٢-١٩٣.

(٢) رئيس المذهب الحنبلي، رحل في طلب العلم إلى كل من بغداد، والكوفة، والبصرة، ومكة والمدينة، فأخذ علومه ومعارفه عن جمع غفير من أهل العلم، كان من أبرزهم أستاذه هشيم السلمي المتوفى سنة ١٨٣هـ، والإمام الشافعي الذي اجتمع به في بغداد فأخذ عنه الفقه والأصول، ولقد انقطع لأستاذه الشافعي بعد وفاة أستاذه السلمي، ويُعدُّ الشافعي الوجه الثاني لأحمد بن حنبل، وكانت بينهما صلة ومودة. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ٢، ص ٤٧٣.

(٣) للإفادة طالع موسوعة: الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة.

(٤) كتابه عليه السلام إلى شيعته، حمل وصاياه ونصائحه القيمة التي تركزت على الاهتمام بواقعهم الديني والاجتماعي فتحثهم على التمسك بمحاسن الأخلاق والصفات الكريمة، وحسن العشرة مع المخالفين لهم عقدياً، من أجل المحافظة على دمائهم، ودفع الأخطار عنهم، كما أوصاهم بحب الفقراء والإحسان إليهم... روى هذا الكتاب العلامة الكليني رحمته الله -مفتتحاً به روضة الكافي- عن إسماعيل بن جابر، أنه عليه السلام كتب بهذه الرسالة إلى أصحابه وأمرهم بمدارستها والنظر فيها، وتعاهدوا بالعمل بها فكانوا يضعونها في مساجد بيوتهم، فإذا فرغوا من الصلاة نظروا فيها...

والرياضيات وهو جابر بن حيان الكوفي^(١)، الذي كتب عنه (٤٠٠٠)^(٢) مسألة انتشر على أثرها هذا العلم^(٣).

هل بعد ذلك يُمكن أن نتصور أن الإمام يسكتُ عما يجري حوله في حين كانت الدولة الإسلامية تعيش العديد من التقلبات الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية والفكرية؟

بالطبع كلاً، لقد كانت وظيفته الأساسية هي التوجيه بأساليب وأشكال متعدّدة، ولكنها لا تظهر لنا بجلاء، إلّا من خلال بعض القضايا التي لا نعرفها كل المعرفة بسبب منهج التقيّة الذي كان يتّبعه.

ومن هذا الباب يمكننا أن نعرف أن حركة إسماعيل لم تكن مرتجلة، ولم يكن

(١) جابر بن حيان بن عبد الله الطرسوسي الكوفي [ت: ٢٠٠ هـ]، أبو عبد الله، من أهل الكوفة، وأصله من خراسان، كان حكيماً فيلسوفاً كيميائياً، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، وأحد أبوابه، ومن كبار الشيعة.. أعيان الشيعة، ج ٤، ص ٣٠. الأعلام، ج ٢، ص ١٠٣.

(٢) ذكر ذلك العلامة السيد محسن الأمين العاملي في كتابه (أعيان الشيعة)، ج ٤، ص ٣٠، فقال: «وإن عالماً يؤلف ما يزيد على (٣٩٠٠) كتاب في علوم جُلّها عقلية وفلسفية لهُو حقاً من عجائب الكون، فيينا هو فيلسوف حكيم ومؤلف مُكثر في الحيل والنيرنجات والعزائم ومؤلف في الصنائع وآلات الحرب، إذا هو زاهدٌ واعظٌ مؤلفٌ كتباً في الزهد والمواعظ. ومن يكون بهذه الإحاطة في العلوم، متى يتّسع وقته لتأليف ١٣٠٠ كتاب في الحيل؟. ومن لا يكون متخصصاً بعلم الطب ولا مشهوراً به، كيف يؤلف فيه ٥٠٠ كتاب، وأي شيء أغرب من أن يكون -وهو فيلسوف- يؤلف ٥٠٠ كتاب نقضاً على الفلاسفة، وأن هذه الكتب التي تُعدّ في العلم الواحد بـ (١٣٠٠) كتاب، و (٥٠٠) كتاب، و (٣٠٠) كتاب، و (١٣٠٠) رسالة، مهما صغر حجمها هي دالة على باع طويل وهمة شماء، وهو مع ذلك يشتغل بصناعة الكيمياء حتى صار أشهر من ينسب إليه هذا العلم، وذلك يحتاج إلى زمن طويل وجهد عظيم. ويكفي في تفرد الرجل أن كتبه بقي كثير منها محفوظاً في مكاتب الغرب والشرق، وطُبِعَ جملة منها وتُرجم جملة منها». وقد تتبّع الأستاذ إسماعيل مظهر مؤلفات جابر في كثير من مكتبات العالم فعثر على (٩٠) كتاباً، عرضهم العلامة الشيخ باقر شريف القرشي في موسوعته: الإمام الصادق عليه السلام، (أصحابه ورواته)، تحت عنوان: (جابر بن حيان)، في ذكر مؤلفاته، فراجع.

(٣) للمزيد من الاطلاع والفائدة انظر: الإمام الصادق عليه السلام ملهم الكيمياء. و: الإمام الصادق عليه السلام كما عرفه علماء الغرب.

عمله كتاجر بحثاً عن الثروة، وإنما كان تمهيداً للثورة، فإذا كان الإمام الصادق عليه السلام يُشرف على الحركات التغييرية لأهل الكوفة والديلم، كيف لا يكون مخططاً لحركة ابنه إسماعيل؟.

أئمة أهل البيت والصراع السياسي في الأمة

إن أئمة أهل البيت عليهم السلام مع كون إمامتهم واجبة، وحقهم في الحكم حق شرعي، إلا أنهم لم يتحركوا وفقاً لهذا الحق الطبيعي، وإنما كانوا يعملون دوماً وفقاً لمصلحة المسلمين، والحفاظ على قيم الرسالة، فعند تزاخم المصالح وتعارض المهم والأهم لا بد حينها أن يُقدّم الأهم، فمثلاً خلافة الإمام علي عليه السلام سياسياً كانت مصلحة مهمّة، وفي مقابلها كان الحفاظ على كيان الإسلام ووحدة المسلمين أيضاً مصلحة، فرأى الإمام أن المصلحة العامة أولى فسكت في أمر الخلافة، وكذلك الإمام الحسن عليه السلام لم يكن حريصاً على الخلافة بقدر ما كان يهيمه أن تبقى الدولة الإسلامية على وحدتها أمام الروم والفرس، وهكذا كل أفعال ومواقف الأئمة عليهم السلام كانت تقوم على النظرة العامة والتفكير الشامل الذي يستوعب القيم الدينية والمصالح الاستراتيجية. والقصة التالية تكشف بوضوح هذه الحقيقة:

جاء عدد من كبار الرساليين من الكوفة إلى محمد بن الحنفية في المدينة المنورة وسألوه -في اجتماع خاص ومغلق- ما إذا كان المختار يحضى بتأييد أهل البيت حتى يُبايعوه أم لا؟.

يقول العلامة المجلسي رحمته الله -في تمة هذه القصة الطويلة- في بحار الأنوار: «إن محمد بن الحنفية قال لهؤلاء القادمين من الكوفة: قوموا بنا إلى إمامي وإمامكم علي بن الحسين عليهما السلام. فلما دخلوا عليه أخبر خبرهم الذي جاؤوا لأجله، فقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «يا عم لو أن عبداً زنجياً تعصب لنا أهل البيت، لوجب على الناس مؤازرته، وقد وليتُك هذا الأمر، فاصنع ما شئت». فخرجوا وقد سمعوا كلامه وهم يقولون: أذن لنا زين العابدين عليه السلام،

ومحمد بن الحنفية^(١).

وماذا تعني هذه الإجابة من الإمام زين العابدين عليه السلام؟.

إنها تعني أن العبرة ليست بالأشخاص وإنما بالمناهج والأهداف والطرق والوسائل التي تُتَّبَع للوصول إلى الأهداف، بمعنى أنه هل كان يهم الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام أن يكون خليفة مهما ترتب على ذلك، أم كان يهّمه أن تسير الدولة الإسلامية على المنهاج الصحيح؟. وهل كان يهم الإمام الحسن عليه السلام أن يكون خليفة ولو أدى ذلك إلى زوال الدولة الإسلامية، أم كان يهّمه أن تبقى الدولة الإسلامية على وحدتها أمام الروم والفرس؟! وكذلك بقية الأئمة المعصومين عليهم السلام، ماذا كان يهمهم؟. وماذا كان الهدف الأساس في حياتهم؟.

بالطبع لم يكن أشخاصهم. وإنما لأن أشخاص الأئمة هم الذين جَسَدُوا المبادئ والبرامج والمناهج الرسالية الصحيحة. وإذا كان تركيزنا على أشخاص الأئمة عليهم السلام، فلأننا لا نستطيع أن نفهم البرامج إلّا من خلال فهمنا للأشخاص الذين جَسَدوها، فلا نفهم العدالة إلّا من خلال علي، ولا الصلح إلّا من خلال الحسن، ولا الشجاعة إلّا من خلال الحسين، ولا الزهادة إلّا من خلال زين العابدين، لا لأننا نَتَّخِذُهُمْ أُنْدَاداً للقيم.

وكان الأئمة عليهم السلام يعرفون مناهج الإسلام، ويُقَيِّمون أنفسهم على ضوء تلك المناهج، ولا يُقَيِّمونها من خلال أنفسهم، وإذا كان هذا الأمر صحيحاً، وهو صحيح فعلاً، فلا بد أن نعرف أنّ الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا يقودون الأمة الإسلامية، ويُؤَيِّدون تلك الحركات التي تكون نتيجتها صحيحة وسليمة بالنسبة للأمة الإسلامية، ولا يهّمهم أشخاصهم.

لقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يعملون لكي تكون الأمة الإسلامية أقرب إلى المناهج الإسلامية، وألّا تحكمها المناهج الباطلة، والرساليون آنئذٍ كان يهّمهم

هذا الجانب، فالرساليون الحقيقيون لم يكن يهتهم شخص الإمام، بل إنهم كانوا يُطيعون شخص الإمام ويتبعونه لأنهم يعرفون أنه قد نُصَّ عليه من قبل الله، وما نُصَّ الله عليه إلا لأنه يتبع البرامج الصحيحة ويُريد تطبيق حكم الله.

من هنا ترى أن الإمام الصادق عليه السلام يُؤيد حركة محمد، ولا يهيمه حينها أن محمدًا غير جعفر، وأنه ابن عبد الله، وجعفر هو ابن محمد الباقر عليه السلام. إن المهم حينها عند الإمام هو الفكر، فالإمام يضع برنامجاً حسب الأهداف الحقيقية.

من هنا نستطيع أن نقوم التاريخ تقوياً جديداً، ونُفند بعض الآراء القائلة بفسق إسماعيل^(١). فحقيقة الأمر أن إسماعيل مات في زمان الإمام الصادق عليه السلام، والإسماعيلية اتبعوا إسماعيل بعد الإمام الصادق عليه السلام وليس في أيامه. يقول العلامة المجلسي رحمته الله: «رُوي أن أبا عبد الله عليه السلام جزع عليه جزعاً شديداً، وحزن عليه حزناً عظيماً، وتقدم سريره بغير حذاء ولا رداء، وأمر بوضع سريره على الأرض مراراً كثيرة، وكان يكشف عن وجهه وينظر إليه، يُريد بذلك تحقيق أمر وفاته عند الظائنين خلافته له من بعده وإزالة الشبهة عنه في حياته»^(٢). وقد أورد العلامة المجلسي رحمته الله الروايات التي تُبين مدى حب الإمام عليه السلام لولده إسماعيل^(٣).

ومخالفة الإسماعيلية للإمام موسى بن جعفر عليه السلام كانت قضية ثانية ليست مرتبطة بشخص إسماعيل^(٤)، ولكن البعض لهم موقف من إسماعيل، لماذا؟.

(١) مستند القائلين بذلك، هو تمسكهم بجملته من الروايات منها ما رواه الكليني رحمته الله في الكافي، ج ٥، ص ٢٩٩، وقد ناقش علماؤنا هذه الروايات سنداً ودلالةً، فحكموا بأنها مدخولة ولا يُمكن التعويل عليها. أنظر مثلاً: معجم رجال الحديث، ج ٣، رقم: ١٣٠٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢٤٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢٤٣.

(٤) لأنهم بعد وفاة إسماعيل رجعوا إلى ابنه محمد، ولم يقولوا بإمامه الإمام موسى عليه السلام. فوقع الخلاف بينهم.

إن السبب في ذلك هو إدانتهم لأولئك الذين خالفوا الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. وهكذا فقد حوّلوا القضية كلها إلى قضية شخصية فوقعوا في الخطأ الجسيم.

وترى بعض الناس يتعجبون من الإمام الصادق عليه السلام كيف أنه يترحم على زيد بن علي وابنه يحيى، ويقولون في قرارة أنفسهم أن يحيى لم يقم بإذن إمام زمانه، وقُتِل، فكيف يبكي عليه الإمام عليه السلام؟.

إنهم يجدون في ذلك نوعاً من التناقض!.

والواقع ليس هناك أي تناقض، فقد كان الامام الصادق عليه السلام يؤيد كل إنسان يثور على طاغية زمانه، ويسير على جادة المنهاج الصحيح، فلم يكن يهمه شخصه.

بهذا التقويم نستطيع أن نعرف ونكتشف كثيراً من خفايا التاريخ الإسلامي.

وفي البحوث القادمة سوف نصل إلى هذه الحقيقة، وهي أن الأئمة عليهم السلام وخصوصاً الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، كانوا يؤيدون بعض الحركات والأشخاص، بحيث يبدو للباحث غير المتعمّق أن هذه المواقف تناقض الخط الرسالي للأئمة عليهم السلام.

— ﴿ صِفْوَالكَلَامِ ﴾ —

* ليس الإمام هو رجل عبادة وزهد وفقه فقط ، وإنما هو رجل عمل رسالي وتغيير شامل في الأمة. وهذه وظيفة الأنبياء والأئمة وكل المصلحين التاريخيين.

* وكان للأئمة عليهم السلام مواقف تجاة كل الأحداث حتى الصغير منها. ولذلك كان الخلفاء لا تنام لهم عين حتى تأتيهم أخبار الأئمة أولاً بأول. ولذلك أيضاً كانوا يستدعونهم ويسجنونهم ويدسون إليهم السم.

* ولكن أعمال الأئمة كانت تتسم بطابع التقية والعمل السري والكتمان في كل التحركات لتجنب ضربات الأعداء، الأمر الذي أدى إلى عدم ظهور هذه الأعمال إلا مؤخراً. ومن هنا كان التأكيد في أحاديث الأئمة على ضرورة السرية في العمل حتى جُعِلَت رمزاً للتحرك.

* من هذا المنطق تظاهر إسماعيل ابن الامام الصادق بالاشتغال بالتجارة، بينما أعدّه الإمام الصادق عليه السلام ليقود أكبر حركة ضد الحكم العباسي.

* وقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يعملون لكي تكون الأمة الإسلامية أقرب إلى المناهج الإسلامية وألا تحكمها المناهج الباطلة، ولم يكن يهمهم الأشخاص.





التأنيخ الإسلامي.. دروس وعبر

الباب الرابع: مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي

الفصل الأول، الحركة الرسالية في عهد الإمام الكاظم عليه السلام

الفصل الثاني، الحركة الرسالية في عهد الإمام الرضا عليه السلام

الفصل الثالث، الحركة الرسالية في عهد الإمام الجواد عليه السلام

الفصل الرابع، الحركة الرسالية في عهد الإمام الهادي عليه السلام

الفصل الخامس، الحركة الرسالية في عهد الإمام العسكري عليه السلام





الباب الرابع، مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي

الفصل الأول، الحركة الرسالية في عهد الإمام الكاظم عليه السلام

سيرة وحياة الإمام الكاظم عليه السلام
دور الإمام الكاظم عليه السلام في الحركة الرسالية
تطور الحركة الإسماعيلية



١٩ سيرة وحياة الإمام الكاظم عليه السلام

حينما تُوفي الإمام الصادق عليه السلام وصَّى من بعده خمسة أحدهم ابنه عبد الله المعروف (بالأفطح)^(١)، والثاني: ابنه موسى عليه السلام، والثالث: محمد بن سليمان^(٢)، والوالي العباسي على المدينة، والرابع: زوجته حميدة^(٣)، والخامس: الخليفة المنصور العباسي المعروف بـ(الدوانيقي).

كانت التشكيكة غريبة في حينها، وبعد ظهور الأسباب التي دعت الإمام إلى أن يجعل أوصيائه هؤلاء الخمسة تبَيَّنَت الحكمة من ذلك.

فحينما سمع المنصور العباسي بموت جعفر الصادق عليه السلام كتب رسالة إلى واليه على المدينة محمد بن سليمان جاء فيها: «إِنْ كَانَ أَوْصَى إِلَى رَجُلٍ بِعَيْنِهِ فَقَدَّمُهُ

(١) بعد وفاة أبيه مال إلى إمامته جمع كبير من الشيعة، ورجعوا عن إمامته لما امتحنوه بمسائل الحلال والحرام ولم يكن عنده فيها جواب، وظهر منه من الأشياء التي لا ينبغي أن تظهر من الإمام، فدانوا بإمامة أخيه الإمام الكاظم عليه السلام. مات بعد أبيه بسبعين يوماً، وبقي القليل منهم على القول بإمامته. رجال الكشي، ص ٣٢٨.

(٢) محمد بن سليمان بن علي العباسي [١٢٢-١٧٣ هـ]، أبو عبد الله، والي المدينة، في أيام المنصور، وأمير البصرة. وليها في أيام المهدي، وعزل سنة ١٦٤ هـ، وأعادته الرشيد، واستمر في البصرة إلى أن تُوفي. الأعلام، ج ٦، ص ١٤٨.

(٣) حميدة البربرية، ويقال لها: حميدة المصفاة ابنة صاعد البربري، أندلسية، أم ولد وتكنى لؤلؤة. وكان الإمام الصادق عليه السلام يُرسلها مع أم فروة تقضيان حقوق أهل المدينة. من الثقات، وهي أم الإمام الكاظم عليه السلام. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٨، ص ٥٦٩.

وَاضْرِبْ عُنُقَهُ. فَأَجَابَهُ سُلَيْمَانُ: أَنَّهُ قَدْ أَوْصَى إِلَى خَمْسَةِ أَحَدُهُمْ: أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، وَعَبْدُ اللَّهِ، وَمُوسَى ابْنُ جَعْفَرٍ، وَحَمِيدَةَ.

وَحِينَمَا قَرَأَ الْمَنْصُورُ الْجَوَابَ قَالَ: لَيْسَ إِلَيَّ قَتْلُ هَؤُلَاءِ سَبِيلٌ^(١).

وهكذا استطاع الإمام عليه السلام بوصيته الحكيمة أن يحمي الوصي الشرعي له من بطش المنصور، في حين لم يخفَ هذا السر على الرساليين الذين تمرَّسوا في عملهم مع أهل البيت عليهم السلام، فمثلاً أبو حمزة الثمالي أحد قادة الرساليين في الكوفة، لما سمع نبأ وفاة الإمام الصادق عليه السلام وهو في ظهر الكوفة عند قبر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مع جماعة من أصحابه، شهِقَ شَهْقَةً وَأَغْمَى عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: «هَلْ أَوْصَى إِلَى أَحَدٍ؟».

قَالَ: نَعَمْ أَوْصَى إِلَى ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ، وَمُوسَى، وَأَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ.

فَضَحِكَ أَبُو حَمَزَةَ وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا إِلَى الْهُدَى، وَبَيَّنَّ لَنَا عَنِ الْكَبِيرِ، وَدَلَّنَا عَلَى الصَّغِيرِ، وَأَخْفَى عَنَّا أَمْرَ عَظِيمٍ.

فَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ، فَقَالَ: بَيَّنَّ عُيُوبَ الْكَبِيرِ^(٢)، وَدَلَّ عَلَى الصَّغِيرِ، لِإِضَافَتِهِ إِيَّاهُ، وَكَتَمَ الْوَصِيَّةَ لِلْمَنْصُورِ، لِأَنَّهُ لَوْ سَأَلَ الْمَنْصُورُ عَنِ الْوَصِيِّ لَقِيلَ «أَنْتَ»^(٣).

وبيان ذلك: أنه لما قرن الإمام الصادق عليه السلام الكبير، وهو عبد الله الذي كان أكبر أولاده، بعدما تُوفِّيَ إِسْمَاعِيلَ، مع الصغير وهو الإمام موسى عليه السلام، دلَّ على أن الكبير، وهو ذو عاهة، لا يصلح أن يكون الوصي بعده، وأن الوصي هو موسى الكاظم عليه السلام.

وكذلك أخفى الأمر على المنصور بعد أن جعله أحد الأوصياء.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣.

(٢) وفي رواية أخرى: قَالَ: «بَيَّنَّ أَنَّ الْكَبِيرَ ذُو عَاهَةٍ...». بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢٥١. الخرائج والجرائح، ج ١، ص ٣٢٧.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٤. مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، ج ٣، ص ٣٢٠.

يقول أبو حمزة الثمالي عليه السلام: «وَأَخْفَى عَنْ أَمْرِ عَظِيمٍ»، فماذا يعني إخفاء أمر عظيم؟

إنه يعني سرًا كامناً في وصية الإمام جعفر الصادق عليه السلام في خمسة بتوزيعها بينهم، وكذلك يعني السر نفسه الذي أراد كشفه المنصور الدوانيقي، حينما أمر بقتل وصي الإمام، إذا كان قد أوصى إلى رجل واحد، ومعناه -من الناحية الدينية المذهبية- أن الإمامة في المذهب الرسالي ليست بالسن، ولا حتى بالوراثة، فهم لم يعتقدوا بالأئمة المعصومين عليهم السلام لأنهم أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله فقط، وإنما لأنهم أعلم أهل زمانهم، وأفضلهم، وأحسنهم خلقاً، وأكملهم صفات، وبالتالي أكفأهم لإمامة المسلمين^(١).

وربما كان أبو حمزة الثمالي يعني بكلمته: «وَأَخْفَى عَنْ أَمْرِ عَظِيمٍ»، ما كان ينتظره الرساليون من ظهور القائم من آل محمد عليهم السلام. لأن الإمام الصادق عليه السلام كان يُعِدُّ ابنه موسى بن جعفر عليه السلام للقيام بالثورة لتغيير النظام وإدارة شؤون المسلمين.

دعنا نوضح المسألة أكثر.

قد وضحنا فيما سبق أن اشتراك الأئمة المعصومين عليهم السلام في الإصلاحات السياسية والاقتصادية والدينية والعقائدية كان اشتراك الموجه والمسير بصفة عامة، إلا أن بعض الأئمة تميّزت ظروفهم بحيث كانت أقرب إلى التغيير السياسي في الأمة، ومن بينهم الإمام الحسين عليه السلام.

وكذلك الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حيث كان من المتوقع أن يكون هو القائم من آل محمد عليهم السلام بإمرة المؤمنين، حتى إنه لما استشهد وشيعت جنازته،

(١) لاحظ جواب الإمام الرضا عليه السلام لسؤال عبدالعزيز بن مسلم عن الإمامة، ففيه إيضاح كامل واستيعاب شامل في بيان منصب الإمامة. الكافي، ج ١، ص ١٩٨. بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ١٢٠، الاحتجاج، ج ٢، ص ٤٣٣، عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٢١٦.

نادى العباسيون على جثمانه: «هَذَا مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ الَّذِي تَزَعُمُ الرَّافِضَةُ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ، فَانْظُرُوا إِلَيْهِ. فَانْظُرُوا إِلَيْهِ»^(١). دلالة على أن الاعتقاد السائد آنذاك كان أنه قائم آل محمد ﷺ وأنه لا يموت حتى «يَمْلَأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا...»^(٢)، ولكن الله أخر هذا الأمر عندما أشيع السر، فقتل الإمام شهيداً، وكان مقتله بطريقة مأساوية لم يقتل بها أحد من الأئمة الآخرين، باستثناء الإمام الحسين ﷺ. فطريقة استشهاد الإمام الكاظم ﷺ وما جرى في حياته بذاتها دليل على طبيعة الظروف التي كان يمر بها.

فإذا نظرنا إلى حياة الأئمة ﷺ بشكل إجمالي لوجدنا أن الإمام علي ﷺ وإن كان جالساً في بيته مدة خمس وعشرين سنة^(٣)، إلا أنه كان يؤدي دوراً مهماً في تقرير شؤون الدولة الإسلامية، فكان يُندب لكل مشكلة^(٤)، وقد اشتهر قول عمر، وكان: يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن ﷺ، وقد قال: «ولو لا علي لهلك عمر»^(٥)، كل ذلك يدل على أن الإمام كان يُراقب بدقة الأحداث السياسية وهكذا سائر الأئمة ﷺ.

أما ما واجهه الإمام الكاظم ﷺ وظروف شهادته فقد كانت ذات طابع مأساوي، فمثلاً: الإمام الحسن، وسائر الأئمة بعد الحسين ﷺ، لم يدخلوا

(١) مقاتل الطالبيين، ص ٤١٧. بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٣٣. إعلام الوري، ص ٣١٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ٢٢٦.

(٣) اعتزل الإمام علي ﷺ، -احتجاجاً واعتراضاً- الناس في خلافة الأول، وسنوات قليلة من خلافة الثاني، ولم ينقل لنا التاريخ شيئاً يدل على اشتراكه في أي عمل من أعمال الدولة آنذاك. لاحظ شرح نهج البلاغة، ج ٩، ص ٢٧.

(٤) كان الخليفة الثاني كثر المشورة من الإمام علي، فكان يستشير في أمور السياسة والحرب، مثل استشارته له في غزو الروم، والفرس. لاحظ: بحار الأنوار، ج ٣١، ص ١٣٧. شرح نهج البلاغة، ج ٩، ص ٩٥. وأيضاً في مسائل القضاء. وقد نصح الإمام ﷺ الخليفة الثاني فيما يتعلق بالقضاء إن سار على ضوئها تحققت العدالة في حكومته. لاحظ: بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٤٩. مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ١٤٧.

(٥) الاستيعاب، ج ٣، ص ١١٠٣. بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ١٤٨.

السجن، واغتيلوا بطريقة جبانة بدس السم إليهم غدراً^(١)، وكان مقتلهم ومدفنهم باعزاز، ولم يُسَجَّنوا ولم يهانوا في حياتهم بمثل ما حصل للإمام الحسين والإمام موسى بن جعفر عليهما السلام.

فلماذا تميّزت حياة هذين الإمامين الشهيدين بسمة خاصة هي سمة المأساة أو السجن الطويل والإهانة؟.

لماذا كان يُنادى على جثمان الإمام الكاظم حسب ما جاء في الزيارة باحتقار واستخفاف^(٢)، وكان هذا بمثابة إهانة كبيرة للإمام؟ فبعد أن أخذ سليمان جثمان الإمام قال: «هذا موسى بن جعفر قد مات، فانظروا إليه، فجعل الناس يتفرّسون في وجهه وهو ميت»^(٣).

وروي أنه لما أتى بجثمانه الطاهر عليه السلام إلى مجلس الشرطة قام أربعة نفر فنادوا: «أَلَا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى (...) بَنَ (...) مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ فَلْيُخْرِجْ...»^(٤). وكان النداء يحتوي على كلمات مُهينة. وقيل: إن السندي أخرجه للناس - بعد أن استشهد الإمام - وعمل محضراً بأنه مات حتف أنفه، بل قيل: إنه «ترك ثلاثة أيام على الطريق يأتي من يأتي فينظر إليه ثم يكتب في المحضر...»^(٥).

فلماذا عامل العباسيون الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، بهذه القساوة، كما عامل الأمويون - من قبل - الإمام الحسين عليه السلام؟.

(١) اتفقت الغالبية العظمى من أقوال مؤرخي العامة بأن معاوية هو الذي أمر بسم الإمام الحسن عليه السلام، حيث دس إليه السم بيد جعدة بنت الأشعث زوجة الإمام، حملة إليها مروان بن الحكم.. البداية والنهاية، ج ٨، ص ٤٣. تاريخ الإسلام للذهبي، ج ٤، ص ٤٠. تذكرة الخواص، ص ١٩١-١٩٢. السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٤٠٥. الاستيعاب، ج ١، ص ٣٨٩. مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٢٧. أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٥٥-٥٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ١٦.

(٣) مقاتل الطالبين، ص ٥٤.

(٤) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٢٧. عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٩٩. كمال الدين، ج ١، ص ٣٨.

(٥) عمدة الطالب، ص ٢٤٠.

لقد قام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بتدبير خطة للتغيير السياسي في الأمة، ابتداءً من إخفاء الإمام الصادق عليه السلام لإمامته، وانتهاءً بوفاته، ومروراً بكل الأحداث التي جرت في أيامه. وبالرغم من أن الأمر كان يجري في سرية تامة، إلا أن ماروي عن حياة الإمام الكاظم عليه السلام يرسم لنا صورة واضحة عن ماهية الأهداف التي كان ينشدها ويسعى لتحقيقها.

رُوي أن محمد بن إسماعيل لما حضر عند هارون الرشيد قال له: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ خَلِيفَتَانِ فِي الْأَرْضِ، مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ بِالْمَدِينَةِ يُجَبِّي لَهُ الْخُرَاجَ، وَأَنْتَ بِالْعِرَاقِ تُجَبِّي لَكَ الْخُرَاجَ!؟»

فَقَالَ: وَاللَّهِ! فَقَالَ: وَاللَّهِ...»^(١).

وروى الشيخ الصدوق رحمته الله: «لم يكن موسى بن جعفر عليه السلام ممن يجمع المال، ولكنه حصل في وقت الرشيد وكثر أعداؤه، ولم يقدر على تفريق ما كان يجتمع، إلا على القليل ممن يثق بهم في كتمان السر. فاجتمعت هذه الأموال لأجل ذلك، وأراد ألا يحقق على نفسه قول من كان يسعى به إلى الرشيد، ويقول: إنه تحمل عليه^(٢) الأموال ويُعتقد له الإمامة ويحمل على الخروج عليه، ولولا ذلك لفرَّق ما اجتمع من هذه الأموال...»^(٣).

وروي: «أَنَّهُ اجْتَمَعَتْ عِصَابَةُ الشَّيْعَةِ بَنِيْسَابُورَ وَاخْتَارُوا مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ النَّيْسَابُورِيَّ، فَدَفَعُوا إِلَيْهِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَشِقَّةَ مِنَ الثِّيَابِ، وَأَنْتَ شَطِيطَةٌ بِدِرْهَمٍ صَحِيحٍ، وَشِقَّةَ خَامٍ مِنْ غَزَلٍ يَدَهَا ثَسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمٍ».

فَقَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ. قَالَ: فَثَنَيْتُ دِرْهَمَهَا.

وَجَاؤُوا بِجُزْءٍ فِيهِ مَسَائِلُ مِلءٍ سَبْعِينَ وَرَقَةً فِي كُلِّ وَرَقَةٍ مَسْأَلَةٌ وَبَاقِي الْوَرَقِ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٣٩.

(٢) في بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٥٣: إليه.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١١٤.

بَيَاضٌ لِيُكْتَبَ (من قبل الإمام الكاظم عليه السلام) الْجَوَابُ تَحْتَهَا، وَقَدْ حُزِمَتْ كُلُّ وَرَقَتَيْنِ بِثَلَاثِ حُزْمٍ، وَخُتِمَ عَلَيْهَا بِثَلَاثِ خَوَاتِيمَ عَلَى كُلِّ حِزَامٍ خَاتَمٌ، وَقَالُوا: ادْفَعْ إِلَى الْإِمَامِ لَيْلَةً وَخُذْ مِنْهُ فِي غَدٍ...»^(١).

الحركة الرسالية دولة داخل دولة

لقد وصلت الحركة الرسالية في عهد الإمام الكاظم عليه السلام إلى درجة كبيرة من القوة، وأصبحت تُشكّل معها دولة داخل دولة، حتى إن كثيراً من أعوان هارون الرشيد ووزرائه كانوا ينتمون إلى تلك الحركة، وكان كل ذلك يجري وفق تنظيم دقيق وسريّة تامة.

يقول علي بن يقطين^(٢) الذي كان بمثابة وزير لهارون الرشيد: «كُنْتُ وَاقِفًا عِنْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ؛ إِذْ جَاءَتْهُ هَدَايَا مَلِكِ الرُّومِ، وَكَانَ فِيهَا دُرَاعُهُ دِيْبَاجٌ سَوْدَاءُ مَنَسُوجَةٌ بِالذَّهَبِ، لَمْ أَرْ أَحْسَنَ مِنْهَا، فَرَأَيْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا فَوَهَبَهَا لِي، وَبَعَثْتُهَا إِلَى أَبِي إِبْرَاهِيمَ (يعني الإمام موسى بن جعفر عليه السلام)، وَمَضَتْ عَلَيْهَا بُرْهَةٌ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ وَأَنْصَرَفْتُ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ هَارُونَ بَعْدَ أَنْ تَغَدَّيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا دَخَلْتُ دَارِي قَامَ إِلَيَّ خَادِمِي الَّذِي يَأْخُذُ ثِيَابِي بِمَنْدِيلٍ عَلَى يَدِهِ وَكِتَابٍ لَطِيفٍ خَتَمُهُ رَطْبٌ، فَقَالَ: أَتَانِي بِهَذَا رَجُلٌ السَّاعَةَ، فَقَالَ: أَوْصِلْهُ إِلَى مَوْلَاكَ سَاعَةً يَدْخُلُ.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٧٣.

(٢) وجه من وجوه الطائفة وأعيانها، صاحب مكانة عالية عند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، كان والده يقطين من القائلين بإمامة الإمام الصادق، ومن أصحابه ووكلائه عليه السلام، تقلّد علي بن يقطين - كما في (الوزراء والكتّاب للجهمياري، ص ١٠٦ - منصب (الأزمة) على عمر بن بزيع، وذلك في أيام المهدي. عيّنه الرشيد وزيراً له، فدخل على الإمام موسى عليه السلام يستأذنه في ترك المنصب، فنهاه الإمام عليه السلام، وقال له: «لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ لَنَا بِكَ أَنْسَاءً، وَلِإِخْوَانِكَ بِكَ عِزًّا، وَعَسَى أَنْ يَجْبُرَ اللَّهُ بِكَ كَثْرًا، وَيَكْثُرَ بِكَ نَائِرَةُ الْمُخَالِفِينَ عَنْ أَوْلِيَائِهِ، بَا عِلِّيْ كَفَّارَةُ أَعْمَالِكُمْ الْإِحْسَانُ إِلَى إِخْوَانِكُمْ..». بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٧٩. وقال عنه الإمام عليه السلام - وقد دخل عليه في أحد الأيام، وكان مع الإمام جمع من أصحابه عليه السلام -: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَرَى رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْمُقْبِلِ. فقال له رجل من القوم هو إذن من أهل الجنة؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». رجال الكشي، ص ٤٩١.

فَفَضَضْتُ الْكِتَابَ وَإِذَا بِهِ كِتَابُ مَوْلَايَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَفِيهِ: يَا عَلِيُّ، هَذَا وَقْتُ حَاجَتِكَ إِلَى الدَّرَاعَةِ، وَقَدْ بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ.

فَكَشَفْتُ طَرَفَ الْمُنْدِيلِ عَنْهَا وَرَأَيْتُهَا وَعَرَفْتُهَا، وَدَخَلَ عَلِيٌّ خَادِمُ هَارُونَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَقَالَ: أَجِبَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

قُلْتُ: أَيُّ شَيْءٍ حَدَثَ!

قَالَ: لَا أَدْرِي.

فَرَكِبْتُ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ بَزِيعٍ وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ الدَّرَاعَةُ الَّتِي وَهَبْتُكَ؟!.

قُلْتُ: خَلَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ كَثِيرَةً مِنْ دَرَارِيعَ وَغَيْرِهَا، فَعَنْ أَيْمَانِهَا يَسْأَلُنِي!.

قَالَ: دُرَاعَةُ الدِّيَاجِ السُّودَاءِ الرُّومِيَّةِ الْمَذْهَبَةِ.

فَقُلْتُ: مَا عَسَى أَنْ أَصْنَعَ بِهَا أَلْبَسُهَا فِي أَوْقَاتٍ وَأُصَلِّيَ فِيهَا رَكَعَاتٍ، وَقَدْ كُنْتُ دَعَوْتُ بِهَا عِنْدَ مُنْصَرَفِي مِنْ دَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ السَّاعَةِ لِأَلْبَسُهَا.

فَنَظَرَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ بَزِيعٍ فَقَالَ: قُلْ يُخَضِّرُهَا، فَأَرْسَلْتُ خَادِمِي جَاءَ بِهَا.

فَلَمَّا رَأَاهَا قَالَ: يَا عُمَرُ، مَا يَنْبَغِي أَنْ تَنْقُلَ عَلَيَّ بِعْدَ هَذَا شَيْئًا. قَالَ: فَأَمَرَ لِي بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، حُمِلَتْ مَعَ الدَّرَاعَةِ إِلَى دَارِي.

قَالَ عَلِيٌّ بْنُ يَقُطِينٍ: وَكَانَ السَّاعِي ابْنُ عَمِّ لِي، فَسَوَّدَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَكَذَّبَهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ^(١).

سعي السلطات العباسية لكشف الحركة الرسالية

لما كانت الحركة الرسالية على مدى واسع من الانتشار، وكان التغلغل

الرسالي داخل الدولة وسيعاً، لم تبرح السلطات العباسية من التجسس وبث العيون ومراقبة الوزراء.

ولكي تتمكّن السلطات العباسية من الحصول على المعلومات فقد بذلت من أجل ذلك الكثير من الأموال لشراء الذمم حتى ذمم بعض العلويين.

فقد رُوي أن يحيى بن خالد (البرمكي) قال ليحيى بن أبي مريم: «أَلَا تُدُلُّنِي عَلَى رَجُلٍ مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَأَوْسَعَ لَهُ مِنْهَا؟»

قَالَ: بَلَى؛ أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ بِهَذِهِ الصَّفَةِ، وَهُوَ: عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ^(١).

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يَحْيَى فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ عَمِّكَ وَعَنْ شِيعَتِهِ وَالْمَالِ الَّذِي يُحْمَلُ إِلَيْهِ؟!.

فَقَالَ لَهُ: عِنْدِي الْخَبْرُ. فَسَعَى بِعَمِّهِ...^(٢).

ولما أيقنت السلطات العباسية بخطورة أهداف الحركة الرسالية التي كانت تسعى إلى تحقيقها بقيادة الإمام الكاظم عليه السلام عملت على تصفيتيها والقضاء عليها، وبما أن مخططات الحركة غير واضحة لدى السلطة فكرت بضرب رأس الحركة مهما كلفها الأمر، فعمدت إلى سجن الإمام الكاظم الذي سُجن أغلب أيام إمامته.

إلا أن أمر الحركة لم يضعف بالشكل الذي كانت تتمناه السلطات، فقد كان الإمام وعبر الرساليين داخل جهاز السلطة، يقود الحركة ويُدير أعمالها وهو في

(١) علي بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، مذموم، سعى بعمة الإمام موسى الكاظم عليه السلام. رُوي عن علي بن جعفر قال: «سمعت أخي موسى عليه السلام قال: قال أبي لعبدالله أخي، إليك ابني أخيك فقد ملاني بالسَّفَه، فإنها شُرْك شيطان. يعني محمد بن إسماعيل بن جعفر وعلي بن إسماعيل بن جعفر». رجال الكشي ص ٢٦٥. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٥، ص ٣٠٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٠٩. مقاتل الطالبين، ص ٤١٥.

السجن، الأمر الذي جعل السلطات في حالة هستيريا قرّرت معها تصفية الإمام جسديًا.

إن استمرار وتصاعد الحركة الرسالية، كان يُهدّد الدولة العباسية يوماً بعد يوم. وكيف لا يحدث ذلك الارتعاش عند الخلفاء العباسيين وهم يعرفون أن الحركة الرسالية هي امتداد للرسالة المحمدية، واستمرار لما أتى به الرسول الأكرم ﷺ، فقد كانت الحركة مهياة لاستلام زمام الأمور، فلا تنقصها الأموال التي كانت تأتي للإمام من الرساليين من كل مكان في شكل أخماس وزكوات. ومن الناحية العسكرية فهم يعرفون أن كل رسالي متى ما أمره إمامه بالخروج، فإنه لا يفتأ يطيع إمامه.

روي عن يونس بن عبد الرحمن قال: قال يحيى بن خالد البرمكي لهارون: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنِّي قَدْ اسْتَبَطَنْتُ أَمْرَ هِشَامٍ (يقصد هشام بن الحكم)، فَإِذَا هُوَ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ فِي أَرْضِهِ إِمَامًا غَيْرَكَ مَفْرُوضُ الطَّاعَةِ. قَالَ (هارون): سُبْحَانَ اللَّهِ!!»

قَالَ: نَعَمْ؛ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ لَوْ أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ لَخَرَجَ، وَإِنَّمَا كُنَّا نَرَى أَنَّهُ مِمَّنْ يَرَى الْإِلْبَادَ بِالْأَرْضِ.

فَقَالَ هَارُونُ لِيَحْيَى: فَاجْمَعْ عِنْدَكَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَأَكُونُ أَنَا مِنْ وَرَاءِ السَّيْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ لِنَلَّا يَفْطِنُوا بِي، وَلَا يَمْتَنِعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتِيَ بِأَصْلِهِ هَيْبَتِي.

قَالَ: فَوَجَّهَ يَحْيَى فَأَشْحَنَ الْمَجْلِسَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ... قَالَ: فَتَسَاءَلُوا، فَتَكَافَوْا، وَتَنَاطَرُوا، وَتَقَاطَعُوا، تَنَاهَوْا إِلَى شَاذٍّ مِنْ مَشَاذِ الْكَلَامِ، كُلُّ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَمْ تُحِبِّ، وَيَقُولُ: قَدْ أَجَبْتُ.

وَكَانَ ذَلِكَ عَنْ يَحْيَى حِيلَةً عَلَى هِشَامٍ، إِذْ لَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ، وَاعْتَمَ ذَلِكَ لِعِلَّةٍ كَانَ أَصَابَهَا هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ.

فَلَمَّا تَنَاهَوْا إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ قَالَ لَهُمْ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: أَنْتَرَضُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ هِشَامًا

حَكَمًا؟.

قَالُوا: قَدْ رَضِينَا أَيْمًا الْوَزِيرُ، فَأَنَّى لَنَا بِهِ وَهُوَ عَلِيلٌ!.

فَقَالَ يَحْيَى: فَأَنَا أَوْجَهُ إِلَيْهِ فَأَرْسَلُهُ أَنْ يَتَجَشَّصَ الْمَشِي. فَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ بِحُضُورِهِمْ وَأَنَّهُ إِنَّمَا مَنَعَهُ أَنْ يُحْضَرُوهُ أَوَّلَ الْمَجْلِسِ إِنْقَاءً عَلَيْهِ مِنَ الْعِلَّةِ، وَأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي الْمَسَائِلِ وَالْأَجَوِبَةِ وَتَرَاصَوْا بِكَ حَكَمًا بَيْنَهُمْ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَفَضَّلَ وَتَحْمِلَ عَلَى نَفْسِكَ فَافْعَلْ.

فَلَمَّا صَارَ الرَّسُولُ إِلَى هِشَامَ، قَالَ لِي: يَا يُونُسُ، قَلْبِي يُنْكِرُ هَذَا الْقَوْلَ، وَلَسْتُ أَمْنُ أَنْ يَكُونَ هَاهُنَا أَمْرًا [أَمْرٌ] لَا أَقِفُ عَلَيْهِ، لِأَنَّ هَذَا الْمَلْعُونُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ قَدْ تَغَيَّرَ عَلَيَّ لِأُمُورٍ شَتَّى، وَقَدْ كُنْتُ عَزَمْتُ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِالْخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الْعِلَّةِ أَنْ أَشْخَصَ إِلَى الْكُوفَةِ، وَأُحَرِّمَ الْكَلَامَ بَتَّةً، وَأَلْزَمَ الْمَسْجِدَ لِيَقْطَعَ عَنِّي مُشَاهَدَةَ هَذَا الْمَلْعُونِ (يَعْنِي يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ).

قَالَ، قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ؛ لَا يَكُونُ إِلَّا خَيْرًا، فَتَحَرَّرَ مَا أَمَكَنَّكَ.

فَقَالَ لِي: يَا يُونُسُ، أَتَرَى التَّحَرُّزَ عَنْ أَمْرِ يُرِيدُ اللَّهُ إِظْهَارَهُ عَلَى لِسَانِهِ أَنِّي يَكُونُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ قُمْ بِنَا عَلَى حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ.

فَرَكِبَ هِشَامٌ بَغْلًا كَانَ مَعَ رَسُولِهِ، وَرَكِبْتُ أَنَا جِمَارًا كَانَ لَهُشَامُ.

قَالَ: فَدَخَلْنَا الْمَجْلِسَ، فَإِذَا هُوَ مَشْحُونٌ بِالْمُتَكَلِّمِينَ.

قَالَ: فَمَضَى هِشَامٌ نَحْوَ يَحْيَى فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَى الْقَوْمِ وَجَلَسَ قَرِيبًا مِنْهُ، وَجَلَسْتُ أَنَا حَيْثُ انْتَهَى بِی الْمَجْلِسُ.

فَحَكَمَ بَيْنَهُمْ هِشَامُ...

ثُمَّ إِنَّ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ قَالَ لَهُشَامُ: إِنَّا قَدْ أَعْرَضْنَا عَنِ الْمُنَظَرَةِ وَالْمُجَادَلَةِ مُنْذُ الْيَوْمِ، وَلَكِنْ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَبِينَ عَنْ فُسَادِ اخْتِيَارِ النَّاسِ الْإِمَامَ وَأَنَّ الْإِمَامَةَ فِي آلِ بَيْتِ

الرَّسُولِ دُونَ غَيْرِهِمْ؟

قَالَ هِشَامٌ: أَيُّهَا الْوَزِيرُ، الْعِلَّةُ تَقْطَعُنِي عَنْ ذَلِكَ، وَلَعَلَّ مُعْتَرِضًا يَعْتَرِضُ، فَيَكْتَسِبُ الْمَنَازَرَةَ وَالْخُصُومَةَ.

قَالَ: إِنْ اعْتَرَضَ مُعْتَرِضٌ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ مُرَادَكَ وَغَرَضَكَ فَلَيْسَ ذَلِكَ لَهُ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَحْفَظَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي لَهُ فِيهَا مَطْعَنٌ، فَيَقْفَهَا إِلَى فَرَاغِكَ، وَلَا يَقْطَعَ عَلَيْكَ كَلَامَكَ.

فَبَدَأَ هِشَامٌ -وَسَاقَ الذِّكْرَ لِذَلِكَ وَأَطَالَ وَاخْتَصَرَ نَا مِنْهُ مَوْضِعَ الْحَاجَةِ- فَلَمَّا فَرَغَ مِمَّا قَدْ ابْتَدَأَ فِيهِ مِنَ الْكَلَامِ فِي فَسَادِ اخْتِيَارِ النَّاسِ الْإِمَامَ.

قَالَ يَحْيَى لِسُلَيْمَانَ بْنِ جَرِيرٍ: سَلْ أَبَا مُحَمَّدٍ عَنْ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ؟

قَالَ سُلَيْمَانُ لِهِشَامٍ: أَخْبِرْنِي عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَفْرُوضِ الطَّاعَةِ؟! فَقَالَ هِشَامٌ: نَعَمْ.

قَالَ: فَإِنْ أَمَرَكَ الَّذِي بَعْدَهُ بِالْخُرُوجِ بِالسَّيْفِ مَعَهُ تَفْعَلُ وَتُطِيعُهُ؟! فَقَالَ هِشَامٌ: لَا يَا مُرْنِي!

قَالَ: وَلَمْ؛ إِذَا كَانَتْ طَاعَتُهُ مَفْرُوضَةً عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُطِيعَهُ؟! فَقَالَ هِشَامٌ: عُدْ عَنْ هَذَا، فَقَدْ تَبَيَّنَ فِيهِ الْجَوَابُ!

قَالَ سُلَيْمَانُ: فَلِمَ يَا مُرْكَ فِي حَالٍ تُطِيعُهُ، وَفِي حَالٍ لَا تُطِيعُهُ؟! فَقَالَ هِشَامٌ: وَيَحْكُ، لَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنِّي لَا أُطِيعُهُ، فَتَقُولُ: إِنَّ طَاعَتَهُ مَفْرُوضَةٌ، إِنَّمَا قُلْتُ لَكَ: لَا يَا مُرْنِي!

قَالَ سُلَيْمَانُ: لَيْسَ أَسْأَلُكَ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ سُلْطَانِ الْجَدَلِ، لَيْسَ عَلَى الْوَاجِبِ أَنَّهُ لَا يَا مُرْكَ.

قَالَ هِشَامٌ: وَمِنْ حَالٍ لَا يُطِيعُهُ، وَفِي حَالٍ لَا تُطِيعُهُ؟! فَقَالَ هِشَامٌ: وَيَحْكُ، لَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنِّي لَا أُطِيعُهُ، فَتَقُولُ: إِنَّ طَاعَتَهُ مَفْرُوضَةٌ، إِنَّمَا قُلْتُ لَكَ: لَا يَا مُرْنِي!

قَالَ سُلَيْمَانُ: لَيْسَ أَسْأَلُكَ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ سُلْطَانِ الْجَدَلِ، لَيْسَ عَلَى الْوَاجِبِ أَنَّهُ لَا يَا مُرْكَ.

قَالَ هِشَامٌ: وَمِنْ حَالٍ لَا يُطِيعُهُ، وَفِي حَالٍ لَا تُطِيعُهُ؟! فَقَالَ هِشَامٌ: وَيَحْكُ، لَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنِّي لَا أُطِيعُهُ، فَتَقُولُ: إِنَّ طَاعَتَهُ مَفْرُوضَةٌ، إِنَّمَا قُلْتُ لَكَ: لَا يَا مُرْنِي!

قَالَ سُلَيْمَانُ: لَيْسَ أَسْأَلُكَ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ سُلْطَانِ الْجَدَلِ، لَيْسَ عَلَى الْوَاجِبِ أَنَّهُ لَا يَا مُرْكَ.

قَالَ هِشَامٌ: وَمِنْ حَالٍ لَا يُطِيعُهُ، وَفِي حَالٍ لَا تُطِيعُهُ؟! فَقَالَ هِشَامٌ: وَيَحْكُ، لَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنِّي لَا أُطِيعُهُ، فَتَقُولُ: إِنَّ طَاعَتَهُ مَفْرُوضَةٌ، إِنَّمَا قُلْتُ لَكَ: لَا يَا مُرْنِي!

فَقَالَ هِشَامٌ: كَمْ تَحُولُ حَوْلَ الْحَمَى، هَلْ هُوَ إِلَّا أَنْ أَقُولَ لَكَ: إِنَّ أَمْرِي فَعَلْتُ، فَتَنْقَطِعُ أَقْبَحُ الانْقِطَاعِ، وَلَا يَكُونُ عِنْدَكَ زِيَادَةٌ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا يَجِبُ قَوْلِي، وَمَا إِلَيْهِ يُوُولُ جَوَابِي.

قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُ هَارُونَ. وَقَالَ هَارُونَ: قَدْ أَفْصَحَ ^(١).

وَقَامَ النَّاسُ، وَاعْتَمَمَهَا هِشَامٌ فَخَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الْمَدَائِنِ. قَالَ: فَبَلَّغْنَا أَنَّ هَارُونَ؛ قَالَ لِيَحْيَى: شُدَّ يَدُكَ بِهَذَا وَأَصْحَابِهِ.

وَبَعَثَ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى عليه السلام فَحَبَسَهُ، فَكَانَ هَذَا سَبَبَ حَبْسِهِ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ الْأَسْبَابِ... ^(٢).

ومع أن هارون لم يكن يحتاج إلى معرفة هشام بن الحكم لكي يسجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بقدر ما كان يحتاج إلى المعلومات عن الحركة الرسالية، فالسلطات كانت في حالة هستيريا وحيرة لا تدري ماذا تفعل، فهي تخشى من ردة الفعل إن قتلت الإمام، إلا أنها لم تكن تجد خياراً آخر.

رُوي أنه لما جيء بجثمان الإمام عليه السلام إلى مجلس الشرطة ونودي بذلك النداء الشنيع: «خَرَجَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ مِنْ قَصْرِهِ إِلَى الشَّطِّ، فَسَمِعَ الصِّيَاحَ وَالضُّوْضَاءَ، فَقَالَ لَوْلَيْدِهِ وَعِلْمَانِهِ: مَا هَذَا؟».

قَالُوا: السَّنْدِيُّ بْنُ شَاهَكَ؛ يُنَادِي عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، عَلَى نَعْسٍ.

فَقَالَ لَوْلَيْدِهِ وَعِلْمَانِهِ: يُوشِكُ أَنْ يُفْعَلَ هَذَا بِهِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ، فَإِذَا عُبِرَ بِهِ فَانْزِلُوا مَعَ عِلْمَانِكُمْ، فَخُذُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَإِنْ مَانَعُوكُمْ فَاضْرِبُوهُمْ وَخَرِّقُوا مَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّوَادِ.

(١) وفي رواية، أنه قال: مَا عَنِيَ بِهَا غَيْرُ أَهْلِهَا. وقال: ثُمَّ عَضَّ (هارون) عَلَى شَفَتَيْهِ. وَقَالَ: مِثْلُ هَذَا حَيٍّ وَيَبْقَى لِي مُلْكِي سَاعَةً وَاحِدَةً، فَوَاللَّهِ لَلِّسَانُ هَذَا أَبْلَغُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ سَيْفٍ.. بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٠٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٨٩-١٩٣.

فَلَمَّا عَبَرُوا بِهِ نَزَلُوا إِلَيْهِمْ، فَأَخَذُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَضَرَبُوهُمْ وَخَرَقُوا عَلَيْهِمْ سَوَادَهُمْ، وَوَضَعُوهُ فِي مَفْرَقٍ أَرْبَعَةِ طُرُقٍ، وَأَقَامَ الْمُتَادِينَ يُنَادُونَ أَلَا مَنْ أَرَادَ الطَّيِّبَ بْنَ الطَّيِّبِ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ فَلْيَخْرُجْ، وَحَصَرَ الخَلْقُ، وَغُسِّلَ وَحُطِّطَ بِخَنُوطٍ فَاحِرٍ، وَكَفَّنَهُ بِكَفْنٍ فِيهِ حَبْرَةٌ اسْتُعْمِلَتْ لَهُ بِالْفَيْنِ وَخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ، عَلَيْهَا الْقُرْآنُ كُلُّهُ، وَاحْتَفَى وَمَشَى فِي جَنَازَتِهِ، مُتَسَلِّبًا مَشْقُوقَ الْجَنْبِ إِلَى مَقَابِرِ قُرَيْشٍ فَدَفَنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُنَاكَ، وَكَتَبَ بِخَبْرِهِ إِلَى الرَّشِيدِ، فَكَتَبَ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ: وَصَلَّتْكَ رَحِمٌ يَا عَمِّ، وَأَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَكَ، وَاللَّهُ مَا فَعَلَ السَّنْدِيُّ بْنُ شَاهَكَ لَعَنَهُ اللَّهُ مَا فَعَلَهُ عَنْ أَمْرِنَا»^(١).

وهذا موقف ضعف يُبين مدى الخوف الذي كانت فيه الدولة حيث لم تُبدِ أي ردّ فعل تجاه هذا الحدث.

ورُوي أيضاً أن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما اعتُقل وهو قائم يُصليّ عند رأس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحُمِلَ إلى هارون كان يقول: «إِلَيْكَ أَشْكُو يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَلْقَى .. وَأَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يَبْكُونَ وَيَضْجُونَ، فَلَمَّا حُمِلَ إِلَى بَيْنِ يَدَيِ الرَّشِيدِ شَتَمَهُ وَجَفَّاهُ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ أَمَرَ بَيْتَيْنِ فَهَيَّأَ لَهُ، فَحَمَلَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَحَدِهِمَا فِي خَفَاءٍ، وَدَفَعَهُ إِلَى حَسَّانِ السَّرُويِّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصِيرَ بِهِ فِي قُبَّةٍ إِلَى الْبَصْرَةِ فَيُسَلِّمَهُ إِلَى عَيْسَى بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ، وَهُوَ أَمِيرُهَا، وَوَجَّهَ قُبَّةً أُخْرَى عَلَانِيَةً نَهَارًا إِلَى الْكُوفَةِ مَعَهَا جَمَاعَةٌ، لِيُعْمِيَ عَلَى النَّاسِ أَمْرَ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ... فَحَبَسَهُ عَيْسَى فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْمَحْبَسِ الَّذِي كَانَ يُحْبَسُ فِيهِ، وَأَقْفَلَ عَلَيْهِ، وَشَغَلَهُ عَنْهُ الْعِيدُ، فَكَانَ لَا يَفْتَحُ عَنْهُ الْبَابَ إِلَّا فِي حَالَتَيْنِ: حَالٍ يُخْرَجُ فِيهَا إِلَى الطَّهْوَرِ، وَحَالٍ يُدْخَلُ إِلَيْهِ فِيهَا الطَّعَامُ...»^(٢).

لقد كانت السلطات العباسية على وجل شديد من ردّ فعل جماهيري، وهل اكتفت بهذه الاحتياطات؟ بالطبع لا.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٢٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٢١.

فقد روي عن محمد بن صدقة العنبري قال: «لَمَّا تُوفِّي أَبُو إِبْرَاهِيمَ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام، جَمَعَ هَارُونُ الرَّشِيدُ شُيُوخَ الطَّالِبِيَّةِ وَبَنِي الْعَبَّاسِ، وَسَائِرَ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَالْحُكَّامَ، وَأَحْضَرَ أَبَا إِبْرَاهِيمَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام، فَقَالَ: هَذَا مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، قَدْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، وَمَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهُ فِي أَمْرِهِ -يَعْنِي فِي قَتْلِهِ-، فَانْظُرُوا إِلَيْهِ.

فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَبْعُونَ رَجُلًا مِنْ شِيعَتِهِ، فَنَظَرُوا إِلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام، وَلَيْسَ بِهِ أَثَرُ جِرَاحَةٍ وَلَا خَنَقٍ، وَكَانَ فِي رِجْلِهِ أَثَرُ الْحِنَاءِ...»^(١).

هارون الرشيد الذي يرأس مملكة لا تغيب عنها الشمس يُحضر كل وجهاء المجتمع وزعمائه، ويجعل نفسه في منصة المتهم ويحاول أن يُبرئ نفسه، فكيف يحدث منه هذا لولا خشية ردّ الفعل الذي قد يقلب عليه حكمه.

حياة الإمام الكاظم عليه السلام في السجن

روي عن علي بن إبراهيم عن أحمد بن عبد الله القروي عن أبيه قال: «دَخَلْتُ عَلَى الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى سَطْحٍ فَقَالَ لِي: أَشْرِفْ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ وَانْظُرْ مَا تَرَى؟!».

فَقُلْتُ: نَوْبًا مَطْرُوحًا!.

فَقَالَ: انْظُرْ حَسَنًا.

فَتَأَمَّلْتُ فَقُلْتُ: رَجُلٌ سَاجِدٌ!.

فَقَالَ لِي: تَعْرِفُهُ؟ هُوَ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام، أَتَفَقَّدُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَلَمْ أَجِدْهُ فِي وَفْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ. إِنَّهُ يُصَلِّي الْفَجْرَ فَيَعْقُبُ إِلَى أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَةً، فَلَا يَزَالُ سَاجِدًا حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ.

وَقَدْ وَكَّلَ مَنْ يَرَّصِدُ أَوْقَاتَ الصَّلَاةِ، فَإِذَا أَخْبَرَهُ وَتَبَّ يُصَلِّي مِنْ غَيْرِ تَجْدِيدٍ وَضُوءٍ، وَهُوَ دَابُّهُ، فَإِذَا صَلَّى الْعَتَمَةَ أَفْطَرَ. ثُمَّ يُجَدِّدُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَسْجُدُ، فَلَا يَزَالُ يُصَلِّي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ.

وَقَالَ بَعْضُ عُبُودِهِ: كُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثِيرًا يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَسْأَلُكَ أَنْ تُفَرِّغَنِي لِعِبَادَتِكَ، اللَّهُمَّ وَقَدْ فَعَلْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ...»^(١).

فهذا هو الإمام عليه السلام في عبادته، وهذا هو الإمام في شجاعته، وقاطعية عزيمته. وحينما يأتيه الفضل بن الربيع ويقول له: «اسْتَعِدْ لِلْعُقُوبَةِ يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ رَحِمَكَ اللَّهُ».

فَقَالَ عليه السلام: أَلَيْسَ مَعِيَ مَنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَلَنْ يَقْدِرَ الْيَوْمَ عَلَى سُوءٍ بِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(٢).

وهو نفسه الإمام عليه السلام حينما ذاعت الأسرار وأدخل على هارون، فقال: «مَا هَذِهِ الدَّارُ؟» قَالَ عليه السلام: هَذِهِ دَارُ الْفَاسِقِينَ. قَالَ وَقَرَأَ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾^(٣).

فَقَالَ لَهُ هَارُونُ: فِدَارُ مَنْ هِيَ؟

قَالَ عليه السلام: هِيَ لِشِيعَتِنَا فِتْرَةٌ وَلِغَيْرِهِمْ فِتْنَةٌ.

قَالَ: فَمَا بَالُ صَاحِبِ الدَّارِ لَا يَأْخُذُهَا؟

قَالَ عليه السلام: أَخَذْتُ مِنْهُ عَامِرَةً وَلَا يَأْخُذُهَا إِلَّا مَعْمُورَةٌ.

قَالَ: فَأَيْنَ شِيعَتُكَ؟

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٠٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢١٥.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٤٦.

فَقَرَأَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» ^(١).... فَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ وَغَلَطَ عَلَيْهِ ^(٢).

وهو الإمام عليه السلام نفسه الذي يُشرف على مجريات الأمور والتغيرات في الأمة الإسلامية، حتى إن جعفر بن محمد بن الأشعث ^(٣) أحد وزراء هارون، كان من شيعة الإمام عليه السلام. فقد روي أن يحيى بن خالد البرمكي قال للرشيد: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ قَدْ كُنْتُ أَخْبِرُكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَمَذْهَبِهِ فَتُكَذِّبُ عَنْهُ، وَهَاهُنَا أَمْرٌ فِيهِ الْفَيْصَلُ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟»

قَالَ: إِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ مَالٌ مِنْ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ إِلَّا أَخْرَجَ حُمُسَهُ فَوَجَّهَ بِهِ إِلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام، وَلَسْتُ أَشُكُّ أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْعِشْرِينَ الْأَلْفَ الدِّينَارَ الَّتِي أَمَرْتُ بِهَا لَهُ.

فَقَالَ هَارُونُ: إِنَّ فِي هَذَا لَفَيْصَلًا.

فَأَرْسَلَ إِلَى جَعْفَرٍ لَيْلًا... فَلَمَّا طَرَقَ جَعْفَرًا رَسُولُ الرَّشِيدِ بِاللَّيْلِ خَشِيَ أَنْ يَكُونَ قَدْ سَمِعَ فِيهِ قَوْلَ يَحْيَى، وَأَنَّهُ إِنَّمَا دَعَاهُ لِيَقْتُلَهُ، فَأَفَاضَ عَلَيْهِ مَاءً وَدَعَا بِمِسْكِ وَكَافُورٍ فَتَحَنَّنَ بِهِمَا، وَلَبَسَ بُرْدَةً فَوْقَ ثِيَابِهِ، وَأَقْبَلَ إِلَى الرَّشِيدِ، فَلَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنُهُ، وَشَمَّ رَائِحَةَ الْكَافُورِ وَرَأَى الْبُرْدَةَ عَلَيْهِ.

قَالَ: يَا جَعْفَرُ، مَا هَذَا؟

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ سَعِيَ بِي عِنْدَكَ، فَلَمَّا جَاءَنِي رَسُولُكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ لَمْ أَمْنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَدَحَ فِي قَلْبِكَ مَا يُقَالُ عَلَيَّ، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْكَ لَتَقْتُلَنِي.

(١) سورة البينة، آية: ١.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٥٦.

(٣) الكوفي، كان عاميًا، فاستبصر، قال عنه المقدسي: وتولّى خراسان، وبذل الأمان للطالبيين، وأخرج الخمس لبني هاشم. عده الشيخ من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. معجم رجال الحديث، ج ٤، ص ١٠٥. البدء والتاريخ، ج ٦، ص ١٠١.

فَقَالَ: كَلَّا؛ وَلَكِنْ قَدْ خُبِّرْتُ أَنَّكَ تَبَعْتُ إِلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ كُلِّ مَا يَصِيرُ إِلَيْكَ بِخُمْسِهِ، وَأَنَّكَ قَدْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فِي الْعَشْرِينَ أَلْفَ الدِّينَارِ، فَأَخْبَيْتُ أَنْ أَعْلَمَ ذَلِكَ.

فَقَالَ جَعْفَرٌ: اللَّهُ أَكْبَرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، تَأْمُرُ بَعْضَ خَدَمِكَ يَذْهَبُ فَيَأْتِيكَ بِهَا بِخَوَاتِيمِهَا.

فَقَالَ الرَّشِيدُ لِحَادِمِهِ لَهُ: خُذْ خَاتَمَ جَعْفَرٍ وَانْطَلِقْ بِهِ حَتَّى تَأْتِيَنِي بِهِذَا الْمَالِ. وَسَمَّى لَهُ جَعْفَرٌ جَارِيَتَهُ الَّتِي عِنْدَهَا الْمَالُ فَدَفَعَتْ إِلَيْهِ الْبَدْرَ بِخَوَاتِيمِهَا. فَأَتَى بِهَا الرَّشِيدُ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: هَذَا أَوَّلُ مَا تَعْرِفُ بِهِ كِذْبَ مَنْ سَعَى بِي إِلَيْكَ. قَالَ: صَدَقْتَ يَا جَعْفَرُ، انْصَرِفْ آمِنًا فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ فِيكَ قَوْلَ أَحَدٍ...^(١).

فالذي يكون في مثل هذا المقام الكريم والنشاط المذهل كيف لا يخاف هارون العباسي من دمه، هارون الذي لم يدخر وسيلة إلا واستعملها ضد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فقد روي: «إِنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ أَنْفَذَ إِلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَارِيَةً خَصِيفَةً هَا جَمَالٌ وَوَضَاءٌ لَتُخْذِمُهُ فِي السَّجْنِ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قُلْ لَهُ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾^(٢)، لَا حَاجَةَ لِي فِي هَذِهِ وَلَا فِي أَمْثَالِهَا.

قَالَ: فَاسْتَطَارَ هَارُونُ غَضَبًا، وَقَالَ: ازْجِعْ إِلَيْهِ، وَقُلْ لَهُ: لَيْسَ بِرِضَاكَ حَبْسُنَاكَ، وَلَا بِرِضَاكَ أَخْذُنَاكَ. وَاتْرُكِ الْجَارِيَةَ عِنْدَهُ وَانْصَرِفْ.

قَالَ: فَمَضَى. وَرَجَعَ ثُمَّ قَامَ هَارُونُ عَنْ مَجْلِسِهِ وَأَنْفَذَ الْحَادِمَ إِلَيْهِ لِيَسْتَفْهِصَ عَنْ حَالِهَا، فَرَأَاهَا سَاجِدَةً لِرَبِّهَا لَا تَرْفَعُ رَأْسَهَا، تَقُولُ: قُدُّوسٌ سُبْحَانَكَ، سُبْحَانَكَ.

فَقَالَ هَارُونُ: سَحَرَهَا وَاللَّهِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ بِسِحْرِهِ...^(٣).

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٠٧-٢٠٩.

(٢) سورة النمل، آية: ٣٦.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٣٨.

ولم يُشفِ هارون غليله من الإمام بكل هذه الألوان من العذاب، حتى إنه بنفسه صعد سطحاً يُشرف منه على الحبس الذي فيه أبو الحسن، فكان يرى أبا الحسن عليه السلام ساجداً، فقال للربيع: «مَا ذَاكَ الثُّوبُ الَّذِي أَرَاهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ؟»

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ مَا ذَاكَ ثُوبٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، لَهُ كُلُّ يَوْمٍ سَجْدَةٌ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ الزَّوَالِ.

قَالَ الرَّبِيعُ: فَقَالَ لِي هَارُونُ: أَمَا إِنَّ هَذَا مِنْ رُهْبَانِ بَنِي هَاشِمٍ.

قُلْتُ: فَمَا لَكَ فَقَدْ ضَيِّقَتْ عَلَيْهِ فِي الْحَبْسِ؟!.

قَالَ: هَيْهَاتَ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ»^(١).

وكيف لا يكون لهذا الطاغية هذا القلب القاسي البعيد عن الإنسانية؟ إن نعيم الملك الذي هو فيه جعله في درك الضلال. ومع كل ذلك الطغيان، كان الخوف يساور النظام العباسي بأكمله. وروي عن يونس بن عبد الرحمن قال: «حَضَرَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الرَّوَاسِيَّ جَنَازَةَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَلَمَّا وُضِعَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ إِذَا رَسُولٌ مِنَ السَّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ قَدْ أَتَى أَبَا الْمَضَا [الْمَضَاء] خَلِيفَتَهُ، وَكَانَ مَعَ الْجَنَازَةِ: أَنْ اكْشَفَ وَجْهَهُ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ تَدْفِنَهُ حَتَّى يَرَوْهُ صَحِيحًا، لَمْ يَحْدُثْ بِهِ حَدَثٌ.

قَالَ: فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِ مَوْلَايَ حَتَّى رَأَيْتُهُ وَعَرَفْتُهُ، ثُمَّ غَطَّى وَجْهَهُ وَأَدْخَلَ قَبْرَهُ عليه السلام»^(٢).

وحتى إن يحيى بن خالد قال لهارون يوماً: «الَّذِي أَرَاهُ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَنْ تَمُتَنَّ عَلَيْهِ وَتَصِلَ رَحِمُهُ، فَقَدْ وَاللَّهِ أَفْسَدَ عَلَيْنَا قُلُوبَ شِيعَتِنَا. وَكَانَ يَحْيَى يَتَوَلَّاهُ وَهَارُونُ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٢٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٢٩.

فَقَالَ هَارُونُ: انْطَلِقْ إِلَيْهِ وَأَطْلِقْ عَنْهُ الْحَدِيدَ، وَأَبْلِغْهُ عَنِّي السَّلَامَ. وَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ ابْنُ عَمِّكَ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي فِيكَ يَمِينٌ، أَنِّي لَا أَخْلِيكَ حَتَّى تُقَرَّرَ لِي بِالْإِسَاءَةِ، وَتَسْأَلَنِي الْعَفْوَ عَمَّا سَلَفَ مِنْكَ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ فِي إِقْرَارِكَ عَارٌ، وَلَا فِي مَسْأَلَتِكَ إِيَّايَ مَنَقَصَةٌ. وَهَذَا يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ هُوَ ثِقَتِي وَوَزِيرِي، وَصَاحِبُ أَمْرِي، فَسَلِّهُ بِقَدْرِ مَا أَخْرَجَ مِنْ يَمِينِي وَأَنْصَرِفْ رَاشِدًا..»^(١).

فهم لم يدخروا إرهاباً وتعذيباً، ومساومة، وإغراء، ولكن هل كانوا يتوقعون من جبل أن يتحرك عن موقعه؟.

كلّا.. إن حياة الإمام عليه السلام يعجز القلم عن ذكر يومياتها المثيرة ووقائعها المجيدة، فهي بحق دليل صدق الإمامة فـ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٢).

عن بشار مولى السندي بن شاهك، قال: «كُنْتُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بُغْضًا لِأَلِ أَبِي طَالِبٍ. فَدَعَانِي السَّنْدِيُّ بْنُ شَاهِكٍ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا بَشَارُ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَمِّنَكَ عَلَى مَا أَتَمَّنِّي عَلَيْهِ هَارُونُ.

قُلْتُ: إِذَنْ لَا أَبْقِي فِيهِ غَايَةً.

فَقَالَ: هَذَا مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام، قَدْ دَفَعَهُ إِلَيَّ وَقَدْ وَكَلْتُكَ بِحِفْظِهِ، فَجَعَلَهُ فِي دَارٍ دُونَ حَرَمِهِ. وَوَكَلَنِي عَلَيْهِ، فَكُنْتُ أَقْفُلُ عَلَيْهِ عِدَّةَ أَقْفَالٍ، فَإِذَا مَضَيْتُ فِي حَاجَةٍ وَكَلْتُ امْرَأَتِي بِالْبَابِ، فَلَا تُفَارِقْهُ حَتَّى أَرْجِعَ.

قَالَ بَشَارُ: فَحَوَّلَ اللَّهُ مَا كَانَ فِي قَلْبِي مِنَ الْبُغْضِ حُبًّا»^(٣).

فهذه رشفة من حياة الإمام المليئة بالعمل الدؤوب والجهاد المتواصل في سبيل الله عز وجل.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٣٠.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٤١.

الرساليون في عهد الإمام الكاظم عليه السلام

كان الرساليون في فترة إمامة موسى بن جعفر عليه السلام في أشد أوقاتهم تقية، ولم تمر عليهم أوقات وظروف شديدة كتلك إلا في أيام معاوية بعد مقتل الحسن عليه السلام وانتقال السلطات الظاهرية إلى معاوية.

وقد وصل الاضطهاد مبلغاً بحيث لم يكن الرساليون يستطيعون حتى ذكر اسم الإمام عليه السلام وذلك «لشدة التقية في أيامه عليه السلام وكثرة التضييق عليه ممن عاصروه من العباسيين»^(١)، فكان الشيعة يقولون: «قَالَ: الْعَبْدُ الصَّالِحُ...»، أو: «كُنْتُ عِنْدَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ...»، وهذا من ألقاب^(٢) الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. لذلك نرى أكثر الروايات التي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام ترد بألقاب، مثل: «العالم...»، أو قال: «الصابر»، أو قال: «الأمين»، أو قال: «الزاهد»، أو: «قال أبو إبراهيم...»، أو: «سَأَلْتُ الرَّجُلَ...». وحتى بعد رحيل الإمام موسى بن جعفر والتزام الرسالين بالتقية فإنهم كانوا يُسمُّونه فيقولون: «قال الماضي» أو: «قال أبو الحسن الماضي».

روي عن عبد الله البراز النيسابوري قال: «كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ حُمَيْدِ بْنِ فَحْطَبَةَ الطَّائِيِّ الطُّوسِيِّ مُعَامَلَةً، فَرَحَلْتُ إِلَيْهِ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، فَبَلَغَهُ خَبَرُ قُدُومِي فَاسْتَحْضَرَنِي لِلْوَقْتِ، وَعَلَيَّ ثِيَابُ السَّفَرِ لَمْ أَغَيِّرْهَا، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَقَتِ صَلَاةِ الظُّهْرِ. فَلَمَّا دَخَلْتُ إِلَيْهِ رَأَيْتُهُ فِي بَيْتٍ يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَجَلَسْتُ، فَأَتَى بِطُسْتٍ وَإِبْرِيْقٍ فَغَسَلَ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَنِي فَعَسَلْتُ يَدَيَّ، وَأَحْضَرَتِ الْمَائِدَةُ وَذَهَبَ عَنِّي، أَنِّي صَائِمٌ وَأَنِّي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. ثُمَّ ذَكَرْتُ فَأَمْسَكْتُ يَدِي.

فَقَالَ لِي حُمَيْدٌ: مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ؟!

فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ هَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ، وَلَسْتُ بِمَرِيضٍ، وَلَا بِي عِلَّةٌ تُوجِبُ

(١) بهجة الآمال في شرح زبدة المقال، ج ٧، ص ٥٩٣. تاريخ الشيعة، ص ٥٥.

(٢) أنظر: الفصول المهمة في معرفة الأئمة عليهم السلام، ج ٢، ص ٩٣٥.

الْإِفْطَارَ، وَلَعَلَّ الْأَمِيرَ لَهُ عُذْرٌ فِي ذَلِكَ، أَوْ عِلَّةٌ تُوجِبُ الْإِفْطَارَ.

فَقَالَ: مَا بِي عِلَّةٌ تُوجِبُ الْإِفْطَارَ، وَإِنِّي لَصَحِيحُ الْبَدَنِ.

ثُمَّ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَبَكَى، فَقُلْتُ لَهُ بَعْدَ مَا فَرَغَ مِنْ طَعَامِهِ: مَا يُبْكِيكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ؟!.

فَقَالَ: أَتَفَذَّ إِلَيَّ هَارُونَ الرَّشِيدُ، وَقَتَ كَوْنِهِ بِطُوسٍ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ، أَنْ أَجِبَ فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهِ، رَأَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ شَمْعَةً، تَتَقَدُّ وَسَيْفًا أُخْضِرَ مَسْلُولًا، وَبَيْنَ يَدَيْهِ خَادِمٌ وَاقِفٌ، فَلَمَّا قُمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ فَقَالَ: كَيْفَ طَاعَتُكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟. فَقُلْتُ: بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ!.

فَاطْرَقَ ثُمَّ أَذِنَ لِي فِي الْإِنْصِرَافِ. فَلَمْ أَلْبَثْ فِي مَنْزِلِي، حَتَّى عَادَ الرَّسُولُ إِلَيَّ. وَقَالَ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنَّا لِلَّهِ، أَخَافُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَزَمَ عَلَى قَتْلِي، وَإِنَّهُ لَمَّا رَأَى اسْتِخْيَا مَنِّي. فَعُدْتُ إِلَى بَيْنَ يَدَيْهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: كَيْفَ طَاعَتُكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟.

فَقُلْتُ: بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ!.

فَتَبَسَّ صَاحِكًا. ثُمَّ أَذِنَ لِي فِي الْإِنْصِرَافِ. فَلَمَّا دَخَلْتُ مَنْزِلِي لَمْ أَلْبَثْ أَنْ عَادَ الرَّسُولُ إِلَيَّ، فَقَالَ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَحَضَرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ. فَقَالَ: كَيْفَ طَاعَتُكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟.

فَقُلْتُ: بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْدِينِ!.

فَضَحِكَ ثُمَّ قَالَ لِي: خُذْ هَذَا السَّيْفَ، وَامْتَثِلْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ هَذَا الْخَادِمُ.

قَالَ: فَتَنَاوَلَ الْخَادِمُ السَّيْفَ وَتَنَاوَلْنِيهِ، وَجَاءَ بِي إِلَى بَيْتٍ بَابُهُ مُغْلَقٌ، فَفَتَحَهُ فَإِذَا فِيهِ بَيْتْرٌ فِي وَسْطِهِ، وَثَلَاثَةُ بُيُوتٍ أَبْوَابُهَا مُغْلَقَةٌ، فَفَتَحَ بَابَ بَيْتٍ مِنْهَا، فَإِذَا فِيهِ عِشْرُونَ نَفْسًا عَلَيْهِمُ الشُّعُورُ وَالذَّوَائِبُ، شُبُوحٌ وَكُهُولٌ وَشُبَّانٌ مُقِيدُونَ.

فَقَالَ لِي: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْمُرُكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ.

وَكَانُوا كُلُّهُمْ عَلَوِيَّةً مِنْ وَلَدِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَجَعَلَ يُخْرِجُ إِلَيَّ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهِمْ. ثُمَّ رَمَى بِأَجْسَادِهِمْ، وَرَوَّوْسَهُمْ فِي تِلْكَ الْبُئْرِ. ثُمَّ فَتَحَ بَابَ بَيْتٍ آخَرَ، فَإِذَا فِيهِ أَيْضًا عَشْرُونَ نَفْسًا مِنَ الْعَلَوِيَّةِ، مِنْ وَلَدِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مُقَيَّدُونَ.

فَقَالَ لِي: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْمُرُكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ.

فَجَعَلَ يُخْرِجُ إِلَيَّ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَيَرْمِي بِهِ فِي تِلْكَ الْبُئْرِ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهِمْ. ثُمَّ فَتَحَ بَابَ الْبَيْتِ الثَّالِثِ، فَإِذَا فِيهِ مِثْلُهُمْ عَشْرُونَ نَفْسًا مِنْ وَلَدِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مُقَيَّدُونَ عَلَيْهِمُ الشُّعُورُ وَالذَّوَابِبُ.

فَقَالَ لِي: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْتُلَ هَؤُلَاءِ أَيْضًا.

فَجَعَلَ يُخْرِجُ إِلَيَّ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَيَرْمِي بِهِ فِي تِلْكَ الْبُئْرِ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى تِسْعِ عَشْرَةِ نَفْسٍ مِنْهُمْ، وَبَقِيَ شَيْخٌ مِنْهُمْ عَلَيْهِ شَعْرٌ.

فَقَالَ لِي: تَبَّ لَكَ يَا مَشُومٌ، أَيُّ عُذْرٍ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا قَدِمْتَ عَلَى جَدِّنا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ قَتَلْتَ مِنْ أَوْلَادِهِ سِتِّينَ نَفْسًا، قَدْ وَلَدَهُمْ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؟!

فَارْتَعَشَتْ يَدَيَّ وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصِي، فَنَظَرْتُ إِلَيْ الْحَادِمِ مُغْضَبًا وَرَبَّرَنِي. فَأَتَيْتُ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ أَيْضًا فَقَتَلْتُهُ، وَرَمَى بِهِ فِي تِلْكَ الْبُئْرِ.

فَإِذَا كَانَ فِعْلِي هَذَا وَقَدْ قَتَلْتُ سِتِّينَ نَفْسًا مِنْ وَلَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَنْفَعُنِي صَوْمِي وَصَلَاتِي، وَأَنَا لَا أَشْكُ أَنِّي مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ»^(١).

ولذلك حينما يأتي الفقهاء إلى الروايات المنقولة عن الإمام موسى بن جعفر

عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُمْ يُفَسِّرُونَهَا بِالتَّقِيَّةِ فِيهَا إِذَا عَارَضَتْ الرِّوَايَاتُ الْآخَرَى، أَسْرَعَ مِمَّا يُفَسِّرُونَ سَائِرَ الرِّوَايَاتِ الْمَنْقُولَةِ عَنْ بَقِيَّةِ الْأُتَمَةِ الْمُعَصِّومِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيُرْجِعُونَ سَبَبَ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ عَهْدَهُ تَمَيَّزَ بِشِدَّةِ التَّقِيَّةِ.

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ صَالِحِ بْنِ وَاقِدِ الطَّبْرِيِّ، قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا صَالِحُ، إِنَّهُ يَدْعُوكَ الطَّاغِيَةُ (يَعْنِي هَارُونَ) فَيَحْبِسُكَ فِي حَبْسِهِ، وَيَسْأَلُكَ عَنِّي، فَقُلْ: إِنِّي لَا أَعْرِفُهُ، قَالَ صَالِحُ: فَدَعَانِي هَارُونُ مِنْ طَبْرِسْتَانَ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ عِنْدَكَ؟!»

فَقُلْتُ: وَمَا يُدْرِينِي مَنْ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ؟ أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعَرَفُ بِهِ وَبِمَكَانِهِ.

فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْحَبْسِ...»^(١).

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثَّمَالِيِّ، قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَقُولُ: (إِلَى السَّبْعِينَ بَلَاءً، وَكَانَ يَقُولُ: بَعْدَ الْبَلَاءِ رَخَاءٌ)، وَقَدْ مَضَتْ السَّبْعُونَ، وَلَمْ تَرَ رَخَاءً.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا نَابِتُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ وَقَّتَ هَذَا الْأَمْرَ فِي السَّبْعِينَ، فَلَمَّا قُتِلَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَأَخَّرَهُ إِلَى أَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ سَنَةٍ، فَحَدَّثْنَاكُمْ فَأَذَعْتُمُ الْحَدِيثَ، وَكَشَفْتُمْ قِنَاعَ السِّرِّ، فَأَخَّرَهُ اللَّهُ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَقْتًا عِنْدَنَا: ﴿وَيَمْنَحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾»^(٢).

قَالَ أَبُو حَمْزَةَ: وَقُلْتُ ذَلِكَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَدْ كَانَ ذَاكَ»^(٣).

وهناك رواية عن داود الرقي قال: «قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: جُعِلْتُ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٦٦.

(٢) سورة الرعد، آية: ٣٩.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٠٥.

فَدَاكَ، إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا يَلِجُ فِي صَدْرِي مِنْ أَمْرِكَ شَيْءٌ، إِلَّا حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ ذَرِيحٍ يَرْوِيهِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام.

قَالَ لِي عليه السلام: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَابِعُنَا فَأَتَمُّنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ!

قَالَ عليه السلام: صَدَقْتَ، وَصَدَقَ ذَرِيحٌ، وَصَدَقَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام.

فَارْذَدْتُ وَاللَّهِ شَكًّا. ثُمَّ قَالَ لِي عليه السلام: يَا دَاوُدُ بْنُ أَبِي كَلْدَةَ، أَمَا وَاللَّهِ؛ لَوْلَا أَنَّ مُوسَى عليه السلام: قَالَ لِلْعَالَمِ ﴿سَتَحْدِثُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾^(١)، مَا سَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، وَكَذَلِكَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام، لَوْلَا أَنْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَكَانَ كَمَا قَالَ. فَقَطَعْتُ عَلَيْهِ^(٢).

لقد بدأ الرساليون في ذلك الظرف يتناقلون الكلام، إلى درجة أنه شاع وفشا فبلغ السلطات ذلك، فاعتقلت مجموعات من الرساليين وسجنت الإمام عليه السلام وقتلته بعد ذلك.

وكان الإمام الكاظم عليه السلام بين أن يتحمل خطأ الرساليين ويُسجن شخصياً، أو أن يدعمهم يتحملون الخطأ، وهذا يعني أن الآلاف سوف يذهبون ضحية بسيف السلطات العباسية، ولكن الإمام فدى شيعته بنفسه، تفانياً منه في سبيل المبدأ وشيعته واستمرار الرسالة.

فبينما نرى في الكثير من الأوقات أن الرؤساء يتنازلون عن أتباعهم ويتركونهم يُقتلون، وينزؤون جانباً مُتبرِّئين منهم، نرى أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بقي مع أتباعه وهو الذي قُتل.

وهنا عندما ننظر إلى موقف الإمام عليه السلام لا بد أن نمتلئ إعباراً وإجلالاً له، ومع فداحة الخطأ الذي كشف أمر الحركة وعزمها على القيام والنهوض ضد

(١) سورة الكهف، آية: ٦٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٦٠.

السلطة العباسية فقد كان من الممكن للرساليين أن يقوموا بالسيف، لو أنهم طبقوا كل التعاليم، ولكنهم لم يكونوا حينها صالحين لاستلام الحكم، وكان من الواجب أن يتحملوا نتائج وتبعات إفشاء السر.

كانت هذه لمحات من حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الوصي بعد والده الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

استقامة إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام

كانت حياة إسماعيل منذ البداية حياة معينة تميّزت بقيامه بترية العديد من الكوادر الرسالية في غير مكان من الأماكن التي كان يتنقل بينها. وهنا نتساءل عن مصير تلك المجموعة^(١) التي كوّنّها إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق وربّتهم وجعلهم على شكل خلايا، وأرسل الدعاة هنا وهناك؟.

وقبل ذلك علينا أن نُشير إلى أنّ استقامة إسماعيل هو أمر مُسلم به مع وجود بعض الآراء التي ترى خلاف ذلك. ولكن الرأي الأقوى يقول: إن إسماعيل كان رجلاً مؤمناً صادقاً صالحاً^(٢)؛ ذلك لأن الإمام الصادق عليه السلام لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان الإمام يُحبّه كثيراً. عن عمار بن حيان قال: «أخبرني أبو عبد الله عليه السلام

(١) تميّزت الحركة الإسماعيلية بدور الستر والتخفي، والعمل السري الذي يُعدّ أحد أهم دعائم العمل التنظيمي، حتى اشتهروا به. وهذه الميزة أصبحت من المشاكل المستعصية التي يصعب على المؤرخ والباحث حلها وسبر أغوارها، لأنه وكما يُشير جملة المؤرخين فإن الدعوة الإسماعيلية حرصت حرصاً شديداً على كتمان وثائقها وتحرك قادتها. وبالتالي خفي الكثير من المعلومات على المؤرخين. فلا يعلم من حركة إسماعيل إلا النزر القليل، وقد ثبت في التاريخ تنقله من مكان لآخر، إما لهروبه من سلطة بني العباس، أو لعمله التجاري الذي يُعتقد أنه غطاء لحركته ودعوته، ولا يُعلم عن مصير هؤلاء الكوادر والقادة. ومن خلال قراءة مسار تاريخهم الجهادي يُعرف أنهم كانوا يتسمون بالأسماء الحركية لا الحقيقية.. وللووقوف على هذه الحقيقة طالع مثلاً ما كتبه الدكتور مصطفى غالب في كتابه: تاريخ الدعوة الإسماعيلية. وأيضاً الدكتور حسن إبراهيم حسن: عبيد الله المهدي.. إمام الشيعة الإسماعيلية، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٢) منتهى المقال في أحوال الرجال، ج ٢، ص ٥٣. معجم رجال الحديث، ج ٣، ص ١٢٧.

بِرِّ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ لَهُ، وَقَالَ عليه السلام: لَقَدْ كُنْتُ أَحِبُّهُ وَقَدْ اِزْدَادَ إِلَيَّ حُبًّا»^(١).

أما الروايات التي نقرأها عن تأكيد الإمام الصادق عليه السلام على وفاة ابنه الأكبر إسماعيل، ليست إلا لقطع الطريق أمام من سيذهب إلى غيبته وأن الإمامة له بعد أبيه.

جاء في الرواية عن زرارة بن أعين قال: «دَعَا الصَّادِقُ عليه السلام دَاوُدَ بْنَ كَثِيرِ الرَّقُيِّيِّ، وَحُمْرَانَ بْنَ أَعْيَنَ، وَأَبَا بَصِيرٍ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ الْمُفَضَّلُ بْنُ عُمَرَ، وَاتَى بِجَمَاعَةٍ حَتَّى صَارُوا ثَلَاثِينَ رَجُلًا.

فَقَالَ عليه السلام: يَا دَاوُدُ، اكْشِفْ عَنْ وَجْهِ إِسْمَاعِيلَ.

فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ عليه السلام: تَأَمَّلْهُ يَا دَاوُدُ فَانْظُرْهُ، أَحْيٍ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟!

فَقَالَ: بَلْ هُوَ مَيِّتٌ.

فَجَعَلَ يَغْرِضُهُ عَلَى رَجُلٍ رَجُلٍ، حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهِمْ.

فَقَالَ عليه السلام: اللَّهُمَّ اشْهَدْ. - ثُمَّ أَمَرَ يَغْسِلُهُ وَتَجْهِيزَهُ. ثُمَّ قَالَ: - يَا مُفَضَّلُ، اخْشِرْ عَنْ وَجْهِهِ. فَحَسَرَ عَنْ وَجْهِهِ.

فَقَالَ عليه السلام: حَيٌّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟، انْظُرُوهُ أَجْمَعُكُمْ!.

فَقَالَ: بَلْ هُوَ يَا سَيِّدَنَا مَيِّتٌ.

فَقَالَ عليه السلام: شَهِدْتُمْ بِذَلِكَ، وَتَحَقَّقْتُمُوهُ؟.

قَالُوا: نَعَمْ!، وَقَدْ تَعَجَّبُوا مِنْ فِعْلِهِ.

فَقَالَ عليه السلام: اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ حُمِلَ إِلَى قَبْرِهِ، فَلَمَّا وُضِعَ فِي لَحْدِهِ قَالَ عليه السلام: يَا مُفَضَّلُ، اكْشِفْ عَنْ وَجْهِهِ

فَكَشَفَ، فَقَالَ ﷺ لِلْجَمَاعَةِ: انْظُرُوا أَحْيَى هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟.

فَقَالُوا: بَلَى مَيِّتٌ؛ يَا وَلِيَّ اللَّهِ.

فَقَالَ ﷺ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَإِنَّهُ سَيَرْتَابُ الْمُبْطِلُونَ، يُرِيدُونَ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ، ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى مُوسَى ﷺ وَقَالَ ﷺ: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

ثُمَّ حَنَوْا عَلَيْهِ التُّرَابَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْنَا الْقَوْلَ، فَقَالَ ﷺ: الْمَيِّتُ الْمَكْفَنُ الْمُحْنَطُ الْمَذْفُونُ فِي هَذَا اللَّحْدِ مَنْ هُوَ؟.

قُلْنَا: إِسْمَاعِيلُ وَلَدُكَ!.

فَقَالَ ﷺ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ مُوسَى ﷺ فَقَالَ ﷺ: هُوَ حَقٌّ وَالْحَقُّ مَعَهُ وَمِنْهُ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا^(٢).

وهذا العمل من الإمام هو للتأكيد على وفاة إسماعيل، لكيلا يظن أحد أنه خليفته من بعده.

وكان إسماعيل أكبر إخوته، وكان الإمام الصادق ﷺ شديد المحبة له، والبر به، والإشفاق عليه، وكان قوم من الرساليين يظنون أنه القائم بعد أبيه، والخليفة له من بعده، إذ كان أكبر إخوته سنًا، ولميل أبيه إليه، وإكرامه له، فمات في حياة أبيه ﷺ بالعريض^(٣).

قال الشيخ المفيد رحمه الله: «وَرَوَى أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷺ جَزَعَ عَلَيْهِ جَزَعًا شَدِيدًا، وَحَزَنَ عَلَيْهِ حُزْنًا عَظِيمًا، وَتَقَدَّمَ سَرِيرَهُ بِلَا حِذَاءٍ وَلَا رِدَاءٍ، وَأَمَرَ بِوَضْعِ سَرِيرِهِ عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ دَفْنِهِ مَرَارًا كَثِيرَةً، وَكَانَ يَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ، يُرِيدُ ﷺ بِذَلِكَ تَحْقِيقَ أَمْرِ وَفَاتِهِ عِنْدَ الظَّائِنِ خِلَافَتَهُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَإِزَالَةَ الشُّبْهَةِ عَنْهُمْ فِي حَيَاتِهِ.

(١) سورة الصف، آية: ٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢٥٤.

(٣) موضع من أرجاء المدينة المنورة.

وَلَمَّا مَاتَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْصَرَفَ عَنِ الْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ بَعْدَ أَبِيهِ مَنْ كَانَ يَظُنُّ ذَلِكَ فَيَعْتَقِدُهُ مِنْ أَصْحَابِ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَقَامَ عَلَى حَيَاتِهِ شَرِذِمَةٌ لَمْ تَكُنْ مِنْ خَاصَّةِ أَبِيهِ، وَلَا مِنَ الرُّوَاةِ عَنْهُ، وَكَانُوا مِنَ الْأَبَاعِدِ وَالْأَطْرَافِ.

فَلَمَّا مَاتَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْتَقَلَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعْدَ أَبِيهِ، وَافْتَرَقَ الْبَاقُونَ فَرِيقَيْنِ:

فَرِيقٌ مِنْهُمْ رَجَعُوا عَنْ حَيَاةِ إِسْمَاعِيلَ وَقَالُوا بِإِمَامَةِ ابْنِهِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ لَظَنَّهُمْ أَنَّ الْإِمَامَةَ كَانَتْ فِي أَبِيهِ، وَأَنَّ الْإِبْنَ أَحَقُّ بِمَقَامِ الْإِمَامَةِ مِنَ الْأَخِ.

وَفَرِيقٌ ثَبَتُوا عَلَى حَيَاةِ إِسْمَاعِيلَ، وَهُمْ الْيَوْمَ شُدَّاذٌ لَا يُعْرِفُ مِنْهُمْ أَحَدٌ يَوْمِي إِلَيْهِ. وَهَذَانِ الْفَرِيقَانِ يُسَمَّيَانِ بِالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ، وَالْمَعْرُوفُ مِنْهُمْ الْآنَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الْإِمَامَةَ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ فِي وَلَدِهِ وَوُلِدِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ^(١).

وهكذا توفّي إسماعيل، بيد أن فريقاً من حزبه لم يصدّقوا وفاته، وزعموا أن له غيبة. وقبل أن نتناول هذا الرأي بالنقد، ننقل النص التالي لكاتب إسماعيلي معاصر هو مصطفى غالب، يقول: «بأن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قد شعر بالأخطار التي تتهدد حياة ابنه الإمام إسماعيل، بعد أن نصّ عليه، وأصبح ولياً للعهد، فأمره أن يستتر، وكان ذلك عام ١٤٥ هـ، خشية نقمة الخلفاء العباسيين، وتدبّر الأمر بأن كتب محضراً بوفاته وشهد عليه عامل المنصور الذي كان بدوره من الإسماعيليين.

وفوراً توجه إسماعيل إلى سلمية، ومنها إلى دمشق، وعلم المنصور بذلك فكتب إلى عامله أن يُلقِي القبض على الإمام إسماعيل، ولكن عامله المذكور كان قد اعتنق المذهب الإسماعيلي فعرض الكتاب على الإمام إسماعيل الذي ترك البلاد نحو العراق حيث شوهد بالبصرة عام ١٥١ هـ، وقد مر على مُقَعَّد فشفاه بإذن الله، ولبث الإمام إسماعيل عدة سنوات ينتقل سرّاً بين أتباعه حتى توفّي بالبصرة عام ١٥٨ هـ^(٢).

(١) الإرشاد، ج ٢، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١٢٨-١٢٩.

إن اعتقاد الإسماعيليين بغيبة إسماعيل هو أنها غيبة سياسية، كغيبة عيسى بن زيد، أو كغيبة أحمد بن عيسى المسمى بـ (أحمد المختفي) الذي هرب من السجن في زمن المهادي العباسي فغاب عن الناس وكون حركة زيدية وثار في غيبته في أيام المتوكل^(١).

وهذه الغيبة ليست من النوع المرتبط بما وراء الغيب والشهود، وليست من نوع اعتقادنا بغيبة الإمام المهدي المنتظر، فنحن نعتقد بغيبة الإمام الحجة عليه السلام ليس على أساس أنه بعيد عن الأنظار، أي إنه مختفي وله وكلاء ويتصل بأبناء الحركة الرسالية، وإنما هذه غيبة من الله سبحانه وتعالى.

ولأن الرسول ﷺ قد بين بأنه سيغيب واحد من أولاده، وبعد ذلك يخرج و: «يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا..»^(٢)، فإن بعض الناس كانوا يستغلون هذا الحديث في غير مصداقه الصحيح، وليس الرساليون فقط.. وإنما عدد الذين ادَّعوا المهودية في التاريخ من السنة هم أكثر بكثير من الشيعة.

وآخر من ادَّعى المهودية في الفترة الأخيرة: محمد علي الباب^(٣)، والميرزا غلام أحمد القادياني^(٤). ومن أهل السنة أمثال: المهدي الذي حارب الإنجليز في السودان^(٥). أما غيبة إسماعيل فلم تكن غيبة من الله عز وجل، وإنما غيبة سياسية حسب عقيدة جماعته^(٦).

(١) طالع: مقاتل الطالبين، ص ٤٩٢-٤٩٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٨، ص ٥٢.

(٣) مؤسس البهائية، وصنيعة الجاسوس الروسي (كنياز دالكوكي). طالع: الإمام المهدي من المهد إلى الظهور، ص ٣٧٤.

(٤) مؤسس جماعة الأحمدية. راجع: الإمام المهدي من المهد إلى الظهور، ص ٣٧٩.

(٥) تقف على تفاصيل قصته وأدعائه للمهدية ما أرَّخه إبراهيم فؤاد باشا في كتابه: السودان بين يدي غردون وكشنز، ط ١، الصادرة عام ١٣١٩ هـ. وأيضًا: الإمام المهدي من المهد إلى الظهور، ص ٤٦٠.

(٦) انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١٢٥.

وهنا بدأ أول انحراف لجماعة إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام حيث أنكروا إمامة الإمام موسى بن جعفر الصادق عليه السلام، واستدلوا على ذلك بأن الإمام لا بد أن يكون الولد الأكبر، وإسماعيل هو الأكبر، فالإمامة فيه، وكأن الإمامة وراثية قبلية. وأين الإسماعيلية عن خبر موت إسماعيل، وقيام الإمام الصادق عليه السلام بدفنه، وتأكيده ذلك للمشيعين من أصحابه؟ لأنه كان يعرف أن هناك جماعة في قلوبهم ريب من موت إسماعيل.

قوة الحركة الإسماعيلية

خلاصة القول: إن الإسماعيلية حدث لديهم انحراف عقائدي أكبر من الانحراف عند الزيدية، ولكنهم على الصعيد السياسي بقوا يُزِلُّون عرش الخلافة العباسية، وكانوا يُمثِّلون الدرع الواقى للحركة الرسالية.

واستطاعت الحركة الإسماعيلية الكبيرة - والتي قلنا عنها أنها كانت أقوى حركة رسالية في التاريخ - تكوين دولة في المغرب^(١)، ثم في مصر على يد عبيد الله المهدي^(٢) سنة ٢٩٦ هـ، وهي الدولة الفاطمية^(٣)، كما أسسوا دولة أخرى في فارس

(١) انظر: إتحاف الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، ص ٣٥. تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ٢٠٥-٢٢٣.

(٢) عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم، [٢٥٩-٣٢٢ هـ]. ينتهي نسبه إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام. المعروف بـ (المهدي الفاطمي)، مؤسس دولة الفاطميين في المغرب، وجدَّ الخلفاء الفاطميين بمصر. كان أبوه قد أرسل الدعاة إلى البلدان، فمهد البيعة لعبيد الله في المغرب عبدالله الشيعي (الحسين بن أحمد)، وكان ظهوره فيها أواخر ٢٩٦ هـ حتى بُويع له ببيعة عامة سنة ٢٩٧ هـ، وذلك بعد أن استفحل أمره. بعث الولاة إلى طرابلس وصقلية، ثم برقة. حتى استولى على تاهرت. خطَّط مدينة المهديّة سنة ٣٠٣ هـ، واتَّخذها قاعدة لحكمه. ومات بها بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة. الأعلام، ج ٤، ص ١٩٧. انظر: إتحاف الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، و: عبيد الله المهدي.. إمام الشيعة الإسماعيلية. و: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، والإمامة في الإسلام.

(٣) تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ٢٧٥.

(الموت^(١)) على يد الحسن بن الصَّبَّاح^(٢) سنة ٤٨٢هـ، وفي مصر على يد القائد جوهر الصقلي^(٣) سنة ٣٥٨هـ، وأخرى في اليمن على يد ابن حوشب^(٤) سنة

(١) أصلها في العربية (إله الموت)، ويقال هي الفناء أي الموت، وفي الفارسية (عش العقاب)، وتقع هذه القلعة في جبال البرز شمال غربي قزوین. أنظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ٤، ص ٩٢. وأيضاً: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج ٣، ص ٣٧. عنوان (الإسماعيليون - إلى الموت).

(٢) الحسن بن الصَّبَّاح بن علي الإسماعيلي، [ت: ٥٣٤هـ]، عالم بالهندسة والحساب، شجاع، حميري، يماني الأصل. دخل مصر وأكرمه المستنصر الفاطمي، وأمره بأن يدعو الناس إلى إمامته. عاد إلى الشام والجزيرة وديار بكر والروم، ورجع إلى خراسان، ودخل كاشغر وما وراء النهر، داعياً إلى المستنصر. استولى على قلعة الموت من نواحي قزوین، وطرد صاحبها سنة ٤٨٣هـ، وضم إليها عدة قلاع، واستقر إلى أن تُوفي فيها. على يديه تأسست للإسماعيلية أول حركة فدائية مدربة، اتخذت من قلعة الموت في قزوین مقراً لها، وكانت تسيطر على العالم الإسلامي في ذلك العهد: بغداد، والشام، والقاهرة. منه تسلسلت الأئمة الإسماعيلية إلى أن قضى عليهم المغول في سنة ٦٥٥هـ أولهم: نزار بن المستنصر، ت: ٤٨٣هـ، وآخرهم: ركن الدين خورشاه الذي قتله هولاكو سنة ٦٥٣هـ. طالع: تاريخ الإسماعيلية، ج ٤، ص ١١. الأعلام، ج ٢، ص ١٩٤. فهرس التراث، ج ١، ص ٤٤٩. طائفة الإسماعيلية، ص ٦٤.

(٣) أبو الحسين، جوهر بن عبدالله الصقلي [ت نحو: ٣٨١هـ]، من مسلمي جزيرة صقلية، قائد عظيم، شجاع، كثير الإحسان. في سنة ٣٥٨هـ، أسند إليه المعز لدين الله الفاطمي قيادة أضخم جيش لفتح مصر، ففتحها وبنى المنصورية (القاهرة)، والجامع الكبير (الأزهر) سنة ٣٦١هـ، وفيها انتشر التشيع، كما أصبحت أغلب الكفاءة العلمية موالية للنفوذ الشيعي بسبب بطولات قادة الحملات الفاطمية، وجرأتهم منقطعة النظر، وقد ضم هؤلاء جهودهم إلى دعاة الشيعة ورجلهم القدامى في مصر. قاد الصقلي الجيوش لفتح بلاد الشام وضمها إليها. ثم مكث بها حاكماً مطلقاً إلى أن قدم المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦٢هـ، فحل محله، وصار الصقلي من عظماء القادة في دولة المعز وما بعدها، توفي بالقاهرة. رثاه شعراء مصر قاطبة. طالع: مستدركات أعيان الشيعة، ج ٥، ص ١٠٧. الأعلام، ج ٢، ص ١٤٨.

(٤) أبو القاسم، (رستم بن) الحسن بن فرح بن حوشب الكوفي [ت: ٢٦٨هـ]، داعي الدعاة، مؤسس الدولة الفاطمية في اليمن، كان أول أمره داعية، بعثه عبيدالله المهدي، وعلى يديه بدأت الدعوة الإسماعيلية في اليمن، وكان له الفضل في انتشارها، وسُمِّي بالمنصور لأنه به انتصر المذهب الإسماعيلي. اتعاط الحنفا، ج ١، ص ٥٥. فهرس التراث، ج ١، ص ٢٠٣.

٢٧٠هـ، وأخرى في البحرين^(١) على يد الحسين الأهوازي^(٢)، وأبي سعيد الجنابي^(٣)، وحمدان بن الأشعث^(٤)، وزكرويه بن مهرويه^(٥) سنة ٢٧٠هـ. وكانت للإسماعيليين قلاعهم وحصونهم المستقلة المنيعة في بلاد الشام^(٦)، وكذلك في إيران^(٧).

إن حركة الزيدية كحركة سياسية انتهت تاريخياً بعد القرن الثالث الهجري، أما الحركة الثورية العسكرية التي بقيت كحركة سياسية مستمرة فهي الحركة الإسماعيلية، وقد عملت ما عملته الحركة الزيدية أيام الأئمة عليهم السلام فمن المعروف أن عبد الله المهدي الإسماعيلي مؤسس الدولة الفاطمية، كان من دعاة الحركة الإسماعيلية الكبار وقد سجن عدة مرات واستطاع الهروب من السجن، وسلالته هم الذين توالوا على الحكم في الدولة الفاطمية بمصر^(٨).

الحركة الرسالية احتمت بالحركة الزيدية التي كانت الجناح العسكري لها،

(١) المعروفة بدولة القرامطة. انظر: الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٤٩٣. تجارب الأمم، ج ٥، ص ٩. شذرات الذهب، ج ٣، ص ٣٥٨. مروج الذهب، ج ٤، ص ١٧٥. نهاية الأرب، ج ٢٥، ص ١٨٧.

(٢) الحسين بن أحمد بن عبد الله، المقلب بـ(رضي الدين عبد الله)، عرف بين الناس بـ(الحسين الأهوازي)، وكان يقول عن نفسه إنه داع لإمام مستور من نسل إسماعيل بن جعفر اسمه الحسين بن أحمد. ولد سنة ١٩٨هـ، وأقام مدة سلمية يمارس نشاطه الدعوي للإسماعيلية، كما أقام علاقة مع الدولة العباسية، دون أن يعرفوا شخصيته وحقيقته. انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١٣٢-١٣٣.

(٣) الحسن بن بهرام الجنابي، (أبو سعيد) [ت: ٣٠١]، كبير القرامطة، ملك البحرين، وهجر والأحساء، والقطيف، كان شجاعاً، داهية، قتل على يد خادمه صقلي في هجر. انظر: الأعلام، ج ٢، ص ١٨٥. تاريخ الإسلام، ج ٢٣، ص ١٠.

(٤) انظر: نهاية الأرب، ج ٢٥، ص ١٨٧.

(٥) زكرويه بن مهرويه القرمطي [ت: ٢٩٤هـ]، من زعماء القرامطة. انظر: الأعلام، ج ٣، ص ٤٥. تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ١٣٠. تجارب الأمم، ج ٥، ص ٢٩.

(٦) انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١٩٤-٢٠٢.

(٧) انظر: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج ٣، ص ٦.

(٨) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، ص ٦٢.

وكان هذا إلى القرن الثالث الهجري، وبعد القرن الثالث الهجري قامت الحركة الإسماعيلية بهذا الدور الذي جعل المد الرسالي في مأمن من بطش الدولة العباسية. فالحقيقة أن الحركة الإسماعيلية كانت من العوامل المهمة في تشييع إيران، وكتب التاريخ مليئة بالقصص المؤيدة لهذا الأمر^(١)، وفي بداية نشأة الحركة الإسماعيلية كان أفراد هذه الحركة يشعرون بأنهم هم الواجهة العسكرية السياسية للحركة الرسالية، ولم يكونوا يؤمنون بتلك المفارقات العقيدية التي هم عليها الآن.

(١) طائفة الإسماعيلية، ص ٦٢-٩٠. الشيعة في إيران، ص ٢٩٧-٢٥٧.

صَفْوُ الْكَلَامِ

* قام الإمام الكاظم عليه السلام بتدبير خطة للتغيير السياسي في الأمة. وبالرغم من أن الأمر كان يجري بسرية تامة، إلا أن ماروي عن حياته يرسم لنا صورة واضحة عن ماهية الأهداف التي كان ينشدها.

* لقد وصلت الحركة الرسالية في عهد الإمام الكاظم عليه السلام إلى درجة كبيرة من القوة، وأصبحت تشكل معها دولة داخل دولة، حتى إن كثيراً من أعوان هارون ووزرائه كانوا ينتمون إلى تلك الحركة، وكان كل ذلك يجري وفق تنظيم دقيق وسرية تامة. ومن جهتها كانت السلطات تبث العيون وتراقب الوزراء والمسؤولين.

* ولما أيقن العباسيون بخطورة الحركة الرسالية، عملوا على تصفيتها، ولأن مخططات الحركة وقياداتها كانت غير واضحة لدى السلطات قرّرت ضرب رأس الحركة، فعمدت إلى سجن الإمام الكاظم الذي قضى أكثر أيام إمامته في السجون، ثم تصفيتة بدس السم إليه.

* ورغم أن الحركة الإسماعيلية حدث فيها انحراف عقائدي، إلا أن هذا الانحراف لم يكن مرتبطاً بإسماعيل الذي نعتقد باستقامته وأنه تلقى تربيته على يد أبيه الإمام الصادق عليه السلام.

١٩ دور الإمام الكاظم عليه السلام في الحركة الرسالية

الترف في العصر العباسي

كان إبراهيم بن محمد بن علي المسمى بالإمام، أول من بُوع بالخلافة العباسية، ولكنه قبل أن يرتقي كرسي الحكم، سقط بيد الأمويين فقتل مسموماً^(١)، وفي بعض التواريخ أدخل رأسه في جراب نورة حتى مات^(٢).

وكان ابنه محمد محترماً في الدولة العباسية، فهو أخ الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح، والخليفة الثاني أبي جعفر المنصور.

جاء محمد بن إبراهيم يوماً إلى الفضل بن يحيى ومعه سفت فيه جوهر، وقال: «إنَّ حاصلي قد قَصَّرَ عما أحتاج إليه، وقد علاني دين مبلغه ألف درهم، وإني أستحي أن أعلم أحداً بذلك، وأنف أن أسأل أحداً من التجار أن يُقرضني ذلك، وإن كان معي رهن يفني بالقيمة وأنت -أبقاك الله- لك تجار يعاملونك، وأنا أسألك أن تقرض لي من أحدهم هذا المبلغ وتُعطيه هذا الرهن.

فقال له الفضل: السَّمع والطاعة، ولكنَّ نجح هذه الحاجة أن تقيم عندي هذا اليوم.

(١) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٣٩. تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٤٣٦.

(٢) أنساب الأشراف، ج ٤، ص ١٢٢.

فأقام، ثم إن الفضل أخذ السّفط منه وهو مختوم بختمه. وأرسل معه ألف ألف درهم، ونفّذ الدراهم والسّفط إلى منزله، وأخذ خطّ وكيله بقبضه، وأقام محمّد في دار الفضل إلى آخر النهار، ثم انصرف إلى داره، فوجد السّفط ومعه ألف ألف درهم، فسّر بذلك سرورًا عظيمًا.

فلما كان الغد بكر [محمّد] إلى الفضل ليشكره على ذلك فوجده قد بكر إلى دار الرّشيد فمضى محمّد إلى الرّشيد، فلما علم الفضل به خرج من باب آخر ومضى إلى دار أبيه فمضى محمّد إليه وشكره على فعله. وقال له: إنّي بكرت إليك لأشكرك على إحسانك.

فقال له الفضل: إنّي فكّرت في أمرك فرأيت أنّ هذه الألف ألف التي حملتها أمس إليك لتقضي بها دينك، ثم تحتاج فتقترض، فبعد قليل يعلوك مثلها، فبكرت اليوم إلى أمير المؤمنين وعرضت عليه حالك، وأخذت لك مائة ألف ألف درهم أخرى، ولما حضرت إلى أمير المؤمنين خرجت أنا بباب آخر. وكذلك فعلت لما حضرت إلى باب أبي، لأنّي ما كنت أؤثر أن ألقاك حتّى يُحمل المال إلى منزلك، وقد حُمل...»^(١).

حُمل ثلاثة ملايين درهم إلى دار محمد بن إبراهيم في ذلك النهار.

ماذا تعني هذه القصة التي ذكرها المؤرخون؟

إنها تعني:

أولاً: إن الوضع الذي كان يعيشه المسلمون في أيام الرّشيد كان وضعاً متميزاً بزيادة الموارد المالية، وبتكدّس الثروات الطائلة في أيّد معدودة جداً من البيت العباسي وأصحابهم البرامكة^(٢) والمتنفعين من النظام العباسي.

(١) الفخري، ص ٢٠٢.

(٢) البرامكة، نسبة إلى آل برمك الوزراء، كالمهالبة والمرازمة اسم محلّة ببغداد وقرية. معجم البلدان، ج ١، ٣٦٧.

ثانياً: إن هذه المجموعة الصغيرة من المتربّعين على الكراسي كانوا يتلاعبون بأموال الناس كما يتلاعب الصبيان بالكرة.

وبتعبير آخر كانوا يتلاعبون بمصير أمة لا تغرب عنها الشمس، ويتلاعبون بقوت أناس دخلوا الإسلام لكي يتخلّصوا من جور الطغاة الكفرة، فرأوا أن الحكام المسلمين ليسوا بأفضل من غيرهم.

هناك رجل اسمه الوليد بن الطريف الشاري الشيباني^(١)، ثار سنة ١٨٧ هـ، في منطقة تُسمّى نصيبين، ثم في أرمينية، ثم أذربيجان. وهذه المناطق كانت واحدة من الناحية الإدارية، فقتل والي نصيبين التي كانت المركز الإداري لهذه المقاطعة وأخذ الحكم، فبعث إليه هارون الرشيد بيزيد بن مزيد، وهو أحد القادة العسكريين الكبار، مع جيش كثيف جداً فحاربه^(٢)، وكان الوليد بن طريف ينشد في معركته هذه الأبيات:

أنا الوليد بن طريف الشاري قسورة لا يصطلي بناري
جوركُم أخرجني من داري^(٣)

إن هذه الأرجوزة تدل على طبيعة الظلم والحرمان الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية آنئذٍ، وأكثر العلويين الذين خرجوا لقتال بني العباس كان همّهم الأول هو رفع الحرمان عن الناس.

كانت امرأة تستجدي في شوارع الكوفة، وكانت تتبع أحمال الرطب فتلتقط ما يسقط منه فتجمعه في كساء رث عليها، فمرّ بها محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم وهو ابن طباطبا بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام وهو صاحب أبي السرايا، فسألها عما تصنع بذلك، فانتسبت، فإذا بها من عائلة شريفة من أبناء

(١) ابن الصلت التغلبي الشيباني، نائر من الأبطال. كان رأس الشراة في زمنه. الأعلام، ج ٨، ص ١٢٠.

(٢) البدء والتاريخ، ج ٦، ص ١٠١. شذرات الذهب، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٣) الأغاني، ج ١٢، ص ٣٣٤.

المهاجرين والأنصار في الكوفة، أولئك الذين على أكتافهم وبجهودهم قامت الدولة الإسلامية.

ثم قالت: «إني امرأة لا رجل لي يقوم بمؤنتي، ولي بنات لا يعدن على أنفسهن بشيء، فأنا أتبع هذا من الطريق وأتقوته أنا وولدي.

فبكى بكاءً شديداً. وقال: أنت والله وأشباهك تُخرجوني غداً حتى يُسفك دمي»^(١).

لماذا قام العلويون بحركات استشهادية؟

إن كثيراً من الحركات العلوية التي انتشرت في أيام العباسيين كانت استشهادية، وكان أصحابها يعرفون أنها ستنتهي إلى الفشل، ولكن كانوا يضيّقون ذراعاً بالدنيا ولا يستطيعون الصبر لكي يمنحوا لأنفسهم الفرصة الكافية للتخطيط. لقد كانوا يثورون ويقتلون أنفسهم دفاعاً عن المحرومين.

في أيام الرشيد كانت الطبقة التي تحكم البلاد هي طبقة البيت العباسي، بفروعه المنتشرة، وطبقة العسكريين الكبار، والدهاقنة العلوج، الذين هم من القوميات غير العربية التي اعتنقت الإسلام، وتمتعت بعدالته، إلا أن رؤساء تلك الطوائف بقوا على وضعهم السابق، وأخذوا يستثمرون طاقات وجهود الفلاحين، والتجار وأصحاب المهن، والحرف الصغيرة، ويتعاونون ويتآمرون مع الطبقة الكبيرة، التي هي طبقة كبار التجار والملاكين وكبار العسكريين وعلى رأسهم وفي طليعتهم الطغاة العباسيون^(٢).

هؤلاء جميعاً كانوا يتعاونون في سبيل امتصاص واستعباد الطبقات المحرومة، بينما أكثر المسلمين كانوا يعيشون في حالة الحرمان. في مثل وضع كهذا كيف كان يجب على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أن يتصرف؟ وما هي خطته العملية؟.

(١) مقاتل الطالبين، ص ٤٢٦-٤٢٧.

(٢) انظر: حياة الإمام موسى بن جعفر، دراسة وتحليل، ج ٢، ص ١٩-٢٩.

الإمام عليه السلام يبعث الروح في الأمة

لقد عمل الإمام الكاظم عليه السلام على تنمية الوعي السياسي والديني عند الجماهير المحرومة من الفلاحين، والموالي، وصغار التجار، ومَن يصلح من عناصر النظام وليس أقطابه، ومن ثم تربية مجموعة من القادة الذين لا يبيعون أنفسهم للملذات ومغريات هذه الدنيا الزائلة.

فمثلاً نرى أن كثيراً من العلويين الذين كانوا بالأمس القريب ثواراً، والذين قُتل آباؤهم أو إخوانهم أو أقاربهم على يد العباسيين، قد وقعوا فريسة الإغراء المادي حيث كان العباسيون ما يفتنون يحاولون شراءهم بالمال، وكانت أموال الدولة آنئذٍ كثيرة، وكانوا يستطيعون أن يصرفوا الكثير منها في سبيل شراء الضمائر.

إن أحد أبناء أقارب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام هو الذي وشى به إلى هارون الرشيد، وتسبب في مقتل الإمام من أجل مائة ألف درهم، وكان هذا المبلغ يعني شيئاً كثيراً ذلك اليوم، لأن البيت الواحد كان يُبنى ببضع مئات من الدراهم فقط.

إنها كانت تكفيه وأولاده مؤونة الكد، هذا بالإضافة إلى المناصب التي كانت تُمنح لأمثال هؤلاء، فالرجل إذا كان مالياً للنظام فإنه قد يُصبح والياً على مصر، أو قائداً في المغرب، أو في بلاد فارس.

فالإغراء من قبل النظام كان ضخماً، وهذا الرجل كان يُفكر في نفسه أبقى مع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حيث الحرمان والمطاردة أم يعيش حياة الأغنياء المترفين؟.

جاء في رواية تاريخية أن «القميص يكون بين جماعة من العلويات يُصلِّين فيه واحدة بعد واحدة، ثم يرقعنه ويجلسن على مغازلهن عواري حواسر..»^(١).

(١) كان ذلك في زمن ولاية الجبار الشقي عمر بن الرخجي، الوالي من قبل المتوكل على المدينة المنورة، ومكة المكرمة، فقد منع الناس من البر بالعلويين، وكان يُنزل أقصى العقوبات بمن يبرّ بهم، وبقوا على هذه الحالة الصعبة والظليمة العظمى إلى أن قُتل المتوكل. انظر: مقاتل الطالبين، ص ٤٧٩.

هل يستطيع أن يعيش مع إمامه الحق هكذا أم ينساق مع الطغاة؟.

رُوي أن محمد بن إسماعيل لما حضر عند هارون الرشيد قال له: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ خَلِيفَتَانِ فِي الْأَرْضِ، مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ بِالْمَدِينَةِ يُجِبِّي لَهُ الْخُرَاجُ، وَأَنْتَ بِالْعِرَاقِ يُجِبِّي لَكَ الْخُرَاجُ؟! فَقَالَ: وَاللَّهِ! فَقَالَ: وَاللَّهِ.

قَالَ: فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ...»^(١).

بالطبع لقد كان هارون الرشيد يعرف هذا الوضع إلا أن العباسيين كسائر الحكام الديكتاتوريين تستخفهم الإثارات، والشواهد التاريخية تدل على ذلك، لذلك أثير هارون بكلام محمد وقدم له هدية مائة ألف درهم، وقرر قتل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بهذه الإثارة الرعناء.

ومرة كان السفاح جالساً في مجلس الخلافة، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وسبعون من بني أمية، وقد أكرم السفاح سليمان فدخل عليه سديف الشاعر فأنشده:

لا يغرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داءً دويًا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويًا
فالتفت سليمان وقال: قتلتني يا شيخ! ثم دخل السفاح وأخذ سليمان فقتل^(٢).

ودخل على أبي العباس -السفاح- شاعر آخر، وقد قدم الطعام، وعنده سبعون رجلاً من بني أمية فأنشده:

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل^(٣) من بني العباس
طلبوا وترهاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عشارًا واقطعن كل رقلة وغراس

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٣٩.

(٢) الفخري، ص ١٤٨. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٤٢٩.

(٣) جمع بهلول، وهو السيد الجامع لكل خير. لسان العرب: مادة (بهل).

ذَّلَّهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدِ مِنْهَا وَبِهَا مِنْكُمْ كَحَزَّ الْمَوَاسِي
وَلَقَدْ غَاضَنِي وَغَاضَ سَوَائِي قَرِيبُهُمْ مِنْ نِمَارِقٍ وَكَرَاسِي
أَنْزَلُوهَا بَحِثْ أَنْزَلَهَا اللَّهُ بَدَارُ الْهَوَانِ وَالْإِنْعَاسِ
وَاذْكُرُوا مَصْرِعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدٍ وَقَتِيلًا بِجَانِبِ الْمَهْرَاسِ
وَالْقَتِيلَ الَّذِي بَحْرَانُ أَضْحَى ثَاوِيًا بَيْنَ غَرَبَةٍ وَتَنَاسٍ^(١)
وَالْمَهْرَاسِ مَاءِ بِجَبَلٍ أَحَدٍ^(٢)، قُتِلَ عَنْده حمزة بن عبد المطلب^(٣) سيد الشهداء
ودفن. والقَتِيلَ بَحْرَانُ هُوَ إِبْرَاهِيمُ الْمُسَمَّى بِ(الإمام)، فَضْرَبَ أَبُو الْعَبَّاسِ
أَعْنَاقَهُمْ.

وهكذا كانوا يُستثارون، فالرجل حينما جاء وأثار هارون الرشيد فإذا به
يذهب شخصياً إلى المدينة لاعتقال الإمام، لأنه كان يعرف أن الإمام موسى بن
جعفر عليه السلام يمتلك سلطة روحية على جميع المسلمين، ويعرف أنه إذا بعث بأحد
قُواده ليأتي بالإمام فإن قائده قد يخونه ولا يُطيع أوامره.

هارون الرشيد يعتقل الإمام

وهنا قام هارون شخصياً باعتقال الإمام عليه السلام حيث ذهب إلى الحج، وجَهَّزَ
نفسه، وأخذ معه الجيوش والأموال، فأرهب الناس وطمَّعهم خوفاً من أي ردة
فعل يُبديها الناس تجاه ما ينوي عمله، يقول الراوي: «سأل الرشيد الإمام موسى بن
جعفر عليه السلام: أنت الذي تُبايعك الناس سرّاً؟»

(١) الفخرى، ص ١٤٩.

(٢) طالع: الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ١٦٩.

(٣) ابن هاشم [٥٤ ق هـ - ٣٣ هـ]، أبو عمار، عم النبي صلى الله عليه وآله، وأحد صناديد قريش وساداتهم في
الجاهلية والإسلام. شارك في غزوة أحد فقتله عبد اسمه وحشي الحبشي، بطلب وتحريض من
هند أم معاوية، وكان وحشي يقول: قتل خير الناس في الجاهلية، وشر الناس في الإسلام.
طالع: الأعلام، ج ٢، ص ٢٧٨. أنساب الأشراف، ج ١، ص ٩٠.

قال عليه السلام: انا إمام القلوب، وأنت إمام الجسوم»^(١).

ولم يجد هارون الرشيد بُدّاً من اعتقال الإمام الكاظم عليه السلام، فاعتقله وطلب تجهيز محمّلين، محمّل يذهب على طريق الكوفة، ومحمّل يذهب على طريق البصرة، لكي يعمي على كل من يريد تخليص الإمام، وكان قد جهّز المحمّلين ليلاً وراء السرّ ضمانة لعدم هياج الناس وثورتهم^(٢).

وهذا يدل على أن الوضع الذي كان يعيشه المسلمون آنئذٍ تميّز بأن الإمام عليه السلام كان يبعث الروح الإسلامية في الأمة، وفي أبنائها المحرومين، وكان الخلفاء يريدون تطميع الناس وإرشاءهم وشراء ضمائرهم، وتكوين مجموعة من المتزلفين والمرتزة حولهم ليحاربوا الأئمة عليهم السلام أصحاب الحق الشرعي.

إنّ بعث الوعي يعني القضاء على أهم عامل يستند إليه الحكام الظلمة، وهو تجهيل الناس وإعماء الحقائق عنهم، تارة بالإرهاب وأخرى بالإغراء.

ولم يكن الإمام الكاظم عليه السلام والحركة الرسالية يتوسّلون بشيء من ذلك في سبيل الوصول إلى الحكم، كما فعل العباسيون الذين قاموا باسم الدفاع عن مظلومية الناس، فعندما حكموا بقيت تلك المظلومية بل وتعدّدت أشكالها.

الإمام عليه السلام ينشد تغييراً حقيقياً

إن الإمام عليه السلام لم يكن يشتري الضمائر، أو يسلك تلك الأساليب المتلوية، بهدف الوصول إلى الحكم والاستيلاء على أموال المحرومين والمضطهدين وتوزيعها على كبار القادة، وبالطبع كان بإمكانه أن يفعل ذلك ولكنه كان حينها لا يختلف عن هارون الرشيد (والعاذ بالله) ولم يكن يُسمّى موسى بن جعفر إماماً معصوماً، وحاشا الإمام المعصوم أن يكون كذلك، لقد كان الإمام عليه السلام شخصية رسالية

(١) عبات الأنوار، ج ٢٣، ص ١١٥٠. إحقاق الحق، ج ١٩، ص ٥٤٣. ينابيع المودة، ج ٣، ص ٤٢٢. الحقائق من الصواعق، ص ٢٠٤.

(٢) راجع: بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٢١، باب أحواله عليه السلام في الحبس.

مؤمنة بأهداف ربّانية، وكان لديه فكر وتخطيط وبرنامج معين يريد أن يُطبقه في الأمة، لينصر المظلومين، ويجعل كلمة الله هي العليا. وهذه كانت قمة الصعوبة في عملية التغيير التي كان الأئمة عليهم السلام ينشدونها.

إنه كان تغييراً حقيقياً، ولم يكن مجرد ترديد شعارات أو بيان ألفاظ يتلاعب بها.

دولة الأدارسة

في عهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قامت عدة ثورات منها ثورة إدريس، وقد ذكرنا شيئاً عن إدريس الذي جُرح في (فخ) واستطاع أن يخرج إلى المدينة، ومنها يختفي فترة، ثم يذهب إلى مصر متنكراً مع حجاجها، ومنها تسلل حتى وصل إلى المغرب، وجمع البربر وكوّن هناك دولة سُمّيت بدولة الأدارسة، وكانت قوية. ولقد بعث هارون الرشيد بعدة قادة عسكريين من أمثال هرثمة بن أعين في مئات الألوف من الجنود لكي يُحطّموا دولة الأدارسة فما استطاعوا كسر أي قرن لها وبقيت صامدة. ولكن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لم يكن يُريد أن يكون دولة حتى كمثل دولة الأدارسة، وإنما كان يهدف إلى تغيير الأمة الإسلامية كلها، وذلك بإعطاء المحرومين قوّةً وتنظيماً، وإشباعهم بقيم معينة حتى يقوموا بالثورة على السلطة الطاغوتية الظالمة.

إن الإمام كان يريد أن يكون مجموعة من الناس ذوي عقيدة راسخة، فبالرغم من وجود الإمام موسى بن جعفر عليه السلام محبوساً في سجن السندي بن شاهك، الذي كان مظلماً وقد منع السندي بن شاهك اتصال أي أحد بالإمام^(١)، لكن مع ذلك كان الإمام -وبطرقه الخاصة- يتّصل بالرساليين في بغداد، ويُعطيهم الأوامر،

(١) روى أبو عبدالله الخصيب [ت: ٣٣٤] في الهداية الكبرى، ص ٢٦٥، أن الرشيد ألزم السندي بإبقاء الإمام في سجنه ويُطبق عليه الباب إلا من الطعام والوضوء.

ولدينا روايات عديدة بأن الإمام عليه السلام كان على اتصال بهؤلاء^(١)، إلا أن بعض الناس يُفسرون اتصال الإمام عليه السلام بأنه كان اتصالاً غيبياً، بمعنى أن الإمام وبطريقته الغيبية يفتح السلاسل من يديه ورجليه ويخرج، ثم يذهب للاتصال بجماعته في بغداد، وإعطائهم الخطط والأوامر ثم يرجع إلى سجنه.

ونحن نستبعد ذلك، لا لأن الأئمة عليهم السلام لا يستطيعون أن يقوموا بمثل هذه الأمور بإذن الله، فربما يُسخّر الله تعالى بمشيئته كل القوى والقدرات لوليّه متى يشاء، وكيف يشاء، وإنما لأن الأئمة عليهم السلام لم يكونوا يُريدون تغيير الأمة عن طريق الغيبات.

وإلا لكانت القضية في غاية البساطة، فالإمام عليه السلام يرفع يده بالدعاء إلى الله أن يقضي على هارون الرشيد ويحيى وفضل والسندي بن شاهك وعيسى، فيستجيب الله دعاءه، فيأتي ويحكم البلاد كأبسط ما يكون.

فقد كان الإمام يسير بالسنن الطبيعية في التغيير كما هي رسالة الأنبياء والرسل عليهم السلام، التي تعمل على تغيير الأمة خطوةً بخطوة، وبذلك ترتقي نحو الكمال حتى يكون الناس هم الذين يطبقون الأحكام والقيم، والإمام كبشر يعطي من طاقته ومن علمه ومن تقواه لهذه الأمة المحرومة ما يعطيها القوة، ويُمكنّها من القيام والنهوض وفق القوانين والشروط الطبيعية.

وهذا يدل على أن الإمام كان يتّصل بالموالين بطرق عادية، كما يدل على تفاني الموالين، فكان الواحد منهم مثلاً يصبح خادماً عند السندي بن شاهك لفترة طويلة،

(١) روى العلامة المجلسي رحمته الله أن هند بن الحجاج كان ممّن اتّصل بالإمام عليه السلام، وأيضاً: ياسين الضير، وله كتاب مروي عن الإمام عليه السلام، ومثله إبراهيم المروزي له كتاب سمعه من الإمام خلال فترة سجن الإمام عليه السلام، وأيضاً مبارك بن يزيد (أبو يوسف) كان يزور الإمام في الليل، كما كانت رسائل علي بن سويد تصل إلى الإمام وهو يتلقى الجواب، وكان بعضها يطول أشهراً للوضع الأمني كما تشير لذلك جملة من الروايات. راجع: الكافي، ج ٢، ص ١٢٤. بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٤١-٢٤٢. رجال النجاشي، ص ٢٧٦.

حتى يثق به، فيستطيع الوصول إلى سجنه ويتصل بالإمام، ويكون حلقة الوصل^(١) بينه وبين المواليين في بغداد. وهذه هي الطريقة التي كان الإمام عليه السلام ينشدها، وهي نهوض الأمة بتفجير طاقاتها من الداخل.

والواقع أن استمرار سيطرة الطغاة قد يكون بسبب غياب الناس عن الساحة، وذلك حين يكون تناقض النظام الطاغوتي بذاته سبباً لضعفه، ذلك لأن الدولة التي تقوم على أكتاف مجموعة من القادة العسكريين أو القادة السياسيين أصحاب المصالح والأهواء سرعان ما تتعارض مصالحها بعضها مع بعض. لننظر كم حرباً وقعت في أيام العباسيين، سواء بين العباسيين أنفسهم أو التي وقعت بينهم وبين أعدائهم.

فمثلاً، الرشيد قتل ابن أخيه عيسى، ونكّل بجعفر البرمكي، ونكّل بالفضل وبمحمد وبموسى، وسجن يحيى، وقتل كل من كان حول يحيى. وكان يحيى البرمكي حينها الشخص الثاني في الإمبراطورية الإسلامية. وإن قتل جعفر البرمكي، والتنكيل بالبرامكة، لم يكن شيئاً هيناً، فقد كان سبباً لسقوط رؤوس عديدة بعد سقوط رأسه.

إن طبيعة الأوضاع تدل على أن جعفر البرمكي لم يذهب وحده، وإنما سحب وراءه مجموعة كبيرة ضخمة من قواده وندمائه وجماعته، وقد سُميت هذه الحادثة (بنكبة البرامكة) التي تشاءم الناس منها^(٢).

إن العالم الإسلامي كان يموج بالسخط والاستياء، وكان يُعبر عن سخطه تجاه الخلافة العباسية عبر الحركات المتعددة، وهذه الحركات كان يجمعها قاسم

(١) هو بشار مولى السندي بن شاهك، وكان في أول أمره من أشد المبغضين للإمام عليه السلام لكن حاله تغير فيما رواه عن نفسه، وكان يمثل لأمر الإمام في مثل هذه المهام. راجع بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٤١.

(٢) لاحظ: الفخري، ص ٢٠٧. تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١٢٦. مروج الذهب، ج ١، ص ٢٨٥. المنتظم، ج ٩، ص ١٢٦-١٤٣-٢٠٩.

مشارك هو السعي لإسقاط السلطة العباسية وإقامة حكم شرعي عادل، فمرة يقوم يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام في الديلم، وأخرى يقوم أخوه إبراهيم في العراق، ثم يقوم محمد أخوهما الآخر، ومن بعده الحسين بن علي صاحب فخ في الحجاز ثم يقوم إدريس في المغرب العربي.

إن الأئمة المعصومين عليهم السلام لم يكونوا يريدون إقامة مثل هذه الدويلات، وإنما كانت لهم أهداف أبعد، وهي رفع مستوى الأمة ووعيها وتنظيمها حتى تكون جدرة بالحرية والمحافظة عليها وجدرة بحكم نفسها.

لهذه الأهداف عمل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وهذه الأهداف استشهد، وبقيت نهضته مشتتة، وهي التي دفعت بالمأمون العباسي إلى أن يبعث إلى الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ويأتي به من المدينة إلى خراسان ويجعله ولياً لعهد^(١).

وهكذا كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي عاش في فترة كانت الأمة الإسلامية قد وصلت يومذاك إلى قمة مجدها المادي، وكانت الأموال تُجبي إلى العاصمة من كل مكان، حتى أن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول: «أذهبي إلى حيث شئت يأتي خراجك»^(٢). وكان الحكام والأغنياء، يملكون الضياع والأموال والعييد والجواري بلا حساب، ويتمتعون بحياة مرفهة، ويمارسون البذخ والإسراف العجيب.

فما هي وظيفة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في هذا الوضع؟

هل وظيفته تنحصر في إسقاط هارون الرشيد، باعتبار أن هارون الرشيد هو رأس الدولة الفاسد، وقد امتد فسادُه إلى جسم الأمة أيضاً؟

إن وظيفة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الأساس كانت تنمية الروح الدينية في الأمة، لذلك عندما كان الإمام عليه السلام يُسجن فإن سجانيه لم يملكوا إلا أن يتأثروا

(١) تقرأ تفاصيلها في الصفحات القادمة بإذن الله.

(٢) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج ١، ص ١٩٤. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٣، ص ٢٨٥.

بحياته، ويتشبعوا بالمبادئ والأخلاق التي كان يُجسِّدها من خلال سلوكه وعبادته ودعائه ومناجاته لله سبحانه وتعالى.

وقد بعث هارون الرشيد رسالة إلى ابن عمه في سفك دم الإمام عليه السلام وإراحته منه. وكان ابن عمه عيسى بن جعفر بن أبي جعفر العباسي، والياً من قبله على البصرة.

فكتب عيسى بن جعفر إلى الرشيد يقول: «يا أمير المؤمنين، كتبت إليّ في هذا الرجل وقد اخترته طول مقامه في حبسي بمن حبسته معه عيناً عليه لتنظروا حيلته وأمره وطوبته بمن له المعرفة والدراية ويجري من الإنسان مجرى الدم، فلم يكن منه سوء قطّ، ولم يذكر أمير المؤمنين إلّا بخير، ولم يكن عنده تطلّع إلى ولاية ولا خروج ولا شيء من أمر الدنيا، ولا قطّ دعا على أمير المؤمنين ولا على أحد من الناس، ولا يدعو إلّا بالمغفرة والرحمة له ولجميع المسلمين، مع ملازمته للصيام والصلاة والعبادة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُعفيني من أمره ويُنفذ من يتسلّمه مني وإلّا خلّيت سبيله، فإني منه في غاية الحرج»^(١).

ثم يأتي به ويضعه عند رئيس الشرطة في بغداد، وكان الوزير فيها الفضل بن الربيع، فقال الفضل أيضاً: «إني أتفقده الليل والنهار فلا أجده في وقت من الأوقات إلّا على الحال التي أخبرك بها، إنه يصلي الفجر فيعقب ساعة في دبر الصلاة إلى أن تطلع الشمس ثم يسجد سجدة فلا يزال ساجداً حتى تزول الشمس، وقد وكل من يترصد له الزوال فلست أدري متى يقول الغلام قد زالت الشمس إذ يثب فيبتدئ الصلاة من غير أن يُحدث، فأعلم أنه لم ينم في سجوده ولا أغفى، ولا يزال إلى أن يفرغ من صلاة العصر، فإذا صلى سجد سجدة فلا يزال ساجداً إلى أن تغيب الشمس، فإذا غابت الشمس وثب من سجده فصلّى المغرب من غير أن يُحدث حدثاً، ولا يزال في صلاته وتعقيبه إلى أن يُصليّ العُتمة، فإذا صلى العُتمة أفطر على

شوى يؤتى به، ثم يجدد الوضوء، ثم يسجد، ثم يرفع رأسه، فينام نومته خفيفة ثم يقوم فيجدد الوضوء ثم يقوم، فلا يزال يصلي في جوف الليل حتى يطلع الفجر، فلست أدري متى يقول الغلام إن الفجر قد طلع إذ قد وثب هو لصلاة الفجر، فهذا دأبه منذ حُول إليّ..

فقلت -عبدالله الغروي- اتَّقِ الله ولا تحدثنَّ في أمره حدثًا يكون فيه زوال النعمة، فقد تعلم أنه لم يفعل أحد بأحد منهم سوءًا إلا كانت نعمته زائلة.

فقال الفضل: قد أرسلوا إليّ غير مرة يأمروني بقتله فلم أجبهم إلى ذلك، وأعلمتهم أني لا أفعل ذلك ولو قتلوني ما أجبتهم إلى ما سألوني^(١).

إذن فالإمام كان يبثُّ الروح التوحيدية الحقّة عبر صلواته ومناجاته ودعواته وقيامه في الليل، ويربّي بذلك مجموعات من الناس ليكونوا طلائع العمل الرسالي.

اقرأوا رسالة الإمام عليه السلام إلى هشام بن الحكم^(٢)، التي هي وحدها كافية لتربية الإنسان تربية متكاملة، ولو أن إنساناً آخر ألقى بهذه الوصية على هشام، فقد لا يتأثر بها. أما الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فإنه استطاع أن يبثّها في روح هشام، وربما كان للإيحاء النفسي في هذه الوصية تأثير أكبر من عباراتها، لأن الإمام كان يجسّد تعاليمها في أفعاله قبل أن يلقيها كوصايا على هشام، والأكثر من ذلك الموالي الذين كانوا حول الإمام، والخدم، وكذلك أبنائه، كل واحد من هؤلاء بنظرته إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام تحوّل إلى رجل متدين، وهذه هي الوظيفة الأساس للأئمة عليهم السلام.

وربما يقول أحدنا: كان الواجب على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أن يُخفي نفسه ويكون حركة سرية ويبدأ العمل السياسي. إن هذا في الواقع عمل مهم ولكن الإمام قد وكل أمر هذه الوظيفة إلى أناس غيره، وقد تحدثنا سابقاً عن التنظيم

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) رسالته عليه السلام في العقل، طالع: الكافي، ج ١، ص ١٣. تحف العقول، ص ٢٨٢-٢٩٧.

الرسالي الذي توسّع في عهده.

ان أعظم دور قام به الأئمة المعصومون عليهم السلام، هو القيادة الروحية للأمة، لذلك فرضوا أنفسهم بصورة طبيعية حتى على أعدائهم، فمثلاً المنصور الدوانيقي هو الذي قتل الإمام الصادق عليه السلام، ولكن مع ذلك وبعد وفاة الإمام تراه يبكي بكاءً مرّاً ويقول لأحد رجاله، وهو أبو أيوب الحوزي: «هَذَا كِتَابُ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ يُخْبِرُنَا أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ قَدْ مَاتَ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ - ثَلَاثًا - وَأَيْنَ مِثْلُ جَعْفَرٍ؟»^(١).

والإمام موسى بن جعفر عليه السلام قام أيضاً بهذا الدور، بينما كانت الأمة الإسلامية مُبتلاةً برجل كهارون الرشيد الذي كان يحتفظ في قصره بمئات الجواري، وتلبس جواري زبيدة زوجته أحذية من ذهب، وفي عهده كان البرامكة وما اشتهروا به من إسراف.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣. أعلام الوري، ص ٢٩٨. مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٣٢٠.

— ﴿ صَفْوُ الْكَلَامِ ﴾ —

* تميّز عصر هارون الرشيد بتكدّس الثروة الهائلة بيد السلطة التي كانت تغدق منها على شراء الدّم وإسكات أصوات المعارضة بالقدر الممكن. بينما كان الكثير من الناس يعيشون الفقر والمسكنة.

* إن الحركات العلوية انتشرت في أيام العباسيين، وكان هدفها الدفاع عن المحرومين.

* وقد عمل الامام الكاظم عليه السلام على تنمية الوعي السياسي والديني عند الجماهير المحرومة، وتربية مجموعة من القادة الذين لا يبيعون أنفسهم لمغريات الدنيا.

* إن بعث الوعي يعني القضاء على أهم عامل يستند إليه الظلمة، وهو التجهيل وإعماء الحقائق.

* وبالرغم من سجن الإمام في سجون رهيبة إلا أنه كان يتصل بالرساليين بطرقه الخاصة ويوجههم ويقودهم في مواجهة السلطة.



٩ | تَطَوُّرُ الْحَرَكَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ

كان للإمامين محمد الباقر، وجعفر الصادق عليهما السلام صحابي جليل اسمه: ميمون القداح^(١)، قيل بأنه قام بدور بارز في نشأة الحركة الاسماعيلية، حيث إنه -حسب هذا القول- ولأه الإمام الصادق عليه السلام على حفيده محمد بن إسماعيل ليربيه^(٢). وميمون القداح هذا كان من أصحاب الإمام الباقر، ومن بعده الإمام الصادق عليهما السلام، فقد روى عنهما روايات كثيرة، كما أنه كان تاجراً، وكان دوره كبيراً

(١) ميمون بن الأسود القداح المكي، مولى بني مخزوم، الثقة كما في هداية المحدثين، ص ١٠٦، عُدَّ من أصحاب الإمام الصادق، وله روايات عدة عنه عليه السلام، أنظر: قاموس الرجال، ج ١٠، ص ٣٢٦. مستدرک سفينة البحار، ج ١٠، ص ٦١٠. وورد في حقه رواية دالة على مكانته وجلالة قدره ومعرفته لمقام الإمام عليه السلام، كما في الكافي، ج ١، ص ٤٠٠، روى سلام بن سعيد المخزومي، قال: «بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ بَنٍ كَثِيرٌ، عَابِدُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَابْنُ شُرَيْحٍ فَقِيهُ أَهْلِ مَكَّةَ، وَعِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام مَيْمُونُ الْقَدَّاحِ، مَوْلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فَسَأَلَهُ عَبْدُ بَنٍ كَثِيرٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فِي كَمْ ثَوْبٍ كُفِّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ عليه السلام: فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ، ثَوْبَيْنِ صُحَارِيِّينَ، وَثَوْبٍ حَبْرَةٍ. وَكَانَ فِي الْبُرْدِ قِلَّةٌ، فَكَأَنَّمَا أَرْوَرُ (عدل وانحرف) عَبْدُ بَنٍ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِنَّ نَخْلَةَ مَرْيَمَ عليها السلام إِنَّمَا كَانَتْ عَجْوَةً، وَنَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَا نَبَتَ مِنْ أَصْلِهَا كَانَ عَجْوَةً، وَمَا كَانَ مِنْ لُقَاطٍ فَهُوَ لَوْنٌ. فَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَبْدُ بَنٍ كَثِيرٌ لِابْنِ شُرَيْحٍ: وَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا هَذَا الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَهُ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ. فَقَالَ ابْنُ شُرَيْحٍ: هَذَا الْغُلَامُ يُخْبِرُكَ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، يَعْنِي مَيْمُونٌ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ مَيْمُونٌ: أَمَا تَعْلَمُ مَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: لَا؛ وَاللَّهِ. قَالَ: إِنَّهُ ضَرَبَ لَكَ مَثَلَ نَفْسِهِ، فَأَخْبَرَكَ أَنَّهُ وَلَدٌ مِنْ وَلَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعِلْمُ رَسُولِ اللَّهِ عِنْدَهُمْ، فَمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِمْ فَهُوَ صَوَابٌ، وَمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِمْ فَهُوَ لُقَاطٌ».

(٢) طالع: زهر المعاني للداعي أدریس القرشي، ص ٢٠٠.

إلى حدّ اعتبره بعض المؤرخين المؤسس الحقيقي للحركة الإسماعيلية^(١).

كان عُمرُ محمد^(٢) بن إسماعيل (١٦) سنة، حين بدأ ميمون القداح - حسب بعض الروايات - يأخذ البيعة له، فاجتمع الناس حوله ورشّحوه إماماً لهم، وبقي محمد فترة من الزمن في المدينة المنورة إلى أن حكم هارون الرشيد، فسجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وبعدئذٍ أمر بالقاء القبض على محمد، وكان من مُبرّرات ذلك أنه كان يدعو الناس إلى نفسه ويجمع حوله الأنصار والأموال ويريد القيام ضد السلطة.

فاختفى محمد، ثم خرج من المدينة، وأخذ ينتقل من بلد إلى بلد، فمن المدينة انتقل إلى بلاد الري مع دعائه، حيث كان الحاكم إسحاق بن موسى الفارسي^(٣) من الإسماعيليين العريقين. ثم انتقل إلى نهاوند، ثم إلى مدينة تدمر في سورية، حيث تُوفي فيها بعد أن اتخذها الإسماعيليون مركزاً لهم. وأرسل دعائه إلى المغرب العربي،

(١) طالع: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١٣٩.

(٢) الإمام السابع المتمم للدور السادس، والأول من الأئمة الإسماعيلية المستورين. انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١١٧. ظل في أكثر حياته مستوراً عن أعين الناس بسبب الضغوط وطلب العباسيين له، كما ينقل ذلك الباحث الإسماعيلي الدكتور عارف تامر في كتابه: تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١١٨، عن مؤلف كتاب: فصول وأخبار: «بعد أن اشتد الضغط على الإمام محمد بن إسماعيل خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوباً بأخيه الأصغر (علي)، فبقي فترة فيها مستتراً عن العيون بعيداً عن الإرصاء فترة من الزمن، ولما عرف أن العباسيين عرفوا بمقرّه سار إلى الري، واستقر عند أحد دعائه السريين المسمى (إسحاق بن موسى)... وبعد مدة قال له إسحاق: إن العباسيين قد بثوا العيون في كل مكان، وأخشى عليك منهم، فإن رأيت أن تخرج إلى الجبل، وتعتصم بقلعة نهاوند عند تابلك منصور بن حوشب، فعمل بإشارته وبعد ذهابه.. ثم أعلمه سرّاً بضرورة سفره من نهاوند، لأن الرشيد يودّ القبض عليه، فخرج مستتراً تحت جناح الظلام إلى نيسابور، ومنها إلى فرغانة ثم إلى عسكر مكرم،.. وعندما اشتد الطلب والضغط عليه من قبل المأمون اضطر إلى الذهاب إلى تدمر في بلاد الشام».

(٣) موسى بن إسحاق بن موسى بن عبد الله الانصاري، من أمراء بني العباس، كوفي، فقيه، مقرئ، فصيح، كثير السماع، ولي قضاء الري، ثم قضاء الأهواز واستمر إلى أن مات. انظر: الأعلام، ج ١، ص ٧٥. طبقات الفقهاء، ج ٣، ص ٥٩١.

وكان يقال: إن لمحمد بن إسماعيل سر داباً بداره يختفي فيه خوفاً من أعوان الرشيد^(١).

ومن بعده بايع الإسماعيليون ابنه عبدالله^(٢) بن محمد بن إسماعيل الملقب بـ (أحمد الوفي)، أو (وفي أحمد)، الذي عاصر المأمون العباسي، وكان من أساليب السرية لديه، ما رُوي أنه كان يملك سر داباً في بيته مُتصلاً عبر نفق واسع بالصحراء المحيطة بمدينة السلمية^(٣)، حيث «كانت الأموال والذخائر تحمل على الجمال فيفتح لها باب السرداب في الليل، وتنزل بأحمالها عليها حتى تحط في داخل الدار وتخرج في الليل ثم يهال على باب السرداب بالتراب فلا يدري به أحد»^(٤)، وقد كانت السلمية في مكان وسط من الناحية الجغرافية وقريبة من العراق.

وقد تميَّز عصر المأمون العباسي كما هو معروف، بالفلسفة المترجمة من الفكر اليوناني والفارسي القديمين والهندوكية القديمة. وانتشرت هذه الفلسفة في أوساط المسلمين انتشاراً واسعاً، ومن هنا بدأ أحمد بن محمد بن إسماعيل بتأليف ونشر ما سمي برسائل (إخوان الصفا وخلان الوفاء)، التي كتبها أحمد إما بنفسه^(٥)، أو أمر بعض دعائه الكبار بأن يكتبوها، ثم ألقى عليها نظرة أخيرة^(٦)، وأمر باقي الناس

-
- (١) انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١١٧-١١٩. تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١٣٠-١٣٩.
- (٢) هو الإمام الثامن بحسب تسلسل الإمامة عند الإسماعيلية، ولكنه بحسب تسلسل الأئمة المستورين يكون الثاني، ولد سنة ١٥٩ هـ، في مدينة محمد آباد، بعد وفاة أبيه تولى شؤون الإمامة عام ١٩٣ هـ، سكن السلمية عام ١٩٤ هـ، فقام بتنظيم الدعوة تنظيمًا دقيقاً. توفي عام ٢١٢ هـ. دفن في مدينة مصياف وله فيها ضريح. انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١٣٠-١٣٢.
- (٣) السلمية: قضاء في سورية بمحافظة حماة شرقي نهر العاصي فتحها العرب في سنة ٦٣٦ م، وهي مركز الإسماعيلية، انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ج ٤، ص ١٨٧٧.
- (٤) تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١٤٩، نقلاً عن: سيرة جعفر الحاجب (مخطوط)، ص ١٧.
- (٥) انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١٣١.
- (٦) انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١٤٩. وقال: «اجتمعت طائفة من العلماء الإسماعيلية، وألفوا اثنتين وخمسين رسالة فلسفية عرضوها على الإمام أحمد الوفي فساها (رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء)».

من أتباعه وجماعته من أبناء حركته بأن يستنسخوا هذه الرسائل وينشروها، وهو الأرجح بالنسبة لنا، وتقع هذه الرسائل حالياً في أربع مجلدات^(١).

رسائل إخوان الصفا.. منهج فكري للحركة

وتحتوي رسائل إخوان الصفا كثيراً من الأفكار العقائدية حول علم الكلام والسياسة والأخلاق، وفي شتى المجالات الأخرى المختلفة. وهي على شكل دروس حركية كانت تُلقى في الحلقات الخاصة التي كانت لكبار دعاة الإسماعيلية في البلاد الإسلامية. وكان من أولاد أحمد، الخلفاء الإسماعيليون (الفاطميون) في مصر والمغرب العربي، وقد كانت الحركة الإسماعيلية على جانب كبير من دقة التنظيم وسرية العمل.

أما (الإمام) فقد كان عندهم أعلى سلطة في الدعوة وأرفعها، وهي مصدر كل قانون أو تنظيم أو تشريع. ويأتي بعده في الترتيب: (الحجة أو الباب)، ورتبته تلي رتبة الإمام مباشرة، فهو نائب الإمام، ويشغل هذا المنصب ولي عهد الإمامة، أو أحد الأقرباء المقربين الضالعين بالعلوم. أما (داعي الدعوة)، فهو: الرئيس والمسؤول الأول أمام الحجة عن توزيعات الدعوة في الأقاليم. و (داعي البلاغ)، وهو المسؤول الأول عن تبليغ الأوامر التي يرسلها داعي الدعوة إلى الأقاليم. فهو رئيس القلم ومحرر الرسائل وكاتب البلاغات. وهناك أيضاً (الداعي المطلق، أو النقيب)، فهو الداعي الذي يصل إلى مرتبة يُصبح له من الصلاحية ما يؤهله للسفر إلى الأقاليم. ويأتي بعده (الداعي المأذون) فهو يتبع الداعي المطلق ويُعاون، ومن ثم يأتي (الداعي المحصور) فهو يتولى الدعوة في منطقة معينة لا يتعداها فهو محصور

(١) يضم الجزء الأول أربعة عشر رسالة، في الرياضيات، والهندسة، والفلك، والفنون العلمية والمنطق. أما الجزء الثاني فإنه تناول الطبيعيات تماماً على النحو الأرسطي. والثالث حوى عشر رسائل فيما وراء الطبيعة. أما الرابع تناول الإلهيات، وما يتصل بالديانات، والشرائع.. وعدد رسائل الأجزاء الأربعة (إحدى وخمسون) رسالة. وهي مقدمة ومدخل إلى رسالة (الجامعة)، وهي خلاصة العلم، وغاياته التي ينتهي إليها (إخوان الصفا). انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١٤٢. انظر: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، الصادر عن دار بيروت، سنة ١٤٠٣ هـ.

فيها حتى يأذن له داعي الدعاة بالانتقال إلى غيرها. أما (الجناح الأيمن، والجناح الأيسر) فيقدمان للداعي المطلق الخدمات أثناء جولاته في الأقاليم ويمدانه بالمعلومات. أما (المكاسر) فهو الداعية الذي كان في الأصل مكالباً، ثم تفقّه في الدعوة وتفقّ فيها. أما (المكالب) فوظيفته التجسس ومعرفة الأخبار وجذب الناس إلى الدعوة. أما (المستجيب) فهو المنتسب حديثاً إلى الدعوة الإسماعيلية^(١).

فمن هذا يظهر أن للحركة الإسماعيلية اثني عشر مرتبة وهي: إمام، حجة أو باب، داعي دعاة، داعي بلاغ، داعي مطلق أو نقيب، داعي مأذون، داعي محصور، جناح أيمن أو يد يمنى، جناح أيسر أو يد يسرى، مكاسر، مكالب، مستجيب.

ومن جملة أساليبهم التنظيمية أنهم كانوا يكتمون اسم الإمام، فالرجل كان يُصبح إسماعيلياً دون أن يعرف من هو إمامه، بل ولا يكشفون له اسم الحركة، واسم الدعاة، إلّا بعد أن يتدرج عبر مراحل، ويصل إلى مستوى معين، فبعدئذ يكشفون له عن اسم أحد الدعاة. ولذلك استطاعوا التسلل إلى المراكز الحساسة في الدولة، وفي بعض الفترات كان حاجب أحد الخلفاء إسماعيلياً. كانوا يكشفون للفرد المنظم قضايا الحركة بصورة تدريجية، فحين يصل الفرد إلى درجة معينة يكشف له عن اسم الداعي، وبعد ذلك يكشفون له عن اسم الحجة، وفي الأخير يكشفون له عن اسم الإمام^(٢).

منهج الغيبة عند الإسماعيلية

من التعليمات التنظيمية الداخلية عند الإسماعيلية أن إمامهم لا يكون ظاهراً، وهو ما يُعرف عندهم بالإمام المستور^(٣). فمنذ أن اختفى محمد بن إسماعيل، ومن بعده عبد الله بن محمد بن إسماعيل أو (أحمد الوفي)، أو (وفي أحمد)، لم يظهر أحد

(١) تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١٢٤-١٢٧ (بتصرف يسير). وأيضاً: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ٣٣-٣٤.

(٢) أنظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١٢٧-١٢٩.

(٣) أنظر: بحوث في الملل والنحل، ج ٨، ص ١٥.

منهم إلى أن حكموا مناطق من البلاد الإسلامية. فبينما نجد أئمتنا المعصومين عليهم السلام ظاهرين يدرّسون الناس ويؤجّجهم، ويعرف الناس بأن هذا إمام ويرونه بأعينهم، نجد إمام الإسماعيلية على العكس من ذلك مختفياً لا يدري به أحد، من هو؟ وأين هو؟ وماذا يعمل؟. فليس غريباً أن نجد أحد أئمتهم توفي في سورية^(١)، وآخر في القاهرة^(٢). ومما يدل على ذلك أن إمام الإسماعيلية، والرئيس الأعلى للحركة، كان يتلبس بلباس تاجر^(٣)، ويذهب إلى البلاد الأجنبية، وكان بعض أئمتهم يقومون بجولات استطلاعية، يعمل فيها لحركته بحرية وبعيداً عن أعين الرقباء^(٤). وقد تدركه المنية هناك حيث تنتقل مهام حركته إلى خليفته. وعلى سبيل المثال، كان أحمد بن عبدالله بن محمد يُدير حركته بشكل مباشر، ولا يُرسل نواباً عنه للمهام الأساسية، فإذا ما استدعى العمل حضوره في مكان ما، كان يقوم بنفسه بالذهاب إليه، ويلتقي بالدعاة ويؤجّجهم، كما كانت لأئمتهم أسماء حركية بعيدة عن أسمائهم الواقعية^(٥).

(١) كالإمام عبدالله بن محمد بن إسماعيل، تُوفي في سورية بـ(سلمية)، في سنة ٢١٢هـ، انظر: (تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١٣٢). وسلمية تقع بين حماة ورفنية. انظر: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٦٩.

(٢) توفي في مدينة بلبس الإمام العزيز بالله نزار، وحمل إلى القاهرة حيث دفن عند أبيه المعز، وكان ذلك في سنة ٣٨٦هـ. انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ٢٢٠.

(٣) انظر: ما ذكره القرمزي في: اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، ص ٦٠، في وصف حال خروج عبيدالله المهدي إلى المغرب: «فلما انتهى إلى مصر أقام مستتراً بزي التجار...».

(٤) روى المقرئ، فقال: «فخرج أبو عبدالله (المهدي) إلى مكة، وقد أعطاه ابن حوشب مالا، فلما قدم مكة سأل عن حجاج كتامة، فأرشد إليهم، واجتمع بهم، ولم يُعرفهم قصده، وذلك أنه جلس قريباً منهم....» تقرأ باقي الرواية في (اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء)، ج ١، ص ٥٥.

(٥) عرف أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل بين الناس بأنه أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح، وكان يقول للناس: إنه أحد دعاة الإمام المستور (أحمد بن عبدالله)، تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١٣٢. وعبيدالله المهدي، اسمه الحقيقي محمد رضي الدين عبدالله، واشتهر أيضاً بـ(أبي عبدالله الشيعي)، انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١٥٨. وأيضاً من اشتهر وعرف بين الناس بـ(الأهوازي)، واسمه الحقيقي الحسين بن أحمد بن عبدالله، كما كانت له علاقة وطيدة

بل يضعون أسماء دُعائهم على أنفسهم. وهذا من لطائف الحركة، فمثلاً: كان عبدالله، واحداً من كبار الدعاة قُوضِع اسمه على إمام زمانهم^(١).

فكانوا يتلاعبون بالأسماء في سبيل تحقيق مصالح حركتهم. وقيل عن التنظيم الإسماعيلي أيضاً: إنه كان للحركة هرم رأسه (الإمام)، وله أربعة من (الدعاة الأركان) هم حملة علم الإمام، الذين يقومون بتفسير كل الروايات والآيات تفسيراً سياسياً.

و(الدعاة الأركان) بدورهم مرتبطون بأربعة دعاة، وهؤلاء الدعاة لهم أمناء، والأمناء لديهم أيادي، والأأيادي عندهم أنصار يسمونهم بـ(إخوان الوفاء). والأخ هو ذلك الرجل الذي انتمى إلى حركتهم. أما سائر الناس فيُعتبرون جمهوراً، ويجب توجيهمهم.

وكانت الروح الفدائية، لدى أفراد الحركة الإسماعيلية، عالية جداً، باستلهاهم العزم والتضحية والفداء من بطولات كربلاء، وكثيراً ما يروي لنا التاريخ قصصاً تحكي موت الدعاة الكبار في الحركة تحت التعذيب، ولم يسجل أن أحدهم استسلم أو أفسى سرّاً من أسرار حركته^(٢).

علاقة الإسماعيلية بأئمة أهل البيت عليهم السلام

بعد هذا السرد المختصر لتاريخ الحركة الإسماعيلية، نتساءل: هل كان لهذه الحركة ارتباط وعلاقة مع قيادة الحركة الرسالية الإمامية، أم لا؟.

لقد أجبنا في البداية عن هذا السؤال بشكل مختصر حينما بيّنا أن ميمون القداح، وهو الذي يُعتبر العامل الرئيس في نشأة الحركة الإسماعيلية، هذا الرجل

بالدولة العباسية دون أن يتعرفوا عليه وعلى حقيقة شخصيته. انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١٣١.

(١) انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١٥٨-١٦٩.

(٢) انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ١، ص ١٢٣. تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ٢٥.

كان صاحب ومولى للإمام الباقر عليه السلام وأحد صحابة الإمام الصادق عليه السلام، وهو الذي استخلفه على حفيده محمد بن إسماعيل - حسب بعض المصادر التاريخية - وهذه الحقيقة تدل على واحد من أمرين:

الأول: إما أن يكون ميمون القداح، قد انحرف من المذهب الرسالي الجعفري، إلى المذهب الإسماعيلي المعروف. وهذا أمر مستبعد؛ لأن بعض فقهاء الشيعة نقلوا عنه الأخبار والأحاديث ووثقوه.

الثاني: أو أنه كان مكلفاً من قبل الإمام جعفر الصادق عليه السلام ومن بعده الإمام موسى الكاظم عليه السلام بتأسيس وتحريك طريقة معينة من العمل داخل الأمة الإسلامية في ذلك الوقت. وهذا ما نراه.

ولقد أثارت شخصية ميمون القداح موجة من التساؤلات بسبب حساسية موقعه من الحركة الإسماعيلية، ومغالة أبناء هذه الحركة في حقه، وجعله شخصية أسطورية. وأيضاً بسبب معاداة المعارضين لهذه الحركة الشديدة لميمون، الذي اتهموه بكافة التُّهم التي يفترها الطغاة ضد مؤسسي الحركات الثورية.

ونرى أن ميمون القداح لم يكن سوى واحداً من الموالين المتشبعين بروح الثورة، وقد وفر له قرب من الإمام الباقر ونجلاه الإمام الصادق عليه السلام فرصة كافية لمعرفة أصول الحركة الرسالية.

وحين كلفه الإمام الصادق عليه السلام بالإشراف على تربية حفيده محمد بن إسماعيل، الحبيب إلى قلوب العائلة المفجوعة بوفاة أبيه إسماعيل ابن الإمام الصادق عليه السلام البكر، بدأ بتأسيس حركة ثورية معارضة للنظام الطاغوتي، وهو لا يتحمل سلبات هذه الحركة، كما لا يتحمل الشهيد زيد بن علي عليه السلام سلبات الحركة الزيدية في التاريخ. وقبل أن نسر دبقية قصة ميمون نُلقِي نظرة خاطفة على نظرات كتب الرجال والتاريخ حوله، وذلك عبر ثلاثة مصادر رئيسة:

أولاً: عن كتاب جامع الرواة^(١) - الموثق عند فقهاءنا-، يقول عن ميمون القداح، ما يلي: «ميمون القداح مولى بني مخزوم المكي، مولى بني هاشم روى عنهما».

وأورد العلامة الأردبيلي رحمه الله عدداً من الروايات التي رواها ميمون القداح عن الإمام الباقر عليه السلام والتي هي موضع اعتماد عند علماء المذهب الاثني عشري.

منها: «عن علي بن الحكم، عن معاوية بن وهب، عن ميمون القداح، عن أبي جعفر عليه السلام، في باب أن من عفا عن حرم الناس، عفا عن حرمه، في أواخر كتاب النكاح. ابن القداح، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام. وفي باب كراهية أن يبيت الإنسان وحده، في (كتاب المروءة) عنه، عن أبيه ميمون، عن أبي جعفر عليه السلام فيه. وفي باب اتخاذ الإبل بعد كتاب الدواجن، عنه، عن أبيه ميمون، عن أبي عبد الله عليه السلام. وفي باب قسمة الغنيمة، عبد الله بن ميمون، عن أبان، عن ميمون القداح، عن أبي جعفر عليه السلام في باب النوادر في كتاب فضل القرآن»^(٢).

أما عن عبد الله بن ميمون القداح، فيقول عنه العلامة الأردبيلي: «عبد الله بن ميمون الأسود القداح كان يبري القداح، المكي مولى بني مخزوم، روى أبوه عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. وروى هو عن أبي عبد الله عليه السلام وكان ثقة. حدثني مهدي، عن أيوب بن نوح، عن صفوان بن يحيى، عن ابن خالد صالح القمط، عن عبد الله بن ميمون، عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا بن ميمون، كم أنتم بمكة؟»

(١) جامع الرواة.. وإزاحة الاشتباهات عن الطرق والإسناد، لمؤلفه العلامة الفاضل محمد بن علي الأردبيلي الغروي الحائري نشت (ت: ١١٠١ هـ)، عالم فاضل ومحقق ألمعي، وخبير رجالي، مختص في الأسانيد ورجالها، من تلامذة العلامة المجلسي رحمه الله والراوين عنه. وللوقوف على المكانة العلمية لكتاب (جامع الرواة)، انظر: مقدمة الجزء الأول من الكتاب، بقلم المرجع الكبير السيد حسين البروجردي نشت، وأيضاً فهرس التراث، ج ٢، ص ١١، و: كليات في علم الرجال، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) جامع الرواة، ج ٢، ص ٢٨٦-٢٨٧.

قلت: نحن أربعة. قال عليه السلام: أما إنكم نور الله في ظلمات الأرض؟»^(١).

ثم يُورد العلامة الأردبيلي رحمته عدة من الروايات التي رواها عبد الله بن ميمون القداح في أبواب الفقه المختلفة عن الإمام الصادق عليه السلام وعن أبيه عن الإمام الباقر عليه السلام^(٢).

ثانياً: أما المؤرخ المصري المقرئ فيقول عنه: «وقد وقفت على مجلد يشتمل على بضع وعشرين كراسة في الطعن على أنساب الخلفاء الفاطميين تأليف الشريف المعروف بأخي محسن^(٣) يقول فيه (كتابه الذي ردّ فيه على الإسماعيلية): إن هؤلاء القوم من ولد ديصان الثنوي، الذي تنسب إليه الثنوية... فَوَلَدَ ديصانُ هذا ابناً يقال له ميمون القدّاح.. وكان له مذهب في الغلو، فَوُلِدَ لهذا ابن يقال له عبدالله.. وكان عارفاً عالماً بجميع الشرائع والسنن وجميع علوم المذاهب كلها،... وولد له -عبد الله- ابن يقال له أحمد (وبعد أن مات)، فقام من بعده ابنه أحمد هذا في ترتيب الدعوة، وادّعى أنه من نسل محمد بن إسماعيل. ويؤكد أخو محسن أن عبدالله المهدي، أو محمد المهدي، هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح بن الثنوي الأهوازي، وأصلهم من المجوس».

ويرد المقرئ على هذا القول، فيقول: «إن بني علي بن أبي طالب عليه السلام، قد كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد وجلالة القدر عند الشيعة، فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم، والدعاء لابن مجوسي، أو لابن يهودي؟. فهذا ممّا لا يفعله أحمد، ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف، وإنما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفاء بني العباس عندما غصوا بمكان الفاطميين، فإنهم كانوا قد اتصلت دولتهم

(١) جامع الرواة، ج ١، ص ٥١٣-٥١٤.

(٢) جامع الرواة، ج ١، ص ٥١٤.

(٣) محمد بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام، ويكنّى بأبي الحسين، وقال في الهامش: علوي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع، وكان معاصراً للمعز لدين الله.

نحواً من مائتين وسبعين سنة، وملكوا من بني العباس: بلاد المغرب، ومصر، والشام، وديار بكر، والحرمين، فلاذت حينئذٍ لهم ببغداد نحو أربعين خطبة، وعجزت عساكر بني العباس عن مقاومته، فلاذت حينئذٍ بتفسير الكافة عنهم بإشاعة الطعن في نسبهم..^(١).

وبث ذلك عنهم خلفاؤهم، وأعجب به أولياؤهم، وأمراء دولتهم الذين كانوا يُحاربون عساكر الفاطميين كي يدفعوا بذلك عن أنفسهم وسلطانهم معرفة العجز عن مقاومتهم ودفعهم عمّا غلبوا عليه من ديار مصر والشام والحرمين، حتى اشتهر ذلك ببغداد، وأُسجل القضية بنفيهم من نسب العلويين.

وعندما عجزوا عن مقاومة الفاطميين والوقوف في وجههم أثناء حكمهم بلاد المغرب، ومصر، والشام، وديار بكر، والحرمين، واليمن، وبغداد^(٢)، عمدوا إلى الطعن في نسب الأئمة الفاطميين ليسودّوا صحائفهم، وليجروا الناس إلى كراهيتهم، وأن القضية الذين سجلوا شهادة الطعن على السماع في بغداد، كانوا من ألد أعداء الفاطميين، ومن أخلص شيعة بني العباس، ولم يُعرف عنهم التجرد والنزاهة والصدق، بل اشتهروا بكراهيتهم وبغضهم ونقمتهم على آل علي بن أبي طالب عليه السلام منذ ابتداء الدولة العباسية، فتأمروا عليهم، وطاردوهم، وبطشوا بهم أينما وجدوا.

ثالثاً: أما المستشرق الروسي، البروفسور فلاديمير إيفانوف^(٣)، فيستنتج من

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، ص ٢٢-٢٦. وأيضاً: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ٢٦-٢٨.

(٢) أخذ البساسيري لهم (أي للفاطميين) ببغداد سنة ٤٥٠ هـ وأقام فيها الخطبة للمستنصر الفاطمي، وفر الخليفة القائم بأمر الله العباسي، وشيّرت ثيابه وعمامته وغير ذلك إلى مصر.. وفي سنة ٤٥١ هـ أقيمت دعوة المستنصر بالبصرة وواسط وجميع تلك الأعمال، فقدم طغرل إلى بغداد وأعاد الخليفة القائم.. وقتل البساسيري الذي خطب أربعين خطبة في بغداد للمستنصر الفاطمي. المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤٣.

(٣) فلاديمير أليكسييفيتش إيفانوف [١٩٧٠-١٨٨٦ م]، يُعدُّ رائد الدراسات الإسماعيلية الحديثة.

بحوثه حول الإسماعيلية^(١):

- ١- أن ميمون القداح وولده عبد الله لم يكونا من الفاطميين أصلاً، ولم يجمعهما بهم أية صلة رحم.
- ٢- أنهما لم يكونا ديصانيين أو زنديقين، بل كانا فقيهين ورعين، وأن الدعوة السرية الإلحادية التي تُنسب إليهما لم تكن إلا من نسج الخيال.

ويرى إيفانوف أن الخلفاء الفاطميين أخفوا أنسابهم وفروع ذوي قرباهم، خوفاً من أعدائهم في البلاد الخارجة عن سلطانهم على أولئك الأقربين، وإن قصة ميمون القداح وولده هذه ما هي إلا أسطورة وخرافة.

ويُورد إيفانوف الأحاديث التي وردت في كتاب الكافي في علم الدين برواية عبدالله بن ميمون، ووالده ميمون بن القداح، والأحاديث التي رواها عبدالله، ونسبها إلى والده ميمون، وعددها مائة وخمسون حديثاً، منها مائة وثلاثون نقلت من كتاب الكافي والبقية نقلت من كتاب تهذيب الأحكام.

ويخلص إيفانوف إلى أن الأحاديث المذكورة توضح أن ميمون القداح كان على صلة بالإمام محمد الباقر عليه السلام، وهناك ما يدل على أنه كان ضمن خدم أسرة الإمام، وكان الإمام الباقر عليه السلام يصحبه في جولاته، وكان إذا سار استند إلى ابن القداح، ويستدل إيفانوف على ذلك بما ورد في الحديث الرابع، حيث يوصف ميمون القداح صراحة بأنه مولى الإمام محمد الباقر عليه السلام و غلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

ويستدل إيفانوف أيضاً ببعض الروايات السنية التي تصف عبدالله بن ميمون بأنه (مولى الإمام جعفر الصادق عليه السلام)، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية ينفي إيفانوف تهمة الإلحاد عن عبدالله بن ميمون، ويستدل على ذلك بأن اسمه ورد في كتب الحديث السنية، مثل ابن النجار المتوفى سنة ٦٤٣هـ، والذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ، وابن حجر المتوفى ٨٥٢هـ، وعبد الله الخزرجي الأنصاري المتوفى ٩٢٢هـ.

(١) نقلاً بتلخيص عن تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١٤٠.

ولم تنسب إليه في كتب السُّنة، أية دعوة بالإلحاد أو الزندقة، ويصفه أكابر رواة الحديث السُّنة بصفات مختلفة من ضعيف، وسقيم، ولكن لم يرمه أحد منهم بشبهة الإلحاد.

ومن ثَمَّ يستنتج أن ميمون القداح كان من الموالي، وكان مقيماً بمكة، وله أهمية محلية، وكان خادماً مخلصاً للإمام محمد الباقر عليه السلام، ثم ولده جعفر الصادق عليه السلام، ومن الممكن أنه كان تاجراً، وربما كان أيضاً مشرفاً على أملاك الأئمة عليهم السلام في مكة، وقد كان فيها يُعَدُّ رجلاً ذا شخصية، وكان له عدة أولاد منهم: عبدالله، وأبان، وربما إبراهيم. وكان ولده أبان عالماً يحفظ القرآن، وليس من المستحيل أن يكون أخوه عبدالله معلماً للكتابة وأنه دَوَّن خلال خدمته للإمام عليه السلام ما سمعه منه، وأن مجهوده -فيما يبدو- كان مقتصرأ على تدوين الأحاديث التي سمعها من الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وليس هناك ما يدل على أنه كان مشتركاً في أية حركة إلحادية^(١).

ونحن لا نشك في أن الحركة الإسماعيلية على ما هي عليه في الوقت الحاضر قد انحرفت تاريخياً، عن خطِّها الصحيح، بعد أن وقعت في تناقض موت إسماعيل قبل أبيه الإمام الصادق عليه السلام وبين إمامته في ظل إمامة الصادق عليه السلام.

كما لا نشك في أن الزيدية قد انحرفت هي الأخرى عن خطِّها الصحيح، ولا نشك أيضاً في أن كثيراً من فئات المواليين قد انحرفوا عن الخط الرسالي الصحيح الذي رسمه لهم الأئمة المعصومون عليهم السلام.

بيد أن انحراف أية حركة عن خطِّها الصحيح، لا يدل على أن هذه الحركة كانت منحرفة من أساسها، كما لا نستطيع أن نتخذ من انحراف بعض المسلمين اليوم عن خطِّهم الصحيح، دلالة على كونهم منحرفين منذ البداية، أو أن الرسالة منحرفة من أساسها.

كما لا نستطيع أن نستدل من انحراف النصاري واليهود عن الحنفية الأولى

(١) انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١٤٠-١٤٦.

دليلاً على انحراف الرسالة.

إذن.. إن تكليف ميمون القداح من قِبَل الإمام الصادق عليه السلام بالإشراف على ابن إسماعيل يدلّ على أن الحركة الإسماعيلية كانت حركة ذات أهداف سياسية سليمة منذ البدء.

الحركة الإسماعيلية وإشراف الأئمة

وقد يقال: لماذا لم يقوم الأئمة المعصومون وفي طليعتهم آنثذ الإمام الكاظم عليه السلام، بتوجيه الحركة السياسية وإدارة الأجنحة المختلفة فيها بشكل مباشر؟.

أجبنا عن هذا السؤال فيما سبق بأن الأئمة عليهم السلام كانوا يقودون مجموعة شُعب مختلفة من الحركة (ثقافية، واقتصادية، واجتماعية خلقية، وعلمية فقهية، بالإضافة إلى الحركات السياسية)، وليس من الصحيح إدارياً أن يلتزم إمام من أئمة المسلمين بحجم أئمتنا عليهم السلام الذين يُريدون تغيير وضع فاسد بأكمله، أن يلتزم بخيوط الأعمال كلها بشكل مباشر.

إن الأئمة الهداة عليهم السلام كانوا مصدر توجيه الأمة الإسلامية، ومصدر نورها ومعارفها. فهم الذين بقوا على طول التاريخ منائر للعلم والزهد والتقوى والجهاد، ففي الوقت الذي انحسر العلم والفقه عن كثير من أبناء الصحابة، بقي الأئمة عليهم السلام معروفين لدى الناس، كونهم: «ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ»^(١)، أي إنهم لا يزالون على الخط الرسالي المستقيم ذاته كما كان جدُّهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هنا حافظوا على تعدُّد الحركات المنتشرة في عدة أمصار، حتى إذا أخفقت حركة، حملت الحركات الأخرى اللواء الواحدة بعد الأخرى. ولولا هذا العمل من الأئمة عليهم السلام لما بقي للدين ذكر.

فلم يكن بمقدور الخلفاء أن يُحقِّقوا نواياهم الخبيثة ما دامت الأمة تُوجَّه من

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٤.

قَبْلَ هذه الحركات الرسالية. ثم إن عصر الأئمة عليهم السلام كان يفرض عليهم منطقاً مُعَيَّناً، وأساليب خاصة، قد لا تُعجبنا نحن لأننا بعيدون عن ذلك العصر، ولم نَقم حتى الآن بفهم استيعابي شامل لعصر الأئمة عليهم السلام حتى نعرف أن هذه الأساليب هي التي كانت تقتضيها الظروف. فمثلاً يطرح سؤال: لماذا طلب المأمون العباسي الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى مركز خلافته في خراسان وجعله ولي عهده، وقال: يجب أن تكون الخلافة مستقبلاً في البيت العلوي؟.

يقول المؤرخون في الإجابة عن هذا السؤال: إن السبب هو خشية المأمون العباسي من انتشار الحركة الإسماعيلية^(١). وهذا يُثبت الفكرة التي سبق وأن نوّهنّا إليها، والتي تقول: إن الإسماعيلية كانت مظلة حماية للحركة الرسالية، بمعنى أن سيوف الإسماعيلية وحركتهم السرية وتنظيماتهم الداخلية كانت تفسح المجال للإمام موسى بن جعفر عليه السلام ثم للإمام علي بن موسى عليه السلام ومن جاء بعدهم، لكي ينشروا معالم الرسالة ويُربّوا الأمة عليها. فخوفاً من الإسماعيلية كان العباسيون يُخَفِّفون ضغوطهم على الأئمة عليهم السلام فينشر الأئمة الأفكار الرسالية ويُوَجِّهون الأمة.

الإسماعيلية بين الباطنية والتأويل

ويبقى سؤال آخر هو: لماذا تُسمّى هذه الحركة بالباطنية؟.

الباطنية ماذا تعني؟.

إن كلمة (الباطنية) تُفسّر بتفسيرين:

(١) انظر: الإمام الرضا عليه السلام تاريخ ودراسة، ص ٢٠٠. و: حياة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٣٧٥. ومما يؤكّد ذلك ما رواه المحدث الكليني في روضة الكافي الشريف (ج ٨، ص ١٥١)، عن معمر بن خلاد قال: «قال لي أبو الحسن الرضا عليه السلام قال لي المأمون: يا أبا الحسن، لو كتبت إلى بعض من يُطِيعُكَ في هذه النواحي التي قد فسدت علينا...». وفي عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٦٦، عن معمر بن خلاد قال: «قال لي أبو الحسن الرضا عليه السلام قال لي المأمون: يا أبا الحسن انظر بعض من تثق به، توليه هذه البلدان التي قد فسدت علينا...».

التفسير الأول: يلتزم به المؤرخون الذين كانوا يؤيدون النظام الطاغوتي، إذ كانوا يُفسّرون الباطنية، بأنها حركة تؤمن بالتأويل، ويعنون بذلك أن هذه الحركة كانت لا تلتزم بالقرآن حرفياً، بل تستوحي من الأفكار الوثنية وتُدخلها في القرآن الكريم عن طريق التأويل، أي تركيب هذه الأفكار على معاني القرآن، وتفسير الآيات القرآنية بشكل مغاير لمعانيها الأصلية، وإخفاء ذلك عن الآخرين بحجة أنهم دون مستوى إدراكها وفهمها.

إذن، كلمة (الباطنية) تعني - في هذا التفسير - أصحاب العقائد والأفكار الخاصة الخفية.

التفسير الثاني: تعني السرية، كما أن الظاهرية تعني العلنية. هكذا يقول بعض المؤرخين. ونحن نرى أن كلمة (الباطنية) تحمل المعنيين في الوقت نفسه. ولكن ما معنى التأويل؟.

هل كل تأويل هو تركيب الأفكار الباطلة على القرآن؟.

كلّا، إن المعنى الصحيح للتأويل هو تطبيق القرآن على أحداث العصر وفهمه فهماً عقلانياً، وهذا مُجمَع على صحته عند فقهاء المسلمين.

ففي القرآن الكريم آيات يجب أن نفهمها بواسطة العقل، كآية التي تقول: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١).

فهل إن أعمى العين في الدنيا يكون أعمى في الآخرة؟.

كلّا. بل كل من كان قلبه أعمى، فإنه يُحشر أعمى في الآخرة، وهكذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾^(٢).

فهل يمكن رؤية الله؟.

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٢.

(٢) سورة القيامة، آية: ٢٢-٢٣.

كلّا. بل إنها ناظرة إلى رحمة ربها. من هنا نعرف أن كل المسلمين يؤمنون بالتأويل، بمعنى تفسير القرآن تفسيراً موافقاً للعقل^(١).

ولكن لماذا اتُهمت الحركة الإسماعيلية بالذات بالتأويل؟.

لأنهم كانوا مثلاً يقولون بأن الآية الكريمة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٢)، لها ظاهر هي الصلاة والزكاة المعروفتان، ولها باطن حيث إن المراد من الصلاة التقرب إلى إمام المسلمين، والمراد من الزكاة تزكية النفس بإطاعة إمام المسلمين، كما أن المراد من الحج أن يهاجر الإنسان في سبيل الله بأمر إمام المسلمين.

فكل الشرائع كانوا يُفسّرونها هكذا.. وكان ذلك ثغرة نفذ من خلالها المعارضون لهم، وأخذوا ينتقدون الإسماعيلية بالتأويل، ويزعمون أنهم لا يؤمنون بالصلاة والصيام والحج، ولكن الواقع أن الإسماعيلية كانت تقول: إن الرجل لا يكفي أن يصلي إذا لم تكن له موالاة، بمعنى أنه لا يكفي أن يكون الرجل ملتزماً بجانب من الدين، ويترك الجانب الآخر، يلتزم بالشعائر ويترك اللباب، فيعتقد بوجوب الصلاة ولكن في الوقت نفسه لا مانع لديه أن يتبع هارون الرشيد، أو المتوكل العباسي، أو حكاماً من هذا النوع، ويقتل الناس، وينهب أموالهم.

فالإسماعيلية كانوا يختلفون في هذا الرأي مع باقي المسلمين^(٣)، لأن الإسلام لم يأت كقشور، فالصلاة ليست مجرد ركعات تُركع، وإنما الصلاة الحقيقية هي التي تُؤدّي بك لأن تتبّع الإسلام كله، وكذلك بالنسبة إلى الزكاة والحج.

فالرجل قد يذهب إلى الحج خمسين مرة، ولكنّه في الوقت ذاته يرفض أن يذهب في مهمة دينية لإصلاح وتغيير المجتمع نحو الأفضل، فمثل هذا الحج قد لا ينفعه.

(١) انظر: للمؤلف، بحوث تمهيدية، مدخل تفسير (من هدى القرآن)، ج ١، وأيضاً: بحوث في القرآن الحكيم.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٣) بحوث في الملل والنحل، ج ٨، ص ٣٣٦.

إنما الحج الصحيح هو الذي يهتئ المؤمن لأن يعمل ويسعى في سبيل الله لإقامة شرائعه، وليس الحج مجرد الطواف حول الكعبة، فالإنسان إنما كُلف بالطواف حول الكعبة حتى يستوحى من الكعبة الطاعة لله، بمعنى إنه يؤكّد أنّهُ قربان لله وليس للأحجار. وتقرب الفرد إلى الله إنما هو عن طريق العمل بواجباته التي منها التبليغ والجهاد. لماذا نسعى بين الصفا والمروة؟.

إن مفهوم السعي هو الحركة والعمل والنشاط، وكما أن هاجر عليه السلام سعت في سبيل الله، فنحن نسعى أيضاً في سبيل الله. إننا لا نسعى بين الصفا والمروة فقط، كلا، بل إنه إعداد نفسي لكي نسعى بعدئذٍ في واجباتنا ووظائفنا الرسالية.

وهذا هو التفسير الصحيح للدين، والإسماعيلية لم تخطئ -في بدايتها- عندما فسّرت الدين هكذا، ونحن نعتزّ للإسماعيلية بهذا الأمر، ونقول: إنهم فعلاً حركة باطنية، ولكن إذا قيل: إن الإسماعيلية -في بداية نشأتها- كانت تنفي الواجبات الشرعية والحدود الإلهية، بمعنى أنها لم تكن تعتقد بوجوب الصلاة والزكاة والحج وغيرها من الشعائر والعبادات وتكتفي بإطاعة الإمام، فإننا نرفض ذلك، إذ الإسماعيلية لم تكن هكذا.

وكدليل على ذلك، إن القاضي النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن حيّون التميمي^(١)، صاحب كتاب (دعائم الإسلام)، الذي كانت وما زالت الإسماعيلية تعتبر كتابه مصدراً أساسياً في الفقه، حتى إن بعضهم سمّى القاضي بالمشرّع الإسماعيلي، وتزعم الإسماعيلية أنه كان أحد فقهاءهم^(٢)، ولكن يبدو لي أنه كان اثني عشرياً حيث ينقل الأحاديث الفقهية إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولا ينزل عنه إلى باقي أئمة الإسماعيلية. بالرغم من أنه كان في مصر إمام الإسماعيلية الثالث عشر وهو المعز لدين الله، بن المنصور، بن القائم بأمر الله، بن عبيد الله المهدي، بن الحسين،

(١) من علماء القرن الثالث الهجري توفي سنة ٣٦٣هـ. ودفن بالقاهرة في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله.

(٢) انظر: تاريخ الإسماعيلية، ج ٢، ص ١٩١-١٩٩.

بن أحمد، بن عبد الله (أحمد الوفي) بن محمد، بن إسماعيل، بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام. ولكنه لا ينقل في كتابه عن هؤلاء السبعة من أئمة الإسماعيلية بعد الإمام الصادق عليه السلام شيئاً، كما أننا نجد فقهه كالفقه الشيعي الاثني عشري^(١)، إلا أن مسلك الشيعة الإمامية، في الدولة الفاطمية آنذاك كان إظهار أنفسهم كإسماعيليين.

وفي كتاب (مستدرک وسائل الشيعة) ينقل العلامة المحدث النوري رحمته الله بكثرة من كتاب (دعائم الإسلام)^(٢)، وهذا دليل على أن الإسماعيلية لم تكن تعتقد بالباطنية كما يفسرها المؤرخون ذوي العلاقات السلطانية، إذ إنهم كانوا يلتزمون بكل الشعائر الدينية، تماماً كسائر المذاهب الإسلامية، وإنما كانوا يقولون بأن الحدود الشرعية لا تكفي بل يجب أن تقترن بمضامينها الخلقية والاجتماعية.

فإذا استهدفت شعيرة معينة - كالصلاة والصوم والحج والزكاة - حقيقة، فالواجب ألا تُترك تلك الحقيقة التي هي الهدف ويُؤخذ بوسيلتها فقط، وهذا لا يعني عدم الاحتفاظ بقدسية العبادة، بل يعني تطبيق الأحكام كلها الظاهر منها والباطن.

ويبقى السؤال: ماذا حققت الإسماعيلية في التاريخ؟

الذي حققته الإسماعيلية في التاريخ هو:

أنها ومنذ نشأتها في عهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وخلافة محمد بن

(١) قال العلامة بحر العلوم في فوائده الرجالية: «كان في بدء أمره مالكيّاً، ثم انتقل إلى مذهب الإمامية، وصنف على طريقة الشيعة كتباً، منها: كتاب (دعائم الإسلام)، وله فيه وفي غيره ردود على فقهاء العامة...». ثم قال رحمته الله: عن كتابه دعائم الإسلام: «وكتابه (الدعائم) كتاب حسن جيد، يصدق ما قد قيل فيه، إلا أنه لم يرو فيه عمن بعد الصادق من الأئمة عليهم السلام، خوفاً من الخلفاء الإسماعيلية، حيث كان قاضياً منصوباً من قبلهم بمصر، لكنه قد أبدى - من وراء ستر التقية - حقيقة مذهبه بما لا يخفى على اللبيب». رجال السيد بحر العلوم، ج ٤، ص ١٤.

(٢) انظر إلى ما كتبه وحققه المحدث النوري، عن المؤلف والكتاب، في خاتمة المستدرک، ج ١، ص ١٢٨.

إسماعيل من أئمتهم، كَوَّنت أقوى حركة في التاريخ الإسلامي، فلم تكن الحركات الإسلامية كالزيدية، والحركات الشيعية الاثني عشرية، وغيرها، من ناحية التنظيم الداخلي ووجود الدعاة الأقوياء المرتبطين ببعضهم، تشبه الحركة الإسماعيلية^(١).

فالمرجئة، والمعتزلة، والخوارج، وغيرها من الحركات التي كانت موجودة في البلاد الإسلامية، وكانت جميعها تعمل من أجل إسقاط الأنظمة الفاسدة والوصول إلى السلطة، كانت هذه الحركات تتفاوت فيما بينها في الأخذ بأسباب القوة، ولكن الحركة الإسماعيلية كانت أقواها تنظيمياً داخلياً، كما سبق الحديث حول ذلك.

واستفادت الحركة الإسماعيلية بشكل غريب من الحركات والفرق السنية المتعددة، وذلك عن طريق الحوار والنقاش، حيث كان الداعية الإسماعيلي بمحاورته مع أحد الرؤوس القيادية لتلك الحركة، ودون أن يظهر له عقيدته، تجده وبعد فترة يحوّل الإسماعيلي هذا القائد إلى الإسماعيلية، بسبب جهوده وعمله الدؤوب وبعلمه ومعرفته، ومن ثم يُوجّه الحركة نحو الإسماعيلية. وآخرون يفعلون الشيء نفسه، وهكذا... ولأنهم من الناحية التنظيمية كانوا أقوياء، ولأنهم توسّعوا من هنا وهناك، أصبحت حركتهم من كبريات الحركات التاريخية^(٢).

ومن هنا كان أثر الحركة الإسماعيلية في الأمة كبيراً على صعيدين:

الأول: أنها أفادت الأمة الإسلامية في إبقاء الجذوة التي أشعلها الأئمة المعصومون عليهم السلام في الأمة، متفدّة متوهّجة، وذلك بسبب الحماس الذي بثّه نشاط الحركة في الأمة.

(١) وهذا ما يؤكّده الباحث الدكتور محمد كامل حسين في كتابه: (طائفة الإسماعيلية.. تاريخها، نظمها، عقائدها). انظر: ص ١٣٠. الفصل السابع (أسرار نظام الإسماعيلية).

(٢) أنظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، الفصل الأول: (الدعوة الإسماعيلية وتنظيماتها السرية). ويقول الدكتور عامر تامر في كتابه الدعوة الإسماعيلية، ج ١، ص ١٢٤: إن «التنظيم الإسماعيلي كان منعدم النظير في اجتذابه الناس من مختلفي الألوان والاتجاهات».

الثاني: أن الطغاة العباسيين كانوا يخشون جانب الحركة الإسماعيلية بسبب قوتها وانتشارها.

إن الحكام الطواغيت لا يعرفون قيمة للضمير أو الوجدان، حيث إنهم يتعاملون مع الناس معاملتهم مع قطيع من الأغنام، وإذا لم يجدوا من يضرب على رؤوسهم بين فترة وأخرى ليُنَبِّههم، فإنهم لا يقفون عند حد في اتباع الشهوات، وهذا يحدث على طول التاريخ، وحدث فعلاً في العالم الإسلامي.

ومن هنا كانت الحركة الإسماعيلية والحركات المشابهة رادعة للحكام من التماذي في غيهم والاسترسال في ظلمهم للناس، وهكذا كان هذا أول وأهم عمل قام به الإسماعيليون (وربما أنشأ الأئمة عليه السلام الحركة الإسماعيلية لهذه الغاية) إذ لم يكونوا يأملون السيطرة على الحكم، وإنما ليُصبحوا جبهة عسكرية تُعينهم على الاستمرار في التوجيه والقيام برسالتهم الاجتماعية.

وربما نستطيع أن نقول: إن الفائدة الثانية لهذه الحركة هي أنها عملت حتى حكمت بلاداً كثيرة، فبالرغم من أن الحركة الإسماعيلية كانت تكتفي بستة من الأئمة المعصومين، أي إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولكن أوليس ذلك أفضل من دولة لا تؤمن أبداً بالأئمة المعصومين عليه السلام؟.

والدليل على ذلك أن الدولة الفاطمية التي قامت في مصر وبلاد المغرب العربي كانت أفضل من سائر الدول. فمثلاً أنشأت الحكومة الفاطمية -التي كانت تحكم البلاد جيداً، وكانت أحسن حكومات العهد الإسلامي، لأنها كانت فيها نفحة من الروح الرسالية- دار الحكمة، وكذلك الأزهر الشريف، كأول جامعة إسلامية تسودها الحرية الكاملة من الناحية الدينية والمذهبية. وكان جوهر الصقلي، قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي الإسماعيلي هو الذي أمر ببناء الأزهر، وجعله يستوعب كل المذاهب من الشيعة والسنة، وكان الناس يأتون الأزهر ليتناقشوا المذاهب الفقهية فيعتقدوا بالطريقة الصحيحة، وهذا من مفاخر

الأمة الإسلامية^(١).

وكانت الحكومة الفاطمية تؤيد الحركات الرسالية في العالم الإسلامي على طول الخط، وأشعار الشريف الرضي^(٢) دليل على ذلك، حيث يقول:

ما مقامي على الهوان وعندي مقول صادق وأنف حمي
وإباء محلق بي عن الضيم كما زاغ طائر وحشي
أحمل الضيم في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولاي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيذا الناس جميعاً محمد وعلي^(٣)

إن الشريف الرضي يفتخر بأبياته هذه بأن هناك حاكماً علوياً في مصر، فكيف يحمل الضيم في بلاد الخليفة القادر العباسي (بلاد الأعادي).

ولما سمع الخليفة العباسي القادر بالله^(٤) هذه الأبيات أرسل إلى والد الشريف الرضي يُعاتبه، وقال له: «قل لولدك: أيُّ هوانٍ قد أقام عليه عندنا، وأيُّ ضيمٍ لقي

(١) في صفر سنة ٣٦٢هـ في أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي، جلس قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان القيرواني بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه في فقه آل البيت عليه السلام، وهو المسمى بكتاب الاختصار في جمع حافل من العلماء والكبراء، فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر، ثم توالى حلقات بني النعمان بالأزهر بعد ذلك.. المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢١. وأيضاً: اتعاط الحنف، ج ١، ص ٢٢٧. وللمزيد انظر دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج ٢، ص ٣٦٧-٤٠٦، باب الأزهر.

(٢) الرضي ذو الحسين، أبو الحسن، السيد محمد بن الحسين الموسوي (الشريف الرضي) [٣٥٩هـ، ٤٠٦هـ]، ذو فضائل ومكارم ذائعة، أشعر قريش، لأنه جمع ما بين الإكثار والإجادة. ولي نقابة الطالبين مراراً، وكانت إليه إمارة الحج والمظالم، كان يتولى ذلك نيابة عن أبيه، ثم تولى ذلك بعد وفاة أبيه مستقلاً وحج بالناس مرات، ومن أشهر شعره وقصائده الحجازيات. عمدة الطالب، ص ٢٥٣. أعيان الشيعة، ج ٩، ص ٢١٦. تعليقة أمل الأمل، ص ٢٦٤.

(٣) ديوان الشريف الرضي، ج ٢، ص ٥٧٦.

(٤) أحمد بن إسحاق بن المقتدر، أبو العباس، [٣٣٦-٤٢٢هـ] الخليفة العباسي، ولي الخلافة سنة ٣٨١هـ، وطالت أيامه. كان حازماً مطاعاً، هابه من كانت لهم السيطرة على الدولة من الترك والديلم، فطاعوه، دامت خلافته ٤١ سنة، وتوفي في بغداد. الأعلام، ج ١، ص ٩٦.

من جهتنا، وأي ذل أصابته في ملكنا؟، ما الذي يعمل معه صاحب مصر؟»^(١).

وطلب منه أن يأمره في أن يتراجع ابنه عن هذه الأبيات، التي فضح فيها خطط العباسيين في تشويه نسب الخلفاء الفاطميين^(٢)، وأطمعه في تنفيذ جميع مطالب ورغبات الشريف الرضي.

إننا نجد الخليفة العباسي يتعامل مع رموز الرساليين بهذه الصورة، بينما نجد العباسيين من قبل -في عهد هارون الرشيد- يقتلون في ليلة واحدة ستين طالبياً، ويُلقون بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام في السجن لسنوات عديدة، فهل أصبح القادر العباسي متديناً، زاهداً، مؤمناً، ورعاً، بينما هارون لم يكن كذلك؟.

كلاً، فالقضية أن هؤلاء كانوا يخافون من ذلك الحكم القائم بمصر، الذي كان يبث دعاته في كافة البلاد الإسلامية، فخوفاً من ذلك الحكم ومن ميل الناس إليه، كانوا يُعطون الحرية للشريف الرضي، ولخطّة الفكري المُتحرّر، ومن هنا نجد أنه يحضر درس الشريف المرتضى عدد هائل من الناس، وعندما تُوفي حضر جنازته آلاف المشيعين.

إن قادة الحركة الرسالية وصلوا إلى هذا المستوى من الحرية في عاصمة الخلافة العباسية، لأن الحكم الفاطمي كان يُراقب العباسيين عن كثب، فنتيجة الحكم الفاطمي والحركة الإسماعيلية في التاريخ، أعطى العباسيون الحرية للحركة الرسالية.

(١) تعليقة أمل الآمل، ص ٢٦٨. أعيان الشيعة، ج ٩، ص ٢١٨.

(٢) كتب العباسيون سنة ٤٠٢ هـ، محضراً بأمر القادر العباسي يتضمن القدح في نسب العلويين خلفاء مصر. تاريخ أبي الفداء، ج ٢، ص ١٤٢. ويقول المقرئ في خطه، ج ٢، ص ٤٣: «وفي سنة أربع وأربعين كتب ببغداد محاضر بالقدح في نسب الخلفاء المصريين وفيهم من الانتساب إلى علي بن أبي طالب، وسُيّرت إلى الآفاق».

صِفْوَالِكَلَامِ

* تميزت الحركة الإسماعيلية بالتنظيم الدقيق، والكتمان والسرية في العمل، والروح الفدائية والتضحية المستلهمة من بطولات كربلاء.

* تدل الشواهد التاريخية على سلامة الحركة الإسماعيلية في بدايتها، وأنها ارتبطت بأشكال مختلفة بأئمة أهل البيت عليه السلام، رغم أنها انحرفت فيما بعد كالعديد من فئات الموالين الذين انحرفوا عن الخط الرسالي الصحيح الذي رسمه لهم الأئمة المعصومون عليه السلام.

* وهكذا كانت الحركة الإسماعيلية مظلة حماية للحركة الرسالية، حيث كانت سيوفهم ترهب العباسيين فيخففون الضغوط على الأئمة الذين كانوا ينشرون الأفكار الرسالية ويوجهون الأمة.

* ولذلك تعرّضت الحركة لحملة تشويبية طالت أفكارها ومعتقداتها، من قبل العباسيين، حيث اتهموهم بالباطنية (بمعناها السلبي) كما طعنوا في نسبهم العلوي لفصلهم عن جماهير الموالين لأهل البيت عليه السلام.

* وكان أثر الحركة الإسماعيلية أنها ساعدت على إبقاء الجذوة التي أشعلها الأئمة المعصومون عليه السلام في الأمة متقدة متوهجة، كما أنها كانت رادعة للحكام الجائرين من التهادي في غيهم والاسترسال في ظلمهم للناس.



الباب الرابع، مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي

الفصل الثاني، الحركة الرسالية في عهد الإمام الرضا عليه السلام

سيرة الإمام الرضا عليه السلام ودوره في الحركة الرسالية
دور الإمام الرضا عليه السلام السياسي والثقافي في الأمة



١٩ سيرة الإمام الرضا عليه السلام ودوره في الحركة الرسالية

تنامي الحركة الرسالية

حينما قُتِلَ الإمام الحسين عليه السلام تحوّلت الحركة الرسالية إلى حركة جماهيرية تلتزم بها أوسع الجماهير، وكان الخط الرسالي ينمو ويتوسع، يُغذّيهِ ويُوجّههُ جهاد الأئمة المعصومين والصفوة من الرساليين في الأمة، الإمام علي بن الحسين، والإمام محمد بن علي، والإمام جعفر بن محمد، ومن ثم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. وفي عهد الإمام الرضا عليه السلام كانت الحركة الرسالية في عنفوان شبابها.

وهذا يعني أن الحركة الرسالية مرّت بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: ما قبل استشهاد الإمام الحسين عليه السلام.

المرحلة الثانية: تنتهي بوفاة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مسجوناً في بغداد.

المرحلة الثالثة: تبدأ بعهد الإمام الرضا عليه السلام.

الحركة الرسالية حركة متنامية

بعد غيبة الإمام الثاني عشر عليه السلام تواصل نمو الحركة وانتشارها حتى اكتملت وأصبحت ناضجة. وهذا التفسير قد لا يُعجب الكثير من المؤرخين، وخصوصاً المؤرخين الذين تعودوا أن ينظروا إلى التاريخ بمنظار أسود، ويُفسّروه تفسيراً منكوساً، يبدأ من الأخير وينتهي بالأول. حيث يعتقدون أن الأمة الإسلامية بعد

أن كانت أمة حميدة رشيدة في أيام الرسول، انتكست في أيام الإمام علي عليه السلام، ثم ازدادت انتكاساً أيام الإمام الحسين عليه السلام، وفي أيام الإمام الرضا عليه السلام كانت الأمة قد وصلت إلى الدرك الأسفل.

لا يُمكن التسليم بهذه الفكرة التي تصف حركة الرسالة والمسيرة التاريخية للمسلمين بكونها حركة متراجعة، في حين أن المسار الطبيعي للرسالات هو النمو والتكامل والنضج المتواصل في كل مراحل التاريخ، فالذي يبحث عن قيم الإسلام عند الحكومات التي حكمت البلاد الإسلامية لا يرى في الإسلام إلا تراجعاً واضحاً وانحداراً إلى الهاوية، وهذه النظرة تغفل عن الخط الرسالي المعارض الذي كانت تتكامل بجهاده القيم الأصيلة والوعي الحقيقي بمضامين الرسالة. فكل رسالات السماء كانت في حالة تصاعد ونمو، رسالة نبينا نوح، ثم إبراهيم، وموسى، وعيسى عليه السلام، ورسالة نبينا الأكرم محمد عليه السلام ولدت وتصاعدت بعد الرسول بأيدي الأئمة المعصومين عليهم السلام. ولا تزال تتصاعد وتتصاعد إلى أن يأتي الإمام الحجة عليه السلام فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً، بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً.

حياة الإمام الرضا عليه السلام فاتحة عهد جديد

والآن لنحاول التعرف إلى حياة الإمام الرضا عليه السلام وسماتها وأبرز مميزاتها. تلك الحياة التي لا تُشبه حياة والده الذي قضاها من سجن إلى سجن، بل كانت حياة مختلفة جديدة تتمتع بنوع من الانفراج والحرية، وكذلك كانت حياة أبنائه الإمام الجواد، والإمام علي بن محمد الهادي، والإمام الحسن العسكري عليهم السلام، وقد روي عنه عليه السلام أنه كان يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَفِظَ مِنَّا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ، وَرَفَعَ مِنَّا مَا وَضَعُوهُ، حَتَّى قَدْ لُعِنَا عَلَى مَنَابِرِ الْكُفْرِ ثَمَانِينَ عَامًا، وَكُتِمَتْ فَضَائِلُنَا وَبُذِلَتْ الْأَمْوَالُ فِي الْكَذِبِ عَلَيْنَا، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَأْتِي لَنَا إِلَّا أَنْ يُعْلِي ذِكْرَنَا، وَيُبَيِّنَ فَضْلَنَا، وَاللَّهُ مَا هَذَا بِنَا وَإِنَّمَا هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَرَابَتِنَا مِنْهُ، حَتَّى صَارَ أَمْرُنَا وَمَا نُرْوِي عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَنَا مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِهِ وَدَلَالَاتِ نُبُوَّتِهِ»^(١).

إن التمعّن جيداً في هذه الرواية يُوضّح لنا حالة التصاعد التي كانت تمر بها الحركة.. ولكن كيف أصبحت كذلك؟.

من الناحية السياسية تميّز عهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بعهد بناء أسس النهضة الرسالية، وقد سبق وأن تحدثنا عن طريقة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام التي كانت متمثلة في رفع مستوى الأمة، والنهوض بوعيتها، ودفعها إلى التضحية والجهاد لتصل إلى مستوى يُمكنها من استلام الحكم.

وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يستطيع -إذا ضحّى ببعض مبادئه وقيمه- أن يكون هو الحاكم، ولكن حاشاه ذلك، وإنما أراد هدفاً رسالياً، وأراد أن تكون الوسيلة لذلك الهدف من النوع نفسه، فيكون هدفه ووسيلته كلاهما من نوع رسالي، مشبع بالقيم والطرق الصحيحة.

لذلك ضحّى بنفسه، ولذلك بقي في السجن، ولذلك استشهد عليه السلام. وأنا شخصياً لا أتفق مع الذين يتخذون من مأساة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مادة للحزن والبكاء فقط، ولا يذهبون أبعد من ذلك ليروا الحقيقة، وهي: أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كان كالإمام الحسين عليه السلام فكلاهما قُتِلَا، وكلاهما استُشهدَا. أحدهما اغتيل بالسم وهو في غياهب السجون، والآخر قتل بالسيف.

ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام مجرّد مظلوم يستشهد، وإنما استطاع بشهادته أن يسقط الحكم الأموي. وكذلك الإمام موسى بن جعفر عليه السلام استشهد مسموماً في سجن بغداد، ولكن باستشهاده استطاع فرض نفسه والأئمة من بعده (وهم السلطة الشرعية) على السلطات الحاكمة.

فتجد المأمون العباسي مثلاً، وهو أذكى الخلفاء العباسيين، يصف الإمام علي عليه السلام في روايته الملحمية فيقول: «يُؤمَّرُ عَلَى الْجَمِيعِ وَلَا يُؤمَّرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، أَشَدُّ النَّاسِ وَطَاءَةً عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَأَعْظَمُهُمْ جِهَادًا فِي اللَّهِ، وَأَفْقَهُهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ، وَأَقْرَبُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَعْرَفُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْوَلَايَةِ فِي حَدِيثِ غَدِيرِ خُمٍّ،

وَصَاحِبُ قَوْلِهِ: أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَصَاحِبُ يَوْمِ الطَّائِفِ، وَكَانَ أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ...»^(١).

المأمون رجل السلطة والحكم، الذي لا يهمله دين ولا قيم، ولكنه يبعث رسالة إلى الإمام علي بن موسى الرضا، وهو في المدينة، ويأتي به إلى حاضرة ملكه (خراسان) ويطلب منه بعد ذلك أن يتولَّى الحكم بدلاً منه؟.

جاء في رواية أن أول عمل قام به المأمون العباسي أنه قال للإمام ﷺ: «يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَدْ عَرَفْتُ فَضْلَكَ وَعِلْمَكَ وَزُهْدَكَ وَوَرَعَكَ وَعِبَادَتَكَ، وَأَرَاكَ أَحَقَّ بِالْخِلَافَةِ مِنِّي.

فَقَالَ الرَّضَا ﷺ: بِالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَفْتَخِرُ، وَبِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا أَرْجُو النَّجَاةَ مِنْ شَرِّ الدُّنْيَا، وَبِالْوَرَعِ عَنِ الْمَحَارِمِ أَرْجُو الْفَوْزَ بِالْمَغَانِمِ، وَبِالتَّوَاضُّعِ فِي الدُّنْيَا أَرْجُو الرُّفْعَةَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَعِزَّ نَفْسِي عَنِ الْخِلَافَةِ وَأَجْعَلَهَا لَكَ وَأُبَايِعَكَ.

فَقَالَ لَهُ الرَّضَا ﷺ: إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْخِلَافَةُ لَكَ وَجَعَلَهَا اللَّهُ لَكَ فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَخْلَعَ لِبَاسًا أَلْبَسَكَهُ اللَّهُ وَتَجْعَلَهُ لغيرِكَ، وَإِنْ كَانَتْ الْخِلَافَةُ لَيْسَتْ لَكَ فَلَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَجْعَلَ لِي مَا لَيْسَ لَكَ...»^(٢).

ومعنى ذلك أن الخلافة مسؤولية واجبة وليست حقاً يتنازل عنه الفرد، فمن حق الإنسان أن يتنازل عن ماله ومغنمه، بينما الخلافة ليست مكسباً ولا مغنماً.

ولكن يبقى سؤال: كيف أصبح الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ بهذه القوة السياسية حتى يتنازل المأمون العباسي عن الخلافة له؟.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢١٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٢٨.

لقد أضحى الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام القائد الفعلي للأمة، فالأمة الإسلامية الممتدة من المغرب العربي غرباً وإلى حدود الصين شرقاً، كانت تخضع للإمام عليه السلام وتعتقد بأنه الإمام الحقيقي.

ولم يصل الإمام إلى هذا المستوى بين عشية وضحاها، إنما كان ذلك بجهد الأئمة المعصومين عليه السلام، وحركتهم، ومنهجهم الذي نشره في الآفاق، والذي ربّى الأجيال، ورفع مستوى الوعي عند الناس لتحمل مسؤوليتهم، وللدفاع عن القيم الرسالية، والتضحية بكل غالٍ ونفيس، كل ذلك هو الذي جعل الإمام بتلك الدرجة من القوة.

ولقد حاول المأمون العباسي أن يستغل قوة الإمام الرضا لصالحه، وذلك بالمساومة معه، وربما الدخول معه في ائتلاف. ويعتقد البعض بأن المأمون كان شيعي المذهب^(١)، وأنه تشيّع بعد أن شاهد والده هارون الرشيد يقوم باحترام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في المدينة المنورة، ويأمر بنيه بالوقوف لخدمة الإمام: «يَا عَبْدَ اللَّهِ وَيَا مُحَمَّدَ وَيَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَ يَدَي عَمَّكُمْ وَسَيِّدُكُمْ خُذُوا بِرِكَابِهِ وَسَوُّوا عَلَيْهِ نِيَابَهُ وَشِيعُوهُ إِلَى مَنْزِلِهِ..». وكذلك بسبب أن الإمام الكاظم عليه السلام كان قد بشره بالخلافة: «إِذَا مَلَكَتْ هَذَا الْأَمْرَ فَأَحْسِنْ إِلَى وَلَدِي..».

ثم إن المأمون يسأل أباه بعد أن خلا بهما ذلك المجلس، يقول المأمون: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ عَظَّمْتَهُ وَأَجَلَلْتَهُ، وَقُمْتَ مِنْ مَجْلِسِكَ إِلَيْهِ فَاسْتَقْبَلْتَهُ وَأَقْعَدْتَهُ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ وَجَلَسْتَ دُونَهُ، ثُمَّ أَمَرْتَنَا بِأَخْذِ الرِّكَابِ لَهُ؟».

قَالَ: هَذَا إِمَامُ النَّاسِ وَحُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَخَلِيفَتُهُ عَلَى عِبَادِهِ.

فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوَلَيْسَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا لَكَ وَفِيكَ؟

فَقَالَ: أَنَا إِمَامُ الْجَمَاعَةِ فِي الظَّاهِرِ بِالْغَلْبَةِ وَالْقَهْرِ، وَمُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ إِمَامٌ حَقٌّ،

(١) ذهب إلى هذا الرأي المؤرخ السيد حسن الأمين، طالع كتابه: (الرضا عليه السلام والمأمون وولاية العهد)، فصل: ولاية العهد بين العباسيين والعلويين.

وَاللهِ يَا بُنَيَّ إِنَّهُ لَأَحَقُّ بِمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنِّي وَمِنْ الْخَلْقِ جَمِيعًا، وَاللهُ لَوْ نَازَعْتَنِي هَذَا الْأَمْرَ لَأَخَذْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاكَ، فَإِنَّ الْمُلْكَ عَقِيمٌ...»^(١).

فالمؤمنون العباسي ومنذ ذلك اليوم - حسب ما يقوله هو - أصبح شيعيًا، ولكنني أرى أن السبب في محاولة المؤمنون تقليد الرضا الخلافة ليس هو تشيعه، وإنما بسبب فرض الحركة الرسالية نفسها على الواقع، بشكل لا يمكن تجاوزها.

إن نظرة خاطفة إلى عهد هارون العباسي لاستقراء بعض التفاصيل في عهد المؤمنون، كفيلة بإعطائنا صورة عن المرحلة الثالثة من حياة الأئمة المعصومين عليهم السلام وعن الحركة الرسالية. روي عن صفوان بن يحيى قال: «لَمَّا مَضَى أَبُو الْحَسَنِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام وَتَكَلَّمَ الرَّضَا عليه السلام خِفْنَا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ أَظْهَرْتَ أَمْرًا عَظِيمًا وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ هَذَا الطَّاعِي (يعني هارون).

فَقَالَ عليه السلام: لِيَجْهَدُ جَهْدُهُ فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيَّ.

قَالَ صَفْوَانُ: فَأَخْبَرَنَا الثُّقَّةُ أَنَّ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ قَالَ لِلطَّاعِي: هَذَا عَلِيٌّ ابْنُهُ قَدْ قَعَدَ وَادَّعَى الْأَمْرَ لِنَفْسِهِ!

فَقَالَ: مَا يَكْفِينَا مَا صَنَعْنَا بِأَبِيهِ تُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَهُمْ جَمِيعًا»^(٢).

وعن موسى بن مهران قال: «سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى، يَقُولُ: سَمِعْتُ عِيسَى بْنَ جَعْفَرٍ يَقُولُ لِهَارُونَ - حَيْثُ تَوَجَّهَ مِنَ الرَّقَّةِ إِلَى مَكَّةَ -: اذْكُرْ يَمِينَكَ الَّتِي حَلَفْتَ بِهَا فِي آلِ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنَّكَ حَلَفْتَ إِنْ ادَّعَى أَحَدٌ بَعْدَ مُوسَى الْإِمَامَةَ ضَرَبْتُ عَنْقَهُ صَبْرًا، وَهَذَا عَلِيٌّ ابْنُهُ يَدَّعِي هَذَا الْأَمْرَ، وَيُقَالُ فِيهِ مَا يُقَالُ فِي أَبِيهِ؟!.

فَنَظَرَ إِلَيْهِ مُغَضَّبًا فَقَالَ: وَمَا تَرَى تُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَهُمْ كُلَّهُمْ؟!.

قَالَ مُوسَى: فَلَمَّا سَمِعْتُ ذَلِكَ صِرْتُ إِلَيْهِ فَأَخْبَرْتُهُ.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٣١.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١١٣.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا لِي وَلَهُمْ، وَاللَّهِ لَا يَقْدِرُونَ إِلَيَّ عَلَى شَيْءٍ^(١).

وعن أبي الصلت الهروي قال: «كَانَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا فِي مَنْزِلِهِ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ هَارُونَ الرَّشِيدِ فَقَالَ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا الصَّلْتِ، إِنَّهُ لَا يَدْعُونِي فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا لِدَاهِيَةٍ، فَوَاللَّهِ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَعْمَلَ بِي شَيْئًا أَكْرَهُهُ لِكَلِمَاتٍ وَقَعَتْ إِلَيَّ مِنْ جَدِّي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ: فَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَرَأَ هَذَا الْحِزْرَ^(٢). فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ هَارُونَ الرَّشِيدُ، وَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، قَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِبِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ، وَاکْتُبْ حَوَائِجَ أَهْلِكَ.

فَلَمَّا وَلَّى عَنْهُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَارُونَ يُنْظَرُ إِلَيْهِ فِي قَفَاهُ قَالَ: أَرَدْتُ وَأَرَادَ اللَّهُ، وَمَا أَرَادَ اللَّهُ خَيْرٌ^(٣).

هذه الروايات وغيرها تُشكِّل صورة عن الوضع بين المعارضة والسلطة العباسية، ويربط الأحداث السابقة باللاحقة، نرى أن الذي ذكرناه في حياة الإمام الكاظم عليه السلام كان عملية مخاض ولدت هذا الوضع الجديد الذي بدوره استمر في تطوره إلى عهد المأمون. ويُمكننا أن نجمع العوامل المساعدة بما يلي:

أولاً: قوة المعارضة

فالمعارضة بدأت تشتد وتأخذ مواقع القوة في مواجهتها مع السلطة، فبمطالعتنا ملف الأحداث نقرأ عن ثورة أبي السرايا، (السري بن منصور^(٤)) التي

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١١٣.

(٢) راجع: مُهْج الدعوات، ص ٣٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١١٦.

(٤) سري بن منصور الشيباني، كان رجلاً شجاعاً قوي القلب بصيراً في أمور الحرب، خرج سنة ١٩٩ هـ بالكوفة. وكان مفجر ثورته وقائدها محمد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا. طالع:

تنمة المنتهى، ص ٢٦٨.

كان يقودها محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن طباطبا بن إبراهيم بن الحسن بن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، والتي كانت في سنة ١٩٦ هـ، حيث امتد نفوذ سلطتها على الكوفة وواسط والبصرة والأهواز والحجاز واليمن، وسنُفَصِّل الحديث حولها فيما بعد.

وأيضاً نقرأ عن محمد^(١) بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ونهوض عبدالرحمن بن عبدالله العلوي^(٢) في سنة ٢٠٧ هـ، وقيام علي بن عبدالله بن خالد المعروف بالسفياني في الشام^(٣).

ولقد كانت ثورة أبي السرايا هي الأشد وطأة على النظام العباسي، حيث تداعت معظم قوته للقضاء عليها، وتجزأت بعد ذلك إلى عدة جبهات في مواجهة السلطة، فصارت جبهة في اليمن يقودها إبراهيم بن موسى الكاظم عليه السلام، وزيد بن موسى الكاظم عليه السلام في جبهة الأهواز، ومحمد بن جعفر الصادق عليه السلام في جبهة مكة، وهكذا..^(٤).

-
- (١) الملقب بالديباج لحسنه وجماله وبهائه وكماله، رجل سخي كان يذبح في كل يوم خروفاً لضيافته، وشجاع قوي القلب عابد صوام. طالع: تمة المنتهى، ص ٢٧٤. المنتظم، ج ١٠، ص ١٢٠.
- (٢) ابن محمد بن عمر بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، من الدعاة إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام، وكان خروجه في عك من بلاد اليمن، وسببه أن عمال اليمن أساقوا السيرة في الناس. طالع: تاريخ ابن خلدون، ج ٤، ص ١٤. تاريخ الإسلام، ج ١٤، ص ٢٢. تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٥٩٣. المنتظم، ج ١٠، ص ١٦٠. البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٥٩.
- (٣) من بقايا بني أمية، انتهر فرصة الخلاف بين الأمين والمأمون، فعمل على طرد عامل الأمين على دمشق، وامتلكها فبايعه الناس بالخلافة، وهو ابن تسعين سنة. ناصره بعض بقايا الأمويين، وخذله ما بقي من بني مروان، وقاتله أنصار بني العباس، والقيسية المناصرة للأمين، فنهب دورهم وأحرقها، واشتد على من رفض بيعته، فأرسل الأمين لقتاله جيشاً لكنه لم يصل الشام. حيث قبض على السفياني مسلمة بن يعقوب فبايعه رؤساء بني أمية، واستولى على الشام وأقام الدعوة للمأمون، ومنها مات السفياني. طالع: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٧٧. تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٤١٥. شذرات الذهب، ج ٢، ص ٤٤٥. المنتظم، ج ١٠، ص ١٤.
- (٤) ووثب بالمدينة محمد بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي، ووثب بالبصرة العباس بن محمد وتعاون معه علي بن جعفر، وزيد بن موسى بن جعفر، فغلبوا على البصرة. طالع: تمة المنتهى، ص ٢٧٢.

هذا هو وضع المعارضة ذات الشكل العسكري العلني، أما عن أشكائها الأخرى ففي الجهاز الإداري كان الفضل بن سهل وزير المأمون الملقب بذي الرياستين^(١)، والفضل بن الربيع الوزير الأخير لهارون، ومن ثم لابنه محمد الأمين، وأبو الصلت الهروي الذي كان بمثابة مستشار المأمون، ومثله الريان بن الصلت^(٢) -أيضاً- كانوا يشكلون دعائم قوية للمعارضة. وأما في الجهاز العسكري فالقائدان المشهوران هرثمة بن أعين^(٣)، وطاهر بن الحسين الخزاعي، كانا يعتقدان بالتشيع، وربما كان طاهر بن الحسين أكثر ولاء لعقيدته^(٤)، إلا أنها كانا يرتئيان أسلوب الضغط السياسي البطيء على السلطة لكي تتحوّل إلى مسارها الشرعي بخلافة الأئمة المعصومين عليهم السلام.

ولكن من جانب آخر كانت السلطة تُطوّرهما بالأعطيات، وتوليها على الأمصار، فمثلاً: هرثمة بن أعين كان رافضاً محاربة أبي السرايا، إلا أن كتاب المنصور بن المهدي كان معسولاً لدرجة أنه أبكى هرثمة هذا^(٥)، وبجانب ذلك كله دافع الشهرة والسلطة الذي كان في نفسه.

أما طاهر بن الحسين فإنه بعد انتصاراته في حروبه، وُلّي هرات^(٦) لكي يكون

-
- (١) سُمّي بذي الرياستين لأنه كان صاحب الوزارة، ووزارة الجند.
 (٢) الأشعري القمي، الثقة، الصدوق، روى عن الإمام الرضا عليه السلام، وله كتاب جمع فيه من حديث الإمام الرضا عليه السلام، الفرق بين الآل والأمة. رجال النجاشي، ص ١٦٥.
 (٣) أبو حبيب، كان من خدم المأمون ومواليًا للرضا عليه السلام، روى الصدوق بإسناده عن هرثمة في خبر الإمام الرضا عليه السلام هرثمة في ستمه من المأمون، كما في عيون أخبار الرضا، ج ٢، باب ما حدث به أبو حبيب هرثمة بن أعين من ذكر وفاة الرضا عليه السلام. منتهى الآمال، ج ٢، ص ٣٩٥.
 وراجع معجم رجال الحديث، ج ١٩، ص ٢٥٦ ما قاله المحقق الخوئي في وثيقة الخادم.
 (٤) عرف بذي اليمينين، أحد وزراء المأمون والمجاهدين في تثبيت دولته. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٤، ص ٢٨٩.
 (٥) تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٥٣١-٥٣٣. مقاتل الطالبين، ص ٤٤٤. تمة المنتهى، ص ٢٧٣.
 (٦) تأسست دولة الطاهريين في خراسان بعد شهادة الإمام الرضا عليه السلام، واستمرت حتى عام ٢٥٩ هـ، وكانت الدولة العباسية في أوج قوتها وسلطتها، أي زمن حكم المأمون -بعد شهادة الإمام الرضا- وحتى حكم المعتصم. طالع: الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٣٦١ وما بعدها.

بعيداً عن الساحة، وكان المأمون يخشاه، وكانت سلالة طاهر بن الحسين الخزاعي كلها تشيع، حتى إن سليمان بن عبد الله الطاهري عندما حارب الحسن بن زيد^(١) الناهض بطبرستان: «تأثم سليمان من قتاله، لشدة في التشيع»، حسب ما يقول ابن الأثير^(٢)، وقد كان لطاهر حرم ببغداد يأمن من دخله، وقد دُعي طاهر بن الحسين لقتال أبي السرايا فكتب:

قناع الشك يكشف اليقين وأفضل كيدك الرأي الرصين
تثبت قبل ان ينفذ فيك أمر يهيج لشره داء اليقين
اتندب طاهراً لقتال قوم بنصرتهم وطاعتهم يدين^(٣)
وإن ما كان عليه طاهر من المكانة في السلطة العباسية يُفسّر كيف أن دعبل الخزاعي شاعر أهل البيت كان يقول الأشعار علانية يخاطب المأمون بقوله:
إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرّفتك بمقصد^(٤)
وهذا يُعبّر عن مدى قوة نفوذ التشيع في الجهاز العباسي الحاكم.

ثانياً: شخصية الإمام الرضا عليه السلام

والعامل الآخر والأهم هو شخصية الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام التي كانت الجماهير تندفع بقلوبها إليه، حتى إن المأمون في حاضرة ملكه كان ولمرات عدة يستنقذ الموقف الذي كان يُهدّد بإسقاطه، فكان الناس يُغشى عليهم من البكاء عندما يرون الإمام، حدث هذا كثيراً في طريق ذهاب الإمام الرضا إلى خراسان

(١) ابن محمد بن إسماعيل الحسيني العلوي [ت: ٢٧٠هـ]، كان حازماً مهيباً، مرهوب الجانب، فاضل السيرة، حسن التدبير، مؤسس الدولة العلوية في طبرستان. دامت إمرته مدة عشرين عاماً، كانت كلها حروباً ومعارك. أخرج في خلالها من طبرستان وعاد إليها. وتوفي بها. الأعلام، ج ٢، ص ١٩١.

(٢) الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ١٣٢.

(٣) مقاتل الطالبين، ص ٤٣٦. أعيان الشيعة، ج ١، ص ١٩١.

(٤) تاريخ الإسلام، ج ١٨، ص ٢٦٣. الفخري، ص ٢٦. أعيان الشيعة، ج ١، ص ١٩١.

والذي استغرق مسيره عدة شهور^(١)، عندما استدعاه المؤمنون.

كل ذلك مع ما كان لشخصية الإمام عليه السلام من المستوى العلمي الذي ظل منهلاً دائماً للأمة، وحجة في وجه التيارات الفكرية القديمة والناشئة، كاليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والبراهمة، والملحدون، والدةرية، وغيرهم من أنواع الزنادقة. والحق يشهد بما كان للإمام الرضا عليه السلام من دور في رد أباطيل وخداع هذه الفلسفات والعقائد المزيفة^(٢)، ومن هنا نستطيع أن نفسر كيف أن أغلب الأحاديث والنصوص الواردة عن الإمام الثامن الرضا عليه السلام كانت في التوحيد وبقية مباني العقائد، حتى إنه اشتهر أن من يحاجج تلامذة الإمام عليه السلام، فلا بد أن يخسأ راجعاً عن قوله. ولم تكن البدع التي ظهرت في زمان الإمام عليه السلام بالهينة، فنرى أن رجلاً يدعي النبوة، وآخر يدعي أنه إبراهيم الخليل^(٣)، وعلى هذا المعدل.

وظاهرة أخرى: أن الأمة كانت تعيش حالة الانحلال الخلقي، وكان ذلك ناشئاً من تيار النظام الفاسد، حيث كان يشق في أرض الجماهير الواسعة روافده الملوثة، وسوف نستعرض فيما بعد مظاهر هذا الانحلال، حيث كان الإمام الرضا عليه السلام في المقابل يغذي عطش الأمة الروحي، لأنها تعرفه قطباً روحياً تنجذب إليه بسبب زهده وعبادته وتقواه وغيرها من الصفات الإيمانية.

فلا زالت الأمة ترتع الخصب من ربيع هذا البيت الذي طهر الله أهله من الرجس، وتنهل من مشرعه وتستقي من سائغ نميره.

ثالثاً: تهالك السلطة

والعامل الثالث لظهور المرحلة الثالثة هذه وتطورها، وعلى الخصوص

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٨٢-١٨٤.

(٢) طالع مثلاً: ما رواه الطبرسي عن مناظرات الإمام واحتجاجاته في كتابه القيم: الاحتجاج، ج ٢، ص ٣٩٦.

(٣) مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٣٧-٤٣٨.

الجانب السياسي منها، هو استمرار تهالك السلطة أمام المعارضة مع ضرب النظام نفسه من الداخل. فبعد هارون العباسي عرفنا ما وقع بين الأمين والمأمون من حروبهم، ثم جاء عمهم إبراهيم^(١) (١٤ يوماً)، ثم رجع الأمين من بعد عمه فحكم (سنة ٦ أشهر و٢٢ يوماً)، ونُصِب إبراهيم ثانياً، حتى جاء المأمون إلى بغداد فعادت إليه الخلافة^(٢).

هذا من حيث الصراع بين أقطاب النظام.

أما بالنسبة للوزراء فإن الخليفة العباسي عندما يظن أن وزيراً أو قائداً عسكرياً قد تشيّع، فإن مسألة ضرب عنقه هي أمر محتوم، كما رأينا تصفية الفضل بن سهل ذي الرياستين من قبل المأمون^(٣)، وتصفية هرثمة بن أعين القائد الذي طالما جلب الانتصارات للسلطة العباسية والذي بقتله ثار غضب رجال الجيش^(٤).

رابعاً: الظلم المتزايد

أما العامل الرابع فتجسّد في المظالم الكثيرة، فقد رأينا ثورة أهل خراسان على والي الرشيد (ابن ماهان^(٥))، فقد بات أمراً طبيعياً أن تسمع بين حين وآخر قيام

(١) إبراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور، العباسي [١٦٢-٢٢٤هـ]، أبو إسحاق، ويقال له: ابن شكلة، أمه جارية سوداء نسبته إليها خصومه. أخو هارون الرشيد. ولد ونشأ في بغداد، وولاه الرشيد إمرة دمشق، ثم عزله عنها بعد سنتين، ثم أعاده إليها فأقام فيها أربع سنين. مات في سر من رأى. الأعلام، ج ١، ص ٦٠. أنساب الأشراف، ج ٤، ص ٢٧٨. تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٤٥٠.

(٢) طالع: التنبيه والإشراف، ص ٣٠٣، وما بعدها.

(٣) مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٤١. الإنباء، ص ٩٩. البدء والتاريخ، ج ٦، ص ١١١. تجارب الأمم، ج ٤، ص ١٣٩.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٥٤٢. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٣٠٦. تاريخ الإسلام، ج ١٣، ص ٨٠.

(٥) علي بن عيسى بن ماهان [ت: ١٩٥هـ]، من كبار القادة في عصر الرشيد والأمين. وللوقوف على شيء من تفاصيل قيام أهل خراسان عليه، طالع: الأخبار الطوال، ص ٣٩١. الفتوح، ج ٨، ص ٣٩٦.

مصر من الأمصار على واليهم، كما شاعت حالات التكفُّف والاستجداء، وعمليات الإرهاب التي يفرضها العسكر.

خامساً: ضعف السلطة المركزية

إنَّ ضعف السلطة المركزية على الولايات جعل الحكم العباسي يُولي جل اهتمامه للعسكر الذي له ضريبته المالية والنفسية، ولم تكن كأيّة ضريبة أخرى، ونستطيع وصف السلطة العباسية بأنها كانت في مقر الخلافة، أما في الأمصار فقد كان الأمر بيد الولاة، وكان الذي يحافظ على الاتصال بين عاصمة الحكم والولاة هو الجيش لا غير، وكان كل والٍ له مركز شرطة لا يقوى على الوقوف أمام نهوض شعبي إذا ما قام. ولذلك نرى أن المأمون لما ولى محمد الزيادي^(١) سنة ٢٠٢ هـ، بلاد تهامة أرسل معه جيشاً لكي يُعيد سلطة العباسيين عليها، إلا أن محمداً سرعان ما كوّن بهذا الجيش الذي لديه دولة مستقلة، وهي دولة الزيدية في اليمن^(٢).

لقد كان الترابط العضوي بين الرأس وباقي الأعضاء في الحكم العباسي على وشك الانحلال والتمزُّق، والذي بقي كرابط وحيد هو الجيش فقط، وذلك لضمان وصول الأموال إلى مقر الخلافة، حتى إنه في حادثة خلع الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد، قام بمشورة أفراده وأركان النظام الذين لا بد من موافقتهم، فقال له هرثمة بن حازم: «يا أمير المؤمنين، لن ينصحك من كذبك، ولن يغشك من صدقك، لا تُجرئ القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك ويبيعك»^(٣).

وهذا يدل على أن قواد الجيش كانوا هم السلطة الحقيقية بعد الخليفة.

(١) محمد بن عبدالله زياد [ت: ٢٤٥ هـ] (الزيادي)، أول من ولي اليمن من آل زياد. الأعلام، ج ٦، ص ٢٢٢.

(٢) وذلك على أثر ثورة قامت بها قبيلتا الأشاعرة وعك ضد المأمون بصنعاء. تأسست الدولة سنة ٢٠٢ هـ وقامت حتى عام ٤١٢ هـ. للاستزادة طالع كتاب: الفضل المزيّد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زيد.

(٣) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٨٩. تاريخ الإسلام، ج ١٣، ص ٢١.

سادساً: انحطاط النظام

أما العامل السادس فكان تفشي الصفات السيئة والانحطاطية في النظام، الذي كان بدوره يُشيعها في الناس، كالرشوة والغدر وبيع الضمائر وإلى آخر أمثال هذه الصفات. وعلى سبيل المثال لا الحصر: إن جعفر بن يحيى، وهو أحد الوزراء المعتمدين في الخلافة العباسية، كان يجلس للشراب ويخلو بندمائه الذين يأنس إليهم، ثم يهيم المجلس، ويلبسون الثياب المصبوغة، ويغرقون في الفواحش، حتى أنه مرة جاء عبد الملك بن صالح بن علي العباسي إلى هذا المجلس، وكان شديد الوقار والحشمة في البيت العباسي، فلما رآه جعفر بن يحيى استحي، إلا أن عبد الملك بادره قائلاً: «لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئاً، وأحضر له قميص مصبوغ، فلبسه وجلس يياسط جعفر بن يحيى ويمازحه. وقال: اسقونا من شرابكم. فسقوه رطلاً، وقال: ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا. ثم باسطهم ومازحهم...»^(١).

هذه إحدى القصص التي يوجد المئات من أمثالها في كتب التاريخ.

سابعاً: الدويلات المستقلة

والعامل الأخير هو وجود الدويلات المستقلة عن السلطة العباسية كالأدارسة والأغالبة. فوجود مثل هذه الدول كان دليل الضعف المستشري في الدولة العباسية.

لهذه الأسباب نعرف أن الضغط الجماهيري الذي كان يطالب بالخلاص من القيادة الفاسدة الحاكمة باسم الدين، وإعادة الخلافة إلى مجراها الشرعي المتمثل في الإمام الرضا عليه السلام كان قوياً. حتى إن المأمون بعد تقليده العهد للإمام عليه السلام طلب منه أن يركب ويحضر العيد حيث قال المأمون: «إِنَّمَا أُريدُ بِهَذَا أَنْ يَرْضَخَ فِي

قُلُوبِ الْعَامَّةِ وَالْجُنْدِ وَالشَّاكِرِيَّةِ هَذَا الْأَمْرُ، فَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ وَيَقْرَؤُوا بِمَا فَضَّلَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ»^(١).

وقد قلنا فيما سبق: إنه في أيام المأمون كانت هناك دولة تابعة للرساليين في المغرب وهي دولة الأدارسة، وكذلك كانت في الحجاز دولة بقيادة محمد بن جعفر الصادق عليه السلام، عم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

وقد ثار محمد بن جعفر في المدينة المنورة التي ظلت تُشكّل القيادة الروحية والعلمية للأمة الإسلامية، وذلك بسبب النشاط العلمي والتربوي للأئمة الأطهار عليه السلام وبالأخص الإمام الباقر، والإمام الصادق عليه السلام، ولذلك فإن أئمة المذاهب الأخرى كالشافعي - من أهل مصر -، ومالك بن أنس، وأبو حنيفة - من أهل الكوفة ولكنه كان يُقيم في المدينة للدراسة - كانوا في المدينة المنورة، وهي منطقة أساسية واستراتيجية بالنسبة للدولة الإسلامية آنئذ.

وقد بايع أهل المدينة محمد بن جعفر على أنه أحق بالخلافة من المأمون ومن البيت العباسي كله^(٢)، ولم يقرّ للمأمون قرار، فبعث بجيش جرار لمحاربة محمد فانهزم محمد بن جعفر، ولكن لم يستطع المأمون العباسي قتله مع أنه قبض عليه في النهاية^(٣).

ليس لأن المأمون كان رجلاً تقيّاً فلم يقتل محمد الثائر عليه، فالمأمون هو حفيد الهادي العباسي الذي قُتل ونُكِّل بأسرى فخ من الأطفال والنساء والشيوخ بعد أن جيء بهم إلى ذلك الطاغية، فقام أحد الشعراء المتزلفين وألقى شعراً حاقدًا فأمر الهادي بقتلهم عن بكرة أبيهم.

فالمأمون العباسي من تلك الشجرة الخبيثة نفسها، وهو الذي لم يتورع عن

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٤٩. بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٣٣.

(٢) الكامل في التاريخ، ج ٦، ٣١١. منتهى الآمال، ج ٢، ص ٢١٢. مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٣٩.

(٣) الفخري، ص ٢١٧.

قتل ساعده الأيمن الفضل بن سهل، فكيف يُحجم عن قتل عدوه محمد، بل إنه طلبه فجاءوا به إلى خراسان^(١)، فأكرمه وأعزه وأعطاه من الأموال والضياع بالمقدار الكافي وتسامح معه برغم أنه لم يُبايعه بعد ذلك، بل وبقي يشتمه ويتكلم ضده في مجلسه، فلم يسلم منه المأمون إلى أن مات، فلما مات شيعه المأمون وجاء شخصياً ونزل إلى القبر وأخذ جسده ودفنه ثم قال - لأبناء محمد -: «هذه رحم مجفوة منذ مائتي سنة».

وقضى دينه، وكان عليه نحوًا من ثلاثين ألف دينار^(٢).

إن المأمون لم يجرؤ على قتل محمد لأن الحركة الرسالية آنثذ كانت قد وصلت إلى مستوى عظيم من القوة، والرسوخ، والانتشار بين قطاعات الدولة الرسمية منها والشعبية.

ثورة أبي السرايا

خرج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل وهو ابن طباطبا بن إبراهيم بن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الكوفة، وكان على موعد مع السري بن منصور (أحد بني ربيعة) بن ذهل بن شيان (أبي السرايا) في يوم حدّ دوه.

وكان أبو السرايا قد جاء إلى قبر الإمام الحسين عليه السلام ليجمع من يرى من الرساليين، حيث إن قبر الإمام الحسين عليه السلام ظل منطلقاً للثورات، ومركزاً يلجأ إليه الثوار.

قال نصر بن مزاحم: «فحدثني رجل من أهل المدائن، قال: إني لعند قبر الحسين في تلك الليلة، وكانت ليلة ذات ريح ورعد ومطر، إذا بفرسان قد أقبلوا فترجّلوا ودخلوا إلى القبر فسلموا، وأطال رجل منهم الزيارة، ثم جعل يتمثل

(١) أشخص إليه رجاء بن أبي الضحاك. راجع: تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٥٤٤. الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٣١٩.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٤٤١. المنتظم، ج ١٠، ص ١٢١.

أبيات منصور بن الزبير قان النّمرى^(١):

نفسى فداء الحسين يوم عدا^(٢) إلى المنايا عدوّ لا قافل
ذاك يوم أنحى بشفرته على سنام الإسلام والكاهل
كأنما انت تعجبين ألا ينزل بالقوم نقمة العاجل
لا يعجل الله إن عجلت وما ربك عمّا ترين بالغافل
مظلومة والنبي والدها يدير أرجاء مقلّة جافل
ألا مساعير يغضبون لها بسلة البيض والقنا الذابل
قال: ثم أقبل عليّ، فقال: ممّن الرجل؟

فقلت: رجل من الدهاقين من أهل المدائن.

فقال سبحانه الله، يحنّ الولي إلى وليّه كما تحنّ الناقة إلى حوارها، يا شيخ إن هذا موقف يكثّر لك عند الله شكره ويعظم أجره.

قال: ثم وثب؛ فقال: من كان ها هنا من الزيدية فليقم إليّ، فوثبت إليه جماعات من الناس، فدنوا منه فخطبهم خطبة طويلة ذكر فيها أهل البيت وفضلهم وما خُصّوا به، وذكر فعل الأئمة بهم وظلمهم لهم، وذكر الحسين بن علي فقال: أيها الناس، هبكم لم تحضروا الحسين فتنصروه، فما يُعقدكم عمّن أدركتموه ولحقتموه؟ وهو غداً خارج طالب بثأره وحقه، وتراث آبائه وإقامة دين الله، وما يمنعكم من نصرته ومؤازرته؟ إنني خارج من وجهي هذا إلى الكوفة للقيام بأمر الله، والذّب عن دينه، والنصر لأهل بيته، فمن كان له نية في ذلك فليلحق بي. ثم مضى من فوره عائداً إلى الكوفة ومعه أصحابه^(٣).

(١) من الشيعة والموالين المؤمنين، كان مع الرشيد مقدماً، وكان الرشيد يُعطيه ويُجزل له في العطاء، وكان النّمرى يظهر له أنه عباسي الرأي منافر لآل علي عليه السلام. طالع: الشعر والشعراء، ج ٢، ص ٨٤٧. وأيضاً: أعيان الشيعة، ج ١٠، ص ١٣٨. معالم العلماء، ص ١٥٢.

(٢) في أعيان الشيعة (ج ١٠، ص ١٤٠) يوم غدا، غدو.

(٣) مقاتل الطالبين، ص ٤٢٧.

قال: «وخرج محمد بن إبراهيم في اليوم الذي واعد فيه أبا السرايا للاجتماع بالكوفة، وأظهر نفسه وبرز إلى ظهر الكوفة، ومعه علي بن عبيد الله [عبد الله] بن الحسين ابن الإمام علي بن الحسين عليه السلام، وأهل الكوفة منبثون مثل الجراد، وإلا أنهم على غير نظام وغير قوة ولا سلاح إلا العصي والسكاكين والآجر، فلم يزل محمد بن إبراهيم ومن معه ينتظر أبا السرايا.. حتى طلع عليهم من نحو الجرف... فتنادى الناس بالبشارة فكبروا، ونظروا فإذا هو أبو السرايا ومن معه، فلما أبصر محمد بن إبراهيم ترجل وأقبل إليه فانكب عليه واعتنقه محمد، ثم قال: يا بن رسول الله، ما يُقيمك ها هنا؟. ادخل البلد فما يمنعك منه أحد؟.

فدخل هو وخطب الناس، ودعاهم إلى البيعة إلى الرضا من آل محمد عليه السلام، والدعاء إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسيرة بحكم الكتاب.

فبايعه جميع الناس حتى تكابسوا وازدحموا عليه»^(١).

العباسيون يواجهون الثورة

ولما علم والي المأمون العباسي على بغداد الحسن بن سهل^(٢) بما حدث في الكوفة «دعا زهير بن المسيب^(٣)، فضم إليه الرجال وأمدّه بالأموال وندبه إلى المسير نحو أبي السرايا، وأن يودعه من وقته ويمضي لوجهه فيه ولا ينزل إلا بالكوفة...

.. فسار زهير بن المسيب حتى ورد قصر ابن هبيرة فأقام به، ووجه ابنه أزهر

(١) مقاتل الطالبيين، ص ٤٢٨.

(٢) ابن عبد الله السرخسي [١٦٦-٢٣٦هـ]، أخو الفضل بن سهل (ذي الرئاستين)، وزير المأمون العباسي، وأحد كبار القادة والولاة في عصره. والد (بوران) زوجة المأمون، وكان المأمون يُجِلُّه ويُبالغ في إكرامه، تُوفي في سرخس (من بلاد خراسان). الأعلام، ج ٢، ص ١٩٢.

(٣) الضبي [ت: ٢٠١هـ]، أحد القادة في العصر العباسي. كان مع المأمون في ثورته على الأمين، واستعمله الحسن بن سهل على جوخي (بين خانقين وخوزستان)، فلما قامت الفتنة على الحسن ببغداد وامتدت إلى الأطراف أسر فيها زهير، وقُتل ذبحاً. الأعلام، ج ٣، ص ٥٢.

ابن زهير على مقدمته، فنزل سوق أسد. وسار أبو السرايا من الكوفة وقت العصر فأغذ السير حتى أتى معسكر أزهر بن زهير بسوق أسد، وهم غارون فيه وبيته، فطحن العسكر وأكثر القتل فيه، وغنم دوابهم وأسلحتهم، وانقطع الباقون في الليل منهزمين حتى وافت زهيراً بالقصر فتغيظ من ذلك.

ورجع أبو السرايا إلى الكوفة، وزحف زهير حتى نزل، ووافت خريطة من الحسن بن سهل، يأمره ألا ينزل إلا بالكوفة، فمضى حتى نزل عند القنطرة.

ونادى أبو السرايا في الناس بالخروج، فخرجوا حتى صادفوا زهيراً على قنطرة الكوفة في عشية صردة باردة، فهم يوقدون النار يستدفئون بها، ويذكرون الله ويقرؤون القرآن وأبو السرايا يسكن منهم ويحثهم.

وأقبل أهل بغداد يصيحون: يا أهل الكوفة، زينوا نساءكم وأخواتكم وبناتكم للفجور، والله لنفعلنَّ بهم كذا وكذا، ولا يُكنُّون...

وأبو السرايا يقول لهم: اذكروا الله وتوبوا إليه، واستغفروه واستعينوه.

فلم يزل الناس في تلك الليلة يتحارسون طول ليلتهم، حتى إذا أصبح نهد إليهم فوقف في عسكره، وقد عشيت أبصار الناس من الدروع والبيض والجواش وهم على تعبئة حسنة، وأصوات الطبول والبوقات مثل الرعد العاصف.

وأبو السرايا يقول: يا أهل الكوفة، صحَّحوا نياتكم، وأخلصوا الله ضمائركم، واستنصروه على عدوكم، وابرؤوا إليه من حولكم وقوتكم، واقرؤوا القرآن، ومن كان يروي الشعر فليشد شعر عنتره العبسي...

قال: ووقف الحسن بن هذيل -وهو من أصحاب الحسين شهيد فسخ يُعْبَى الناس للقتال- قائلاً: «.. هذا موقف تُستزَلُّ فيه الأقدام، وتُزِيل فيه الأفعال، والسعيد من حاط دينه، والرشيد من وقى الله بعهدده، وحفظ محمداً في عترته، ألا إن الآجال موقوتة، والأيام ممدودة، من هرب بنفسه من الموت كان الموت محيطاً به، ثم قال:

من لم يمت عبطة يمت هرمًا الموت كأس والمرء ذائقها
قال أبو الفرج الأصفهاني: ... فطلع رجل من أهل بغداد مستلثمًا شاكبي
السلاح، فجعل يشتم أهل الكوفة ويقول: لنفجرن بنسائكُم ولنفعلن بكم
ولنصنعن ...

وانتدب إليه رجل من أهل الوازار - قرية بباب الكوفة - عليه إزار أحمر وفي
يده سكين، فألقى نفسه في الفرات وسبح ساعة حتى صار إليه، فدنا منه فأدخل يده
في جيب درعه وجذبه إليه فصرعه، وضرب بالسكين حلقه فقتله، وجر برجله
يطفو مرة ويغوص مرة أخرى حتى أخرجه إلى الكوفة، فكبر الناس وارتفعت
أصواتهم بحمد الله والثناء عليه والدعاء.

ثم دعا (أبو السرايا) غلاماً له فوجّهه في نفر من أصحابه وأمره أن يمضي
حتى يصير من وراء العسكر، ثم يحمل عليهم. فمضى الغلام لوجهه مع من معه،
قاصداً لما أمره به.

ووقف أبو السرايا على القنطرة، على فرس له أدهم مخدوف، وقد اتكأ على
رحمه فنام على ظهر الفرس حتى غطّ، وأهل الكوفة، جزعون لما يرونه من عسكر
زهير، ويسمعونه من تهديدهم ووعيدهم، وهم يضجون ويصيحون بالتكبير
والتهليل، حتى يسمع أبو السرايا فينتبه من نومه، فلم ينتبه حتى ظن أن الكمين
الذي بعثه قد انتهى إلى حيث أمره فصاح بفرسه: قتال. ثم قنعه حتى رضي بحفزه،
ثم أوماً بيده نحو الكمين الذي بعثه، وصاح بأهل الكوفة: احمّلوا، وحمل وتبعوه،
فلم يبقَ من أصحاب زهير أحد إلا التفت نحو الإشارة.

وخالط أبو السرايا وغلامه سيار العسكر، وتبعه أهل الكوفة وصاح بغلامه:
ويلك يا سيار، ألا تراني. فحمل سيار على صاحب العلم فقتله وسقط العلم،
وانهزمت المسودة، وتبعهم أبو السرايا وأصحابه ونادى: من نزل عن فرسه فهو
آمن.

فجعلوا يترجّلون، وأصحاب أبي السرايا يركبون، وتبعوهم حتى جاوزوا شاهي، ثم التفت زهير إلى أبي السرايا فقال: ويحك، أتريد هزيمة أكثر من هذه، إلى أين تتبعني؟.

فرجع وتركه^(١).

هزيمة عبدوس

«واشتد غمّ الحسن بن سهل ومن بحضرته من العباسيين، لما جرى على عسكر زهير، وطال اهتمامهم به، فدعا الحسن بن سهل بعبدوس بن عبد الصمد^(٢)، وضم إليه ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، وأزاح علته في الإعطاء. وقال: إنما أريد أن أنوّه باسمك فانظر كيف تكون؟.

وأوصاه بما احتاج إليه، وأمره ألا يلبث. فخرج من بين يديه وهو يحلف أن يبيح الكوفة، ويقتل مقاتلة أهلها، ويسبي ذراريهم، ثلاثاً.

ومضى لوجهه لا يلوي على شيء حتى صار إلى الجامع، وقد كان الحسن بن سهل تقدّم إليه بذلك وأمره ألا يأخذ على الطريق الذي انهزم فيه زهير، لئلا يرى أصحابه بقايا قتلى عسكره، فيجنبوا من ذلك. فأخذ على الطريق الجامع، فلما وافاها وبلغ أبا السرايا خبره، صلّى الظهر بالكوفة، ثم جرّد فرسان أصحابه ومن يثق به منهم وأغذّ السير بهم، حتى إذا قرب من الجامع فرّق أصحابه ثلاث فرق. وقال: شعاركم: (يا فاطمي يا منصور). وأخذ هو في جانب السوق، وأخذ سيار في سيره الجامع، وقال لأبي الهرماس: خذ بأصحابك على القرية فلا يفتك أحد منهم، ثم احمّلوا دفعة واحدة من جوانب عسكر عبدوس.

(١) مقاتل الطالبيين، ص ٤٢٩-٤٣٢.

(٢) عبدوس بن محمد المروزي. على ما جاء في تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٥٣٠، والكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٣٠٥.

ففعّلوا ذلك فأوقعوا به وقتلوا منه مقتلة عظيمة، وجعل الجند يتهافون في
الفرات طلباً للنجاة، حتى غرق منهم خلق كثير. ولقي أبو السرايا عبدوساً في
رحبة الجامع فكشف خوذته عن رأسه وصاح: أنا أبو السرايا، أنا أسد بني شيبان.
ثم حمل عليه، وولى عبدوس من بين يديه، وتبعه أبو السرايا فضربه على رأسه
ضربة فلقت هامته وخرّ صريعاً عن فرسه.

وانتهب الناس من أصحاب أبي السرايا، وأهل الجامع عسكر عبدوس،
وأصابوا منه غنيمة عظيمة، وانصرفوا إلى الكوفة بقوة وأسلحة^(١).

وفاة محمد بن إبراهيم

«.. ودخل أبو السرايا إلى محمد بن إبراهيم وهو عليل يجود بنفسه فلامه على
تبيته العسكر. وقال: أنا أبرأ إلى الله ممّا فعلت، فما كان لك أن تبيتهم، ولا تقتلهم
حتى تدعوهم، وما كان لك أن تأخذ من عسكرهم إلّا ما أجلبوا به علينا من
السلاح.

فقال أبو السرايا: يا بن رسول الله، كان هذا تدبير الحرب ولست أعاود مثله.

ثم رأى في وجه محمد الموت فقال له: يا بن رسول الله، كل حي ميت، وكل
جديد بالٍ، فاعهد إليّ عهدك.

فقال: أوصيك بتقوى الله والمقام على الذب عن دينك ونصرة أهل بيت نبيك
ﷺ، فإن أنفسهم موصولة بنفسك وولّ الناس الخيرة فيمن يقوم مقامي من آل
علي، فإن اختلفوا في الأمر فإلى علي بن عبيدالله، فإني قد بليت طريقتي ورضيت
دينه^(٢).

وهذا اللوم من محمد بن إبراهيم للسري بن منصور ليس من قبيل المعاتبة

(١) مقاتل الطالبيين، ص ٤٣٢-٤٣٣.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص ٤٣٤.

بقدر ما هو توضيح وتأکید من محمد بأن هدفنا معروف وهو الحق، فلا يمكن أن ترتكب أعمال مشوبة بالباطل. فالثائر الرسالي يجب أن يبقى حتى الأخير محافظاً على قيمه، فهو لم يحارب إلا لأجلها لا غيرها. وهذا يُمثل أروع آيات الاستقامة والإخلاص للمبدأ عند ثوار الحركة الرسالية.

وفي المقابل كان جيش العباسيين يُنادي على الثوار: «زيّنوا نساءكم وأخواتكم وبناتكم للفجور، والله لنفعلنَّ بهم كذا وكذا، ولا يُكنُّون»^(١).

انتخاب محمد بن زيد قائداً للثورة

بعد ذلك جمع أبو السرايا الناس «فخطبهم ونعى محمداً إليهم وعزّاهم فيه، فارتفعت الأصوات بالبكاء إعظاماً لوفاته.

ثم قال: وقد أوصى أبو عبدالله (رحمة الله عليه) إلى شبيهه ومن اختاره، وهو أبو الحسن علي بن عبيد الله، فإن رضيتم به فهو الرضا، وإلا فاختاروا لأنفسكم.

فتواكلوا ونظر بعضهم إلى بعض فلم ينطق منهم أحد، فتقدّم محمد بن محمد بن زيد - (الثائر ابن الإمام علي بن الحسين عليه السلام) - وهو غلام حدث السن... فقال: يا آل علي؛ إن دين الله لا يُنصر بالفشل، وليست يد هذا الرجل عندنا بسيئة، وقد شفى الغليل وأدرك الثار.

ثم التفت إلى علي بن عبدالله، فقال: ما تقول يا أبا الحسن رضي الله عنك؟. فقد وصّانا بك، امُدّ يدك بُبايعك.

فحمد الله وأنسى عليه، ثم قال: إن أبا عبيد الله (رحمة الله عليه) قد اختار فلم يعد الثقة في نفسه، ولم يأل جهداً في حق الله الذي قلده، وما أردُّ وصيته تهاوناً بأمره، ولا أدع هذا نكولاً عنه، ولكن أُنخوف أن اشتغل به عن غيره ممّا هو أحد وأفضل عاقبة، فامض - رحمك الله - لأمرك، واجمع شمل ابن عمك، فقد قلدناك الرياسة

علينا، وأنت للرضا معدن الثقة في أنفسنا.

ثم قال لأبي السرايا: ما ترى؟ أرضيت به؟ (أي بمحمد بن محمد بن زيد).
قال: رضائي في رضاك، وقولي مع قولك، ف جذبوا محمد بن محمد
فبايعوه...»^(١).

وهذا يدل على أن الثوار لم يكونوا ينادون بالأهداف والقيم كشعار فقط،
وإنما كانوا يعيشونها عملياً.

ترى كيف يُبايع علي بن عبيد الله غلاماً حدثاً، وهو محمد بن محمد بن زيد،
ويُنكر نفسه؟ وهذا شيء نادر لا تعثر عليه الآن عند أصحاب الرايات الثورية،
وهم بهذا العمل قد أكدوا وطَبَّقوا قيمة مهمة في القيادة، وهي أن الأكفأ هو الذي
يجب أن يقود، وليس الأسنَّ أو غير ذلك من الاعتبارات.

محمد بن زيد يُعيِّن الوكلاء

بعد أن بايع أهل الكوفة محمد بن محمد بن زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين
عليه السلام، قام محمد بأرسال وكلائه على المناطق، فعقد لإبراهيم بن موسى بن جعفر
عليه السلام على اليمن، وولَّى زيد بن موسى بن جعفر عليه السلام الأهواز، وولَّى العباس بن
محمد بن عيسى البصرة، وولَّى الحسن بن الحسن الأفطس مكة. وعقد لجعفر بن
محمد بن زيد، والحسين بن إبراهيم بن الحسن، واسطاً، فخرجوا إلى أعمالهم، وأقام
ابن الأفطس^(٢) الحج تلك السنة وهي سنة مئة وتسع وتسعون^(٣).

وكتب إليه أهل الشام والجزيرة أنهم ينتظرون أن يُوجَّه إليهم رسولا ليسمعوا
له ويطيعوا. وعظم أمر الثورة على الحسن بن سهل وبلغ منه كل مبلغ حتى كتب إلى

(١) مقاتل الطالبين، ص ٤٣٥.

(٢) هو: حسين بن حسن الأفطس بن الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

(٣) مقاتل الطالبين، ص ٤٣٥. تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٤٤٥.

هرثمة لكي يقود جيوش بني العباس للقضاء على الثورة، وكان هرثمة على خلاف مع الحسن بن سهل، ولكنه اضطر إلى ذلك^(١).

هرثمة يقود جيوش العباسيين

أخذت السلطة العباسية تحوم حول نفسها خوفاً من ازدياد خطر الثورة، فقامت بحشد كل جيوشها، وكتبت لطاهر بن الحسين الخزاعي فرفض بآيات شعر محاربة هذه الثورة التي يتعاطف معها ويدين بها^(٢).

وكتبت لهرثمة بن أعين تُسيل له لعبه وتُنيه تارة، وتارة تُدغدغ عواطفه حتى وافق على قيادة الجيوش التي بلغت ثلاثين ألف فارس وراجل، في مقابل الثوار الذين كانوا أقل عدداً، فدار قتال كثيف وحمي الوطيس والثوار لا زالوا عند ثباتهم لم يتقهقروا، وما انفك جيش العباسيين يحبك الخدع فيُحبطها جيش الثوار. واستشهد أثناء ذلك الحسن بن الحسين (ذو الدمة بن زيد بن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام))، وهم في غليان الحرب يصيحون من حناجرهم بالتكبير والحماس يدبّ فيهم أكثر، فالساعة لا يثبت إلا من امتحن الله قلبه وصدق الإيمان عمله.

(١) جاء في تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٥٣٠: «فلما رأى الحسن بن سهل أن أبا السرايا ومن معه لا يلقون عسكرياً إلا هزموه، ولا يتوجّهون إلى بلد إلا دخلوها، ولم يجد معه من القواد من يكفيه حربه، اضطر إلى هرثمة، وكان هرثمة حين قدم عليه الحسن بن سهل والياً عليها من قبل المأمون، سلّم له ما كان بيده بها من الأعمال، وتوجّه نحو خراسان مغاضباً للحسن...». ومثله في المنتظم، ج ١٠، ص ٧٥.

ويقول أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبين، ص ٤٣٨: «وأمر الحسن بن سهل بدواوين الجيش فنقلت إليه (الهرثمة) ليختار الرجال منها ويتخبهم، وأطلق له بيوت الأموال، فانتخب من أراد، وأزاح الغلة في العطيات والنفقات...». كل ذلك يدل على عظم الخطر الذي شكّله ثورة أبي السرايا على الدولة العباسية، وهذا ما دفع المأمون إلى تقريب الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) إليه وعهده بولاية الأمر إليه، أملاً منه في سحب البساط من تحت أرجل الحركة الرسالية التي انتشرت في عهده في كل مكان. ويضيف الأصفهاني، ص ٤٤٧: «وُنظِرَ في الدواوين فُوجِدَ من قُتِلَ من أصحاب السلطان في وقائع أبي السرايا ماثناً ألف رجل». (٢) طالع: مقاتل الطالبين، ص ٤٣٦.

«فاشتدت الحرب وكشف أبو السرايا رأسه وجعل يقول: أيها الناس، صبر ساعة وثبات قليل فقد -والله- فشل القوم ولم يبقَ إلَّا هزيمتهم.

ثم حمل وخرج إليه قائد من قواد هرثمة وعليه الدرع والمغفر، فتناوشا ساعة، ثم ضربه أبو السرايا على بيضته ففقدَه حتى خالط سيفه قربوس سرجه. فانهزمت المسوِّدة هزيمة قبيحة. ووقع هرثمة في الأسر بغير علم أبي السرايا -وكان هرثمة- قد خلَّف في عسكره زهاء خمسة آلاف فارس يكونون احتياطاً له إذا انهزم أصحابه.

فلما انهزم أصحابه وأسر هو، حملت هذه الفرقة الاحتياطية من جيش هرثمة والمكونة من خمسة آلاف على جيش الثوار فتكافأت الجهتان مرة أخرى وخُلِّص هرثمة من الأسر.

إلَّا أن هرثمة لم يبقَ له طائل في المعركة فصاح: «يا أهل الكوفة، علام تسفكون دماءنا ودماءكم؟، إن كان قتالكم إيانا كراهية لإمامنا فهذا المنصور بن المهدي رضي لنا ولكم نبايعه، وإن أحببتم إخراج الأمر من ولد العباس فانصبوا أمامكم، واتَّفَقُوا معنا ليوم الاثنين تتناظر فيه، ولا تقتلونا وأنفسكم».

فأمسك أهل الكوفة عن الحملة، وناداهم أبو السرايا: ويحكم، إن هذه حيلة من هؤلاء... وإنما أيقنوا بالهلاك فاحملوا عليهم...

فامتنعوا وقالوا: لا يحل لنا قتالهم وقد أجابوا^(١).

كان أبو السرايا، ينظر إلى ما وراء ذلك، وأن ذلك ليس إلَّا خدعة من جيش العباسيين عندما أحسوا بالهزيمة والإنهاك، وأن الإبقاء على هذا الوضع العسكري يُعطي الأمل للسلطات العباسية في القضاء على الثوار عن بكرة أبيهم، والحسم في الساحة الآن يُضعف هذا الأمل، ويمنع النظام العباسي معاودة الكرة سريعاً، اللهم إلَّا بعد فترة تطول ريثما يستعيد النظام تماسكه النفسي والعسكري.

فعملية وقف القتال في هذا الظرف تعني فشل الثورة. إلا أن الجموع المقاتلة لم تكن تعي هذه الحقيقة، أو ربما لم تُوازن بين ما هو حق وما هو باطل، فالقتال الآن ليس باطلاً وجوراً وابتعاداً عن القيم والحق.

توقف القتال فأحس أبو السرايا أن مرام العباسيين قد تحقّق وأن جيشه لم يعد يملك إرادة القتال. ثم إن جيش العباسيين دخل الكوفة وأحاط بمنافذها، ودخلها المنصور بن المهدي، وقد توالى الإمدادات على جيش هزيمة بعد ما أحسّت السلطات العباسية بنبرة وقف القتال. فقرر أبو السرايا الخروج من الكوفة والتوجّه إلى موقع أفضل يمكنه من هناك معاودة الكرة على جيوش بني العباس.

فتوجّه أبو السرايا قاصداً البصرة، فلقه أعرابي من أهل البلد، فسأله أبو السرايا عن الخبر، فأعلمه أنّ السلطات العباسية غلبت عليها وأخرجت عماله، فعدل عن البصرة وأراد المسير نحو واسط، فأعلمه الرجال أن صورة أمرها مثل البصرة قد غلب السلطان عليها وأخرج الولاة.

فعمد إلى الأهواز حتى صار إلى السوس، فأغلقوا الباب دونه فأمرهم بفتحه ففتحوه، فدخل الأهواز إلا أنه ما شعر إلا وجيش العباسيين قد جاء قفاه بقيادة الحسن بن علي المأموني، فقاتل قتالاً شديداً، حتى أوشك أبو السرايا على الانتصار لولا خدعة انغرّ بها غلام له، وبعدها ألقي القبض على السري بن المنصور، حيث أرسل إلى الحسن بن سهل في بغداد فأمر بضرب عنقه، ثم أمر برأسه فصلب في الجانب الشرقي، وصلب بدنه في الجانب الغربي، وأرسل محمد بن محمد بن زيد إلى خراسان حيث تعجّب المأمون من حادثة سنّه ولكن لم يجزؤ المأمون على إعدامه علانية، إذ إن المأمون لا يأمن أن تقوم موجة ثائرة أخرى، تُطيح بعرشه، بعدما ثبت أمام هذه الموجة الثائرة، ولكنه أسكته ووفر له وسائل الترفيه حتى إذا استقر دسّ له السم فقتل^(١).

(١) مقاتل الطالبين، ص ٤٤٥-٤٤٦. بتصرف يسير.

وخلاصة القول: إن الهزّة التي أحدثتها ثورة أبي السرايا ليست بالهينة، كما أن الجبهات التي فتحتها في الأمصار استمرت لمدة دفعت السلطات العباسية إلى طلب الهدنة مع الحركات الرسالية، وهذا يبيّن لنا السبب الذي جعل المأمون العباسي يأتي بالإمام الرضا عليه السلام من المدينة المنورة إلى خراسان، وما عرض عليه من أمر الخلافة فلم يقبل الإمام ففرض عليه ولاية العهد.

وقد يتسائل البعض: ألم يكن من الأفضل للإمام الرضا عليه السلام أن يرفض ولاية العهد؟.

هناك بعض الروايات تقول: إن الامام الرضا عليه السلام كان مجبراً على قبول ولاية العهد، وأنه حينما جيء به إلى خراسان طلبه المأمون فقال له: «فإني قد رأيْتُ أن أعزّل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأبايعك..»

فرفض الإمام عليه السلام القبول.

فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا بُدَّ لَكَ مِنْ قَبُولِ هَذَا الْأَمْرِ!.

فَقَالَ عليه السلام: لَسْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ طَائِعاً أَبَداً.

فَمَا زَالَ يُجَاهِدُ بِهِ أَيَّاماً حَتَّى يَتَّسَ مِنْ قَبُولِهِ.

فَقَالَ لَهُ: فَإِنْ لَمْ تَقْبَلِ الْخِلَافَةَ وَلَمْ تُحِبَّ مُبَايَعَتِي لَكَ فَكُنْ وَلِيَّ عَهْدِي لِتَكُونَ لَكَ الْخِلَافَةُ بَعْدِي.

فَقَالَ الرُّضَا عليه السلام: وَاللَّهِ لَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا قَبْلَكَ مَقْتُولاً بِالسَّمِّ مَظْلُوماً، تَبْكِي عَلَيَّ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ وَمَلَائِكَةُ الْأَرْضِ، وَأُذْفَنُ فِي أَرْضٍ غُرْبَةٍ إِلَى جَنْبِ هَارُونَ الرَّشِيدِ.

فَبَكَى الْمَأْمُونُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، وَمَنِ الَّذِي يَقْتُلُكَ أَوْ يَقْدِرُ عَلَى الْإِسَاءَةِ إِلَيْكَ وَأَنَا حَيٌّ!؟.

فَقَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَا إِنِّي لَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ مِنَ الَّذِي يَقْتُلُنِي لَقُلْتُ!.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، إِنَّمَا تُرِيدُ بِقَوْلِكَ هَذَا التَّخْفِيفَ عَنْ نَفْسِكَ وَدَفْعَ هَذَا الْأَمْرِ عَنْكَ، لِيَقُولَ النَّاسُ: إِنَّكَ زَاهِدٌ فِي الدُّنْيَا!.

فَقَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ مُنْذُ خَلَقَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا زَهَدْتُ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ مَا تُرِيدُ.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: وَمَا أُرِيدُ؟!

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْأَمَانُ عَلَى الصَّدِيقِ.

قَالَ: لَكَ الْأَمَانُ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: إِنَّ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى لَمْ يَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا بَلْ زَهَدَتْ الدُّنْيَا فِيهِ، أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ قَبِلَ وَلَايَةَ الْعَهْدِ طَمَعًا فِي الْخِلَافَةِ.

فَغَضِبَ الْمَأْمُونُ ثُمَّ قَالَ: إِنَّكَ تَتَلَفَّانِي أَبَدًا بِمَا أَكْرَهُهُ وَقَدْ آمَنْتَ سَطَوَتِي، فَبِاللَّهِ أَقْسِمُ لَئِنْ قَبِلْتَ وَلَايَةَ الْعَهْدِ وَإِلَّا أَجْبَرْتُكَ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ وَإِلَّا صَرَبْتُ عَنْقَكَ.

فَقَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَدْ نَهَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أُلْقِيَ بِيَدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا فَاَفْعَلْ مَا بَدَأَ لَكَ، وَأَنَا أَقْبَلُ ذَلِكَ عَلَى أَيْ لَا أُولِي أَحَدًا، وَلَا أَغْزِلُ أَحَدًا، وَلَا أَنْقُضُ رَسْمًا وَلَا سُنَّةً، وَأَكُونُ فِي الْأَمْرِ مِنْ بَعِيدٍ مُشِيرًا...»^(١).

فالقضية التي كان يُريد المأمون تنفيذها، هي إظهار أن قضية الإمام عليه السلام لم تكن قضية زهد وتقوى وعمل في سبيل الله، إنما كانت قضية تزهّد للمصلحة السلطوية، فينطبق عليه قول الشاعر:

صَلَّى وَصَامَ لِدُنْيَا كَانَ يَأْمُلُهَا فَقَدْ أَصَابَ فَلَا صَلَّى وَلَا صَامًا!^(٢)

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٢٨.

(٢) قول شريك بن عبد الله القاضي، طالع: التذكرة الحمدونية، ج ٣، ص ٨٦.

السحر ينقلب على الساحر

لقد كان المأمون العباسي يريد -حسب هذه الرواية- أن يُشهر ويقول للناس: إن قائد المعارضة وإمام الحركة الرسالية يقبل بولاية العهد، ومعنى ذلك أنه يريد السلطة، ولكن الظروف لا تُساعده على ذلك، إلا أن الإمام الرضا عليه السلام قلب المعادلة على المأمون، حينما استفاد من تلك الفرصة في بث علومه وتبيين معالم فضله وفضل آبائه الطاهرين.

لقد استسقى أهل خراسان الإمام الرضا عليه السلام لجفاف الماء عندهم وهلاك الزرع، فصلى بهم الإمام صلاة الاستسقاء ودعا لهم فنزل المطر بعد ذلك بإذن الله عز وجل^(١).

فقال أحد رجال المأمون له -وهو حميد بن مهران-: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أُعِيدُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَكُونَ تَارِيخَ الْخُلَفَاءِ فِي إِخْرَاجِكَ هَذَا الشَّرَفَ الْعَمِيمَ وَالْفَخْرَ الْعَظِيمَ مِنْ بَيْتِ وَلَدِ الْعَبَّاسِ إِلَى بَيْتِ وَلَدِ عَلِيٍّ، وَلَقَدْ أَعْنَتَ عَلَى نَفْسِكَ وَأَهْلِكَ، جِئْتَ بِهَذَا السَّاحِرِ وَلَدِ السَّحَرَةِ، وَقَدْ كَانَ خَامِلًا فَأَظْهَرْتَهُ، وَمُتَضِعًا فَرَفَعْتَهُ، وَمَنْسِيًا فَذَكَرْتَهُ بِهِ، وَمُسْتَخْفًا فَنَوَّهْتَ بِهِ، قَدْ مَلَأَ الدُّنْيَا مَحْرَقَةً وَتَشَوُّقًا بِهَذَا الْمَطَرِ الْوَارِدِ عِنْدَ دُعَائِهِ، مَا أَخَوْفَنِي أَنْ يُخْرِجَ هَذَا الرَّجُلُ هَذَا الْأَمْرَ عَنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ إِلَى وَلَدِ عَلِيٍّ، بَلْ مَا أَخَوْفَنِي أَنْ يَتَوَصَّلَ بِسُحْرِهِ إِلَى إِزَالَةِ نِعْمَتِكَ وَالتَّوْبِ عَلَى مَمْلَكَتِكَ، هَلْ جَنَى أَحَدٌ عَلَى نَفْسِهِ وَمُلْكِهِ مِثْلَ جِنَايَتِكَ؟!»

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: قَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مُسْتَتِرًا عَنَّا يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ فَأَرَدْنَا أَنْ نَجْعَلَهُ وَلِيَّ عَهْدِنَا لِيَكُونَ دُعَاؤُهُ لَنَا، وَلِيُعْرِفَ بِالْمُلْكِ وَالْخِلَافَةِ لَنَا، وَلِيَعْتَقِدَ فِيهِ الْمُفْتُونُونَ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا ادَّعَى فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، وَأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَنَا مِنْ دُونِهِ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَرَكْنَاهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ أَنْ يَنْفَتِقَ عَلَيْنَا مِنْهُ مَا لَا نُسَدُّهُ، وَيَأْتِي عَلَيْنَا مِنْهُ مَا لَا نُطِيقُهُ، وَالْآنَ فَلِإِذْ قَدْ فَعَلْنَا بِهِ مَا فَعَلْنَا، وَأَخْطَأْنَا فِي أَمْرِهِ بِمَا أَخْطَأْنَا، وَأَشْرَفْنَا مِنَ الْهَلَاكِ

(١) راجع: عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٧١. دلائل الإمامة، ص ١٩٩.

بِالتَّنْوِيهِ بِهِ عَلَى مَا أَشْرَفْنَا؛ فَلَيْسَ يَجُوزُ التَّهَؤُنُ فِي أَمْرِهِ، وَلَكِنَّا نَحْتَاجُ أَنْ نَضَعَ مِنْهُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى نُصَوِّرَهُ عِنْدَ الرَّعِيَّةِ بِصُورَةٍ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ هَذَا الْأَمْرَ، ثُمَّ نُدَبِّرُ فِيهِ بِمَا يَحْسِبُ عَنَّا مَوَادَّ بَلَايَةٍ»^(١).

يُصَوِّرُ المأمون هنا دوافع تولية العهد للإمام، وعلة جلب العلماء والمحدثين لنقاش الإمام الذي سرعان ما قلب المعادلة ضد المأمون، وخاف من النتائج العكسية التي نتجت من تولية الإمام ولاية العهد.

أسباب قبول الإمام الرضا بولاية العهد

إن منطق الأحداث كان يفرض على الإمام علي بن موسى عليه السلام أن يقبل ولاية العهد لعدة أسباب:

السبب الأول: إن عدم قبول الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد كان يعني - عند الأمة الإسلامية - عدم قبول الأئمة عليهم السلام للحكم، وكان ذلك يعطي الشرعية للطواغيت بعد عزوف الحكام الشرعيين عن الحكم، ولشاعت فكرة أن الدين شيء والدولة شيء آخر، وأن الإسلام لا يقبل بدمج الدين مع الدولة، وأنه يجب أن تكون في الأمة الإسلامية إمامة روحية فقط، وهي من حق أولاد الإمام علي وفاطمة عليه السلام، من الأئمة المعصومين عليهم السلام، وهي منفصلة تماماً عن السلطة السياسية التي هي من حق من يكون مسيطراً على الناس سياسياً، وعدم قبول الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد كان يرسخ تلك الفكرة، وأن: «ما لله الله، وما لقيصر لقيصر».

فالإمام عليه السلام إنما أراد نسف هذه الفكرة عملياً، وسد الطريق أمام من يُريدون نشر هذه الفكرة وإشاعتها، وذلك بقبوله ولاية العهد.

السبب الثاني: إن طريقة الأئمة عليهم السلام تقوم على تكريس الوعي في الأمة، وعدم جبر الناس على رأي معين. ولذلك عمل الأئمة على رفع مستوى وعي الأمة

حتى تستطيع بنفسها أن تستلم الأوضاع.

فلذلك كان الأئمة عليهم السلام يستفيدون من كافة الأوضاع حتى من الحكم، لأجل هذه الغاية. فحينما عرض عليهم أن يكونوا داخل الحكم، ويستفيدوا من الحرية ونوع من الرخاء، وينشروا مذهبهم وأفكارهم الرسالية في الأمة دون أن يُعطوا امتيازات للحكم، ودون أن يُؤيدوه (وسوف نشرح هذه النقطة لاحقاً) قبل به الإمام الرضا عليه السلام. وهذا الشيء هو الذي نوه إليه المأمون عندما انقلبت الآية عليه: «وَالآنَ فَإِذَا قَدْ فَعَلْنَا بِهِ مَا فَعَلْنَا، وَأَخْطَأْنَا فِي أَمْرِهِ بِمَا أَخْطَأْنَا، وَأَشْرَفْنَا مِنْ الْهَلَاكِ بِالتَّنْوِيهِ بِهِ عَلَيَّ مَا أَشْرَفْنَا؛ فَلَيْسَ يَجُوزُ التَّهَاوُنُ فِي أَمْرِهِ، وَلَكِنَّا نَحْتَاجُ أَنْ نَضَعَ مِنْهُ قَلِيلاً قَلِيلاً حَتَّى نَصَوِّرَهُ عِنْدَ الرَّعِيَّةِ بِصُورَةٍ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ لِهَذَا الْأَمْرِ، ثُمَّ نُدَبِّرَ فِيهِ بِمَا يَحْسِبُ عَنَّا مَوَادَّ بَلَائِهِ...».

فالتائج أتت معكوسة على المأمون.

السبب الثالث: إن الإمام الرضا عليه السلام كان يُريد إسقاط أدلة المأمون العباسي الذي كان يُريد أن يسقط الأئمة عليهم السلام، وبالتالي يمتص الحركة الرسالية، وكان يستخدم طريقة معينة وهي المجيء بالإمام الرضا عليه السلام، فإذا نفع فقد حقق أهدافه، وإذا لم ينفع فإنه يأتي بواحد من أولاد الأئمة كمحمد بن جعفر أو إسحاق بن موسى، أو أي واحد من أولاد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ويضعه في منصب ولي العهد، ويقول للمسلمين: إن كنتم تريدون حاكماً من البيت العلوي فهذا هو دونكم.

ومن المعروف أن عامة الناس باستثناء القليل منهم لا يمتلكون الوعي الكافي حتى يُميزوا بين الإمام الحقيقي الشرعي والإمام المزيف. فأكثر الناس ينظرون إلى الأسماء دون أن يفكروا في المسميات، لذلك فالكثير منهم لا يُميز بين الإمام المعصوم المنصوص عليه من أبناء علي، وبين العلوي غير المعصوم.

فهناك علوي وهو: الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وعلوي آخر وهو: علي بن

إسماعيل^(١)، الذي -حسب بعض الأقوال- كان هو الواشي بالإمام موسى بن جعفر، والمشارك في قتله^(٢).

كان بمقدور المأمون العباسي أن يأتي بواحد من هؤلاء الطالبين المتزلفين وينصبه ولياً للعهد، ويمتصّ قوى الحركة الرسالية.

ولكيلا يقوم المأمون العباسي بمثل هذه العملية، قبل الإمام عليه السلام بولاية العهد.

هذه بعض التفسيرات والأسباب التي نرى أنها كانت وراء قبول الإمام ولاية العهد. ومع أن البعض ونتيجة لعدم الإدراك الكامل لموقف الإمام عليه السلام يتحير في فهم هذا الموقف، والبعض هذا كان موجوداً قديماً كما هو موجود حالياً أيضاً، وقد أجاب الإمام عن ذلك بكل تفاصيل سيرته وبطيات مواقفه.

فقد روي عن الرّيان قال: «دَخَلْتُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: إِنَّكَ قَبِلْتَ وَلَايَةَ الْعَهْدِ مَعَ إِظْهَارِكَ الرُّهْدَ فِي الدُّنْيَا؟»

فَقَالَ عليه السلام: قَدْ عَلِمَ اللَّهُ كَرَاهَتِي لِذَلِكَ، فَلَمَّا خُبِرْتُ بَيْنَ قَبُولِ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْقَتْلِ، اخْتَرْتُ الْقَبُولَ عَلَى الْقَتْلِ، وَنَجَّيْتُ أَمَّا عَلِمُوا أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام كَانَ نَبِيًّا رَسُولًا فَلَمَّا دَفَعَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى تَوَلِّي خَزَائِنِ الْعَزِيزِ قَالَ لَهُ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾^(٣)، وَدَفَعْتَنِي الضَّرُورَةُ إِلَى قَبُولِ ذَلِكَ عَلَى إِكْرَاهٍ وَإِجْبَارٍ بَعْدَ الْإِشْرَافِ

(١) علي بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، روى الكشي في رجاله، ص ٢٦٥، عن علي بن جعفر قال: سمعت أخي موسى عليه السلام قال: قال أبي (الإمام الصادق عليه السلام) لعبد الله أخي: إليك ابني أخيك، فقد ملأني بالسَّقه، فإنها شرك شيطان، يعني محمد بن إسماعيل بن جعفر، وعلي بن إسماعيل بن جعفر. انظر: قاموس الرجال، ج ٧، ص ٣٦٧-٣٦٨.

(٢) انظر: عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ٦٩. بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٣١. الإرشاد، ج ٢، ص ٢٣٧. كشف الغمة، ج ٢، ص ٢٣٠. المناقب، ج ٤، ص ٣٠٨.

(٣) سورة يوسف، آية: ٥٥.

عَلَى الْهَلَاكِ، عَلَى أَبِي مَا دَخَلْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا دُخُولَ خَارِجٍ مِنْهُ. فَإِلَى اللَّهِ الْمُسْتَكَى وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ»^(١).

وهنا دلالة جلية تُبرهن على أن الأئمة المعصومين عليهم السلام ظلُّوا أبدأ قادة الحركة الرسالية في التاريخ، بل وللأمة الإسلامية قاطبة، حيث إن السلطات أرادت الائتلاف مع مَنْ تَرَكْنُ وتطمئن إليه الأمة الإسلامية.

كان موسى^(٢) حفيد الإمام الرضا عليه السلام وابن الإمام الجواد عليه السلام على درجة هابطة من الالتزام الديني، ومن المعروف أن المفاسد والمفانن آنذاك كانت كثيرة في البلاد الإسلامية، من الشراب والغواني والجواري. وكان بعض أبناء الأمة منشغلون بهذه الأعمال الشيطانية. ففي رواية تُبيِّن لنا كيف أن الخلفاء العباسيين كانوا يستغلون عملية الخلط بين الشخصيات لضرب أعدائهم.

رَوَى يَعْقُوبُ بْنُ يَاسِرٍ، قَالَ: «كَانَ الْمُتَوَكِّلُ يَقُولُ: وَنَحْكُمُ قَدْ أَعْيَانِي أَمْرُ ابْنِ الرِّضَا (يقصد الإمام الهادي عليه السلام)، وَجَهَدْتُ أَنْ يَشْرَبَ مَعِيَ وَيُنَادِمَنِي فَأَمْتَنَعُ، وَجَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ فُرْصَةً فِي هَذَا الْمَعْنَى فَلَمْ أَجِدْهَا.

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: إِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ ابْنِ الرِّضَا مَا تُرِيدُهُ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ فَهَذَا أَخُوهُ مُوسَى، قَصَافٌ عَزَافٌ، يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَيَعْشَقُ وَيَتَجَالَعُ، فَأَخْضَرُهُ وَأَشْهَرُهُ، فَإِنَّ الْخَبَرَ يَشِيعُ عَنْ ابْنِ الرِّضَا بِذَلِكَ، وَلَا يُفَرِّقُ النَّاسُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ، وَمَنْ عَرَفَهُ اتَّهَمَ أَخَاهُ بِمِثْلِ فَعَالِهِ.

ولكن المتوكل لم ينجح في خطته هذه التي كانت تبتني على أساس أن أبناء الإمام الرضا وأحفاده إلى الإمام العسكري عليه السلام، كان كل واحد منهم يُسمَّى بابن الرضا، وكان الناس لا يدعونهم إلا بهذا الاسم، ففكَّر المتوكل مع حاشيته أن يشرب ويُجبر موسى ابن الإمام محمد الجواد عليه السلام وأخ الإمام علي الهادي عليه السلام أن

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٣٠.

(٢) يقال له: موسى المبرقع، مات بمدينة قم المقدسة. انظر: قاموس الرجال، ج ١٠، ص ٢٩٨.

يشرب الخمر معه، وأثناء ذلك يأتي بالخمارين والمنحرفين خلقياً ليُشهرّوا بابن الرضا أنه يشرب ويلهو مع المتوكل، وبالتالي تنجح خطتهم في ضرب صورة الإمام عند الجماهير.

فَقَالَ: اكْتَبُوا بِأَسْخَاصِهِ مُكْرَمًا، فَأُشْخِصَ مُكْرَمًا، فَتَقَدَّمَ الْمُتَوَكِّلُ أَنْ يَتَلَقَّاهُ جَمِيعُ بَنِي هَاشِمٍ وَالْقَوَادِ وَسَائِرُ النَّاسِ، وَعَمِلَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا رَأَاهُ أَقْطَعَهُ قَطِيعَةً وَبَنَى لَهُ فِيهَا، وَحَوَّلَ إِلَيْهِ الْخَمَارِينَ وَالْقِيَانَ، وَتَقَدَّمَ لِصِلَتِهِ وَبَرِّهِ وَأَفْرَدَ لَهُ مِزْلًا سَرِيًّا يَصْلُحُ أَنْ يَزُورَهُ هُوَ فِيهِ، فَلَمَّا وَافَى مُوسَى تَلَقَّاهُ أَبُو الْحَسَنِ (الإمام الهادي عليه السلام) فِي قَنْطَرَةٍ وَصَيْفٍ، وَهُوَ مَوْضِعٌ يُتَلَقَّى فِيهِ الْقَادِمُونَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَوَفَّاهُ حَقَّهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَحْضَرَكَ لِيَهْتِكَكَ وَيَضَعُ مِنْكَ، فَلَا تُقِرَّ لَهُ أَنَّكَ شَرِبْتَ نَبِيذًا، وَاتَّقِ اللَّهَ يَا أَخِي أَنْ تَرْتَكِبَ مَخْظُورًا.

فَقَالَ لَهُ مُوسَى: إِنَّمَا دَعَانِي لِهَذَا، فَمَا حِيلَتِي!.

قَالَ عليه السلام: وَلَا تَضَعْ مِنْ قَدْرِكَ، وَلَا تَعْصِرِ رَبَّكَ، وَلَا تَفْعَلْ مَا يَشِينُكَ، فَمَا غَرَضُهُ إِلَّا هَتَكَكَ.

فَأَبَى عَلَيْهِ مُوسَى وَقَرَّرَ عَلَيْهِ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام الْقَوْلَ وَالْوَعْظَ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى خِلَافِهِ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يُجِيبُ قَالَ عليه السلام لَهُ: أَمَّا إِنَّ الْمَجْلِسَ الَّذِي تُرِيدُ الْاجْتِمَاعَ مَعَهُ عَلَيْهِ لَا يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَنْتَ وَهُوَ أَبَدًا.

قَالَ (الراوي): فَأَقَامَ مُوسَى ثَلَاثَ سِنِينَ يُبَكِّرُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بَابِ الْمُتَوَكِّلِ، فَيُقَالُ: قَدْ تَشَاغَلَ الْيَوْمَ، فَيُرْوَحُ فَيُبَكِّرُ فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ سَكِرَ، فَيُبَكِّرُ فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ شَرِبَ دَوَاءً، فَمَا زَالَ عَلَى هَذَا ثَلَاثَ سِنِينَ حَتَّى قُتِلَ الْمُتَوَكِّلُ وَلَمْ يَجْتَمِعْ مَعَهُ عَلَى شَرَابٍ^(١).

وهذه القصة دليل على أنه كان في البيت العلوي بعض الشاذين، والنظام كان يستفيد منهم في إلقاء الشبهات على سمعة الأئمة عليهم السلام، فيتم له أفضل استغلال

لهؤلاء الشواذ في سبيل مصلحته.

هذه هي الأسباب الثلاثة. ويبقى أن نعرف أن الإمام علي بن موسى حينما دخل في الحكم فإنه لم يعترف به، والدلالة على ذلك قوله عليه السلام: «... لَا أُولِي أَحَدًا، وَلَا أَغْزِلُ أَحَدًا، وَلَا أَنْقُضُ رَسْمًا وَلَا سُنَّةً...»^(١).

وقد روي عنه عليه السلام قوله للمأمون -بعد أن قرأ المأمون عليه كتاباً فيه فتح لبعض قرى كابل، فيه «إِنَّا فَتَحْنَا قَرْيَةً كَذَا وَكَذَا، فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَ لَهُ الرِّضَاءُ عليه السلام: وَسَرَّكَ فَتَحُ قَرْيَةً مِنْ قُرَى الشَّرِّكِ؟!.

فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: أَوْلَيْسَ فِي ذَلِكَ سُورٌ؟!.

فَقَالَ عليه السلام: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اتَّقِ اللَّهَ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ عليه السلام وَمَا وَلَّاكَ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ وَخَصَّكَ بِهِ، فَإِنَّكَ قَدْ ضَيَعْتَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ، وَفَوَّضْتَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِكَ يَحْكُمُ فِيهِمْ بِغَيْرِ حُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَعَدْتَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ وَتَرَكْتَ بَيْتَ الْهِجْرَةِ وَمَهْبطَ الرُّوحِ، وَإِنَّ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ يُظَلِّمُونَ دُونَكَ وَلَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً، وَيَأْتِي عَلَى الْمَظْلُومِ دَهْرٌ يُتَعَبُ فِيهِ نَفْسُهُ وَيَعْجِزُ عَنْ نَفَقَتِهِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَشْكُو إِلَيْهِ حَالَهُ وَلَا يَصِلُ إِلَيْكَ، فَاتَّقِ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَارْجِعْ إِلَى بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَمَعْدِنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، أَمَا عَلِمْتَ -يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ- أَنَّ وَالِيَّ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُ الْعُمُودِ فِي وَسْطِ الْقُسْطَاطِ مَنْ أَرَادَهُ أَخَذَهُ.

قَالَ الْمَأْمُونُ: يَا سَيِّدِي، فَمَا تَرَى؟!

قَالَ عليه السلام: أَرَى أَنْ تَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ وَتَتَحَوَّلَ إِلَى مَوْضِعِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ، وَتَنْتَظِرَ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ...»^(٢).

وَرُوي عَنْ مُعَمَّرِ بْنِ خَلَادٍ قَالَ: «قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ الرِّضَاءُ عليه السلام: قَالَ لِي

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٢٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٦٤.

الْمَأْمُونُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، انْظُرْ بَعْضَ مَنْ تَثِقُ بِهِ تَوَلَّيَهُ هَذِهِ الْبُلْدَانُ الَّتِي قَدْ فَسَدَتْ عَلَيْنَا.

فَقُلْتُ لَهُ: تَقْبِي لِي وَأَفِي لَكَ، فَإِنِّي إِنَّمَا دَخَلْتُ فِيهَا دَخَلْتُ عَلَى أَمْرٍ فِيهِ وَلَا أَنْتَهَى، وَلَا أَغْزَلُ وَلَا أُولِي، وَلَا أُسِيرَ حَتَّى يُقَدِّمَنِي اللَّهُ قَبْلَكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الْخِلَافَةَ لَشَيْءٌ مَا حَدَّثْتُ بِهِ نَفْسِي، وَلَقَدْ كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ أَتَرَدَّدُ فِي طُرُقِهَا عَلَى دَابَّتِي، وَإِنَّ أَهْلَهَا وَغَيْرَهُمْ يَسْأَلُونِي الْحَوَائِجَ فَأَقْضِيهَا لَهُمْ فَيَصِيرُونَ كَالْأَعْمَامِ لِي، وَإِنَّ كُتُبِي لَنَافِذَةٌ فِي الْأَمْصَارِ، وَمَا زِدْتَنِي فِي نِعْمَةٍ هِيَ عَلَيَّ مِنْ رَبِّي.

فَقَالَ: أَفِي لَكَ^(١).

وفي مناسبة نصب ولاية العهد وتقليدها للإمام كان ممّا جاء في خطبته التي أشار في مبدئها للمؤمن قائلًا له: «.. عَرَفَ مِنْ حَقِّنَا مَا جَهَلُهُ غَيْرُهُ»^(٢).

وقال عليه السلام أيضاً: «لَنَا عَلَيْكُمْ حَقٌّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَكُمْ عَلَيْنَا حَقٌّ بِهِ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَذِيتُمْ إِلَيْنَا ذَلِكَ وَجَبَ عَلَيْنَا الْحَقُّ لَكُمْ»^(٣).

نستخلص من هذه الروايات ما يلي:

أولاً: عدم اعتراف الإمام الرضا بالنظام العباسي وتأكيده غير مرة على عدم شرعيته.

ثانياً: علانية المعارضة، فالإمام عليه السلام يصرح للمؤمنين مشافهة بأن الإمام هو نفسه كان يُطاع في الأمصار، فلا حاجة له في ملك المؤمنين الذي لا يستند إلى الشرعية، «.. وَلَقَدْ كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ أَتَرَدَّدُ فِي طُرُقِهَا عَلَى دَابَّتِي، وَإِنَّ أَهْلَهَا وَغَيْرَهُمْ يَسْأَلُونِي الْحَوَائِجَ فَأَقْضِيهَا لَهُمْ فَيَصِيرُونَ كَالْأَعْمَامِ لِي، وَإِنَّ كُتُبِي لَنَافِذَةٌ فِي الْأَمْصَارِ،

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٤٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٤١.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٤٥.

وَمَا زِدْنِي فِي نِعْمَةٍ هِيَ عَلَيَّ مِنْ رَبِّي»^(١). ثم كسب الإمام عليه السلام العملية هذه ضمن الأهداف الثابتة لحركته.

وقبل أن نسدل الستار على أحداث هذه التولية، نحاول أن نأتي ببعض الوقائع الهامة التي هي بمثابة حلقة الوصل في جمع أطراف الرؤية حول ولاية العهد:

- كما قلنا: لقد وضع المأمون نفسه بين فكي كهاشة، عندما ولى الإمام الرضا عليه السلام العهد، حيث إن قصده الذي أمّله من وراء هذه العملية، كان امتصاص السخط الجماهيري، ولكن الإمام وعندما أصبح يشغل هذا المنصب، أثبت أن الخلافة الشرعية هي له، لا للمأمون الذي لا يعد حتى تلميذاً من تلامذته. فكان على المأمون نقض هذه الحقيقة الموضوعية، وذلك عن طريق جلب العلماء والفقهاء والمتكلمين حتى من غير المسلمين، لكي ينكفئ الإمام عن إجاباتهم ولو لمرة واحدة، فيشاع عن الإمام ذلك. ولكن الإمام عليه السلام زاد من نقاط نجاح أهدافه.

وتُورد رواية تاريخية من مئات أشباهها تُبين صدق ما نقول:

عَنْ الْبَرْقِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «أَخْبَرَنِي الرَّيَّانُ بْنُ شَيْبٍ خَالَ الْمُعْتَصِمِ أَخُو مَارِدَةَ: أَنَّ الْمَأْمُونُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِلرَّضَا عليه السلام بِوَلَايَةِ الْعَهْدِ، وَلِلْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ بِالْوِزَارَةِ، أَمَرَ بِثَلَاثَةِ كَرَّاسِيٍّ فَنُصِبَتْ لَهُمْ، فَلَمَّا قَعَدُوا عَلَيْهَا أَذِنَ لِلنَّاسِ فَدَخَلُوا يُبَايِعُونَ، فَكَانُوا يُصَفِّقُونَ بِأَيْمَانِهِمْ عَلَى أَيْمَانِ الثَّلَاثَةِ مِنْ أَعْلَى الْإِبْهَامِ إِلَى الْخَنْصِرِ، وَيَخْرُجُونَ حَتَّى بَايَعَ فِي آخِرِ النَّاسِ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَصَفَّقَ بِيَمِينِهِ مِنَ الْخَنْصِرِ إِلَى أَعْلَى الْإِبْهَامِ، فَتَبَسَّمَ أَبُو الْحَسَنِ الرَّضَا عليه السلام ثُمَّ قَالَ: كُلُّ مَنْ بَايَعَنَا بَايَعَ بِفَسْخِ الْبَيْعَةِ غَيْرَ هَذَا الْفَتَى، فَإِنَّهُ بَايَعَنَا بِعَقْدِهَا.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: وَمَا فَسَخُ الْبَيْعَةِ مِنْ عَقْدِهَا؟.

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: عَقْدُ الْبَيْعَةِ هُوَ مِنْ أَعْلَى الْخِنَصِرِ إِلَى أَعْلَى الْإِبْهَامِ، وَفَسْحُهَا مِنْ أَعْلَى الْإِبْهَامِ إِلَى أَعْلَى الْخِنَصِرِ.

قَالَ: فَمَاجِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ، وَأَمَرَ الْمَأْمُونُ بِإِعَادَةِ النَّاسِ إِلَى الْبَيْعَةِ عَلَى مَا وَصَفَهُ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام. وَقَالَ النَّاسُ: كَيْفَ يَسْتَحِقُّ الْإِمَامَةَ مَنْ لَا يَعْرِفُ عَقْدَ الْبَيْعَةِ، إِنَّ مَنْ عَلِمَ لَأَوَّلَى بَهَا مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ.

قَالَ: فَحَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنْ سَمِّهِ^(١).

وكان المأمون يطلب من الإمام الذهاب إلى المسجد وإمامة الناس، لكي يكون محسوباً على الدولة العباسية، ولكن الإمام الرضا ما كان ليخرج من بيته حتى يعطف الناس لمشاهدته وهم يضجون بالبكاء شعوراً بالتقصير والذنب تجاهه، فتذهب عيون المأمون لتخبره، فيطلب على الفور من الإمام الرجوع إلى بيته، وإلا فإن الأمر سينقلب رأساً على عقب، لشدة لهفة القلوب المحبة للإمام، وقد حدث هذا مرات^(٢).

لقد رأى المأمون نفسه أنه في مأزق كبير، وأنه كلما تأخر في القضاء على علي بن موسى الرضا عليه السلام خرج الأمر من يده أكثر فأكثر، فهو من جهة لم يتحقق له الهدف من جلب الرضا وتوليته العهد، بل إن الأنظار أخذت تتجه نحو الرضا عليه السلام لما بان من منزلته ودرجته العلمية الكبيرة، وأن المأمون لا يُعَدُّ أمامه سوى تلميذ له، وأنه كلما أراد أن يكسب بالرضا شرعية لسلطانه كان الأمر يأتي عكس ما يُريد.

ومن جهة ثانية ازدادت نقمة بني العباس عليه لما رأوا أن في ذلك خروج الأمر منهم، حيث اجتمع من ببغداد من ولد العباس ومواليهم وشيعتهم على خلع المأمون، ومبايعة إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة. لذا عمد، وبعد سنة

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٤٤.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٥٠-١٥١. المناقب، ج ٤، ص ٣٧١-٣٧٢.

واحدة على تولية الإمام الرضا عليه السلام^(١)، على دس السم إليه، وتعجيل إيصال خبر وفاته إلى بني العباس في بغداد مُطمئناً إياهم أن الأمر لا زال في أيديهم.

إذن، فإن النظرة التي طالما يناقشها الباحثون عند الحديث عن ولاية العهد، من أن المأمون كان ينطلق من دوافع دينية ورسالية، ثم بعد ذلك غلب عليه الهوى والمصلحة لقاعدة أن الملك عقيم، هذه النظرة لا تصمد أمام الواقع التاريخي الذي سبق تولية الإمام الرضا العهد. ففي تلك الظروف الضاغطة على السلطة العباسية، من نتائج الخلافات الداخلية التي جرت بين المأمون وأتباعه وبين أخيه الأمين ومناصريه، والتي خمدت على جثث عشرات الألوف من القتلى، ودمار بغداد^(٢)، ثم

(١) وبويع الإمام الرضا عليه السلام يوم الخميس لخمس ليال خلون من محرم سنة اثنين ومائتين، وقبض سنة ثلاث ومئتين. مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٤١.

(٢) قال المسعودي: «.. حاصر أهل بغداد وغادى القتال وراوَحَهُ، حتى تواكل الفريقان، وخربت الديار، وغفت الآثار، وغلت الأسعار، وذلك في سنة ست وتسعين ومائة، وقاتل الأخ أخاه والابن أباه. هؤلاء محمدية (نسبة إلى محمد الأمين) وهؤلاء مأمونية وهدمت المنازل، وأحرقت الديار، وانتُهبت الأموال...». مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٠١. ويقول في ص ٤٠٤: «ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين أربعة عشر شهراً، وضاعت بغداد بأهلها وتعطلت المساجد، وتركَّت الصلاة، ونزل بها ما لم ينزل بها قط مثله، منذ بناها أبو جعفر المنصور». إلى إن يقول: «وحوصِرَ محمد في قصره من الجانب الغربي، فكان بينهم في بعض الأيام وقعة تفانى فيها خلق كثير من الفريقين». ويقول أيضاً في وصفه لوقعة دار الرقيق، ص ٤٠٥: «وكانت وقعة أخرى عظيمة بشارع دار الرقيق، هلك فيها خلق كثير، وكثر القتل في الطرق والشوارع، ينادي هذا بالمأمون، والآخر بالملخوع، ويقتل بعضهم بعضاً، وانتُهبت الدور، فكان الفوز لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة».

وفي ذلك يقول الشاعر:

فقدت غضارة العيش الأنيق	بكت عيني على بغداد لما
ومن سعة تبدلنا بضيق	تبدلنا هموماً من سرور
فأفنت أهلها بالمنجنيق	أصابتنا من الحساد عين
ونائحة تنوح على غريق	فقوم أحرقوا بالنار قصرًا
وقائلة تنادي: يا شقيقي	وصائحة تنادي: يا صحابي
مضمخة المجاسد بالخلوق	وحوراء المدامع ذات دَلْ
وقد فقد الشفيق مع الرفيق	تنادي بالشفيق؛ فلا شفيق

الضغط الكبير الذي شكّله الثورة الرسالية في الكوفة (ثورة أبي السرايا) التي كانت تدعو إلى الرضا من آل محمد^(١) وامتدادات تلك الثورة في اليمن، والحجاز، ومكة، والمدينة، والبصرة، وواسط، والأهواز، وبلاد الجزيرة. كل تلك الظروف هي التي أراد المأمون أن يتجاوزها بأن يُضفي الشرعية على حكمه، فعمد إلى تولية الإمام الرضا عليه السلام العهد، وحينما رأى أن الأمر سار على غير ما خطط له عجلّ بالقضاء على الإمام عليه السلام، هذا أولاً.

ثانياً: إن كل ما يستدل به المؤرخون على نظرهم تلك بيتي على أقوال المأمون التي يدعي فيها تشيعه ونيته الخالصة لله، في الوقت الذي تجد فيه أقوالاً مستفيضة بلسان المأمون نفسه وبلسان حاشيته، أن توليته الإمام العهد لم تكن إلا لحفظ النظام العباسي.

ولو سلّمنا جدلاً بما يذهب إليه المؤرخون، فإن في اعترافهم أن المأمون استخدم فيما بعد كل وسيلة لضرب الإمام وقتله، دليل على وجود المصلحة في الدوافع.

خلاصة القول: إن الإمام الرضا عليه السلام استفاد من فرصة توليه العهد في نشر المذهب الرسالي وتوعية الناس وتعريفه بالإمام الحق بين الناس، من دون أن يعترف بالنظام أو يخضع له^(٢).

-
- | | |
|--------------------------|--------------------------|
| وقوم أخرجوا من ظل دنيا | متاعهم يباع بكل سوق |
| ومغترب بعيد الدار مُلقَى | بلا رأس بقارعة الطريق |
| توسط من قتالهم جميعاً | فما يدرون من أي الفريق |
| فلا ولد يقيم على أبيه | وقد هرب الصديق عن الصديق |
| ومهما أنس من شيء تولى | فلإني ذاكر دار الرقيق |
- (١) «.. دخل أبو السرايا (الكوفة) وخطب الناس ودعاهم إلى البيعة إلى الرضا من آل محمد، والدعاء إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسيرة بحكم الكتاب، فبايعه جميع الناس حتى تكابسوا عليه». مقاتل الطالبين، ص ٤٢٨.
- (٢) بعد أن تولى الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد، نشط الشعراء الرساليين في تبين معالم مدرسة

هذا جانب من حياة الإمام الرضا عليه السلام ولحياة الإمام الرضا عليه السلام جانب آخر ذلك هو جانب الجهاد الفكري الذي قام به في حياته، وسوف نتحدث عنه فيما بعد إن شاء الله.

أهل البيت عليهم السلام وجهادهم ضد الظلم والانحراف، سواء في عهد الأمويين أو في عهد العباسيين. ومن هؤلاء الشعراء دعبل الخزاعي الذي أنشد الإمام الرضا عليه السلام قصيدته التائية المعروفة التي يقول فيها:

وَمَنْزِلٌ وَخِي مُقْفِرُ الْعَرَصَاتِ	مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ
وَلِلصَّوْمِ وَالنَّظْهِيرِ وَالْحَسَنَاتِ	مَنَازِلٌ كَانَتْ لِلصَّلَاةِ وَلِلتَّقَى
مِنْ اللَّهِ بِالتَّسْلِيمِ وَالزَّكَّوَاتِ	مَنَازِلُ جِبْرِيلَ الْأَمِينُ يَحُلُّهَا
سَبِيلُ رَشَادٍ وَاضِحِ الطَّرِيقَاتِ	مَنَازِلُ وَخِي اللَّهُ مَعْدِنُ عِلْمِهِ
وَهُمْ خَيْرُ سَادَاتٍ وَخَيْرُ حُمَاةٍ	هُمْ أَلْ مِيرَاثِ النَّبِيِّ إِذَا انْتَمَوْا

القصيدة تجدها كاملة في: بحار الأنوار، ج ٩، ص ٢٤٤-٢٤٥.

صَفْوُ الْكَلَامِ

* كانت الحركة في عهد الإمام الرضا عليه السلام في عنفوان شبابها، إذ إن المسار الطبيعي للرسالات هو النمو والتكامل لا التراجع والانكفاء. ولذلك فإنَّ عهد الإمام الرضا كان يتسم بنوع من الانفراج والحرية.

* وكان السبب وراء سعي المأمون لتقليد الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد، ليس هو تشيُّعه - كما يزعم البعض - وإنما بسبب فرض الحركة الرسالية نفسها على الواقع، إلى جانب عوامل أخرى مثل: شخصية الإمام، وتهالك السلطة وانحطاطها، ووجود الدويلات المستقلة هنا وهناك، وثورة أبي السرايا.

* وقد استفاد الإمام الرضا عليه السلام من فرصة توليه العهد في نشر المذهب الرسالي، وتوعية الناس، وتعريفه بالإمام الحق بين الناس من دون أن يعترف بالنظام أو يخضع له.



١٩ دور الإمام الرضا عليه السلام السياسي والثقافي في الأمة

تنعكس الحياة السياسية بشكل أو بآخر على الحياة الفكرية في الأمة، فإذا كانت الحياة السياسية تتميز بالاضطراب والتوتر، فإن الجانب الفكري منها لا بد أن يتميز بالاضطراب والتوتر. وإذا كانت الأمة تفتقد الرؤية الواضحة تجاه مواقفها السياسية فإنها تعيش الضبابية في أكثر المواقف الفكرية والثقافية.

كذلك تنعكس الحياة الفكرية والثقافية على الحياة السياسية، أي إنه إذا كانت الأمة مضطربة التفكير من الناحية الثقافية، فإن مواقفها ورؤيتها في القضايا السياسية أيضاً ستكون مضطربة.

وهذا يُفسّر لنا سبب الاضطراب الذي عاشته الأمة الإسلامية في عهد الإمام علي بن موسى عليه السلام على الصعيد السياسي. ونعود ونُفصّل ما أجهلناه سابقاً عن الظروف التي عاشتها الأمة الإسلامية.

فمن الناحية السياسية كانت هناك ثورات متلاحقة، فثورة في مصر، وأخرى في السودان، والحجاز، والعراق، وهكذا تلاحقت الثورات في الأمة الإسلامية. وفي تلك الفترة من سنة ١٩٨ إلى ٢٠٤ للهجرة، كان الخليفة العباسي المأمون قد اتخذ من خراسان عاصمة له. وقبل هذه الفترة كان مشغولاً بمحاربة أخيه الأمين، الذي كان الخليفة الرسمي حسب المراسيم والمفاهيم العباسية في بغداد، ولكن المأمون خلع الأمين ونسب الخلافة إلى نفسه، وأخذ يُحاربه إلى أن انتصر عليه، ودخل جيش

المأمون بغداد عاصمة الأمين بعد قتل وهدم واسعين، وبعدئذ هدأت الأوضاع في بغداد، ورجع الجيش إلى خراسان، ومرة أخرى عاد الاضطراب والسخط في بغداد، ونصب أهل بغداد على أنفسهم إبراهيم بن المهدي خليفة، وخلعوا بيعتهم للمأمون. كانت تلك ثورة، وفي هذه الفترة بالذات كانت منطقة مصر تشهد تحولاً خطيراً حيث إن المسيحيين المصريين ثاروا على الوالي العباسي وطرده^(١).

وفي تلك الفترة حدث أن الهنود الذين استرقوا من السند والبنجاب وباكستان الشرقية وجيء بهم إلى البصرة، سيطروا على البصرة والبحرين، بعدما رأوا أن هناك حرباً طاحنة تجري في الساحة الإسلامية، وأخذوا يفرضون الضرائب الضخمة على ميناء البصرة، الذي كان من أهم الموانئ الإسلامية في ذلك اليوم، وقد عرفوا بالزط نسبة إلى لغتهم التي لم يكن الناس يعرفونها، فإذا رأوا أحدهم يتكلم، يقولون: هذا (يرطن)، بمعنى أنه يتكلم بكلام غير مفهوم^(٢). وكان تعداد الزط يربو على العشرين ألفاً كما نقلته كتب التاريخ^(٣).

وفي تلك الفترة تشكّلت في اليمن حكومة قامت بالانفصال عن الجسم العباسي، وذلك بعدما وُلّي محمد الزيايدي على اليمن، والذي انفصل وكوّن الدولة الزيدانية. وفي الوقت نفسه كانت هناك اضطرابات في أذربيجان وأرمينيا وما حولهما. وهكذا أصبحت الدولة الإسلامية غارقة إلى رأسها في الاضطرابات، وهذا الوضع المضطرب انعكس على الجانب الفكري. فأخذ المسلم لا يعرف ما هو دوره في الحياة، وهل أن الدين الذي يؤمن به صحيح أم لا.

(١) كانت الثورة في مصر دائرة بين القيسية (أنصار الأمين) واليمانية (أنصار المأمون)، ثم أعقبها خروج أهل البشرد من كور مصر على والي المأمون في مصر عبدويه بن جبلة (توفي بعد: ٢١٦هـ)، وكان أكثر عمل عبدويه في مصر، ولي شرطتها في إمارة عبدالله بن طاهر، وولي إمارتها بالنيابة عن المعتصم حين كان والياً لعهد المأمون، وقد تخلّى عن الإمارة بعد الثورة عليه والإطاحة به. انظر: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٤٦٥. الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٤٠٩. الأعلام، ج ٤، ص ١٨٦.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٤٦٨. تاريخ الإسلام، ج ١٥، ص ٣٠. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٣٢١.

(٣) تاريخ الإسلام، ج ١٥، ص ٣٠.

انتشار الترجمة^(١) في زمن المأمون

وقد استغل المأمون العباسي ذلك الوضع فابتدع في الإسلام بدعة، وهي أنه أمر بترجمة الكتب الأجنبية القديمة، وبذلك أصبحت سياسة سنّ القوانين، وطريقة إدارة الدولة، تعتمد أساساً على القواعد غير الإسلامية، فأنشأ في خراسان ونيسابور وغيرهما من المناطق دوراً للترجمة^(٢)، وأخذ يصرف عليها الأموال الطائلة، ولقد قام بهذا العمل لأحد سببين:

السبب الأول: إن المأمون العباسي حينما وجد أن الأفكار الثورية قد انتشرت في الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها، لم يجد بُدّاً من الاعتماد على خلفية فكرية معينة يُحارب بها تلك الأفكار الثورية. هذه الخلفية شكّلتها الأفكار التي تحملها الكتب المترجمة، خصوصاً من اللغة الفارسية.

ونتساءل ما هي تلك الكتب التي تُرجمت؟.

لو رجعنا إلى تاريخ فارس لرأينا أن هناك مجموعة من الملوك كانوا يُسيطرون على رقاب الناس، بينما الناس كانوا مُستعبدين، محرومين، ومُشَبَّعين بأفكار استسلامية لا تدعوهم للثورة والتحرُّر، وكانت السلطات تعمل على ضخ هذه الثقافة السلبية بواسطة كُتّاب يصرف عليهم الإمبراطور الأموال الضخمة ليكتبوا كتباً يدعمون بها سلطانه.

فكانت هذه الكتب تدعو إلى الاستسلام وتقول: «الله في السماء، والشاهنشاه

(١) طالع ما كتبه المصنف عن تاريخ حركة الترجمة في كتابه (العرفان الإسلامي)، تحت عنوان: المسلمون وترجمة العلوم العقلية.

(٢) أسس المأمون في بغداد دار الحكمة سنة ١٤٨ هـ رأسها يحيى بن ماسويه، ومن بعده تلميذه حنين بن إسحاق، يرجع نسبه إلى قبيلة عربية مسيحية، وهو أشهر مترجم للكتب اليونانية إلى السريانية والعربية. وقد شكّلت لجنة تعمل على الترجمة من السريانية إلى العربية مباشرة. طالع: تاريخ الفلسفة الإسلامية، للمستشرق هنري كوربان، ص ٥٧-٥٨. وأيضاً: العرفان الإسلامي.. بين نظريات البشر وبصائر الوحي، ص ٨٧.

(ملك الملوك) في الأرض». وكذلك تقول: «صلاح مملكة خويش .. خسروان دانند». وتعني هذه العبارة: أن الحكم لا يعرف أصوله وطرقه إلا الكبار، وكذلك تقول هذه الكتب: إن العائلة المالكة ضرورية لاستقرار البلد.

هذه الأفكار هي التي استطاعت التغلب على إرادة الجماهير وتخديرها والسيطرة عليها سيطرة كاملة. وقد اطلع المأمون على تلك الأفكار في خراسان التي عاش فيها واتصل ببقايا ممالك فارس، ووجد في تلك الأفكار خير عامل على تثبيت سلطانه.

السبب الثاني: بسبب ما ظهر في البلاد الإسلامية من حركات انحرافية، نتيجة الخيبة التي مُني بها من دخل الإسلام من أتباع الديانات الأخرى، وهم ينشدون العدالة الاجتماعية، والحرية السياسية، والرحمة، فإذا بهم رأوا أن الإسلام -من حيث الواقع السائد تحت ظل الحكومات الاستبدادية- هو مجموعة من الأفكار التي يُسيطر بها بنو أمية وبنو العباس على رقاب الناس، فاندفعوا راجعين إلى دياناتهم السابقة، أو إلى معتقدات انحرافية جديدة نسبوها إلى الإسلام.

ومع أن العباسيين انتهجوا مع أصحاب هذه الأفكار سياسة التقتيل، إلا أنهم في الوقت نفسه كانوا يحتاجون إلى ما يُجابهون به تلك الأفكار التي وجدت لها آذاناً صاغية في أوساط المجتمع الإسلامي، الذي كانت السلطات تعمل على فصله عن الفكر الإسلامي الأصيل المتمثل بمدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام، لذلك عمدوا إلى تشجيع حركة الترجمة^(١).

(١) قال العلامة المجلسي رحمته الله: «أقول: هذه الجناية على الدين وتشهير كتب الفلاسفة بين المسلمين من بدع خلفاء الجور المعاندين لأئمة الدين ليصرفوا الناس عنهم، وعن الشرع المبين، ويدل على ذلك ما ذكره الصفدي في شرح (لامية العجم): أن المأمون لما هادن بعض ملوك النصارى -أظنه صاحب جزيرة قبرس- طلب منهم خزانة كتب اليونان، وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد، فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي واستشارهم في ذلك، فكلهم أشار بعدم تجهيزها إليه إلا مطران واحد، فإنه قال: جهزها إليهم ما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت الاختلاف بين علمائها». بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ١٩٧.

إن السلطات العباسية هي التي دفعت بالناس إلى التمرّد ضد الإسلام، وذلك لأنها جيّرت الفكر الإسلامي لصالحها، فالمأمون العباسي، كالخلفاء الذين من قبله، حينما رأى تلك الحركات، أراد الاستعانة بالفكر الغربي أو الشرقي في سبيل إعادة التوازن داخل الفكر الإسلامي عن طريق تطعيم الأفكار والعقائد الإسلامية وعلم الكلام الإسلامي بأفكار أرسطو، وأفلاطون، وغيرهما، فكان أشبه بالأنظمة التي ترتدي لباس الإسلام والتي تأتي بسائر أنواع النيذ ثم تُعاقب من يشربه، أو تقطع يد السارق مع أنها هي التي تدفعه إلى السرقة بسبب سياستها الاقتصادية السيئة.

لأنه حينما ننقل أفكار الغربيين والشرقيين إلى الفكر الإسلامي وهو يعيش حالة اضطراب، فإن ذلك يعني أننا ساعدنا الأمة الإسلامية على الانحراف.

دور الإمام الرضا عليه السلام

في هذا الجو المضطرب جاء الإمام الرضا عليه السلام منقذاً للأمة من جو الاضطراب السياسي الذي ينعكس بدوره على الاضطراب الفكري وانتشار الأفكار اللادينية في الأمة الإسلامية، التي غدّتها ترجمة السلطات للكتب الغربية والشرقية المشحونة بالشرك والكفر والأفكار الاستسلامية.

وحينما ننظر إلى رحلة الإمام الرضا عليه السلام في طريقه من المدينة إلى خراسان بناء على طلب المأمون إياه، هذه الرحلة التي استغرقت عدة شهور. حيث مر بالبصرة، والأهواز، وفارس، وطوس، وحتى مرو. كان الإمام أينما يحط برحله فإنه يث من علومه ويُحاجج الملحدّين والمُشكّكين.

فَقَدْ رُؤِيَ أَنَّ الْإِمَامَ الرَّضَا عليه السلام حِينَ رَحَلَ مِنْ نَيْسَابُورَ وَهُوَ رَاكِبٌ بَغْلَةً شَهْبَاءَ، فَإِذَا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، وَأَحْمَدُ بْنُ الْحَارِثِ، وَيَحْيَى بْنُ يَحْيَى، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ، وَعِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَدْ تَعَلَّقُوا بِلِجَامِ بَغْلَتِهِ بِالْمَرْبَعَةِ فَقَالُوا: بِحَقِّ آبَائِكَ الطَّاهِرِينَ حَدَّثْنَا بِحَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْ أَبِيكَ؟

فَأَخْرَجَ رَأْسَهُ مِنَ الْعَمَارِيَّةِ وَعَلَيْهِ مِطْرَفٌ خَزْزُ ذُو وَجْهَيْنِ، وَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي
الْعَبْدُ الصَّالِحُ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي الصَّادِقُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ:
حَدَّثَنِي أَبِي أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بَاقِرٌ عِلْمَ الْأَنْبِيَاءِ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ
سَيِّدُ الْعَابِدِينَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي سَيِّدُ شَبَابِ الْجَنَّةِ الْحُسَيْنُ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي
طَالِبٍ عليه السلام قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَبْرِئِيلَ عليه السلام يَقُولُ: قَالَ
اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي. مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ بِشَهَادَةٍ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ بِالْإِخْلَاصِ دَخَلَ فِي حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي»^(١).

وما هذه إلا واحدة من عشرات المرات التي قال فيها الإمام هذا الحديث
الشريف وهو في طريقه إلى خراسان، وهو يركز في الأمة ذلك الفكر الإيماني
التوحيدي.

الإمام يناظر أصحاب المقالات

وروي أيضًا عن الهاشمي قال: «لَمَّا قَدِمَ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام عَلَى
الْمَأْمُونِ، أَمَرَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ أَنْ يَجْمَعَ لَهُ أَصْحَابَ الْمَقَالَاتِ مِثْلَ: الْجَائِلِيقِ، وَرَأْسِ
الْجَالُوتِ، وَرُؤَسَاءِ الصَّابِيِّينَ، وَالْهَرَبِذِ الْأَكْبَرِ، وَأَصْحَابِ زَرْدَهُشْتِ، وَنَسْطَاسِ
الرُّومِيِّ، وَالتَّكَلِّمِينَ لِيَسْمَعَ كَلَامَهُ وَكَلَامَهُمْ. فَجَمَعَهُمُ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ ثُمَّ أَعْلَمَ
الْمَأْمُونُ بِاجْتِمَاعِهِمْ، فَقَالَ: أَدْخِلْهُمْ عَلَيَّ.

فَفَعَلَ فَرَحَّبَ بِهِمُ الْمَأْمُونُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: إِنِّي إِنَّمَا جَمَعْتُكُمْ لِحَقِيرٍ، وَأَخْبَيْتُ أَنْ تُنَاطِرُوا
ابْنَ عَمِّي هَذَا الْمَدَيِّ الْقَادِمَ عَلَيَّ، فَإِذَا كَانَ بُكْرَةً فَاغْدُوا عَلَيَّ وَلَا يَتَخَلَّفَ مِنْكُمْ أَحَدٌ.

فَقَالُوا: السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَحْنُ مُبَكِّرُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّوْفَلِيُّ: فَبَيْنَا نَحْنُ فِي حَدِيثٍ لَنَا عِنْدَ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا
عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا يَاسِرٌ - وَكَانَ يَتَوَلَّى أَمْرَ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام - فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، إِنَّ

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: فِدَاكَ أَخُوكَ، إِنَّهُ اجْتَمَعَ إِلَيَّ أَصْحَابُ الْمَقَالَاتِ، وَأَهْلُ الْأَدْيَانِ وَالتَّكَلُّمُونَ مِنْ جَمِيعِ الْمَلَلِ، فَرَأَيْكَ فِي الْبُكُورِ عَلَيْنَا إِنْ أَحْبَبْتَ كَلَامَهُمْ، وَإِنْ كَرِهْتَ ذَلِكَ فَلَا تَتَجَسَّسْ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْكَ خَفَّ ذَلِكَ عَلَيْنَا.

فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: أُبَلِّغُهُ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ: قَدْ عَلِمْتُ مَا أَرَدْتَ، وَأَنَا صَائِرٌ إِلَيْكَ بِكُرَّةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّوْفَلِيُّ: فَلَمَّا مَضَى يَاسِرُ التَّفَتَّ إِلَيْنَا ثُمَّ قَالَ عليه السلام لِي: يَا نَوْفَلِي، أَنْتَ عِرَاقِي وَرَقَّةُ الْعِرَاقِيِّ غَيْرُ غَلِيظَةٍ، فَمَا عِنْدَكَ فِي جَمْعِ ابْنِ عَمِّكَ عَلَيْنَا أَهْلَ الشَّرِّ وَأَصْحَابِ الْمَقَالَاتِ؟.

فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، يُرِيدُ الْإِمْتِحَانَ، وَيُحِبُّ أَنْ يَعْرِفَ مَا عِنْدَكَ، وَلَقَدْ بَنَى عَلَى أَسَاسٍ غَيْرِ وَثِيقِ الْبُيَّانِ، وَبَنَسَ وَاللَّهِ مَا بَنَى!.

فَقَالَ لِي: وَمَا بِنَاؤُهُ فِي هَذَا الْبَابِ؟!

قُلْتُ: إِنْ أَصْحَابُ الْكَلَامِ وَالْبِدْعِ خِلَافُ الْعُلَمَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَالَمَ لَا يُنْكِرُ غَيْرَ الْمُنْكَرِ، وَأَصْحَابُ الْمَقَالَاتِ وَالتَّكَلُّمُونَ وَأَهْلُ الشَّرِّ أَصْحَابُ انْكَارٍ وَمُبَاهَاةٍ، إِنْ اخْتَجَجْتَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاحِدٌ، قَالُوا صَحَّحْ وَحْدَانِيَّتَهُ، وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالُوا: ثَبَّتْ رِسَالَتَهُ. ثُمَّ يَبَاهَتُونَ الرَّجُلَ وَهُوَ يُبْطِلُ عَلَيْهِمْ بِحُجَّتِهِ، وَيُعَالِطُونَهُ حَتَّى يَتْرُكَ قَوْلَهُ، فَاخْذَرْهُمْ جُعِلْتُ فِدَاكَ.

قَالَ: فَتَبَسَّمَ عليه السلام، ثُمَّ قَالَ: يَا نَوْفَلِي، أَفَتَخَافُ أَنْ يَقْطَعُونِي عَلَى حُجَّتِي؟!

قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ مَا خِفْتُ عَلَيْكَ قَطُّ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُظْفِرَكَ اللَّهُ بِهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فَقَالَ عليه السلام لِي: يَا نَوْفَلِي، أَتُحِبُّ أَنْ تَعْلَمَ مَتَى يَنْدُمُ الْمَأْمُونُ؟.

قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ ﷺ: إِذَا سَمِعَ اخْتِجَاجِي عَلَى أَهْلِ التَّوْرَةِ بِتَوَارِهِمْ، وَعَلَى أَهْلِ
الْإِنْجِيلِ بِإِنْجِيلِهِمْ، وَعَلَى أَهْلِ الزُّبُورِ بِزُبُورِهِمْ، وَعَلَى الصَّابِيِّينَ بِعِبْرَانِيَّتِهِمْ، وَعَلَى
أَهْلِ الْهَرَابِذَةِ بِفَارِسِيَّتِهِمْ، وَعَلَى أَهْلِ الرُّومِ بِرُومِيَّتِهِمْ، وَعَلَى أَصْحَابِ الْمَقَالَاتِ
بِلُغَائِهِمْ.

فَإِذَا قَطَعْتُ كُلَّ صِنْفٍ وَدَخَضْتُ حُجَّتَهُ، وَتَرَكْتُ مَقَالَتَهُ، وَرَجَعْتُ إِلَى قَوْلِي، عَلِمَ
الْمَأْمُونُ أَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ بِمُسْتَحَقٍّ لَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَكُونُ النَّدَامَةُ مِنْهُ.
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا أَتَانَا الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، ابْنُ عَمِّكَ يَنْتَظِرُكَ،
وَقَدْ اجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَمَا رَأَيْكَ فِي إِيْتَانِهِ؟

فَقَالَ لَهُ الرَّضَا ﷺ: تَقَدَّمَنِي وَإِنِّي صَائِرٌ إِلَى نَاحِيَّتِكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ثُمَّ تَوَضَّأَ ﷺ وَضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ، وَشَرِبَ شَرْبَةً سَوِيْقٍ، وَسَقَانَا مِنْهُ. ثُمَّ خَرَجَ
وَاخْرَجَنَا مَعَهُ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى الْمَأْمُونِ، فَإِذَا الْمَجْلِسُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ
فِي جَمَاعَةِ الطَّالِبِيِّينَ وَالْهَاشِمِيِّينَ وَالْقَوَادُ حُضُورٌ.

فَلَمَّا دَخَلَ الرَّضَا ﷺ قَامَ الْمَأْمُونُ، وَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، وَجَمِيعُ بَنِي هَاشِمٍ،
فَمَا زَالُوا وَقُوفًا وَالرَّضَا ﷺ جَالِسٌ مَعَ الْمَأْمُونِ، حَتَّى أَمَرَهُمْ بِالْجُلُوسِ فَجَلَسُوا.
فَلَمْ يَزَلِ الْمَأْمُونُ مُقْبِلًا عَلَيْهِ يُحَدِّثُهُ سَاعَةً.

ثُمَّ التَفَتَ - إِلَى الْجَائِلِيْقِ - فَقَالَ: يَا جَائِلِيْقُ؛ هَذَا ابْنُ عَمِّي عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ
جَعْفَرٍ، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ بِنْتِ نَبِيِّنَا وَابْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، فَأَحِبُّ أَنْ
تُكَلِّمَهُ وَتُحَاجَّهُ وَتُنْصِفَهُ.

فَقَالَ الْجَائِلِيْقُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَيْفَ أَحَاجُّ رَجُلًا يَخْتَجُّ عَلَيَّ بِكِتَابِ أَنَا مُنْكَرُهُ
وَنَبِيِّي لَا أُوْمِنُ بِهِ.

فَقَالَ الرَّضَا ﷺ: يَا نَصْرَانِي، فَإِنْ اخْتَجَبْتُ عَلَيْكَ بِإِنْجِيلِكَ أَتَقَرُّ بِهِ.

قَالَ الْجَائِلِيُّ: وَهَلْ أَقْدَرُ عَلَى دَفْعِ مَا نَطَقَ بِهِ الْإِنْجِيلُ، نَعَمْ وَاللهُ أَقْرَبُ بِهِ، عَلَى رَغْمِ أَنْفِي.

ثُمَّ قَرَأَ الرِّضَا عليه السلام عَلَيْهِ الْإِنْجِيلَ، وَاثْبَتَ عَلَيْهِ أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ مَذْكُورٌ فِيهِ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ بَعْدَ حَوَارِيِّ عِيسَى عليه السلام، وَأَخْوَاهُمْ وَاحْتَجَّ بِحُجَجٍ كَثِيرَةٍ، أَقَرَّ بِهَا، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِ كِتَابَ شُعْيَا وَغَيْرُهُ. إِلَى أَنْ قَالَ الْجَائِلِيُّ: لَيْسَ أَلَاكَ غَيْرِي، فَلَا وَحَقُّ الْمَسِيحِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ فِي عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَكَ.

فَالْتَفَتَ الرِّضَا عليه السلام إِلَى رَأْسِ الْجَالُوتِ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِالتَّوْرَةِ وَالزَّبُورِ وَكِتَابِ شُعْيَا وَحَيْفُوقَ حَتَّى أَفْجِمَ وَلَمْ يُجِرْ جَوَابًا.

ثُمَّ دَعَا عليه السلام بِإِهْرِيذِ الْأَكْبَرِ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ حَتَّى انْقَطَعَ هَزِيدُ مَكَانَهُ.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: يَا قَوْمُ؛ إِنْ كَانَ فِيكُمْ أَحَدٌ يُخَالِفُ الْإِسْلَامَ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ فَلْيَسْأَلْ غَيْرَ مُحْتَشِمٍ.

فَقَامَ إِلَيْهِ عِمْرَانُ الصَّابِيُّ - وَكَانَ وَاحِدًا فِي الْمُتَكَلِّمِينَ - فَقَالَ: يَا عَالِمَ النَّاسِ؛ لَوْ لَا أَنَّكَ دَعَوْتَ إِلَى مَسْأَلَتِكَ لَمْ أَقْدِمْ عَلَيْكَ بِالْمَسَائِلِ، فَلَقَدْ دَخَلْتُ الْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ وَالشَّامَ وَالْجَزِيرَةَ، وَلَقِيتُ الْمُتَكَلِّمِينَ، فَلَمْ أَقْعَ عَلَى أَحَدٍ يُثَبِّتُ لِي وَاحِدًا لَيْسَ غَيْرُهُ قَائِمًا بِوَحْدَانِيَّتِهِ، أَفَتَأْذَنُ أَنْ أَسْأَلَكَ؟

قَالَ الرِّضَا عليه السلام: إِنْ كَانَ فِي الْجَمَاعَةِ عِمْرَانُ الصَّابِيُّ، فَأَنْتَ هُوَ.

قَالَ: أَنَا هُوَ.

قَالَ عليه السلام: سَلْ يَا عِمْرَانُ، وَعَلَيْكَ بِالنِّصْفَةِ، وَإِيَّاكَ وَالْخَطْلَ وَالْجُورَ.

فَقَالَ: وَاللهُ يَا سَيِّدِي مَا أُرِيدُ إِلَّا أَنْ تُثَبِّتَ لِي شَيْئًا أَتَعَلَّقُ بِهِ، فَلَا أَجُوزُهُ.

قَالَ عليه السلام: سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ.

فَارْزَحَمَ النَّاسُ وَانْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَاحْتَجَّ الرِّضَا عليه السلام عَلَيْهِ وَطَالَ

الْكَلَامُ بَيْنَهُمَا إِلَى الزَّوَالِ، فَالْتَمَتَ الرِّضَا عليه السلام إِلَى الْمُؤْمِنِ فَقَالَ: الصَّلَاةُ قَدْ حَضَرَتْ.

فَقَالَ عِمْرَانُ: يَا سَيِّدِي، لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ مَسْأَلَتِي فَقَدْ رَقَّ قَلْبِي.

قَالَ الرِّضَا عليه السلام: نُصَلِّي وَنَعُودُ.

فَنَهَضَ وَنَهَضَ الْمُؤْمِنُ، فَصَلَّى الرِّضَا عليه السلام دَاخِلًا وَصَلَّى النَّاسُ خَارِجًا
خَلْفَ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ. ثُمَّ خَرَجَا فَعَادَ الرِّضَا عليه السلام إِلَى مَجْلِسِهِ، وَدَعَا بِعِمْرَانَ.

فَقَالَ عليه السلام: سَلْ يَا عِمْرَانُ.

فَسَأَلَهُ عَنِ الصَّانِعِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ، وَأَجِيبَ إِلَى أَنْ قَالَ عليه السلام: أَفَهِمْتَ يَا
عِمْرَانُ؟.

قَالَ: نَعَمْ يَا سَيِّدِي، قَدْ فَهِمْتُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى مَا وَصَفْتَ وَوَحَدْتَ، وَأَنَّ
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُبْعُوثُ بِالْهُدَى، وَدِينِ الْحَقِّ.

ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا نَحْوَ الْقِبْلَةِ، وَأَسْلَمَ.

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّوْفَلِيُّ: فَلَمَّا نَظَرَ الْمُتَكَلِّمُونَ إِلَى كَلَامِ عِمْرَانَ الصَّابِيِّ،
وَكَانَ جَدِلاً لَمْ يَقْطَعْهُ عَنْ حُجَّتِهِ أَحَدٌ قَطُّ، لَمْ يَذَنْ مِنْ الرِّضَا عليه السلام أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَمْ
يَسْأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ. وَأَمْسَيْنَا فَنَهَضَ الْمُؤْمِنُ وَالرِّضَا عليه السلام فَدَخَلَا، وَانْصَرَفَ النَّاسُ.

.. فَكَانَ عِمْرَانُ بَعْدَ ذَلِكَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَقَالَاتِ فَيُطِطِلُ
أَمْرَهُمْ حَتَّى اجْتَنِبُوهُ، وَوَصَلَهُ الْمُؤْمِنُ بِعَشْرَةِ آلَافٍ دِرْهَمًا، وَأَعْطَاهُ الْفَضْلُ مَالًا،
وَحَمَلَهُ وَوَلَّاهُ الرِّضَا عليه السلام صَدَقَاتٍ بَلَغَ فَأَصَابَ الرَّغَائِبَ^(١).

وكان عليه السلام قد حاجج أصحاب المقالات في البصرة، وهو في طريقه إلى
خراسان.

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ الْهَاشِمِيِّ قَالَ: «.. فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ دُخُولِ الْبَصْرَةِ إِذَا الرِّضَا عليه السلام قَدْ وَافَى فَقَصَدَ مَنْزِلَ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ دَاخِلًا لَهُ دَارَهُ، وَقَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَتَصَرَّفُ بَيْنَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَقَالَ: يَا حَسَنَ بْنَ مُحَمَّدٍ، أَحْضِرْ جَمِيعَ الْقَوْمِ الَّذِينَ حَضَرُوا عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْلِ وَغَيْرَهُمْ مِنْ شِيعَتِنَا، وَأَحْضِرْ جَائِلِيَّ النَّصَارَى، وَرَأْسَ الْجَالُوتِ، وَمُرِ الْقَوْمَ يَسْأَلُوا عَمَّا بَدَأَ لَهُمْ.

فَجَمَعَهُمْ كُلَّهُمْ وَالزَّيْدِيَّةَ وَالْمُعْتَزِلَةَ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لِمَا يَدْعُوهُمْ الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا تَكَامَلُوا نَبِيَّ لِلرِّضَا عليه السلام وَسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا.

ثُمَّ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، هَلْ تَذَرُونَ لِي بَدَأْتُكُمْ بِالسَّلَامِ؟
قَالُوا: لَا.

قَالَ عليه السلام: لِنَطْمِئِنَّ أَنْفُسُكُمْ.

قَالُوا: مَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ.

قَالَ عليه السلام: أَنَا عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، وَابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ..

ثُمَّ قَالَ لَهُمُ الرِّضَا عليه السلام: لَا تَتَفَرَّقُوا فَإِنِّي إِنَّمَا جَمَعْتُكُمْ لَتَسْأَلُوا عَمَّا شِئْتُمْ مِنْ آثَارِ النَّبُوَّةِ وَعَلَامَاتِ الْإِمَامَةِ النَّبِيِّ لَا تَجِدُونَهَا إِلَّا عِنْدَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَهَلِّمُوا مُسَائِلَكُمْ.

فَابْتَدَأَ عَمْرُو بْنُ هَدَّابٍ، فَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْفَضْلِ الْهَاشِمِيَّ ذَكَرَ عَنْكَ أَشْيَاءَ لَا تَقْبَلُهَا الْقُلُوبُ!

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: وَمَا نِلَكَ؟!

قَالَ: أَخْبَرَنَا عَنْكَ أَنَّكَ تَعْرِفُ كُلَّ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَأَنَّكَ تَعْرِفُ كُلَّ لِسَانٍ وَلُغَةٍ!.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: صَدَقَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ، فَأَنَا أَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَهَلِّمُوا فَاسْأَلُوا.

قَالَ: فَإِنَّا نَخْتَبِرُكَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِاللِّسَنِ وَاللُّغَاتِ، وَهَذَا رُومِيٌّ، وَهَذَا هِنْدِيٌّ، وَفَارِسِيٌّ، وَتُرْكِيٌّ، فَأَحْضَرْنَا هُمْ.

فَقَالَ ﷺ: فَلْيَتَكَلَّمُوا بِنَا أَحِبُّوا، أَجِبْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِلِسَانِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَسَأَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَةً بِلِسَانِهِ وَلُغَتِهِ، فَأَجَابَهُمْ عَمَّا سَأَلُوا بِاللِّسَنَةِ وَلُغَاتِهِمْ، فَتَحَبَّرَ النَّاسُ وَتَعَجَّبُوا وَأَقْرَأُوا جَمِيعاً بِأَنَّهُ أَفْصَحُ مِنْهُمْ بِلُغَاتِهِمْ.

ثُمَّ نَظَرَ الرَّضَا ﷺ إِلَى ابْنِ هَدَّابٍ فَقَالَ: إِنْ أَنَا أَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ سَتَبْتَئِلَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِدَمِ ذِي رَحِمٍ لَكَ كُنْتُ مُصَدِّقاً لِي؟.

قَالَ: لَا فَإِنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

قَالَ ﷺ: أَوَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾^(١). فَرُسُولُ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ مُرْتَضَى، وَنَحْنُ وَرَثَةُ ذَلِكَ الرَّسُولِ الَّذِي أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَى مَا شَاءَ مِنْ غَيْبِهِ، فَعَلِمْنَا مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الَّذِي أَخْبَرْتُكَ بِهِ يَا ابْنَ هَدَّابٍ لَكَائِنٌ إِلَى خَمْسَةِ أَيَّامٍ، فَإِنْ لَمْ يَصِحَّ مَا قُلْتُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ فَيَأْتِي كَذَابٌ مُفْتَرٍ. وَإِنْ صَحَّ فَتَعْلَمَنَّ أَنَّكَ الرَّادُّ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَذَلِكَ دَلَالَةٌ أُخْرَى أَمَّا إِنَّكَ سَتُصَابُ بِبَصَرِكَ، وَتَصِيرُ مَكْفُوفاً فَلَا تُبْصِرُ سَهْلاً وَلَا جَبْلاً، وَهَذَا كَائِنٌ بَعْدَ أَيَّامٍ، وَلَكَ عِنْدِي دَلَالَةٌ أُخْرَى إِنَّكَ سَتَحْلِفُ يَمِيناً كَاذِبَةً فَتُضْرَبُ بِالْبَرْصِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ: تَالَهُ؛ لَقَدْ نَزَلَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِابْنِ هَدَّابٍ، فَقِيلَ لَهُ: صَدَقَ الرَّضَا أَمْ كَذَبَ؟. قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَخْبَرَنِي بِهِ أَنَّهُ كَائِنٌ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَتَجَلَّدُ.

ثُمَّ إِنَّ الرَّضَا اتَّفَقَ إِلَى الْجَائِلِيِّ فَقَالَ: هَلْ دَلَّ الْإِنْجِيلُ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟.

قَالَ: لَوْ دَلَّ الْإِنْجِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا جَحَدْنَاهُ!.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّكَنَةِ الَّتِي لَكُمْ فِي السَّفَرِ الثَّالِثِ؟.

فَقَالَ الْجَائِلِيُّ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُظْهِرَهُ.

قَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَإِنْ قَرَرْتُكَ أَنَّهُ اسْمُ مُحَمَّدٍ وَذِكْرُهُ، وَأَقَرَّ عَيْسَى بِهِ، وَأَنَّهُ بَشَرٌ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمُحَمَّدٍ لَتُقَرَّ بِهِ وَلَا تُنْكِرُهُ؟.

قَالَ الْجَائِلِيُّ: إِنْ فَعَلْتَ أَقَرَرْتُ فَإِنِّي لَا أَرُدُّ الْإِنْجِيلَ وَلَا أَجْحَدُ.

قَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَخُذْ عَلَى السَّفَرِ الثَّالِثِ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ مُحَمَّدٍ، وَبِشَارَةِ عَيْسَى بِمُحَمَّدٍ.

قَالَ الْجَائِلِيُّ: هَاتِ!.

فَأَقْبَلَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَتْلُو ذَلِكَ السَّفَرِ مِنَ الْإِنْجِيلِ حَتَّى بَلَغَ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا جَائِلِيُّ مَنْ هَذَا الْمَوْصُوفُ؟.

قَالَ الْجَائِلِيُّ: صِفْهُ؟.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا أَصِفُهُ إِلَّا بِمَا وَصَفَهُ اللَّهُ، هُوَ صَاحِبُ النَّاقَةِ، وَالْعَصَا وَالْكِسَاءِ، النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يَحْدُوثُهُ مَكْتُوبًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَحُلُّهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ. يَهْدِي إِلَى الطَّرِيقِ الْأَقْصَدِ، وَالْمُنْتَهَاجِ الْأَعْدَلِ، وَالصِّرَاطِ الْأَقْوَمِ. سَأَلْتُكَ يَا جَائِلِيُّ بِحَقِّ عَيْسَى رُوحِ اللَّهِ وَكَلِمَتِهِ: هَلْ تَحْدُوثُ هَذِهِ الصِّفَةَ فِي الْإِنْجِيلِ هَذَا النَّبِيِّ؟.

فَأَطْرَقَ الْجَائِلِيُّ -مَلِيًّا وَعَلِمَ أَنَّهُ إِنْ جَحَدَ الْإِنْجِيلَ كَفَرَ- فَقَالَ: نَعَمْ هَذِهِ الصِّفَةُ مِنَ الْإِنْجِيلِ، وَقَدْ ذَكَرَ عَيْسَى فِي الْإِنْجِيلِ هَذَا النَّبِيَّ وَلَمْ يَصِحَّ عِنْدَ النَّصَارَى أَنَّهُ صَاحِبُكُمْ.

فَقَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَّا إِذَا لَمْ تَكْفُرْ بِجُحُودِ الْإِنْجِيلِ، وَأَقَرَرْتَ بِمَا فِيهِ مِنْ صِفَةٍ

مُحَمَّدٍ، فَخُذْ عَلَيَّ فِي السَّفَرِ الثَّانِي، فَإِنِّي أُوجِدُكَ ذِكْرُهُ ﷺ وَذَكَرَ وَصِيَّهُ، وَذَكَرَ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ، وَذَكَرَ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ﷺ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْجَائِلِيُّ وَرَأْسُ الْجَالُوتِ ذَلِكَ عَلِمَا أَنَّ الرِّضَا ﷺ عَالِمٌ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَقَالَا: وَاللَّهِ قَدْ أَتَى بِمَا لَا يُمَكِّنُنَا رُدُّهُ وَلَا دَفْعُهُ إِلَّا بِجُحُودِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَلَقَدْ بَشَّرَ بِهِ مُوسَى وَعِيسَى جَمِيعًا، وَلَكِنْ لَمْ يَتَقَرَّرْ عِنْدَنَا بِالصَّحَّةِ أَنَّهُ مُحَمَّدٌ هَذَا، فَأَمَّا اسْمُهُ فَمُحَمَّدٌ، فَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُقَرَّ لَكُمْ بِنُبُوَّتِهِ، وَنَحْنُ شَاكِرُونَ أَنَّهُ مُحَمَّدُكُمْ أَوْ غَيْرُهُ.

فَقَالَ الرِّضَا ﷺ: احْتَجَجْتُمْ بِالشَّكِّ، فَهَلْ بَعَثَ اللَّهُ قَبْلُ أَوْ بَعْدُ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا نَبِيًّا اسْمُهُ مُحَمَّدٌ، أَوْ تَحْدُونَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ مُحَمَّدٍ؟.

فَأَحْجَمُوا عَنْ جَوَابِهِ، وَقَالُوا: لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُقَرَّ لَكَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ مُحَمَّدُكُمْ، لِأَنَّا إِنِ افْتَرَرْنَا لَكَ بِمُحَمَّدٍ وَوَصِيَّهُ وَابْنَتِهِ وَابْنَتِهَا عَلَى مَا ذَكَرْتُمْ أَذْخَلْتُمُونَا فِي الْإِسْلَامِ كَرَاهًا.

فَقَالَ الرِّضَا ﷺ: أَنْتَ يَا جَائِلِيُّ آمِنٌ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، وَذِمَّةِ رَسُولِهِ، إِنَّهُ لَا يَبْدُوكَ مِنْ شَيْءٍ تَكْرَهُهُ مِمَّا تَخَافُهُ وَتَحْذَرُهُ.

قَالَ: أَمَّا إِذْ قَدْ آمَنْتَنِي، فَإِنَّ هَذَا النَّبِيَّ الَّذِي اسْمُهُ مُحَمَّدٌ، وَهَذَا الْوَصِيُّ الَّذِي اسْمُهُ عَلِيٌّ، وَهَذِهِ ابْنَتُ ابْنَتِي اسْمُهَا فَاطِمَةُ، وَهَذَانِ السَّبْطَانِ اللَّذَانِ اسْمُهُمَا الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ.

قَالَ الرِّضَا ﷺ: فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ مِنْ اسْمِ هَذَا النَّبِيِّ، وَهَذَا الْوَصِيِّ وَهَذِهِ ابْنَتِي وَهَذَيْنِ السَّبْطَيْنِ، صِدْقٌ وَعَدْلٌ، أَمْ كِذْبٌ وَزُورٌ؟.

قَالَ: بَلْ صِدْقٌ وَعَدْلٌ، مَا قَالَ إِلَّا الْحَقُّ.

فَلَمَّا أَخَذَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِقْرَارَ الْجَائِلِيْقِ بِذَلِكَ، قَالَ لِرَأْسِ الْجَالُوتِ: فَاسْمَعِ
الْآنَ يَا رَأْسَ الْجَالُوتِ السَّفَرَ الْفُلَانِيَّ مِنْ زُبُورِ دَاوُدَ.

قَالَ: هَاتِ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْ وَلَدَكَ.

فَتَلَا الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّفَرَ الْأَوَّلَ مِنَ الزُّبُورِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى ذِكْرِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ
وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَأَلْتُكَ يَا رَأْسَ الْجَالُوتِ بِحَقِّ اللَّهِ، هَذَا فِي
زُبُورِ دَاوُدَ وَلَكَ مِنَ الْأَمَانِ وَالذِّمَّةِ وَالْعَهْدِ مَا قَدْ أُعْطِيَتْهُ الْجَائِلِيْقُ.

فَقَالَ رَأْسُ الْجَالُوتِ: نَعَمْ هَذَا بِعَيْنِهِ فِي الزُّبُورِ بِأَسْمَائِهِمْ.

قَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: بِحَقِّ الْعَشْرِ آيَاتِ النَّبِيِّ أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ
فِي التَّوْرَةِ، هَلْ تَجِدُ صِفَةَ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ فِي التَّوْرَةِ مَنْسُوبِينَ
إِلَى الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ؟

قَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ جَحَدَهَا كَافِرٌ بِرَبِّهِ وَأَنْبِيَائِهِ.

قَالَ لَهُ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَخُذِ الْآنَ فِي سِفْرِ كَذَا مِنَ التَّوْرَةِ. فَأَقْبَلَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ
يَتْلُو التَّوْرَةَ وَرَأْسُ الْجَالُوتِ يَتَعَجَّبُ مِنْ تِلَاوَتِهِ وَبَيَانِهِ وَفَصَاحَتِهِ وَلِسَانِهِ، حَتَّى إِذَا
بَلَغَ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ، قَالَ رَأْسُ الْجَالُوتِ: نَعَمْ، هَذَا أَحْمَادٌ وَإِلْيَا وَبَنْتُ أَحْمَادٍ، وَشَبْرٌ وَشَبِيرٌ،
وَتَفْسِيرُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ. فَتَلَا الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى
تَمَامِهِ.

فَقَالَ رَأْسُ الْجَالُوتِ -لَمَّا فَرَغَ مِنْ تِلَاوَتِهِ-: وَاللَّهِ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ لَوْلَا الرِّئَاسَةُ
الَّتِي حَصَلَتْ لِي عَلَى جَمِيعِ الْيَهُودِ لَأَمَنْتُ بِأَحْمَدَ وَأَتَّبَعْتُ أَمْرَكَ، فَوَاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ
التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى وَالزُّبُورَ عَلَى دَاوُدَ مَا رَأَيْتُ أَقْرَأَ لِلتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزُّبُورِ مِنْكَ،
وَلَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا وَفَصَاحَةً لِهَذِهِ الْكُتُبِ مِنْكَ!.

فَأَتَوْهُ بِجَارِيَةٍ رُومِيَّةٍ فَكَلَّمَهَا بِالرُّومِيَّةِ، وَالْجَائِلِيْقُ يَسْمَعُ، وَكَانَ فِيهَا بِالرُّومِيَّةِ،
فَقَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالرُّومِيَّةِ: أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مُحَمَّدٌ أَمْ عِيسَى؟

فَقَالَتْ: كَانَ فِيهَا مَضَى عَيْسَى أَحَبَّ إِلَيَّ حِينَ لَمْ أَكُنْ عَرَفْتُ مُحَمَّدًا، فَأَمَّا بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ مُحَمَّدًا، فَمُحَمَّدٌ الْآنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَيْسَى، وَمِنْ كُلِّ نَبِيٍّ.

فَقَالَ لَهَا الْجَائِلِيُّ: فَإِذَا كُنْتَ دَخَلْتَ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ فَتَبْعُصِينَ عَيْسَى!؟

قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ، بَلْ أَحَبُّ عَيْسَى وَأَوْ مِنْ بِهِ، وَلَكِنَّ مُحَمَّدًا أَحَبُّ إِلَيَّ.

فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام لِلْجَائِلِيِّ: فَسِّرْ لِلْجَمَاعَةِ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ الْجَارِيَةُ، وَمَا قُلْتَ أَنْتَ لَهَا، وَمَا أَجَابَتْكَ بِهِ.

فَفَسَّرَ لَهُمُ الْجَائِلِيُّ ذَلِكَ كُلَّهُ.

.. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مُحَاطَبَةِ الْقَوْمِ، قَالَ عليه السلام: قَدْ صَحَّ عِنْدَكُمْ صِدْقُ مَا كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ يُلْقِي عَلَيْكُمْ عَنِّي.

قَالُوا: نَعَمْ وَاللَّهِ، لَقَدْ بَانَ لَنَا مِنْكَ فَوْقَ ذَلِكَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَقَدْ ذَكَرَ لَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ أَنَّكَ تُحْمَلُ إِلَى خَرَّاسَانَ.

فَقَالَ عليه السلام: صَدَقَ مُحَمَّدٌ إِلَّا أَنِّي أَهْمَلُ مُكْرَمًا مُعْظَمًا مُبْجَلًا.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ: فَشَهِدَ لَهُ الْجَمَاعَةُ بِالْإِمَامَةِ، وَبَاتَ عِنْدَنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَدَّعَ الْجَمَاعَةَ وَأَوْصَانِي بِمَا أَرَادَ وَمَضَى...^(١).

هذه محاجة من عشرات المحاججات التي واجه بها الإمام عليه السلام أصحاب التيارات المنحرفة والمعادية. وإن التاريخ حينها يذكر عن الإمام الرضا عليه السلام ذلك إنما ينقل عن المواجهات والمناقشات الفكرية التي كان يُقيمها الإمام عليه السلام مع مختلف التيارات.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٧٣-٧٩. وقبل انصرافه عليه السلام من البصرة، أوصى محمد بن الفضل بأن يصير إلى الكوفة ويجمع الشيعة في دار حفص بن عمير البشكري، ثم إنها جرت في الكوفة محاجة كتلك التي جرت في البصرة.

إننا عبر هذه المواجهات نستطيع اكتشاف دور الإمام عليه السلام الفكري داخل الأمة الإسلامية، ومحاولته إعادة التوازن الفكري إليها، وأنا أعتقد أن في أئمتنا عليهم السلام المعصومين جميعاً، هناك إمامان لهما دور الريادة في بيان الفكر الإسلامي، وهما: الإمام الباقر، والإمام الرضا عليهما السلام.

أما الأئمة الآخرون فكانت عندهم مناقشات ومواجهات ومحاجبات، لكن لا بحجم المناقشات والأفكار الفلسفية والعقائدية والثقافية الماثورة عن الإمام الباقر والإمام الرضا عليهما السلام. وهذه مهمة حساسة، وهي أن ندرس التاريخ من خلال هذه الوقائع، أي بمعنى ارتباط العلوم التي نشرها أيُّ إمامٍ بالظرف التاريخي الذي كان فيه.

وبمعنى آخر: إن الأئمة عليهم السلام كانوا يُغذُّون كل جيل بمتطلباته ضمن مسيرة التكامل التي كانوا جميعاً يقطعونها في خط تبليغ الرسالة الإلهية.

فالأئمة عليهم السلام يُشكِّلون مسيرة واحدة، كلُّ منهم يُؤدِّي الدور الذي عليه فيها، لكن هذا لا يمنعنا من القول: إن عطاء كل إمام كان مرتبطاً بحاجة الظرف التاريخي الذي عاصره.

وها نحن نجد هذه الظاهرة التي واجهها الأئمة المعصومون عليهم السلام ألا وهي:

- أن الحركات الرسالية إضافة لما فصلنا فيه القول من نتائجها وآثارها، لا تستقيم عقائدياً وفكرياً على التشيع طوال مسيرتها مع أنها انبثقت من نبع التشيع. وهذه الصفة (اللااستقامة) كانت تدعو الأئمة عليهم السلام لتوضيح معتقدات وأصول الرسالة أكثر فأكثر.

- إن الانحراف الذي كان يُصيب الحركات فيها بعد، كان يُوضِّح الرسالة ويُبرزها أكثر، سواء كانت هذه الظاهرة ناجمة عن تدبير أو عفوية.

- إن الأئمة عليهم السلام مع أنهم كانوا يُؤدُّون وظيفة تكامل بدور كل إمام بعد

الآخر، إلا أن عطاء كل إمام كان مرتبطاً بمتطلبات وحاجات عصره، وبطبيعة الظرف الذي كان يُعاصره، فهو محصلة التفاعل الحاصل بين ظروف الأئمة عليهم السلام ونوعية عطائهم، أي علينا ألا نكتفي بالقول: إن الأئمة عليهم السلام أدوا الوظيفة المتكاملة بتجمع عطائهم، بل الربط الحيوي بين العطاء والواقع هو الذي يجب أن نُفصح عنه.

أيضاً: نلاحظ ظاهرة في أنماط تحاليل المؤرخين، وهي التركيز على جعل الجانب الغيبي أو المعجزي سبباً للأحداث، أي عدم إعطاء أهمية للعمل المرتبط بقوانين الحياة، والذي كان الأئمة عليهم السلام يعملونه كبشر. ولا نعني بذلك إنكار المعاجز والفضل الإلهي في رفع راية الإسلام، وإنما توجّهنا يجب أن يكون إلى جهاد وكفاح الأئمة كبشر، وللعلوم الماثورة عنهم عليهم السلام التي بفضلها تنعم الأمة الإسلامية بفهم متكامل للإسلام.

— ﴿ صِفْوَالِكَلَامِ ﴾ —

* عندما أحسّ المأمون بخطورة انتشار الأفكار الرسالية الثورية في الأمة، لجأ إلى بدعة ترجمة الكتب الأجنبية التي تدعو العامة إلى الاستسلام للسلطات الجائرة لتكون خلفية فكرية لمحاربة الأفكار الرسالية.

* في مثل هذا الجو كان الإمام الرضا هو المنقذ للأمة من الاضطراب الفكري وانتشار الأفكار اللادينية فيها، وذلك عبر المحاجبات والمناقشات الفكرية العلنية التي كان يقيمها الإمام مع مختلف التيارات.





الباب الرابع، مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي

الفصل الثالث، الحركة الرسالية في عهد الإمام الجواد عليه السلام

الإمام الجواد عليه السلام ومسألة الإيمان بالغيب
عهد الإمام الجواد عليه السلام وانتشار الحركة الرسالية



﴿الإمام الجواد عليه السلام ومسألة الإيمان بالغيب﴾

بين حصر الغيب وإطلاقه

ضمن النظرة العامة للغيب يمكننا أن نجد مفارقة بين توجهين مُتباينين، بين توجه يسعى إلى تفسير الظواهر - وخاصة التي تكون مخالفة للطبيعة المعتادة - تفسيراً حسيّاً من أجل أن يكون لها قبولٌ منطقيّ، وتوجه يسعى لتفسير حتى ما هو طبيعي تفسيراً غيبياً يتجاوز به حتى الحدود الطبيعية للمنطق، فهناك من يرفض الأفكار الغيبية تماماً إلا في حدود الضرورة، ومنهم من يُفسّر كل شيء تفسيراً غيبياً سواء بالضرورة أم من دون ضرورة.

ولا يرفض الاتجاه الأول كون الرسول الأكرم محمد ﷺ كان مؤيداً من قبل الله سبحانه وتعالى بروح القدس، وبرغم أن هذا يُمثّل نوعاً من الإيمان بالغيب، إلا أنه لا يتجاوز هذا الحد ليشمل بقية الغيبات والمعجزات التي كانت عند الرسول ﷺ.

ويذهب هذا الاتجاه إلى أن معجزات الرسول المروية في الأحاديث، والتي منها أن النبي ﷺ كان يستطيع أن يتكلّم بلغات غير اللغة العربية^(١)، وأنه ﷺ تكلم مع حصي، وأن الحصى شهد له بالنبوة^(٢)، وأنه أمر نخلة بالمجيء إليه،

(١) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١٣٢-١٣٣.

(٢) قال ابن عباس: «قَدِمَ مُلُوكُ حَضْرَمَوْتَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا كَيْفَ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصَى فَقَالَ ﷺ: هَذَا يَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ. فَسَبَّحَ الْحَصَى فِي يَدِهِ، وَشَهِدَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ..». بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٣٧٩. المناقب، ج ١، ص ٩٠.

فجاءت إليه^(١).

كل تلك المعاجز وغيرها في نظر هذا الاتجاه هي محض اختلاق سطره الجهلة من الناس! وقد يحتاجون إلى تأويلات بعيدة للأحاديث الصحيحة في هذا الجانب. كما أن هذا الاتجاه يُنكر العصمة، لأن عصمة الرسول هي بدورها إثبات لغيبته.

أما الاتجاه الثاني؛ فبالعكس تماماً، فكل شيء في التاريخ عندهم هو من الغيب. فالرسول انتصر في غزوة بدر بالغيب، واستطاع فتح الجزيرة العربية بالغيب، والمسلمون استطاعوا فتح العالم بالغيب، وهكذا يُفسّرون كل شيء تفسيراً غيبياً.

وحينما نسأل أصحاب هذا الاتجاه:

- لماذا لم يكن النصر حليفاً للرسول ﷺ في بعض الحروب؟. ولماذا أُغتيل الإمام علي عليه السلام في محراب مسجد الكوفة؟. ولماذا قُتل الإمام الحسين عليه السلام؟. ولماذا اغتيل الإمام الحسن عليه السلام بالسم؟. رغم أنهم جميعاً كانوا ينصرون الله ويُبلّغون رسالته؟.

فإن جوابهم هو: أن الله أراد ذلك.

هكذا يُفسّرون التاريخ تفسيراً غيبياً، وبصورة كلية.

أما الاتجاه الذي نعتقد أنه هو الصحيح فهو الاتجاه الوسط الذي يقول: إن التاريخ نتاج عمل الإنسان، ولكن في الوقت نفسه للغيب تأثيره في الإنسان نفسه. فالرسول ﷺ كان مُتصلاً بالغيب، والأئمة المعصومون بدورهم كانت علومهم وأفكارهم موروثة من رسول الله ﷺ لفضلهم، ولإحسانهم، ولعلمهم، ولأنهم تفوّقوا على غيرهم في الورع والتقوى. والأنبياء عليهم السلام أنفسهم لا يختارهم الله إلا بحكمة... وقد قال ربنا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ

(١) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٤٧٥. نهج البلاغة، خطبة: ١٩٢ (فضل الوحي). الطرائف، ج ٢، ص ٤١٣.

قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا^(١). وقال عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

فالابتلاء سبق الاختيار، كما أن الإحسان سبق الحكم والعلم، وأما سائر الأمور فيما ثبت من التاريخ أن عاملها المؤثر هو الغيب نُفسَرها بالغيب، وفيما ثبت أنها من عالم الشهود نُفسَرها بالتأثيرات الخارجية، فلا تُنكر هذا ولا تُنكر ذلك، ولا يكون منا إفراط في اتِّجاه الغيبيات ولا تفريط في اتِّجاه الشهوديات، وإنما نسير على الطريق الوسط.

فمثلاً: حينما دُعي الإمام الصادق عليه السلام إلى الاجتماع الذي ضم كبار القادة العلويين والعباسيين لانتخاب قائد للحركة، وكان الاجتماع قد عُقد في منطقة الأبواء بين مكة والمدينة، وتم فيه اختيار محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، كقائد للحركة، والمرشح لاستلام الحكم بعد الإطاحة بالأُمويين.

في ذلك الاجتماع، لم ينتخب الإمام الصادق عليه السلام محمداً، وأشار إلى أن الأمر لن يتم له، وقال: «لا يَنَالُهَا - يعني الخلافة - ولن يَنَالَهَا إِلَّا صاحب القباء الأصفر»^(٣)، مشيراً إلى أبي جعفر المنصور.

ويومها انفضَّ الاجتماع وقد أنكر بعض المجتمعين على الصادق رأيه، إلّا أن الأيام مرّت، وتحقّق ما قاله الإمام الصادق عليه السلام، حيث تحوّلت القيادة الحركية من العلويين إلى العباسيين لأسباب عدة، وإذا بالمنصور الدوانيقي يتسلّم مقاليد الحكم، أما محمد ذو النفس الزكية وأخوه إبراهيم فقد ثارا على المنصور بعد أن قتل المنصور أباهما وخمسة من أبناء الحسن عليه السلام، وجيَّش الجيوش لقتلهم، فاستشهد محمد في المدينة، واستشهد أخوه إبراهيم في البصرة.

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٤.

(٢) سورة يوسف، آية: ٢٢.

(٣) الفخري، ص ١٦٢. مقاتل الطالبين، ص ١٨٦.

ومع أن هذه الرواية قد أوردتها أغلب المؤرخين، إلا أننا نجد أن البعض يزعم أنها من وضع الغلاة الذين أرادوا إثبات المعجزة لأئمتهم، وذلك انطلاقاً من أنهم يُنكرون كل رواية تُثبت الإعجاز. بالطبع لا يمكننا أن نهشي هذه الطريقة في التفكير، لأنه مادام الأمر قد ثبت تاريخياً، وليس هناك من الناحية العقلية ما يخالفه، حيث إن الإمام الصادق كان يعرف ظروف الثورة ضد الأمويين، وأن العباسيين قد قطعوا في سبيل بناء دولتهم شوطاً كبيراً متجاوزين في سبيل ذلك الكثير من المعايير الدينية التي يتوقف عندها الرساليون، وأن ذا النفس الزكية كان أسمى من أن يتوسل بقتل عشرات الألوف في سبيل الوصول إلى الحكم، لذلك حكم الإمام الصادق عليه السلام بأن من سيستلم الأمور هو المنصور الدوانيقي الذي كان القائد الفعلي للدولة العباسية حتى في خلافة أخيه أبي العباس السفاح، التي دامت أربع سنين، والذي توفي عن عمر لا يتجاوز حسب أكثر الروايات (الثالثة والثلاثين) من العمر وقيل (تسعاً وعشرين)^(١).

الإمام الصادق ملهم الكيمياء

كذلك حينما كتب أحد الغربيين كتاباً سَمَّاهُ (الإمام الصادق ملهم الكيمياء) وأثبت في كتابه أن الإمام الصادق عليه السلام هو الذي وضع أساس علم الكيمياء في العالم، وليس في العالم الإسلامي فقط، وأن علم الكيمياء الموجود هو نتاج جابر بن حيان الكوفي الذي اقتبس هذا العلم من الإمام الصادق عليه السلام لأنه في كل رسائله يكتب: «قال مولاي وسيدي جعفر بن محمد الصادق»، «عن الإمام الصادق».

ولكن يأتي أحد المؤلفين ويقول بكل بساطة: إن هذه الرواية كاذبة. لماذا؟.

لأنه حسب قوله: إنه لم يكن في المدينة المنورة أساتذة في علم الكيمياء، فمن أين اقتبس الإمام الصادق هذا العلم؟.

هنا لا يمكن إلا أن يكون الله سبحانه هو الذي ألهم الإمام الصادق عليه السلام

علم الكيمياء، ولكن هذا الكاتب كيف يقبل ذلك وهو يسير على قاعدة أنه من المستحيل أن ربنا يُلهم عباده العلوم بصورة غيبية، علماً بأن المفكرين والمخترعين وحتى الشعراء يؤكّدون جميعاً على دور الإلهام في العلم والفن؟.

الإمام الجواد والإلهام الإلهي

لقد أصبح الإمام الجواد عليه السلام إماماً وهو في عمر لا يتجاوز التاسعة، وكان ذلك امتحاناً عسيراً وفتنة لكل الموالين. فكبار العلماء والفقهاء، والقادة العسكريين، كان من الواجب عليهم الانقياد لفتى عمره (٩) سنوات^(١)، شديد السمرة، ولم يكن ضخماً الجثة لكي يتراءى أكبر من سنه.

قَالَ قَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ - وَكَانَ زَيْدِيًّا - قَالَ: «خَرَجْتُ إِلَى بَغْدَادَ فَبَيَّنَا أَنَا بِهَا إِذْ رَأَيْتُ النَّاسَ يَتَعَادُونَ وَيَتَشَرَّفُونَ وَيَقْفُونَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟!».

فَقَالُوا: ابْنُ الرِّضَا، ابْنُ الرِّضَا. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَنْظُرَنَّ إِلَيْهِ.

فَطَلَعَ عَلَى بَغْلٍ أَوْ بَغْلَةٍ، فَقُلْتُ: لَعَنَ اللَّهُ أَصْحَابَ الْإِمَامَةِ حَيْثُ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ أَفْتَرَضَ طَاعَةَ هَذَا! فَعَدَلَ إِلَيَّ، وَقَالَ عليه السلام: يَا قَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ﴿أُبَشِّرْ أَمِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٌ﴾^(٢). فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي سَاحِرٌ وَاللَّهِ، فَعَدَلَ إِلَيَّ، فَقَالَ عليه السلام: ﴿أَلَلَّيْ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشَرُّ﴾^(٣).

قَالَ: فَانْصَرَفْتُ، وَقُلْتُ بِالْإِمَامَةِ وَشَهِدْتُ أَنَّهُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَاعْتَقَدْتُ^(٤).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى الرِّضَا عليه السلام أَنَا وَصَفْوَانُ بْنُ

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ١٢. وفيه كان مقامه مع أبيه سبع سنين.

(٢) سورة القمر، آية: ٢٤.

(٣) سورة القمر، آية: ٢٥.

(٤) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٦٤.

يَحْيَى، وَأَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام قَائِمٌ، قَدْ أَتَى لَهُ ثَلَاثُ سِنِينَ. فَقُلْنَا لَهُ: جَعَلَنَا اللَّهُ فِدَاكَ، إِنْ -وَأَعُوذُ بِاللَّهِ- حَدَّثَ حَدَّثٌ فَمَنْ يَكُونُ بَعْدَكَ؟!.

قَالَ عليه السلام: ابْنِي هَذَا. وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ.

قَالَ فَقُلْنَا لَهُ: وَهُوَ فِي هَذَا السَّنِّ؟!.

قَالَ عليه السلام: نَعَمْ، وَهُوَ فِي هَذَا السَّنِّ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اخْتَجَّ بِعِيسَى عليه السلام وَهُوَ ابْنُ سَنَتَيْنِ^(١).

نرى أي فتنة كبيرة، وأي امتحان عظيم، أن يأتي رجل مثل: علي^(٢) بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام. أبوه إمام، وأخوه إمام، وابن أخيه إمام، وهو كان من فقهاء المذهب، وأسنُّ رجل في بني هاشم، يأتي إلى الإمام الجواد ابن الإمام الرضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، (والد علي) ويدين له بالطاعة، والولاء امتثالاً لأمر الله ورسوله^(٣).

نعم، فالقضية ليست قضية عُمر، وإنما قضية التسليم لأمر الله، والرضا بأمره. فهذا الريان وأبو الصلت وغيرهما وهم من كبار الفقهاء والمحدثين ومن كبار القادة الحركيين، يأتون كلهم ويجلسون عند الإمام الجواد عليه السلام ويسمعون كلامه.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ جَالِساً بِالمَدِينَةِ وَكُنْتُ أَقِمْتُ عِنْدَهُ سَتَتَيْنِ أَكْتُبُ عَنْهُ مَا سَمِعَ مِنْ أَخِيهِ، -يَعْنِي أَبَا الْحُسَيْنِ- إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الرِّضَا عليه السلام الْمَسْجِدَ (مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٣٥.

(٢) علي بن الإمام جعفر بن الإمام محمد بن الإمام علي بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، أبو الحسن المدني، كان راوياً للحديث، جليل القدر، ثقة، سديد الطريق، شديد الورع، كثير الفضل. روى عن أبيه وأخيه وعن الإمام الرضا عليه السلام، لازم أخاه الإمام موسى عليه السلام، وروى عنه الكثير من الروايات في مختلف العلوم والمعارف، انظر ترجمته في: الإرشاد، ج ٢، ص ٢١٤. رجال الكشي، ص ٤٨٨. وبحار الأنوار، ج ١٠، ص ٢٤٩.

(٣) الكافي، ج ١، ص ٣٢٢. بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٣٦.

فَوَثَبَ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ بِلَا حِذَاءٍ وَلَا رِدَاءٍ، فَقَبَّلَ يَدَهُ وَعَظَّمَهُ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: يَا عَمَّ اجْلِسْ رَحِمَكَ اللَّهُ.

فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، كَيْفَ أَجْلِسُ وَأَنْتَ قَائِمٌ. فَلَمَّا رَجَعَ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى مَجْلِسِهِ جَعَلَ أَصْحَابُهُ يُوبِّخُونَهُ وَيَقُولُونَ: أَنْتَ عَمُّ أَبِيهِ وَأَنْتَ تَفْعَلُ بِهِ هَذَا الْفِعْلَ.

فَقَالَ: اسْكُتُوا إِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - وَقَبَضَ عَلَى لِحْيَتِهِ -، لَمْ يُؤْهِلْ هَذِهِ الشَّيْئَةَ وَأَهْلَ هَذَا الْفَتَى، وَوَضَعَهُ حَيْثُ وَضَعَهُ، أَنْكِرُ فَضْلَهُ نَعُودُ بِاللَّهِ مِمَّا تَقُولُونَ بَلْ أَنَا لَهُ عَبْدٌ^(١).

وَرَوَى عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام بِالْمَدِينَةِ وَعِنْدَهُ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ، فَدَنَا الطَّبِيبُ لِيَقْطَعَ لَهُ الْعِرْقَ.

فَقَامَ: عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ فَقَالَ: يَا سَيِّدِي، يَبْدَأُ بِي لِتَكُونَ حِدَّةُ الْحَدِيدِ فِي قَبْلِكَ.

قَالَ: قُلْتُ: يَهْتِكُ هَذَا عَمُّ أَبِيهِ! فَقَطَعَ لَهُ الْعِرْقَ، ثُمَّ أَرَادَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام النَّهُوضَ، فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ فَسَوَّى لَهُ نَعْلَيْهِ حَتَّى يَلْبَسَهُمَا^(٢).

وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا قُبِضَ الرِّضَا عليه السلام، كَانَ سِنُّ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام نَحْوَ سَبْعِ سِنِينَ، فَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ مِنَ النَّاسِ بِيَعْدَادِ، وَفِي الْأَمْصَارِ، وَاجْتَمَعَ: الرِّيَّانُ بْنُ الصَّلْتِ^(٣)، وَصَفْوَانُ بْنُ يَحْيَى^(٤)، وَحَمَّادُ بْنُ حَكِيمٍ^(٥)، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَجَّاجِ^(٦)، وَيُونُسُ بْنُ

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٣٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ١٠٤.

(٣) الأشعري القمي، مرت ترجمته.

(٤) البجلي، عدّه الشيخ عليه السلام من أصحاب الإمام الكاظم، والإمام الرضا ووكيله، كما عدّه من أصحاب الإمام الجواد عليه السلام، بل اتّفقت كلمة الرجالين على وثاقته، وقال عنه الشيخ الطوسي في الفهرست، ص ١٤٥: «أوثق أهل زمانه عند أصحاب الحديث، وأعبدهم...».

(٥) الخنعمي، من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، ممدوح. معجم رجال الحديث، ج ١٦، ص ٣٣.

(٦) البجلي، مولا هم، كوفي من سكان بغداد. انظر: قاموس الرجال، ج ٦، ص ٩٧. رقم ٤٠٠٣.

عَبْدُ الرَّحْمَنِ^(١)، وَجَمَاعَةٌ مِنْ وَجُوهِ الشَّيْعَةِ وَثِقَاتِهِمْ فِي دَارِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَجَّاجِ فِي بَرَكَةِ زُلُولٍ^(٢)، يَبْكُونَ وَيَتَوَجَّعُونَ مِنَ الْمُصِيبَةِ. فَقَالَ لَهُمْ يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: دَعُوا الْبُكَاءَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَإِلَى مَنْ نَقْصِدُ بِالْمَسَائِلِ إِلَى أَنْ يَكْبَرَ هَذَا؟ -يَعْنِي أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

فَقَامَ إِلَيْهِ الرِّيَّانُ بْنُ الصَّلْتِ، وَوَضَعَ يَدَهُ فِي حَلْقِهِ، وَلَمْ يَزَلْ يَلْطِمُهُ وَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ تُظْهِرُ الْإِيمَانَ لَنَا، وَتُبْطِنُ الشُّكَّ وَالشَّرْكَ، إِنْ كَانَ أَمْرُهُ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا فَلَوْ أَنَّهُ كَانَ ابْنُ يَوْمٍ وَاحِدٍ لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ الشَّيْخِ الْعَالِمِ وَفَوْقَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَلَوْ عُمِّرَ أَلْفَ سَنَةٍ فَهُوَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ، هَذَا بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُفَكَّرَ فِيهِ. فَأَقْبَلَتِ الْعِصَابَةُ عَلَيْهِ تَعَذُّلُهُ وَتَوْبُّخُهُ.

وَكَانَ وَقْتُ الْمَوْسِمِ، فَاجْتَمَعَ مِنْ فُقَهَاءِ بَغْدَادَ وَالْأَمْصَارِ، وَعُلَمَائِهِمْ ثَمَانُونَ رَجُلًا، فَخَرَجُوا إِلَى الْحَجِّ وَقَصَدُوا الْمَدِينَةَ لِيُشَاهِدُوا أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا وَافَوْا أَتَوْا دَارَ جَعْفَرِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِأَنَّهَا كَانَتْ فَارِغَةً، وَدَخَلُوهَا وَجَلَسُوا عَلَى بَسَاطٍ كَبِيرٍ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى فَجَلَسَ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ. وَقَامَ مُنَادٍ وَقَالَ: هَذَا ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ فَلْيَسْأَلْهُ.

فَسُئِلَ عَنْ أَشْيَاءَ أَجَابَ عَنْهَا بِغَيْرِ الْوَاجِبِ، فَوَرَدَ عَلَى الشَّيْعَةِ مَا حَيَّرَهُمْ وَعَمَّهُمْ، وَاضْطَرَبَتِ الْفُقَهَاءُ، وَقَامُوا وَهُمْ بِالْإِنْصِرَافِ، وَقَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: لَوْ كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَكْمُلُ لِجَوَابِ الْمَسَائِلِ لَمَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ مَا كَانَ، وَمِنْ الْجَوَابِ بِغَيْرِ الْوَاجِبِ.

فَفُتِحَ عَلَيْهِمْ بَابٌ مِنْ صَدْرِ الْمَجْلِسِ وَدَخَلَ مُوَفَّقٌ، وَقَالَ: هَذَا أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَامُوا إِلَيْهِ بِأَجْمَعِهِمْ، وَاسْتَقْبَلُوهُ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَلَيْهِ قَمِيصَانِ وَعِمَامَةٌ بِذَوَابْتَيْنِ، وَفِي رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ، وَجَلَسَ وَأَمْسَكَ النَّاسُ كُلُّهُمْ.

(١) يونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين، الثقة، الإمامي، والمشهور المعروف (سلمان زمانه)، توفي سنة ٢٠٨ هـ، فأدرك من أيام الإمام الجواد عَلَيْهِ السَّلَامُ خمس سنوات أو أكثر. انظر: قاموس الرجال، ج ١١، ص ١٧٠-١٨٥. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٨، ص ٣٠٩-٣١٢.

(٢) محلة ببغداد، معروفة. معجم البلدان، ج ١، ص ٤٠٢.

فَقَامَ صَاحِبُ الْمَسْأَلَةِ فَسَأَلَهُ عَنْ مَسَائِلِهِ، فَأَجَابَ عَنْهَا بِالْحَقِّ، فَفَرِحُوا وَدَعَوْا لَهُ وَاثْنُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا لَهُ: إِنَّ عَمَّكَ عَبْدَ اللَّهِ أَفْتَى بِكَيْتٍ وَكَيْتٍ.

فَقَالَ عليه السلام: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَا عَمُّ إِنَّهُ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقِفَ غَدًا بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولَ لَكَ: لِمَ تَفْتِي عِبَادِي بِمَا لَمْ تَعْلَمْ وَفِي الْأَمَّةِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ^(١).

لماذا اغتال المعتصم الإمام الجواد عليه السلام؟

رَوَى زُرْقَان -صَاحِبُ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ وَصَدِيقُهُ بِشَدَّةٍ- قَالَ: رَجَعَ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ عِنْدِ الْمُعْتَصِمِ وَهُوَ مُغْتَمٌّ. فَقُلْتُ لَهُ: فِي ذَلِكَ. فَقَالَ: وَدِدْتُ الْيَوْمَ أَنِّي قَدْ مِتُّ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: وَلِمَ ذَلِكَ؟!.

قَالَ: لِمَا كَانَ مِنْ هَذَا الْأَسْوَدِ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى الْيَوْمَ بَيْنَ يَدَيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ: قُلْتُ لَهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟!.

قَالَ: إِنَّ سَارِقًا أَقْرَعَ عَلَى نَفْسِهِ بِالسَّرْقَةِ، وَسَأَلَ الْخَلِيفَةَ تَطْهِيرَهُ بِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ لَذَلِكَ الْفُقَهَاءَ فِي مَجْلِسِهِ، وَقَدْ أَحْضَرَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، فَسَأَلْنَا عَنِ الْقَطْعِ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ يَجِبُ أَنْ يُقَطَعَ؟.

قَالَ: فَقُلْتُ: مِنَ الْكُرْسُوعِ^(٢). قَالَ: وَمَا الْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ؟!.

قَالَ: قُلْتُ: لِأَنَّ الْيَدَ هِيَ الْأَصَابِعُ، وَالْكَفُّ إِلَى الْكُرْسُوعِ، لِقَوْلِ اللَّهِ فِي التَّيْمِيمِ: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾. وَاتَّفَقَ مَعِيَ عَلَى ذَلِكَ قَوْمٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ يَجِبُ الْقَطْعُ مِنَ الْمِرْفَقِ. قَالَ: وَمَا الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ؟!.

قَالُوا: لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا قَالَ: ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾. فِي الْغَسْلِ (أَيِ الْوُضُوءِ) دَلَّ

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٩٩.

(٢) عظيم في طرف الوظيف مما يلي الرسغ.

ذَلِكَ عَلَى أَنْ حَدَّ الْيَدَ هُوَ الْمُرْقُوعُ.

قَالَ: فَالْتَمَتَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا يَا أَبَا جَعْفَرٍ؟!

فَقَالَ عليه السلام: قَدْ تَكَلَّمَ الْقَوْمُ فِيهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ: دَعْنِي مِمَّا تَكَلَّمُوا بِهِ، أَيُّ شَيْءٍ عِنْدَكَ؟

قَالَ عليه السلام: أَغْفِنِي عَنْ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِاللَّهِ لَمَا أَخْبَرْتَ بِهَا عِنْدَكَ فِيهِ.

فَقَالَ عليه السلام: أَمَّا إِذَا أَقْسَمْتَ عَلَى اللَّهِ إِنِّي أَقُولُ: إِنَّهُمْ أَخْطَؤُوا فِيهِ السُّنَّةَ، فَإِنَّ الْقَطْعَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَفْصِلِ أَصُولِ الْأَصَابِعِ، فَيُتْرَكُ الْكَفُّ.

قَالَ: وَمَا الْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ؟!

قَالَ عليه السلام: قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: السُّجُودُ عَلَى سَبْعَةِ أَعْضَاءِ: الرَّجُلِ، وَالْيَدَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَالرَّجْلَيْنِ. فَإِذَا قُطِعَتْ يَدُهُ مِنَ الْكُرْسُوعِ أَوْ الْمُرْقُوعِ، لَمْ يَبْقَ لَهُ يَدٌ يَسْجُدُ عَلَيْهَا، وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ (يَعْنِي بِهِ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ السَّبْعَةَ الَّتِي يُسْجَدُ عَلَيْهَا) فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا. وَمَا كَانَ اللَّهُ لَمْ يَقْطَعْ.

قَالَ: فَأَعْجَبَ الْمُعْتَصِمَ ذَلِكَ وَأَمَرَ يَقْطَعَ يَدَ السَّارِقِ مِنْ مَفْصِلِ الْأَصَابِعِ دُونَ الْكَفِّ.

قَالَ ابْنُ أَبِي دَوَادٍ: قَامَتْ قِيَامَتِي، وَتَمَتَّتْ أُنِّي لَمْ أَكُ حَيًّا.

قَالَ زُرْقَانُ: قَالَ ابْنُ أَبِي دَوَادٍ: صِرْتُ إِلَى الْمُعْتَصِمِ بَعْدَ ثَالِثَةِ، فَقُلْتُ: إِنَّ نَصِيحَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَاجِبَةٌ، وَأَنَا أَكَلَّمُهُ بِمَا أَعْلَمُ أَنِّي أَدْخُلُ بِهِ النَّارَ.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟!. قُلْتُ: إِذَا جَمَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَجْلِسِهِ فُقَهَاءَ رَعِيَّتِهِ، وَعُلَمَاءَهُمْ لِأَمْرِ وَاقِعٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ فَسَأَلَهُمْ عَنِ الْحُكْمِ فِيهِ فَأَخْبَرُوهُ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْحُكْمِ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ حَضَرَ مَجْلِسَهُ أَهْلُ بَيْتِهِ وَقَوَادُهُ وَوُزَرَائُوهُ وَكُتَّابُهُ، وَقَدْ تَسَامَعَ النَّاسُ بِذَلِكَ

مِنْ وَرَاءِ بَابِهِ، ثُمَّ يَتْرُكُ أَقَاوِيلَهُمْ كُلَّهُمْ لِقَوْلِ رَجُلٍ يَقُولُ شَطْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِمَامَتِهِ، وَيَدْعُونَ أَنَّهُ أَوَّلَى مِنْهُ بِمَقَامِهِ، ثُمَّ يَحْكُمُ بِحُكْمِهِ دُونَ حُكْمِ الْفُقَهَاءِ.

قَالَ: فَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَانْتَبَهَ لِمَا نَبَّهَتْهُ لَهُ. وَقَالَ: جَزَاكَ اللَّهُ عَنْ نَصِيحَتِكَ خَيْرًا.

قَالَ: فَأَمَرَ الْيَوْمَ الرَّابِعَ فَلَانًا مِنْ كُتَّابٍ وَزُرَّائِهِ بِأَنْ يَدْعُوهُ إِلَى مَنْزِلِهِ فَدَعَا، فَأَبَى أَنْ يُجِيبَهُ. وَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي لَا أَحْضُرُ مَجَالِسَكُمْ.

فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا أَدْعُوكَ إِلَى الطَّعَامِ، وَأُحِبُّ أَنْ تَطَأَ ثِيَابِي وَتَدْخُلَ مَنْزِلِي، فَاتَّبَعَكَ بِذَلِكَ فَقَدْ أَحَبَّ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ مِنْ وَزُرَّاءِ الْخَلِيفَةِ لِقَاءَكَ. فَصَارَ إِلَيْهِ فَلَمَّا طَعِمَ مِنْهَا أَحْسَسَ السَّمَ فَدَعَا بِدَائِبَتِهِ فَسَأَلَهُ رَبُّ الْمَنْزِلِ أَنْ يُقِيمَ.

قَالَ: خُرُوجِي مِنْ دَارِكَ خَيْرٌ لَكَ.

فَلَمْ يَزَلْ يَوْمُهُ ذَلِكَ وَلَيْلُهُ فِي خِلْفَةٍ حَتَّى قُبِضَ عليه السلام ^(١).

تتبين لنا من هذه الرواية عدة أمور:

أولاً: منزلة الإمام الجواد عليه السلام العلمية.

ثانياً: حالة الحركة الرسالية، حيث قال: «رَجُلٌ يَقُولُ شَطْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِمَامَتِهِ، وَيَدْعُونَ أَنَّهُ أَوَّلَى مِنْهُ (أي من المعتصم) بِمَقَامِهِ».

ثالثاً: أسلوب السلطة في مواجهة الحركة الرسالية، وذلك بدس السم إلى قائدها.

لقد أصبحت دلالات الإمامة واضحة للعيان، جليلة كالشمس المشرقة، وهكذا فقد بلغ التشيع في عهد الإمام الجواد عليه السلام كل مبلغ، واستطاعت أيديولوجيته الفكرية أن ترسخ في قلوب الناس، الأمر الذي جعل التسليم بإمامته أمر مسلّم به مع صغر سنه.

فالقضية ليست قضية عُمر، أو طول، أو جثة، أو لحية بيضاء، أو حتى مجرّد

لحبة، فالإمام لم يكن ذا لحبة آنذاك، فعمره لم يزد على الحادية عشر.

وهكذا الإمام الحجة المنتظر عليه السلام وهو أصغر الأئمة سناً^(١) حينما قام بالإمامة، كان عمره خمس سنين، وربما أربع سنين، وكان عنده علم ما كان وما يكون^(٢)، وبعدئذ انتقل إلى حالة الغيبة، وقد مدَّ الله سبحانه وتعالى في عمره إلى يومنا هذا، وكل هذه أمور غيبية نحن نعتقد بها^(٣)، ونستدل عليها من الكتاب والسنة^(٤)، والعقل لا يستطيع إنكار هذه الحقائق.

وإذا دققنا النظر في حياة الإمام الجواد والسر في أنه أصبح إماماً وهو لا يزال صغيراً، نجد أن سر هذه المرحلة هو جعلها امتحاناً للبشر من حيث انصياعهم لقيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام ومدى إخلاصهم لعقيدتهم، إذ كانت هذه المرحلة تُمهّد بصورة تدريجية لمرحلة الغيبة التي سيقوم فيها الإمام الحجة عليه السلام وهي أمر لا يحتمله إلا من امتحن الله قلبه وأخلص في الذب عن المبدأ. فكان من الواجب العمل على تقبل الرساليين النفسي للغيبة.

صحيح أن هناك الكثير من الأحاديث المتواترة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في أمر المنتظر^(٥)، إلا أن سماع الأحاديث شيء والإيمان بها شيء آخر.

إن حياة الإمام الجواد عليه السلام، وما فيها من حكم وأحداث، تدفعنا لكي نُؤمن بالغيب ومعجزاته، ولكن ذلك الإيمان الذي لا يُنكر دور المسببات المادية.

(١) رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سَالِمٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «صَاحِبُ هَذَا الْأَمْرِ أَصْغَرُنَا سِنًا...». بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٣٨.

(٢) الإرشاد، ج ٢، ص ٣٣٩. إلزام الناصب، ج ١، ص ٢٨٩.

(٣) للفائدة طالع ما كتبه المصنف في كتابه: الإمام المهدي عليه السلام والإيمان بالغيب، والفصل الثالث: الولاية والإيمان بالغيب، من كتابه: الإمام المهدي عليه السلام قدوة الصديقين.

(٤) للوقوف على ذلك راجع مثلاً: كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق، والإرشاد للمفيد، ج ٢، ص ٣٤٠. وإحقاق الحق للشوشري، ج ١٣، ص ٩٨. وأيضاً راجع ما كتبه المصنف في كتابه: الإمام المهدي عليه السلام والإيمان بالغيب، تحت عنوان: الإمام المهدي عليه السلام في الكتاب والسنة.

(٥) طالع: بحار الأنوار، ج ٥١.

صِفْوَالِكَلَامِ

* هناك اتجاهان متباينان في النظرة إلى الغيب:

ألف: الذي يُفسّر الظواهر كلها تفسيراً حسيّاً ويرفض الأفكار الغيبية تماماً.

باء: الذي يُفسّر كل شيء تفسيراً غيبياً.

أما ما نعتقد به فهو الاتجاه الوسط الذي يرى أن التاريخ هو نتاج عمل الإنسان، ولكن في الوقت نفسه للغيب تأثيره في الإنسان.

* إن حياة الإمام الجواد عليه السلام، تدفعنا لكي نؤمن بالغيب ومعجزاته، ولكن دون إنكار دور المسببات المادية.



عَهْدُ الْإِمَامِ الْجَوَادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَانْتِشَارُ الْحَرَكَةِ الرَّسَالِيَّةِ

عاصر الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام، خليفتين عباسيين حيث كان مقتله في ذي القعدة، وقيل: ذي الحجة سنة عشرين ومائتين، وله يومئذ خمس وعشرون سنة^(١).

الخليفة الذي عاش الإمام في عهده ظروفاً هادئة، هو المأمون العباسي، الذي قام بالتقرب إلى العلويين وإلى سيدهم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، بسبب الضغط الجماهيري آنذاك، حيث قامت في عهد المأمون سلسلة من الثورات والانتفاضات في كافة أرجاء الدولة الإسلامية، لذلك تقرب المأمون إلى العلويين وعرف أن التقرب يجب أن يكون إلى شخص الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، علّه يجد في ذلك ما يُضفي صفة الشرعية على حكمه.

ومع أن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن المأمون العباسي كان شيعياً، وكان يذهب إلى أحقية أولاد الإمام علي عليه السلام بالخلافة، إلا أنني لا أرى ذلك في المأمون

(١) انظر: الكافي، ج ١، ص ٤٩٢، وفيه: «قبض عليه السلام سنة عشرين ومائتين في آخر ذي القعدة، وهو ابن خمس وعشرين سنة...». ومثله في الإرشاد، ج ٢، ص ٢٩٥. وفي بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢: «وقيل: وفاته يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة عشرين ومائتين...». مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٦٤، وفيه: «وذلك لخمس خلون من ذي الحجة، ودفن ببغداد...». تذكرة الخواص، ص ٣٦٨، وقال: «وكانت وفاته ببغداد خامس ذي الحجة، ودفن إلى جانب جدّه موسى بن جعفر...».

العباسي لأن ذلك شرف لا يستحقه خليفة غاصب.

وبعد استشهاد الإمام الرضا عليه السلام على يد المأمون الذي فشل في جعل الإمام الرضا عليه السلام أداة لإخماد الثورات ضد السلطة العباسية، أصبح محمد الجواد عليه السلام إماماً شرعياً للرسالين، وقد بقي في المدينة المنورة بعيداً عن بغداد عاصمة الخلافة آنئذ.

قصة زواج الإمام الجواد عليه السلام

عَنِ الرَّيَّانِ بْنِ شَيْبٍ، قَالَ: «لَمَّا أَرَادَ الْمَأْمُونُ أَنْ يُزَوِّجَ ابْنَتَهُ أُمَّ الْفَضْلِ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام بَلَغَ ذَلِكَ الْعَبَّاسِيُّونَ فَعَلَّطَ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَنْكَرُوهُ مِنْهُ، وَخَافُوا أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ مَعَهُ إِلَى مَا انْتَهَى مَعَ الرَّضَا عليه السلام، فَخَاضُوا فِي ذَلِكَ وَاجْتَمَعَ مِنْهُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ الْأَذْنَوْنَ مِنْهُ، فَقَالُوا: نَنْشُدُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَقِيمَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي عَزَمْتَ عَلَيْهِ مِنْ تَزْوِيجِ ابْنِ الرَّضَا فَإِنَّا نَخَافُ أَنْ يُخْرِجَ بِهِ عَنَّا أَمْرٌ قَدْ مَلَكَناهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَنْزِعَ مِنَّا عِزًّا قَدْ أَلْبَسَنَاهُ اللَّهُ، وَقَدْ عَرَفْتَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ قَدِيماً وَحَدِيثاً، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ قَبْلَكَ مِنْ تَبْعِيدِهِمْ وَالتَّصْغِيرِ بِهِمْ، وَقَدْ كُنَّا فِي وَهْلَةٍ مِنْ عَمَلِكَ مَعَ الرَّضَا عليه السلام، مَا عَمِلْتَ فَكَفَّنا اللَّهُ الْمُهَمَّ مِنْ ذَلِكَ، فَاللَّهُ اللَّهُ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى غَمٍّ قَدْ انْحَسَرَ عَنَّا، وَاصْرِفْ رَأْيَكَ عَنِ ابْنِ الرَّضَا وَاعْدِلْ إِلَى مَنْ تَرَاهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ يَصْلُحُ لِدَلِّكَ دُونِ غَيْرِهِ.

فَقَالَ لَهُمُ الْمَأْمُونُ: أَمَّا مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ آلِ أَبِي طَالِبٍ، فَأَنْتُمْ السَّبَبُ فِيهِ، وَلَوْ أَنْصَفْتُمْ الْقَوْمَ لَكَانُوا أَوْلَى بِكُمْ. وَأَمَّا مَا كَانَ يَفْعَلُهُ مِنْ قَبْلِي بِهِمْ فَقَدْ كَانَ قَاطِعاً لِلرَّحِمِ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ مَا نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنِّي مِنْ اسْتِخْلَافِ الرَّضَا عليه السلام وَلَقَدْ سَأَلْتُهُ أَنْ يَقُومَ بِالْأَمْرِ وَأَنْزَعَهُ مِنْ نَفْسِي فَأَبَى، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾. وَأَمَّا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ فَقَدْ اخْتَرْتُهُ لِتَبْرِيزِهِ عَلَى كَافَّةِ أَهْلِ الْفَضْلِ فِي الْعِلْمِ، وَالْفَضْلِ مَعَ صِغَرِ سِنِّهِ، وَالْأَعْجُوبَةِ فِيهِ بِذَلِكَ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَظْهَرَ لِلنَّاسِ مَا قَدْ عَرَفْتَهُ مِنْهُ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ الرَّأْيَ مَا رَأَيْتُ فِيهِ.

فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ هَذَا الْفَتَى وَإِنْ رَاقَكَ مِنْهُ هَدْيُهُ فَإِنَّهُ صَبِيٌّ، لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَلَا فِقْهَ،

فَأَمَّهُلَهُ لِيَتَأَدَّبَ ثُمَّ اصْنَعْ مَا تَرَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

فَقَالَ لَهُمْ: وَيُحْكُمُ، إِنِّي أَعْرِفُ هَذَا الْفَتَى مِنْكُمْ، وَإِنْ أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ عَلِمُهُمْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَمَوَادَّهُ وَإِلْهَامِهِ، لَمْ تَزَلْ أَبَاؤُهُ أَغْنِيَاءَ فِي عِلْمِ الدِّينِ وَالْأَدَبِ عَنِ الرَّعَايَا النَّاقِصَةِ عَنْ حَدِّ الْكَمَالِ. فَإِنْ شِئْتُمْ فَامْتَحِنُوا أَبَا جَعْفَرٍ بِمَا يَتَبَيَّنُ لَكُمْ بِهِ مَا وَصَفْتُ لَكُمْ مِنْ حَالِهِ.

قَالُوا: قَدْ رَضِينَا لَكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - وَلَأَنْفُسِنَا بِامْتِحَانِهِ، فَخَلَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، لِنَنْصِبَ مَنْ يَسْأَلُهُ بِحَضْرَتِكَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ فِقْهِ الشَّرِيعَةِ، فَإِنْ أَصَابَ فِي الْجَوَابِ عَنْهُ لَمْ يَكُنْ لَنَا اعْتِرَاضٌ فِي أَمْرِهِ، وَظَهَرَ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ سَدِيدُ رَأْيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ، وَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ فَقَدْ كُفِينَا الْخُطْبَ فِي مَعْنَاهُ.

فَقَالَ لَهُمُ الْمَأْمُونُ: شَأْنُكُمْ، وَذَلِكَ مَتَى أَرَدْتُمْ.

فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ وَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى مَسْأَلَةِ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ، وَهُوَ يَوْمِيذٍ قَاضِي الزَّمَانِ عَلَى أَنْ يَسْأَلَهُ مَسْأَلَةً لَا يَعْرِفُ الْجَوَابَ فِيهَا، وَوَعَدُوهُ بِأَمْوَالٍ نَفِيسَةٍ عَلَى ذَلِكَ، وَعَادُوا إِلَى الْمَأْمُونِ وَسَأَلُوهُ أَنْ يَخْتَارَ لَهُمْ يَوْمًا لِلْاجْتِمَاعِ. فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَاجْتَمَعُوا فِي الْيَوْمِ الَّذِي اتَّفَقُوا عَلَيْهِ، وَحَضَرَ مَعَهُمْ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ، وَأَمَرَ الْمَأْمُونُ أَنْ يُفْرَشَ لِأَبِي جَعْفَرٍ دَسْتٌ، وَيُجْعَلَ لَهُ فِيهِ مِسُورَتَانِ فَفَعَلَ ذَلِكَ. وَخَرَجَ أَبُو جَعْفَرٍ وَهُوَ يَوْمِيذٍ ابْنُ تِسْعِ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ، فَجَلَسَ بَيْنَ الْمِسُورَتَيْنِ، وَجَلَسَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَامَ النَّاسُ فِي مَرَاتِبِهِمْ وَالْمَأْمُونُ جَالِسٌ فِي دَسْتٍ مُتَّصِلٍ بِدَسْتِ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام.

فَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ لِلْمَأْمُونِ: يَا ذَنْ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَسْأَلَ أَبَا جَعْفَرٍ عَنْ مَسْأَلَةٍ؟

فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: اسْتَأْذِنُهُ فِي ذَلِكَ.

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ فَقَالَ: أَتَأْذَنُ لِي - جُعِلْتُ فِدَاكَ - فِي مَسْأَلَةٍ؟

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: سَلْ إِنْ شِئْتَ.

قَالَ يَحْيَى: مَا تَقُولُ - جُعِلْتُ فِدَاكَ - فِي مُحْرِمٍ قَتَلَ صَيْدًا.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: قَتَلَهُ فِي حِلٍّ أَوْ حَرَمٍ، عَالِمًا كَانَ الْمُحْرِمُ أَوْ جَاهِلًا، قَتَلَهُ عَمْدًا أَوْ خَطَأً، حُرًّا كَانَ الْمُحْرِمُ أَوْ عَبْدًا، صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، مُبْتَدِئًا بِالْقَتْلِ أَوْ مُعِيدًا، مِنْ ذَوَاتِ الطَّيْرِ كَانَ الصَّيْدُ أَمْ مِنْ غَيْرِهَا، مِنْ صِغَارِ الصَّيْدِ أَمْ مِنْ كِبَارِهَا، مُصِرًّا عَلَى مَا فَعَلَ أَوْ نَادِمًا، فِي اللَّيْلِ كَانَ قَتْلُهُ لِلصَّيْدِ أَمْ فِي النَّهَارِ، مُحَرِّمًا كَانَ بِالْعُمَرَةِ إِذْ قَتَلَهُ أَوْ بِالْحُجِّ كَانَ مُحَرِّمًا؟.

فَتَحَبَّرَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ، وَبَانَ فِي وَجْهِهِ الْعَجْزُ وَالْانْقِطَاعُ، وَلَجَلَجَ حَتَّى عَرَفَ جَمَاعَةُ أَهْلِ الْمَجْلِسِ أَمْرَهُ.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَالتَّوْفِيقِ لِي فِي الرَّأْيِ.

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَالَ لَهُمْ: أَعَرَفْتُمْ الْآنَ مَا كُنْتُمْ تُنْكِرُونَهُ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فَقَالَ لَهُ: أَتَخْطُبُ يَا أَبَا جَعْفَرٍ؟.

فَقَالَ عليه السلام: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: اخْطُبْ لِنَفْسِكَ جُعِلَتْ فِدَاكَ، قَدْ رَضَيْتَكَ لِنَفْسِي، وَأَنَا مُزَوَّجُكَ أُمَّ الْفَضْلِ ابْنَتِي، وَإِنْ رَغِمَ قَوْمٌ لِدَلِكِ.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: الْحَمْدُ لِلَّهِ إِقْرَارًا بِنِعْمَتِهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِخْلَاصًا لَوْحْدَانِيَّتِهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ بَرِيَّتِهِ وَالْأَصْفِيَاءِ مِنْ عِزَّتِهِ. أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ كَانَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى الْأَنَامِ أَنْ أَغْنَاهُمْ بِالْحَلَالِ عَنِ الْحَرَامِ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى يَخْطُبُ أُمَّ الْفَضْلِ بِنْتَ عَبْدِ اللَّهِ الْمَأْمُونِ، وَقَدْ بَذَلَ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ مَهْرَ جَدَّتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ عليه السلام وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ جِيَادًا، فَهَلَّ زَوْجَتُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا عَلَى هَذَا الصَّدَاقِ الْمَذْكُورِ.

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: نَعَمْ، قَدْ زَوَّجْتُكَ يَا أَبَا جَعْفَرٍ، أُمَّ الْفَضْلِ ابْنَتِي عَلَى الصَّدَاقِ

المذكور، فَهَلْ قَبِلْتَ النَّكَاحَ؟.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: قَدْ قَبِلْتُ ذَلِكَ وَرَضِيتُ بِهِ.

فَأَمَرَ الْمَأْمُونُ أَنْ يَقْعُدَ النَّاسُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ.

قَالَ الرَّيَّانُ: وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ سَمِعْنَا أَصْوَاتًا تُشَبِّهُ أَصْوَاتَ الْمَلَّاحِينَ فِي مُحَاوَرَاتِهِمْ، فَإِذَا الْحَدَمُ يَجْرُونَ سَفِينَةً مَصْنُوعَةً مِنْ فِضَّةٍ، مَشْدُودَةً بِالْحَبَالِ مِنَ الْإِبْرِيسِمِ عَلَى عِجَلَةٍ مَمْلُوءَةٍ مِنَ الْعَالِيَةِ.

ثُمَّ أَمَرَ الْمَأْمُونُ أَنْ تُخَضَّبَ لِحَاءُ الْخَاصَّةِ مِنْ تِلْكَ الْعَالِيَةِ. ثُمَّ مُدَّتْ إِلَى دَارِ الْعَامَّةِ فَتَطَيَّبُوا مِنْهَا، وَوُضِعَتِ الْمَوَائِدُ فَأَكَلَ النَّاسُ، وَخَرَجَتِ الْجَوَائِزُ إِلَى كُلِّ قَوْمٍ عَلَى قَدَرِهِمْ...»^(١).

وقد قيل: إن الإمام عليه السلام سُئِلَ ثلاثين ألفَ مسألة^(٢)، وبالطبع إن هذه الثلاثين ألف لم تكن في يوم واحد، إذ يُعْتَقَدُ (كما يقول بعض المؤرخين) أن السؤال كان عبارة عن مجموعة من المسائل الكلية، أي إن الإمام عليه السلام كان يُطْلَقُ بعض القواعد الفقهية، وتلك القواعد الفقهية كانت تتشعب منها الأحكام، وقد أحصى العلماء تلك الأحكام، فكانت ثلاثين ألف مسألة، وكما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «.. فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَنِي أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ، يَفْتَحُ كُلُّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ»^(٣). يعني الباب الواحد يتحوّل إلى ألف باب، لأن القاعدة كلية والحكم عام، والحكم العام فيه أبواب متعددة، وكما قال الإمام الصادق عليه السلام - حينما بيّن قاعدة فقهية، وهي قاعدة نفى الحرج -: «هَذَا مِنَ الْأَبْوَابِ الَّتِي يَفْتَحُ كُلُّ بَابٍ مِنْهَا أَلْفَ بَابٍ»^(٤).

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٧٧-٧٧.

(٢) «.. فَقَالُوا: يَا سَيِّدَنَا، أَتَأْذُنُ لَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ؟. فَقَالَ عليه السلام: نَعَمْ. فَسَأَلُوهُ فِي مَجْلِسٍ عَنْ ثَلَاثِينَ أَلْفَ مَسْأَلَةٍ، فَأَجَابَهُمْ فِيهَا، وَلَهُ تِسْعُ سِنِينَ». بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٨٥.

(٣) بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٤٣٢. دلائل الإمامة، ص ١٠٥. الاختصاص، ص ٢٨٣. المناقب، ج ٢، ص ٣٦.

(٤) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٦٠.

يعني هذه القاعدة هي قاعدة عامة تستطيع أن تُطبَّقها على قضايا ومواضيع كثيرة^(١).

لماذا صاهر الإمام الخليفة؟

ويأتي سؤال: كيف أقدم الإمام الجواد عليه السلام على الزواج من بنت المأمون العباسي؟

الجواب عن هذا السؤال بسيط جداً، بعد أن عرفنا الجواب عن سؤال سابق حول قبول الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد من قبل المأمون العباسي، فالجواب نفسه ينطبق هنا.

هناك قلنا: إنه في عهد المأمون تحوّلت الحركة الرسالية إلى حركة تستطيع أن تكون شيئاً أشبه ما يُسمى اليوم بحكومة ائتلافية، مع أي دولة من الدول من دون أن تفقد الحركة رسالتها وقضيتها. فالأئمة المعصومون عليهم السلام لم يقبلوا بالخلافة ولم يشتركوا فيها، والدليل على ذلك موقف الإمام الرضا.

وهكذا الإمام الجواد عليه السلام حينما خطب ابنة المأمون وتزوَّجها وأصبح صهر الخليفة، وكان يُمكن أن يصير والياً على منطقة، أو حاكماً على بلد، أو قاضي القضاة لا أقل، ولكن الإمام الجواد لم يفعل شيئاً من ذلك، بل أخذ بيد زوجته وذهب إلى المدينة وبقي هناك حتى مات المأمون العباسي عندما كان في الرقة.

وكسب الإمام الجواد بهذا العمل أمرين:

أولاً: قيّد المأمون من أن يقوم بعملية اغتياله، وذلك بقبوله الزواج من بنت المأمون.

ثانياً: جعل مخالِب السلطة وأنيابها في قفص الحركة الرسالية، وذلك أن المأمون ما كان ليجرؤ بعد ذلك على أن يقوم بالفتك برجال الحركة ومجموعاتها.

ولقد كان هذا الأسلوب متبعاً في كثير من عصور الأئمة عليهم السلام، وخير شاهد

(١) بحث المصنف قاعدة نفي الحرج في كتابه: مبادئ فقه الاستنباط، تحت عنوان: الحرج في الكتاب والسنة وفي كلمات الفقهاء. فراجع.

على ذلك قصة علي بن يقطين بن موسى البغدادي الذي كان بمثابة مستشار للخليفة المهدي العباسي، ثم صار شبه الوزير لهارون الرشيد. والذي يحصل على هذا المركز ذلك اليوم يصبح كل شيء بيده، وسيسيطر على مرافق أكبر دولة في العالم. وعندما حصل على هذا المنصب، وكان اتجاهاه رسالياً، جاء إلى الإمام الكاظم عليه السلام يستأذنه في ترك عمل السلطان، لكن الإمام الكاظم لم يأذن له. ويستمر في أداء مهامه الرسالية، ويبقى في سلطة هارون، لكنه عاود الطلب من الإمام عليه السلام بأن يأذن له بترك العمل عند السلطة، إلا أن الإمام لم يأذن له، وقال له: «لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ لَنَا بِكَ أَنْسَاءً، وَلِإِخْوَانِكَ بِكَ عِزًّا، وَعَسَى أَنْ يَجْزُرَ اللَّهُ بِكَ كَسْرًا، وَيَكْثُرَ بِكَ نَائِرَةُ الْمُخَالِفِينَ عَنْ أَوْلِيَائِهِ..»^(١). ولقد كانت أعماله كبيرة بالنسبة للحركة^(٢).

حتى إن الإمام أبي الحسن عليه السلام قال فيه عندما دخل عليه داود الرقي، في يوم النحر: «مَا عَرَضَ فِي قَلْبِي أَحَدٌ وَأَنَا عَلَى الْمَوْقِفِ إِلَّا عَلِيُّ بْنُ يَقُطِينٍ، فَإِنَّهُ مَا زَالَ مَعِيَ وَمَا فَارَقَنِي حَتَّى أَفْضْتُ»^(٣).

ثم عاصر الإمام الجواد عليه السلام خليفة من الخلفاء الذين أثروا تأثيراً مباشراً في زوال الدولة العباسية، وهو المعتصم العباسي، ولأنه ابن أمة تركية^(٤) مال إلى أخواله، فكان يُحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم، فاجتمع له منهم أربعة آلاف، وألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبأنهم عن سائر الجنود^(٥). ثم وسمهم رتباً قيادية في الجيش حتى إن نعة العنصرية ثارت عند العسكريين العرب في الجيش، ودبَّت فيهم روح العصية العمياء^(٦)، فلقد حاول

(١) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٣٦.

(٢) طالع: بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢٠٧.

(٣) رجال الكشي، ص ٤٩٢. جامع الرواة، ج ١، ص ٦٠٩.

(٤) تُسمَّى شجاع، كما في جمهرة أنساب العرب، (متن) ص ٢٤.

(٥) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٧١. مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٦٥. تاريخ الإسلام، ج ١٥،

ص ٣٣. تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٣، ص ٢٤٥.

(٦) الرسائل السياسية، ص ٥٢٤، هامش رسالة الترك وعامة جند الخلافة.. هامش رقم: ١٢.

عجيف^(١) أن يقلب الحكم على المعتصم ليؤلي العباس بن المأمون، ولكن هذه المحاولة أخفقت وقتله المعتصم^(٢).

وعندما جاء الأتراك إلى البلاد الإسلامية، استولوا على الحكم من المعتصم، وبعدئذ من ابنه^(٣)، وأخذوا يحدثون الانقلابات العسكرية (كما نُسِّمها الآن) حتى أنه وصل بهم الأمر ألا يُوقفهم شيء، وإذا ما مال عنهم أي خليفة عباسي، فإنهم يقتلونه غيلة، ثم ينصبون رجلاً آخر من البيت العباسي. فابتداءً من المتوكل^(٤)، إلى المستعين^(٥)،

(١) ابن عنبسة، أحد رجالات الدولة العباسية، ومن أبرز قواد المعتصم. وهو الذي وجهه المعتصم لحرب الزط. طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٨.

(٢) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٨٨. تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٧٢-٧٧. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٣٣٠-٣٣١. المنتظم، ج ١١، ص ٨٣-٨٤.

(٣) هارون (الواثق) [٢٢٧-٢٣٢هـ]. طالع: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٩٦-٣٠٨. تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١٢٣. البدء والتاريخ، ج ٦، ص ١٢٠. تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٠.

(٤) جعفر بن محمد المعتصم [٢٣٢-٢٤٧هـ]. اتفق ابنه المنتصر مع الأتراك على قتله، لما رأى من أبيه إصراره على تقديم أخيه المعتز في الخلافة عليه، فدخل عليه الأتراك وقتلوه في جوف الليل مع وزيره ابن خاقان. طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢٣٥. الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٩٧-٩٨، وأيضاً: ص ١٣٨. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٣٥٠-٣٥٨. تاريخ الإسلام، للذهبي، ج ١٨، ص ٢٠٠. تاريخ مختصر الدول، (متن) ص ١٤٣. التنبيه والإشراف، (متن) ص ٣١٥.

(٥) أحمد بن محمد المعتصم [٢٤٨-٢٥٢هـ]، كان سبب اختيار الأتراك -بعد وفاة المنتصر- للمستعين هو خشيتهم أن يتولى الخلافة أحد أبناء المتوكل فينتقم منهم، لهذا بايعوا المستعين. وكان (أتامش) القائد التركي أحد أوثق وزراء المستعين. لكن الأتراك وحسدًا من أتامش عملوا على التخلص منه فقتلوه. دبّ خلاف كبير بين الأتراك والمستعين فانتقل إلى بغداد، وصار الأتراك إليه بالوساطة والاعتذار فلم تُفلح مساعيهم، أخرج الأتراك من كان في سجن بسامرا، احتجاجًا ورفضًا للمستعين، ثم بايعوا المعتز، وبخطط عملوا على قتل المستعين بأن أرسل المعتز من يقتله في واسط بعد أن انتقل إليها المستعين، فقتل بعد أشهر من حين خلع نفسه وذلك عام ٢٥٢هـ. البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢-٧. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٣٥٤-٣٦٤. الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ١٢٣-١٣٩. مروج الذهب، ج ٤، ص ٧٧. المنتظم، ج ١٢، ص ٤٤-٤٦.

إلى المهتدي^(١)، وانتهاءً بالمقتدر^(٢)، كل هؤلاء قُتِلوا بواسطة القادة العسكريين الأتراك، وابتداءً من المعتز^(٣)، إلى القاهرة^(٤)، والمتقي^(٥)، وانتهاءً بالمستكفي^(٦)،

(١) محمد بن هارون [٢٥٥-٢٥٦هـ]، بأمر من المهتدي سار موسى بن بغا وبايكباك -وهما من أبرز القادة الأتراك في جيش المهتدي- لقتال الشاري مساور بن عبد الحميد، وبسبب الخلافات القائمة بين المهتدي والأتراك، كتب المهتدي إلى بايكباك أن يقتل ابن بغا ومفلح -قائد تركي، ويتولى قيادة الترك بنفسه، ولكن بايكباك أطلع ابن بغا على كتاب المهتدي، فاتفق الأتراك على الخلاص من المهتدي، ودبروا له مكيدة، وقتلوه بعد أن تمكن المهتدي من قتل بايكباك. طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٤٥٦-٤٦٩. تاريخ الإسلام، للذهبي، ج ١٩، ص ٢٠. البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٢.

(٢) جعفر بن أحمد [٢٩٥-٣٢٠هـ]، قتله مؤنس الخادم. البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٧٠. شذرات الذهب، ج ٣، ص ٤٠٥. مروج الذهب، ج ٤، ص ٢١٤.

(٣) محمد بن جعفر المتوكل [٢٥٢-٢٥٥هـ]، بويغ بالخلافة بعد خلع المستعين، وعمره آنذاك تسع عشرة سنة، خلع المعتز أخاه المؤيد وقبّده حتى مات. ثم اجتمع الأتراك على خلعه، والسبب فيه أن الجند طلبوا منه أرزاقهم فلم يكن عنده ما يُعطيهم، فخلعوه وأهانوه، ثم أجبروه على البيعة لابن عمّه المهتدي. وبعد خلعه بخمسة أيام عذّبوه حتى مات. طالع: الإنباء، ص ١٢٨-١٣٠. البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٦. تاريخ الإسلام للذهبي، ج ١٩، ص ١٥.

(٤) محمد بن أحمد المعتضد [٣٢٠-٣٢٢هـ]، كان سقّاكاً للدم، سيئ السيرة، سريع الانتقام، فبعد أن بويغ بالخلافة عذّب أبناء أخيه المقتدر، وبعد خلافته بسنة شغب عليه الأتراك، والسبب أن خافه وزيره أبو علي بن مقلّة فشرع مع الأتراك على خلعه، فخلعوه.. طالع: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٢٧٩. البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٢٣. المنتظم، ج ١٣، ص ٣١٦.

(٥) إبراهيم بن جعفر المقتدر [٣٢٩-٣٥٧هـ]، بويغ بالخلافة بعد أخيه الراضي، وعمره أربع وثلاثون سنة، دامت خلافته حتى عام ٣٣٣هـ، وفيها خلعوه. ومن قضاياه أن اختلف مع توزون، وفر المتقي إلى بني حمدان، وبعد فترة ظهر له ضجر بني حمدان منه، فراسل المتقي توزون يعرض عليه الصلح، فوافق وتصالحا، فسار المتقي إلى بغداد واستقبله توزون وترجّل ومشى بين يديه لكن توزون غدر به -بعد تنسيق وتخطيط مع الأتراك وغيرهم- فكحله بميل محمي وأدخله إلى بغداد مسمول العينين. فخلع المتقي، وأحضر عبدالله بن علي المكتفي وبايعه بالخلافة وأجبر المتقي على البيعة. سجن المتقي مدة خمس وعشرين سنة حتى مات. البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٦٦. تاريخ الإسلام، ج ٢٥، ص ١٩. الإنباء، ص ١٧٠-١٧١. مروج الذهب، ج ٤، ص ٢٤٧.

(٦) عبدالله بن علي المكتفي، [٣٣٣-٣٣٤هـ]، بويغ بالخلافة بعد خلع المتقي، خلعه معز الدولة بعد أن نها إلى سمعه أن المستكفي يسعى في إقامه غيره، سُمِلت عيناه بعد خلعه، ونهب الجند

كلهم أيضاً خلعوا، حتى إن المقتدر غلب على أمره وخُلع مرتين وذُبح في النهاية^(١)، إلى أن انتهى الأمر إلى المطيع العباسي آخر خليفة عباسي والذي لم يكن له أن يأمر أو ينهى ثم قُتل شرَّ قتلة^(٢).

وهكذا كانوا يقومون بالخلع والقتل لأي خليفة لم يكن تتجاوب أهواؤه مع أهوائهم، وليس ذلك لشيء في تركيبة العنصر التركي، وإنما نتيجة للحالة المتردية التي وصل إليها المجتمع الإسلامي من الانحلال والفساد الخلقي الشامل.

فالمعتصم العباسي كانت هذه سياسته في الحكم، والإمام الجواد استفاد من الوضع أفضل استفادة، لبث الوعي وتغذية الحركة الرسالية التي كانت تضع جنينها للمستقبل.

ثورة محمد بن القاسم

ثورة محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، كانت أبرز ثورة في عهد الإمام الجواد عليه السلام. كانت شخصية محمد بن القاسم جليلة القدر إذا ما قرأنا يوميات جهاده. وهنا نستطرد قليلاً حول هذه اليوميات.

دار الخلافة، أحضر الفضل بن المقتدر وبويع بالخلافة، وبايعه المستكفي، بعد أن شهد على نفسه بالخلع. مات سنة ٣٣٨هـ. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٥٢٢. الإنباء، ص ١٧٦. تاريخ الإسلام، ج ٢٥، ص ٢٦. التنبيه والإشراف، (متن) ص ٣٤٥. شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٨٤. الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٥٠.

(١) البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٦٩. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٤٤٧. تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٣٠. المنتظم، ج ١٣، ص ٦٣.

(٢) الفضل بن جعفر [٣٣٤-٣٦٣هـ]. بويع بالخلافة بعد خلع المستكفي، في عهده ضعف أمر الخلافة فلم يبقَ للخليفة أمر ولا نهي ولا وزير، فرجع أمر الدولة للمعز. خرج المطيع مع معز الدولة لحرب ناصر الدولة الحمداني، لكن الحمداني انتصر عليهما، فدخل بغداد وضعف أمر معز، وفي قضية مفصلة مكر معز بناصر الدولة فغلبه، وتصالحا، بعدها عزل معز الدولة المطيع وحجزه لمدة سنة، ثم أعاده للخلافة. وبعدها مرض المطيع فخلع نفسه، وقيل خُلع، وعُين ابنه بدلاً عنه. البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢١٢. تاريخ الإسلام، ج ٢٥، ص ٢٨. تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٣٥٥.

كانت العامة تُلقِّبه بالصوفي، لأنه كان يُدمن لبس الثياب من الصوف الأبيض الخشن، وكان من أهل العلم والفقه والدين والزهد^(١).

كان قد ذهب إلى مرو في مقاطعة خراسان، وكان معه من الكوفيين بضعة رجال، وذلك بعد أن رحل من الكوفة، وكان قبل ذلك قد خرج إلى ناحية الرقة، ومعه جماعة من وجوه الزيدية، منهم يحيى بن الحسن بن الفرات الفراز، وعباد بن يعقوب الرواجني^(٢)، والزيدية كما قلنا كانوا يُشكِّلون القاعدة لكثير من الثورات.

روى إبراهيم بن عبدالله العطار قال: «.. كنا معه، فتفرَّقنا في الناس ندعوهم إليه، فلم نلبث إلا يسيراً حتى استجاب له أربعون ألفاً، وأخذنا عليهم البيعة، وكنا أنزلناه في رستاق من رساتيق مرو، وأهله شيعة كلهم، فأحلوه في قلعة لا يبلغها الطير، في جبل حريز.

.. فبينما نحن عنده إذ سمع بكاء رجل واستغاثته، فقال لي: يا إبراهيم، قم فانظر ما هذا البكاء؟.

فأتيت الموضع فوقفت فيه فاستقرت البكاء حتى انتهيت إلى رجل حائك، قد أخذ منه رجل من أصحابنا ممن بايعنا لبداً، وهو متعلق به.

فقلت: ما هذا وما شأنك؟.

فقال: أخذ صاحبكم هذا لبدي.

فقلت: اردد عليه لبده فقد سمع أبو جعفر بكاءه.

فقال لي الرجل: إنما خرجنا معكم لنكتسب وننتفع ونأخذ ما نحتاج إليه.

فلم أزل أرفق به حتى أخذت منه اللبد ورددته إلى صاحبه، ورجعت إلى

(١) تاريخ الإسلام، ج ١٥، ص ٣٨٨. الأعلام، ج ٦، ص ٣٣٤. مقاتل الطالبين، ص ٤٧٢. مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٦٤. تمة المنتهى، ص ٣٠٤.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٤٦٥.

محمد بن القاسم فأخبرته بخبره وأني قد انتزعت منه اللبد ورددته على صاحبه.

فقال: يا إبراهيم، أبعث هذا (الذي بايعه) يُنصر دين الله؟

ثم قال لنا: فرّقوا الناس عني حتى أرى رأيي»^(١).

فانتخب الجيدين من الذين بايعوه ثم سار بهم.

وهذا أنموذج من طبيعة الثورات الرسالية، إذ إنها لم تكن تُبيح أية وسيلة في سبيل الوصول إلى الهدف، بل مثلما يكون الهدف هو إقامة حكم الله عز وجل، يجب أن تكون الوسيلة أيضاً مرضية من قبل الله تعالى. وهذا كان يُريّ المجتمع على عشق المثل العليا، والمبادئ السامية. وبعدما انتقى أصحابه ساروا إلى الطالقان^(٢).

ويروي إبراهيم صاحبه: «ورحل محمد بن القاسم من وقته إلى الطالقان، وبينها وبين مرو أربعون فرسخاً، فنزلها، وتفرّقنا ندعو الناس فاجتمع عليه عالم، وجئنا إليه فقلنا له: إن أتممت على أمرك، وخرجت فناذت القوم، ... وإن فعلت كما فعلت بمرو، (يقصد اختيار الجيدين فقط)، أخذ عبد الله بن طاهر بعقبك، فأصلح من إسلامك إيانا ونفسك إليه، أن تجلس في بيتك ويسعك ما يسع سائر أهل بيتك. فأتم عزمه وخرج في الناس...».

ودخل محمد بن القاسم مع عبد الله بن طاهر^(٣) في حروب كثيرة وكان يلحق بابن الطاهر شر الهزائم. ومرة هدأت صولات الحرب بينهما فسارع عبد الله بن طاهر بأرسال كل جيوشه مقسّمة في فرق ضمن خطة مأكرة جداً.

(١) مقاتل الطالبين، ص ٤٦٥-٤٦٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ج ٤، ص ١٤. تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٧. تجارب الأمم، ج ٤، ص ١٧٦. مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٦٤.

(٣) ابن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعي [١٨٢-٢٣٠هـ]، أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي. أصله من باذغيس بخراسان. الأعلام، ج ٤، ص ٩٣.

وقال ابن طاهر لأحد قواد جيشه^(١): «قد جرّدت لك ألف فارس من نخبة عسكري، وأمرت أن يحمل معك مائة ألف درهم تصرفها فيما تحتاج إلى صرفها فيه من أمورك، ... وخذ من خاص خيلي ثلاثة أفراس تجنب معك تتقل عليها، وخذ بين يديك دليلاً قد رسمته لصحبتك، فادفع إليه من المال ألف درهم، واحمله على فرس من الثلاثة فليركض بين يديك، فإذا صرت على فرسخ واحد من نسا^(٢)، فافضض الكتاب واقرأه، واعمل بما فيه، ولا تغادر منه حرفاً، ولا تخالف ممّا رسمته شيئاً، واعلم أن لي عيناً في جملة من صحبتك يخبرني بأنفاسك، فاحذر، ثم احذر، ثم احذر، وأنت أعلم».

وهذا يُبيّن مدى خوف ابن طاهر من أن يكون قائده يميل إلى صف محمد بن القاسم، فلقد كان ذلك شيئاً طبيعياً، لأن نفوس الناس كانت مع الحركة الثورية، ولكن السلطات مرة بالتهديد ومرة بالإغراء، ومرة بالإفساد ومرات بأساليبها المختلفة كانت تجلب وتُسخر الناس^(٣) في ضرب الحركة الرسالية. حتى إن ابن طاهر يقول: «واعلم أن لي عيناً في جملة من صحبتك يخبرني بأنفاسك».

فسار قائده إلى نسا، وقبل أن يصل بفرسخ^(٤) فتح كتاب ابن طاهر وإذا فيه الخطة كاملة، والبيت الذي ينزل فيه محمد بن القاسم، وصاحبه أبو تراب، ويأمره فيه أن يستوثقهما: «بالحديد استيثاقاً شديداً، وأنفذ إليّ خاتمك مع خاتم محمد بن القاسم، لأعلم ظفرك به قبل كتابك...». وذلك قبل أن يعود خطوة واحدة لكي يطمئن، وعلى الذي يرسلهما معه أن يركض بهما ركضاً، ثم يكتب إليه شرح ما حدث.

(١) هو: إبراهيم بن غسان بن الفرج العودي. صاحب ابن طاهر وقائد جيشه.

(٢) مدينة بخراسان، وهي المدينة التي يتواجد فيها محمد بن القاسم، وكان سبب تسميتها بهذا الاسم أن المسلمين لما قصدوها وبلغ أهلها ذلك فر الرجال ولم يبقَ إلا النساء، فتركوها ومضوا فسموا بذلك نسا. معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٨١.

(٣) جاء في نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٢، ص ٢٤٤: «فلما صار (محمد بن القاسم) بنسا وبها والد لبعض من معه، فمضى الرجل الذي معه يسلم على أبيه فسلم عليه، فسأله أبوه عن الخبر فأخبره به، فمضى الأب إلى عامل نسا وأخبره بأمر محمد بن القاسم، فأعطاه العامل عشرة آلاف درهم....».

(٤) أي بعد مسيرة ثلاثة أيام وقبل وصوله نسا بفرسخ.

وقال ابن طاهر في آخر الرسالة: «وكن على غاية التحرز والتحفظ والتيقظ في أمره حتى تصير به صاحبه إلى حضرتي».

نجحت الخطة وحمل محمد بن القاسم مع صاحبه أبي تراب إلى ابن طاهر في نيسابور، فجاء ابن طاهر ليراهما فقال لقائده: «ويلك يا إبراهيم، أما خفت الله في فعلك؟. أتقيد هذا الرجل الصالح بمثل هذا القيد الثقيل؟».

فقلت: أيها الأمير، خوفك أنساني خوف الله، ووعدك الذي قدّمته إليّ أذهل عقلي عمّا سواه».

وكانا يتكلمان من فوق سطح يُطل على الغرفة المسجون بها محمد بن القاسم، في نيسابور.

فقال لي (ابن طاهر): «خفف هذا الحديد كلّ عنه، وقيدّه بقيد خفيف في حلقتة رطل بالنيسابوري، وليكن عموده طويلاً، وحلقتاه واسعتين لينخطو فيه».

وفي فترة سجن محمد بن القاسم طلب قرأناً يتدارس فيه.

«فأقام بنيسابور ثلاثة أشهر يُريد بذلك أن يُعمّي خبره على الناس كيلا يُغلب عليه لكثرة من بايعه بكور خراسان.

وكان عبد الله يُخرج من إصطبله بغالاً عليها القباب ليُوهم الناس أنه قد أخرجه، ثم يردّها حتى استتر بنيسابور سلّه في جوف الليل، وخرج به مع إبراهيم بن غسان -الذي أسره من نسا- ووافى به الرّي، وقد أمره عبد الله بن طاهر أن يفعل به كما فعل هو، يخرج في كل ثلاث ليالٍ، ومعه بغل عليه قبة، ومعه جيش حتى يجوز الري بفراسخ، ثم يعود، إلى أن يُمكنه سلّه في ليلة مظلمة، ففعل ذلك خوفاً من أن يغلب عليه لكثرة من أجابه، حتى أخرجه من الري، ولم يعلم به أحد، ثم أتبعه حتى أورده بغداد على المعتصم»^(١).

وقد سمع المعتصم بمسير محمد إلى بغداد، فارسل إلى طاهر العودي أن انزع العمامة من عليه واجعله حاسراً، وانزع رداء قبة البغل ليكون على البغل حاسراً، ثم أدخله بغداد.

وكان يُريد بذلك تعذيب محمد نفسياً والخط من كرامته، وقد ازدحم الناس على الطرقات حين أُدخل محمد بن القاسم إلى سر من رأى ازدحاماً شديداً، فأدخل على المعتصم وكان في مجلس اللهو والشراب وبين يديه الفراغة يلعبون، فلم يزل واقفاً والناس ينظرون إليه حتى فرغ الفراغة من لعبهم.

وقال: «وجعلت الفراغة يحملون على العامة ويرمونهم بالقذر والميئة، والمعتصم يضحك، ومحمد بن القاسم يُسَبِّح ويستغفر الله ويُجَرِّك شفّيته يدعو عليهم، والمعتصم جالس في جوسق كان له بالشَّامِسية ينظر إليهم، ومحمد واقف..»^(١).

إلى أن انتهى المعتصم من لعبه فأمر بسجن محمد. وسرعان ما دبر محمد بن القاسم حيلة ذكية للهروب. ثم توارى عن الأنظار في بغداد ثم إلى واسط، «وقد شدّ وسطه للوهن الذي أصاب فقار ظهره»، عند عملية هروبه. وظل محمد مختفياً بعد ذلك إلى نهاية عهد المعتصم، ثم محمد الواثق، ثم قسم من أيام المتوكل، وقيل: إنه أخذ إليه فحُمِلَ إلى السجن حتى مات في محبسه^(٢).

ولكن ماذا فعل خلال فترة تواريه عن الأنظار، وهي ليست بالفترة القليلة؟ هذا ما أجابت عنه الثورات العديدة التي قامت بعد ذلك في عهد المتوكل، والمستعين وما بعده من الخلفاء التي لم تدع الخليفة يلعب ويلهو براحة.

وفي واسط سكن محمد بيتاً يعود إلى أم ابن عمه، علي بن الحسن بن علي بن عمر بن الإمام زين العابدين عليه السلام، وكانت عجوزاً مقعدة. «فلما نظرت إليه وثبت فرحاً به وقالت: «محمد والله، فدتك نفسي وأهلي، الحمد لله على سلامتك». فقامت

(١) مقاتل الطالبين، ص ٤٧١.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٤٧٢-٤٧٣.

على رجلها، وما قامت قبل ذلك بسنين..»^(١).

وقال إبراهيم العودي، قائد جيوش ابن طاهر يصف محمداً: «عرضوا على محمد بن القاسم كل شيء نفيس من مال وجوهر وغير ذلك، فلم يقبل إلا مصحفاً جامعاً [كان] لعبد الله بن طاهر، فلما قبله سرَّ عبد الله بذلك، وإنما قبله لأنه كان يدرس فيه».

وقال: «.. ما رأيت قط أشدَّ اجتهاداً منه، ولا أعفَّ ولا أكثر ذكراً لله عزَّ وجلَّ مع شدة نفس، واجتماع قلب، ما ظهر منه جزع ولا انكسار، ولا خضوع في الشدائد التي مرَّت به، وأنهم ما رأوه قط مازحاً، ولا هازلاً، ولا ضاحكاً إلا مرة واحدة، فإنهم لما انحدروا من عقبة حلوان أراد الرُّكوب، فجاء بعض أصحاب إبراهيم بن غسان فطأطأ له ظهره، حتى ركب في المحمل على البغل، فلما استوى على المحمل قال للذي حمله على ظهره مازحاً: أتأخذ أرزاق بني العباس وتخدم بني علي بن أبي طالب! وتبسم»^(٢).

ووجود شخصية ثورية مثل محمد، وثورة مثل ثورته تدل أن الحركة الرسالية لم تتوقف يوماً ما عن مسيرتها، وأنها لا يمكن أن تميل عن استقامتها التي كانت معهودة بها، وهاتان ميزتان موجودتان في طول الثورات التي قامت بها الحركة الرسالية.

بركة الإمام الجواد عليه السلام

روى ابن اسباط وعباد بن إسماعيل: «إِنَّا لَعِنْدَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَنْى إِذْ جِيءَ بِأَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُلْنَا: هَذَا الْمَوْلُودُ الْمُبَارَكُ؟».

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْلُودُ الَّذِي لَمْ يُولَدْ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ بَرَكَهَ مِنْهُ»^(٣).

وروى أبو يحيى الصنعاني قال: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجِيءَ بِابْنِهِ أَبِي

(١) مقال الطالبيين، ص ٤٧٢.

(٢) مقال الطالبيين، ص ٤٦٩-٤٧٠.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٠.

جَعْفَرٌ عليه السلام وَهُوَ صَغِيرٌ، فَقَالَ: هَذَا الْمَوْلُودُ الَّذِي لَمْ يُولَدْ مَوْلُودٌ أَعْظَمُ عَلَى شِيعَتِنَا بَرَكَهٌ مِنْهُ»^(١).

والبركة التي حصلت للحركة الرسالية بولادة الإمام الجواد عليه السلام ليست في ارتفاع الإرهاب والاختناق السياسي عنهم، بل هو في تجذّر الرسالة عقيدة وفكراً وسياسةً وفقهاً، وغير ذلك من مميزات القوة والانتشار الدائم.

العسكر يسيطرون على السلطة

وقد شهد عصر الإمام الجواد عليه السلام تحوّلاً خطيراً، حيث أصبحت الخلافة مجرد سلطة اسمية على الأمة، وتحوّلت السلطة الحقيقية إلى أيدي العسكر، وبذلك نستطيع أن نسمّي المرحلة بمرحلة التحوّل العسكري للدولة الإسلامية.

ترى لماذا حصل هذا التحوّل؟ وما هي آثاره؟ ومن الذي جاء بالعسكر؟.

إن القيمة الوحيدة التي كانت الأمة الإسلامية تعتمد عليها، وتتمحور حولها وتتوحد بها، كانت قيمة الإيمان بالله، والاعتقاد بالدولة باعتبارها ضرورة حضارية. فبالرغم من كل ما حدث في الأمة من انشقاقات داخلية، وظلم ودكتاتورية، إلّا أن هناك إيمان بضرورة بقاء الدولة، وهذه القناعة كانت سائدة لدى كافة الأطراف. صحيح أن إرادة الأمة كانت ضد السلطة الفاسدة، ولكن الحاجة إلى نظام يحكم بالإسلام، والرغبة في الدفاع عن كيان الإسلام، وعن عزة المسلمين، كانتا متداخلتين، وكان الآلاف من الناس يذهبون للدفاع عن الثغور وفتح البلدان انطلاقاً من عقيدة الجهاد المقدسة بغض النظر عن السلطة الفاسدة.

بيد أن تلك القضية أخذت بالزوال بسبب العلاقة الديكتاتورية بين النظام والجمهير، حيث شعر الناس بأن لا شأن لهم بهذه الدولة، وهذا الشعور دفعهم إلى الابتعاد عنها شيئاً فشيئاً.

(١) الكافي، ج ١، ص ٣٢١. الإرشاد، ج ٢، ص ٢٧٩. بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٣.

وحيثُ أصبحت الدولة بحاجة إلى قوة تفرض بواسطتها سيادتها وهيبتها على الناس، وتحافظ على كيائها أمام الدول المعادية كالروم، فاعتمدت على القوة العسكرية وبالذات على الأتراك.

والسؤال: لماذا فقد الجيش العربي قدرته وثقة النظام به؟

الجواب: إنّ الذين كانوا يُشكّلون القوة الرادعة للدولة، دبّت في أنفسهم أفكار سلبية تجاه الدولة، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: حالة المجون التي تردى إليها الخلفاء والمُقرَّبون إليهم، حيث لا تجد خليفة عباسياً لا يُدمن على الشرب^(١)، واللّهو، واللعب^(٢)، فالمجون أفقد السلطة هيبتها.

بالإضافة إلى الإسراف والترف، فمثلاً: زواج المأمون ببنت^(٣) الحسن بن

(١) كان الهادي العباسي يشرب الخمر ويلتذ بسماع الشعر عن الشراب، وكان من ندمائه إبراهيم الموصلي المغني المعروف. قال عنه الذهبي في تاريخ الإسلام، ج ١٠، ص ٤٨٠: «كان يتناول المسكر ويلعب ويركب حماراً فارهاً ولا يقيم أهبة الخلافة». وتبعه على ذلك الرشيد. كما عُرف عن المتوكل شربه للخمر. ومنهم أيضاً القاهر الذي كان سفاحاً كثير التلؤن، مدمناً للخمر. طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٢٤٢. الوزراء والكتاب، ص ١٣٠. الأغاني، ج ٤، ص ٣٠٩ و: ج ١٠، ص ٤٠٤ و: ج ٢٢، ص ٤٠٨. الفخري، ص ٢٠٤. حياة الحيوان الكبرى، ج ١، ص ١٢٤ و: ص ٤٧٣. زهرة الآداب وثمرة الألباب، ج ١، ص ٢٥٩. العقد الفريد، ج ٨، ص ١٠٦. نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٢، ص ٢٨٢. تجارب الأمم، ج ٥، ص ٣٧٩. وللإفادة طالع: التمدن الإسلامي، ج ٥، عنوان: الثورة والرخاء ونتائجها.

(٢) عرف عن الهادي العباسي أنه كان ماجناً يقبل على اللّهو ويبدل في سبيله الأموال، وعن حبه للغناء، حيث كان يصرف على المغنين وجلسات السمر مبالغ طائلة حتى قال عنه إسحاق الموصلي: «لو عاش لنا لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة»، وقد أنفق على المغني المعروف إبراهيم الموصلي مبلغ خمسين ألف دينار، لأنه غناه وأطربه بثلاثة أبيات فقط. طالع: الأغاني، ج ٥، ص ١١٢، و: ١٢٤-١٢٥. التذكرة الحمدونية، ج ٩، ص ٣٣. نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٤، ص ٣٣١.

(٣) خديجة بنت الحسن، تُسمّى بوران، ويقال: إنه لقب لها. وقد نثر أبوها في زواجها من الأملاك والأموال ما لم يثره ولم يفعله ملك في الجاهلية ولا في الإسلام. البداية والنهاية، ج ١١، ص ٤٩. مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٤٣. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٥٩. وأيضاً طالع: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢، فيه تفصيل وافٍ للكلام عن الثروة العباسية ومصادرها وأسباب أضمحلها.

سهل، كلف ٥٠ ألف ألف درهم^(١)، كما أعطى ابن سهل عند انصرافه من قم الصلح^(٢) عشرة آلاف درهم، ومنحه مقاطعة قم الصلح، وأطلق له خراج فارس وكور الأهوار مدة سنة^(٣).

وأما قبيحة زوجة المعتصم، وأم المعتز، لما قُتِل ابنها كان عندها (٥٠,٠٠٠) دينار، عدا الجواهر والحلي والزمرد واللؤلؤ والياقوت الذي لا تُعرف له قيمة^(٤).

كانت السلطة تُربي المجتمع على مقاييس جاهلية، فالذي كان يلهو ويلعب أكثر مع الخليفة هو الذي يكون الأقرب إليه^(٥)، والذي كان ينسلخ عن دينه ويبيع كرامته وشرفه في سبيل الخليفة كانت ورقته أعلى عند الخليفة^(٦).

كانت السلطة تدور حول المقاييس الجاهلية في المجتمع، وكما قلنا سابقاً: كان من المسؤوليات العامة التي اضطلع بها الأئمة الأطهار عليهم السلام محافظتهم على الروح الإسلامية في ضمير الأمة، وذلك عبر تربية عناصر رسالية سامية.

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، ج ١٤، ص ٣٠. الإنباء، ص ١٠٢. شذرات الذهب، ج ٣، ص ٤٨.
 (٢) كورة فوق واسط، لها نهر يستمد من دجلة على الجانب الشرقي. معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٢١.
 (٣) تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٠٨. البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٦٥.
 (٤) تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٣٩٣-٣٩٥. البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٧. تجارب الأمم، ج ٤، ص ٣٩١-٣٩٢.

(٥) كالفضل بن الربيع مع الأمين، الذي كان يعلب معه النرد، وهو وزيره والمقرب لديه، طالع: الفخري، ص ٥١. كما أمر بعد بيعته ببناء حول قصر المنصور (أبو جعفر) في المدينة للصوالة واللعب. الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٢٢٥. تجارب الأمم، ج ٤، ص ٣١. تاريخ الخلفاء، ص ٢٣٦.

(٦) من هؤلاء غياث بن إبراهيم النخعي الكوفي، الذي قرّبه المهدي العباسي إليه، حيث علم غياث أن المهدي يُحب الحمام التي تنجيء من البعد، فحدثه حديثاً رفعه إلى النبي ﷺ فقال: «لا سبق إلا في حافر أو خف أو جناح». فأمر المهدي له بعشرة آلاف درهم. ولكنه عندما انصرف غياث من مجلس المهدي، قال في حقه: «أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله، ما قال رسول الله جناح، لكنه أراد أن يتقرب إلي». طالع: تاريخ بغداد، ج ١٢، ص ٣٢١. ومثله: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج ٤، ص ٢٥.

ثانياً: تفشي الشعور باللامبالاة عند القادة العسكريين العرب في مواجهة الأخطار التي كانت تُحْدق بالسلطة العباسية، سواءً الداخلية منها أو الخارجية، ممَّا دفع الخليفة إلى جمع المرتزقة، وذلك عن طريق شراء الموالي وتدريبهم على الخدمة المطلقة للسلطة.

وهذه الطريقة مكَّنت الدولة العباسية من الاعتماد على مجموعة ضخمة من العسكريين الأشداء من الأتراك الذين كان يُؤتى بهم أسرى، والتركي كان ضخماً الجسم قوي البنية، قاسي الطباع، لا يهمله أن يضرب ويحارب ويقتل، ذلك لأن الفتح الإسلامي كان قريب العهد بالنسبة إليه، حيث كانوا من قبل يعيشون تحت سلطة الرومان المظلمة، ثم هو رجل أسير، ليست لديه علاقات اجتماعية، وليست لديه عائلة يخاف عليها، وما دام هكذا فهو يدفع بنفسه إلى المعركة ويقتل، والأهم أنه ليست لديه مبادئ سياسية يُدافع عنها، والعقيدة الإسلامية جديدة عليه لم تضرب جذورها في أعماق نفسه لتظهر على عمله، فكان يعيش بلا مبادئ، سوى مبدأ التقرب إلى السلطة وكسب رضاها. وهكذا كان الأتراك في بداية أمرهم في عهد المعتصم العباسي الذي أحضرهم ودرَّبهم وأعطاهم السلاح، كانوا مجموعة صغيرة قدرها أربعة آلاف رجل^(١)، وشيئاً فشيئاً تحوَّلوا إلى جيش ضخم له لغته التي لم يكن يعرفها غيرهم، وجعل منهم قواداً على الجيش مثل: الأفشين^(٢)، وبغا^(٣)، وإيتاخ^(٤).

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٦٥. تاريخ دمشق، ج ٧٣، ص ٢٤٥.

(٢) كان أكثر الأتراك يدينون بالمجوسية أو الوثنية، وفيهم من دخل الإسلام صادقاً، أما الأفشين فإنه أظهر الإسلام ترفلاً وطمعاً في كسب الغنائم من الحرب. فهو أحد أبرز قواد المعتصم وولاته، ولَّاه حرب بابل الخرمي، ثم حبسه مُضيقاً عليه وبعدها قتله. طالع: تاريخ الإسلام، ج ١٦، ص ١٨. وأيضاً انظر: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٧٥-٤٧٨، تحت عنوان أمر الأفشين. وأيضاً: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ٤٥٠.

(٣) بغا القائد التركي، مولى المعتصم، المعروف ببغا الكبير.

(٤) قائد تركي، مولى المعتصم، كان غلاماً خزرياً، وطبَّاحاً لسلام الأبرش، فاشتراه منه المعتصم في سنة (١٩٦ هـ)، وكان فيه شجاعة فرفعه المعتصم، والوائق، وضمَّ إليه أعمالاً كثيرة.. وكان من أراد المعتصم أو الواثق قتله فعنده كان يُقتل ويده يُحبس، فقتل عفيفاً والعباس بن المأمون وابن الزيات الوزير وغيرهم. طالع: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٢، ص ٢٧٨.

إلّا أن أهل بغداد ثاروا على الجيش وازداد يوماً بعد آخر عدد الاغتيالات في صفوف الجيش التركي، ممّا دفع بالمعتصم إلى بناء سامراء والانتقال إليها، لتلافي وقوع الخطر الذي كان يهدّد بانفجار ثورة شعبية، «وكانت الأتراك تُؤذي العوام بمدينة السلام بجريها الخيول في الأسواق، وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة، أو شيخ كبير، أو صبي، أو ضرير، فعزم المعتصم على النقلة معهم...»^(١).

ومع أن المؤرخين لا يذكرون هذه الحكايات بشكل مفصل، وإنما يذكرون أنه بين الفينة والأخرى كانت الحكومة تعثر على مجموعة من الجنود مقتولين، وهكذا اضطر الخليفة إلى بناء مدينة سامراء^(٢) للجيش خشية غضب الجماهير، وبعدها أصبحت مدينة معروفة في التاريخ.

هذا هو السبب في اعتماد الخليفة على المرتزقة، ولكن ماذا كانت آثار ذلك؟

لما جاء المعتصم بالأتراك وجنّدهم في جيشه، كانت كل ثورة أو انتفاضة تُعلن ضد النظام العباسي تُقابل بفرقة من ذلك الجيش، حتى أصبح يعتمد عليهم اعتماداً كاملاً، وحينما عرفوا أن الخليفة لا يستطيع أن يصنع شيئاً من دونهم، أخذوا يُملون إرادتهم على الدولة العباسية، وبدؤوا يفرضون شروطهم على الحكومة، وشيئاً فشيئاً أخذوا يسيطرون على الحكم والسلطة.

وابتداءً من حكم المعتصم العباسي، وحتى حكم المتوكل، كانت سيطرة الأتراك تزداد شيئاً فشيئاً، فبعد أن مات المعتصم، وجاء ابنه الواثق، ومن بعد الواثق المتوكل، كانت قوة السلطة تضعف أمام نفوذ الأتراك وسيطرتهم على مقاليد الحكم، إلى درجة أنهم جاؤوا بالمنتصر بالله، ثم خلعوه ونصبوا المستعين.

وهكذا صاروا يلعبون بالدولة تحت اسم خلفاء البيت العباسي، وتحت سيادة

(١) مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٦٥-٤٦٦.

(٢) بناها ونزلها (المعتصم) في سنة ٢٢١ هـ. طالع: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٧٤.

وسلطة اسمية، إلى أن وصل الأمر إلى درجة أن أحد الخلفاء^(١) العباسيين طلب من صاحب ديوانه مبلغ ثلاثمائة دينار لشؤونه الخاصة، فلم يُعطه^(٢).

وبهذا تحوّل الخلفاء إلى مجرد أدوات بالرغم من أن الدولة الإسلامية كانت تحكم باسم الخليفة، وأصبحت إدارة شؤون البلاد وزمام الحكم بيد قادة الجيش وجنوده^(٣)، وبذلك بدأ عهد السلاطين إلى جانب الخليفة مثل سلطة البويهيين.

فالمعتصم العباسي حين جاء بالأتراك كان آخذاً زمام الأمور بيده، ولكن الوثائق العباسي لم يكن بيده أي شيء، لذلك سأل الوثائق أحد ندمائه أن يقضي عليه. ولعل ما حدث في عهد هارون الرشيد من توسّع سلطة البرامكة وتدخلهم في شؤون الحكم الصغيرة منها والكبيرة، كان يُشبه هذا الشيء، ولكن الرشيد فطن للأمر قبل استفحاله، ففُضّي على البرامكة بشكل قاسٍ، وهو ما يُسمّى بنكبة البرامكة^(٤).

لقد كان البرامكة وزراء هارون الرشيد، وهم الذين تعبوا في سبيل حكمه، ولكن شيئاً فشيئاً شعر هارون الرشيد بأنه لا يملك شيئاً، فالبرامكة هم الذين

(١) هو المعتمد [٢٥٦-٢٧٩هـ] استمرت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة، انصرف في أغلب هذه المدة للهو، وكان القائم بأمر الخلافة أخاه الموفق. قال عنه المسعودي في مروج الذهب، ج ٤، ص ١٣١: «وكان المعتمد مشغولاً بالطرب، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي...». كما وصف حاله السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٢٨٩ بقوله: «انهمك المعتمد في اللهو واللذات، واشتغل عن الرعية فكرهه الناس...». وقدمات وهو محجور عليه من قبل الموفق.

(٢) الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٤٥٦.

(٣) عقد الوثائق لأشناس التركي ولاية بغداد وأمدّ في سلطته حتى آخر أعمال المغرب، له الحرية في تصرفه يعزل من يشاء ويؤيّل من يشاء دون الرجوع إليه، كما استخلفه على جميع شؤون أمور الخلافة، حتى إنه توجّه وألبسه وشاحين من جوهر. طالع: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٤٧٩. البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٩٩. كما فوّض المستعين أمر الخلافة والتصرّف في أموال بيت المال إلى ثلاثة وهم: أتامش التركي، وهو بمنزلة الوزير، وشاهك الخادم، وأم الخليفة.. طالع: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٣٥٥. الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ١٢٣.

(٤) طالع: الفخري، ص ٢٠٧. البدء والتاريخ، ج ٦، ص ١٠٤. الإنباء، ص ٧٩. البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٨٩-٣١٩. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٢٧٩. تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٢٣٠-٣١٥. تجارب الأمم، ج ٣، ص ٥٣٧. مروج الذهب، ج ١، ص ٣٦.

أخذوا الحكم، وعندها حاك مؤامرة ضدهم وأطاح بهم، فقتل جعفرًا وسجن يحيى البرمكي، الذي كان يُناديه الرشيد يا أبتاه، لأن هارون الرشيد تربى على يد يحيى، وكان جعفر أخًا لهارون الرشيد من الرضاعة.

أمر هارون الرشيد ياسرًا -خادمه المعروف برخلة- فقال له: «.. أأست تعرف جعفر بن يحيى البرمكي؟».

قال: يا أمير المؤمنين، وهل أعرف سواه؟. أو يُنكر مثل جعفر؟...

قال: فامض الساعة إليه فأتني برأسه على أي حالة تجده عليها...

فقال ياسر لجعفر البرمكي: إن أمير المؤمنين قد أمرني فيك بكيت وكيت.

فقال جعفر: إن أمير المؤمنين يمازحني بأصناف من المزاح فأحسب أن هذا جنس منه.

فقال: والله ما رأيته إلا جاذًا.

قال: فإن يكن الأمر كما قلت فهو إذاً سكران.

ثم قال جعفر له: فارجع إليه فأعلمه أنك قد نفّذت ما أمرك به، فإن أصبح نادمًا كانت حياتي على يديك جارية، وكانت لك عندي نعمة مجدّدة، وإن أصبح على مثل هذا الرأي نفّذت ما أمرت به في غد، قال: ليس إلى ذلك سبيل...».

ترى لماذا هذا الإصرار؟.

ذلك لأن جعفرًا كان يعلم أن هارون الرشيد لو رآه ولو من بعيد فإنه لا يقتله لأنه كان يُحبه كثيرًا، فأتى ياسر بجعفرٍ إلى حيث أعدمه، فلما أحضر رأسه إلى هارون، قال لخدمته: «اضربوا عنق ياسر، فإني لا أقدر أن أنظر إلى قاتل جعفر»^(١).

ووصل الأمر من السوء بالبرامكة أن أم جعفر البرمكي كانت تتمنى لو عندها جلد شاتين تفرش أحدهما وتتلحف بالآخرى^(١).

قال المسعودي: إن محمد بن عبد الرحمن الهاشمي قال: «دخلت على والدتي يوم نَحَرَ، فوجدتها وعندها امرأة برزة متكلمة في أثواب رثة، فقالت لي: أتعرف هذه؟».

قلت: لا!.

قالت: هذه عبادة أم جعفر بن يحيى.

فأقبلت عليها بوجهي أحدثها وأعظمها، ثم قلت لها: يا أماه، ما أعجب ما رأيت؟.

قالت: يا بني، لقد أتى عليَّ عيدٌ مثل هذا وأنا على رأسي أربعمئة وصيفة، وإنني لأعدُّ ابني عاقاً لي. ولقد أتى عليَّ هذا العيد وما أتمنى سوى جلد شاتين أفرش أحدهما وأتلحف بالآخر...»^(٢).

(١) انظر: تاريخ بغداد، ج٧، ص١٦٨. تاريخ دمشق، ج٧٢، ص١٨٤.

(٢) مروج الذهب، ج٣، ص٣٨٣-٣٨٤.

— ﴿ صِفْوُ الْكَلَامِ ﴾ —

* تزوّج الإمام الجواد ابنة المأمون، وبذلك قيّد المأمون من القيام باغتياله، كما جعل مخالب السلطة في قفص الحركة الرسالية. وكانت ثورة محمد بن القاسم أبرز ثورة رسالية في عهد الإمام الجواد عليه السلام، وهذا يدل على أن الحركة الرسالية لم تتوقف يوماً ما عن مسيرتها.

* شهد عهد الإمام الجواد عليه السلام تحوّل الخلافة إلى مجرد سلطة اسمية وانتقال السلطة الحقيقية إلى العسكر الأتراك الذين جاء بهم المعتصم. واشتغل الخلفاء بالمجون والترف تاركين البلاد والعباد تحت وطأة العسكر الذين تلاعبوا بالدولة حتى سقطوها.





الباب الرابع، مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي

الفصل الرابع، الحركة الرسالية في عهد الإمام الهادي عليه السلام

الإمام الهادي عليه السلام وقيادة الأمة
وأقع الحركة الرسالية في عهد الإمام الهادي عليه السلام



١٩ الإمام الهادي عليه السلام وقادة الأمة

ثلاثة وثلاثين عاماً وعدة شهور كان الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام^(١) خليفةً شرعياً للمسلمين، وإماماً وقائداً للشعب^(٢)، وهي من الأعمار الطويلة التي يعيشها إمام في إمامته، وخلال تلك الفترة فرضت الحركة الرسالية نفسها على الأحداث بشكل مباشر.

(١) يمكننا تقسيم حياة الإمام الهادي عليه السلام إلى مرحلتين:

الأولى: مرحلة ما قبل الإمامة، عاشها الإمام الهادي في ظل أبيه الإمام الجواد عليه السلام، قضى شطراً منها بعيداً عن والده، حيث أشخصه المعتصم العباسي إلى بغداد عام ٢١٨ هـ. الثانية: مرحلة الإمامة وما بعدها، فيها تحمل الإمام الهادي أعباء الإمامة، منذ رحيل والده الإمام الجواد سنة ٢٢٠ هـ حتى ٢٥٤ هـ، عاصر فيها الإمام الهادي عليه السلام من حكام بني العباس: المعتصم مات سنة ٢٢٧ هـ ثم الواثق مات سنة ٢٣٢ هـ وبعدهما المتوكل مات سنة ٢٤٧ هـ والمنتصر الذي مات سنة ٢٤٨ هـ. وأخيراً المستعين مات سنة ٢٥٢ هـ، وبعده المعتز الذي لحق المستعين بعد ثلاث سنوات أي سنة ٢٥٥ هـ. فكان حياة الإمام الهادي عليه السلام، والتي استمرت ٣٣ سنة وأشهر، حافلة بالعديد من الأحداث والمواقف التاريخية التي شهدت خلالها تحولات كبيرة على صعيد الحياة السياسية والاجتماعية للأمة الإسلامية، كان للحركة الرسالية وفي ظل توجيهات الإمام الهادي عليه السلام الأثر البالغ في هذا التحول. للفائدة طالع: الإمام الهادي دراسة وتحليل للعلامة المحقق الشيخ باقر شريف القرشي. و: الإمام الهادي عليه السلام قدوة وأسوة. للمصنف.

(٢) الإرشاد، ج ٢، ص ٢٩٧. الفصول المهمة في معرفة الأئمة عليه السلام، ج ٢، ص ١٠٧٥. بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ١١٥.

وكان الإمام علي الهادي عليه السلام يتنقل بشكل مستمر بين المدينة المنورة وسامراء، بحيث أصبح له من النفوذ على شيعته، حتى إنه عندما كان في المدينة كان يتصرف وكأنه دولة داخل دولة، يُدير شؤون الرساليين، ويُعين الوكلاء^(١) في كافة المناطق، حتى إن والي المدينة^(٢) لم يكن له من القدرة والقوة ليفرض أي أمر على الإمام عليه السلام.

(١) بلغت عدتهم وحسب التابع ثلاثة عشر وكيلاً، نذكر منهم:

- أبو علي بن راشد، من ثقات ووكلاء الإمام الجواد والهادي عليه السلام، أقامه الإمام الهادي عليه السلام وكيلاً بعد علي بن الحسين بن عبد ربه، وجعل طاعته من طاعته.. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٨، ص ٤٢٤.

- إبراهيم بن محمد الحمداني، عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الرضا، والإمام الجواد، والإمام الهادي عليه السلام، ثقة، وكيل الناحية. حج أربعين حجة، وهو من أصحاب الأصول التي استخرج منها الصدوق أحاديث كتابه الفقيه. رجال الكشي، ص ٦٤٦، مستدركات علم رجال الحديث، ج ١، ص ٢٠٦.

- علي بن الحسين بن عبد ربه، عدّه الشيخ والبرقي من أصحاب ووكلاء الإمام الهادي عليه السلام. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٥، ص ٣٤٩.

- إبراهيم بن مهزيار وولده محمد، الأهوازي، الثقة، من أصحاب الإمام الجواد عليه السلام، ووكلاء الإمام الهادي عليه السلام. كما جاءت في رجال الكشي ص ٥٣٢ رواية تدلنا على أن إبراهيم وولده كانا من وكلاء الإمام الهادي المأمونين الثقات في قبض الحقوق الشرعية، فقد رواها الكشي بسنده عن محمد بن إبراهيم بن مهزيار، قال: «إن أبي لما حضرته الوفاة دفع إليّ مالاً وأعطاني علامة، ولم يعلم بتلك العلامة أحد إلّا الله عز وجل، وقال: من أتاك بهذه العلامة فادفع إليه المال. قال: فخرجت إلى بغداد ونزلت في خان، فلما كان اليوم الثاني إذ جاء شيخ ودق الباب، فقلت للغلام: انظر من هذا؟ فقال: شيخ بالباب. فقلت: ادخل فدخل وجلس. فقال: أنا العمري؛ هات المال الذي عندك، وهو كذا وكذا ومعه العلامة. قال: فدفعت إليه المال».

- علي بن بلال البغدادي، الذي خصّه الإمام الهادي عليه السلام برسالة بيّن فيها الإمام الهادي تعيين أبي علي بن راشد بديلاً عن الحسين بن عبد ربه، دلت على وثاقته ومكانته عند الإمام عليه السلام، عد من أصحاب الإمام الهادي والعسكري، ثقة بالانفاق. وكما يدل على حسن عقيدته ووثاقته استنابة أبي هاشم الجعفري إياه بأمر الإمام الهادي عليه السلام ليذهب إلى الخائر فيدعو له. رجال الكشي، ص ٥٧٧، مستدركات علم رجال الحديث، ج ٥، ص ٣١٣.

(٢) عبدالله بن محمد بن داود الهاشمي العباسي الناصبي، خبيث ملعون، من ندماء المتوكل، المعروف بـ(بريحة العباسي)، كما في مستدركات علم رجال الحديث، ج ٢، ص ١٦، وكان عامل المتوكل العباسي على المدينة في إقامة الصلاة، وسائر الشؤون الحربية، وكان دائم التقصد

رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى قَالَ: «كَتَبَ أَبُو الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيُّ عليه السلام إِلَى الْمَوَالِي بِبَغْدَادَ، وَالْمَدَائِنِ، وَالسَّوَادِ وَمَا يَلِيهَا: قَدْ أَقَمْتُ أَبَا عَلِيٍّ بْنِ رَاشِدٍ، مَقَامَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، وَمَنْ قَبْلَهُ مِنْ وَكَلَائِي، وَقَدْ أَوْجَبْتُ فِي طَاعَتِهِ طَاعَتِي، وَفِي عِصْيَانِهِ الْخُرُوجَ إِلَى عِصْيَانِي...»^(١).

وَرَوَى أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عِيسَى قَالَ: «نُسَخَةُ الْكِتَابِ مَعَ ابْنِ رَاشِدٍ إِلَى جَمَاعَةِ الْمَوَالِي الَّذِينَ هُمْ بِبَغْدَادَ الْمُقِيمِينَ بِهَا، وَالْمَدَائِنِ، وَالسَّوَادِ وَمَا يَلِيهَا: أَحْمَدُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ، مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ عَافِيَةٍ، وَحُسْنِ عَائِدَتِهِ. وَأُصَلِّي عَلَى نَبِيِّهِ وَآلِهِ أَفْضَلَ صَلَوَاتِهِ، وَأَكْمَلَ رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ، وَإِنِّي أَقَمْتُ أَبَا عَلِيٍّ بْنِ رَاشِدٍ مَقَامَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنْ وَكَلَائِي وَصَارَ فِي مَنْزِلَتِهِ عِنْدِي، وَلَيْتَهُ مَا كَانَ يَتَوَلَّاهُ غَيْرُهُ مِنْ وَكَلَائِي قَبْلَكُمْ، لِيَقْبِضَ حَقِّي، وَارْتَضَيْتُهُ لَكُمْ وَقَدَمْتُهُ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ أَهْلُهُ وَمَوْضِعُهُ، فَصَبِرُوا وَارْحَمَكُمُ اللَّهُ إِلَى الدَّفْعِ إِلَيْهِ ذَلِكَ، وَإِلَيَّ وَالْأَلَا تَجْعَلُوا لَهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ عِلَّةً، فَعَلَيْكُمْ بِالْخُرُوجِ عَنْ ذَلِكَ، وَالتَّسَرُّعِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَتَحْلِيلِ أَمْوَالِكُمْ وَالْحَقَنِ لِدِمَائِكُمْ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(٢). ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣). ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(٤). ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٥). فَقَدْ أَوْجَبْتُ فِي طَاعَتِهِ طَاعَتِي، وَالْخُرُوجَ إِلَى عِصْيَانِهِ الْخُرُوجَ إِلَى عِصْيَانِي، فَالْزَمُوا الطَّرِيقَ يَأْجُرْكُمْ اللَّهُ، وَيَزِيدْكُمْ

بالأذى للإمام الهادي عليه السلام، كما أنه سعى بالإمام عند المتوكل ليخرجه من الحرمين، فعلم الإمام بذلك، فأرسل الإمام للمتوكل رسالة يشكو فيها حقد عامله على المدينة وسوء معاملته له، وأحاطه الإمام في الرسالة أنه لا ينبغي للمتوكل سوءاً، كما أنه لا يرى الخروج على حكومته. طالع: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٤٨٤. ولقراءة رسالة عبدالله بن محمد إلى المتوكل، والرسائل المتبادلة مع الإمام عليه السلام. طالع: الإرشاد، ج ٢، ص ٣٠٩. وأيضاً: الكافي، ج ١، ص ٥٠١. بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٠٠.

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٢٠.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٣٢.

مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا عِنْدَهُ وَاسِعٌ كَرِيمٌ، مُتَطَوِّلٌ عَلَى عِبَادِهِ رَحِيمٌ، نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِي وَدِيعَةِ اللَّهِ وَحَفْظِهِ. وَكَتَبْتُهُ بِخَطِّي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا^(١).

ويجتمع كبار الرساليين في المدينة المنورة مع الإمام حيث يعطيهم الأوامر وتُحمل إليه الأموال التي كان يبعثها إلى مستحقيها.

أما عندما يكون الإمام في سامراء، حيث عاصمة الخلافة العباسية فإنه كان يقوم بالدور نفسه، حتى في عهد المتوكل، أشد خلفاء العباسيين بطشاً وتنكيلاً بالرساليين، فهو الذي أمر سنة ٢٢٦هـ بهدم قبر الإمام الحسين عليه السلام وما حوله من الدور، وأمر بأن تُحَرِّث الأرض التي فيها القبر وأن تُبَدَّر وتُسْقَى ليعفي أثره، وأمر بإقامة مراكز على الطرق المؤدية للقبر، وأوكل إليها قتل كل من يرى أنه آتٍ لزيارة الإمام الحسين عليه السلام^(٢)، ذلك لأن القبر - كما قلنا - كان بمثابة البركان الذي يحافظ على روح الثورة ورفض الظلم عند الناس.

وكان تأثير الإمام الهادي عليه السلام يمتدّ إلى كبار رجال البلاط العباسي، الأمر الذي مكّن الإمام من الاطلاع على الكثير من خطط العباسيين ضد الحركة الرسالية.

فعندما كان الجواسيس والعيون يأتون المتوكل بالأخبار عن تحركات الإمام وعن الذين يتصلون به، وكان المتوكل يُصدر أوامره بتفتيش منزل الإمام وتشديد الرقابة عليه، كانت تلك الأوامر سرعان ما تتميع بسبب السلطة الروحية التي كان الإمام يتمتع بها، حتى على بيت الخلافة نفسه.

— رَوَى ابْنُ قُوتُوبٍ عَنْ الْكُتَيْبِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الطَّاهِرِيِّ، قَالَ: «مَرَّضَ الْمُتَوَكِّلُ مِنْ خُرَاجٍ^(٣) خَرَجَ بِهِ فَأَشْرَفَ مِنْهُ عَلَى التَّلَفِ فَلَمْ

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٢٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١٨٥. تجارب الأمم، ج ٤، ص ٢٩٨. تاريخ الإسلام، ج ١٧،

ص ١٨. المناقب، ج ٢، ص ٢١١. وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٥، بعد أن ذكر

جريمة المتوكل النكراء: «وكان المتوكل معروفاً بالتعصب، فتألم المسلمون من ذلك».

(٣) القروح والدمامل الكبيرة.

يَحْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَمَسَّهُ بِحَدِيدَةٍ، فَندَرَتْ أُمُّهُ إِنَّ عَوْفِي أَنْ تَحْمِلَ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام مَا لَا جَلِيلًا مِنْ مَالِهَا.

وَقَالَ لَهُ الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ^(١): لَوْ بَعَثْتَ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ (يَعْنِي أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام) فَسَأَلْتَهُ فَإِنَّهُ رَبِّمَا كَانَ عِنْدَهُ صِفَةٌ شَيْءٍ يُفَرِّجُ اللَّهُ بِهِ عَنْكَ.

قَالَ: ابْعَثُوا إِلَيْهِ، فَمَضَى الرَّسُولُ وَرَجَعَ فَقَالَ: خُذُوا كُنُسَ الْغَنَمِ^(٢) فَدَيْفُوهُ بِمَاءٍ وَرَدٍ وَضَعُوهُ عَلَى الْخُرَاجِ، فَإِنَّهُ نَافِعٌ بِإِذْنِ اللَّهِ. فَجَعَلَ مَنْ بِحَضْرَةِ الْمُتَوَكِّلِ يَهْزَأُ مِنْ قَوْلِهِ، فَقَالَ لَهُمُ الْفَتْحُ: وَمَا يَضُرُّ مِنْ تَجَرِبَةٍ مَا قَالَ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو الصَّلَاحَ بِهِ.

فَأَحْضَرَ الْكُنُسَ وَدَيْفَ بِمَاءٍ الْوَرْدِ، وَوَضَعَ عَلَى الْخُرَاجِ فَانْفَتَحَ وَخَرَجَ مَا كَانَ فِيهِ. وَبُسِّرَتْ أُمُّ الْمُتَوَكِّلِ بِعَافِيَّتِهِ، فَحَمَلَتْ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام عَشْرَةَ آلَافٍ دِينَارٍ، تَحْتَ خَتْمِهَا فَاسْتَقَلَّ الْمُتَوَكِّلُ مِنْ عِلَّتِهِ.

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ سَعَى الْبَطْحَانِيُّ بِأَبِي الْحَسَنِ عليه السلام إِلَى الْمُتَوَكِّلِ فَقَالَ: عِنْدَهُ سِلَاحٌ وَأَمْوَالٌ. فَتَقَدَّمَ الْمُتَوَكِّلُ إِلَى سَعِيدِ الْحَاجِبِ أَنْ يَهْجُمَ لَيْلًا عَلَيْهِ، وَيَأْخُذَ مَا يَجِدُ عِنْدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالسِّلَاحِ، وَيَحْمِلَ إِلَيْهِ.

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ: قَالَ لِي سَعِيدُ الْحَاجِبِ، صِرْتُ إِلَى دَارِ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام بِاللَّيْلِ وَمَعِيَ سُلَّمٌ فَصَعِدْتُ مِنْهُ إِلَى السَّطْحِ، وَنَزَلْتُ مِنَ الدَّرَجَةِ إِلَى بَعْضِهَا فِي الظُّلْمَةِ، فَلَمْ أَذَرِ كَيْفَ أَصِلُ إِلَى الدَّارِ، فَنَادَانِي أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام مِنَ الدَّارِ، يَا

(١) اتخذته المتوكل أخاً ووزيراً له، وكان يقدمه على سائر ولده وأهله، كان في نهاية الذكاء والفطنة، وحسن الأدب من أولاد الملوك، كان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين. وقيل: إن من شغفه بالكتب أنه كان يحضر لمجالسة المتوكل، فإذا أراد المتوكل القيام لحاجة أخرج كتاباً من كفه أو خفه وقرأه إلى أن يعود إليه المتوكل، بل كان يقرأ حتى في الخلاء. اجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن. ألف كتاباً سماه (اختلاف الملوك)، وكتاباً في (الصيد والجوارح)، وكتاب (الروضة والزهر). وقتل مع المتوكل في الليلة نفسها على يد الأتراك. كان ذلك سنة ٢٧٤هـ. الأعلام، ج ٥، ص ١٣٣. تاريخ الإسلام، ج ١٨، ص ٣٩٠.

(٢) عصارة الدهن.

سَعِيدُ مَكَانِكَ حَتَّى يَأْتُوكَ بِشَمْعَةٍ.

فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَتُونِي بِشَمْعَةٍ فَنَزَلْتُ، فَوَجَدْتُ عَلَيْهِ جُبَّةً مِنْ صُوفٍ وَقَلَنْسُوءَ مِنْهَا، وَسَجَّادَتَهُ عَلَى حَصِيرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى الْقِبْلَةِ.

فَقَالَ لِي: دُونَكَ بِالْبُيُوتِ. فَدَخَلْتُهَا وَفَتَشْتُهَا فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا شَيْئاً، وَوَجَدْتُ الْبَذْرَةَ مَحْتُمَةً بِخَاتَمٍ أُمِّ الْمُتَوَكِّلِ وَكَيْساً مَحْتُوماً مَعَهَا. فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: دُونَكَ الْمَصْلَى.

فَرَفَعْتُ فَوَجَدْتُ سَيْفًا فِي جَفْنٍ غَيْرِ مَلْبُوسٍ، فَأَخَذْتُ ذَلِكَ، وَصِرْتُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى خَاتَمِ أُمِّهِ عَلَى الْبَذْرَةِ بَعَثْتُ إِلَيْهَا، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ، فَسَأَلَهَا عَنِ الْبَذْرَةِ؟ فَأَخْبَرَنِي بَعْضُ خَدَمِ الْخَاصَّةِ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ: كُنْتُ نَذَرْتُ فِي عِلَّتِكَ إِنْ عُوِفْتُ أَنْ أَجْهَلَ إِلَيْهِ مِنْ مَالِي عَشْرَةَ آلَافٍ دِينَارٍ، فَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِ.

وَهَذَا خَاتَمُكَ عَلَى الْكَيْسِ مَا حَرَّكَهَا، وَفَتَحَ الْكَيْسَ الْآخَرَ. وَكَانَ فِيهِ أَرْبَعُمِائَةٍ دِينَارٍ فَأَمَرَ أَنْ يُضَمَّ إِلَى الْبَذْرَةِ بَذْرَةٌ أُخْرَى.

وَقَالَ لِي: أَجْهَلَ ذَلِكَ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ، وَارْزُدْ عَلَيْهِ السَّيْفَ، وَالْكَيْسَ بِمَا فِيهِ. فَحَمَلْتُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ، وَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، عَزَّ عَلَيَّ بِدُخُولِ دَارِكَ بِغَيْرِ إِذْنِكَ، وَلَكِنِّي مَأْمُورٌ بِهِ.

فَقَالَ لِي: ﴿سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١) ^(٢).

ومرة جاء إلى المتوكل أحد أعوانه وقال: أنت جالس في قصرِكَ والأموال تُحْمَلُ إلى علي بن محمد، ستأتي قافلة من قم ومعها أموال إليه. فطلب المتوكل فتح بن خاقان أكبر وزرائه وهو أيضاً قائد الجيش وكلفه بأمر القافلة^(٣). فخرج فتح بن

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ١٩٨.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ١٢٤.

خاقان إلى المهمة.

لكن مكر المتوكل لم يُنجز بسبب أن خبر علم السلطات بأمر القافلة قد عرفه الإمام فأمر بتأخير مسيرها.

فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ الْقُمِّيِّ وَ مُحَمَّدٍ الطَّلْحِيِّ قَالَا: «حَمَلْنَا مَالًا مِنْ حُمْسٍ، وَنَذَرِ وَهْدَايَا وَجَوَاهِرَ، اجْتَمَعَتْ فِي قُمْ وَبِلَادِهَا، وَخَرَجْنَا نُرِيدُ بِهَا سَيِّدَنَا أَبَا الْحَسَنِ الْهَادِي عليه السلام فَجَاءَنَا رَسُولُهُ فِي الطَّرِيقِ، أَنْ ازْجِعُوا فَلَيْسَ هَذَا وَقْتُ الْوُصُولِ، فَارْجِعْنَا إِلَى قُمْ، وَأَحْزَرْنَا مَا كَانَ عِنْدَنَا، فَجَاءَنَا أَمْرُهُ بَعْدَ أَيَّامٍ، أَنْ قَدْ أَنْفَذْنَا إِلَيْكُمْ إِبِلًا عَيْرًا فَأَحْمِلُوا عَلَيْهَا مَا عِنْدَكُمْ وَخَلُّوا سَبِيلَهَا. قَالَ: فَحَمَلْنَاهَا وَأَوْدَعْنَاهَا اللَّهَ فَلَمَّا كَانَ مِنْ قَابِلٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِ. فَقَالَ عليه السلام: انْظُرُوا إِلَى مَا حَمَلْتُمْ إِلَيْنَا؟. فَنَظَرْنَا فَإِذَا الْمَنَائِحُ كَمَا هِيَ»^(١).

فهل كان الخليفة عاجزاً وكانت مخبراته ضعيفة إلى درجة بحيث لم تكن توصل إليه الأخبار؟ بالعكس فقد كان أقرب الناس إليه مكاناً هو الإمام الهادي عليه السلام، حيث كان منزل الإمام عليه السلام قريباً من قصر الخليفة في سامراء، ولذلك كان الإمام يلقب بالعسكري نسبة إلى منطقة سامراء العسكرية.

إن هذه القصة إن دلت على شيء فإنما تدل على طبيعة الوضع الذي كان في ذلك الزمان، فقد كانت جماعات الرساليين ترد على سامراء من كل حذب وصوب، فمثلاً يزوره في سامراء من قم رئيس القميين وهو: محمد القمي^(٢) الراوي الشهير الذي روى عن مجموعة من الأئمة عليهم السلام وهو من الرجال الصالحين^(٣). بالطبع تعرفون أن قم كانت وما تزال مركزاً علمياً وروحياً، فيه الكثير من الرواة الثقات

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ١٨٥.

(٢) محمد بن عيسى بن عبدالله الأشعري القمي، أبو علي، ثقة، إمامي، صحيح المذهب، شيخ القميين. رجال النجاشي، ص ٣٣٨. رقم: ٩٠٥. خلاصة الأقوال، ص ٢٥٧.

(٣) طالع: رجال النجاشي، ص ٣٨٨. جامع الرواة، ج ٢، ص ١٦٥. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٧، ص ٢٧٥.

والفقهاء العلماء^(١)، الذين يتمتعون بقدر كبير من القوة والنفوذ بحيث إن السلطات الدنيوية تحشاهم باستمرار.

ومن المناطق الأخرى كان يأتيه أبو هاشم الجعفري^(٢)، وجعفر بن سهيل^(٣)، ومعاوية بن حكيم الكوفي^(٤) من الكوفة، ومن المدينة، ومن مصر^(٥)، وكلهم من وجهاء الرساليين.

ومع أن الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم الإمام الهادي عليه السلام كانوا يبذلون كل جهدهم للحيلولة دون اتصال الإمام بالرساليين، حيث فرضوا على الإمام الإقامة الجبرية في سامراء، إلا أن الأمر كان يجري على غير مرام السلطات، نظراً لوجود المواليين للإمام داخل الجهاز الحاكم، حيث كانوا يؤدون دوراً كبيراً في ذلك.

(١) للإفادة طالع كتاب: رياض المحدثين في ترجمة الزواة والعلماء القميين من المتقدمين والمتأخرين، للشيخ محمد علي بن الحسين القمي، المتوفي سنة ١٣٣٥ هـ. تحقيق: محمد رضا القمي، وبإشراف: د. السيد محمود المرعشي، نشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي الكبرى. ط: ١، سنة ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م.

(٢) داود بن القاسم، يكنى أبو هاشم الجعفري، من أهل بغداد، ثقة، إمامي صحيح المذهب، جليل القدر، عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام، ولقي من الأئمة عليهم السلام: (الرضا، والجواد، والهادي، والعسكري)، وروى عنهم. قال الكشي، ج ١، ص ٥٧١: «قال أبو عمرو: له -أبو هاشم- منزلة عالية عند أبي جعفر وأبي الحسن وأبي محمد عليهم السلام. وموضع جليل، على ما يستدل بما روى عنهم في نفسه وروايته...». رجال الطوسي، ص ٣٨٦. والفهرست، ص ١٢٤.

(٣) جعفر بن سهيل الصقيل، وكيل الإمام الهادي، والإمام الحسن العسكري والإمام الحجة عليه السلام، وقال النمازي في مستدركاته، ج ٢، ص ١٦٣: «ولا خلاف فيه».

(٤) معاوية بن حكيم بن معاوية بن عمار الدهني، ثقة، جليل، عده في الشيخ الطوسي في رجاله في أصحاب الجواد عليه السلام تارة، وأخرى في أصحاب الهادي عليه السلام ووصفه بالكوفي. معجم رجال الحديث، ج ١٨، ص ٢٠٢.

(٥) منهم: الراوي المعروف محمد بن الفرغ الرخجي، ثقة، كانت له اتصالات وثيقة بالإمام، وعدة مراسلات، اعتقلته السلطات من مصر فقيده بالحديد، ومكث في السجن ثماني سنين، بعدها خرج وذهب إلى سامراء للإمام عليه السلام، مرض فبعث له الإمام الهادي عليه السلام ثوباً، وضعه تحت رأسه ولما مات كفن به. أصول الكافي، ج ١، ص ٥٠٠. بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٢٩٩. معجم رجال الحديث، ج ١٧، ص ١٣١-١٣٣.

روى الصَّفَرُ بنُ أَبِي دُلْفٍ الْكَرْخِيُّ قَالَ: «لَمَّا حَمَلَ الْمُتَوَكِّلُ سَيِّدَنَا أَبَا الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيَّ عليه السلام - أي استدعاه إلى سامراء - جِئْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَبَرِهِ. قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَى الزَّرَائِفِ وَكَانَ حَاجِبًا لِلْمُتَوَكِّلِ فَأَمَرَ أَنْ أُدْخَلَ إِلَيْهِ فَأَدْخَلْتُ إِلَيْهِ. فَقَالَ: يَا صَفَرُ، مَا شَأْنُكَ؟».

فَقُلْتُ: خَيْرٌ أَمِّيَا الْأُسْتَاذُ! فَقَالَ: اقْعُدْ.

فَأَخَذَنِي، مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَقُلْتُ - في نفسي - أَخْطَأْتُ فِي الْمَجِيءِ. قَالَ: فَوَحَى النَّاسَ عَنْهُ - أي أبعدهم -، ثُمَّ قَالَ لِي: مَا شَأْنُكَ وَفِيمَ جِئْتُ؟

قُلْتُ: لِحَظِيرٍ مَا. فَقَالَ: لَعَلَّكَ تَسْأَلُ عَنْ خَبَرِ مَوْلَاكَ؟!

فَقُلْتُ لَهُ: وَمَنْ مَوْلَايَ؟! مَوْلَايَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ!

فَقَالَ: اسْكُتْ مَوْلَاكَ هُوَ الْحَقُّ، فَلَا تَحْتَشِمْنِي، فَإِنِّي عَلَى مَذْهَبِكَ.

فَقُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. قَالَ: أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: اجْلِسْ حَتَّى يُخْرِجَ صَاحِبُ الْبَرِيدِ مِنْ عِنْدِهِ.

قَالَ: فَجَلَسْتُ فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَ لِغُلَامٍ لَهُ: خُذْ بَيْدَ الصَّفَرِ وَأَدْخِلْهُ إِلَى الْحُجْرَةِ الَّتِي فِيهَا الْعُلُوِّيُّ الْمَحْبُوسُ، وَخَلِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ...»^(١).

وهكذا الحال بالنسبة لرجل مثل فتح بن خاقان الذي كان أكبر وزير في العصر العباسي الثاني، هذا الرجل حيث كان معروفاً أنه يظهر التشيع للإمام الهادي عليه السلام.

روى الْفَحَّامُ عَنِ الْمَنْصُورِيِّ، عَنْ عَمِّ أَبِيهِ، قَالَ: «قَصَدْتُ الْإِمَامَ عليه السلام يَوْمًا، فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَطْرَحَنِي وَقَطَعَ رِزْقِي، وَمَلَّلَنِي وَمَا أَتَهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا عِلْمُهُ بِمَلَا زِمَتِي لَكَ، وَإِذَا سَأَلْتُهُ شَيْئًا مِنْهُ يَلْزِمُهُ الْقَبُولُ مِنْكَ، فَيَبْغِي أَنْ تَتَفَضَّلَ عَلَيَّ بِمَسْأَلَتِهِ.

فَقَالَ ﷺ: تُكْفَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ طَرَقَنِي رُسُلُ الْمُتَوَكَّلِ، رَسُولٌ يَتْلُو رَسُولًا. فَجِئْتُ وَالْفَتْحُ عَلَى الْبَابِ قَائِمٌ، فَقَالَ: يَا رَجُلُ، مَا تَأْوِي فِي مَنْزِلِكَ بِاللَّيْلِ كَدَنِي هَذَا الرَّجُلُ مِمَّا يَطْلُبُكَ.

فَدَخَلْتُ وَإِذَا الْمُتَوَكَّلُ جَالِسٌ عَلَى فِرَاشِهِ فَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَى، نُشْغَلُ عَنْكَ وَتُنْسِينَا نَفْسَكَ، أَيُّ شَيْءٍ لَكَ عِنْدِي؟

فَقُلْتُ: الصَّلَةُ الْفَلَانِيَّةُ، وَالرِّزْقُ الْفُلَانِيُّ. وَذَكَرْتُ أَشْيَاءَ فَأَمَرَنِي بِهَا، وَبِضْعِهَا. فَقُلْتُ لِلْفَتْحِ: وَاقِ عَلَيَّ بَنُ مُحَمَّدٍ إِلَى هَاهُنَا. فَقَالَ: لَا. فَقُلْتُ: كَتَبَ رُفْعَةُ. فَقَالَ: لَا.

فَوَلَّيْتُ مُنْصَرِفًا فَتَبِعَنِي. فَقَالَ لِي: لَسْتُ أَشُكُّ أَنَّكَ سَأَلْتَهُ دُعَاءَ لَكَ، فَالْتَمَسَ لِي مِنْهُ دُعَاءً. فَلَمَّا دَخَلْتُ إِلَيْهِ ﷺ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا مُوسَى هَذَا وَجْهُ الرِّضَا.

فَقُلْتُ: بَرَكَتِكَ يَا سَيِّدِي. وَلَكِنْ قَالُوا لِي: إِنَّكَ مَا مَضَيْتَ إِلَيْهِ، وَلَا سَأَلْتَهُ.

فَقَالَ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ مِنَّا أَنَّا لَا نَلْجَأُ فِي الْمَهْمَاتِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا نَتَوَكَّلُ فِي الْمَلِمَاتِ إِلَّا عَلَيْهِ، وَعَوَدْنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ الْإِجَابَةَ، وَنَخَافُ أَنْ نَعْدِلَ فَيَعْدِلَ بِنَا.

قُلْتُ: إِنَّ الْفَتْحَ؛ قَالَ لِي كَيْتَ وَكَيْتَ (أي الطلب الذي يطلبه وهو الدعاء له).

قَالَ ﷺ: إِنَّهُ يُوَالِينَا بظَاهِرِهِ، وَيُجَانِبُنَا بِبَاطِنِهِ. الدُّعَاءُ لِمَنْ يَدْعُو بِهِ إِذَا أَخْلَصَتْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَاعْتَرَفَتْ بِرُسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِحَقِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ ﷺ، وَسَأَلَتْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَيْئًا لَمْ يَحْرِمَكَ..»^(١).

رَوَى أَبُو سَعِيدٍ؛ سَهْلُ بْنُ زِيَادٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ فَضْلُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ

إِسْرَائِيلَ الْكَاتِبُ، وَنَحْنُ فِي دَارِهِ بِسَامَرَاءَ، فَجَرَى ذِكْرُ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام، فَقَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنِّي أُحَدِّثُكَ بِشَيْءٍ، حَدَّثَنِي بِهِ أَبِي قَالَ: كُنَّا مَعَ الْمُعْتَزِّ، وَكَانَ أَبِي كَاتِبَهُ، فَدَخَلْنَا الدَّارَ وَإِذَا الْمُتَوَكِّلُ عَلَى سَرِيرِهِ قَاعِدٌ، فَسَلَّمَ الْمُعْتَزُّ وَوَقَفَ، وَوَقَفْتُ خَلْفَهُ، وَكَانَ عَهْدِي بِهِ إِذَا دَخَلَ رَحَّبَ بِهِ وَيَأْمُرُ بِالْقُعُودِ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، وَجَعَلَ يَرْفَعُ رِجْلًا وَيَضَعُ أُخْرَى، وَهُوَ لَا يَأْذَنُ لَهُ بِالْقُعُودِ، وَنَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ يَتَغَيَّرُ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ وَيَقُولُ: هَذَا الَّذِي تَقُولُ فِيهِ مَا تَقُولُ. وَيُرَدِّدُ الْقَوْلَ وَالْفَتْحُ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ يُسَكِّنُهُ، وَيَقُولُ: مَكْذُوبٌ عَلَيْهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. وَهُوَ يَتَلَطَّى وَيَقُولُ: وَاللَّهِ لَا قُتِلَنَّ هَذَا الْمُرَائِي الرَّنْدِيقُ، وَهُوَ يَدَّعِي الْكَذِبَ وَيَطْعَنُ فِي دَوْلَتِي. ثُمَّ قَالَ: جِئَنِي بِأَرْبَعَةٍ مِنَ الْخَزَرِ.

فَجِئَ بِهِمْ، وَدَفَعَ إِلَيْهِمْ أَرْبَعَةَ أَسْيَافٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَرْطُنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ، إِذَا دَخَلَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام، وَيُقْبِلُوا عَلَيْهِ بِأَسْيَافِهِمْ فَيَخْبِطُوهُ. وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أُخْرِقَنَّهُ بَعْدَ الْقَتْلِ.

وَأَنَا مُتَّصِبٌ قَائِمٌ خَلْفَ الْمُعْتَزِّ مِنْ وَرَاءِ السُّتْرِ، فَمَا عَلِمْتُ إِلَّا بِأَبِي الْحَسَنِ عليه السلام، قَدْ دَخَلَ وَقَدْ بَادَرَ النَّاسُ قُدَامَهُ. وَقَالُوا: قَدْ جَاءَ.

وَالْتَفْتُ فَإِذَا أَنَا بِهِ، وَشَفَتَاهُ يَتَحَرَّكَانِ، وَهُوَ غَيْرُ مَكْرُوبٍ وَلَا جَارِعٍ. فَلَمَّا بَصَرَ بِهِ الْمُتَوَكِّلُ رَمَى بِنَفْسِهِ عَنِ السَّرِيرِ إِلَيْهِ، وَهُوَ سَبَقَهُ وَأَنْكَبَ عَلَيْهِ، فَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَيَدُهُ وَسَيْفُهُ بِيَدِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا سَيِّدِي يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ يَا ابْنَ عَمِّي، يَا مَوْلَايَ يَا أَبَا الْحَسَنِ.

وَأَبُو الْحَسَنِ عليه السلام يَقُولُ: أُعِيدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ أَغْفِي مِنْ هَذَا.

فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا سَيِّدِي فِي هَذَا الْوَقْتِ؟

قَالَ عليه السلام: جَاءَنِي رَسُولُكَ، فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ يَدْعُوكَ!

فَقَالَ: كَذَبَ ابْنُ الْفَاعِلَةِ، أَرْجِعْ يَا سَيِّدِي مِنْ حَيْثُ شِئْتَ. يَا فَتْحُ، يَا عُبَيْدَ اللَّهِ،

يَا مُعْتَزُّ شَيْعُوا سَيِّدَكُمْ وَسَيِّدِي..»^(١).

وكذلك كان إسحاق بن إبراهيم الطاهري، والي المتوكل على بغداد، أو وصيف التركي أحد أعمدة جيش المتوكل، أو غيرهم ممن كان يوالي الإمام في باطنه.

روى المسعودي عن ابن الأزر، قال: حَدَّثَنِي الْقَاسِمُ بْنُ عَبَّادٍ قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ هَرْمَةَ، قَالَ: «وَجَّهَنِي الْمُتَوَكِّلُ إِلَى الْمَدِينَةِ لِإِشْخَاصِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَى بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ لَشَيْءٍ بَلَغَهُ عَنْهُ، فَلَمَّا صَرَتْ إِلَيْهَا ضَجَّ أَهْلُهَا وَعَجَّوْا ضَجِيحًا وَعَجِيحًا مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ، فَجَعَلْتُ أَسْكَنُهُمْ وَأَحْلَفُ لَهُمْ أَنِّي لَمْ أُؤْمَرْ فِيهِ بِمَكْرُوهِ، وَفَتَّشْتُ بَيْتَهُ، فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ إِلَّا مَصْحَفًا وَدَعَاءَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَأَشْخَصْتَهُ وَتَوَلَّيْتُ خِدْمَتَهُ وَأَحْسَنْتُ عَشْرَتَهُ.

فبينما أنا نائم يوماً من الأيام، والسماء صاحية، والشمس طالعة، إذ ركب وعليه مطر، وقد عقد ذنب دابته فعجبت من فعله، فلم يكن بعد ذلك إلا هنيهة حتى جاءت سحابة فأرخت عزاليها، ونالنا من المطر أمر عظيم جداً، فالتفت إليّ، وقال: أنا أعلم أنك أنكرت ما رأيت، وتوهّمت أني علمت من الأمر ما لا تعلمه، وليس ذلك كما ظننت، ولكن نشأت بالبادية، فأنا أعرف الرياح التي يكون في عقبها المطر فلما أصبحت هبّت ريح لا تخلف وشممت منها رائحة المطر، فتأهبت لذلك.

فلما قدمت مدينة السلام بدأت بإسحاق بن إبراهيم الطاهري - وكان على بغداد - فقال لي: يا يحيى، إن هذا الرجل قد ولده رسول الله ﷺ، والمتوكل من تعلم، وإن حرصته على قتله كان رسول الله ﷺ خصمك.

فقلت: والله ما وقفت له إلا على كل أمر جميل.

فصرت إلى سامراء، فبدأت بوصيف التركي، وكنت من أصحابه، فقال: والله لئن سقطت من رأس هذا الرجل شعرة لا يكون المطالب بها غيري، فعجبت

من قولهما، وعرفت المتوكل ما وقفت عليه..»^(١).

وهنا يطرح السؤال التالي: ماذا قدّم الإمام للأمة الإسلامية وللحركة الرسالية خلال مدة إمامته التي دامت ثلاثاً وثلاثين سنة؟

هناك عدة أعمال قام بها الإمام الهادي عليه السلام منها:

أولاً: قيادة الحركة الرسالية

كان الرساليون قد انتشروا في كافة البلاد الإسلامية، وأصبح لهم التأثير الواضح في مجريات الأحداث، وكانت تقع عليهم مسؤولية حمل الرسالة وقيم الدين في قبال الواقع الفاسد، حتى أصبحوا مشعل الحرية في الأمة الإسلامية، كما أن الدولة كانت قد اتسعت بحيث أصبحت تضم مجموع تسع وسبعين دولة من دول اليوم، أي نصف المعمورة آنئذ.

وكان الإمام عليه السلام يقود هذه الحركة المنتشرة في هذه الرقعة، والتي تعمل ليل نهار في سبيل رفع مستوى الأمة وإيصالها إلى ممارسة الحركة الحقيقية المرتكزة على هدى القرآن الكريم.

وقد أشرنا سابقاً إلى أن أحداث التاريخ، وتطوراتها، دلت على أن حركة الرساليين كانت تنمو نمواً متصاعداً منذ عهد الإمام علي عليه السلام وستظل هكذا إلى ظهور الإمام الحجة عليه السلام وقيامه، والذي كان يقود هذا النمو والتصاعد المطرد هم الأئمة المعصومون عليهم السلام، أي إنهم قادوا الحركة الرسالية، ونمّوها وربّوها ووسّعوها، وهذه هي المسؤولية الأولى التي قام بها الإمام الهادي عليه السلام.

وقد تسأل: كيف كان الإمام عليه السلام يقود هذه الحركة؟.

إننا إذا نظرنا إلى التاريخ نجد أن تعيين الوكلاء في الأمة لم يكن معروفاً عند

الأئمة قبل الإمام الهادي عليه السلام، الذي كان يوكل نواباً له في كل المناطق الإسلامية. فقد كان في عهد الأئمة الأوائل عليهم السلام أن الإمام عليه السلام يوثق رجلاً يأخذ الرسائل منه التعاليم الرسالية، ويستلم منهم الحقوق الشرعية ليوصلها بدوره إلى الإمام عليه السلام. أما في عهد الإمام الهادي عليه السلام فإن هذا الأمر أصبح أكثر دقة وتنظيماً.

بالطبع إن ممارسة الإدارة والقيادة لا تُسجّل يومياتها تفصيلياً في كتب التواريخ. فالقيادة ليست من الأشياء التي تُكتب، أو تبقى آثارها بشكل عيني أماناً. إنها ليست كبناء بناية، أو كتابة كتاب، أو إنشاد شعر. القيادة هي عبارة عن مجموعة أعمال ومهام يجب أن نقيسها ونحكم عليها من خلال نتائجها، التي تمثلت في نمو وانتشار الحركة الرسالية في عهده بفضل العمل الدؤوب الذي اضطلع الإمام الهادي عليه السلام بالقيام به.

وحتى في وجه المتوكل العباسي نفسه، فإن الإمام عليه السلام كان يحمل لواء الرسالة. فيحنا: «سُعي إلى المتوكل بعلي بن محمد الجواد عليه السلام أن في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من أهل قم، وأنه عازم على الوثوب بالدولة، فبعث إليه جماعة من الأتراك فهجموا داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئاً، ووجدوه في بيت مغلق عليه، وعليه مدرعة من صوف، وهو جالس على الرمل والحصي وهو متوجه إلى الله تعالى يتلو آيات من القرآن، فحمل على حاله تلك إلى المتوكل، وقالوا له: لم نجد في بيته شيئاً، ووجدناه يقرأ القرآن مستقبلاً القبلة.

وكان المتوكل جالساً في مجلس الشرب فدخل عليه والكأس في يد المتوكل، فلما رآه هابه وعظمه وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس التي كانت في يده. فقال عليه السلام: والله، ما يُخامر لحمي ودمي قط فاعفني. فأعفاه.

فقال - المتوكل - : أنشدني شعراً.

فقال عليه السلام: إني قليل الرواية للشعر.

فقال: لا بد.

فَأَنشَدَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ:

بَاتُوا عَلَى قُلُلِ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ
وَأَسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عِزٍّ مِنْ مَعَاذِهِمْ
نَادَاهُمْ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ دَفْنِهِمْ
أَيْنَ الْوُجُوهِ الَّتِي كَانَتْ مُنْعَمَةً
فَأَفْصَحَ الْقَبْرُ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَ لَهُمْ
قَدْ طَالَ مَا أَكَلُوا ذَهْرًا وَقَدْ شَرَبُوا
غُلْبُ الرِّجَالِ فَلَمْ تَنْفَعَهُمُ الْقُلُلُ
وَأَسْكِنُوا حُفْرًا يَا بَشَمًا نَزَلُوا
أَيْنَ الْأَسَاوِرُ وَالتَّيْجَانُ وَالْحُلُلُ
مِنْ دُونِهَا تُضْرِبُ الْأَسْتَارُ وَالْكِلَلُ
تِلْكَ الْوُجُوهُ عَلَيْهَا الدُّودُ تَقْتَتِلُ
وَأَصْبَحُوا الْيَوْمَ بَعْدَ الْأَكْلِ قَدْ أَكَلُوا

قَالَ: فَبَكَى الْمُتَوَكِّلُ حَتَّى بَلَثَ لِحْيَتَهُ دُمُوعَ عَيْنَيْهِ، وَبَكَى الْحَاضِرُونَ وَدَفَعَ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِينَارٍ، ثُمَّ رَدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ مُكْرَمًا^(١).

إن أهم شيء في حياة الإمام الهادي عليه السلام أنه قاده الأمة، ونمى حركتها الرسالية، ودفعها خطوات واسعة نحو الأمام، نحو شواطئ الهداية والصلاح.. وهناك روايات كثيرة تكشف عن مدى العطاء الذي كان يقدمه الإمام للحركة الرسالية في كل الجوانب التي يجب على قيادة حيوية أن تقدمه^(٢).

(١) مروج الذهب، ج ٤، ص ١١. البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٥. بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢١٢-٢١٣. ونرى كيف يُجابه الإمام عليه السلام المتوكل، بينما نرى غيره كيف يُؤله هذا الطاغية. فقد روى المسعودي في مروج الذهب، ج ٤، ص ٩. عن المبرد قال: «وردت سر من رأى، فأدخلت على المتوكل، وقد عمل فيه الشراب، فسُئلت عن بعض ما وردت له، فأجبت، وبين يدي المتوكل البحري الشاعر، فابتدأ ينشده قصيدة يمدح بها المتوكل، وفي المجلس أبو العنيس الصيمري، فأنشد البحري قصيدته التي أولها:

عن أي ثغر تبسم؟ وبأي طرف تحتكم؟
حسن يضئ بحسنه والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر الـ متوكل ابن المعتصم
المرتضى ابن المجتبى والمنعم ابن المتق
إلى أن قال:

لنا الهدى بعد العمى بك والغنى بعد العدم

(٢) للتوسع طالع للمصنف: الإمام الهادي عليه السلام قدوة وأسوة.

ثانياً: التصدي للتيارات الفكرية المنحرفة

في أيام الإمام الهادي عليه السلام كانت هناك نزاعات فكرية حادة، منها النزاع المشهور حول خلق القرآن^(١). ولا يمكن لنا اليوم أن نعرف أهمية هذه المسألة ومدى خطورها، إلا عندما نقارنها بمسألة حديثة، كالأزمات الحادة التي نعيشها اليوم، فالأزمة اللبنانية مثلاً، لا نجد لها التفسير المناسب والواقعي للأحداث بعد ألف أو ألفين سنة من الآن، فكل ما يمكن أن يسجله التاريخ عن تلك الأزمة هو الحدث على مستوى الظاهر وصور الاقتتال.

لكننا اليوم ونحن نعيش تلك الأزمة، فإننا نعرف ضخامة تلك الأحداث وما هي أهميتها وارتباطاتها وعواملها وإلى أي مدى امتدت تأثيراتها وتشعباتها^(٢). كذلك قصة خلق القرآن، فإنها الآن تُذكر كقصة عابرة، لكن في وقتها كانت قصة أساسية، ومثلما توجد الآن في العالم الإسلامي تيارات شرقية، وغربية، وإسلامية مختلفة، كذلك في العهد الإسلامي السابق. كانت تتقاسم الأمة الإسلامية حركتان فكريتان هما:

- حركة الاعتزال.

- حركة الأشاعرة.

وهاتان الحركتان؛ لم تكونا فقط مجرد حركتين فكريتين في المدارس، بل كان لكل واحدة منهما أتباعها بين جماهير المسلمين، وكانت كثيراً ما تقع بين أتباع الحركتين نزاعات دموية، وكانت السلطات تُعذِّبها وتزيد من حدتها من أجل تحقيق

(١) ظهرت هذه الفكرة في أواخر الدولة الأموية، أبدعها الجعد بن درهم، الذي أخذها عن أبان بن سميان، وأبان أخذها عن طالوت بن أعصم اليهودي، والجعد هو: معلم الخليفة الأموي مروان بن محمد، وقيل: إنه أول من تكلم بها، وأول من أذاعها في دمشق، فطلبته السلطات فهرب ونزل الكوفة، وتعلمها منه الجهم بن صفوان (مؤسس الجهمية). تاريخ الإسلام للذهبي، ج ٧، ص ٣٣٧. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١٣، ص ٢٥٥. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ١، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٢) انتهت أحداث الأزمة اللبنانية سنة ١٩٨٩ م. بتوقيع بعض الأطراف اللبنانية وثيقة الاتفاق الوطني والذي عُرف باتفاق الطائف.

مصالحها اللامشروعة.

كانت السلطة العباسية تدعو إلى حركة الأشعرية وإلى الأشاعرة، وكان جلاوزتها يأخذون كل معتزلي ويتهمونونه بالزندقة ويقتلونونه. ولما جاء المأمون العباسي إلى الحكم فإنه اتجه إلى الاعتزال، وكان الاعتزال حركة الطبقة الواعية في ذلك اليوم، وقد ظلت السلطة في عهد المأمون العباسي، والمعتمد العباسي، والواثق العباسي^(١) تؤيد الاعتزال التي تقول بخلق القرآن^(٢)، ولما جاء المتوكل صار مع الأشاعرة، وعاقب كل من قال بخلق القرآن^(٣).

إننا نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى أوحى بالقرآن، فإذا القرآن مخلوق^(٤)، أي إن القرآن لم يكن مع الله منذ الأزل، بل خُلِقَ فيما بعد، كان الله أولاً ولم يكن معه شيء^(٥)، ثم أوحى بالقرآن، وهذا شيء واضح، إلا أن الأشاعرة قالوا: إن القرآن قديم مثل الله^(٦).

ومرة كان رجل يدعى أحمد بن نصر^(٧) قد دبر عملية ما ضد الواثق، إلا أنها لم يكتب لها النجاح، فاستدعاه الواثق العباسي، وقال له: يا أحمد، ما تقول في القرآن؟.

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٣١. تجارب الأمم، ج ٤، ص ١٦٦. الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٤٢٣.
(٢) لاحظ: تاريخ المذاهب الإسلامية، لأبي زهرة، ص ١٤١. و: المعتزلة، لزهدي جار الله، ص ١٦٠-١٧٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١٩٠.

(٤) انظر: بحوث في الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٦٨-٢٧٠.

(٥) الكافي، ج ١، ص ١١٥، عَنْ ابْنِ أَبِي يَعْفُورٍ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾، فَقَالَ عليه السلام: فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِحَالَةٍ وَاحِدَةٍ، هُوَ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْآخِرُ...».

(٦) لاحظ: مقالات الإسلاميين، ج ٢، ص ٢٥٦.

(٧) أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، من رواة الحديث، كتب عن مالك وجماعة، قتله الواثق لأنه أنكر القول بخلق القرآن. وبقي مصلوباً حتى عصر المتوكل، فأمر بإنزال جثته وسلموه إلى أهلهم بعد أن جمعوا بين رأسه وجسده. قال في البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٣١٦: «ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً، واجتمع في جنازته خلق كثير جداً، وجعلوا يمسحون بها وبأعواد نعشه، وكان يوماً مشهوداً...».

قال: كلام الله. قال: أفضخلوق هو؟.

قال: هو كلام الله. قال: فما تقول في ربك، أترأه يوم القيامة؟.

قال: يا أمير المؤمنين، جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته». فنحن على الخبر.

.. فقال الوثائق لمن حوله: ما تقولون فيه؟.

فقال عبد الرحمن بن إسحاق - وكان قاضيًا على الجانب الغربي فعزل، وكان موادًا لأحمد بن نصر قبل ذلك - : يا أمير المؤمنين، هو حلال الدم.

وقال أبو عبد الله الأرميني صاحب ابن أبي دواد: اسقنى دمه يا أمير المؤمنين... ووافقه الحاضرون في البلاط إلا ابن أبي دواد (قاضي القضاة) قال: يا أمير المؤمنين، كافر يستتاب، لعل به عاهة أو تغير عقل.

فقال الوثائق: إذا رأيتموني قد قمت إليه، فلا يقوم أحد معي، فإني أحسب خطاي إليه، ودعا بالصمصامة - [وهو] سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان في الخزانة.. - فأخذ الوثائق الصمصامة... فمشى إليه وهو في وسط الدار، ودعا بنطع قصير في وسطه، وحبل فشد رأسه، ومد الحبل، فضربه الوثائق ضربة، فوقعت على حبل العاتق، ثم ضربه أخرى على رأسه.. وحمل رأسه إلى بغداد، فنُصب في الجانب الشرقي أيامًا، وفي الجانب الغربي أيامًا، ثم حُوّل إلى الشرقي،... وكتب في أذنه رقعة: «هذا رأس الكافر المشرك الضال، وهو أحمد بن نصر بن مالك، ممن قتله الله على يدي عبد الله هارون الإمام الوثائق بالله أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه، وعرض عليه التوبة، ومكّنه من الرجوع إلى الحق، فأبى إلا المعاندة والتصريح، والحمد لله الذي عجّل به إلى ناره وأليم عقابه..»^(١).

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١٣٨-١٣٩. البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٣٠٥.

لطالما طارت رؤوس علماء كانوا من ذوي المكانة الحسنة في المجتمع بسبب أمثال هذه الآراء، بينما كانت الأخطار تتهدد الأمة الإسلامية من كل جانب.

وهذه الحادثة تُشبه حادثة المسلمين عندما وصلوا إلى القسطنطينية وحاصروها وهدّدوا المدينة، كان المسيحيون وقتها داخل السور مشغولين في التفكير والاختلاف حول (جنس الملائكة)، هل هو من الناسوت أو اللاهوت، هذه الخلافات التي تُدخل الأمة في متاهات فكرية لا طائل من ورائها سوى تضييع جهود الأمة، وقد كان الخلاف حول خلق القرآن أو عدم خلق القرآن، هو من أمثال تلك الخلافات التي تمنع الأمة من التوجّه نحو إنجاز المشاريع.. وقد قيل قديماً: إذا كثرت الجواب ضاع الصواب.

هنا يأتي الأئمة المعصومون عليهم السلام، كما جاء الأنبياء عليهم السلام من قبلهم لفض خلافات الناس وتوجيههم إلى الطريق القويم، الذي يتمثل باتباع القرآن الكريم الذي أنزله الله سبحانه دستوراً للحياة.

إن المجتمع كثيراً ما يفقد المقاييس الثقافية الصحيحة، ويستبدلها بمقاييس خاطئة، وأبرز مكان لحدوث ذلك هو عادات وسلوك المجتمع، فإذا رأيت الرذيلة والفساد قد بدءا بالانتشار في المجتمع، فاعرف أن قيماً ومقاييس فاسدة، ومعايير خاطئة، هي التي تعلّق بها المجتمع. أما إذا رأيت أن حالة التوجّه إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإقبال على الالتزام بالتعاليم الدينية، قد انتشرت بين الناس، فذلك دليل على أتباع المجتمع للقيم والمعايير الصحيحة.

إن العادات الاجتماعية جبل تشدّه تارة القيم الصالحة، وأخرى القيم الفاسدة، وهنا نرى أن الأئمة الأطهار عليهم السلام يُحافظون على قوة شد القيم الصالحة لهذا الحبل الاجتماعي الهام إذ إن سلوك الأمة هو وقود تقدمها.

وكان الأئمة عليهم السلام يتصدون أبداً لموجات الانحراف العقائدي، التي كانت تنتشر في أوساط العلماء طوراً بخلق أزمت فكرية منشؤها الثقافات الدخيلة، مثل

أزمة خلق القرآن، ومثل رواج أفكار التجسيد والتشبيه لمقام الربوبية. ومرة بمواجهة التشدد والمروق، وبالتالي الغلو في مقام الأولياء وفي طليعتهم الأئمة عليهم السلام وهكذا.

نورد فيما يلي هذه الرواية الماثورة عن الإمام الهادي عليه السلام، والتي تعالج كثيراً من القضايا العقائدية.

روى العلامة المجلسي في موسوعة بحار الأنوار، عن كتاب الدلائل عن أيوب، قال: «قَالَ فَتَحُ بْنُ يَزِيدَ الْجُرْجَانِيُّ: ضَمَّنِي وَأَبَا الْحَسَنِ عليه السلام، الطَّرِيقُ مُنْصَرَفِي مِنْ مَكَّةَ إِلَى خُرَاسَانَ، وَهُوَ صَائِرٌ إِلَى الْعِرَاقِ فَسَمِعْتُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: مَنْ أَتَقَى اللَّهَ يُتَقَى، وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ يُطَاعُ.

قَالَ: فَتَلَطَّفْتُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ. فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، وَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ وَأَوَّلَ مَا ابْتَدَأَنِي بِهِ. أَنْ قَالَ: يَا فَتَحُ، مَنْ أَطَاعَ الْخَالِقَ لَمْ يُبَالِ بِسَخَطِ الْمَخْلُوقِ، وَمَنْ أَسَخَطَ الْخَالِقَ فَأَيُّقَنَ أَنْ يُحِلَّ بِهِ الْخَالِقُ، سَخَطَ الْمَخْلُوقِ، وَإِنَّ الْخَالِقَ لَا يُوصَفُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَأَنِّي يُوصَفُ الْخَالِقُ الَّذِي يَعْجِزُ الْحَوَاسُّ أَنْ تُدْرِكَهُ وَالْأَوْهَامُ أَنْ تَنَالَهُ، وَالْخَطَرَاتُ أَنْ تُحْدَهُ، وَالْأَبْصَارُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ.

جَلَّ عَمَّا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، وَتَعَالَى عَمَّا يَنْعَتُهُ النَّاعِتُونَ، نَأَى فِي قُرْبِهِ، وَقَرَّبَ فِي نَأْيِهِ، فَهُوَ فِي نَأْيِهِ قَرِيبٌ، وَفِي قُرْبِهِ بَعِيدٌ. كَيْفَ الْكَيْفَ، فَلَا يُقَالُ: كَيْفَ، وَأَيْنَ الْأَيْنَ، فَلَا يُقَالُ: أَيْنَ، إِذْ هُوَ مُنْقَطِعُ الْكَيْفِيَّةِ وَالْأَيْنِيَّةِ.

هُوَ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ فَجَلَّ جَلَالُهُ.

بَلْ كَيْفَ يُوصَفُ بِكُنْهِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقَدْ قَرَنَهُ الْجَلِيلُ بِاسْمِهِ، وَشَرَكُهُ فِي عَطَائِهِ، وَأَوْجَبَ لِمَنْ أَطَاعَهُ جَزَاءَ طَاعَتِهِ. إِذْ يَقُولُ: ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١).

وَقَالَ، يَخْكِي قَوْلَ مَنْ تَرَكَ طَاعَتَهُ، وَهُوَ يُعَذِّبُهُ بَيْنَ أَطْبَاقِ نِيرَانِهَا، وَسَرَايِلِ قَطِرَانِهَا: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾^(١).

أَمْ كَيْفَ يُوصَفُ بِكُنْهِهِ مَنْ قَرَنَ الْجَلِيلَ طَاعَتَهُمْ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢).

وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾^(٣).

وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾^(٤).

وَقَالَ: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥).

يَا فَتَحُ؛ كَمَا لَا يُوصَفُ الْجَلِيلُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالرَّسُولُ، وَالْخَلِيلُ، وَلَدُ الْبَتُولِ، فَكَذَلِكَ لَا يُوصَفُ الْمُؤْمِنُ الْمُسْلِمُ لِأَمْرِنَا، فَنَبِئْنَا أَفْضَلَ الْأَنْبِيَاءِ، وَخَلِيلِنَا أَفْضَلَ الْأَخْلَاءِ، وَوَصِينَا أَكْرَمُ الْأَوْصِيَاءِ، وَاسْمُهُمَا أَفْضَلُ الْأَسْمَاءِ، وَكُنْيَتُهُمَا أَفْضَلُ الْكُنَى، وَأَخْلَاهَا، لَوْ لَمْ يُجَالِسْنَا إِلَّا كُفُؤًا لَمْ يُجَالِسْنَا أَحَدًا، وَلَوْ لَمْ يُزَوِّجْنَا إِلَّا كُفُؤًا لَمْ يُزَوِّجْنَا أَحَدًا.

أَشَدُّ النَّاسِ تَوَاضَعًا، أَعْظَمُهُمْ جَلْمًا وَأَنْدَاهُمْ كَفًّا، وَأَمْنَعُهُمْ كَنْفًا، وَرِثَ عَنْهُمَا أَوْصِيَاؤُهُمَا عِلْمَهُمَا، فَارْذُدْ إِلَيْهِمَا الْأَمْرَ، وَسَلِّمْ إِلَيْهِمْ، أَمَانَتَكَ اللَّهُ تَمَاتَهُمْ، وَأَحْيَاكَ حَيَاتَهُمْ، إِذَا شِئْتَ رَحِمَكَ اللَّهُ.

قَالَ فَتَحُ: فَخَرَجْتُ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، تَلَطَّفْتُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ. فَقُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، أَتَأْذَنُ فِي مَسْأَلَةٍ اخْتَلَجَ فِي صَدْرِي أَمْرُهَا لَيْلَتِي؟

(١) سورة الأحزاب، آية: ٦٦.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٣) سورة النساء، آية: ٨٣.

(٤) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٧.

قَالَ ﷺ: سَلْ وَإِنْ شَرَحْتَهَا فِلي، وَإِنْ أَمْسَكْتَهَا فِلي، فَصَحَّ نَظْرُكَ، وَتَبَّتْ فِي مَسْأَلَتِكَ، وَأَضْعُ إِلَى جَوَابِهَا سَمْعَكَ، وَلَا تَسْأَلْ مَسْأَلَةً تَغْنِيَتْ، وَاعْتَنِ بِمَا تَعْنِي بِهِ، فَإِنَّ الْعَالِمَ وَالْمُتَعَلِّمَ شَرِيكَانِ فِي الرُّشْدِ، مَأْمُورانِ بِالنَّصِيحَةِ، مَنْهِيَانِ عَنِ الْغِشِّ.

وَأَمَّا الَّذِي اخْتَلَجَ فِي صَدْرِكَ، فَإِنْ شَاءَ الْعَالِمُ أَنْبَأَكَ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُظْهِرْ عَلَى عَيْنِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ، فَكُلُّ مَا كَانَ عِنْدَ الرَّسُولِ، كَانَ عِنْدَ الْعَالِمِ، وَكُلُّ مَا أَطْلَعَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ، فَقَدْ أَطْلَعَ أَوْصِيَاؤُهُ عَلَيْهِ، كَيْلَا تَخْلُو أَرْضُهُ مِنْ حُجَّةٍ، يَكُونُ مَعَهُ عِلْمٌ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَقَالَتِهِ، وَجَوَازِ عَدَالَتِهِ.

يَا فَتْحُ؛ عَسَى الشَّيْطَانُ أَرَادَ اللَّبْسَ عَلَيْكَ، فَأَوْهَمَكَ فِي بَعْضِ مَا أَوْدَعْتُكَ، وَشَكَّكَ فِي بَعْضِ مَا أَنْبَأْتُكَ، حَتَّى أَرَادَ إِزَالَتَكَ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ، وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ؟ (فَقُلْتُ: مَتَى أَيْقَنْتَ أَنَّهُمْ كَذَبُوا فَهُمْ أَرْبَابٌ). مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ مُطِيعُونَ لِلَّهِ، دَاخِرُونَ رَاغِبُونَ، فَإِذَا جَاءَكَ الشَّيْطَانُ مِنْ قِبَلِ مَا جَاءَكَ، فَاقْمَعْهُ بِمَا أَنْبَأْتُكَ بِهِ.

فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، فَرَجَّتْ عَنِّي، وَكَشَفْتَ مَا لَبَسَ الْمَلْعُونُ عَلَيَّ بِشَرِّكَ، فَقَدْ كَانَ أَوْقَعَ فِي خُلْدِي، أَنْكُمْ أَرْبَابٌ.

قَالَ: فَسَجَدَ أَبُو الْحَسَنِ ﷺ، وَهُوَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: رَاغِبًا لَكَ يَا خَالِقِي، دَاخِرًا خَاضِعًا.

قَالَ: فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى ذَهَبَ لَيْلِي.

ثُمَّ قَالَ: يَا فَتْحُ؛ كِدْتَ أَنْ تَهْلِكَ، وَتُهْلِكَ، وَمَا ضَرَّ عَيْسَى ﷺ إِذَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ، انْصَرَفَ إِذَا شِئْتَ رَحِمَكَ اللَّهُ.

قَالَ: فَخَرَجْتُ وَأَنَا فَرِحٌ بِمَا كَشَفَ اللَّهُ عَنِّي مِنَ اللَّبْسِ بِأَنَّهُمْ هُمْ، وَحَدَّثُ اللَّهَ عَلَى مَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا كَانَ فِي الْمَنْزِلِ الْآخِرِ، دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُتَكِيٌّ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ حِنْطَةٌ مَقْلُوءَةٌ،

يَعْبَثُ بِهَا، وَقَدْ كَانَ أَوْقَعَ الشَّيْطَانُ فِي خَلْدِي، أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا، إِذْ كَانَ ذَلِكَ آفَةً، وَالْإِمَامُ غَيْرُ ذِي آفَةٍ.

فَقَالَ عليه السلام: اجْلِسْ يَا فَتْحُ، فَإِنَّ لَنَا بِالرُّسُلِ أُسُوءَةً، كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَكُلُّ جِسْمٍ مَغْدُودٌ بِهَذَا، إِلَّا الْخَالِقَ الرَّازِقَ، لِأَنَّهُ جَسَمَ الْأَجْسَامِ، وَهُوَ لَمْ يُجَسَّمْ، وَلَمْ يُجْزَأْ بِنَاهٍ، وَلَمْ يَتَزَايِدْ، وَلَمْ يَتَنَاقِصْ، مُبَرَّأً مِنْ ذَاتِهِ، مَا رُكِّبَ فِي ذَاتٍ مِنْ جَسَمِهِ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، مُنْشِئُ الْأَشْيَاءِ، مُجَسِّمُ الْأَجْسَامِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ، عُلُوًّا كَبِيرًا.

لَوْ كَانَ كَمَا يُوصَفُ، لَمْ يُعْرِفِ الرَّبُّ مِنَ الْمَرْبُوبِ، وَلَا الْخَالِقُ مِنَ الْمَخْلُوقِ، وَلَا الْمُنْشِئُ مِنَ الْمُنْشَأِ، لَكِنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ جَسَمَهُ، وَشَيْئاً الْأَشْيَاءِ، إِذْ كَانَ لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ، يُرَى وَلَا يُشَبِّهُهُ شَيْئًا^(١).

— ﴿ صِفْوُ الْكَلَامِ ﴾ —

* في عهد إمامة الإمام الهادي عليه السلام كانت الحركة الرسالية قد فرضت نفسها على الأحداث بشكل مباشر. وكان الإمام يعين الوكلاء ويتصرف وكأنه دولة في داخل دولة. وقد امتد تأثير الإمام إلى كبار رجال البلاط العباسي، الأمر الذي مكّن الإمام من الاطلاع على الخطط المضادة للحركة الرسالية.

* وفي فترة إمامته قام الإمام بمهمتين أساسيتين هما: قيادة الحركة الرسالية، والتصدي للتيارات الفكرية المنحرفة.



١٩ واقع الحركة الرسالية في عهد الإمام الهادي عليه السلام

ولكي تتوضح الصورة أكثر فأكثر حول ما قدمه الإمام الهادي عليه السلام للأمة الإسلامية، نطلع على وضع الثورة والتحركات التي صاحبت عهده. حيث إن فترة إمامته عليه السلام كانت من الفترات الطويلة، ومن ثم كانت هنالك ثورات عديدة فجرتها الحركة الرسالية، وقد بدأت بمحمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب^(١).

وكان محمد بن صالح من شجعان آل أبي طالب، كما كان من طرفائهم وشعرائهم، وكان قد ثار في سويقة^(٢)، وخرجت معه جموع الناس، وفي تلك السنة التي ثار فيها كان أمير الحاج من قبل السلطات العباسية، أبو الساج، فسُعي عنده بمحمد بن صالح، وكان الذي سعى به، عمُّه موسى بن عبد الله، الذي أفضى بخبر الحركة، الأمر الذي مكَّن أبا الساج من قائدتها الذي اقتيد خدعة ومن ثم حمل إلى المتوكل العباسي الذي سجنه، ثم أطلق سراحه بعد عدة سنوات وبقي في سامراء إلى أن تُوفي^(٣).

(١) أبو عبد الله، من مفاخر بيت النبوة، صاحب فضيلة علمية وأدبية، كان ظريفاً حلوا المعاشرة، شاعر الحجاز. ومن فتیان آل أبي طالب وشجعانهم وشعرائهم. مقاتل الطالبين، ص ٤٨٠. الأغاني، ج ١٦، ص ٥٠٩.

(٢) تصغير ساق، مواضع كثيرة في البلاد، وهي -في بلاد العرب- موضع قرب المدينة المنورة يسكنه آل علي بن أبي طالب عليه السلام، وهي منزل بني الحسن عليه السلام، وكانت من جملة صدقات علي بن أبي طالب عليه السلام. معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٨٦.

(٣) مقاتل الطالبين، ص ٤٨٠.

ومَن ثار في تلك السنين الحسن بن زيد^(١)، ومعه محمد بن إسماعيل بن زيد^(٢)، حيث ثارا في طبرستان ونواحي الديلم، فغلبوا السلطات العباسية هناك^(٣)، ولعل هذه الثورة هي الثورة الوحيدة التي انتصرت في تلك الفترة. كما ثار محمد بن جعفر بن الحسن^(٤) بالري إلا أنه لم يحقق انتصاراً، فحبسه عبد الله بن طاهر^(٥) بنিশابور حتى مات^(٦).

حياة أحمد بن عيسى

وكان أحمد بن عيسى^(٧) بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام قد توارى عن

(١) المعروف بالحسن العلوي [ت: ٢٧٠هـ]، وهو: الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل الحسني، مؤسس الدولة العلوية في طبرستان. كان فاضل السيرة، حسن التدبير، مرهوب الجانب حازماً مهيباً. كان يسكن الري فحدث فتنة بين صاحب خراسان وأهل طبرستان (سنة ٢٥٠هـ) فكتب إليه هؤلاء يبايعونه. فجاءهم وزحف بهم على آمد (ديار بكر) فاستولى عليها وكثر جمعه، فقصد سارية (بقر جرجان) فملكها بعد قتال عنيف، ووجّه جيشاً إلى الري فملكها -وذلك في أيام المستعين العباسي- ودامت إمرته مدة عشرين عامًا. الأعلام، ج ٢، ص ١٩٢.

(٢) محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل الحسني، [ت: ٢٨٧هـ]، كان شجاعاً، فاضلاً في أخلاقه، عارفاً بالأدب والشعر والتاريخ. صاحب طبرستان والديلم. ولي الإمارة بعد وفاة أخيه الحسن بن زيد (سنة ٢٧٠هـ) وكانت في أيامه حروب وفتن، وطالت مدته. أصابته جراحات في واقعة له مع محمد بن هارون، من أشياع إسماعيل الساماني، على باب جرجان فمات من تأثيرها. الأعلام، ج ٦، ص ١٣٢.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢٧٣-٢٧٥. الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ١٣١-١٣٣. مروج الذهب، ج ٤، ص ٦٨.

(٤) محمد بن جعفر بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين العلوي الطالبي، خرج سنة ٢٥٠هـ يدعو إلى الحسن بن زيد.

(٥) محمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي [٢٠٩-٢٥٣هـ]، أبو العباس، أمير، حازم، من الشجعان، ولي نيابة بغداد في أيام المتوكل العباسي، وتوفي بها. الأعلام، ج ٦، ص ٢٢٢.

(٦) مروج الذهب، ج ٤، ص ٦٩. مقاتل الطالبين، ص ٤٩٠. تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢٧٥. الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ١٣٣.

(٧) أبو عبد الله الحسيني العلوي الطالبي [١٥٧-٢٤٧هـ]، فاضلاً عالماً بالدين والحديث، مقدماً في أهله معروفاً، ومن زعماء الزيدية في العصر العباسي. الأعلام، ج ١، ص ١٩١.

الأنظار بعد هروبه من سجن هارون العباسي، فأمر هارون بتفتيش كل دار يتهم صاحبها بالرسالية بحثاً عنه، ولكنه كان قد توارى في بغداد مدة ثم انتقل منها إلى أماكن عديدة^(١).

وقد كان لهارون الرشيد محاولات عديدة للقبض عليه، منها أنه دعا برجل من أصحابه يقال له: ابن الكردية، واسمه يحيى بن خالد، فقال له: «قد وليتك الضياع بالكوفة، فامض إليها وتولى العمل بها، وأظهر أنك تشيع، وفرّق الأموال في الشيعة حتى تقف على خبر أحمد بن عيسى.

فمضى ابن الكردية هذا، ففعل ما أمر به، وجعل يُفِيض الأموال في الشيعة ويُفَرِّقها عليهم ولا يسألهم عن شيء، حتى ذكروا له رجلاً منهم يقال له: أبو غسان الخزاعي فاطنبوا في وصفه، وأعرض عنهم ولم يكشفهم عنه، إلى أن ذكروه مرة أخرى فقال: وما فعل هذا الرجل؟. إننا إليه لمشتاقون. قالوا: هو مع أحمد بن عيسى بالبصرة.

فكتب بذلك إلى الرشيد فأمره بالرجوع إلى بغداد، ثم ولّاه البصرة مثل ما كان ولّاه بالكوفة، فمضى إليها، وكان مع أحمد بن عيسى بن زيد رجل من أصحاب يحيى بن عبد الله يقال له: حاضر، وكان ينقله من موضع إلى موضع.

وجاء ابن الكردية هذا إلى البصرة ففعل ما فعله بالكوفة، وجعل يُفَرِّق الأموال في الشيعة حتى ذكروا له حاضراً وأحمد بن عيسى، فتغافل عنهم، ثم أعادوا ذكره بعد ذلك، فتعرّض لهم بذكره ولم يستقصه، ثم عاودوه فقال لهم: إني أحب أن ألقى هذا الرجل.

فقالوا له: لا سبيل إلى ذلك.

قال: فاحملوا إليه ما لا يستعين به، وأعلموه أن لو قدرت على أن أعطيه جميع

مال السلطان لفعلت.

فأخذوا المال وحملوه إلى حاضر فقبله، وجعل ابن الكردية يتابع الأموال إلى حاضر بعضها ببعض حتى أنسوا به واطمأنوا إليه.

فقال لهم يوماً: ألا يجيئنا هذا الشيخ؟.

فقالوا له: لا يمكن ذلك.

قال: فليأذن لنا نأته نحن.

قالوا: نسأله ذلك.

فأتوه وسألوه إياه. فقال: لا والله لا آذن له أبداً، ويحكم ألا تنتهون؟. هذا والله محتال!.

فقالوا له: لا والله ما هو بمحتال.

فلم يزالوا به حتى أجابهم إلى أن تلقاه. فلما كان الليل قال لأحمد بن عيسى: قم فاخرج إلى موضع آخر، فإن ابتليتُ سلمت أنت.

فخرج أحمد وبعث ابن الكردية إلى أحمد بن حرث الهلالي، وكان أمير البصرة يأمره أن يبعث بالرجال إليه ليهجموا عليه حيث يدخل، ومضى هو حتى أتى الدار، وبعث بغلامه حتى جاء معه بالرجال فهجموا على حاضر فأخذه.

فأتي به هارون الرشيد فقال له: هيه صاحب يحيى بن عبد الله بالحليل، عفوت عنك وأمنتك. ثم صرت تسعى عليّ مع أحمد بن عيسى، تنقله من مصر إلى مصر، ومن دار إلى دار، كما تنقل السنور أولادها، والله لتجيئني به أو لأقتلك.

قال: يا أمير المؤمنين؛ بلغك عني غير الحق.

قال: والله لتأتيني به أو لأضربن عنقك.

قال: إذا أخاصمك بين يدي الله.

قال: والله لتجيئنني به، أو لأقتلنك، وإلا فأنا نفي من المهدي.

قال: والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها لك عنه، أنا أجيئك بابن رسول الله ﷺ حتى تقتله؟، إفعل ما بدا لك!.

فأمر هرثمة فضربت عنقه^(١).

فاستشهد، فكانت هذه نماذج من الأفراد الذين بات أحمد بن عيسى يُربيهما حتى مات. وما اكتفت السلطات بذلك بل أقدمت على محاولة أخرى للقبض على أحمد، عندما علمت أنه في الأهواز فدبرت رجلاً يذهب ليُقنعه -بعد أن يظهر له أنه من مواليه- بالذهاب إلى مصر وأفريقيا، وذلك لأن العمل الرسالي مطلوب هناك إضافة إلى أن العمل في مصر بعيد عن عيون السلطات العباسية.

وكان إرسال النظام العباسي رجلاً واحداً فقط، لأنه يعرف لو أنه أرسل إلى أحمد جيشاً، فإن خبر ذلك يصل إلى أحمد قبل أن يتحرك الجيش خطوة تجاه الأهواز، فرأى النظام العباسي أن أفضل طريقة هي طريقة الرجل الذي يظهر رسالته لأحمد بن عيسى.

جاء في مقاتل الطالبين: «أن رجلاً رفع إلى صاحب البريد بأصبهان، أن أحمد بن عيسى وحاضراً بالبصرة، وكور الأهواز يترددان، فكتب الرشيد في حملهما والقُدوم بهما عليه، وكتب إلى أبي السّاج وهو على البحرين وإلى خالد بن الأزهر، وهو على الأهواز، وإلى خالد طرشت، وكان على بريد طريق السند، بالسمع والطاعة لصاحب بريد أصفهان، وأمر له بثلاثين ألف، وأمره بالمصير إلى هذه النواحي، وطلب أحمد بن عيسى.

فورد الأهواز، وأظهر أنه يطلب الزنادقة، وكان الذي أتاه بالخبر رجل بربري

كان أحمد بن عيسى يأنس به، فلما قدم هذا الرجل وكان يعرف بعيسى الرواوزدي، أتى ذلك البربري أحمد بن عيسى، كما كان يأتيه. فوصف له عيسى هذا وقال له: إنه من شيعتك ومن حاله ومن قصته. فأذن فدخل إليه وهو جالس، ومعه ابن إدريس بن عبدالله، وكاتب كان لإبراهيم بن عبدالله، فبدأ بأحمد بن عيسى وابن إدريس فقبل أيديهما، وجلس معهما وأنسهما، وجعل يرسل إليهما بالهدايا والكسوة، واشترى لهما وصيفتين، فاطمأنا إليه وأكلا من طعامه وشربا من شرابه، فلما وقعت الثقة. قال لهما: هذا بلد ضيق ولا خير فيه، فهلما معي حتى أوافي بكما مصر وأفريقية، فإن أهلها يخفون معي ويطيعونني.

قالوا: وكيف تأخذ بنا؟.

قال: أجلسكم الماء إلى واسط، ثم آخذ بكم على طريق الكوفة، ثم على الفرات إلى الشام.

فأجابوه فأجلسهم في السفينة، وصير معهم أعوان أبي الساج أمناء عليهم ومضوا، ولما كان في بعض الطريق، قال لهم: أتقدمكم إلى واسط لإصلاح بعض ما نحتاج إليه من سفرنا من كراء أو غيره.

ومضى هو والبربري فركبا دواب البريد وأوصى الموكلين بهما ألا يعلمونهم بشيء، ولا يؤهمونهم أنهم من أصحاب السلطان، وأن يحتاجوا عليهم ما قدروا، ففعلوا ذلك ومضوا، ولما كانوا ببعض الطريق حبسهم أصحاب الصدقة، وقالوا: لا تجوزوا.

فصاح بهم الموكلون: نحن من أصحاب أبي الساج وأعوانه، جئنا في أمر مهم، فخلوا عنهم.

وانتبه أحمد بن عيسى وأصحابه لذلك، فلما جاوزوا قليلاً، قال لهم أحمد بن عيسى: أقدموا إلى الشط لنصلي.

فقدم الملاحون، وخرجوا، فتفرقوا بين النخل وتسترأوا بها وابتعدوا عن أعين الموكلين. والموكلون في الزورق لا يؤمّونهم أنهم معهم، فلما بعدوا عن أعينهم جعلوا يحضرون على أقدامهم حتى فاتوهم هرباً وابتعدوا عنهم. وطال انتظار الموكلين بهم، فلم يعرفوا خبرهم وما الذي أبطأ بهم، فخرجوا يطلبونهم، فلم يجدوهم، وتبعوا آثارهم وجدّوا في أمرهم، فلم يقدروا عليهم، فرجعوا إلى الزورق خائبين حتى أتوا واسط، وقد قدمها عيسى صاحب بريد أصبهان الذي دبر على القوم ما دبر، وقد وجّه معه الرشيد ثلاثين رجلاً ليتسلم أحمد، فأخبروه ما كان، فقال: لا والله، ولكن ارتشيتم وصانعتم وداهنتم.

وقدم بهم على الرشيد فضر بهم بالسياط ضرباً مبرحاً، وحبسهم جميعاً في المطبق، وغضب على أبي السّاج دهرأ حتى سأله فيه أخوه الرشيد ف رضي عنه بعد أن كان قد همّ به ومضى أحمد بن عيسى وأصحابه فرجعوا إلى البصرة، فلم يزالوا مقيمين حتى مات أحمد بن عيسى، وذلك في سنة سبع وأربعين ومائتين^(١).

حياة عبد الله بن موسى

وكان ممّن تواروا أيضاً عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام منذ خلافة المأمون. يقول صاحب المقاتل: «فكتب إليه بعد وفاة الرضا عليه السلام يدعوّه إلى الظهور ليجعله مكانه ويبيع له، واعتدّ عليه بعفوه عمّن عفا من أهله، وما أشبه هذا من القول.

فأجابه عبدالله بن موسى فيها: «فبأي شيء تغرّني؟ ما فعلته بأبي الحسن عليه السلام بالعنب الذي أطعمته أياه فقتلته.

والله ما يُقعدني عن ذلك خوف من الموت ولا كراهة له، ولكن لا أجد لي فسحة في تسليطك على نفسي، ولولا ذلك لأتيتك حتى تُريحني من هذه الدنيا الكدرة.

ويقول فيها: هبني لا تأرلي عندك وعند آبائك المستحلين لدمائنا، الآخذين حقنا، الذين جاهرُوا في أمرنا فحذرناهم، وكنت أطف حيلة منهم بما استعملته من الرضا بنا والتستر لمحننا، تحتل واحداً فواحداً منا، ولكني كنتُ امرأ حُبِّ إليَّ الجهاد، كما حُبَّ إلى كل امرئ بغيته، فشحذت سيفي، وركبت سنانِي على رمحي، واستقرهت^(١) فرسي. لم أدرِ أيَّ العدوِّ أشدَّ ضرراً على الإسلام، فعلمت أن كتاب الله يجمع كل شيء، فقرأته فإذا فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾^(٢).

فلم أدرِ من يلينا منهم، فأعدت النظر، فوجدته يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾^(٣). فعلمت أن عليَّ أن أبدأ بما قرب مني. وتدبرْتُ فإذا أنت أضرتُ على الإسلام والمسلمين من كل عدوِّهم، لأن الكفار خرجوا منه، وخالفوه فحذرهم الناس وقاتلوهم، وأنت دخلت فيه ظاهراً فأمسك الناس وطفقت تنقض عراه، عروة عروة، فأنت أشدَّ أعداء الإسلام ضرراً عليه^(٤).

وروى جعفر بن محمد الوراق الكوفي، قال: حدثني عبدالله بن علي بن عبيدالله العلوي عن أبيه، قال: «كتب المأمون إلى عبد الله بن موسى وهو متوارٍ يُعطيه الأمان ويضمن له أن يُولى العهد بعده، كما فعل بعلي بن موسى عليه السلام، يقول: ما ظننت أن أحداً من آل أبي طالب يخافني بعدما عملته بالرضا». وبعث الكتاب إليه.

فكتب إليه عبدالله بن موسى: «وصل كتابك وفهمته، تختلني فيه عن نفسي

(١) قَرِهَ جِلْدَهُ قَرَاهَا: تَقَشَّرَ أَوْ اسْوَدَّ مِنْ شِدَّةِ الضَّرْبِ. (لسان العرب، مادة قره). واستقرهت أي شددت الضرب أكثر فأكثر على ظهر الفرس فصار أسوداً من كثرة الضرب، تحفيزاً لها لِلْعَدُوِّ بسرعة أكثر.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٣.

(٣) سورة المجادلة، آية: ٢٢.

(٤) مقاتل الطالبين، ص ٤٩٨-٤٩٩.

ختل القانص، وتحتال عليّ حيلة المغتال القاصد لسفك دمي.

وعجبت من بَذْلِكَ العهد وولايته لي بعدك، كأنك تظن أنه لم يبلغني ما فعلته بالرضا عليه السلام، ففي أي شيء ظننت أني أرغب من ذلك؟.

أفي المُلْك الذي قد غرتك نظرتة وحلاوته؟. فوالله لأن أقذف وأنا حيّ في نار تتأجج أحب إليّ من أن ألي أمرًا بين المسلمين، أو أشرب شربة من غير حلها مع عطش شديد قاتل.

أم في العنب المسموم الذي قتلت به الرضا عليه السلام؟.

أم ظننت أن الاستتار قد أملّني وضاق به صدري، فوالله إني لكَذَلِكَ، ولقد مللت الحياة وأبغضت الدنيا، ولو وسعني في ديني أن أضع يدي في يدك حتى تبلغ من قلبي مرادك لفعلت ذلك. ولكن الله قد حظر عليّ المخاطرة بدمي، وليتك قدرت عليّ من غير أن أبذل نفسي لك فقتلتني، ولقيت الله - عز وجل - بدمي ولقيته قتيلاً مظلوماً، فاسترحت من هذه الدنيا.

واعلم أني رجل طالب النجاة لنفسي، واجتهدت فيما يرضي الله عز وجل عني، وفي عمل أنقرب به إليه، فلم أجد رأيًا يهدي إلى شيء من ذلك، فرجعت إلى القرآن الذي فيه الهدى والشفاء، فتصفّحته سورة سورة، وآية آية، فلم أجد شيئاً أزلف للمرء عند ربه جل وعز من الشهادة في طلب مرضاته.

ثم تتبّعته ثانية أتأمل الجهاد، أيّه أفضل ولأي صنف، فوجدته جل وعلا يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾^(١). فطلبت أيّ الكفّار أضر على الإسلام، وأقرب من موضعي، فلم أجد أضر على الإسلام منك، لأن الكفّار أظهروا كفرهم، فاستبصر الناس في أمرهم، وعرفوهم فخافوهم.

وأنت ختلت المسلمين بالإسلام، وأسرت الكفر، فقتلت بالظنّة وعاقبت

بالتُّهمة، وأخذت مال الله من غير حله، فأنفقته في غير محله، وشربت الخمر المحرمة صراحاً، وأنفقت مال الله على الملهيّن، وأعطيته المغنين، ومنعته من حقوق المسلمين، فغششت بالإسلام، وأحطت بأقطاره إحاطة أهله، وحكمت فيه للمشرك، وخالفت الله ورسوله في ذلك خلافة المضاد المعاند، فإن يسعدني الدهر، ويعينني الله عليك بأنصار الحق، أبذل نفسي في جهادك، بذلاً يُرضيه مني، وإن يُمهلك ويؤخّر ليخزيك بما تستحقه في منقلبك، أو تحترمني الأيام قبل ذلك، فحسبي من سعيي ما يعلمه الله عز وجل من نيتي. والسلام»^(١).

ولم يزل عبدالله متوارياً إلى أن مات في أيام المتوكل، فقد رُوي عن محمد بن سليمان الزينبي أنه قال: «نُعي عبدالله بن موسى إلى المتوكل صباح أربع عشرة ليلة من يوم مات. ونُعي له أحمد بن عيسى فاغتبط بوفاتهما وسُرّ، وكان يخافهما خوفاً شديداً، ويحذر حركتهما، لما يعلمه من فضلها، واستنصار الشيعة الزيدية بهما، وطاعتها لهما، لو أرادوا الخروج عليه، فلما ماتا آمن وأطمأن، فما لبث بعدهما إلا أسبوعاً حتى قتل»^(٢).

كما تقدّم سابقاً عند الحديث عن زيد بن زين العابدين عليه السلام أنه كان من أولاده الحسين ذو الدمعة، الذي تربّى وتفقه على يد الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وأن الحسين ذا الدمعة كان له حفيد يُدعى (يحيى بن عمر بن الحسين ذي الدمعة)، وأن الأخير حكم الكوفة، ونُشير هنا إلى أن أحداث ثورة يحيى بن عمر بن الحسين ذي الدمعة كانت في خلافة المتوكل إلى خلافة المستعين العباسي، حيث كان يحيى قد قام بانتفاضة في أيام المتوكل في خراسان، فهُزِم من قبل عبد الله بن طاهر، فأمر المتوكل بتسليمه إلى عمر بن الفرج الرخجي فسُلّم إليه، فكلّمه بكلام فيه بعض الغلظة فردّ عليه يحيى وشتمه، فشكا ذلك إلى المتوكل فأمر به فُضِرَ درراً وُضِرَ ثمانية عشر مفرقة، ثم حبسه ببغداد في المطبق، فمكث على ذلك مدة، ثم أطلق

(١) مقال الطالبين، ص ٤٩٩-٥٠٠.

(٢) مقال الطالبين، ص ٥٠١.

فمضى إلى بغداد فلم يزل بها حيناً حتى قام بالثورة في الكوفة، فدعا إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام، وأظهر العدل وحسن السيرة إلى أن قُتِل رضوان الله عليه، وكان عليه السلام رجلاً فارساً شجاعاً، شديد البدن، مجتمّع القلب، بعيداً من رهب الشباب وما يُعاب به مثله.

واستمر الوضع إلى استشهاد الإمام الهادي عليه السلام حيث حدث ما يزيد على عشرين تحركاً وانتفاضة في المناطق المختلفة، إلا أن من المهم أيضاً أن نعرف الآتي:

- كانت هذه الثورات والانتفاضات وليدة خلافة المتوكل العباسي الذي كان مشهوراً بسفك دماء المجاهدين والثوار.

فبعد أن كان وضع الحركة الرسالية أكثر انفتاحاً، أي إن القضايا السرية كانت قد خفّت حدتها، فأصبح كثير من رؤوس الحركة على السطح البارز العلني، فلما تولى المتوكل الخلافة شرع منذ اللحظة الأولى في سياسة الإرهاب والعنف، وجاء ليقلب المعادلة رأساً على عقب، ويضرب الحركة بقوة، فتفرّقت أجنحة الحركة الرسالية بالخصوص الأجنحة المختصة بالعمل السياسي العسكري وهذا ما يؤكّده المؤرخون حيث يقول صاحب المقاتل: «وكان المتوكل شديد الوطأة على آل أبي طالب، غليظاً على جماعتهم مهتماً بأمرهم، شديد الغيظ والحقد عليهم، وسوء الظن والتُّهمة لهم، وأتفق له أن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزيره يسيء الرأي فيهم، فحسّن له القبيح في معاملتهم، فبلغ فيهم ما لم يبلغه أحد من خلفاء بني العباس قبله، وكان من ذلك أن كرب^(١) قبر الحسين عليه السلام وعفى آثاره، ووضع على سائر الطريق مسالِح له لا يجدون أحداً زاره إلا أتوه به فقتله أو أنهكه عقوبة»^(٢).

ويضيف أبو الفرج الأصفهاني: «بعث (المتوكل) برجل من أصحابه يقال له: الديزج، وكان يهودياً فأسلم، إلى قبر الحسين عليه السلام، وأمره بكرب قبره ومحوه

(١) الكرب: إثارة الأرض للزراع.

(٢) مقاتل الطالبين، ص ٤٧٨.

وإخرا ب كل ما حوله، فمضى لذلك وخرَّب ما حوله وهدم البناء، وكرب ما حوله نحو مائتي جريب، فلما بلغ إلى قبره ﷺ لم يتقدَّم إليه أحد، فأحضر قومًا من اليهود فكربوه، وأجرى الماء حوله، ووكل به مسالِح بين كل مسلحتين ميل، لا يزوره زائر إلَّا أخذه ووجهوا به إليه»^(١).

ويقول وهو يصف حالة العلويين في زمن المتوكل: «واستعمل على المدينة ومكة عمر بن الفرج الرخجي، فمَنع آل أبي طالب من التعرُّض لمسألة الناس، ومنع الناس من البر بهم، وكان لا يبلغه أن أحدًا أبرَّ منهم بشيء (من العلويين) وإن قلَّ إلَّا أنهكه عقوبة، وأثقله غُرْمًا، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يُصلين فيه واحدة بعد واحدة، ثم يرقعنه..»^(٢).

إن الثورات والانتفاضات الكبيرة التي كانت الحركة الرسالية تقوم بها، كانت - إلى جانب ردع السلطة - تُعطي الأمة روح الصمود والثبات والاستقامة، وإذا ما لاحظنا أصحاب هؤلاء الثورات مَنْ هم، نجد أن أكثرهم من صنع الإمام الهادي ﷺ وتربيته. كان هذا وجه آخر لا أخير، من وجوه قيادة الإمام للأمة وللحركة، وتبقى وجوه ندعها للزمن لعله يكشفها.

(١) مقاتل الطالبيين، ص ٤٧٩.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص ٤٧٩. وإلى ذلك تُشير كتب التاريخ: الفخري، ص ٢١٣. الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٥٦. تاريخ أبي الفداء، ج ٢، ص ٣٨.

— ﴿ صِفْوُ الْكَلَامِ ﴾ —

* شهدت فترة إمامة الإمام الهادي عليه السلام - وهي من الفترات الطويلة - ثورات وانتفاضات عديدة فجّرتها الحركة الرسالية تجاوزت العشرين ثورة وانتفاضة قادها رجال علويون من أبناء الإمام الحسن والإمام السجاد عليهما السلام، وكان أكثرهم من صنع وتربية الإمام الهادي، وكانت هذه الثورات والانتفاضات تُعطي الأمة روح الصمود والثبات والاستقامة.





الباب الرابع، مسيرة الحركة الرسالية في العهد القباسي

الفصل الخامس : الحركة الرسالية في عهد الإمام العسكري عليه السلام

الإمام العسكري عليه السلام وقادة الأمة
واقع الحركة الرسالية في عهد الإمام العسكري عليه السلام



١٩ الإمام العسكري عليه السلام وقيادة الأمة

استشهد الإمام الهادي عليه السلام مسموماً، وقد سمّه: المعتمد العباسي^(١)، أو المعتز العباسي^(٢)، إذ ثبت أن استشهاده كان في ٢٥٤ هـ. وبعد استشهاد الإمام الهادي عليه السلام أصبحت الإمامة على عاتق الإمام أبي محمد الحسن العسكري. وقد ولد عليه السلام في ربيع الآخر عام ٢٣١ هـ^(٣)، أو ٢٣٢ هـ^(٤)، واستشهد في سامراء لثمان خلون من ربيع الأول على الأشهر عام ٢٦٠ هـ، وكانت أيام إمامته ست سنين^(٥).

الإمام العسكري وتحديد ملامح القيادة

لقد تميّزت الأحاديث التي تدور حول القيادة بأن الكثير منها روي عن

(١) قاله ابن بابويه، والكفعمي كما نقل عنهما صاحب البحار، ج ٥٠، ص ٣٣٥؛ وأيضاً: في المناقب، ج ٤، ص ٤٠٠.

(٢) قال الطبرسي في إعلام الوري، ص ٣٥٥: «ثم ملك المعتز ثمانين سنة أشهر وفي آخر ملكه استشهد ولي الله علي بن محمد». ومثله في الفصول المهمة، ج ٢، ص ١٠٧٥. والطبري في دلائل الإمامة، ص ٢١٦. والأربلي في كشف الغمة، ج ٢، ص ٣٩٧. وقال في الأنساب، ج ٩، ص ٣٠٣: «إلى أن توفّي بها - سامراء - في أيام المعتز».

(٣) تاريخ مواليد الأئمة، ص ٤٣. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٩٤.

(٤) كما في بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٣٦-٢٣٨، نقلاً عن: المناقب لابن شهر آشوب، والدلائل للحميري، وإعلام الوري، والكافي، ومصباح الكفعمي.

(٥) وهو ما عليه أكثر المؤرخين، وكانت ولادته في المدينة المنورة. الكافي، ج ١، ص ٥٠٣. الإرشاد، ج ٢، ص ٣١٣، و٣٣٦. إعلام الوري، ص ٣٦٧.

الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام، فهل الصدفة هي منشأ هذه الميزة؟.

بالطبع لا، فكل شيء بميزان وبحكمة، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الرسالة كانت لها ثلاث مراحل متميزة. فهذه الميزة التي أفرد بها الإسلام الإمام الحسن العسكري عليه السلام كانت تعني أن الحركة الرسالية قد استعدت للوقوف على رجليها، خاصة وأن هذه الأحاديث هي حول القيادة فيما بعد الأئمة، أي في زمن الغيبة.

وهنا تبرز أهمية هذا العمل الذي قام به الإمام العسكري عليه السلام، حيث إنه لم يكن مجرد إلقاء الحديث على مجموعة من ثقات الحركة الرسالية، بل هو هداية هؤلاء القادة إلى هذه التشريعات، ومن ثم تأتي الوظائف التابعة لهذه العملية وهي وظيفة المحافظة على الأحاديث، والتفرع من الأصول، وتربية الفقهاء لهذا العصر، وسائر الأعمال المتشابهة عند الأئمة الأواخر عليهم السلام.

كما كان للإمام عليه السلام دور نستطيع أن نلاحظه من خلال الروايات التالية:

روى القاسم الهروي قال: «خَرَجَ تَوْقِيعٌ مِنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام إِلَى بَعْضِ بَنِي أَسْبَاطٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَيْهِ أَخْبِرُهُ عَنِ اخْتِلَافِ الْمَوَالِي وَأَسْأَلُهُ إِظْهَارَ دَلِيلٍ. فَكَتَبَ إِلَيَّ عليه السلام: وَإِنَّمَا خَاطَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَاقِلَ لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي بِأَيَّةٍ، أَوْ يَظْهَرُ دَلِيلًا أَكْثَرَ مِمَّا جَاءَ بِهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، فَقَالُوا: سَاحِرٌ، وَكَاهِنٌ، وَكَذَّابٌ، وَهَدَى اللَّهُ مَنْ اهْتَدَى، غَيْرَ أَنَّ الْأَدِلَّةَ يَسْكُنُ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْذُنُ لَنَا فَنَتَكَلَّمُ وَيَمْنَعُ فَنَصْمُتُ. وَلَوْ أَحَبَّ أَلَّا يَظْهَرَ حَقًّا مَا بَعَثَ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَصَدَّعُوا بِالْحَقِّ فِي حَالِ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ وَيَنْطِقُونَ فِي أَوْقَاتٍ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرَهُ وَيُنْفِذَ حُكْمَهُ.

النَّاسُ فِي طَبَقَاتٍ شَتَّى، وَالْمُسْتَبْصِرُ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ مَتَمَسِّكٌ بِالْحَقِّ مُتَعَلِّقٌ بِفَرْعٍ أَصِيلٍ، غَيْرُ شَاكٍّ وَلَا مُرْتَابٍ، لَا يَجِدُ عَنْهُ مَلْجَأً. وَطَبَقَةٌ لَمْ تَأْخُذِ الْحَقَّ مِنْ أَهْلِهِ، فَهُمْ كَرَائِبِ الْبَحْرِ يَمُوجُ عِنْدَ مَوْجِهِ، وَيَسْكُنُ عِنْدَ سُكُونِهِ. وَطَبَقَةٌ اسْتَحْوَذَ

عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ»^(١)، شَأْنُهُمُ الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ، وَدَفْعُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾^(٢)، فَدَعُ مَنْ ذَهَبَ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَالْزَاعِي إِذَا أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ غَنَمَهُ جَمْعَهَا فِي أَهْوَنِ السَّغْيِ.

ذَكَرَتْ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ مَوَالِي فَإِذَا كَانَتْ الْوَصِيَّةُ وَالْكِبْرُ فَلَا رَيْبَ، وَمَنْ جَلَسَ مَجَالِسَ الْحُكْمِ فَهُوَ أَوَّلَى بِالْحُكْمِ، أَحْسَنُ رِعَايَةٍ مَنْ اسْتَرْعَيْتَ، وَلِيَّاسَاك وَالْإِدَاعَةَ، وَطَلَبَ الرَّئَاسَةَ، فَإِنَّهَا يَدْعُوَانِ إِلَى الْهَلَكَةِ. ذَكَرَتْ سُحُوصَكَ إِلَى فَارِسٍ فَاشْحَظْ حَارَ اللَّهِ لَكَ، وَتَدْخُلْ مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنًا. وَأَقْرَأُ مَنْ يَثْبِقُ بِهِ مِنْ مَوَالِي السَّلَامِ، وَمُرُّهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ الْمَذْيَعِ عَلَيْنَا، حَرْبٌ لَنَا.

قَالَ: فَلَمَّا قَرَأْتُ، وَتَدْخُلْ مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ أَعْرِفْ مَعْنَى ذَلِكَ، فَقَدِمْتُ إِلَى بَعْدَادَ وَعَزِيْمَتِي الْخُرُوجُ إِلَى فَارِسَ، فَلَمْ يَتَهَيَّأْ ذَلِكَ فَخَرَجْتُ إِلَى مِصْرَ»^(٣).

وروى القاسم الهروي قال: «كَتَبَ إِلَيَّ أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام فِتْنَةً تُظِلُّكُمْ فَكُونُوا عَلَى أَهْبَةِ.

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَقَعَ بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ، وَكَانَتْ لَهُمْ هَنَّةٌ لَهَا شَأْنٌ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ أَهْيَ هَذِهِ؟ قَالَ عليه السلام: لَا، وَلَكِنْ غَيْرُ هَذِهِ، فَاحْتَرِسُوا.

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ، كَانَ مِنْ أَمْرِ الْمُعْتَزِّ مَا كَانَ»^(٤).

«كَتَبَ أَخِي مُحَمَّدٌ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام وَأَمَرَأْتُهُ حَامِلٌ مُقْرَبٌ، أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَهَا، وَيَرْزُقَهُ ذَكَرًا وَيُسَمِّيَهُ. فَكَتَبَ يَدْعُوَ اللَّهَ بِالصَّلَاحِ، وَيَقُولُ: رَزَقَكَ اللَّهُ ذَكَرًا سَوِيًّا، وَنِعْمَ الْاسْمُ مُحَمَّدٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ.

فَوَلَدَتْ اثْنَيْنِ فِي بَطْنٍ، أَحَدُهُمَا فِي رِجْلِهِ زَوَائِدٌ فِي أَصَابِعِهِ، وَالْآخَرُ سَوِيٌّ،

(١) سورة المجادلة، آية: ١٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٩.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٩٦. كشف الغمة، ج ٢، ص ٤١٦.

(٤) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٩٨. كشف الغمة، ج ٢، ص ٤١٧.

فَسَمَّى وَاحِدًا مُحَمَّدًا، وَالْآخَرَ صَاحِبَ الزَّوَائِدِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ^(١).

وعن جعفر بن محمد الفلانسِّي قال: «كَتَبْتُ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجُبَّارِ، وَكَانَ خَادِمًا يَسْأَلُهُ عَنْ مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ، وَسَأَلَهُ الدُّعَاءَ لِأَخِ خَرَجَ إِلَى إِزْمِينِيَّةَ يَجْلِبُ عَنْهَا، فَوَرَدَ الْجَوَابُ بِهَا سَأَلَ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَخَاهُ فِيهِ بَشْيَءٍ، فَوَرَدَ الْخَبْرُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ أَخَاهُ مَاتَ يَوْمَ كَتَبَ أَبُو مُحَمَّدٍ جَوَابَ الْمَسَائِلِ فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهُ لِأَنَّهُ عَلِمَ بِمَوْتِهِ»^(٢).

وعن أبي هاشم قال: «كَتَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ مَوَالِيهِ يَسْأَلُهُ أَنْ يُعَلِّمَهُ دُعَاءً، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عليه السلام أَنْ ادْعُ بِهَذَا الدُّعَاءَ: يَا أَسْمَعَ السَّامِعِينَ، وَيَا أَبْصَرَ الْمُبْصِرِينَ، يَا عَزَّ النَّاطِرِينَ، وَيَا أَسْرَعَ الْحَاسِبِينَ، وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَيَا أَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ. وَأَوْسِعْ لِي فِي رِزْقِي، وَمُدِّ لِي فِي عُمْرِي، وَامْنُنْ عَلَيَّ بِرَحْمَتِكَ، وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ تَنْتَصِرُ بِهِ لِدِينِكَ، وَلَا تَسْتَبْدِلْ بِي غَيْرِي.

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي فِي حِزْبِكَ، وَفِي زُمْرَتِكَ.

فَأَقْبَلَ عَلَيَّ أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام فَقَالَ: أَنْتَ فِي حِزْبِهِ، وَفِي زُمْرَتِهِ، إِذْ كُنْتَ بِاللَّهِ مُؤْمِنًا، وَلِرَسُولِهِ مُصَدِّقًا، وَلِأَوْلِيَائِهِ عَارِفًا، وَلَهُمْ تَابِعًا، فَأَبْشِرْ، ثُمَّ أَبْشِرْ»^(٣).

وعن محمد بن الحسن بن ميمون قال: «كَتَبْتُ إِلَيْهِ عليه السلام أَشْكُو الْفَقْرَ. ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: الْفَقْرُ مَعَنَا خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ غَيْرِنَا، وَالْقَتْلُ مَعَنَا خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ مَعَ عَدُوِّنَا؟ فَرَجَعَ الْجَوَابُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجْضِ أَوْلِيَائَنَا إِذَا تَكَاثَفَتْ ذُنُوبُهُمْ بِالْفَقْرِ، وَقَدْ يَغْفُو عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، كَمَا حَدَّثْتُكَ نَفْسُكَ: الْفَقْرُ مَعَنَا خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ عَدُوِّنَا، وَنَحْنُ كَهْفٌ لِمَنِ التَّجَا إِلَيْنَا، وَنُورٌ لِمَنِ اسْتَبْصَرَ بِنَا، وَعِصْمَةٌ لِمَنِ اعْتَصَمَ بِنَا، مَنْ أَحَبَّنَا كَانَ مَعَنَا فِي السَّنَامِ الْأَعْلَى، وَمَنْ انْحَرَفَ عَنَّا

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٩٨. كشف الغمة، ج ٢، ص ٤١٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٩٨. كشف الغمة، ج ٢، ص ٤١٨.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٩٨. كشف الغمة، ج ٢، ص ٤٢١.

فَالْيَ النَّارِ^(١).

هذه بعض يسير من الروايات التي تحكي عن سيرة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، حيث نشاهد جلياً أنه كان يقوم ببحث الأمة والاطليعة الرسالية على الاستقامة على خط الرسالة، والتعمق في الأمور التي بثها القادة الأوائل من الأئمة للحركة الرسالية. وهذا شيء يعادل مرحلة بث وتشريع هذه المسائل، حيث إن الاستقامة تُعادل الإنشاء. لقد بين عليه السلام في كثير من الأحاديث أن قليلاً من العمل الصالح يداوم الإنسان عليه، خير وأفضل من كثير لا يداوم عليه، وهذه حقيقة علمية ثابتة، فكيف إذا لم يكن الأمر من ناحية الاستقامة فقط بل في تعميق العمل وتحسين كفاءته.

وكان الإمام العسكري عليه السلام يقوم بأخطر مهمة لا تزال تُؤثر في العالم الإسلامي ككل، ألا وهي تحديد ملامح القيادة، وصلاحياتها، ومواصفاتها، ومسؤولياتها، وكافة التفاصيل المتعلقة بها^(٢)، إن هذا الأمر المحوري البالغ الأهمية لأي مجتمع، ليس بالشيء البسيط تربية الناس عليه ومن ثم تدريبهم على تطبيقه، فيجب أن تسبق كل خطوة في هذا الأمر حالة من الإيمان والوعي. ثم تأتي الخطوات التالية من تطبيق واستمرار وجوده. ولناخذ جانباً من هذه المسؤولية التي كان يقوم بها الإمام عليه السلام.

رُوي عن أبي هاشم أنه سأله عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن الله﴾^(٣).

قَالَ عليه السلام: «كُلُّهُمْ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ. الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ: الَّذِي لَا يَقْرُبُ الْإِمَامَ، وَالْمُقْتَصِدُ:

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٩٩. كشف الغمة، ج ٢، ص ٤٢١. المناقب، ج ٤، ص ٤٣٥.
 (٢) للتوسع في بحث مواصفات القيادة الإسلامية، يرجى مطالعة كتاب: القيادة الإسلامية، الصادر عام ١٣٩١ هـ، لمؤلفه العلامة جواد كاظم.
 (٣) سورة فاطر، آية: ٣٢.

الْعَارِفُ بِالْإِمَامِ، وَالسَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ: الْإِمَامُ.

فَجَعَلْتُ أَفْكَرُ فِي نَفْسِي، عِظَمَ مَا أَعْطَى اللَّهُ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبَكَيْتُ. فَنَظَرْتُ إِلَى
وَقَالَ ﷺ: الْأَمْرُ أَعْظَمُ مِمَّا حَدَّثْتُ بِهِ نَفْسَكَ، مِنْ عِظَمِ شَأْنِ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ،
فَأَحْمَدُ اللَّهِ أَنْ جَعَلَكَ مُتَمَسِّكًا بِحَبْلِهِمْ، تُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهِمْ، إِذَا دُعِيَ كُلُّ أَنْاسٍ
بِإِمَامِهِمْ، إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ^(١).

كان هذا هو العمل الذي تفرّد به الإمام العسكري ﷺ بالخصوص، وهو
رسم معالم القيادة الإسلامية وتربية الأمة على الطاعة لها.

(١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٥٨. الخرائج، ج ٢، ص ٦٨٧.

— ﴿ صِفْوَالِكَلَامِ ﴾ —

* إن فترة إمامة الإمام الحسن العسكري عليه السلام القصيرة
(ست سنوات) استثمرها الإمام في رسم معالم القيادة فيها
بعد الأئمة، وتربية الأمة على الطاعة لها والاستقامة على
خط الرسالة.



١٩ | واقع الحركة الرسالية في عهد الإمام العسكري عليه السلام

في عهد الإمام العسكري عليه السلام كانت هناك تموجات سياسية لم تكن بعيدة عن تيار الحركة الرسالية. والدليل على ذلك أن أي تحرك كان يطبع هويته ويعرض نفسه للجماهير على أساس أنه وليد الحركة الرسالية، حتى لا يكون ضد التيار العام، وهذا ما نشاهده في صاحب ثورة الزنج التي استمرت أربعة عشر عاماً من سنة ٢٥٥ إلى سنة ٢٧٠ هـ^(١). فقد كان يزعم صاحب الزنج^(٢) أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأنه هو الذي يُشار إليه في خطبة لأمير المؤمنين علي عليه السلام في أخبار الملاحم بالبصرة حيث يقول عليه السلام: «يَا أَخْتَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا لَجَبٌ، وَلَا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ، وَلَا حَمْحَمَةٌ خَيْلٍ، يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ، كَأَنَّهُمْ أَقْدَامُ النَّعَامِ...»^(٣).

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: «فأما صاحب الزنج هذا فإنه ظهر في فرات البصرة في سنة خمس وخمسين ومائتين.. فتبعه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ في

(١) أنظر: الفخري، ص ٣٦.

(٢) للوقوف على تفاصيل حركة صاحب الزنج، طالع: تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٤١٠. المنتظم، ج ١٢، ص ١٠٢. الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٢٠٥. الفخري، ص ٢٤٥. البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٨.

(٣) نهج البلاغة، من كلام له عليه السلام فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة. بشار الأنوار، ج ٤١، ص ٣٣٤. المناقب، ج ٢، ص ٢٧٢.

البصرة..»^(١). ثم ذكر أن جمهور النّسّابين اتّفقوا على أنه من عبد قيس وأنه علي بن محمد بن عبد الرحيم، وأمه أسدية من أسد بن خزيمة، جدها محمد بن حكيم الأسدي من أهل الكوفة أحد الثائرين مع زيد بن علي بن الحسين عليه السلام في ثورته.

وأيضاً نشاهد أن الجعفري وهو من أولاد جعفر المتوكل العباسي الذي أراد المستعين العباسي قتله، ينسب نفسه إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام باعتبار المذهب، فلما حُصر بنزول الجيش بساحته كتب إلى أبي محمد العسكري عليه السلام وسأله الدعاء لدفع المكروه فأجاب عليه السلام بما روي عن علي بن الفضل قال: «نَزَلَ بِالْجَعْفَرِيِّ مِنْ آلِ جَعْفَرٍ، خُلِقَ كَثِيرٌ لَا قَبْلَ لَهُ بِهِمْ. فَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام يَشْكُو ذَلِكَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عليه السلام: تُكْفَوْنَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قَالَ: فَخَرَجَ إِلَيْهِ فِي نَفَرٍ يَسِيرُ، وَالْقَوْمُ يَزِيدُونَ عَلَى عَشْرِينَ أَلْفَ نَفْسٍ، وَهُوَ فِي أَقَلِّ مِنْ أَلْفٍ فَاسْتَبَاحَهُمْ - أي استأصلهم -»^(٢).

طبعاً كانت في إمامة أبي محمد عليه السلام عدّة تحرّكات قام بها العلويون، إلا أن كثيراً منها كان أمرها يُكتشف من قبل السلطة، ومع ذلك كانت هذه التحرّكات تُعتبر بمثابة استعداد للفترة القادمة. ولأن الظروف الأمنية التي عاصرها الإمام كانت صعبة للغاية، لذلك نقرأ فيما روي عنه الكثير من الأحاديث حول التقية، حيث كان عليه السلام يأمر أصحابه بالالتزام بها، واعتبارها شرطاً من شروط الولاء للإمام.

رُوي عن علي بن جعفر عن حليبي قال: «اجْتَمَعْنَا بِالْعَسْكَرِ وَتَرَصَّدْنَا لِأَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام يَوْمَ رُكُوبِهِ، فَخَرَجَ تَوَقُّعُهُ: أَلَا لَا يُسَلِّمَنَّ عَلَيَّ أَحَدٌ، وَلَا يُشِيرُ إِلَيَّ بِيَدِهِ، وَلَا يُومِئُ، فَإِن كُنْتُمْ لَا تَوْمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ. قَالَ وَإِلَى جَانِبِي شَابٌّ، فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟! قَالَ: مِنَ الْمَدِينَةِ. قُلْتُ: مَا تَصْنَعُ هَاهُنَا?!

(١) شرح نهج البلاغة، ج ٨، ص ١٢٨.

(٢) الإرشاد، ج ٢، ص ٣٢٩. بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٨٠. كشف الغمة، ج ٢، ص ٤١٢. المناقب، ج ٤، ص ٤٣١.

قَالَ: اخْتَلَفُوا عِنْدَنَا فِي أَبِي مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجِئْتُ لَأَرَاهُ، وَأَسْمَعُ مِنْهُ، أَوْ أَرَى مِنْهُ دَلَالََةً لِيَسْكُنَ قَلْبِي، وَإِنِّي لَوْلَدُ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ.

فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ، إِذْ خَرَجَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ خَادِمٍ لَهُ، فَلَمَّا حَادَا نَا نَظَرَ إِلَى الشَّابِّ الَّذِي بِجَنْبِي، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَغْفَارِي أَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا فَعَلْتَ أُمُّكَ حَمْدِيَّةً؟

فَقَالَ: صَالِحَةً. وَمَرَّ فَقُلْتُ لِلشَّابِّ: أَكُنْتَ رَأَيْتَهُ قَطُّ، وَعَرَفْتَهُ بِوَجْهِهِ قَبْلَ الْيَوْمِ؟!. قَالَ: لَا. قُلْتُ: فَيَنْفَعُكَ هَذَا؟. قَالَ: وَدُونَ هَذَا^(١).

كما حدثت ثورات في زمانه عَلَيْهِ السَّلَامُ في:

مصر^(٢)، وطبرستان^(٣)، وقزوين والديلم^(٤)، وخراسان^(٥)، والكوفة^(٦)،

-
- (١) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٦٩. الخرائج، ج ١، ص ٤٣٥.
- (٢) خرج إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بـ(الصوفي العلوي)، في صعيد مصر سنة ٢٥٦ هـ. طالع: الكامل في التاريخ، ج ٧، (أحداث سنة ٢٥٦ و ٢٥٩ هـ). وانظر: المقرئ في خطه، ج ٢، وتاريخ الشيعة، ص ١٨١.
- (٣) خرج في خلافة المستعين، سنة ٢٥٠ هـ، الطالب الحسني بن زيد بن محمد بن إسماعيل، وخاض حروباً كثيرة، إلى أن مات في سنة ٢٧٠ هـ. انظر: مروج الذهب، ج ٤، ص ٦٩.
- (٤) خرج في قزوين سنة ٢٥٠ هـ الحسن بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله المعروف بـ(الكركي)، لقيه موسى بن بَغَا التركي، ثم صار إلى الديلم... انظر: مروج الذهب، ج ٤، ص ٧٠.
- (٥) خرج في خراسان - أيام المتوكل - الطالب أبو الحسن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكنه أخذ إلى المتوكل وأمر بجلده وحبسه في محبس الفتح بن خاقان، وبقي حتى مدة حتى خرج من حبسه فتوجه إلى بغداد وبقي فيها مدة من الزمن، ثم إلى الكوفة إلى أن خرج مرة أخرى أيام المستعين. انظر: تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢٦٦. الفخري، ص ٢٣٧.
- (٦) خرج داعياً إلى الرضا من آل محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ الطالب يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد، ويكنى بأبي الحسين، وقد اجتمعت إليه الزيدية في الكوفة، كما تولاه العامة من أهل بغداد، وبايعوه، وخاض قتالاً شديداً بالقرب من جسر الكوفة مع عبدالرحمن بن الخطاب (وجه الفلس)، وفيها كان مقتله. انظر: مقاتل الطالبين، ص ٥٠٦. تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢٦٩. وفي سنة ٢٥٠ هـ خرج نائراً في عهد المستعين الطالب الحسين بن محمد بن الحمزة المعروف بـ(الحرون)، فبعث المستعين بمزاحم بن خاقان لحربه، وقبل وصول الجيش العباسي غادر الحسين الكوفة متوجهاً إلى سامراء، وبعد مدة عزم على الخروج مرة أخرى. انظر: مقاتل

والكثير من المناطق^(١) التي يطول ذكرها.

ولما كانت السلطات العباسية عاجزة عن كشف خيوط الحركة الرسالية ومن ثم تصفيتيها، عمدت إلى فرض الإقامة الجبرية على الإمام العسكري عليه السلام تحت حجة أن الخليفة العباسي يُريد الإمام المعاصر له أن يمكث معه في حاضرة الخلافة. حيث كان يضعه في بيت سهل مراقبته ليكون أشبه بالسجن غير المعلن^(٢). إلا أن ذلك كان يجري تحت اسم أن الإمام مستقر في حاضرة الخلافة، وقد حصل ذلك بعد المأمون، أي إن الخلفاء العباسيين بعد المأمون رأوا في سياسة المأمون مع الإمام الرضا عليه السلام، أسلوباً يُقتدى به، فكان الخلفاء العباسيون يعملون بذلك لعزل الإمام عن الحركة الجماهيرية، وهذا أفضل ما يمكنهم عمله، إلا أنه كان يفوتهم واقع العلاقة التنظيمية بين الإمام والحركة الرسالية.

رَوَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ مَصْقَلَةَ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام، فَقَالَ لِي: يَا أَحْمَدُ، مَا كَانَ حَالُكُمْ فِيمَا كَانَ النَّاسُ فِيهِ مِنَ الشُّكِّ وَالْازْتِيَابِ؟»

قُلْتُ: لَمَّا وَرَدَ الْكِتَابُ بِخَبَرِ مَوْلِدِ سَيِّدِنَا عليه السلام، لَمْ يَبْقَ مِنَّا رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ، وَلَا غُلَامٌ بَلَغَ الْفَهْمَ، إِلَّا قَالَ بِالْحَقِّ. قَالَ عليه السلام: «أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ حُجَّةِ اللَّهِ تَعَالَى..»^(٣).

الطالبيين، ص ٥٠٦-٥١٢. كما خرج خليفة الحسين بن محمد (الحرون) محمد بن جعفر بن الحسين، وقد كتب إليه مخادعاً ابن طاهر يعده بتوليته على الكوفة فلما تمكن منه حمله إلى سامراء وحبس بها حتى وفاته المنية. انظر: مقاتل الطالبيين، ص ٥٢٤. وفي سنة ٢٥٥ هـ خرج العلويان علي بن زيد وعيسى بن جعفر. طالع: مقاتل الطالبيين، ص ٥٢٩. الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٢٣٩. مروج الذهب، ج ٤، ص ٩٥.

(١) خرج في مكة المكرمة إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم، على ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية، ج ١١. والطبري في تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، انظر ذلك في حوادث سنة ٢٥٠-٢٥١ هـ.

(٢) حُبس الإمام العسكري عليه السلام في عهد المهتدي وكان المتولي لسجن الإمام هو صالح بن وصيف، ومن بعده في عهد المعتمد. طالع: المناقب، ج ٤، ص ٤٣٠. حياة الإمام العسكري دراسة وتحليل، ص ٢٩٤-٢٩٦.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٣٣٥.

وبقيت السلطات العباسية في نكد من أمرها حتى أقدمت على اغتيال الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام، وذلك في سنة ٢٦٠هـ، وكان الإمام العسكري قد رُزق بالإمام المهدي عليه السلام يوم الجمعة في شعبان عام ٢٥٥هـ، وكان يحتفظ بالإمام المهدي عليه السلام بعيداً عن الأنظار إلّا للصفوة من الرساليين، وكيف لا يحتفظ به ويخشى عليه، وبه يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً، فكانت غيبته الصغرى من يوم مولده.

فلما استشهد أبو محمد الحسن العسكري عليه السلام اجتهد المعتمد العباسي كثيراً في العثور على الإمام المهدي عليه السلام، إلى درجة أنه حبس جوارى الإمام العسكري عليه السلام، وجعل عليهن الرصد خشية أن يكون عند إحداهن حمل من الإمام عليه السلام، فأخفاه الله عنه وعن أعدائه ليوم يريد به أن يطهر الأرض من الجور والطغيان والشرك، ويرسي فيها العدل والأمن والإيمان.

فقد رُوي انه لما تُوفي الإمام العسكري عليه السلام بعثت السلطات إلى داره من يفتشها ويفتش جميع حجرها، وختم على جميع ما فيها، وطلبوا أثر ولده، وجاءوا بنساء يعرفن الحمل، فدخلن على جواريه فنظرن اليهن فذكر بعضهن أن هناك جارية بها حمل، فأمر بها فجعلت في حجرة ووكل بها نكير الخادم وأصحابه، ونسوة معهم، ثم أخذوا بعد ذلك في تهيئة جثمان الإمام العسكري عليه السلام، وعطّلت الأسواق، وركب بنو هاشم والقواد والكتّاب وسائر الناس إلى جنازته، فكانت سر من رأى يومئذ شبيهة بالقيامة^(١).

وهناك كثير من الكتب التي تتحدث عن حالة السلطات العباسية عند سماعها بوفاة الإمام العسكري وطلبها الإمام المهدي عليه السلام الذي جاء عن الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله «... فَيَمْلُؤُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا، كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا»^(٢).

فمثلاً، يقول ابن الصباغ المالكي في كتابه (الفصول المهمة): «خلف أبو محمد

(١) انظر: بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٣٢٥.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٧٢. كفاية الأثر، ص ٤٧. كمال الدين، ج ١، ص ٣٣. وانظر للمؤلف: الإمام العسكري .. قدوة وأسوة.

الحسن من الولد ابنه الحجة القائم المنتظر لدولة الحق، وكان قد أخفى مولده وستر أمره لصعوبة الوقت وشدة طلب^(١) السلطان وتطلبه للشيعة، وحبسهم والقبض عليهم...»^(٢).

وكثير من الكتب التاريخية تتحدث حول هذا الأمر بالمضمون نفسه^(٣).

إنّ هذا التخوف من جانب السلطات، وضخامة الاحتياطات المتخذة من قبلها، كل ذلك يدلّ على أن الحالة غير طبيعية، فإذا رأينا رئيس دولة ما يُجند الجيوش، ويضع كل وزارات ومؤسسات الدولة في حالة استعداد وترقب، فإن هذه الحالة تعني أن أمراً كبيراً يترقب حدوثه قريباً ربما يؤثّر في مسيرة الدولة العباسية آنذاك، وهذا ما هو منقول في كتب التاريخ بشكل مستفيض، وهذا له دلالة قوية على أن فكرة المهدي المنتظر عليه السلام كانت فكرة يعتقدها كل مسلم آنذاك إلا ما ندر، وأن هذه العقيدة كانت عامة عند كل أبناء الأمة الإسلامية.

والأهم أن اعتقاد كل المسلمين كان في أن هذا المصلح لأمة محمد ﷺ هو من آل محمد ﷺ ومن سلالته، وذلك للنصوص المتواترة عن الرسول الأعظم ﷺ التي تُصرّح بهذه الحقيقة.

ولو لم يكن هذا الاعتقاد قائماً لم يكن كل المسلمين -آنذاك- يعتقدون بأن الإمام الثاني عشر ابن الإمام أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام هو المهدي المنتظر، وهو المهدي الموعود^(٤).

(١) وفي نسخة أخرى: وخوف...

(٢) الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ج ٢، ص ١٠٩١.

(٣) منها: ابن كثير، ج ٧، ص ٩٠. تاريخ الفداء، ج ٢، ص ٥٢. عمدة الطالب، ص ١٨٦، وغيرها كثير.

(٤) راجع إضافة لما ذكر من الكتب التاريخية كلاً من: سبائك الذهب للسويدي، ص ٧٨، و: البيان في أخبار صاحب الزمان، لمحمد بن يوسف الكنجي الشافعي، وابن خلكان في ترجمته (أبو القاسم المنتظر).

وقد ورد ذكره في الأحاديث النبوية: أنه من آل محمد ﷺ^(١)، وأنه هو الإمام الثاني عشر، محمد المهدي بن الحسن العسكري ﷺ بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب ﷺ^(٢).

والسلطات العباسية كانت في تلك الدرجة من الخوف والإجراءات الأمنية المشددة التي تُعبّر عن حالة الهيجان التي يعيشها النظام بسبب هذا الاعتقاد المجمع عليه من المسلمين. ويدل ذلك أيضاً على شيء مهم آخر، هو أن تيار الحركة الرسالية التي كانت في البدء تتجسد في أفراد يُعدّون على الأصابع أصبحت اليوم تعني مجاميع غفيرة من المسلمين.

وقد أحدثت غيبة الإمام المهدي ﷺ تموجاً قوياً في العالم الإسلامي، حيث عيّن الإمام المهدي له سفراء أربعة، وهم: عثمان بن سعيد العمري^(٣)، وكان من وكلاء جده وأبيه ﷺ، ومحمد بن عثمان العمري^(٤)، ابن السفير الأول، وكان من

(١) مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ٢٨٣. عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ الْأَدْمِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْعَظِيمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِيِّ، قَالَ: «قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى ﷺ: إِنِّي لَا زُجُو أَنْ يَكُونَ الْقَائِمُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مِلْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا. فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، مَا مِنَّا إِلَّا قَائِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَهَادٍ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَلَيْسَ الْقَائِمُ الَّذِي يُطَهِّرُ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ، وَيَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا، إِلَّا هُوَ الَّذِي يُخَفِّي عَلَى النَّاسِ وَلَادَتُهُ، وَيَغِيبُ عَنْهُمْ شَخْصُهُ، وَيَخْرُجُ عَلَيْهِمْ تَسْمِيَتُهُ، وَهُوَ سَمِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَتَبَتُهُ».

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ٣٦٨. عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: الْمَهْدِيُّ مِنْ عِزَّتِي مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ».

(٣) السفير الأول في زمن الغيبة الصغرى، يكنى أبا عمرو جليل القدر عظيم المنزلة ثقة، له خدمة صاحب الزمان ﷺ، وله منزلة جلييلة عند الطائفة. انظر: رجال الطوسي، ص ٣٨٩.

(٤) السفير الثاني في زمن الغيبة الصغرى، كنيته أبو جعفر، جليل القدر، ثقة، وكيل من جهة الإمام صاحب الزمان ﷺ، وله منزلة جلييلة عند الطائفة، ومن دلائل إيمانه وورعه أنه حفر قبراً لنفسه وسوّاه بالسياج، فسُئل فقال: للناس أسباب، ثم سُئل بعد ذلك فقال: قد أمرت أن أجمع أمري، فمات بعد ذلك بشهرين. انظر: رجال الطوسي، ص ٤٤٧. رجال بن داود، ص ٣٢٣.

وكلاء الإمام الحسن العسكري عليه السلام، والحسين بن روح^(١)، وعلي بن محمد السُمري^(٢). وكانت السفارة تنتقل لأحدهم بعد الآخر، وبعد موت السُمري عام ٣٢٩هـ، انقطعت السفارة. وكانوا جميعاً يعيشون في بغداد، فقد كانوا بمثابة وسطاء بين الحركة الرسالية، والإمام عليه السلام، لحمل مجمل الأسئلة إليه، وأخذ الجواب منه بتوقيعه عليه السلام^(٣) إليهم.

والسفير هو عالم كبير، وفي الوقت ذاته يحمل توجيهات ورسائل الإمام الحجة الغائب إلى العلماء الباقين. وبجانب ذلك كان للإمام الحجة عليه السلام وكلاء^(٤)

(١) السفير الثالث في زمن الغيبة الصغرى، «هَذَا أَبُو الْقَاسِمِ الْحُسَيْنُ بْنُ رُوحٍ بْنِ أَبِي بَخْرٍ النَّوْخِيُّ، الْقَائِمُ مَقَامِي، وَالسَّفِيرُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ صَاحِبِ الْأَمْرِ، وَالْوَكِيلُ لَهُ، وَالثَّقَّةُ الْأَمِينُ، فَارْجِعُوا إِلَيْهِ فِي أُمُورِكُمْ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ فِي مَهْمَاتِكُمْ...». بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٣٥٥.

(٢) السفير الرابع في زمن الغيبة الصغرى، الثقة، جليل القدر والمنزلة، «وهو الذي أخبر بموت علي بن الحسين بن بابويه القمي». مات السُمري في النصف من شعبان سنة ٣٢٨هـ وقيل: ٣٢٩هـ. وبموته وقعت الغيبة الكبرى، خرج التوقيع الشريف من مولانا صاحب الأمر يخبر بموته إلى ستة أيام، وتوفي في اليوم السادس. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٥، ص ٤٥٠ - ٤٥١.

(٣) للتوسع انظر: كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق رحمته الله. موسوعة الإمام المهدي، للشهيد الصدر الثاني. الإمام المهدي من المهد إلى الظهور، السيد كاظم القزويني. الإمام المهدي المنتظر دراسة وتحليل، للعلامة باقر شريف القرشي.. وغيرهم.

(٤) مما لا شك فيه أن ثمة فارق كبير بين السفير والوكيل، فالأول: له ارتباط مباشر بالإمام المهدي، وأنه يلتقي بالإمام مباشرة، ويرى الإمام ويجالسه، يأخذ منه التوقعات والتوجيهات للشيعه، ويوصل إلى الإمام رسائل الشيعة وحاجياتهم، وتتلخص وظيفته ومسؤوليته في الحفاظ على الدين عقيدة ومنهجاً، وتمتين العلاقة بين الشيعة والإمام المهدي عليه السلام. أما الثاني (الوكيل) فهو يتصل بالإمام عن طريق السفير، بمعنى هو همزة الوصل بين الشيعة والسفير، بل يكون هو جسر العلاقة بين منطقته أو محله والسفير، وتنحصر مسؤولية الوكيل في تسهيل عمل السفير ووظيفته مع العمل على توسيع دائرة عمل السفير في واقع الأمة، كما يكون هو المعين والمحافظ على شخصية السفير وحراسته بعيداً عن أعين الطواغيت. وعن هؤلاء الوكلاء غير السفراء روى المحدث الشيخ الصدوق في كتابه (كمال الدين، ج ٢، ص ٤٤٢)، عن أبي علي الأسدي عن أبيه عن محمد بن أبي عبد الله الكوفي أنه ذكر عدد من انتهى إليه ثمن وقف على معجزات صاحب الزمان عليه السلام ورآه من الوكلاء: «بيغداد العمري وابنه، وحاجز، والبلاي،

كثيرون في أثناء الغيبة الصغرى، إلا أن السفراء هم الأربعة فقط، والذين يُلقَّبون بالنُّواب أيضاً.

وبعد الغيبة الصغرى، أي بعد موت هؤلاء السفراء الأربعة، وقعت الغيبة الكبرى التي يُنتظر فيها الإمام الحجة عليه السلام: «وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْرًا...»^(١).

والعطار، ومن الكوفة: العاصمي، ومن أهل الأهواز: محمد بن إبراهيم بن مهزيار، ومن أهل قم: أحمد بن إسحاق، ومن أهل همدان: محمد بن صالح، ومن أهل الري: البسامي، والأسدي -يعني نفسه- ومن أهل آذربيجان: القاسم بن العلاء، ومن أهل نيسابور: محمد بن شاذان،...».

(١) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٦٢.

— صَفْوُ الْكَلَامِ —

* شهد عهد الإمام العسكري سياسة لم تكن بعيدة عن تيار الحركة الرسالية، وقد قاد العلويون عدة تحركات اكتشف أمرها من قبل السلطة. ولأن الظروف الأمنية كانت صعبة فإن الإمام جعل التقية شرطاً من شروط الولاء.

* وقد فرضت السلطات الإقامة الجبرية على الإمام العسكري، كما بذلت جهداً كبيراً في البحث عن الإمام المهدي المنتظر، إلا أنها فشلت - بإذن الله - في ذلك.





التاريخ الإسلامي.. دروس وعبر

الخاتمة

كيف نقرأ تاريخ الحركة الرسالية
تأثير الحركة الرسالية على الحضارة الإنسانية



١٩ كَيْفَ تَقْرَأُ تَارِيخَ الْحَرَكَةِ الرَّسَالِيَّةِ

عند الحديث عن حياة بعض الأئمة، نرى أنَّ الحديث يطول إلى درجة لا يستطيع الإنسان أن يجمعه في بحث واحد، أو حتى في كتاب واحد، وقد يتحوَّل الحديث عن الإمام علي عليه السلام فقط إلى كتاب في عشرة مجلدات، وكذلك الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام.

لكننا حين نراجع حياة إمام آخر كالإمام الجواد عليه السلام أو الإمام الهادي عليه السلام فإننا نجد أن مادة الحديث قليلة إلى درجة نعجز معها عن التوسع في حياة هذا الإمام، فهل يدل ذلك على أن بعض الأئمة كانوا أثري من غيرهم علمياً، وفقهياً، وحركياً؟.

وقبل أن نخوض في الجواب عن هذا السؤال، نذكّر بأن السياسة وتحكّمها بعملية تدوين التاريخ قد طبعت بصماتها بصورة واضحة على تاريخ الحركة الرسالية. فسياسة القتل، والإرهاب، والملاحقة التي اتبعتها السلطات بحق كل من كان يُحدّث، أو يكتب عن الحركة الرسالية، سواء عن فكرها، أو شخصيتها رجالها، أو عن تحرّكاتنا وجهادها، هذه السياسة حالت دون وصول الكثير من الحقائق عن الحركة الرسالية إلينا.

ولكن بالرغم من كل المحاولات التي بذلتها السلطات الجائرة في طمس الحقائق وتشويهها، وإصاق التُّهم الرخيصة بأبطالها، وبالرغم من كل ما قامت به

تلك السلطات من إتلاف و حرق الكثير من الكتب التي تُبَيِّن معالم مدرسة الرسالة،
إِلَّا أن ما وصلنا يرسم لنا صورة جلية عن مجمل مسيرة الحركة الرسالية.

الظاهرة السابقة التي يطرحها التساؤل، إنما تدل على أن هناك تقصيراً فادحاً
من العلماء والباحثين في استقصاء حياة الأئمة المعصومين عليهم السلام أو أنهم ركّزوا على
جوانب من شخصيتهم وأهملوا جوانب أخرى، لعدم استيعابهم لتلك الجوانب.

إن أعمال الأئمة المعصومين عليهم السلام كانت على نوعين:

الأول: بمثابة رسم معالم الحركة الرسالية وتوضيحها.

الثاني: بمثابة مواصلة للمسيرة السابقة، لكي تنمو وتتوسع. فمثلاً نجد
الإمام علي عليه السلام هو الذي أسس الحركة الرسالية بتفاصيلها التنظيمية والقيادية،
بينما الإمام الحسن تابع المسيرة نفسها التي بدأها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام،
كذلك نجد أن الإمام الصادق عليه السلام أسس الكيان الفقهي للحركة، أما الإمام
الكاظم فإنه نَمَّى البناء السابق.

من هنا نجد حياة أحد الأئمة عليهم السلام مليئة بالأحداث والأحداث لأنه هو
الذي بدأ عملاً، بينما الإمام التالي لا نجد في حياته ما يشترك من ذلك الجانب
الذي سبق تأسيسه، لأنه قام بدعم العمل السابق. وهذا لا يعني أن الإمام الأول
كان أفضل من الثاني، إنما مَنْ يُوَسِّع البناء ويُنَمِّيه يشترك مع مؤسسه في الأهمية
والعظمة، فالرجل الذي اخترع الكهرباء عظيم، وكذلك الذي نشر الكهرباء في
الآفاق وحوّلها إلى مادة رفاهية في كل ناحية من نواحي حياتنا، فهو عظيم أيضاً.

ثم إننا نجد أن المؤرخين قد كتبوا عن الأئمة عليهم السلام الذين احتكوا بالحركات
الإسلامية والتيارات الفكرية والسياسية الأخرى أكثر من باقي الأئمة عليهم السلام،
والسبب في ذلك، لأن في هذا لون من الصراع والخلاف الفكري أو السياسي.
وطبيعي أن الخلاف يُحفظ، لأن فيه إثارة، فتوجّه له أنظار رجال التاريخ أكثر، بينما
نجد أن حياة الإمام الذي لم يحتك احتكاكاً مباشراً مع سائر المذاهب، لا تُدوّن

حياته ولا تُحفظ في كتب التاريخ، لا لعدم وجود أشياء عظيمة في حياته، وإنما لعدم اهتمام المؤرخين بها.

فلماذا لم نُؤرخ كل الوقائع؟. ولماذا لا نستنبط من التاريخ أفكاراً جيدة تُراعى فيها الظروف التي كان يعيشها كل إمام من الأئمة عليه السلام؟. ويبقى التساؤل: لم لا نُسلط الضوء على المناطق المظلمة من التاريخ؟.

لأننا نحن الذين ندع التاريخ جانباً، وتُتجه كل طاقاتنا إلى الجوانب المثيرة، والأكثر ظهوراً ووضوحاً، الأمر الذي يجعلنا بعيدين عن مواجهة الأسئلة الصعبة والجوانب الغامضة في التاريخ، ولذلك نجد أن الحركة الرسالية انشغلت بالجانب العلمي، والجانب السياسي الذي كانا يتطلبان طاقات وجهود كبيرة.

ولذلك نرى أن أتباع أهل البيت عليه السلام نما عندهم الفقه، بما لم ينم عند أي جماعة إسلامية أخرى، كما كانوا حريصين في إسناد الأحاديث والروايات على أن تكون موثقة صحيحة، حتى لا يقع التحريف والتزييف فيها، بينما لا نرى هذه الدقة في الإسناد عند غيرهم. وكذلك نمت عندهم بقية العلوم الأساسية في الشريعة^(١)، بعكس التاريخ الذي لم يَنَلْ من الاهتمام ما نالته العلوم الأخرى، لأن التاريخ تأتي أهميته بعد تلك العلوم الأساسية في الشريعة، فقد أُعطيَ اهتماماً أقل نظراً لصرف الجهود بكثافة على العلوم الأساسية السابقة، وكثرة الطاقات التي كانت تُصرف في المجال السياسي، ومع أخذ هذا الاعتبار ضمن التعليقات، إلا أن التساؤل يبقى قائماً.

وهناك السؤال الآخر: هل عدم وجود مادة كافية في حياة أي إمام دليل على أننا لا نستطيع أن نكشف كامل خبايا حياة ذلك الإمام؟.

بالطبع كلاً. فنحن نستطيع الاستنتاج من بين السطور، ونستطيع أن نقرأ عبر ربط السابق باللاحق من الأحداث، أن نقرأ حياة الأئمة المعصومين عليه السلام. مثل

(١) انظر: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، و: الشيعة وفنون الإسلام. وأيضاً: فلاسفة الشيعة.. حياتهم وآراؤهم.

الإمام الجواد عليه السلام الذي لم يُدَوّن التاريخ عن حياته شيئاً كثيراً.

إننا حينما ندرس حياة الإمام الجواد ضمن حياة الأئمة جميعاً فإنه ستتكون عندنا صورة كاملة عن حياته، فحين دراستنا لرواية أو قضية تاريخية، فلا يجب أن تقتصر عليها هي بالذات ونكتفي بنقلها وسردها، وإنما ينبغي أن ندرسها دراسة وافية بمراجعة التاريخ المعاصر للأئمة المعصومين عليهم السلام.

إن كتاب بحار الأنوار -مثلاً- ليس كتاباً تاريخياً يُبين لنا مَنْ هم الأشخاص الذين كانوا يحضرون عند هذا الإمام أو ذاك. لذلك علينا أن نراجع كتب التاريخ الأخرى.

فمثلاً حينما نقرأ في كتب الأحاديث أن فتح بن خاقان كان يحضر عند الإمام الهادي عليه السلام، ولكن مَنْ هو فتح بن خاقان؟. إننا لا نعرف عنه شيئاً إلا إذا قرأنا كتب التاريخ لنعرف أنه كان أكبر وزراء المتوكل العباسي، ولا نستطيع أن نعرف عن فترة حكمه المظلمة شيئاً إلا بمطالعة التاريخ. فبمطالعة التاريخ نعرف أن فتح بن خاقان كان يميل إلى الإمام الهادي عليه السلام وأن الكثير من الخطط التي كانت السلطة العباسية تحوكمها ضد الحركة الرسالية كان خبرها ربما يتسرب إلى الإمام عبره.

كل هذه الأمور يجب أن ندرسها في كتب التاريخ، وبعد أن ندرس التاريخ بشكل دقيق فإننا نعرف الروايات أيضاً بشكل جيد^(١).

إن بعض الخطباء يرتقون منبر الخطابة ويذكرون الرواية ويسندونها دون أن يذكروا الخلفيات التاريخية والظروف الاجتماعية لها، وهذه طريقة غير صحيحة في المنهج الخطابي. إن الطريقة الحديثة في كتابة التاريخ تركّز حتى على بيان طريقة العيش للفرد. مثلاً كيف كان شكل البيوت التي كان يسكنها الناس قديماً؟. وكم

(١) للمزيد من البحث حول الوثائق التاريخية، راجع كتاب: المنطق الاسلامي، مناهجه ومقاصده. للمؤلف، القسم السادس: عن مناهج التاريخ، البحث الثاني: دراسة الوثائق التاريخية، ص ٥٢١-٥٦٢.

غرفة كانت في البيت؟. وهل كانت البيوت من طابق واحد أو طابقين؟. ووسائل الترفيه كيف كانت؟. أين كان البئر؟. والسبب في ذلك، لأن ذلك سيُعطي المؤرخين رؤية.

فعندما يقرؤون في التاريخ أن رجلاً وقع في البئر، فهل كانت البئر في وسط البيت حتى وقع فيها، أم خلف البيت، ولماذا لم يحس به أحد عندما وقع؟ وهكذا. فإنهم يستطيعون معرفة حقائق كثيرة من التاريخ من خلال معرفة الظروف التي كان يعيشها الفرد، من كيفية وضعه المعيشي وحتى السكني. كذلك ماذا كانت ملابسهم؟. وماذا كانوا يأكلون؟. كيف كانت إضاءتهم؟.

إن كتاب تاريخ التمدن الإسلامي، لرجي زيدان، يبحث عن التفاصيل الدقيقة، مثلاً يذكر في التاريخ أنه في مدينة بغداد، بلغ عدد حماماتها في أيام المأمون (١٦.٠٠٠) حمام^(١)، بالطبع عندما نذكر هذا الإحصاء لشخص فرنسي أو إنجليزي فسيقول: (١٦.٠٠٠) حمام، يعني (١٦.٠٠٠) بيت، باعتبار أن في كل بيت يوجد حمام واحد، ولكن الذي يراجع التاريخ يعلم أن الحمام كان لكل منطقة، أو لكل حي، والحي الذي يوجد فيه حمام كم يسكن فيه من الناس؟.

وهذا كله يجب أن نعرفه من التاريخ حتى نستطيع اكتشاف عدد سكان مدينة معينة عن طريق عدد حماماتها ووسائل معيشتها، ومن ثم نعرف مثلاً ارتباط عدد سكانها مع دورها التاريخي. كذلك يمكن معرفة عدد سكان مدينة معينة عن طريق الأنهر التي فيها، وعن طريق عدد الجزارين، وكم كانوا يذبحون من الغنم يومياً. هذه إذا ذكرها التاريخ، فإننا نتمكن أن نعرف من خلالها كم كان عدد السكان الموجودين في منطقة ما. لماذا؟.

لأن هناك مقدمة أخرى، أو حلقة ثانية، وهي أن نعرف كم كان يستهلك الأفراد من اللحم يومياً، فإذا كانوا مثلاً كأهل مصر الذين لا يأكلون اللحم في

الأسبوع إلا يوماً واحداً أو يومين، فهذا يختلف عما إذا كانوا كأهل الحجاز، أو أهل البادية، الذين يأكلون اللحم يومياً لأن طريقة الأكل تختلف من مكان لآخر.

إذن فدراستنا للروايات، ودراستنا للمقاطع المختلفة من التاريخ، والأخبار المقتضبة منه، يجب أن تتم عبر رؤية متكاملة عن التاريخ، فأولاً؛ ندرس التاريخ كله، وبعثاً ندرس الرواية، وبناء على ذلك فإننا نستطيع أن نستنبط حياة الأئمة المعصومين عليهم السلام خصوصاً الأئمة الذين لا نملك من حياتهم الشيء الكثير، وهم الأئمة المتأخرون، من بعد الإمام الرضا عليه السلام، ندرس حياتهم ونستوعبها عن طريق دراسة التاريخ، ومعرفة الظروف المختلفة التي كانوا يعيشون فيها.

توجد روايات يذكرونها في باب معجزات ومكارم الإمام الهادي عليه السلام، لكن ومن خلال الرواية نستطيع أن نستنبط حياة الإمام الهادي عليه السلام، وهذا يجعلنا نعرف حياة الإمام بصورة أحسن من مجرد إلقاء أضواء متفرقة عليها، لأنه لا توجد قضايا معينة ومحددة بوضوح شديد في تاريخ حياة الإمام الهادي تجمع كل أحداث حياته، لذلك نضطر إلى بحث الحياة بشكل مجزأ.

مثلاً حينما نقرأ الرواية التالية: رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْأَشْتَرِ الْعَلَوِيِّ قَالَ: «كُنْتُ مَعَ أَبِي بَبَابِ الْمُتَوَكِّلِ، وَأَنَا صَبِيٌّ فِي جَمْعِ النَّاسِ، مَا بَيْنَ طَالِبِي إِلَى عَبَّاسِي إِلَى جُنْدِيٍّ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام، تَرَجَّلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تَرَجَّلْ لِهَذَا الْعَلَامِ! وَمَا هُوَ بِأَشْرَفِنَا، وَلَا بِأكْبَرِنَا، وَلَا بِأَسَنَّنَا، وَلَا بِأَعْلَمِنَا.

فَقَالُوا: وَالله! لَا تَرَجَّلْنَا لَهُ.

فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هَاشِمٍ: وَالله لَتَرَجَّلَنَّ لَهُ صَغَاراً وَذِلَّةً إِذَا رَأَيْتُمُوهُ.

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَقْبَلَ وَبَصُرُوا بِهِ، فَتَرَجَّلَ لَهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ. فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هَاشِمٍ: أَلَيْسَ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ لَا تَرَجَّلُونَ لَهُ؟!.

فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا مَلَكَنَا أَنْفُسَنَا حَتَّى تَرْجَلَنَا»^(١).

بالطبع هذه رواية تُذكر في باب معجزات ومكارم أخلاق الإمام عليه السلام ولكنها تعني لنا شيئين:

الأول: أنا لا أعتقد - في الواقع - أن هذه من معجزات الإمام عليه السلام فقط، فالإمام عنده معجزات ولا تُنكرها، لكن هذه من طبيعة وضع الإمام في كل مكان. فماذا يعني هذا؟. لماذا الناس - كما في التاريخ - حينما جاء الإمام السجاد عليه السلام يطوف حول الكعبة فسحوا له الطريق ليُقبل الحجر؟.

إن الأئمة عليهم السلام كانوا يمتلكون قلوب الناس بأخلاقهم العالية وشخصياتهم المحبة. إن طبيعة حياة الأئمة عليهم السلام، وعلمهم وشخصيتهم وقدرتهم لم تكن أموراً غيبية فقط. بل كانت متكاملة بشكل نموذجي، لذلك كانوا يفرضون هيبتهم على الناس بشكل طبيعي.

الثاني: إن الذي يظهر من هذه الرواية هو أن مجيء الإمام عند المتوكل العباسي كان بصفة السيادة، لأنّ وجهاء الأسرة العباسية الحاكمة، ومعهم وجهاء الطالبين كانوا عندما يصل الإمام يترجلون فوراً ويفسحون له ليدخل.

- وفي رواية عن محمد بن الفرج، وهو أحد أصحاب الإمام الهادي عليه السلام، أنه قال: «إِنَّ أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام كَتَبَ إِلَيَّ: أَجْمِعْ أَمْرَكَ وَخُذْ حِذْرَكَ.

قَالَ: فَأَنَا فِي جَمْعِ أَمْرِي لَسْتُ أَذْرِي مَا الَّذِي أَرَادَ فِيمَا كَتَبَ بِهِ إِلَيَّ، حَتَّى وَرَدَ عَلَيَّ رَسُولٌ حَمَلَنِي مِنْ مِصْرَ مُقَيِّداً مُصَفِّداً بِالْحَدِيدِ، وَصَرَبَ عَلَى كُلِّ مَا أَمْلَكُ.

لاحظ أن الامام كتب له يُحذره ويُخبره بأن رجال المباحث كانوا يُفتشون عنه. والرجل كان في مصر، يقول: لست أدري. فالإمام قال له: أجمّع أمرَكَ وخُذْ حذرَكَ، ولم يقل له شيئاً آخر. ولم أفهم ما القضية، فأخذت أجمع أمري وأصفي ديوني وأرتب

أوضاعي، فإذا بالقضية تطوّرت فجاءوا وقيدوني وصادروا أموالي كلها وأرسلوني إلى بغداد.

فَمَكُثْتُ فِي السَّجْنِ ثَمَانِي سِنِينَ (لعل الرجل لم يعمل بكلام الإمام عملاً صحيحاً، ولعله لم يفهم ما كان يشير إليه الإمام، وربما تلكاً فوقع في المحذور)، ثُمَّ وَرَدَ عَلَيَّ كِتَابٌ مِنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَا فِي الْحَبْسِ: لَا تَنْزِلْ فِي نَاحِيَةِ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ. فَقَرَأْتُ الْكِتَابَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: يَكْتُبُ إِلَيَّ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا، وَأَنَا فِي الْحَبْسِ إِنَّ هَذَا لَعَجِيبٌ!. فَمَا مَكُثْتُ إِلَّا أَيَّاماً يَسِيرَةً حَتَّى أُفْرِجَ عَنِّي وَحُلْتُ قُبُودِي وَخُلِّيَ سَبِيلِي.

وَلَمَّا رَجَعَ إِلَى الْعِرَاقِ لَمْ يَقِفْ بِبَغْدَادَ لِمَا أَمَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَخَرَجَ إِلَى سُرَّ مَنْ رَأَى.

قَالَ فَكُتِبْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ خُرُوجِي أَشْأَلُهُ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ لِيُرَدَّ عَلَيَّ ضِيَاعِي. فَكُتِبَ إِلَيَّ: سَوْفَ يُرَدُّ عَلَيْكَ، وَمَا يَضُرُّكَ أَلَّا تُرَدَّ عَلَيْكَ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّوْفَلِيُّ: فَلَمَّا شَخَّصَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَرَجِ إِلَى الْعُسْكَرِ كَتَبَ لَهُ بِرَدِّ ضِيَاعِهِ فَلَمْ يَصِلِ الْكِتَابُ إِلَيْهِ حَتَّى مَاتَ^(١).

ونحن الآن لا يهمننا نهاية الرواية، وإنما نعالج نقطتين:

الأولى: أن الإمام أبو الحسن الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في سامراء، وصاحبه كان في مصر، فربما كان للإمام عين تُوصل إليه الأخبار مع عدم استلزام ذلك لعنصر المعجزة، كأن يكون رئيس الوزراء يتشيع للإمام ويكون عيناً له.

وقد سبق وأن رأينا في حادثة أن رئيس الوزراء وهو الفتح ابن خاقان يقول له المتوكل: اذهب وخذ المال الذي يأتيك من الطريق الفلاني، فيذهب هذا ويُخبر الإمام بالأمر.

الثانية: وهي الأهم، ترى أن الرجل في السجن والإمام يكتب له رسالة. فكيف يُوصل له الرسالة؟. وكيف يُعطيه التعليقات؟.

إن هذا يدلنا بوضوح على طبيعة أعمال وأساليب الأئمة عليهم السلام في داخل الأمة الإسلامية، فلم يكونوا يجلسون في زوايا بيوتهم بعيدين عن الأحداث.

وللقضية نهاية وهي: أن الإمام عليه السلام قال له حول أمواله: «سَوْفَ يُرَدُّ عَلَيْكَ، وَمَا يَضُرُّكَ أَلَّا تُرَدَّ عَلَيْكَ». أي ما أهمية الأموال ما دمت تقوم بمهمة دينية كبيرة، وهي أنك من موالينا وتعمل في سبيل الله، فليأخذوا أموالك، فالإنسان ما دام عنده هدف أسمى في حياته، فما يهمه من أمر المال وسائر متاع الدنيا الزائل، أليست هذه أشياء غير مهمة بالنسبة له.

وبكلمة: إننا من الجوانب المختلفة للروايات، نستطيع أن نرسم أغلب خطوط حياة الإمام، أي إن المسألة تحتاج إلى قراءة دقيقة لما بين السطور، وبالنهج الذي فصلنا فيه الكلام قليلاً.

وبهذا نتمكّن أن نسد النقص التاريخي الحاصل من جراء عدم تسجيل المؤرخين لحياة الأئمة الأربعة الأواخر عليهم السلام - خصوصاً - وبشكل تفصيلي.

— ﴿صَفْوُ الْكَلَامِ﴾ —

* إن السياسية وتحكمها بعملية تدوين التاريخ قد طبعت بصماتها بصورة واضحة على تاريخ الحركة الرسالية.

* ومن جهة أخرى، يهتم المؤرخون عادة بتدوين الجوانب المثيرة من التاريخ ويهملون الجوانب الأخرى.

* لذلك علينا استنباط الجوانب المهملة من تاريخ الأئمة المعصومين عن طريق دراسة الروايات، والظروف، وخلفيات الأمور بروية ثاقبة وبصيرة نافذة. وبذلك نستطيع أن نرسم أغلب خطوط حياة الأئمة عليهم السلام.



١٩ تأثير الحركة الرسالية على الحضارة الإنسانية

كانت الحياة على طول التاريخ مليئة بكثير من الإنجازات العظيمة والهامة، التي من أبرزها منهج الحركة الرسالية. فماذا كان يعني هذا المنهج في الحياة؟ وما هي خطوطه العريضة؟ وبماذا خدم الإنسانية؟ وبماذا خدم الحضارة الإسلامية؟ إن هذه التساؤلات ضرورية جداً، لأنه من دون معرفة هذه الحقيقة لن نُقدّر تضحيات أولئك الصالحين الذين ندين لهم فيما نملك من خير. قبل كل شيء لا بد من معرفة، أن الحركة الرسالية كان لها مضامين كثيرة، منها: مضامين اجتماعية، وأخرى مضامين حضارية، وأخرى فكرية وثقافية.

في هذه الحقول الثلاثة، وبهذه المبادئ خدمت الحركة الرسالية العالم كله، وخدمت الإنسانية جمعاء.

نظرة عامة في الدولة الإسلامية

لقد كانت الحركة الرسالية علماً ينضوي تحته كل محروم، وقد مثل هؤلاء المحرومون تياراً عريضاً ممتداً في كل العالم الإسلامي، فكان منهم المحروم بسبب لونه وعرقه، أو حتى بسبب لغته، وطوائف حُرمت بسبب حُرفتها، وأخرى بسبب مذهبها. فقد كانت هناك تفرقة عنصرية، وكان هناك تفاوت طبقي، وظلم اجتماعي، وإرهاب فكري، والأمثلة عديدة. فمثلاً: دعا معاوية الأحنف بن قيس وسمره بن

جندب، فقال: «إني رأيت هذه الحمراء^(١) قد كثرت، وأراها قد طعنت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان؛ فقد رأيت أن أقتل شطراً، وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق...»^(٢).

وهذا يُبين فكرة الأمويين حول القوميات غير العربية، فحتى لو كانوا مسلمين فإنهم يعدّون -حسب التصنيف الأموي- مواطنين من الدرجات الأدنى، وإذا كثّر عددهم فإنهم يستحقّون الإبادة، لا لسبب إلا للخوف من أن يطالبوا بحقوقهم المهضومة.

الخِراج

في الوقت الذي جعل الإسلام لجباية الخِراج قوانين دقيقة تلحظ شروطاً عدة فيمن يجب أن يُعطي الخِراج، ووضع شروطاً قاسية فيمن يجب أن يجبي الخِراج، وحدّد الموارد التي تُصرف فيها الأموال التي تُجبي، كانت الدولة الأموية والعباسية تأخذ الخِراج أضعافاً مضاعفة، كما تقتضيه أهواء الأمراء والولاة والخلفاء.

أما الجزية التي أمر الإسلام بإسقاطها عن الإنسان الذي يتحوّل من دينه إلى الإسلام حيث يجب عليه آنئذٍ الزكاة والصدقات^(٣)، نجد أن الدولة الأموية كانت

(١) كانت العرب في أيام الدولة الأموية، تسمي الموالي بالحمراء، لأنهم يرون أنفسهم سادة والموالي عبيداً، بل كانوا يرونهم دونهم في الخلق والفضل، حتى إشتهر عنهم: «لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: همار، أو كلب، أو مولى». أنظر: العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٦٠ (باب المتعصبين للعرب). وأيضاً: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ٣٤١. (العرب والموالي).

(٢) العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٦٢.

(٣) قال المحقق الحلي رحمته الله في شرائع الإسلام، ج ١، ص ٣٠٠: «وإذا أسلم (الذمي) قبل الحول أو بعده قبل الأداء سقطت الجزية على الأظهر...»، وقال صاحب الجواهر رحمته الله معلقاً: «لا أجد فيه خلافاً.. بل في المنتهى ومحكي التذكرة الإجماع عليه، وهو الحجة»، والمستند فيه النبوي المروي عنه عليه السلام -المستغني بشهرته نقلاً وعملاً عن البحث في سنده-: «الإسلام يُجِبُّ مَا قَبْلَهُ». أنظر: جواهر الكلام، ج ٢١، ص ٢٥٨. أما في مسألة وجوب الزكاة عليهم، فقد قال المحقق الحلي رحمته الله «كل أرض أسلم أهلها عليها فهي لهم على الخصوص، وليس عليهم شيء فيها سوى الزكاة إذا حصلت شرائطها». شرائع الإسلام، ج ١، ص ٢٩٣.

تستمر في أخذ الجزية ولا تقبل إسلامهم^(١)، وبذلك تفرض نوعاً من التمييز بين المسلم قديماً، والمسلم حديثاً.

فالذي أسلم قديماً، يكون باستطاعته أن يشترك في الحرب والغنائم، وأن يمتلك الأرض ويعمل ما يشاء، بينما الذي أسلم حديثاً فإنه محروم من كل هذه الحقوق، وكانت نتيجة ذلك الكثير من المآسي والويلات، والارتداد عن الدين، وانكفاء الفتوحات الإسلامية، بل وسقوط بعض المناطق التي أسلم أهلها طوعاً وارتدادهم، بعد أن رأوا في الدين الجديد، من خلال ما تمارسه السلطات السياسية، أداة لتسلط مَنْ لا يتورّع عن ركوب أيِّ محرم من أجل جمع المال.

يقول الطبري: «ذكر أن أشرس^(٢) قال في عمله بخراسان: أبغوني رجلاً له ورع وفضل، أوَّجَّهه إلى من وراء النهر، فيدعوهم إلى الإسلام، فأشاروا عليه بأبي الصيياء صالح بن طريف، مولى بنى ضبة، فقال: لست بالماهر بالفارسيه، فضموا معه الربيع بن عمران التميمي.

فقال أبو الصيياء: أخرج على شريطة إنَّ مَنْ أسلم لم يؤخذ منه الجزية، فإنها خراج خراسان على رؤوس الرجال. قال أشرس: نعم، قال أبو الصيياء لأصحابه: فإنني أخرج فإن لم يفِّ العمال أعتمونني عليهم. قالوا: نعم.

فشخص إلى سمرقند، وعليها الحسن بن أبي العمرطة الكندي، على حربها وخراجها، فدعا أبو الصيياء أهل سمرقند، ومن حولها إلى الإسلام، على أن تُوضع عنهم الجزية، فسارع الناس، فكتب غوزك إلى أشرس: إن الخراج قد انكسر. فكتب

(١) قال المقرئ في الخطط: «وَأَوَّلَ من أخذ الجزية عن أسلم من أهل الذمة: الحجاج بن يوسف، ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان: أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة، فكلّمه ابن حجير في ذلك فقال: أعيدك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سنَّ ذلك بمصر، فوالله إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم، فكيف نضعها على من أسلم منهم فتركهم عند ذلك». المواعظ والإعتبار، ج ١، ص ٢٢٦.

(٢) الأشرس بن عبد الله المسلمي كان والياً على خراسان في عهد هشام بن عبد الملك.

أُشْرَسَ إلى ابن أبي العمرطة كتاباً جاء فيه: «... فانظر من اختتن، وأقام الفرائض، وحسن إسلامه، وقرأ سورة من القرآن، فارفع عنه خراجة».

ثم عزل أشرس ابن أبي العمرطة عن الخراج، وصيَّره إلى هانئ بن هانئ، وضم إليه الأشحيد... فقام أبو الصيдаء يمنعهم من أخذ الجزية ممن أسلم، فكتب هانئ: إن الناس قد أسلموا وبنوا المساجد. فجاء دهاقين بخارى إلى أشرس فقالوا: ممن نأخذ الخراج، وقد صار الناس كلهم عرباً؟.

فكتب أشرس إلى هانئ وإلى العمال: خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه، فأعادوا الجزية على من أسلم، فامتنعوا، واعتزل من أهل الصغد سبعة آلاف، فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند، وخرج إليهم أبو الصيдаء، وبيع بن عمران التميمي، والقاسم الشيباني، وأبو فاطمة الأزدي، وبشر بن جرموز الضبي، وخالد بن عبدالله النحوي، وبشر بن زبور الأزدي، وعامر بن بشير الخجندي، وبيان العنبري، وإسماعيل بن عقبة، لينصروهم.

قال: فعزل أشرس ابن أبي العمرطة عن الحرب، واستعمل مكانه المجشر بن مزاحم السلمي، وضمَّ إليه عميرة بن سعد الشيباني. قال: فلما قدم المجشر كتب إلى أبي الصيдаء يسأله أن يقدم عليه هو وأصحابه، فقدم أبو الصيдаء وثابت قطنة، فحبسهما، فقال أبو الصيдаء: غدرتم ورجعتم عمَّا قلتم!.

فقال له هانئ: ليس بغدر ما كان فيه حقن الدماء. (ثم) حمل أبا الصيдаء إلى الأشرس، وحبس ثابت قطنة عنده، فلما حُمل أبو الصيдаء اجتمع أصحابه، وولَّوا أمرهم أبا فاطمة، ليقاتلوا هانئاً.

فقال لهم: كفُّوا حتى أكتب إلى أشرس فيأتينا رأيَه، فنعمل بأمره. فكتبوا إلى أشرس، فكتب أشرس: ضعوا عليهم الخراج.

فرجع أصحاب أبي الصيдаء، فضعف أمرهم، ففتبَّ الرؤساء منهم فأخذوا، وحملوا إلى (مرو)، وبقي ثابت محبوساً، وأشرك أشرس مع هانئ بن هانئ، سليمان بن

أبي السري مولى بني عوافة في الخراج، فألح هانئ والعمال في جباية الخراج، ... وأخذوا الجزية ممن أسلم من الضعفاء، فكفرت الصغد وبخارى، واستجاشوا^(١) الترك...»^(٢).

ويعلق السيد حسن الأمين رحمته الله على هذه الحادثة فيقول: «لم يشأ هانئ هذا أن يُثقل ضميره فشهد بإسلامهم وإسراعهم إلى بناء المساجد، ولكن الإسلام وبناء المساجد ليسا مما يُرضيان والي الأمويين، وما المساجد وما العرب وما المسلمون والإسلام، إذا كان ذلك يحول دون سلب الشعوب واستصفاء أمواليها، فأصر الأشرس على أخذ الجزية ممن كانوا يأخذونها ولو حال ذلك دون انتشار الإسلام واستعراب الناس.

ومما يلفت النظر هنا أن الدهاقين - وهم مجوس - كانوا مع رأي الأشرس، وهذا يؤكد أنه قد هالهم انتشار الإسلام، وخافوا المستقبل، وطغيان الدعوة الإسلامية... هؤلاء الدهاقين المجوس الذين كان الأمويون يولونهم جباية الخراج ويمنعون العرب والمسلمين من ذلك، يتفق رأيهم كل الاتفاق مع الرأي الأموي في منع انتشار الإسلام.. فيُحَرِّضون الأمويين وعمّالهم على هؤلاء الذين أسلموا، فيقولون: ممن نأخذ الخراج وقد أصبح الناس كلهم عرباً مسلمين.

لقد أحسّوا بالخطر قبل غيرهم، وخافوا على مجوسيتهم أن يجرفها الإسلام، فتصايحوا مغضبين: لقد أصبح الناس كلهم عرباً، وماذا يسوء الأشرس وسادته الأمويون إذا صار الناس كلهم مسلمين؟.

إنه عجيب على مَنْ لم يعلم أحداث هذه الدولة وموقفها الصحيح من الإسلام، ولكنه ليس بعجيب عند مَنْ يعلم ذلك، ليس بعجيب أن يتفق رأي الدهاقين المجوس مع رأي الأمويين من انتصار الإسلام.

ولا نستطيع إلا أن نُحيي (الورع الفاضل) أبا الصيذاء وعصبته الخيِّرة الذين

(١) أي طلبوا منهم جيشاً.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٥٦.

أخرجهم معه ليعينوه إذا لم يفِ الوُلاة (العمال)، فإنهم تضامنوا جميعاً مع أهل الصغد وذهبوا إلى السبعة آلاف الذين اعتزلوا لينصروهم ويتفقوا معهم. ولكن الوُلاة استدرجوا هؤلاء الأبرار فكان مصيرهم السجن والنفي والتشريد.

نعم، السجن والنفي والتشريد للذين دعوا إلى الإسلام، للذين أسلمت على أيديهم الأفواج، واستعربت بدعوتهم الألوف.

ثم كانت النتيجة الحتمية لكل ذلك، النتيجة التي أرادها الأمويون وولاتهم، كانت النتيجة بنص الطبري: «فكفرت الصغد»^(١) وبخارى واستجاشوا الترك.

وقرّت عيون الدولة (الإسلامية) بالدعاة إلى الإسلام في سجونها ومنافيها، والناس يخرجون من الإسلام ويعودون إلى مجوسيتهم ووثنياتهم، وهل تريد الدولة الأموية غير ذلك؟».

ويضيف: «ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، والبلاء كان أقوى مما تتصور، فإن كفر الصغد وبخارى واستجاشتهم الترك لم تمض مضياً سهلاً بل دفع المسلمون الثمن غالياً، دفعوه أكثر من سبعين ألف قتيل... دفعوه هناك لسيوف الصغد وبخارى وخاقان الترك على السفوح القفراء والسهوب»^(٢) الجرداء والمفاوز المهلكة.

فإن الصغديين والبخاريين قرّروا أن يردّوا على الأشرس ردّاً جباراً... وتتابعت المعارك معركة بعد معركة، وفي كل منها تتساقط ألوف الأبطال صرعى في سبيل لا شيء، وحسبك أن معركة واحدة منها بقيادة سورة بن الحر التميمي^(٣) كان فيها اثنا عشر ألف شاب مسلم.. (وحين) التقى سورة وجيشه بخاقان الترك، لم

(١) وردت بالسين (الصغد)، في تاريخ الطبري، ج ٧، ص ٥٦، و: تجارب الأمم، ج ٣، ص ٤٢. وفي: الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ١٤٨. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ١٠٩. الصغد. قال في معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠٩: «بالضم ثم السكون، وقد يقال بالسين مكان الصاد: وهي كورة عجيبة فصبتها سمرقند، وقيل: هما صغدان صغد سمرقند، وصغد بخارى..».

(٢) الشُّبُّ مِنَ الْأَرْضِ: الْمُسْتَوِي فِي سَهْلَةٍ، وَالْجَمْعُ شُهُوبٌ.

(٣) أمير سمرقند، وأحد رؤساء تميم. أنظر: الأعلام، ج ٣، ص ١٤٥. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ١٥٧.

ينج من الجيش الإسلامي سوى ألف، وذهب الباقيون طعمة للسيوف وللنيران.
نعم للنيران، فإن نيراناً قد أُشعلت أمامهم في الحشائش والغابات. يقول
الطبري: «وثار الغبار فلم يُبصروا، ومن وراء الترك اللهب فسقطوا فيه»^(١). وقُتل
فيمن قُتل سورة قائد الجيش، واستمرت المعارك وكان من أشدها هولاً معركة
(الشعب) التي فني فيها الجيش الإسلامي وقتل منه خمسون ألف قتيل.

وفي ذلك يقول الشاعر:

اذكر يتامى بأرض الترك ضائعة هزلى كأنهم في الحائط الحجل
وارحم وإلاً فهبها أمة دمرت لا أنفس بقيت فيها ولا ثقل
لا تأملن بقاء الدهر بعدهم والمرء ما عاش ممدود له الأمل
لاقوا كتائب من خافان معلمة عنهم يضيق فضاء السهل والجبل»^(٢)

هذه الأبيات صوّر الشاعر ضياع الأمة نفسها لا ضياع يتاماها فحسب.

ثم يقول السيد حسن الأمين رحمته الله تحت عنوان: الحكم الذي عارضه الشيعة:
«هذه السياسية التي سار عليها الحكم الأموي، وهذه الأحداث التي رأينا مثلاً
منها، هي التي عارضها التشيع ودعا إلى الرجوع إلى الصواب في حكم الشعوب
ومعاملتها بالعدل، وتطبيق رسالة الإسلام عليها، التطبيق الذي أراده محمد بن
عبدالله عليه السلام».

وكانت نقمة الشعب نقمة عارمة، ولكنه كان محكوماً بالقهر، والسيوف يسلط
عليه، وعندما كانت تحين له أول فرصة، كان يُعبر عن نقمته بشتى ألوان التعبير،
وعندما كان يجد للثورة المسلحة مجاًلاً كان لا يتأخر عنها»^(٣).

وحول الكيفية التي كان الأمويون يعاملون بها أهل البلاد المفتوحة، يقول

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٧٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج ٥، ص ٤٦٠-٤٦١. نقلاً بتصرف يسير.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج ٥، ص ٤٦٣.

نقلًا عن الطبري^(١)، وهو يُحدِّث عن إحدى الحملات على بلاد الأتراك، وكان يقودها أحد أركان العهد الأموي يزيد بن المهلب: «دخل يزيد بن المهلب دهستان، فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز والسبي شيئاً لا يُحصى، ثم قبض على أربعة عشر ألف رجل تركي وقتلهم، وكتب بذلك إلى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك»^(٢).

وتحدث الطبري^(٣) في موضع آخر عن هجوم يزيد بن المهلب هذا على جرجان فقال: «قصد جرجان، فأعطى الله عهداً، لئن ظفر بهم ألا يُقلع عنهم، ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ويُختبز من ذلك الطحين ويأكل منه».

ثم يصف الطبري^(٤) ما جرى بعد انتصار يزيد: «ونزل أهل جرجان على حكم يزيد بن المهلب، فسبى نسائهم وأولادهم، وقتل رجالهم، وصلبهم فرسخين عن يمين الطريق ويساره، وساق منهم اثني عشر ألف رجل إلى وادي جرجان وقتلهم هناك وأجرى الماء في الوادي على الدم، وكان فيه مطاحن ليطحن بدمائهم، فطحن وخبز وأكل...». ويقول الطبري: «قتل يزيد من أهل جرجان أربعين ألفاً».

هذا ما فعله حاكم أموي واحد في بلدين اثنتين فقط. وإليك ما فعله حاكم أموي آخر هو قتيبة بن مسلم حاكم خراسان. قال الطبري: إنه قتل نيزك بعدما أمّنه، وقتل معه اثني عشر ألفاً. وقال الطبري -أيضاً-: «إن قتيبة لما تغلب على ملك (خام جرد) جيء إليه بأربعة آلاف أسير فقتلهم، قتل أمامه ألف، وعن يمينه ألف، وعن يساره ألف، وخلف ظهره ألف».

ويقول الطبري^(٥) عن حاكم آخر من حكام الأمويين هو قحطبة بن شبيب:

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٦، ص ٥٣٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج ٥، ص ٤٦٣.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج ٦، ص ٥٤١.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج ٦، ص ٥٤٣.

(٥) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٤٠١.

«إنه قتل من أهل جرجان زهاء ثلاثين ألفاً». وقال الطبري^(١) «إن الجراح الحكيمى^(٢) غزا أرض الترك ففتح (بلنجر)، وغرقهم وعامة ذرارهم في الماء، وسبوا ما شأوا.. وقال الطبري^(٣) -أيضاً- وهو يروي عن الوالي الأموي ابن أبي العمرطة في إحدى غزواته لبلاد الترك: «ما أتونا بل أتيناهم وغلبناهم على بلادهم واستعبدناهم...»^(٤).

الحرب بين الشمال والجنوب

أضف إلى ذلك ما ذكره المؤرخون كثيراً إلى درجة أن بعضهم اعتبره أحد الأسباب الرئيسة في انهيار الدولة الأموية، ألا وهي التفرقة العنصرية التي مارسوها بين أهل الشمال (المضريين) -نجد وأطرافها- وأهل الجنوب (اليمنيين) -قبائل ربيعة واليمن-، ولقد ظلَّت الحروب والعداوة منتشرة بين الفريقين منذ زمن معاوية وحتى زمن المأمون العباسي، وإذا كانت تخفُّ في بعض الفترات إلاَّ أنها ظلَّت مستمرة على شكل مناوشات وثارات بين الطرفين.

فالقبييلة المضرية تقتل عشرين رجلاً من اليمنيين، وهؤلاء بدورهم إذا رأوا عشرين مضرياً فإنهم يُبادرون إلى قتلهم حتى لو لم يكن لهم ناقة ولا جمل فيما يحدث. كل ذلك كان يجري على عين ومرأى السلطة، وبتشجيع منها على استمراره.. بدلالة أنها -السلطة- عندما أرادت أن تُوقف هذه الحروب فإنها استطاعت. وقد حدث هذا في عهد هارون الرشيد عندما بعث جعفر البرمكي ليقوم بهذه المهمة فتوقَّفت الحرب. وإلى ما يقارب من العشرين سنة لم يحدث أن قُتل أحد من قِبَل أحد الطرفين، ولكن بعدها عاودت المعارك استمراريتها، بسبب بعض الخلفاء الذين غدَّوا الخلافات مرة أخرى.. وعادت بذلك المجازر التي كانت تأخذ في

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ١٥.

(٢) أمير على أرمينية وأذربيجان (خراسان). وكان والياً على البصرة في زمن الحجاج. قتلته الترك. الأعلام، ج ٢، ص ١١٥. البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٣٤. شذرات الذهب، ج ٢، ص ٦٣.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٣٨.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج ٥، ص ٤٦٣-٤٦٤.

طريقها الأخضر واليابس، ويذهب ضحيتها النساء والشيوخ والأطفال والمساكين.

الفساد الإداري والمحسوبيات

كما كانت هناك الكثير من العصبية الأخرى منتشرة في الدولة الإسلامية، وبالذات في الجهاز الحاكم المسيطر على مقاليد الأمور، ومن أبرز أمثلة ذلك وأكثرها وضوحاً أنه عندما كان أحد الأشخاص يصبح وزيراً، أو والياً، فإنّ هذا الأمر يستتبعه أن تُصبح كل المجموعة القريبة منه ذات أهمية، وتتولّى بذلك مناصب عالية، لا شيء يمتازون به، أو كفاءة يمتلكونها، سوى قربهم من هذه الشخصية صاحبة الموقع والمنصب الحساس^(١).

فهذا معاوية بن أبي سفيان يؤمّر ابنه يزيد بن معاوية، ويجعله على رأس جيش من جيوش المسلمين الذاهبة للقتال ضد الروم^(٢)، وفعلاً سار بهم ولكنه في الطريق وصل إلى منطقة ذات ماء عذب وهواء عليل، وفيها دير مرّان^(٣) (وقديماً كان في الأديرة - جمع دير - أنواع مختلفة من الخمور المعتقة)، فوجد يزيد ذلك فرصة مناسبة، حيث وجد له بالإضافة إلى ذلك عشيقه تُؤنسه وتُلاطفه^(٤)، فاستقر هناك، وطاب له العيش في ذلك الدير، فتوقّف الجيش فترة، فانتشر فيه الوباء وتحطّمت نفسيات الجند والمقاتلين، وجاء البعض إلى يزيد ليُحثّه على الخروج والمسير لقتال الروم، ولكن يزيد رفض رفضاً قاطعاً، قائلاً:

(١) كان هذا واضحاً وبارزاً في خلافة الثالث، وقد مرّ ما يؤكد ذلك في أول بحوث الكتاب، فراجع.

(٢) أنظر: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٥٨. أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٨٦. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ١٢. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٩. مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٤. تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٠، ص ٢٦٠. الأغاني، ج ١٧، ص ١٣٦.

(٣) من الأديرة المشهورة يقع بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران، وفي تاريخ مدينة دمشق: (ج ٧٠، ص ٢٦٠) دير سمعان، وهو -أيضاً- من نواحي دمشق وحواليه قصور منتزهات وبساتين لبني أمية. أنظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٤) هي: أم كلثوم بنت عبدالله بن عامر. تذكر المصادر التاريخية أنها زوجته وعشيقتها، قد هام فيها.

إذا ارتفعتُ على الأنماط مصطبحا بدير مرّان عندي أم كلثوم
فما أبالي بما لاقت جنودهم بالغدقذونة^(١) من حمى ومن موم
إن هذا الجيش في ضخامته لو كان يُواجه البيزنطيين لكان من الممكن أن
يقضي عليهم ويُسجّل نهايتهم إلى الأبد، ولكن مع الأسف، إن القائد الذي كان
يُمسك بزمام الأمور، لم يكن يملك ذرّة من كفاءة ومقدرة على إنجاز ما وُجّه إليه،
ولذلك فلا غرابة أن يعود هذا الجيش منكسراً ذليلاً محطماً نفسياً.

ومظهر آخر من مظاهر المحسوبة، وهو أنه إذا عُزل خليفة ما أو مات فإن
الذي يحل مكانه كان أول ما يفعله هو أن يأتي على الأخضر واليابس ممّا خلّفه الذي
سبقه في الحكم، إذ يُبادر في البدء إلى تغيير جميع الولاة ويستبدلهم بأهل بيته وخاصته،
ليس لأنّ من يأتي بهم أصحاب كفاءة وتجربة وإنما لأنهم من أهله فقط. ويسبب
بذلك الاضطراب والتوتر في البلاد الإسلامية، كما يدمر أوضاع الكثير من الأهالي.
وعلى سبيل المثال: عندما جاء البرامكة إلى الحكم، أتوا حتى بأطفالهم ونصبوهم في
مواقع حساسة في الدولة، وعندما جاء جماعة الفضل نصبوا الشخصيات التي
تُوّليهم في السلطة دون أدنى تقدير للكفاءة والقدرة^(٢).

وقبل أولئك، نجد الحجاج بن يوسف الثقفي، عندما كان والياً من قبل

(١) تقع في آسيا الصغرى.

(٢) حكم يحيى البرمكي مدة سبعة عشرة سنة، ويساعده -ومنذ نعومة أظفارهم- في إدارة شؤون
الدولة العباسية أبناؤه الأربعة، وهم: الفضل، جعفر، محمد، موسى. قال اليعقوبي في تاريخه،
ج ٢، ص ٤٢٩: «وكان الغالب على الرشيد يحيى بن خالد بن برمك، وجعفر والفضل لإبنائه،
صدراً من خلافته، حتى ما كان له معهم أمر ولا نهي، فأقاموا على تلك الحال، وأمور المملكة
إليهم سبع عشرة سنة، ثم كان الفضل بن الربيع يغلب عليه، وإسماعيل بن صبيح، وعلى
شُرطة القاسم بن نصر بن مالك، ثم عزله وولى خزيمة بن خازم، ثم عزله وولى المسيب بن
زهير الضبي، ثم عزله واستعمل عبد الله بن مالك، ثم عزله واستعمل علي بن الجراح الخزاعي،
ثم عزله، واستعمل عبد الله بن خازم، وكان على حرسه جعفر بن محمد بن الأشعث، ثم عزله
واستعمل عبد الله بن مالك، ثم هرثمة بن أعين، وكان حاجبه الفضل ابن الربيع».

الأمويين على الكوفة^(١)، فإنه يُؤيِّ ابن عمّه محمد بن القاسم الثقفي على السند^(٢). وعندما جاء إلّ غيره، فإنّه سرّح كلّ العمال الذين كان الحجاج قد عيّنهم، وسجن قسماً آخر منهم^(٣).

إذاً هكذا كانت الصورة على صعيد المحسوبيات التي كانت متفشية ومنتشرة في الجهاز الحاكم والمسيطر على مقاليد الأمور في البلاد الإسلامية.

الإرهاب الفكري

وشكّل الإرهاب الفكري جزءاً آخر من الصورة التي كانت تعيشها البلاد الإسلامية، هذا الإرهاب الفكري الذي سيطر وخيّم على الوضع، حيث مارسه الخلفاء في أجلى صورته، وكُتِب التاريخ مليئة بالشواهد والأمثلة، التي تحكي واقع هذا الإرهاب وانعكاساته السلبية على الحركة الثقافية، وعلى المفكرين المسلمين، وبالتالي على مصير الأمة الإسلامية ككل^(٤).

(١) وليّ الحجاج - من قبل عبد الملك بن مروان - ولاية الكوفة، وذلك عام ٧٨هـ، وفي ذات السنة عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن إمرة خراسان، وضمها إلى أعمال الحجاج مع سجستان فأصبح الحجاج والياً على الكوفة وخراسان، فكان يعزل ويعيّن من العمال، كما يرى ووفق مصالحه. أنظر: تاريخ الأمم والملوك، ج ٦، ص ٣١٩. البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢١.

(٢) عرف بفتح السند، من كبار رجال بني أمية. أنظر: تاريخ الأمم والملوك، ج ٦، ص ٤٤٢. أنساب الأشراف، ج ٩، ص ١١٧. تاريخ الإسلام، ج ٦، ص ٢٥٧. الأعلام، ج ٦، ص ٣٣٣.

(٣) هو: سعيد بن عبد العزيز بن الحرث، والي خراسان، عيّنه مسلمة بن عبد الملك بن مروان، الذي جمع له يزيد بن عبد الملك ولاية البصرة والكوفة وخراسان، قال ابن خلدون في تاريخه، ج ٣، ص ١٠١: «واستعمل مسلمة على خراسان صهره سعيد بن عبد العزيز بن الحرث.. ثم حبس سعيد (يقال له سعيد خذينه) عمّال عبد الرحمن بن عبد الله وأطلقهم، ثم حبس عمال يزيد بن المهلب، فعذبهم فمات بعضهم في العذاب، وبقي بعضهم بالسجن حتى غزاهم الترك والصغد فأطلقهم». أنظر أيضاً: تاريخ الأمم والملوك، ج ٦، ص ٦٠٦.

(٤) قال المأمون بخلق القرآن، فحمل العلماء والناس على رأيه بالقهر والقوة، وسجن كل من لا يقول بمقالته، وتبعه على ذلك المعتصم، والواثق. أنظر: تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٣٤. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٦٨. تاريخ بغداد، ج ٥، ص ٣٨٦. حياة الحيوان الكبرى، ج ١، ص ١١٧.

فبالرغم من أن الإسلام جاء بشعار ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١) فإن الإرهاب الفكري قد ساد لفترات طويلة، ولو كانت الحرية هي السائدة في الدولة الإسلامية، لطرح الجميع آراءه، ولحصل تلاقح فكري على كل الأصعدة، ولنضجت الرؤى والأفكار بما يعود على المجتمع الإسلامي بالفوائد الجمّة، ولحلّت الكثير من الاختلافات الفكرية والفقهية التي نشأت بين المسلمين، ومن ثم لعادت على البشرية جمعاء بالفوائد الجمّة الكثيرة.

إن التقدّم العلمي الذي نشاهده في الدول الأوروبية اليوم، إنما تحقق الجزء الأكبر منه بسبب الحرية الفكرية التي سادت بعد العصور الوسطى. ففي عصر النهضة أنتجت الرؤى الناضجة، وساعدت الحرية الفكرية على تنميتها، بينما الذي حصل في الدول الإسلامية هو العكس، حيث ساد الإرهاب الفكري بسبب سيطرة الحكومات الظالمة المنحرفة^(٢)، ممّا عرقل نمو الفكر البشري، وأوقف عملية نمو المسيرة الإسلامية.

دور الحركات الرسالية

إن الحركات الرسالية إنما كانت تمثّل محاولة جادة لإزالة كل هذه السلبات من المجتمع، مستهدفة صهر كل أبناء البشر في بوتقة الإسلام على أساس قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٣). وليس غريباً أنك تجد أن الإمام زين العابدين عليه السلام لا يضره أن يتزوج بواحدة من الإماء، وعندما يسمع عبد الملك بن

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

(٢) قال معاوية بن أبي سفيان لسفيان الغامدي: «إني باعثك بجيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتى تمرّ بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جُنْدًا فأغر عليهم، وإلا فامض حتى تُغيّر على الأنبار، فإن لم تجد بها جُنْدًا فامض حتى تُغيّر على المدائن، ثم أقبل اليّ، وأتق أن تقرب الكوفة، واعلم أنّك إن أغرت على الأنبار وأهل المدائن فكأنّك أغرت على الكوفة، إنّ هذه الغارات ياسفيان على أهل العراق تُرعب قلوبهم، وتُفرج كلّ مَنْ له هوى فينا منهم، وتدعو إلينا كلّ ما خاف الدوائر، فاقتل كلّ مَنْ لقيته تمنّ هو ليس على مثل رأيك، وأخرب كلّ ما مررت به من القرى، وأحرب الأموال فإنّ حرب الأموال شبيهة بالقتل وهو أوجع للقلب». الغارات، ج ٢، ص ٤٦٦.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

مروان بذلك يبعث برسالة إليه يقول فيها: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي تَزْوِجُكَ مَوْلَاكَ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ كَانَ فِي أَكْفَائِكَ مِنْ قُرَيْشٍ مَنْ تَمَجَّدَ بِهِ فِي الصُّهْرِ، وَتَسْتَنْجِبُهُ فِي الْوَلَدِ، فَلَا لِنَفْسِكَ نَظَرَتْ وَلَا عَلَى وَلَدِكَ أَبْقَيْتَ، وَالسَّلَامُ».

فيرد عليه الإمام زين العابدين عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تُعَنِّفُنِي بِتَزْوِجِي مَوْلَايَ، وَتَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي نِسَاءِ قُرَيْشٍ مَنْ أَمَجَّدَ بِهِ فِي الصُّهْرِ وَأَسْتَنْجِبُهُ فِي الْوَلَدِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فَوْقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُرْتَقًى فِي تَجْدٍ، وَلَا مُسْتَزَادٍ فِي كَرَمٍ، وَإِنَّمَا كَانَتْ مِلْكٌ بِمِثْنِي خَرَجْتُ مِنِّي، أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنِّي بِأَمْرِ التَّمَسُّتِ بِهِ ثَوَابَهُ، ثُمَّ ارْتَجَعْتُهَا عَلَى سُنَّتِهِ، وَمَنْ كَانَ زَكِيًّا فِي دِينِ اللَّهِ فَلَيْسَ يُحِلُّ بِهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ، وَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ الْخَسِيسَةَ، وَتَمَّمَ بِهِ النَّقِيصَةَ، وَأَذْهَبَ اللَّؤْمَ، فَلَا لُؤْمَ عَلَى امْرِئٍ مُسْلِمٍ، إِنَّمَا اللَّؤْمُ لُؤْمُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالسَّلَامُ»^(١).

أي إن عملي هذا هو تكريس للقيم الإسلامية، وذلك بالاقتداء بالرسول ﷺ، فالإسلام جاء ليرفع هذه الجاهليات. فإمام المسلمين هو الذي يجب أن يبدأ لكي يكون القدوة، فقيمة هذا العمل من الناحية الحضارية عظيمة، كما أنه يدفع الأمة إلى المعاني والقيم المثلى، لأن هذه التفرقة حينها تزول تبدأ الكفاءات بالعمل.

وحينما نقرأ التاريخ نجد أمامنا قائمة طويلة بأسماء العباقرة المسلمين، الذين ذاع صيتهم في العالم الإسلامي، وكانوا أفضل الأطباء والفلاسفة، والمحدثين، والمخترعين، وكان أكثرهم من أصول غير عربية، وكانوا ممن يُسمَّون بالموالي، وهؤلاء إنما برزوا بسبب بعض الفترات التي عاشت فيها الأمة الإسلامية نوعاً من الحرية الفكرية، حيث استطاع الإمام الصادق عليه السلام مثلاً، أن يبت من علومه، وأن يُخرِّج عشرات العلماء في مختلف حقول المعرفة.

ولو قُدر للأمة أن تعيش جو الحرية على امتداد الفترة التي حكم فيها الأمويون والعباسيون، لوجدنا من العباقرة والعلماء أضعاف ما وجدناهم في تاريخنا.

إننا نرى أن فاتح الأندلس، طارق بن زياد، الذي قاد جيش المسلمين إلى تلك الأرض، وأصبح كالجسر في حمل الحضارة الإسلامية إلى الغرب، كان رجلاً من الموالى^(١). فالإسلام أطلق حرية هذا الرجل، وهو بدوره فجّر طاقاته.

إن الفتوحات الإسلامية ممّا لا شك فيه تختلف اختلافاً جذرياً عن الاستعمار، فقد كان الإسلام في فتوحاته يستهدف رفعة تلك الشعوب. وفعلاً رأينا ذلك كثيراً، فقد كان المسلمون عندما يفتحون منطقة كانوا يتقدّمون صوب منطقة أخرى وهم مدعومين بأبناء المنطقة التي افتتحت حديثاً، كما كانوا يُشاركونهم السّراء والضّراء في حياتهم، ولذلك فإن تلك المناطق التي فتحها الإسلام خرج منها الفلاسفة، والأطباء، والعلماء، والكثير من القيادات العسكرية التي لها أياذٍ بيضاء على مسيرة الإسلام.

هذه بعض القيم التي أراد الإسلام أن تتكرّس، وهذه القيم هي التي حاربت من أجلها الحركة الرسالية والتي سقت بدماء أبنائها شجرتها حتى تبقى وتنمو.

ويبقى سؤال: إذا لم تكن الحركة الرسالية موجودة في التاريخ الإسلامي، فماذا كانت ستكون عليه البلاد آنذاك؟.

والجواب ببساطة: لو لم تكن الحركة الرسالية في التاريخ لكانت البلاد الإسلامية ومنذ ما يزيد عن ١٣٠٠ سنة في وضع يُشبه وضعها اليوم، حيث المسلمون مهجورون في كل مكان، وهم يُعانون من القهر والتخلف.

لماذا تحطّمت البلاد الإسلامية في القرن العشرين؟.

لأن القبيلة الفلانية التي تحكم ذلك الجزء من البلاد الإسلامية تحارب على مصالحها ضد الحزب الفلاني، الذي يُحاول أيضاً أن يزيد من أعضاء حزبه، ولأن الأمة الواحدة تحوّلت إلى ألف جزء كما قال الشاعر:

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

(١) مولى موسى بن نصير، بربري من المغرب. تاريخ الإسلام، ج ٦، ص ٣٩٣.

فبينما يجب أن تكون الروابط بين دول العالم الإسلامي هي روابط التعاون والتكاتف، نجد أن علاقات بعضها ببعض هي علاقات تناحر وتطاحن، وهذا أكبر أسباب تحطم البلاد الإسلامية في الوقت الحاضر.

إن العنصرية، والتفرقة، والإرهاب الفكري، كل ذلك مسببات أدت إلى جلب الويلات على رؤوسنا، ونزول الكوارث بنا في غابر الزمن وفي الوقت الحاضر.

إن الحركة الرسالية كانت تُدافع عن القيم السامية التي كانت رابطة للأمم، ومحوراً لوحدها، ومنطلقاً لحضارتها، وكانت تكرس هذه القيم في ضمير الأمة، وحينما خمدت هذه الحركة، تفرقت البلاد الإسلامية شيئاً فشيئاً، وبدأ يسودها الإرهاب والعنصرية. وهذا شيء طبيعي، وسُنّة كونية أوجدها الله، ذلك لأن القيم الجاهلية تُمزق الأسرة الواحدة فكيف لا تُمزق البلدان المتحدة؟.

وبنظرة بسيطة إلى خارطة العالم الإسلامي اليوم نجد كيف تحوّلت الأمة الواحدة إلى أوصال، كل قطعة معزولة عن الأخرى.

لماذا حدث كل هذا؟.

لأن الحركة التي كانت تجمعهم وتشدّ لحمتهم ذهبّت، وقُضي عليها، وهي تلك التي كانت تُكرّس القيم الإسلامية، وبها تردع الدولة عن أي انحراف وخروج عن جادة الصواب.

إن جسم الإنسان يتكوّن من لحم وعظام، والعظام هي التي تجمع الأعضاء وتعطيها هذا الشكل المتناسق، والحركة الرسالية في التاريخ كانت بمثابة الهيكل العظمي للإسلام. حافظت على وجوده، وحاولت أن تُقوّم المسيرة التي اهتدت إلى ذلك سبيلاً.

ولولم تكن الحركة الرسالية قائمة في الأمة الإسلامية لرأينا التخبط والانحيار منذ زمن بعيد. ولأصبحت الأمة كومة من اللحم. وإذا ما أصبحت لحماً فلا بد أن يستلمه الجزار، وهذا هو عين ما حدث بعد مؤامرة تغييب الحركة الرسالية عن

الساحة، وحينها وُثِدَت الحركة الرسالية تحوّل المسلمون إلى جثث هامدة، بلا حركة وبلا روح، وكان الجزّارون حاضرين.

وحينما يقع الجمل تكثر سكاكينه كما يقول المثل المعروف، حيث إن الجمل يُضرب أولاً، بالسكين أو بالسيف على رقبتة، فيقوم بالدوران والنطل، حتى ينهار. ونحن كُنّا إبلاً سقطنا بعد أن نُحِرْنَا، فتكاثرت علينا الجموع تناهبنا، وقد كانت بداية النحر هو ذلك اليوم الذي وُثِدَت فيه الحركة الرسالية.

وهنا نطرح التساؤل التالي:

- ماذا كانت آثار الحركة الرسالية على الحضارة الإسلامية، وبالتالي على الحضارة الإنسانية جمعاء؟. ويتحدّد السؤال أكثر عندما نقول: ماذا كانت آثار الحضارة الإسلامية على الحضارة الإنسانية؟.

للتعرّف إلى شيء بسيط من هذه الآثار، فإن كتاب (شمس العرب تُشرق على الغرب)^(١)، لإحدى المؤلفات الألمانية، يُعطي صورة بسيطة من هذه الآثار، هذا الكتاب يحوي تتبعاً قليلاً لآثار الحضارة الإسلامية على كل علم مُتطوّر.

إن التطوّر العلمي الذي هو ليس ملكاً لأحد، هذا التطوّر إنما هو وليد الحضارة الإسلامية. ولو لم تكن هناك حضارة إسلامية لما كانت الحضارة الإنسانية لتصل إلى كل هذا التطوّر، وهذه الحقيقة ربما يتحسّسها ويؤمن بها أكثر منا، أولئك الباحثون في شؤون الحضارات والتاريخ، مثل: توينبي^(٢) الباحث الإنجليزي الذي

(١) كتاب مترجم، للكاتبة الاستشراقية الألمانية: زجريد هونكة، حمل عنوان: شمس العرب تشرق على الغرب، أو: شمس الله تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبا. نقله للعربية: فاروق بيضون، وكمال دسوقي.

(٢) أرنولد جوزيف توينبي، من أشهر مؤرخي القرن العشرين. ولد في لندن عام ١٨٨٩م، توفي عام ١٩٧٥م، كتب سلسلة سنوية في التاريخ الدولي، ومن أشهر أعماله: دراسة التاريخ. جاء في ١٢ مجلد، فسر قيام الحضارات على أساس التحدي والاستجابة، وينظر لما قاله بأن مجرى التاريخ تضبطه وتسيره قوى نفسية أكثر منها قوى مادية. أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، ج ٢، ص ١٠٧١.

يؤكد كثيراً على هذه الحقيقة، لأنه بحث تاريخ الحضارات لمدة خمسين سنة، وتحسّس بعمق وآمن بقوة بهذه الحقيقة.

وممّا لا شك فيه ومن خلال دراستنا لتاريخ الحركة الرسالية نجد أن الحضارة الإسلامية بدورها كانت وليدة هذه الحركة وظلت رهينة لها.

من خلال تلك الدراسة نعرف أن الإمام الحسين عليه السلام حينما استشهد في كربلاء، كان يسقي بدمه ملايين الملايين من البشر ليحييهم، لقد كانت شهادته من أجل القيم التي نُكرّرها:

- ١ - قيمة الوحدة، والعدالة، والأخوة، والتي تعارضها العنصرية.
- ٢ - قيمة الاهتمام بالكفاءات، وتعارضها المحسوبية، والقيادات غير الكفوءة التي كانت تحكم الأمة الإسلامية.
- ٣ - قيمة الحرية الفكرية، والتي يُعارضها الإرهاب الفكري.
- ٤ - المساواة بين جميع الطبقات وجميع الألوان، والتي دافعت عنها الحركة الرسالية وعمل الأئمة الأطهار عليهم السلام في سبيلها.

ولو قدّر للحركة الرسالية، أن تستلم الحكم في عهد أئمة أهل البيت عليهم السلام لكانت عملت من التغيير والعطاء أكثر ممّا يتصوّره الإنسان.

ويبقى سؤال هو: إن الذين ورثوا الكتاب، وورثوا تاريخ الرسالة، وورثوا الحركة الرسالية، والذين يعتقدون أنهم في خطّها، هل استطاعوا أن يؤدّوا ما عليهم من واجبات الوراثة؟. وهل هم الآن رُؤاد الحضارة الإسلامية والإنسانية؟. وهل هم الآن يُدافعون عن الحرية والمساواة والعدالة أم لا؟.

نسأل الله التقدير أن يُوفّقني والقراء الكرام لهذا العمل العظيم.

وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين، وعلى مَنْ اتَّبَعهم بإحسان إلى يوم الدين.

صَفْوَالِكَلَامِ

* كانت الحركة الرسالية تدافع عن القيم السامية التي كانت رابطة للأمة، ومحوراً لحدثها، ومنطلقاً لحضارتها، وحينما خمدت هذه الحركة تفرقت البلاد الإسلامية، وبدأ يسودها الإرهاب والعنصرية.

* إن الحضارة الإنسانية هي وليدة الحضارة الإسلامية -باعتراف الغربيين قبل غيرهم- والحضارة الإسلامية هي وليدة القيم الإسلامية السامية التي جاهدت الحركة الرسالية في سبيل تكريمها في ضمير الأمة.



١٩ قائمة المصادر والمراجع في التحقيق

١. ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن الحسين المدائني، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م، الطبعة الأولى.
٢. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، الناشر: دار صادر ودار بيروت، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٣٨٥ هـ، ١٩٦٥ م، الطبعة الأولى.
٣. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م، الطبعة الأولى.
٤. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: لجنة من العلماء، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م، الطبعة الأولى.
٥. ابن حمدون، أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي، التذكرة الحمدونية، الناشر: دار صادر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٧ هـ، الطبعة الأولى.
٦. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المشهور بـ(تاريخ بن

- خلدون)، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، الطبعة الثانية.
٧. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، الناشر: دار صادر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، الطبعة الأولى.
٨. ابن الصَّبَّاح، الشيخ الإمام علي بن محمد المالكي المكي، الفصول المهمة في معرفة الأئمة عليه السلام، حققه ووثق أصوله وعلق عليه: الأستاذ سامي الغريزي (الغراوي)، الناشر: مؤسسة دار الحديث للطباعة والنشر، إيران - طهران، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، الطبعة الأولى.
٩. ابن الصُّوفي، العلامة النسابة الشريف نجم الدين أبي الحسن علي العلوي العمري الأطرقي، المجدي في أنساب الطالبين، تقديم آية الله العظمى السيد المرعشي النجفي، تحقيق: الدكتور أحمد مهدوي دامغاني، الناشر: مكتبة المرعشي النجفي، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ، الطبعة الثانية.
١٠. ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، الناشر: دار القلم العربي، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.
١١. ابن عباد، صاحب، الزيدية، تحقيق الدكتور: ناجي حسن، الناشر: الدار العربية للموسوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٨٦م، الطبعة الأولى.
١٢. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجليل، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، الطبعة الأولى.
١٣. ابن عبد ربه، شهاب الدين أبو عمرو أحمد بن محمد، العقد الفريد، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة الأولى.

١٤. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن حسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي، تاريخ مدينة دمشق، الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٥ هـ، الطبعة الأولى.
١٥. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن حسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي، تاريخ مدينة دمشق. الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٥ هـ. الطبعة الأولى.
١٦. ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، الناشر: دار الآفاق العربية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م، الطبعة الأولى.
١٧. ابن عنبه، عمدة النساين جمال الدين أحمد بن علي الحسيني، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب عليه السلام، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، الناشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي الكبرى، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م، الطبعة الأولى.
١٨. ابن الغضائري، أحمد بن الحسين بن عبيد الله الواسطي البغدادي، الرجال، تحقيق: السيد محمد رضا الحسيني الجلاي، الناشر: مؤسسة دار الحديث، إيران - طهران، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ، الطبعة الأولى.
١٩. ابن الفقيه، أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني، البلدان، الناشر: عالم الكتب، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٦ هـ، الطبعة الأولى.
٢٠. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٩٢ م، الطبعة الثانية.
٢١. ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٦ م، الطبعة الأولى.
٢٢. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، حققه

- وصححه: أحمد فارس - صاحب الجوائب، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر - دار صادر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٤ هـ، الطبعة الثالثة. ٢٣. أبو زهرة، الإمام محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسية والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، الناشر: دار الفكر العربي، مصر - القاهرة، لم يذكر تاريخ النشر.
٢٤. أبو الفداء، المؤيد عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء)، الناشر: المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة - مصر، لم يذكر تاريخ النشر والطبعة.
٢٥. أرنولد، سيرت، الدعوة إلى الإسلام.. بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، اسماعيل النحراوي، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٤٧ م، الطبعة الأولى.
٢٦. الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، لبنان - صيدا، سنة النشر: ١٤١١ هـ، ١٩٩٠ م، الطبعة الأولى.
٢٧. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، الناشر: دار إحياء التراث، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٥ هـ، الطبعة الأولى.
٢٨. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، مقاتل الطالبين، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعرفة، لبنان - بيروت، مجهولة التاريخ.
٢٩. الأصفهاني، الميرزا عبد الله أفندي، تعلية أمل الآمل، الناشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٠ هـ، الطبعة الأولى.
٣٠. آل علي، الدكتور نور الدين، الإمام الصادق عليه السلام كما عرفه علماء الغرب، راجعه: الأستاذ وديع فلسطين، الناشر: مكتبة الألفين - الكويت، مؤسسة الوفاء - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م، الطبعة الأولى.

٣١. آل ياسين، الإمام المجاهد الشيخ راضي، صلح الحسن عليه السلام، تصدير: آية الله السيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي، الناشر: ناصر خسرو، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م، الطبعة الرابعة.
٣٢. الأمين، العلامة السيد محسن، أعيان الشيعة، الناشر: دار التعارف للمطبوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ، الطبعة الأولى.
٣٣. الأمين، حسن، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، الناشر: دار التعارف للمطبوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، الطبعة الخامسة.
٣٤. الأمين، حسن، الإمام الرضا عليه السلام والمأمون وولاية العهد.. وصفحات من التاريخ العباسي، الناشر: دار الجديد، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٥ م، الطبعة الأولى.
٣٥. باشا، إبراهيم فوزي، السودان بين يدي غردون وكشنر، الناشر: المؤلف وجريدة المؤيد، سنة النشر: ١٣١٩ هـ. الطبعة الأولى.
٣٦. البرقي، أبو جعفر أحمد بن أبي عبدالله، كتاب الرجال، الناشر: مؤسسة النشر في جامعة طهران، طهران - إيران، سنة النشر: ١٣٨٣ هـ، الطبعة الأولى.
٣٧. بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس - منير البعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٦٨ م، الطبعة الخامسة.
٣٨. البسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان، المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م، الطبعة الثانية.
٣٩. البصري (ابن سعد)، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠ م، الطبعة الأولى.
٤٠. البغدادي، ياقوت الحموي، معجم البلدان، الناشر: دار صادر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٥ م، الطبعة الثانية.

٤١. البغدادي، يوسف بن فرغلي بن عبدالله (سبط ابن الجوزي)، تذكرة الخواص، تقديم: العلامة الكبير السيد محمد صادق بحر العلوم، الناشر: مكتبة نينوى الحديثة، إيران - طهران، لم يذكر سنة النشر.
٤٢. البغدادي (السويدي)، الشيخ الفاضل محمد أمين، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، الناشر: دار إحياء العلوم، لبنان - بيروت، لم يذكر سنة النشر.
٤٣. البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، الناشر: دار ومكتبة الهلال، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٨٨ م، الطبعة الأولى.
٤٤. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار، ورياض الزركلي، الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م، الطبعة الأولى.
٤٥. البهلولي، القاضي الإمام جعفر بن أحمد بن عبد السلام اليماني، تيسير الطالب في أمالي أبي طالب، الناشر: مؤسسه الإمام زيد بن علي، اليمن - صنعاء، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ، الطبعة الأولى.
٤٦. تامر، الدكتور عارف، الإمامة في الإسلام، الناشر: دار الأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م، الطبعة الأولى.
٤٧. تامر، الدكتور عارف، تاريخ الإسماعيلية، الناشر: دار رياض الرئيس للكتب والنشر، لندن - قبرص، سنة النشر: ١٩٩١ م، الطبعة الأولى.
٤٨. التبريزي، العلامة الرجالي آية الله ملا علي العلياري، بهجة المقال في شرح زبدة المقال، الناشر: منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، ومؤسسة المعارف الإسلامية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٩٥ هـ، الطبعة الأولى.
٤٩. التستري، العلامة المحقق آية الله العظمى الشيخ محمد تقي، قاموس الرجال، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٣٢ هـ، الطبعة الخامسة.

٥٠. التفريشي، الرجالي المحقق السيد مصطفى بن الحسين الحسيني، نقد الرجال، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٨ هـ، الطبعة الأولى.
٥١. الثقفى، إبراهيم بن محمد الكوفي، الغارات أو الاستنفار والغارات، تحقيق: جلال الدين الحسيني الأرموي، الناشر: لجنة الآثار الوطنية، إيران، طهران، سنة النشر: ١٩٧٤ م، الطبعة الأولى.
٥٢. الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناي، الرسائل السياسية، الناشر: دار ومكتبه هلال، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٣ هـ، الطبعة الثانية.
٥٣. جدعان، الدكتور فهمي، أسس التقدم عند فكري الإسلام في العالم العربي الحديث، الناشر: دار الشروق، الأردن - عمان، سنة النشر: ١٩٨٨ م، الطبعة الثالثة.
٥٤. الجزري، عز الدين بن الأثير أبو الحسن علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، الناشر: دار الفكر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩ م، الطبعة الأولى.
٥٥. جعفریان، رسول، الشيعة في إيران دراسة تاريخية، تعريب: علي هاشم الأسدي، الناشر: مؤسسة النشر التابعة للأستانة الرضوية المقدسة، إيران - مشهد المشرفة، سنة النشر: ١٤٢٠ هـ، الطبعة الأولى.
٥٦. الجلالی، السيد محمد حسين الحسيني، فهرس التراث، تحقيق: محمد جواد الحسيني الجلالی، الناشر: دليل ما، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ، الطبعة الأولى.
٥٧. الجلالی، السيد محمد حسين الحسيني، مزارات أهل البيت عليه السلام وتأريخها، الناشر: الناشر: مؤسسة الأعلمی للمطبوعات، سنة النشر: ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م، الطبعة الثالثة.
٥٨. الجمعحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء (السفر الأول)، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، لم يذكر اسم الناشر، أو سنة النشر.

٥٩. الجهشيارى، أبو عبدالله محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، تقديم: الدكتور حسن الزين، الناشر: دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، الطبعة الأولى.
٦٠. الحائري، العلامة الفاضل محمد بن علي الأردبيلي الغروي، جامع الرواة وإزاحة الاشتباهات عن الطرق والإسناد، الناشر: دار الأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، الطبعة الأولى.
٦١. الحر العاملي، المحدث الكبير والعلامة المحقق الشيخ محمد بن الحسن، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى.
٦٢. الحر العاملي، المحدث الكبير والعلامة المحقق الشيخ محمد بن الحسن، أمل الأمل في علماء جبل عامل، الناشر: مكتبة الأندلس، العراق - بغداد، سنة النشر: ١٣٨٥هـ، الطبعة الأولى.
٦٣. الحرائي، الشيخ أبو محمد حسن بن علي بن حسين بن شعبة، تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة الثانية.
٦٤. حرز الدين، المؤرخ الكبير آية الله الشيخ محمد، مرآة المعارف في تعيين مرآة العلويين والصحابه والتابعين، علق عليه وحققه: محمد حسين حرز الدين، الناشر: انتشارات سعيد بن جبير، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٨٠هـ. الطبعة الأولى.
٦٥. حسن، الدكتور حسن إبراهيم - شرف، الدكتور طه أحمد، عبيدالله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م، الطبعة الأولى.
٦٦. حسن، الدكتور حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي

- والاجتماعي، الناشر: دار الجيل - مكتبة النهضة المصرية، لبنان - بيروت، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠٢ م، الطبعة الخامسة عشر.
٦٧. الحسيني، السيد هاشم معروف، الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ، الناشر: دار التعارف للمطبوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠ م، الطبعة الأولى.
٦٨. حسين، الدكتور محمد كامل، طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٥٩ م، الطبعة الأولى.
٦٩. الحلّي، السيد رضي الدين علي بن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، الناشر: مطبعة الخيام، قم المقدسة - إيران، سنة النشر: ١٤٠٠ هـ، الطبعة الأولى.
٧٠. الحلّي، العلامة أبو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر الأسدي، خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، تحقيق: الشيخ جواد القيومي الأصفهاني، الناشر: نشر الفقاهة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ، الطبعة الأولى.
٧١. الحلّي، العلامة نجم الدين جعفر بن حسن، المعبر في شرح المختصر، حققه وصححه: محمد علي الحيدري، السيد مهدي شمس الدين، السيد أبو محمد المرتضوي، السيد علي موسوي. الناشر: مؤسسة سيد الشهداء عليه السلام، قم المقدسة، إيران، تاريخ نشر: ١٤٠٧ هـ، الطبعة الأولى.
٧٢. الحلّي، تقي الدين الحسن بن علي بن داود، كتاب الرجال، الناشر: مؤسسة النشر في جامعة طهران، طهران - إيران، سنة النشر: ١٣٨٣ هـ، الطبعة الأولى.
٧٣. الحلّي، العلامة نجم الدين جعفر بن الحسن، شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام، حققه وصححه: عبدالحسين محمد علي بقال، الناشر: مؤسسة إسماعيليان، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٨ هـ، الطبعة الثانية.

٧٤. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، الناشر: دار صادر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٥ م، الطبعة الثانية.
٧٥. الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، الناشر: مكتبة لبنان، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٨٤ م، الطبعة: الثانية.
٧٦. الحنبلي الدمشقي، ابن العماد شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد العكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م، الطبعة الأولى.
٧٧. حيدر، العلامة الشيخ أسد، الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة، الناشر: دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م، الطبعة الثالثة.
٧٨. خسرو شاهي، إعداد وتقديم: السيد هادي، أهل البيت عليهم السلام في مصر، بأقلام: مجموعة من الباحثين، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م، الطبعة الأولى.
٧٩. الخصيبي، أبو عبد الله الحسين بن حمدان، الهداية الكبرى، الناشر: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، سنة النشر: ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م، الطبعة الرابعة.
٨٠. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت أحمد بن مهدي، تاريخ بغداد، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٧ هـ، الطبعة الأولى.
٨١. الخوئي، آية الله العظمى السيد أبو القاسم الموسوي، معجم رجال الحديث، الناشر: مركز نشر الثقافة الإسلامية، قم المقدسة - إيران، سنة النشر: ١٤١٤ هـ، الطبعة الخامسة.
٨٢. الدجيلي، جمع بحوثها: جعفر، موسوعة النجف الأشرف، إشراف: لجنة من رجال الفكر والعلم والأدب، الناشر: دار الأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣ م، الطبعة الأولى.

٨٣. الدّميري، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى، حياة الحيوان الكبرى، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ، الطبعة الثانية.
٨٤. الدّيب، عبدالرحمن بن علي، الفضل المزيّد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، الناشر: مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، سنة النشر: ١٩٨٣ م، الطبعة الأولى.
٨٥. الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، ومراجعة جمال الدين الشيال، الناشر: منشورات الرضي، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٩٨٩ م، الطبعة الأولى.
٨٦. الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، الإمامة والسياسة المعروف بـ(تاريخ الخلفاء)، تحقيق: علي شيري، الناشر: دارالأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠ م، الطبعة الأولى.
٨٧. الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة - مصر، سنة النشر: ١٤٢٣ هـ، الطبعة الأولى.
٨٨. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م، الطبعة الحادية عشرة.
٨٩. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣ م، الطبعة الثانية.
٩٠. الرازي، أبو علي مسكويه، تجارب الأمم، تحقيق: أبو القاسم إمامي، الناشر: دار سروش، إيران - طهران، سنة النشر: ٢٠٠٠ م، الطبعة الثانية.
٩١. الراوندي، الفقيه والمحدث الكبير الشيخ قطب الدين، الخرائج والجرائح، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام - قم المقدسة، إيران، سنة النشر: ١٤٠٩ هـ، الطبعة الأولى.

٩٢. الزبيدي، محب الدين السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، حققه وصححه: علي الشبري، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٤ هـ، الطبعة الأولى.
٩٣. الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الناشر: دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٨٩ م، الطبعة الثامنة.
٩٤. زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، علق عليه: الدكتور حسين مؤنس، الناشر: دار الهلال، مصر - القاهرة، لم يذكر سنة النشر والطبعة.
٩٥. السبحاني، الأستاذ المحقق الشيخ جعفر، بحوث في الملل والنحل دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية، الناشر: مؤسسة الصادق عليه السلام، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٦ هـ، الطبعة الأولى.
٩٦. السبحاني، الأستاذ المحقق الشيخ جعفر، كليات في علم الرجال، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٥ هـ، الطبعة الثانية.
٩٧. السبحاني، بإشراف الأستاذ المحقق الشيخ جعفر، موسوعة طبقات الفقهاء، تأليف: اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، الناشر: دار الأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م، الطبعة الأولى.
٩٨. السياغي، القاضي العلامة شرف الدين الحسين بن أحمد، الروض النضير في شرح مجموع الفقه الكبير، الناشر: مطبعة السعادة، القاهرة - مصر، سنة النشر: ١٣٤٨ هـ، الطبعة الأولى.
٩٩. السيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن، تاريخ الخلفاء، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، الطبعة الأولى.

١٠٠. السيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن، جامع الأحاديث، جمع وترتيب: عباس أحمد صقر، أحمد عبد الجواد، بإشراف: مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق - سورية، لم يذكر سنة النشر ورقم الطبعة.
١٠١. الشافعي، كمال الدين محمد بن طلحة بن الحسن القرشي العدوي النصيبي، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول ﷺ، تحقيق: ماجد أحمد العطية، الناشر: مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، قم المقدسة - إيران، سنة النشر: ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولى.
١٠٢. الشافعي، محمد بن يوسف الكنجي، البيان في أخبار صاحب الزمان ﷺ، (كتاب ملحق بكتاب: كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب ﷺ) تحقيق وتصحيح وتعليق: محمد هادي الأميني، الناشر: دار احياء تراث أهل البيت ﷺ، طهران - إيران، سنة النشر: ١٤٠٤هـ، الطبعة الثالثة.
١٠٣. الشاهرودي، العلامة المحقق الشيخ علي النمازي، مستدركات علم رجال الحديث، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٥هـ، الطبعة الأولى.
١٠٤. الشرقاوي، عبدالرحمن، أئمة الفقه التسعة، الناشر: دار الشروق للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، سنة النشر: ١٤١١هـ، ١٩٩١م، الطبعة الأولى.
١٠٥. الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن حسين الموسوي، ديوان الشريف الرضي، الناشر: منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، إيران - طهران، سنة النشر: ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى.
١٠٦. شلبي، الدكتور أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٨٧م، الطبعة الثانية عشر.
١٠٧. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل،

- تحقيق: أمير علي مهنا، علي حسن فاعور، الناشر: دار المعرفة، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م، الطبعة الثالثة.
١٠٨. الشوشتري، القاضي نور الله، إحقاق الحق وإزهاق الباطل، الناشر: مكتبة آية الله العظمى السيد شهاب الدين المرعشي النجفي، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٩ هـ. ق. الطبعة الأولى.
١٠٩. الصدوق، المحدث الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، الخصال، تصحيح وتحقيق وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٣ هـ، الطبعة الثانية.
١١٠. الصدوق، المحدث الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، كمال الدين، تصحيح وتحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: دار الكتب الإسلامية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٩٥ هـ، الطبعة الثانية.
١١١. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، الوافي بالوفيات، حققه واعتنى به: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، الطبعة الأولى.
١١٢. الطباطبائي، سيد الطائفة محمد المهدي بحر العلوم، رجال السيد بحر العلوم (الفوائد الرجالية)، حققه وعلق عليه: محمد صادق بحر العلوم وحسين بحر العلوم، الناشر: مكتبة الصادق، إيران - طهران، سنة النشر: ١٣٦٣ هـ، الطبعة الأولى.
١١٣. الطبرسي، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل، إعلام الوري بأعلام الهدى، الناشر: دار الكتب الإسلامية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٩٠ هـ، الطبعة الثالثة.
١١٤. الطبرسي، الشيخ أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج، تحقيق وتعليق: السيد محمد باقر الموسوي الخرسان، السيد الناشر: نشر المرتضى، إيران - مشهد المشرفة، سنة النشر: ١٤٠٣ هـ، الطبعة الأولى.

١١٥. الطبرسي، خاتمة المحدثين الشيخ الميرزا حسين النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٨ هـ. الطبعة الأولى.
١١٦. الطبرسي، خاتمة المحدثين الشيخ الميرزا حسين النوري، خاتمة مستدرك الوسائل، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٥ هـ. الطبعة الأولى.
١١٧. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار التراث، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧ م، الطبعة الثانية.
١١٨. الطبرسي، الشيخ محمد جعفر و: المولائي، الشيخ عزت الله، الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، الناشر: مركز الدراسات الإسلامية لمثلية الولي الفقيه في حرس الثورة الإسلامية، طهران - إيران، سنة النشر: ١٤٢٣ هـ، الطبعة الأولى.
١١٩. الطهراني، الشيخ آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، الناشر: إسماعيليان والمكتبة الإسلامية، إيران - طهران، سنة النشر: ١٤٠٨ هـ. الطبعة الأولى.
١٢٠. الطوسي، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، تحقيق وتصحيح: محمد تقي فاضل الميدي، السيد أبو الفضل الموسويان، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، مؤسسة الطباعة والنشر، إيران - طهران، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ، الطبعة الأولى.
١٢١. الطوسي، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن، الفهرست، تحقيق: الشيخ جواد القيومي الأصفهاني، الناشر: مؤسسة نشر الفقاهة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٧ هـ، الطبعة الأولى.
١٢٢. الطوسي، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن، رجال الشيخ الطوسي، تحقيق: الشيخ جواد القيومي الأصفهاني، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي

١٢٣. الطوسي، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن، كتاب الغيبة، الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٥ هـ، الطبعة الأولى.
١٢٤. ظاهر، العلامة الشيخ سليمان، تاريخ الشيعة السياسي، الثقافي، الديني، حققه وضبطه: عبدالله سليمان ظاهر، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، سنة النشر: ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠٢ م، الطبعة الأولى.
١٢٥. العاملي، السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام (المرتضى من سيرة المرتضى)، الناشر: المركز الإسلامي للدراسات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٩ م، الطبعة الأولى.
١٢٦. العاملي، المحقق السيد جعفر مرتضى، دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام، الناشر: مركز جواد، للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م، الطبعة الثالثة.
١٢٧. عرديه، لويس - ج. قناتي، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، نقله إلى العربية: الشيخ الدكتور صبحي الصالح - الأب الدكتور فريد جبر، الناشر: دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٧٩ م، الطبعة الثانية.
١٢٨. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م، الطبعة الأولى.
١٢٩. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، لسان الميزان، تحقيق: دائرة المعارف النظامية - الهند، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م، الطبعة الثالثة.
١٣٠. العلوي، العلامة المحقق السيد محمد بن عقيل، النصائح الكافية، تحقيق

- وتدقيق: غالب الشابندر، راجعه: ع.ح. الخطيب، الناشر: مؤسسة الفجر، لندن - بيروت، سنة النشر: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، الطبعة الأولى.
١٣١. علي، محمد كرد، الإسلام والحضارة العربية، الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٦٨م، الطبعة الثالثة.
١٣٢. علي، محمد كرد، خطط الشام، الناشر: مكتبة النوري، سورية - دمشق، سنة النشر: ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، الطبعة الثالثة.
١٣٣. غالب، الدكتور مصطفى، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، الناشر: دار الأندلس، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٦٥م، الطبعة الثانية.
١٣٤. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي - الدكتور إبراهيم السامرائي، الناشر: منشورات الهجرة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٩هـ، الطبعة الثانية.
١٣٥. فلهورن، يوليوس، تاريخ الدول العربية.. من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، نقله عن الألمانية وعلق عليه: الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده، راجع الترجمة: الدكتور حسين مؤنس، الناشر: لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٦٨م، الطبعة الثانية.
١٣٦. الفيروزآبادي، العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، القاموس المحيط، (نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، الطبعة الأولى.
١٣٧. القائيني، السيد أبو طالب الحسيني، اللؤلؤة الغالية في أسرار الشهادة، تحقيق: جعفرى، الناشر: مديرية الأوقاف والأموال الخيرية - طهران، انتشارات أسوة، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٧هـ، الطبعة الأولى.
١٣٨. القرشي، الداعي إدريس عماد الدين، زهر المعاني، تقديم وتحقيق: الدكتور مصطفى غالب، الناشر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، سنة النشر: ١٤١١هـ - ١٩٩١م، الطبعة الأولى.

١٣٩. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، الإمام الحسن العسكري عليه السلام
دراسة وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة
والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م، الطبعة الأولى.
١٤٠. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، الإمام الحسن بن علي عليه السلام دراسة
وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر،
سنة النشر: ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م، الطبعة الأولى.
١٤١. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، الإمام الحسين بن علي عليه السلام دراسة
وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر،
سنة النشر: ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م، الطبعة الأولى.
١٤٢. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام
دراسة وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة
والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م، الطبعة الأولى.
١٤٣. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، الإمام علي الهادي عليه السلام دراسة
وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر،
سنة النشر: ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م، الطبعة الأولى.
١٤٤. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، الإمام علي بن الحسين عليه السلام دراسة
وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر،
سنة النشر: ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م، الطبعة الأولى.
١٤٥. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، الإمام علي بن موسى عليه السلام دراسة
وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر،
سنة النشر: ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م، الطبعة الأولى.
١٤٦. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، الإمام محمد الباقر عليه السلام دراسة
وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر،
سنة النشر: ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م، الطبعة الأولى.
١٤٧. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، الإمام محمد الجواد عليه السلام دراسة

- وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.
١٤٨. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، الإمام موسى بن جعفر عليه السلام دراسة وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.
١٤٩. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، زيد بن علي عليه السلام دراسة وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.
١٥٠. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، الشهيد الخالد.. مسلم بن عقيل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار معروف للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى.
١٥١. القرشي، العلامة الشيخ باقر شريف، المختار الثقفي دراسة وتحليل، تحقيق: مهدي باقر القرشي، الناشر: دار الذخائر الإسلامية، سنة النشر: ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م، الطبعة الرابعة.
١٥٢. القزويني، العلامة الخطيب السيد محمد كاظم، الإمام المهدي عليه السلام من المهد إلى الظهور، الناشر: منشورات مؤسسة النور للمطبوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، الطبعة الأولى.
١٥٣. القلقشندي، القاضي شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، لم يذكر سنة النشر.
١٥٤. القلقشندي، القاضي شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد، مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، الناشر: عالم الكتب، لبنان - بيروت، لم يذكر سنة النشر.
١٥٥. القمي، المحدث الشيخ عباس، منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل عليهم السلام، و: تنمة المنتهى، ترجمة: نادر تقي، الناشر: محبين، توزيع: مكتبة فذك -

مكتبة الصفا، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، الطبعة الثالثة.

١٥٦. الفيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، الناشر: دار الجليل، لبنان - بيروت، لم يذكر سنة الطبع.

١٥٧. القندوزي، العلامة الفاضل الشيخ سليمان بن الشيخ إبراهيم البلخي، ينباع المودة، صححه وعلق عليه: علاء الدين الأعلمي، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، سنة النشر: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

١٥٨. الكاظمي، العلامة المحقق الشيخ عبد النبي، تكملة الرجال، تحقيق وتقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم، الناشر: دار أنوار الهدى، سنة النشر: ١٤٢٥هـ، الطبعة الأولى.

١٥٩. الكاظمي، المولى المقدس محمد أمين، هداية المحدثين إلى طرائق المحمدين، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، باهتمام: السيد محمود المرعشي، الناشر: منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى.

١٦٠. الكردي، الإمام حافظ الدين محمد بن شهاب المعروف بابن البزاز، مناقب الإمام الأعظم أبو حنيفة، الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند - حيدر آباد، سنة النشر: ١٣٢١هـ، الطبعة الأولى.

١٦١. الكليني، المحدث الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي، (الأصول والفروع والروضة)، الناشر: دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، سنة النشر: ١٣٦٥هـ. ش. الطبعة الأولى.

١٦٢. الكوفي، أبو محمد أحمد بن أعثم، الفتوح، تحقيق: علي شيري، الناشر: دارالأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١١هـ، ١٩٩١م، الطبعة الأولى.

١٦٣. لکهنوي، مير حامد حسين، عبقات الأنوار في إمامة الأئمة الأطهار عليه السلام،

- الناشر: كتابخانه عمومی إمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، إيران - أصفهان،
سنة النشر: ١٤٠٨ هـ، الطبعة الثانية.
١٦٤. الليثي العصفري، أبو عمرو الخليفة بن خياط بن أبي هبيرة الملقب بشباب،
تاريخ الخليفة بن خياط، تحقيق: فواز، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان
- بيروت، سنة النشر: ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م، الطبعة الأولى.
١٦٥. الليثي، الدكتورة سميرة مختار، جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول، وثق
أصوله وحققه وعلق عليه: الأستاذ سامي الغريزي (الغراوي)، الناشر:
انتشارات كلمة الحق، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م،
الطبعة الأولى.
١٦٦. المازندراني، الرجالي الخبير الشيخ محمد بن إسماعيل (أبو علي الحائري)،
منتهى المقال في أحوال الرجال، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام
لإحياء التراث، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤١٦ هـ، الطبعة الأولى.
١٦٧. المازندراني، رشيد الدين محمد بن شهر آشوب، معالم العلماء، الناشر:
منشورات المطبعة الحيدرية، العراق - النجف الأشرف، سنة النشر:
١٣٨٠ هـ، الطبعة الأولى.
١٦٨. المازندراني، رشيد الدين محمد بن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، تحقيق
وتصحيح وتعليق: الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الناشر: مؤسسة
العلامة للنشر، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٣٧٩ هـ، الطبعة الأولى.
١٦٩. المجلسي، العلامة المولى الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار
الأئمة الأطهار، الناشر: مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، سنة النشر:
١٤٠٤ هـ، الطبعة الرابعة.
١٧٠. محفوظ، الدكتور محمود محمد، ومجموعة من الخبراء والعلماء، الموسوعة
العربية الميسرة، الناشر: الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية،
مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٩ م، الطبعة الثالثة.
١٧١. محمدي، عبد الله، و: رحيمان، محمد حسين، الحقائق من الصواعق،

الناشر: دليل ما، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ، الطبعة الأولى.
١٧٢. المزي، الحافظ المتقن جمال الدين أبي الحجاج يوسف، تهذيب الكمال في
أسماء الرجال، حققه وضبط نصّه وعلق عليه: الدكتور بشار عواد معروف،
الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م،
الطبعة الأولى.

١٧٣. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن
الجواهر، تحقيق: أسعد داغر، الناشر: دار الهجرة، إيران - قم المقدسة، سنة
النشر: ١٤٠٩ هـ، الطبعة الثانية.

١٧٤. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، التنبيه والإشراف، تصحيح: عبدالله
إسماعيل الصاوي، الناشر: دار الصاوي، مصر - القاهرة، مجهولة التاريخ.
١٧٥. المظفر، العلامة الشيخ محمد حسين، تاريخ الشيعة، الناشر: دار الزهراء
للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧ م، الطبعة
الثانية.

١٧٦. المفيد، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان، الاختصاص، الناشر: المؤتمر
العالمي لألفية الشيخ المفيد، إيران - قم المقدسة، سنة النشر ١٤١٣ هـ،
الطبعة الأولى.

١٧٧. المفيد، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد في معرفة حجج الله على
العباد، الناشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، إيران - قم المقدسة، سنة
النشر ١٤١٣ هـ، الطبعة الأولى.

١٧٨. المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،
الناشر: مكتبة مدبولي، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤١١ هـ، الطبعة
الثالثة.

١٧٩. المقدسي، مطهر بن طاهر، البدء والتاريخ، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية،
مصر - بور سعيد، مجهولة التاريخ.

١٨٠. المقرم، العلامة الحجة السيد عبدالرزاق الموسوي، زيد الشهيد - تنزيه

- المختار، الناشر: المكتبة الحيدرية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٢٧ هـ، الطبعة الأولى.
١٨١. المقرم، العلامة الحجة السيد عبدالرزاق الموسوي، الشهيد مسلم بن عقيل، الناشر: مكتبة الألفين، الكويت، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ، الطبعة الأولى.
١٨٢. المقريري، تقي الدين أحمد بن علي، اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦ م، الطبعة الثانية.
١٨٣. المقريري، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريرية)، تحقيق: الدكتور محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، راجعه وضبط هوامشه: أحمد أحمد زيادة، الناشر: مكتبة مدبولي، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٩٧ م، الطبعة الأولى.
١٨٤. المقريري، تقي الدين أحمد بن علي، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تحقيق: الدكتور حسين مؤنس، الناشر: دار المعارف، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٩٨٨ م، الطبعة الأولى.
١٨٥. المقريري، تقي الدين أحمد بن علي، إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م، الطبعة الأولى.
١٨٦. الملطي، غريغوريوس المعروف بابن العبري، تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، الناشر: دار الشرق، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٢ م، الطبعة الثالثة.
١٨٧. المؤلف مجهول (ق ٣)، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق: عبد العزيز الدوري، و: عبد الجبار المطليبي، الناشر: دار الطليعة، لبنان - بيروت، سنة ١٣٩١ هـ، الطبعة الأولى.

١٨٨. المؤيدي، الإمام الحجة مجد الدين بن محمد، التحف في شرح الزلف، الناشر: منشورات مكتبة أهل البيت عليه السلام للدراسات الإسلامية، اليمن - صنعاء، سنة النشر: لم يذكر تاريخ النشر.
١٨٩. الميانجي، آية الله على الأحدي، مكاتيب الرسول ﷺ، الناشر: دار الحديث، طهران - إيران، سنة النشر: ١٩٩٨م، الطبعة الأولى.
١٩٠. النجاشي، الرجالي الخبير أحمد بن علي بن أحمد بن العباس، رجال النجاشي، تحقيق: آية الله السيد موسى الشبيري الزنجاني، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية، إيران - قم المقدسة، سنة النشر: ١٤٠٧ هـ، الطبعة الأولى.
١٩١. النجفي، الحبر العلم الحجة الشيخ عبدالحسين أحمد الأميني، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م، الطبعة الأولى.
١٩٢. النجفي، المؤرخ الشهير السيد حسين بن السيد أحمد البراقي، تاريخ الكوفة، حرّره وأضاف إليه: العلامة السيد محمد صادق بحر العلوم، الناشر: دار الأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٧ هـ، الطبعة الرابعة.
١٩٣. النجفي، الشيخ محمد حسن، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، حققه وصححه: عباس قوجاني، علي آخوندي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٤ هـ، الطبعة السابعة.
١٩٤. النديم، محمد بن اسحاق، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، تحقيق: رضا تجدد بن علي الحائري المازندراني، لم يذكر اسم الناشر وتاريخ النشر.
١٩٥. النشار، الدكتور علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الناشر: دار المعارف، القاهرة - مصر، لم يذكر تاريخ النشر، الطبعة الثامنة.
١٩٦. نعنعي، الدكتور عبدالمجيد، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس - التاريخ

- السياسي، الناشر: دار النهضة العربية، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٩٨٦م، الطبعة الأولى.
١٩٧. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، مصر - القاهرة، سنة النشر: ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى.
١٩٨. النيسابوري، الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، حققه وصححه ورقمه: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - مصر، سنة النشر: ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤م، الطبعة الأولى.
١٩٩. الهاشمي، الإمام علي بن أبي طالب القرشي، نهج البلاغة، جمع وترتيب: السيد محمد بن الحسين الموسوي (السيد الرضي)، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية الدكتور: صبحي الصالح، الناشر: دار الهجرة للنشر، إيران - قم المقدسة، لم تذكر سنة النشر.
٢٠٠. الهاشمي، الدكتور محمد يحيى، الإمام الصادق عليه السلام ملهم الكيمياء، الناشر: دار الأضواء، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، الطبعة الأولى.
٢٠١. الهمداني، حميد بن أحمد بن محمد الصنعاني، الخدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، الناشر: مكتبة بدر، اليمن - صنعاء، سنة النشر: ١٤٢٣هـ، الطبعة الأولى.
٢٠٢. الهمداني، أبو عبد الله أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه، كتاب البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، الناشر: عالم الكتب، لبنان - بيروت، سنة النشر: ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، الطبعة الأولى.
٢٠٣. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب واضح (الكاتب العباسي)، تاريخ اليعقوبي، الناشر: دار صادر، لبنان - بيروت، مجهولة التاريخ.

٦٠٨ التاريخ الإسلامي .. دروسٌ وعبر

٢٠٤ . يعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب واضح (الكاتب
العباسي)، البلدان، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، سنة
النشر: ١٤٢٢هـ الطبعة الأولى.

المحتويات

٧.....	مقدمة الناشر
١١.....	مقدمة الطبعة المحققة
١٥.....	مقدمة الطبعة الخامسة
١٧.....	الباب الأول: مدخل لدراسة التاريخ الرسالي
١٩.....	لماذا ندرس التاريخ؟
١٩.....	فهم التاريخ ضرورة لفهم الشريعة
٢٢.....	التاريخ ينبوع الحضارة
٢٢.....	من أجل اللحاق بركب الحضارة
٢٤.....	التاريخ بين السلطة والثورة
٣٥.....	كيف يجب أن ندرس التاريخ؟
٣٦.....	الرؤية التاريخية تصنع شخصية الأمة
٣٧.....	دراسة التاريخ ككائن حي
٤٠.....	التاريخ يعلمنا السنن الإلهية
٤١.....	الثورة بين العلويين والعباسيين
٤٧.....	نشوء الحركة الرسالية
٤٨.....	أولاً: طبيعة النظام الأموي
٤٩.....	تنامي الحزب الأموي
٥٢.....	بناء الجيش الأموي

٥٤	مستشار رومي للاستخبارات العسكرية
٥٥	ضحالة الوعي السياسي في الشام
٥٨	ثانياً: طبيعة الحركات الرسالية.....
٥٨	الوضع الاجتماعي في الكوفة.....
٦١	القاعدة الاجتماعية للحركات الرسالية.....
٦٢	حركة الفقهاء والعُباد.....
٦٤	حركة السياسيين والعسكريين:.....
٦٥	أهداف الحركات السياسية.....
٦٩	الحركة الرسالية امتداد لحركة الأنبياء ﷺ
٧٠	تنمية الضمير الديني.....
٧١	تنظيم حياة الإنسان.....

٨١..... الباب الثاني: مسيرة الحركة الرسالية في العهد الأموي

٨٣	الفصل الأول: سيرة وحياة الإمام السجاد ﷺ
٨٥	عصر الإمام السجاد ﷺ دراسة وتحليل
٨٦	أهداف الحركة الرسالية
٨٧	السلطة السياسية بنت الحالة الاجتماعية
٨٨	زرع حب الحرية في النفوس
٨٩	بناء الإنسان هدف الأنبياء وبرنامج الأئمة
٩٠	الفرق الأساس بين حركة العباسيين وحركة العلويين
٩١	الحركة الرسالية ضمان بقاء الإسلام.....
٩٢	الصحيفة السجادية زبور الحركة الرسالية.....
٩٩	وضع الدولة الإسلامية في عصر الإمام السجاد ﷺ
١٠٣	أولاً: الأزمة السياسية.....
١٠٥	ثانياً: الأزمة الخلقية.....
١٠٩	ثالثاً: الأزمة الفكرية.....
١١١	رابعاً: الأزمة الاجتماعية.....

الإمام السجاد يزرع روح الإيمان في الأمة	١١١
الفصل الثاني: الحركة الرسالية في عهد الإمام السجاد <small>عليه السلام</small>	١١٧
ثورة التوابين.. ثورة استشهادية	١١٩
عند قبر الحسين <small>عليه السلام</small>	١٢٠
أسباب فشل ثورة التوابين سياسياً	١٢٥
ثورة المختار بين الانتصار والهزيمة	١٣٣
الخلافات الداخلية بين الرساليين	١٣٤
العلاقة بين الأئمة والثورات	١٣٧
الأئمة <small>عليهم السلام</small> في رأس الهرم القيادي	١٤١
المختار يدعو إلى الرضا من آل محمد <small>عليهم السلام</small>	١٤٢
الإمام زين العابدين <small>عليه السلام</small> والثورة الثقافية	١٤٩
الفصل الثالث: الحركات السياسية في زمن الدولة الأموية	١٥٣
الوضع السياسي في عهد عبد الملك بن مروان	١٥٥
حياة عبد الملك بن مروان	١٥٥
قراءة في مسار الحركات السياسية	١٦١
أولاً: حركة الخوارج	١٦٢
ثانياً: حركة الزبيريين	١٦٥
كيف ولماذا سقط ابن الزبير؟	١٦٧
ثالثاً: حركة أهل المدينة	١٦٧
أسباب فشل حركة أهل المدينة	١٦٨
الإمام زين العابدين وحركة أهل المدينة	١٧٠
ماذا قدمت الحركات للأمة الإسلامية؟	١٧١
الفصل الرابع: الحركة الرسالية في عهد الإمامين الصادقين <small>عليهم السلام</small>	١٧٧
الحركة الزيدية.. منطلقاتها وأهدافها	١٧٩
زيد يخطط لحركته الرسالية	١٨٠
الظروف تستعجل زيدا	١٨١

- ١٨٥ زيد يتخذ من الكوفة منطلقاً لثورته
- ١٨٧ انطلاق الثورة.....
- ١٨٨ الوالي يعلن الاستنفار.....
- ١٩٥ الحركة الرسالية بين زيد والإمامين الصادقين عليه السلام
- ١٩٦ الخلفية الثقافية والإحساس بالحاجة إلى الثورة.....
- ١٩٩ علم الإمام الباقر لسعادة الإنسانية
- ٢٠٠ الإمام الباقر يواجه الأفكار التبريرية.....
- ٢٠١ الفكر الرسالي هو الفهم الصحيح للإسلام
- ٢٠٢ حركة زيد بن علي والإمام الصادق عليه السلام
- ٢٠٤ الإمام الرضا عليه السلام يُثني على زيد بن علي
- ٢٠٥ الإمام الصادق عليه السلام ينعي عمه زيداً عليه السلام
- ٦٠٢ كبار الفقهاء يؤيدون حركة زيد عليه السلام
- ٢٠٧ الإمام الصادق يتمنى لو كان مع زيد عليه السلام
- ٢١٣ أبناء زيد وامتداد الحركة الزيدية في التاريخ
- ٢١٣ حركة يحيى بن زيد.....
- ٢١٤ العمل العسكري درع الحركة الرسالية.....
- ٢٢١ استشهاد يحيى بن زيد عليه السلام وسقوط بني أمية
- ٢٢٤ الحسين بن زيد.....
- ٢٢٤ يحيى يقود ثورتين.....
- ٢٢٥ يحيى يستولي على السلطة في الكوفة.....
- ٢٢٦ قوات العباسيين تهزم يحيى
- ٢٢٧ عيسى بن زيد.....
- ٢٣١ وفاة عيسى بن زيد
- ٢٣٩ سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية
- ٢٤٠ الجيش القائم على العطاء
- ٢٤١ حلفاء النظام الأموي طائفة من المرتزقة

العباسيون خلفاء النظام الأموي ٢٤٣

تحول القيادة إلى العباسيين ٢٤٤

أسباب نجاح حركة العباسيين ٢٤٩

الإمام الصادق ودوره في التحولات ٢٥١

الباب الثالث: مدخل إلى واقع الحركة الرسالية في العهد العباسي ٢٥٥

الحركة الرسالية في عصر الإمام الصادق عليه السلام ٢٥٧

حركة محمد ذي النفس الزكية ٢٥٩

فلسفة الغيبة عند الثوار ٢٦١

التجسس على الحركة ٢٧٠

أبناء الحسن يتوارثون لواء المعارضة ٢٧٣

حركة الزيدية تفضح العباسيين ٢٧٤

حركة الحسين صاحب فخ ٢٧٤

أخطاء حركة (فخ) ٢٧٦

إدريس وريث حركة (فخ) ٢٧٧

يحيى بن عبد الله يتابع مسيرة إخوته ٢٧٩

كيف كان الإمام الصادق عليه السلام يوجه الأمة ٢٨٥

شمولية توجيه الأئمة ٢٨٥

موقف تجاه كل حدث ٢٨٦

الثقة دعامة ثابتة في قيادة الأئمة ٢٨٨

حركة إسماعيل ابن الإمام الصادق ٢٩٢

أئمة أهل البيت والصراع السياسي في الأمة ٢٩٨

الباب الرابع: مسيرة الحركة الرسالية في العهد العباسي ٣٠٣

الفصل الأول: الحركة الرسالية في عهد الإمام الكاظم عليه السلام ٣٠٥

سيرة وحياة الإمام الكاظم عليه السلام ٣٠٧

الحركة الرسالية دولة داخل دولة ٣١٣

٣١٤	سعي السلطات العباسية لكشف الحركة الرسالية
٣٢١	حياة الإمام الكاظم <small>عليه السلام</small> في السجن
٣٢٧	الرسالين في عهد الإمام الكاظم <small>عليه السلام</small>
٣٣٢	استقامة إسماعيل ابن الإمام الصادق <small>عليه السلام</small>
٣٣٧	قوة الحركة الإسماعيلية
٣٤٣	دور الإمام الكاظم <small>عليه السلام</small> في الحركة الرسالية
٣٤٣	الترف في العصر العباسي
٣٤٦	لماذا قام العلويون بحركات استشهادية ؟
٣٤٧	الإمام <small>عليه السلام</small> يبعث الروح في الأمة
٣٤٩	هارون الرشيد يعتقل الإمام
٣٥٠	الإمام <small>عليه السلام</small> ينشد تغييراً حقيقياً
٣٥١	دولة الأدارسة
٣٥٩	تطور الحركة الإسماعيلية
٣٦٢	رسائل إخوان الصفا .. منهج فكري للحركة
٣٦٣	منهج الغيبة عند الإسماعيلية
٣٦٥	علاقة الإسماعيلية بأئمة أهل البيت <small>عليهم السلام</small>
٣٧٢	الحركة الإسماعيلية وإشراف الأئمة
٣٧٣	الإسماعيلية بين الباطنية والتأويل
٣٨٣	الفصل الثاني: الحركة الرسالية في عهد الإمام الرضا <small>عليه السلام</small>
٣٨٥	سيرة الإمام الرضا <small>عليه السلام</small> ودوره في الحركة الرسالية
٣٨٥	تنامي الحركة الرسالية
٣٨٥	الحركة الرسالية حركة متنامية
٣٨٦	حياة الإمام الرضا <small>عليه السلام</small> فاتحة عهد جديد
٣٩١	أولاً: قوة المعارضة
٣٩٤	ثانياً: شخصية الإمام الرضا <small>عليه السلام</small>
٣٩٥	ثالثاً: تهالك السلطة

٣٩٦	رابعاً: الظلم المتزايد
٣٩٧	خامساً: ضعف السلطة المركزية
٣٩٨	سادساً: انحطاط النظام
٣٩٨	سابعاً: الدويلات المستقلة
٤٠٠	ثورة أبي السرايا
٤٠٢	العباسيون يواجهون الثورة
٤٠٥	هزيمة عبدوس
٤٠٦	وفاة محمد بن إبراهيم
٤٠٧	انتخاب محمد بن زيد قائداً للثورة
٤٠٨	محمد بن زيد يُعين الوكلاء
٤٠٩	هرثمة يقود جيوش العباسيين
٤١٤	السحر ينقلب على الساحر
٤١٥	أسباب قبول الإمام الرضا بولاية العهد
٤٢٩	دور الإمام الرضا <small>عليه السلام</small> السياسي والثقافي في الأمة
٤٣١	انتشار الترجمة في زمن المأمون
٤٣٣	دور الإمام الرضا <small>عليه السلام</small>
٤٣٤	الإمام يناظر أصحاب المقالات
٤٤٩	الفصل الثالث: الحركة الرسالية في عهد الإمام الجواد <small>عليه السلام</small>
٤٥١	الإمام الجواد <small>عليه السلام</small> ومسألة الإيمان بالغيب
٤٥١	بين حصر الغيب وإطلاقه
٤٥٤	الإمام الصادق ملهم الكيمياء
٤٥٥	الإمام الجواد والإلهام الإلهي
٤٥٩	لماذا اغتال المعتصم الإمام الجواد <small>عليه السلام</small> ؟
٤٦٥	عهد الإمام الجواد <small>عليه السلام</small> وانتشار الحركة الرسالية
٤٦٦	قصة زواج الإمام الجواد <small>عليه السلام</small>
٤٧٠	لماذا صاهر الإمام الخليفة؟

٤٧٤	ثورة محمد بن القاسم
٤٨٠	بركة الإمام الجواد <small>عليه السلام</small>
٤٨١	العسكر يسيطرون على السلطة
٤٩١	الفصل الرابع: الحركة الرسالية في عهد الإمام الهادي <small>عليه السلام</small>
٤٩٣	الإمام علي الهادي <small>عليه السلام</small> وقيادة الأمة
٥٠٥	أولاً: قيادة الحركة الرسالية
٥٠٨	ثانياً: التصدي للتيارات الفكرية المنحرفة
٥١٧	واقع الحركة الرسالية في عهد الإمام الهادي <small>عليه السلام</small>
٥١٨	حياة أحمد بن عيسى
٥٢٣	حياة عبد الله بن موسى
٥٣١	الفصل الخامس: الحركة الرسالية في عهد الإمام العسكري <small>عليه السلام</small>
٥٣٣	الإمام العسكري <small>عليه السلام</small> وقيادة الأمة
٥٣٣	الإمام العسكري وتحديد ملامح القيادة
٥٤١	واقع الحركة الرسالية في عهد الإمام العسكري
٥٥١	الخاتمة
٥٥٣	كيف نقرأ تاريخ الحركة الرسالية؟
٥٦٣	تأثير الحركة الرسالية على الحضارة الإنسانية
٥٦٣	نظرة عامة في الدولة الإسلامية
٥٦٤	الخراج
٥٧١	الحرب بين الشمال والجنوب
٥٧٢	الفساد الإداري والمحسوبيات
٥٧٤	الإرهاب الفكري
٥٧٥	دور الحركات الرسالية
٥٨٣	قائمة المصادر والمراجع في التحقيق
٦٠٩	المحتويات